
خاتم النبيين
محمد صلى الله عليه وآله وسلم

ISBN 9953 - 0 - 0399 - 8

دار الكتاب المصرى
٣٣ شارع قصر النيل ـ القاهرة ج.م.ع.
تلفون: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١ ـ فاكسميلي: ٣٩٢٤٦٥٧(٢٠٢)
ص.ب.: ١٥٦ ـ عتبه ـ الرمز البريدي: ١١٥١١ ـ برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشرين

دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كوري ـ مقابل فندق البريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ ـ ٧٣٥٧٣٢ ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣(٩٦١١)
برقياً: داكلبان ـ ص.ب.: ٨٣٣٠/ ١١ ـ بيروت ـ لبنان
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

الطبعة الرابعة الجديدة والمتجددة
منقحة ومزيدة
١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م

Fourth Edition
A.D. 2006 - H. 1427

خاتم النبيين

محمد صلى الله عليه وآله وسلم

٢

مجمع البيان الحديث

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا

بالحُبِّ الرَّاسخ، وَالتقدير البَالِغ، اللَّذَيْن أَوْدَعهُمَا اللّهُ سُبحَانه في قُلوب أَهْلِ المدينَة، وبفعل إِيمَانِهِم الصَّادِق باللّهِ وَرَسُولِه، انطَلَقت من الأفئدة والحناجر هَذِهِ الأنشودَةُ الإيمانية، عِندَمَا طَلَعَ عَلَيْهِم الرَسُولُ الكَرِيمُ بِوَجْهِهِ البَهِيّ، الذي أَنَارَ أَرْجَاءَ يَثرِب، فَدُعِيَت مُنْذُ دُخولِهِ إِلَيْهَا وَحُلُولِه في رِحَابِهَا: «المدينَةَ المُنَوّرَة».

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاع[1]
وَجَبَ الشُّكْر عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلّهِ دَاع
أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاع
جِئتَ بِالخَيرِ إلينَا مَرْحَباً يَا خَيْرَ دَاع

فَالكَلِمَةُ التي تستسيغُها النفس وتنفذُ إلى القَلْبِ تكونُ صادِرَةً عَنِ القَلْب، والكَلِمَةُ التي لا تَتَجاوزُ الآذان تكُون آتيةً من اللسَان، والكلمة التي تَنْبَعُ مِنْ القَلب تَخْرُجُ مَصحُوبَةً بِمَشَاعِر المُتَكَلِّم، فَيتأَثَّرُ السَّامِعُ بوَهْجِ تَعبيرها وَيَسْتَشْعِرُ بإِخْلَاص صَاحِبها، وإِيمَانه بِهَا.

وَلقد تَأَثَّرَ الرَسُولُ الكَرِيمُ بِهَذَا الاسْتِقْبَال المُثِير الذي حَرَّكَ مَشَاعِرهُ النَّبيلَة نَحْوَ أَهْلِ المَدِينَة، فَأَطْمَأنَّ إِلَيهِم، وَرَضِي عَنْهُم.

---

(١) الوداع: المدرج الذي يُنزل منه إلى بئر عروة بالجنوب الغربي من المدينة يُسمى بثنية الوداع. والثنية عامةً هي الطريق، وتعني هنا طريق الوداع.

الفصل الرابع

إنشاء الدولة الإسلامية

بين مكة ويثرب:

. . . ودخل رسولُ الله ﷺ مدينةَ يثربَ . .

وكان دخوله نقطة تحوّلٍ لتاريخ جديدٍ يفصل بين مقوّمات الوجود الأرضي كله . . .

أما البداية فكانت يومَ أن اتَّخذ سيد الخلق محمد ﷺ قراره بالارتحال عن مكة، فطوى التاريخ صفحاته القديمة، واستأنف مسيرته بين يدي صاحب القرار، حتى بلغ يثرب، فأناخ التاريخ رحاله، ليسطِّر صفحات جديدة في عمر الزمان، كانت أحداثها انطلاقةً لعهود يجب أن تعرفها البشرية على حقيقتها، حتى تكون نوراً هادياً للفكر الإنساني، ما بقي الإنسان في مسيرته على هذه الأرض، وطالما أدرك ـ وتذكَّر ـ بأنه سيترك يوماً هذه الحياة، ليلقى ربَّه وخالقه في نهاية المطاف.

ووقف التاريخ يتأمل فيما حوله، فإذا هو يرى في يثرب كلَّ شيء مختلفاً. . . فبالأمس كان يرقب في مكة حياة مغايرة تماماً، كانت في جُلِّها باهتة، جدباء مقفرة. . ولولا أن جعلَ الله سبحانه في أم القرى آيته الخالدة، الكعبة الشريفة، لما كان لأحدٍ أن يطيق البقاء

فيها، أو أن يتخذها موطناً له.. ذلك أن مكة في موقعها الجغرافي ليست أكثر من واد مقفر، أحاطت به الجبال من كل جانب، فحصرته بشدة، وضيّقت عليه الخناق، حتى لتكاد تلك الجبال تتلاصق، أو يتصل بعضُها ببعض من نواحي الشرق والغرب والجنوب... ويزيد في قساوة بقعتها، أنها عبارة عن أرض صخرية صلبة، لا تتيح للزرع أن ينبت إلا فيما ندر، ولا للشجر أن ينمو إلَّا فيما قلَّ. وهو على ندرته من حواليها لا يظهر إلَّا باديَ الضمور كما يشاهَدُ في نبات السِّباخ والبوادي. ويكاد يقتصر الزرعُ في مكة على ما تجود به الأرض الصحراوية من نخيل وأراك...

ويبدو الجفاف الذي يصيب مكة من قلَّة المطر الذي لا يألف النزول في تلك الناحية، مما يُبقي الماء فيها شحيحاً، وهو على شُحِّه كثيرُ الملوحة، اللهم إلَّا ماءَ زمزم، فإنه يحتفظ أبداً بميزة العذوبة، وانبجاسه من بئر ضاربة في عمق الزمان، لا تنضب؛ حتى أنَّ وجوده في تلك البقعة يُعَدُّ معجزةً من المعجزات التي أرادها الله ـ سبحانه ـ باقيةً إلى الأبد، لتذكر الناس بعهد هذه البئر، وبما لأصحابها، ولمائها من مكرُمةٍ عند خالقهم..

ويتلاقى الجدب وشُحُّ المطر مع قلة ارتفاع مكة عن سطح البحر، بما لا يزيد على ثلاثمائة وثلاثين متراً، مما جعلَ جوَّها، بفعل تلك العواملِ الطبيعيةِ مشحوناً بشدة الحرارة، وأرضَها مغطاةً بالرمضاء اللاهبة..

أما هنا في المدينة، فالأجواء تختلف كلّياً، لأنها بلد يقوم في واد منبسط فسيح، تكثر فيه الحدائق الغنّاء، وهي تحيط بمنازل ساكنيه، وتنتشر فيه البساتين التي تحفل بالأشجار الباسقة لتملأ

الأماكن ظلالًا وارفة، وتتفرَّق الينابيع وعيون المياه العذبة، في مختلف الجنبات لتغطيها بالاخضرار والنضارة، ولتجعلها على امتداد فترات طويلة من السنة غنيةً بالثمرات والخيرات، مشبعةً بطيب الهواء واعتدال الجو..

وهكذا اختلفت الطبيعةُ بين البلدين اختلافاً كبيراً في الموقع والمناخ، وفي الخصب والجدب، كما في سهولة الأرض وحزونتها (غلظتها)، وفي عذوبة المياه وملوحتها، بل في مختلف مشاهدها وظواهرها.. ولكنَّ شيئاً واحداً، كانت تشترك فيه مكة والمدينة، وهو الصبغة العربية، التي تصبغ البيئة الاجتماعية، وأنماط العيش، وتشابه الظروف والأوضاع الحياتية.

وعلى الرغم من هذا التقارب بين البلدين في بعض الجوانب، فإن الاختلاف ليس في ظواهر الطبيعة وحدها، بل وبين العناصر البشرية التي كانت تقيم في هذا البلد أو ذاك..

فأهل مكة كانوا في كثرتهم الساحقة من العرب، ومن قبيلة قريش بالذات، التي سادت القبائل العربية بفضل سدانتها للبيت العتيق، وبجهود رجالات عاشوا في هذا البلد، وكانوا في أيامهم من ذوي الحكمة والحنكة في تدبير شؤون القوم أمثال: قصيّ، وهاشم، وعبد المطلب، وأبي طالب.. فقصيٌّ مجمّعُ قريش وأمير مكة، وهاشم أولُ من أطعم الثريدَ بمكة، وأولُ من سنَّ رحلتي الشتاء والصيف[1] وهو الذي دفع أهل مكة للدأب على أعمال التجارة حتى برعوا فيها.. ولاقت ازدهارها الواسع فازدهرت كثيراً بتسيير القوافل

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١٤٣.

إلى بلاد اليمن، وبلاد الشام، وأدت إلى جني الأرباح الوفيرة التي عَوّضت عليهم قساوة الطبيعة وشحَّها. غير أنها في الوقت نفسه، أثّرت على أخلاقهم، فأفسدتها وزادت في إفسادها، بل أعْمت عقولهم وزادت في جهالتها. لقد أبطرتهم النعمة، وأضلهم اليسار وتزاحم الأقدام حول البيت العتيق، مما جعل تلك العقول تجمد على الوثنية، وترفض نور الدعوة الإسلامية التي بُعث بها أحد أبنائهم هدايةً من الله تعالى لهم، وللعالمين أجمعين.. ثم يؤدي بهم هذا الرفض ـ أخيراً ـ إلى تهجيره ليعيش ردحاً من حياته السامية بين ظهراني أهل المدينة، الذين، وإن جمعت بينهم وبين المكيين بعض عادات البادية وتقاليدها، إلَّا أنهم كانوا يختلفون عنهم في تركيبهم المجتمعي، وفي نمط حياتهم المعيشي..

فأهل المدينة كانوا، في الأصل، من مهاجري اليمن التي كانت تمتلك شيئاً من الحضارة البدائية في قديم الزمان. فهم ليسوا أعراباً لتكون قلوبهم قاسية، وليس لهم ثمة زعاماتٌ ومصالحُ خطيرة في المنطقة، كما كان الحال بالنسبة لقريش نتيجة لموقعها في زعامة مكة[1] وحجابة البيت. وقد توزع أولئك العرب إلى قبيلتين كبيرتين: الأوس والخزرج، حتى دخل اليهود بلدهم فتوزعت العناصر البشرية إلى عنصرين متميّزين: العنصر العربي، والعنصر اليهودي.. وقد نجح اليهود مع الوقت، لشدة ما يمتلكون من خبث ودهاء، في بذر العداوة البغيضة، وغرس الوقيعة القاتلة بين الأوس والخزرج، فحلَّ بينهم الخصامُ الدائم، وانعدمت الأُلفة والمودة، حتى شاعت الشحناء وسادت البغضاء في النفوس..

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٣ ص ٣٤٣.

وكانت نتائج ذلك كله حروباً شديدةً، وأياماً مشهورة، ووقائع مذكورة، تحدّث فيها الرواة مفصحين عما أدت إليه من سفك دم، وهدر مال، وتبديد طاقة. ثم ظلت قائمة على هذا المنوال حتى يوم بُعاث: أي إلى ما قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بخمس سنوات.. ويُعَدُّ يوم بعاث بعينه من أيامهم المريرة المهلكة، لمَا كان له من أثر حاسم على القبيلتين، إذ دارت الدائرة فيه في أول الأمر على الأوس، فولَّوْا فراراً نحو نجد، فعَيّرتهم الخزرج، فلما سمع حضير (رئيس الأوس) تعييرِهم طعن بسنان رمحه فخذه وصاح: واعَقْراه! والله لا أريم حتى أقتل! فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا. فعاد الأوس إلى القتال، مستبسلين حتى انهزمت الخزرج شر هزيمة[1]. وكان من شدة بطش الأوس في تلك الواقعة أن أراد حضيرٌ أن يأتي الخزرج قسراً، وداراً داراً يقتل ويهدم حتى لا يُبقي منهم على أحدٍ[2] ويبيدهم على بكرة أبيهم، لولا أن تداعى بعض كبار السن، من ذوي العقل الراجح، وحالوا دون المجزرة الرهيبة، أمثال أبي قيس بن الأسلت، واقفين في وجه المتقاتلين، وهم يعظونهم قائلين: «ويحكم إنهم إخوان لكم في كل حال، وإنَّ جوارهم لخيرٌ من جوار الثعالب، بني يهود».

ولم يقتصر شرُّ اليهود على نفث الأحقاد، وبثّ سموم الفرقة في

---

(١) هيكل، حياة محمد، ص ١٩٧، كما ورد في كتاب «الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ» ج٣ ـ ص٣٠٣: «لقد كان ثمة حروب هائلة بين الأوس والخزرج كان آخرها وقعة بعاث التي انتصرت فيها قبيلة الأوس، حينما كان الهاشميون والنبي ﷺ محصورين في شعب أبي طالب».

(٢) هيكل، حياة محمد، المصدر السابق.

صفوف القبائل العربية وحدها في المدينة، بل امتد إلى إفساد ذات البين، وإفشاء العداوة بين أفراد العنصر اليهودي أنفسهم. فقامت بينهم أيضاً الخلافات، ونشبت الحروب، وطال القتال بين جماعاتهم، تارة بين بني النضير وبني قريظة، وأخرى بين بني قريظة وبني قينقاع، من غير أن يثنيهم عن ذلك تحريم في شريعتهم، ودون أن يردهم عنه واجب أخلاقي في بيئة هم عليها دخلاء.

ولم يكن اليهود ليأبهوا في دسّهم، وفي قتالهم، لأي وازع إنساني أو ديني، أو ليحفلوا بأي عهد سماوي كان قد كتب عليهم. فعيّرهم الله سبحانه وتعالى بحنثهم للعهود، في محكم كتابه العزيز إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وهكذا دأب اليهود في المدينة على الفِعَال الشنيعة، يحرّضون العرب بعضَهم على بعض، ولكنهم لا يسلَمون هم من الكراهية والشحناء فيما بينهم، فيحالف فريقٌ منهم الأوس، وفريقٌ آخر ينصرُ الخزرج، ثم تقع الحروب بينهم، فيقتل اليهوديُّ أخاه اليهودي،

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٨٤ و٨٥.

مخالفين حكم التوراة في جوهره، ومؤمنين به في ظاهره، إذ يجتمعون، بعد أن تضع الحرب أوزارها كي يفتدوا أسراهم بالمال، وهم يتذاكرون من أجل ذلك، بأنهم ينزلون على حكم التوراة... وهذا ما عناه قول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

تلك كانت أحوال المدينة في تلك الحقبة الزمنية.. فهي مسرحٌ للنزاع الدائم، وحقلٌ للتنافس المستمر بين العرب أنفسهم، وبين اليهود أنفسهم، وبين العرب واليهود.. وكأن المدينة توزعت فرقاء وعداوات، كل فريق يتربص بعدوِّه الدوائر، ويتحيَّن الفرص للانقضاض عليه وإهلاكه، ولو استعان بخصم عنيد له أو عدو لدود..

وإذا كانت الأمِّيةُ تشفع لعرب المدينة في بعض ما يفعلون، لأنهم قوم جهلوا القراءة والكتابة، وغابت عنهم الأديان السماوية، فأيُّ شيء يشفع لليهود حتى يأخذوا بتلك النزعة القتالية المهلكة، وهم ذوو كتاب سماوي، وأهل علم؟ بل يزيدهم تجريماً أنهم كانوا يعيبون على العرب أمِّيتهم، ويحقرون وثنيتهم، ثم يفعلون ما لا تقرُّه الأعراف الوثنية أو غير الوثنية...

ولعلَّ ذلك التعيير كان أحد الدوافع التي جعلت عرب المدينة يتبرمون بديانتهم القائمة على الشرك، ويتمنون لو يكون لهم دينٌ سماوي مثل دين اليهود، وكتابٌ مثل كتابهم، لكي لا يبقوا على حالة الشرك، شريطة ألَّا يكونوا مثل هؤلاء اليهود الذين يختبئون وراء ادِّعاء العمل بالأحكام الدينية، بينما في الواقع هم بعيدون عن ذلك أشد البُعد..

لقد غرس اليهودُ إذن في نفوس أهل «يثرب»، من غير أن

يدروا، كراهية الشرك، وبُغضَ الوثنية، فباتت نفوسُهم مهيّأةً لقبول دعوة للصلاح جديدة، ومستشرفةً لتصديقِ رسول يبعثه الله تعالى.

وها إنَّ الله ـ سبحانه ـ يحقق الأماني، فيتهيأ عرب المدينة لاستقبال الرسول محمد بن عبد اللّه ﷺ حامل الدين السماوي الجديد: دين الإسلام، الذي ترامت أخباره إليهم، واعتنقته جماعة كبيرة منهم قبل رؤية نبيّ هذا الدين..

لقد جاء اليومُ المؤمّلُ حقاً.. وها إن رسول الله ﷺ يدخل المدينة وقد ازدانت أرجاؤها بمظاهر البهجة والاحتفال، وعمَّت جنباتِها مشاعلُ الفرح تنعكسُ وهَّاجة على الوجوه المستبشرة، والثغور الباسمة.

المدينة كلها في عرس.. بالزغاريد تترنَّم الأفواه، وبالأناشيد تصدح الحناجر.. وفوق ظهور الخيل يندفع الفرسان، وعلى درب الموكب يزحف الرجالة.. الجميع يحتفون بالوافد العظيم. حتى أن ربات الحجال لم تفتهنَّ هذه المناسبة التي تعتبر الأولى من نوعها على بلدهن، فقد ظهرن من الأخبية، تغصُّ بهنَّ الشرفات والسطوح، بعضٌ منهنَّ يطلقن الزغاريد، وأُخَر ينثرنَ على رأس الوافد العظيم الورود والزهورَ، وغيرهن يرششن عليه الطيب والعطور.. وقد زاد في رونقِ هذا الابتهاج اختلاط الأهازيج برنَّات الدروع وقرقعة السيوف التي تحرِّكُها أيدي اللاعبين المهرة، وقد راحوا يرسمون الإشارة على النغم، وحركةَ الفن على الفرحة.

ويتهادى الموكب المباركُ المهيبُ في سيره، ومن حوالَيه حشد أهل المدينة، الذين لم يخطر ببال أحدهم أنه في تلك البرهة قد اعتدل ميزان الحق، ووقف التاريخ ليأخذ وجهته الجديدة، وأن ما قدَّرَ اللَّهُ ـ تعالى ـ لمدينتهم من جلال وعظمة سوف يبقى على الزمن، ما بقي

الزمن، ويدوم على الحياة، ما دامت الحياة.. إنهم يحيطون برسول الله ﷺ من كل جانب، وفي نفس كلٍّ منهم رغبة في الوصول إليه، ولمس رجلَيه المتدلِّيَتين على جنبي الناقة التي يعتليها، بل والإمساك بزمام ناقته حتى يفاخر بذلك طوال حياته. فكانوا من أجل ذلك يتزاحمون، وقد يدفع كلٌّ صاحبه حتى يدرك إحدى الأمنيتين الغاليتين: لمس رسول الله، أو جرّ الناقة التي يركب..

وبهذه المشاعر الصادقة، وبهذا الرونق البديع يظل الموكب متألّقاً في سيره، فلا يمرُّ الرسول ﷺ بدار من دور المسلمين، إلَّا ويعترض أهلُها طريقه، ويدْعونه لأن يقيم عندهم.. ولا يحاذي منزلَ سيِّد من سادات القوم إلَّا وتوسله أن يحط رحاله بفنائه. فكل قبيل يريده ضيفاً ومقيماً، وكلٌّ يعرض عليه القوة والمنعة والعدّة. ولكنَّه ﷺ كان لا يجيب أحداً لطلبه، أو يرفض رجاء أحد، بل يفتر ثغره الشريف عن ابتسامة مشرقة، تترجم فرحه بلقائهم، وتقديره لاحتفائهم، ودعاءَه لهم جميعاً بالخير والبركة، ثم يشير إلى ناقته قائلًا: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة»[1].

ذلك أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن قد اعتزم الإقامة في ناحية معينة من المدينة، بل ترك الأمور تسيرُ على هُدى من الله سبحانه وتعالى. فهذه دُور المدينة التسع، وكل دارة منها تشكِّل محلة مستقلة لقبيل قائم فيها بأهله ومنازله ونخيله وزروعه، حتى ليتراءى لكل ناظر أن أيَّ محلَّة قد تؤلف قرية بذاتها، ولكنها تتقارب وتتلاصق مع محلة أخرى إلى حد كبير.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٤٠.

نعم لقد كانت تلك الدورُ كلُّها مشرعةَ الأبواب لاستقبال رسول الله ﷺ، فلم يؤثر إحداها على الأخرى إلى أن بلغ دارة بني سالم بني عوف، وكانت صلاة الجمعة قد أدركته، فأمر بالركب أن يتوقف، ثم طلب الوضوء، فتوضَّأ، وتبعه المسلمون، ثم نهض يؤمُّهم بالصلاة التي كانت أول صلاة جمعة أقامها ﷺ في المدينة، وتعتبر أول صلاة جمعة وجامعة أقامها في الإسلام..

وبعد أن فرغ من الصلاة، نظر إلى الحشود التي كانت تنتظره، وهي ترقب ذلك المشهد العظيم، الذي استوى فيه المسلمون من وراء رسول الله ﷺ وقد وقفوا بين يدي الله خاشعين، منيبين مبتهلين.. واختار رسول الله ﷺ مكاناً يقف فيه، حيث يراه ويسمعه كلُّ من تواجدَ هنالك في تلك الساعة، فإذا الجموع صامتة، محدّقة، ترقب ما يريد أن يقول..

وانطلق صوت رسول الله ﷺ يشيع الطمأنينة في النفوس، وهو يبدأ بحمد الله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله، ثم يقول:

«أما بعد، أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم. تعلَمُنَّ والله ليُصعَقَنَّ أحدُكم، ثم ليَدَعَنَّ غَنَمه ليس لها راع، ثمَّ ليقولَنَّ له ربُّه، وليس له تَرجمان ولا حاجبٌ يحجبُهُ دونه: ألمَ يأتِك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالًا وأفضلت عليك؟ فما قدمتَ لنفسك؟ فَلَيَنظُرَنَّ يميناً وشمالًا فلا يرى شيئاً، ثم لَيَنظرنَّ قدامه فلا يرى غير جهنَّم!.. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بِشقِّ من تمرة فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمة طيِّبة، فإنَّ بها تجزى الحسنة عشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٤٦.

لقد كانت خطبة رسول الله ﷺ الأولى تلك في دار الهجرة موجزة، تعبّر عن النهج القويم الذي يعتمده، والمسلك الذي يؤدي إلى هدفه السامي.. فما إن ألقاها حتى عاد ﷺ يركب ناقته، وقد أرخى لها الزمام، حتى أتت دار بني مالك بن النجار، فبركت هناك. فسأل الرسول ﷺ عن صاحب المكان، فقال له معاذ بن عفراء: «إنه لغلامين يتيمين في حِجْري وهما سهل وسهيل[1] فإن شئت أن تتخذه مسجداً أو مقاماً، فلك ذلك يا رسول الله، وسأرضيهما منه»[2].. عندئذ تطلَّع رسول الله ﷺ إلى السماء ثم قرأ قوله تعالى: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[3].

وكرَّر الرسول ﷺ دعاءَهُ المبارك أربع مرات.. ثم أخذه الذي كان يأخذه عند الوحي. فلما سُرِّيَ عنه، قال: «هنا إن شاء الله يكون المنزل».

ثم أمر أن يحطّ رحله، وسألَ:

«أي بيوت أهلنا أقرب؟».

وكان منزل أبي أيوب، خالد بن زيد بجوار المربد[4] الذي أناخت عليه ناقة رسول الله ﷺ، فقال أبو أيوب: «إنها داري يا رسول الله، وهذا بابي».

---

(١) سهل وسهيل: ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار (انظر السيرة لابن هشام، ج٢ هامش ص١٤١).
(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ١٤١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢٩.
(٤) المربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

فقال له الرسول ﷺ: «فانطلق فهيّىءْ لنا مقيلًا»[1].

وطار أبو أيوب الأنصاري على جناح السرعة إلى داخل بيته، يهيئ لاستقبال الرسول الأعظم، فينال الفرصة التي هي أسعدُ فُرص العمر. ثم لم يلبث إلَّا قليلًا حتى رجع، ودعا رسول الله ﷺ أن يشرّفهُ بالنزول عليه..

وانتهت رحلة المهاجرة، واستراح المهاجرون من وعْثاء السفر وأتعابه، وحان وقت العمل الجديد.

(١) هيئ لنا مقيلًا: هيئ لنا مكاناً نجلس فيه (من القيلولة).

البحث الأول



بناء مسجد المدينة:

أقام رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب (الأنصاري)، وكان أول ما عمد إليه العمل على الإعلان عن نهج الإسلام في البناء والتوحيد. ولذلك دعا إليه معاذَ بن عفراء ونَقَدَهُ ثمن الأرض التي بركت فيها الناقة، بعد أن حاول الرجل إقناع رسول الله ﷺ بأن يقبلها هبةً، وسيكفي الغلامين بدلًا عنه، ولكنه ﷺ لم يرضَ إلَّا بشراء المربد ودفع ثمنه من ماله الخاص، فلما اطمأن رسول الإسلام إلى امتلاك المسلمين مكاناً عاماً في تلك الناحية من المدينة، دعاهم لإقامة مسجد لعبادة الله تعالى، وكان ﷺ أول من ضرب معوله لحفر الأساس، فاندفع المسلمون من ورائه إلى العمل الجماعي، وملؤهم القوة والحماسة..

ولم يكن بناء المسجد يتطلب جهوداً مضنية وشاقة، لأن كل ما يحتاج له قليل من الحجارة ينقلونها من منطقة الحرّة لردم الأساس ورصفه، ثم إقامة الحيطان من اللَّبِن الذي يتشكَّل من الطين المعجون بالماء والتراب.

وقد تبدَّت الحماسة في إقبال المسلمين على هذا العمل

المشترك، مثل شعلة الإيمان في نفوسهم، فاندفعوا إليه بهمة وإخلاص كما يستشفُّ من شكاية عمار بن ياسر إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول له: يا رسول الله، قتلوني، يحمّلون عليَّ ما لا أطيقُ!. فيقول له رسول الله ﷺ: «ويح ابن سميّة! ليسوا بالذين يقتلونك. إنما تقتلك الفئة الباغيةُ[1]. وكان يزيدُ في نشاط الرجال وحماستهم رؤيةُ سيِّدهم ونبيِّهم وقد أبى إلا أن يكون واحداً منهم، يعمل بيديه الشريفتين، ويحمل اللبن على صدره وكتفيه، كما كان يفعل منذ أيام معدودات عندما أمر بتأسيس مسجد قباء، وكما يفعل الآن مع هؤلاء العاملين على بناء المسجد في المدينة، بلا تمييز بينه وبين أحد منهم، لأن كلَّ واحدٍ في الإسلام مدعوٌّ للعمل إنْ في الحقل الخاص لنفسه، أو في ميدان العمل العام، وعلى الكل واجب العطاء والبذل..

وحان وقت الظهيرة، واشتدَّ لظى الهاجرة، فبدا نوع من الفتور في همة الرجال. وقد ظهر عليهم ذلك من خفوت الأهازيج والأناشيد. فأمر عندها رسول الله ﷺ بأخذ قسط من الراحة، ليقيلوا ويطعموا ويستروحوا ثم ليهبوا إلى متابعة العمل وقد زال عنهم كل كدٍّ أو تعب.. إنه الإخلاص لصاحب الرسالة، وما كان بناء هذا المسجد إلَّا عملاً مادياً بسيطاً من الأعمال التي يجب أن تقوم بها الرسالة لتأسيس الدولة الإسلامية.. بل وإنه قبل كل شيء، العمل المبنيُّ على الإيمان بالله تعالى، وفي سبيل مرضاته وثوابه.. فالكل يشارك، والكل يريد أن يأخذ حظه من الثواب، والرسول ﷺ واحد من هؤلاء العاملين، يريد حظاً من ثواب الله الوفير.. فقد رآه أحدُهم وقد عَلته

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٤٢.

غَبَرَةٌ كثيرة، وفوق كتفه حَمْلُهُ من اللَّبِن، فأوجف إذ ظنَّ الأمر مهولًا، فتقدم من الرسول الكريم، يرجوه أن يجلسَ ويرتاح ويُشرفَ عليهم، ويعطيهم الأوامر، وهم يكفونه أمر المشاركة في الشغل، قائلًا له:

ـ أعطنيها يا رسول الله، واهدأ بجوارنا آمراً مُطاعاً..

ويدهش الصحابيُّ، ويُعقل لسانُه عن الكلام، وهو يسمع رسول الله ﷺ، يقول له:

«اذهب فخذ غيرها، فلستَ بأفقرَ إلى الله منِّي».

ويتفكّر هذا الصحابي: سبحان الله.. إنه رسول الله، وصاحب المكرمات عند باعثه، فكيف يكون فقيراً إلى الله؟.

ذلك هو الإسلام: عدالةٌ ومساواة في كل شيء. إلَّا أن الفضل لمن يعطي أكثر، فكيف إذا كان العمل والعطاء من أجل الجماعة، وخدمةً للمصلحة العامة، فيكون عندها الأجر والثواب أكبر.. والرسول ﷺ كغيره من المسلمين، لا يطلب إلَّا ثوابَ ربه جلَّ وعلا، فحملُ الدعوة مكرمةٌ من الله وثواب، والدأبُ على إيصالها للناس رحمةٌ من الله وغفران، والتعبُ في سبيل إيصالها تعزيزٌ من الله وإكرام، والرسول ﷺ ليس مدعواً للعمل في هذا النهج وحدَه، بل هو فريضة على كلِّ مسلم يعمل ـ ومن واجبه أن يعمل ـ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فينال أجر الآخرة، كما تعبّر عن ذلك أرجوزة المسلمين وهم يبنون المسجد:

اللهم إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرة فارحم الانصار والمهاجرة

أما عن اندفاعهم، وهم يرون نبيَّهم يعمل مثلهم، فيتغنَّون قائلين:

لـئـن قَـعَـدْنـا والـنـبـيُّ يـعـمـلُ لَذَاكَ مـنَّـا الـعـمـل الـمـضـلَّلُ[1]

ويُريد عليُّ بن أبي طالب ﷺ أن يزيد في حماسة القوم، فيرتجز:

لا يستوي من يَعْمرُ المساجدا يـدأبُ فـيـه قـائـمـاً وقـاعـداً

ومن يُرَى عن الغُبار حائداً[2]

ويستوي المسجدُ بناءً متواضعاً، بسيطاً، لا أثر فيه للأبَّهة، أو الزخرفة أو النقش، بل مجرَّد فِنَاءٍ من الأرض لا يتجاوز خمسةً وثلاثين ذراعاً في طُوله، ولا يقلُّ عن ثلاثين في عرضه، تحيط به جدران لا يزيد ارتفاعها على قامة الرجل إلا قليلًا، جُعلت له أبواب ثلاثة، أحدها من الشرق، والآخر قبالته من الغرب، وثالثُها في ناحيته الجنوبية. وقد أقيمت في أحد جوانبه ظُلَّة من الجريد على قوائم النخل، سميت الصُّفّة، بينما تُركت باقي الجوانب مكشوفة. وقد خصَّصَ الرسول ﷺ هذه الزاوية لإيواء الفقراء الذين لا مأوى لهم.

وهنا تكمن ناحية أخرى من نواحي السموِّ الفكري عند الرسول ﷺ، وهو يبتني للفقراء تلك الصفّة، فلا يكون بين المسلمين مشرَّدون في الأزقة والطرقات، بل يأوون إلى ملجإٍ لهم بجوار بيت بُني لعبادة الله تعالى...

ثم إن هذا المسجد لا يعبّر فقط عن عزم من عملوا في تشييده، بل هو أيضاً مظهرٌ من مظاهر قناعتهم وصدقهم في الوسيلة والغاية. ولئن كان المهاجرون يعرفون رسول الله ﷺ عن كثب، ويعملون على أساس المنهج الذي استنَّه... فإن الأنصار حديثو العهد معه ﷺ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٤١.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

ومع ذلك فقد أبرزوا اندفاعاً في العمل ينمُّ عن القناعة بتصديق محمد ﷺ، والإيمان به وبدينه، ممّا يؤسس للدور العظيم الذي على الأنصار أن يباشروه في خدمة الرسالة..

أما أهل المدينة ـ إجمالًا ـ فقد كانوا يرون هذا التكاتف والتضامن بين المهاجرين والأنصار ـ ومنذ بدء العهد بينهم ـ، فيدهشون ويتساءلون: ما هذا الدِّينُ الجديدُ الذي يصهر الناس في مثل هذه اللُّحمة الشديدة؟

ويتداولون الأحاديث في ندواتهم فيقولون: من هذا الرسول، الذي يبني جامعاً للمسلمين، ثم يفكر بالفقراء، فيجعل لهم فيه مكاناً يأوون إليه؟!..

هذه الغايات السامية المتشعبة التي أبرزها بناء المسجد، تفرض على الإنسان أن يفكر بها كثيراً، وأن يقدّرها التقدير الذي تستحق، فلا يعود يتأثر بمظهر المسجد، ولا على أي شكل قام تشييده. فالأمر الأساسي، أنه بيت لله سبحانه، ويجمع المسلمين من مهاجرين وأنصار على أول عمل مشترك، وفيه نصيبٌ معين لإيواء الفقراء. فحق أن يكون مثالًا للعمل الإسلامي الخيِّر الرائع..

ولم يقف بناء المسجد عند حدود تلك الغايات، بل إنه، ومع مرور الوقت، كان شأنه يزدادُ علوّاً، لأن الرسول ﷺ كان يقضي جُلَّ أوقاته فيه للتعبّد، والصلاة بالمسلمين وتعليمهم القرآن وأصول الدين ومفاهيمه... ثم أمر بتوسعة بنائه مرة ثانية حتى جُعلَ طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وعرضُه في مثلها فهو مربع[1].

---

(١) تاريخ الخميس، ج١ ص٣٣٥ و٣٣٦.

ولقد اتخذ الرسول ﷺ في أول الأمر، مرقاةً له كي يخطب في الناس، كانت عبارة عن جذع من النخل، بقي يستعمله إلى أن جاؤوه بمنبرٍ من خشب مصنوع على شكل بسيط متواضع، فيه درجتان، ومقعدٌ للجلوس. فكان ﷺ يقف على أدنى الدرجتين كلَّما قام لإلقاء الخطبة، أو لوعظ المؤمنين.. ولم يكن في المسجد مصابيح تنيره ليلًا، فكان إذا اشتدَّ الظلام، أتوْا ببعض الحطب يشعلونه، كي ينتشر الضوءُ في جنبات المسجد. وظلت حالهم كذلك حتى قدم المدينة تميم الداريُّ من الشام، فجلب للمسجد مصابيح، وعلَّقها في سَواريه، مما أفرحَ الرسولَ الكريمَ، وقال له داعياً: «نوَّرتَ مسجدَنا، نوَّرَ اللَّهُ عليك»..

وهكذا تبدَّى أنَّ أول اهتمامات رسول الله ﷺ في المدينة كان بناء هذا المسجد الذي نَعْرفه اليوم بالمسجد النبوي الشريف .. إذ ما زال قائماً، منذ أن وضع الرسول الكريم أساسه، ولسوف يبقى، بإذن الله، قائماً ما بقي الدهر، مع ما زاد عليه الخيّرون من جمال البناء، ورونق العمارة وعظمة التقدير لصاحب المقام، التي تسبغ على الزائر زيادة في الإيناس، وعلى المصلّين في الحضرة الطاهرة مزيداً من نعمة الخشوع والتقوى.

معنى الصلاة وأهميتها في حياة المسلمين

ولكن لِمَ كان ذلك الاهتمام بإقامة المسجد قبل مباشرة أي شيء آخر؟.

لقد كانت له غايات سامية وكثيرة تجلت يومئذٍ للناس في الجهد الموحد الذي بذله المسلمون في إقامته.. ولكن تبقى الغاية الأهم ـ كما هي الحال في إقامة أي مسجد أُسِّسَ على التقوى ـ وهي

إقامة الصلاة في المسجد في مواقيتها المحددة من كل يوم، وفي المناسبات العامة مثل صلاة العيدين، أو صلاة الاستسقاء، أو غيرها من العبادات التي يقوم بها المسلمون جماعة، أو فرادى..

والسبب أن الصلاة هي الصلة الأقوى والأمتن بين العبد وربه.

صحيح أن كلَّ فعلِ خيرٍ، سوف يلاقي فيه الإنسانُ وجهَ ربه، وينعم من خلاله برضوانه ورحمته، وصحيحٌ أنه كلما اتسع عمل الخير فاضت نعمة المنعم على فاعله هدايةً وطمأنينة وبركات، إلَّا أنَّ الصلاةَ تبقى الأساس، والركن الركين الذي يلجأ إليه المؤمن في كل يوم خمس مراتٍ على الأقل ما دام حياً على هذه الأرض. فأنت عندما تقيم الصلاة طاعةً للَّهِ (سبحانه وتعالى) فإنَّ حضورك في هذا الموقف لا يكون استحضاراً لغائب، إنما وقوفك في محراب طاعته ـ عز وجل ـ هو التعبير عن حضورك أنت من غيبة، وإفاقتك من غفلة، قد تكون تائهاً فيهما قبل عقد نِيَّة الصلاة.. ولا يعني ذكرُ الله (تعالى) ما ذهب إليه بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين، عندما يقول أحدهم: إنه يرى الله في كل شيء.. فإن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده في الخلق، التي تدل على حقيقة وجوده سبحانه، فهو قول صحيح، أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود، الذي اعتقد بعضهم أنها تتحقق أثناء الصلاة، فهذا كذبٌ وتجديف، والقول به كفر بالله وبالمرسلين.. وعلى هذا فإن الإنسان المؤمن عندما يتهيأ للصلاة، وينضوي في رحابها الفسيحة، فإنه أول ما يلج بوابةَ تلك الرحاب، تعاف نفسُهُ كل موبقات الأرض وماديات الحياة الزائفة، وتشرق في داخله أنوارٌ من الصفاء تنقله إلى آفاق الله العليا حيث تتجلَّى معاني العبودية للخالق العظيم، ومعاني القبول والرحمة من

المعبود الكريم، وفي هذه اللحظات ـ توكيداً ـ تتحقق الصلة بين المؤمن وخالقه، وهي صلة ـ والله ـ لا أجلَّ، ولا أسمىٰ.. وهنيئاً لعبد قدر على تحقيقها بصلاته وعبادته.

أوَليس في هذه الصلة شعورُ العبدِ المؤمنِ الموقِنِ بمعينٍ من الطمأنينة لا ينضب، ومددٍ من الرحمة لا ينقطع، وإدراكٍ لكنز من المعرفة لا ينفد؟

ولئنِ استطاع العبدُ أن ينال مثل تلك الطمأنينة أو الرحمة، أو أن يحوز على مثل هذا الإدراك فإنه يكون قد حقق أسمى غايات وجوده، بالفلاح في تزكية نفسه، والاطمئنان إلى ثواب ربه.

وهل يمكن أن ينال هذه النعمة الكبرى إلَّا عبدٌ صلَّى صلاةً تصله بخالقه، فانجذب إليها بصفاء نفس، ورقة حواس، وشفافية وجدان، حتى امتلأ وجوده وكيانه وذاته إيماناً بالله عزَّ وجلَّ، وخشية منه، وخشوعاً له، فكان جديراً بتلك النعمة؟ وهل إلَّا بمثل هذه الصلاة تكون للإنسان القدرة على التفكر بآيات الله العظمى التي تزوّده بالإيمان، وتمكنه من بلوغ الصلة، والتي تؤدي جميعها في النهاية إلى التعرف إلى حقيقة وجود الله ذي الجلال والإكرام؟

ثم إن الصلاة، وإن كانت في لبابها مناجاة العبد الذليل الخاشع لربه، إلَّا أنَّ الإسلام كما شرَّعها عملًا فردياً عينياً، فقد جعلها نظاماً جماعياً لتراصّ الصفوف في المجتمع الإسلامي، وتوحيد النية والعمل في سبيل الله تعالى.. فالتعبير الذي ورد في الكتاب والسنة لأداء الصلاة هو «إقامة الصلاة»، إذن فلم يقل: صلوا، أو ائتوا الصلاة، أو افعلوا الصلاة، بل قال: «أقيموا الصلاة». وقد قال العلماء في تفسير قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] أي يؤدونها في جماعة، لماذا؟ لقوله ﷺ: «سوّوا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة». فيكون التجمع للصلاة، وتراصُّ الصفوف وانتظامها جزءاً من إقامتها، بحيث تهدف هذه الإقامة إلى إشعار البيئة كلها بالمبادرة إليها، والمحافظة على أوقاتها، واحترام أصولها، وإحياء معانيها.

والإسلامُ ينشدُ من ذلك أن يكون الخضوع لله تعالى ظاهرةً عامةً في المجتمع، لا مجرد مسلك فردي خاص وحسب. وإقامة الصلاة من أهم الأعمال التي تُبرز هذه الظاهرة وتحافظ على دوام تحقيقها، وفي سبيل ذلك تستقبل المساجدُ النساء والأولاد والرجال كي ينتظموا في صفوف متراصة وراء إمام يتلو القرآن ويكبر الرحمن. وبهذا فإن الإسلام يضفي على أمته روح الخضوع لله تعالى، مما يجعل منه الرسالة الإنسانية الكبرى حتى إذا مُكِّنَت الأُمَّةُ في الأرض أقامتِ الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

ومن فوائد هذه الظاهرة العامة أنها تجعل عبادة المسلم في صلاة الجماعة عبادة صحيحة، بحيث يتعرف إلى أركانها وركوعها وسجودها، وقراءاتها وتسابيحها، وكل ما يتصل بها بفضل الإمام العادل، المثقف والمربي الذي يحبّب الصلاة للمؤمنين بدلًا من أن ينفرهم منها. والذي يعلّمهم غيرها من الفرائض والطاعات

(١) سورة البقرة، الآية: ١.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

والمعاملات في حلقات المسجد بالذات، فيجتني هو والمؤمنون أجراً عظيماً.. أجل إن المؤمن يجتني من صلاة الجماعة أصول الصلاة وفضائلها وبركاتها.. وإلَّا فمن يجهل أركان الصلاة لا يحسن العبادة، شأنه شأن من يجهل شؤون الحياة، فلا يحسن الإفادة منها ولا التبريز فيها.

ومن أجل هذه الصِّلة الدائمة بالله العلي العظيم، والامتثال لأمره تعالى، وبلوغ الغاية التي ما خُلقَ الجنُّ والإنس إلَّا لأجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] كانت الصلاةُ أولَ فريضة من فرائض الإسلام، وأكثرها دوراناً مع الليل والنهار، لأنها وحدها قبل غيرها، الوسيلةُ الكافية، الوافيةُ لتمكين العبد من لقاء ربِّه بالخشوع، والطاعة والاستسلام.. ولأن للصلاة تلك القيمة، فقد أراد الرسول ﷺ أن يبدأ عملَهُ في المدينة بإقامة بيتٍ للصلاة، حتى يُمكِّن للمسلمين من أن يَنْعَموا بتحقيق الصلة الربَّانية في رحابه، ويطلعوا على الحقائق التي يريد الإسلام أن يهتدوا إليها، ويعملوا بوحيها، وبذلك يكونون قد تزوَّدوا للدارين..

بناء سكن رسول الله ﷺ

ولقد بقي رسول الله ﷺ منذ قدومه المدينة يقيم في دارة أبي أيوب الأنصاري.. فالرجل قد عمل، ومنذ البداية، على توفير كافة أسباب الراحة لنبيّه الكريم، إذ شاءَ له أن ينزل في الطبقة العلوية، وأن يكتفي هو وعياله في السفلية، فقال لزوجته أم أيوب: «نمشي فوق رأس

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

رسول الله ﷺ؟ معاذ الله! سأذهب وأرجوه أن يتحوّل في العلو».

فقالت له زوجه: «الحق ما تقول يا أبا أيوب، لا يليق بنا، ولا بأحد من الناس أن يعلو سقيفةً ورسول الله ﷺ تحتها»...

وجاء أبو أيوب يعرض ذلك على رسول الله ﷺ بقوله: «يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهَرْ أنتَ فكنْ في العُلْو، وننزل نحن فنكون في السفل»[1].

فقال له الرسول الحكيم: «يا أبا أيوب، إنَّ أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت»[2]. وتلعثم أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يعرف بماذا يجيب، لما أصابَهُ من الحرج والضيق، وهو لا يريد أن يخالف أمره ﷺ، فبانَ على وجهه الحزن، ولكنَّ النبي ﷺ طيَّب خاطره ودعا له باليمن والبركة، وحمله على الاقتناع بأن مثل هذه الأمور المادية لا تؤثر في حياة الإنسان، طالما أنه لا يبتغي إلّا رضوانَ الله ـ تعالى ـ ورحمتَه.

وانصاع أبو أيوب للإرادة النبوية، فبقي وعياله في الطابق العلويّ، ولكنه كان يحاذر أن يأتي بأية حركةٍ قد يكون فيها شيءٌ من الإزعاج.. ففي مرة كُسِرت له جرَّة مملوءة بالماء، فقام هو وزوجه أم أيوب، ينشفان الماء بالثياب واللحف مخافةَ أن يقطر إلى الأسفل ولو قطرة واحدة منه..

وكان أبو أيوب يأبى إلَّا أن يحمل بنفسه صفحة الطعام الذي تعدُّهُ زوجه، ويضعها بين يدي النبي ﷺ، شاكراً، وممتنّاً له على قبولِهِ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٤٤.

(٢) المصدر السابق.

وتناوله... ولكن سرعان ما بدأت الحسرة تتسرب إلى نفسه، وهو يرى أكابرَ المدينة ينافسونه على هذا الفضل، وكان من بينهم سعد بن عبادة (سيد في الخزرج وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام) الذي كان يحمل كل يوم لرسول الله ﷺ جفنة ثريد اللحم أو ثريد اللبن[1]، تقديراً للمكانة التي يحتلها ﷺ في نفوس هؤلاء الناس، وافتخارهم بوجوده بين ظهرانيهم!..

أجل، كان أبو أيوب رضي الله عنه يرقب ذلك فتداخله الوساوس، لولا أنه طرد الأثرة من نفسه، وكأنَّا به يقول: هؤلاء أيضاً أحبّاء رسول الله ﷺ، فكيف لا تزيدني سروراً رؤيتهم يتوافدون على هذا النبي المبارك؟! وإني ـ والله ـ إن فعلت لرجل أناني!.. وأكره أن أكونه.. فحبي لله ـ تعالى ـ ورسوله العظيم مكرمة أعزَّني بها المولى الكريم، فيا حبذا لو تكون الزاد في المعاد.. وبذلك اطمأنت نفس أبي أيوب[2]، وهدأ باله، ولكنه ظلَّ على دأبه، مهما تكاثر الإخوة

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٩ ص٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٢) ومن بعض مناقب أبي أيوب الأنصاري، ما ورد في كتاب (موسوعة عظماء حول الرسول ج١ ص٦٧٨) عن مختصر تاريخ دمشق، ج٧ ص٣٤١، أنَّ أسلم أبا عمران مولىً لكندة قال: «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا جمعاً عظيماً من الروم، وخرج إليهم مثله أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر صاحب رسول الله ﷺ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح به الناس، وقالوا: سبحان الله!؟ يلقي بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إنَّكم تؤولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنَّه لما أعزَّ الله الإسلام وكثّر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض، سرّاً من رسول الله ﷺ: «إنَّ أموالنا قد ضاعت، وإنَّ الله تعالى قد أعزَّ الإسلام وكثَّر ناصريه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ، يردّ علينا ما قلنا، الآية ١٩٥ من سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فكانت التهلكة في اهتمامنا بأموالنا وتنميتها، وتركنا الإنفاق في سبيل الله».

المسلمون على خدمة رسول الله ﷺ، فكان إذا رُدَّ عليه شيءٌ من الطعام، تيمَّم هو وزوجه موضع يده الشريفة فأكلا منه، يبتغيان البركة.. وبالفعل فكم كانت البركات تفيض على تلك الدار التي شرَّفها الرسول الأعظم بحلوله فيها..

وعلى الرغم من تلك الحفاوة الطيبة، فقد عزم ﷺ على بناء المسكن الذي يقيم فيه وأهله، فلما انتهى بناء المسجد، عادَ وشيَّد بالقرب منه بيتَه المتواضع(١)، ثم بعثَ زيدَ بنَ حارثة ومولاه أبا رافع إلى مكة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليأتيا بأهله الذين لا يزالون في مكة، وهناك أمكنَ الله تعالى للرجلين من إخراج ابنة الرسول ﷺ أم كلثوم، وزوجه السيدة سودة بنت زمعة، كما حملا معهما زوجة زيد بن حارثة، وعبد الله بن أبي بكر مع عياله، في حين بقيت ابنة النبي ﷺ زينب لأن زوجها العاص بن الربيع منع ـ وكان لا يزال على الشرك ـ عليها مغادرة مكة، واللحاق بأبيها في المدينة.

وقد نزل كلٌّ من هؤلاء المهاجرين الجدد حيث يقيم أهله، فانتقل ﷺ من بيت أبي أيوب، بعد إقامةٍ استمرت سبعة أشهر، للسكن مع زوجه السيدة سودة في إحدى الحجرتين اللتين ابتناهما، بينما سكنت ابنتاه أم كلثوم وفاطمة الزهراء في الغرفة الثانية، وعلى هذا النحو، كان ﷺ كلما تزوج بامرأة، ابتنى لها غرفة واحدة، حتى صارت مساكنه تسعة في جنوبي المسجد وشرقيه.

---

(١) كانت بيوته ﷺ تسعة، بعضها من جريد مطيّن بالطين وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد أيضاً (انظر السيرة لابن هشام، ج٢ هامش ص١٤٣).

ولئن استقرَّ المقام برسول الله ﷺ في أرض طيبة، إلَّا أن تفكيره لم ينقطع عمَّا عليه القيام به بعد الهجرة التي نقلته ونقلت دعوته خطوة واسعة في دور آخر من أدوار هذه الدعوة.. فلم يعد أكثر همّه ﷺ التثقيف والتفاعل ـ لاسيما أن بين المهاجرين والأنصار تفاعلًا حقيقياً تبرز آثاره في هذه الحياة التي راحوا يعيشونها سوية ـ بل صار الإسلام واقعاً راهناً، ولا بدَّ له من تطبيقٍ عملي يمارسه الناس في مختلف علاقاتهم العامة والخاصة، وهذا لا يكون إلَّا بإقامة الحكم المدعم بالقوة المادية، فضلًا عن أساسه المتين وهو قوة العقيدة وأحقيَّتها.. صحيح أن رسول الله ﷺ كان يخطط، ويحسب لكل شيءٍ حسابَهُ منذ خطواته الأولى على الدرب مهاجراً إلى «يثرب»، ولكنَّ معوَّلَهُ كان ـ دائماً ـ على ربّه ليسدّد خطاه وينصره في تحقيق الأمر الذي بعثَهُ به؛ فكان قلبه يخفق، ولسانه يلهج بهذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[1]، ولم يكن هذا الدعاء الذي علَّمه إياه جبرائيل الأمين بوحي من ربه تبارك وتعالى، إلَّا لأنَّه ﷺ يعلم علم اليقين بأن حركة الإنسان في التاريخ لا تستقيم، ولا تصل إلى هدفها، إلَّا بأن يستلهم الإنسانُ مدَدَ ربه ـ تبارك وتعالى ـ فيتوجه إليه بسمعه وبصره وفؤاده وعقله وكل جوارحه، ليتلقى العون والنصر، في صدق الحركة وانتصار قيمها، ما دامت مقترنة بثبات الخطى على الأرض، وبتحمل المسؤولية بأمانة كاملة، وبصياغة حرية اختيار الإنسان بما ينسجم في المدى القريب والبعيد، مع سنن الله ـ تعالى ـ وما يقدّر ويشاء..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٠

وبدون هذا التناغم بين ما يشاء الله ـ عز وجل ـ وبين ما يختار الإنسان، بين نور الله الذي هو نور السماوات والأرض وبين كثافة الأرض ووعورة مسالكها، وبدون هذا الحوار الدائم الفعال بين الإنسان وخالق الإنسان، بين عالم المشاهدة المباشرة وعالم الغيب البعيد، لن تكون هناك حركة جادة ولا مصير عظيم..

ولقد كان محور حركة الرسول ﷺ الإسلامَ، دائماً. فما دام هذا الدين القيّم يحمل في طياته كل المقاييس والموازين للإنشاء والتفاعل والتكامل في الحياة، فإن وجوده في عالمنا يتناول ـ في جوانبه الهامة ـ دائرتين رئيستين وهما: دائرة الإنسان، فالدولة...

ولقد اجتاز الإسلام في مكة دائرة الإنسان، بما ثبَّت في نفوس المسلمين من إيمان ومفاهيم وقيم جديدة.. في حين كانت العوائقُ تتسارع وبوتيرة مطَّردة لتحول بينه وبين الوصول إلى دائرة الدولة.. فالدولة هي الكيان السياسي الذي تنضوي تحته الجماعات البشرية. فهي ضرورة لا غنى عنها للناس عامة ، وللمسلمين خاصة لأنها مجالُ الدعوة الحيوي، وبدونها ستظل دائرة الإنسان المسلم بلا سياج يحميها من الخارج المضاد لها بكل أثقاله وضغوطه وإمكاناته المادية.. ولن يستطيع الفرد المسلم، ولا الجماعة المسلمة، بدون دولة تحميهما أن يمارسا حرية الحركة، وحمل المسؤولية حتى النهاية، لاسيما إذا كانت القيمُ والتطلعات الاسلامية تمثل رفضاً قاطعاً للمبادئ والأفكار، والقواعد التي يقوم عليها الواقع الخارجي والأوضاع التي تنبثق عنه. فلا بد إذن من الأرضية الصالحة التي يتحرك عليها المسلم، قبل أن تقوى عليه الظروف الخارجية المعادية له، وليست هذه الأرضية سوى الدولة الإسلامية التي انصبَّ عمل

الرسول ﷺ، ومعه المسلمون، على تأسيسها منذ بدء عهد الهجرة في المدينة المنورة..

نقطة الارتكاز لإنشاء الدولة

وهنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة الرسول ﷺ لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل، ألَا وهو الطور السياسي الذي أبدى فيه محمد ﷺ من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف مدهوشاً، وهو يطأطئ الرأس له إجلالًا وإكباراً. فقد كان أكبر همّه أن يصل بالمدينة ـ موطنه الجديد ـ إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز، بحيث تكون هذه الوحدة هي النقطة التي يرتكز عليها الإسلام في تطبيق أحكامه، وإنشاء جيشه لحمايتها من الأعداء. ولذلك توجّه اهتمامُه ﷺ إلى تنظيم صفوف المسلمين، وتوكيد وحدتهم للقضاء على كل ما يمكن أن يثير العداوات القديمة بينهم. وقد اتخذ الرسول أساساً لهذا الأمر وحدة العقيدة الإسلامية التي تجمع بين المسلمين كافة من مهاجرين وأنصار، وتؤلف بينهم. فأفكارهم ومشاعرهم واحدة، وتنظيم علاقاتهم بالإسلام أمر بديهي. وقد ركَّز ﷺ في إقامة هذه العلاقات على الأساس الواحد الجامع المتين الذي هو العقيدة، ذلك الأساس الذي ظلَّ يقيم عليه بنيانه طوال ثلاث عشرة سنة، بقوة الإيمان الصادق بالله الواحد الأحد، فبرز البناء شامخاً، وظهرت مآثره في حياة الفرد، كما في حياة الجماعة، عملًا صالحاً ينقطع به الفساد، ويعمُّ به الصلاح..
وما كان هذا النهج النبويّ إلَّا لإيمانه ﷺ بأن العقيدة ـ أياً كان شأنها ـ لا تكتب لها الحياة إن لم يكن حامل لوائها المثلَ الحيّ الصادق،

والترجمة العملية لها، في كل ما يأخذ وما يدَع، وفي جميع ما يخفي وما يُعلن. ولذا لا بد من أن تمتلك العقيدةُ نفسَ الإنسان، المؤمن بها كي يندفع إلى العمل في ظاهر الأمر وباطنه، وفي صغيره وجليله، وفي ما يتصل بشؤون نفسه وشؤون من حوله، سواء في ذلك القريب منه أو البعيد عنه. مع الاعتبار بأنَّ أكثر ما ينبغي أن يكون تركيزه عليه هو الإنسان الذي يشاركه في عقيدته، ويكون العضد له على تكريسها، ونشرها في سبيل النفع المرتجى منها لجميع الناس.

من أجل ذلك، ومن بين مآثره ﷺ التي كانت جميعها فريدة وعظيمة، كانت مأثرته الرائعة في دعوته المسلمين لترجمة العقيدة إلى واقعٍ رآه بتآخيهم في الله ـ أخوين أخوين ـ حتى يكون لهذه الأخوة الأثرُ الفاعل حقاً في أموالهم ومعاملاتهم، بل وفي كافة شؤون حياتهم.. فالتآخي وإن كان يربط بين المهاجرين والأنصار بأوثق الروابط وأشدِّها متانة ألا وهي رابطة الإيمان والإسلام، إلَّا أنه من الناحية العملية يعزّز في نفوس الأنصار شعورهم بالمسؤولية تجاه إخوانهم المهاجرين، هؤلاء الذين تركوا وراءهم في مكة كلَّ شيء، وحلّوا بالمدينة وهم لا يملكون شروى نقيرٍ، بفعل قريش وحقدها..

وكان نبيُّ الله محمدٌ ﷺ قد عقد أول عهد للتآخي بين المسلمين الأوائل في مكة قبل الهجرة، فقرر أن يعتمد العهد نفسه في المدينة المنورة بين المهاجرين من مكة، والأنصار في المدينة، وهو يقول لهؤلاء الأنصار:

«إنَّ إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد، وخرجوا إليكم»...

بهذه اللهجة الصادقة، قال الرسول ﷺ الكلمة الفصل بمضامينها الجامعة، وأبرزها الروح الإسلامية التي يريدها روحاً إنسانيةً تقوم على

أشد الروابط التي تجمع الإنسان بالإنسان. وليس أوثق لذلك من الأخوة التي تقوم على العقيدة، ولذلك استجاب لها الأنصارُ بعفويةٍ ونبلٍ عندما أعلنوا عن موقف واحد: «أموالنا بيننا قطيع يا رسول الله».

وانشرح صدر الرسول ﷺ لهذه التلبية المثلى، فعمد من فوره إلى المؤاخاة التي كانت فعلًا أكبر تعبير عن عمق تفكيره، وعن تحركه السريع. فأعلن تجديد التآخي بين عمه حمزة بن عبد المطلب ومولاه زيد بن حارثة، وبين أبي بكر وخارجة بن زهير (أخي بلحارث بن الخزرج)، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك (أخي بني سالم بن عوف)، وبين أبي عبيدة بن الجراح (واسمه عامر بن عبد اللّه) وسعد بن معاذ (أخي بني عبد الأشهل)، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع (أخي بلحارث بن الخزرج)، وبين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة (من بني عبد الأشهل)، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت (من بني النجار)، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك (أخي بني سلمة)، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب خالد بن زيد (أخي بني النجار)، وبين بلال بن رباح وأبي رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي... وما زال يؤاخي بين المهاجرين أنفسهم، وبينهم وبين الأنصار حتى عمَّتهم الأخوة جميعاً. ولم يبقَ إلَّا الأمر الأهم ألا وهو تآخي الرسول ﷺ نفسه مع غيره من المسلمين، لأنه كان رائدهم في كل شيء، والمثال الذي يحتذون به في كل ما يستَنُّ من قول أو فعل. ولذلك ولما شملت تلك المؤاخاة المسلمين جميعاً ولم يبقَ إلَّا علي بن أبي طالب، إذ لم يؤاخ الرسول ﷺ بينه وبين أحدٍ من الأنصار أو المهاجرين، حينئذٍ تقدم عليٌّ ليسأل عن حاله، وهو يقول: يا رسول الله! قد آخيت بين سائر أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد...

فقال له الرسول ﷺ: «يا علي لقد أبقيتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»[1]. «فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له مثيلٌ، ولا نظير من العباد، وعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أخوين»[2].

وبسرعة أثمرت نتائج التآخي في حياة المسلمين، كما يدلُّ عليها موقف سعد بن الربيع، إذ انطلق بأخيه في الإسلام عبد الرحمن بن عوف فدعا بطعام، فأكلا وقال له: لي امرأتان، وأنتَ أخي في الله، لا امرأةَ لك، فأنزل عن إحداهما فتزوجها.

قال عبد الرحمن: «لا، واللَّهِ».

قال سعد: ««هلمَّ إلى حديقتي أشاطِرْكَها».

فقال له عبد الرحمن:

ـ لا، بارك الله لك في أهلك ومالك يا أخي، واللَّهِ ما أرغب إلَّا أن تساعدني في معرفة السوق هنا، حتى أبيع وأشتري.

وكان لعبد الرحمن ما أراد، إذ بدأ، بتوجيه من أخيه سعد، يشتري ويبيع السمن والزبد والجبن، وقد استطاع بمهارته التجارية أن يحصّل الربح الحلال في زمن قصير، وأن يمهر إحدى نساء المدينة صداقاً قيّماً من ماله الخاص، وأن تكون له ـ من ثَمَّ ـ قوافل تذهب وتأتي مثل كبار التجار في المدينة المنورة.

ولم يكن عبد الرحمن بن عوف وحده من المهاجرين الذين عملوا في ميدان التجارة، بل فعل مثلَهُ كثيرون غيره، لأنه كان لأهل

---

(١) الترمذي، المناقب ص ٢٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٥٠و ١٥١.

مكة دراية واسعة في هذا المضمار حتى قيل في أحدهم: «إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً».

ومَنْ لم يدخل في التجارة، فقد اشتغل في الزراعة أمثال: أبي بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وغيرهم، فكانوا يعملون في أراضي الأنصار مزارعة مع مُلَّاكها. وقد قال لهم الرسول ﷺ: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه»(١). ومن لم يجد عملًا في تجارةٍ أو زراعةٍ فقد انصرف إلى أي عمل شريف يزاوله ولو كان شاقاً أو زهيد الأجر حتى لا يكون كَلاًّ على غيره. ولم يكن بين المسلمين أحدٌ بلا عمل إلا جماعة من العرب، وفدوا على المدينة ـ فيما بعد ـ وأسلموا، وكانوا في حال من العَوز والمتربة بحيث لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه، وهؤلاء هم الذين توقَّع النبي ﷺ وجود أمثالهم في المجتمع الجديد، فأفرد لهم الصُّفّة في المسجد حتى يبيتوا فيها ويأووا إليها، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً.

نعم لقد كانت المؤاخاة بوجْهيْها العقائدي والواقعي، مشاركة حقيقية في الأموال والأرزاق، وفي حاجات الدنيا كلها، تماماً كما كانت مشاركةً في المشاعر والأفكار، وفي التوجهات العامة.. وقد بلغ من حرص الأنصار على إنصاف إخوتهم المهاجرين حدّاً يفوق التصوّر، إذ لم تقتصر مشاركتهم على ما يملكون من الأموال المنقولة يقتسمونها معهم، أو على حقوق يتوزعونها مثلهم، بل طلبوا إلى النبيّ ﷺ أن يقسم بينهم النخيل بقولهم:

---

(١) البخاري، باب الحرث ص ١١٨.

«يا نَبيَّ الله، لقد بذلنا ما في وسعنا لنواسي إخواننا المهاجرين فيما آتانا الله من مال، ولم يبقَ لنا إلَّا النخيل، فاقسمه يا رسول الله بيننا وبينهم»..

فقال عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام: «لا، ويشركونكم في الثمرة!»[1].

قالوا: سمعنا وأطعنا يا رسول الله.

وإذا كان الأنصارُ هم أصحابُ الفضل والعطاء، بما أعطوا وزادوا حتى استكثره المهاجرون أنفسهم، فإنَّ هؤلاء لم يكونوا ـ في واقع الأمر ـ يريدون أكثر من الإيواء والكفاف، ولذلك فقد سيطر عليهم، من جرّاء ما قدَّمه لهم الأنصار، شعورٌ بالخوف على أنفسهم، فجاؤوا رسول الله ﷺ يشتكون قائلين:

«يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل، ولا أكثر بذلًا من كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله»[2]..

فقال الرسول ﷺ مطَمْئِناً: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»..

ذلك هو العطاء الحق.. العطاءُ الجزيلُ من الأنصار..

وذلك هو الشعور الحق.. الشعورُ الصادقُ من المهاجرين..

الكلُّ يريد أن يعطيَ بسخاء.. ولكنَّ الكلَّ لا يريد أن يأخذ من العطاء إلَّا بمقدار..

---

(١) البخاري، باب الشروط.

(٢) أحمد بن حنبل، الجزء ٣ ص ٢٠٤.

وبين العطاء والامتنان لا أحدَ يريدُ إلَّا ثوابَ الله تعالى، حتى كان الخوف من أن يعود أجرُ الله ـ سبحانه ـ لمن أعطى.. ولكنَّ قبولَ الممتنِّ، والدعاءَ منه لأخيه المعطي يجعل الأجر موزعاً بين الجميع إذا شاءَ الله، ما دامت النوايا صافية، والغاية معهودة!.. والجامع في ذلك كله هو الشعور الإسلامي، والأخوة الإسلامية..

ولم تكن تلك الأخوة الاسلامية ظرفيةً، أو لتموت بعد رسول الله ﷺ بل أرسى قواعدها لتبقى ذخراً للمسلمين إلى يوم الدين، وفي خبر بلالٍ خيرُ دليل، إذ «لما دوّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، وكان بلالٌ قد خرج إليها وأقام فيها مجاهداً؛ قال له عمر رضي الله عنه: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رُويحة، لا أفارقه أبداً، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني»(١).

وإنَّ مثل تلك الأخوة الاسلامية لهي خير السبل التي تقوم عليها الحياة المنيعة الكريمة، لو اعتُمدت في أيامنا هذه، وعلى نفس النهج الذي عمل به المسلمون منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة.. وهي لو طبّقت فعلًا لكان من شأنها أن تغيّر أحوال المسلمين على غير ما نشهده اليوم من المآسي التي تصيبهم، بل ولو أخذ بها الناسُ ـ في الشرق والغرب ـ لكانت خيرَ معين على تحقيق إنسانية الإنسان!.. أما والأحوال بخلاف ذلك تماماً فأية إنسانية يُعوَّل عليها في دنيا الناس، والشبع قد أتخم فئاتٍ حتى ليكاد يقتلها، بينما الجوع يفترس بأنيابه كل الفئات الأخرى فيميت منها من يميت، ويخزي من يخزي، على مختلف بقاع الكرة الأرضية؟! وما يقال عن الجوع، لا يقل خطورة

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٥٣ ـ عن ابن اسحاق ـ .

عن الجهل، والفقر، والمرض، وشتى أنواع البلايا التي ترزحُ تحت وطأتها جموع البشرية سواء في ذلك رعايا الدول المتقدمة أو رعايا الدول المتخلفة!!.. فأية أنظمة أقيمت وهي تقر بمثل تلك الفوارق المجحفة بين الناس، حتى راحت الصرخات تتعالى من المسؤولين في المنظمات الإنسانية الدولية، وهي تظهر المخاطر التي تتهدد البشرية، إذا ما استمرت الأحوال على ما هي عليه؟.

والمسلمون أنفسهم لم ينجوا مما وصلت إليه تلك الأحوال، بل وقعوا في نفس الأخطار، إن لم يكن في أشدّها.. أما السبب في ذلك فهو الضعف الذي دبَّ في نفوسهم، من جرّاء ضعف الروح الأخوية المعطاء التي كان عليها المهاجرون والأنصار، فكان طبيعياً أن تضعف من ثمَّ الدولة الإسلامية فيما بعدُ، ثمَّ تزول.. ويصبح المسلمون بالتالي تَبَعاً لغيرهم، بعد أن كانوا سادةً أعِزَّاء في جميع البلدان التي وصلوها بالإسلام.. إذن فأين نحن اليوم، والعالم بأسره، من تلك النظرة الثاقبة عند محمدٍ رسول الله ﷺ في تركيزه على جمع المسلمين، وجعلهم كالبنيان المرصوص، من خلال تلك المؤاخاة التي ابتكرها واعتمدها. وقد استطاع ﷺ بفعل تلك النظرة الهادفة نفسها أن يُعدَّ للمستقبل، وأن يهيىء لنشر الإسلام.. ولم يكن أيّ إعداد أو تهيئة بميسورين، لو لم ينصهر المسلمون في بوتقة الحب والإخاء والتضحية، ويجتمعوا على التكافل والتعاون والتضامن، حتى بات تطبيق الدين بين المسلمين واضح المعالم، سويَّ النهج، مستقيم التوجُّه، منذ بداية الحكم الاسلامي في المدينة المنورة..

وبعد إعداد السبل والتهيئة، كان لا بُدَّ للنبي ﷺ من أن يبنيَ المجتمع الذي يريد.. وقد أراده ﷺ مجتمعاً يتعايش فيه كلُّ

الناس ـ مسلمين وغير مسلمين ـ مواطنين متعاونين، يسودهم الوئام والانسجام، ويظللهم الأمن والسلام..

فكيف كان ذلك البناء بعد أن أُخذت له العُدَّة؟

المجتمع في المدينة

ليس بناء المجتمع ـ بمعنى البناء الشامل ـ أمراً سهلًا، بل يتطلب إيديولوجية معيّنة تعبِّر عن وجود الناس وحاجاتهم وأمانيهم وغاياتهم، على أن ينطلق ذلك كله من الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، باعتبارها الحقيقة المطلقة، الأصيلة، الثابتة التي تُبنى عليها سائر الحقائق التي تتعلق بالإنسان والحياة والكون!.

فإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد فطر في الإنسان غريزة حبِّ البقاء، وكان من مظاهرها اجتماع الإنسان مع أخيه الإنسان للحفاظ على الوجود، والكيان، والحماية من المخاطر.. إلا أن مجرَّد اجتماع الناس مع بعضهم البعض لا يؤلف مجتمعاً، بل يوجد مفهوم الجماعة، الذي يظل في حدوده الضيقة إذا ما اقتصرت حياتهم على مجرَّد التجمُّع. أمَّا إذا نشأت بينهم العلاقات، فإنها هي التي تجعل من تعايش الجماعات، مجتمعاً.

فكيف كان المجتمع في المدينة حين قدمها رسول الله ﷺ؟

لقد أراد الرسول الأعظم، ومنذ حطَّ قدميه في المدينة، أن يبدأ بناء المجتمع الإسلامي، فأمر بتشييد المسجد ليكون مكاناً للصلاة والاجتماع، وللتشاور في الإدارة والشؤون العامة.. وفي الوقت نفسه بيتاً للتقاضي، والحكم بين الناس، فكان ﷺ يقوم بأعمال الحاكم، والإداري، والقاضي في آن معاً، إلى جانب أنه رسول من رب

العالمين إلى الناس كافة.. من هنا كان الرسول ﷺ يرى بأن بناء المجتمع السليم يجب أن يقوم على مفاهيم الإسلام، ونظرة هذا الدين إلى حياة الفرد والجماعة على حد سواء، فالمجتمع الاسلامي، وحده الذي يهيّئ لقيام دولة الإسلام باعتباره القاعدة التي تبنى عليها كل الأنظمة التي تتناول علاقات الناس وكيفية رعايتهم وإدارة شؤونهم، ولكن هل كان ذلك ميسوراً وهنالك قوى كثيرة تقف بالمرصاد لمنع بناء مجتمع إسلامي في المدينة، ومن ثم، للحؤول دون قيام دولة الإسلام؟!. وإذا كانت قريش قد حالت دون ذلك في مكة فإن نواة هذه الدولة الإسلامية التي غرسها رسول الله ﷺ في المدينة قد بدأت تظهر للعيان، الأمر الذي جعل أعداء الإسلام يَفْرَقون[1] خوفاً، ويسارعون في إظهار عداوتهم، تماماً كما كانت الحال عليه في مكة، ولكن مع الفارق بما سيكون عليه هؤلاء الأعداء هنا ـ في المدينة ـ لكثرة أطرافهم، مع ما يتبع ذلك من تنوع وسائلهم العدوانية، وتشعب أساليبهم الهدامة، في محاولاتهم للقضاء على فكرة الدولة التي يراد إنشاؤها!..

ولعلَّ الشر في نفوس أعداء الحق والخير لا يقبل البقاء في كمونه، فيحرّضهم على الاندفاع والمبادأة بالعمل.. كما حصل مع تلك الأطراف التي ظهرت متمثلة بأهل النفاق في داخل المدينة، وأعوانهم من اليهود، والأعراب المشركين، الذين أخذوا يتربصون بالمسلمين الدوائر!. مما يستدعي معرفة تلك الجماعات ـ ولو بنظرة عاجلة ـ لتستبين سبلُ عداوتهم، وإن كانت الأحداث المتعاقبة سوف

(١) يفرق: يفزع، يخشى.

تنبئ عما تقوم به تلك الجماعات لمحاربة الإسلام وأهله..

أما اليهود فكانوا يتوزعون في عدة أماكن: ديار بني قينقاع في داخل المدينة، وديار بني قريظة في ناحيتها الشرقية بالقرب من العوالي، وإلى الجنوب منهم ديار بني النضير حيث حصن كعب بن الأشرف، وعلى الطريق المؤدية إلى بلاد الشام كانت حصون خيبر.. وكما هو معروف، فقد كان اليهود أهل علم، وأصحاب كتاب سماوي، فكان أولى بهم، من دون الناس جميعاً في جاهلية العرب أن يؤمنوا بالنبي «محمد»، الذي يجدونه ـ بصفاته وأمارات زمانه ـ مكتوباً عندهم في التوراة، وأن يتبعوه على الدين الذي جاء به، والذي لا ينقض ما في كتابهم، بل يصدّقه ويؤمن به.. ولكن ـ ويا للأسف ـ لم يعملوا بشيء من ذلك، بل نبذوا كتابهم وراء ظهورهم، وغلّبوا الأثرة والهوى على الحق المبين.. فقد عزَّ عليهم أن يتحقق الوعد في التوراة، ويبعث الله تعالى النبيَّ الأميَّ العربي نبياً ورسولاً، فثارت ثائرتهم، وطمست المصيبة ـ كما توهَّموها ـ بصيرتهم، فراحوا يردّدون: لا، لن يكون نبيٌّ آخر الزمان من العرب، ويتنزَّل عليه الكتابُ قرآناً عربياً.. لا، لن نقبل إلَّا أن يكون النبيُّ الموعود من بني اليهود.. ولم يكن هذا التوجُّهُ اليهودي ردةَ فعلٍ عابرةً، كما قد يُظنّ، بل نتيجةَ قناعةٍ ترسَّخت في نفوسهم: بأنهم أبناء الله وأحباؤه... واعتقادٍ خاطئٍ استحكم في عقولهم: بأنهم شعب الله المختار!..

وزاد في الطينة بلّةً على رؤوس اليهود أن رأوا «محمداً» يعمل على إرساء القواعد لدولة الإسلام، فزادهم الأمر حسداً، وامتلأت قلوبهم بالحقد والغيظ عليه، فاندفعوا يحاولون التشكيك في نبوته، وينشرون الأكاذيب والأباطيل حول رسالته، وأخذوا يرددون في كل محفل وناد:

لا!.. ليس محمَّد هو الرسول الذي ننتظر!.. وجريمة اليهود النكراء على مدى التاريخ أنَّ أحبارهم ـ وقد زيّن لهم الشيطان أعمالهم ـ كانوا قد حرَّفوا كتابهم التوراة، وطمسوا كل دليل فيه: من إشارة أو صفة أو اسم يؤكد نبوة محمد ﷺ ورسالته وهو الأمرُ الذي بيّنه الله ـ تعالى ـ بقوله العزيز: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1]؛ فكان من الطبيعي أن يقفوَ الخلفُ أثر السلف، وأن يكون أحبار اليهود في جزيرة العرب رأس الحربة في البغضاء والعداوة للإسلام، ونبيه محمد ﷺ، فيوغلون، ومن ورائهم جميع بني اليهود، بالكفر، والكيد والمكر، في تصدّيهم للإسلام ونفث سموم الحقد على «محمد» ومن والاه على دينه..

وكان عبد اللّه بن سلام، من كبار أحبار اليهود وعلمائهم. فلم يأخذ بالتحريف المخزي الذي أدخل على كتاب التوراة بل ظل على تصديقه بالذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة مِن أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يبعث نبيّاً معروفاً بصفاته وزمانه، فلما سمع بصدوعه بالدعوة في مكة، تريّث في السعي إليه، حتى تتبين حقيقة هذا النبي، ويتضح له فيما إذا كان يدّعي النبوة أم هو النبي المنتظر حقّاً.. وظلَّ على انتظاره إلى حين هجرة الرسول ﷺ ونزوله في قباء، على بني عمرو بن عوف، فجاءه رجل يسعى إليه، وهو على رأس نخلة في بستانه، فلم يتمالك نفسه، لمَّا سمع الخبر أن كبَّر الله ـ عز وجل ـ

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

بأعلى صوته مما جعل عمته التي كانت تجلس تحته ـ وتدعى خالدة بنت الحارث ـ تدهش لأمره، فتقول له:

ـ «وواعجباً منك يا ابن سلام، واللَّهِ لو كنت سمعتَ بموسى بن عمران قادماً، ما زدت!»..

فقال لها، وهو ينزل عن الشجرة: أي عمّة: «هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه. بُعث بما بُعث به» فقالت: «أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنَّا نُخَبرُ أنه يبعث مع الساعة»[1].

قال: نعم، والله!.

قالت: فذاك إذن!...

ولم يلبث عبد اللّه بن سلام، أن ترك نخيله، وذهب مع عمته إلى حيث ينزل رسول الله، فأسلما على يديه ثم رجع هانىء البال، إلى أهل بيته، فأمرهم، فأسلموا ولكنه كتم إسلامه خوفاً من قومه اليهود. فلما حان الوقت ورأى أن الإسلام في منعةٍ، والرسول ﷺ ثابت القدمين في بناء أُسُس الدولة الإسلامية في المدينة، راح يحذّره من شر بني قومه، أهل الزور والبهتان، لكي يتخذ الحيطة اللازمة منهم، ومما قاله له: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإني أحب أن تبعث إليهم أن يأتوك ثم تغيّبني وتسألهم عني فإنهم إن علموا بإسلامي بهتوني وعابوني..

ورأى رسول الله ﷺ أن يعمل بما أشار عليه عبد الله بن سلام، فأرسل في طلب اليهود، فجاء بعض الأحبار بالخلفية إيّاها من الحقد

---

(١) وهو ما يدلُّ عليه قولُ رسولِ الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» مشيراً بالسبابة والوسطى.

والرعونة، ولكنها كانت جلسة حجاج ومكاشفة، أرادها الرسول ﷺ لانتزاع ما في نفوسهم، والتصديق بنبوته.. إلَّا أنهم أصرّوا على الإنكار، حينئذٍ قال لهم ما مؤداه: «يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلَّا هو إنكم لتعلمون أني رسولُ الله حقّاً وأنّي جئتكم بحق، فأسْلِموا»!

فقال كبيرهم: ما نَعلمه..

وردَّد آخرُ من بعده: ما نَعلمه..

ثم أعقبه غيرُه: ما نَعلمه..

فسألهم النبيُّ ﷺ: «فأيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟».

قالوا: «سيدنا وابن سيدنا، وأعْلَمُنا وابنُ أعْلَمِنا».

قال النبيّ ﷺ: «أفَرأيتم إنْ أسْلَم».

قالوا: حاشا لله، ما كان ليُسلم».

عندها خرج عليهم عبد الله بن سلام، وقال لهم: «يا معشر يهود، اتقوا الله. فوالله الذي لا إله إلَّا هو إنكم لَتعلمون إنه للنبي الأمّي العربي الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، باسمه وصفته. وإني أشهد أنه رسولُ الله وأنه قد جاء بالحق، وإني أؤمنُ به وأصدِّقه».

فقالوا له: «كذبت.. إنك شرُّنا وابنُ شرِّنا».

فنظر عبد اللّه إلى الرسول ﷺ وهو يقول: «هذا الذي كنت أخافه يا رسول الله». ألم أخبرك بأنهم قومُ بهتٍ، وكذبٍ وفجورٍ؟!..

ولم يكن عبد الله بن سلام وحدَه الذي حفظ التاريخ شهادته

على إفك اليهود وكفرهم، بل وحفظ شهادة أخرى لا تقل أهمية، وهي شهادة السيدة صفية بنت حيي بن أخطب[1]، من بني النضير ـ التي صارت فيما بعد زوجةً لرسول الله ﷺ ـ إذ تروي، أنها في حداثتها، كانت أحبَّ ولد أبيها وعمها أبي ياسر بن أخطب إلى قلبيهما، حتى كان يوم قدوم رسول الله ﷺ قباء، فغدا أبوها وعمها إلى تلك القرية مُغَلِّسَيْن[2]، وما عادا إلَّا مع مغيب الشمس في فتور وكسل، شبه ساقطين من الإعياء الذي يتملّكهما، فهشّت تلقاهما كعادتها إلَّا أن أحداً منهما لم يتطلَّع إليها، فوقفت بقربهما مشدوهة، تستمع إلى عمها وهو يقول لأخيه: أهو، هُوَ؟!.. فيجيبه: نعم، والله!..

فيقول العم: أتعرفه بنعته وصفته؟!.

فيقول أبوها: نعم، والله!..

فيقول العمُّ: فما في نفسك منه؟!

فيقول أبوها: عداوتُهُ، واللَّهِ، ما بقيتُ!..

فذلكم بعض مما يحفظه التاريخ على اليهود، والموقف العدائي الذي اتخذوه حيال الإسلام ورسوله منذ بدء الهجرة إلى يثرب، بل ومنذ وصلتهم أخبارُ دعوته، وهو لا يزال في مكة!..

أما الذين كانوا مذبذبين، فقد زُيِّن لهم أن المسلمين، مهما بلغ باعهم، لن يقدروا على التصدي لليهود والمشركين، وخشية أن يتورطوا مع أحد الأفرقاء، آثروا الانتظار والترقب، وسلوك جانب

---

(١) شهادة السيدة صفية مأخوذة عن السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٦٥ و١٦٦ ـ عن ابن إسحاق.

(٢) الغلس: الظلام، والمعنى سارا في الظلام.

الحيطة والحذر حتى تتبين لهم الأمور، وما تؤول إليه الأوضاع، فلما تبيَّن لهم أن سلطان «محمد» في المدينة يتوطّد شيئاً فشيئاً، وأن المسلمين يزدادون قوةً يوماً بعد يوم، راحوا يدخلون في الإسلام كذباً ونفاقاً، حفاظاً على مصالحهم الذاتية ومآربهم الخاصة.. ففريق نافق كرهاً بالإسلام الذي يفوّت عليه فرص النفع المادية الملتوية، وفريق نافق بسبب معتقداته الوثنية التي لا يريد للإسلام أن يهدمها، ويقتلعها من جذورها، في حين أجمع ظن هذه الجماعات على أن المهاجرين دخلاء على المدينة، ويشكلون عنصراً غريباً يجب العمل على إخراجه من بلدهم حتى لا يستولي على خيراتها، ويقوى بها عليهم.. فكانوا مثلَ اليهود ـ بل وأكثر ـ في موقع العداوة للإسلام، يقولون: «آمنّا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم»، ولذلك انطبق عليهم قول الله تعالى بأنهم «المنافقون» وهذا أشد خطراً، لأنهم ـ في ظاهر الحال ـ يشاركون المسلمين شعائرهم في الصلاة والصيام مثلاً، بينما هم ـ في باطنهم ـ ألدّ أعداء الإسلام وأهله، كما أبانَهُ القرآن الكريم، بالآيات التي تنسب إليهم الكذب والمواقف الخبيثة، والبهتان الذي كانوا يفترونه لضرب مسيرة الإسلام..

على أن تلك الفئة المنافقة لم تظهر بين المسلمين إلَّا في المدينة المنورة، بينما لم تعرفها مكة من قبل.. ولعلَّ تلك الأحوال التي كان عليها المسلمون، يومئذٍ، من الضعف وعدم المواجهة مع المشركين، لم تستدع مجالًا للنفاق حتى يستخفي المنافق وراء كيده ومكره، فظهر المسلم مسلماً، والمشرك مشركاً، والوثني على وثنيته، ما دام المنافق لا يتظاهر باعتناق مبدأ إلَّا رغبةً أو رهبة.. أجل، لقد سقطت في مكة بعض النفوس الضعيفة، ولكن ليس بسبب النفاق، بل لظن أصحابها

أن دخولهم في الإسلام لا يوفر لهم الأماني.. فقد انجذب هؤلاء للإسلام بصورة طبيعية وتلقائية في بداية الأمر، فلما وقع أتباعه في المأزق، وحاق بهم العذاب، لم يجدوا إلَّا الارتداد لأحضان قريش حتى ينعموا بالطمأنينة في ظل زعامتها من ذوي الطباع الشرسة، الذين تغلّبت عليهم مادية الحياة الدنيا، فغلّقوا منافذ الفطرة دون الإسلام وهديه...

ولكن تلك الفئة الساقطة لم تشكل في مكة أي خطر على المسلمين من داخل صفوفهم، بخلاف ما هي عليه الحال في المدينة حيث يتزيّن المنافقون بالثوب الإسلامي، فيندسّون بينهم لمعرفة أسرارهم، والاطلاع على خفاياهم، ومرامهم أن يمدّوا أعداء المسلمين بالمعلومات التي تتيح لهم رسم الخطط لمحاربة الإسلام.. وكان رأس النفاق، وأشدّ المنافقين شراً عبد اللّه بن أبي سلول، الذي استبدَّ به الحنق على رسول الله، بعدما فقد الأملَ بتتويجه ملكاً.. إذ كان الأوس والخزرج قد أوشكوا أن يملِّكوه عليهم في يثرب، لولا أن قَدِمَها رسول الله ﷺ وثبت فيها أقدامه ممَّا جعلَ الناس يتخلّون عن ابن أبي سلول، وعن تمليكه عليهم، لاسيما وأنهم وجدوا شدة الفوارق بين خضوعهم لسلطان دنيوي تغلب عليه المطامع والأنانية، وبين انضوائهم تحت راية الإيمان بالله الواحد الأحد، واتباع النبيّ الذي بعثه اللَّهُ تعالى رحمةً للعالمين.

وإلى عداوة رأس النفاق ابن أبي سلول ومن حذا حذوه من المنافقين واليهود، اجتمعت عداوة الأعراب الذين كانوا يحيطون بالمدينة، ويقيمون في الطرق الواقعة بينها وبين مكة. فهؤلاء ظلوا على الشرك، كالأعراب الآخرين، المنتشرين في أنحاء الجزيرة العربية كلها،

طالما أن الإسلام لم يقوَ على كسر شوكتهم بعدُ، والقضاء على وثنيتهم.

وإلى تلك الأطراف، تضاف فئة صغيرة أيضاً من عرب الأوس والخزرج، التي ظلت على الشرك ولم تدخل في الإسلام. ولكنّها بحكم عنصريتها القبلية، واشتراكها في العادات والتقاليد مع أبناء قومها، الذين صاروا في الغالبية من المسلمين، كان لا بدَّ لها أن ترجعَ في علاقاتها العامة للأفكار وللمشاعر الإسلامية، وأن تخضع للنظام الإسلامي الذي بدأ تطبيقه وإن لم تدخل في الدين الجديد.

تلك هي حالات الجماعات التي كانت موجودة في المدينة ومن حولها يوم أن بدأ الرسول بتأسيس النظام الإسلامي فيها. وقد تباينت مواقفها من النظام الجديد تبعاً لخلفية المعتقدات والأعراف التي كانت تتحكَّمُ فيها، ناهيك عن النوازع الشخصية لقادة تلك الجماعات، وحرصهم على التمسّك بالامتيازات التي كانوا يملكونها!.. ومن هنا ظهرت مقدرةُ الرسول الأعظم في إقامة النظام الإسلامي رغم تعدّدية الجماعات في البيئة الواحدة، وتعدد مذاهبها الفكرية، وأنماط حياتها المجتمعية..

ولقد برزت مقدرته السياسية في الصحيفة التي كتبها بين المهاجرين والأنصار، وفيها وادَعَ اليهود وعاهَدهم واشترط عليهم وشرط لهم، بما يشكل وثيقة لصيانة الحقوق، ولا سيما حقوقهم في حرية المعتقد الديني، ولكن ضمن النهج الواحد، الذي تُطبَّقُ قواعده على الجميع.

ولقد جاء في تلك الصحيفة ـ الوثيقة:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

«هذا كتاب من محمد النبيِّ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (استقامتهم)، يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها (أسيرها) بالمعروف والقسط بين المؤمنين»[1]. ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار، من بَعدِ بني عوف: بني الحارث، وبني ساعدة، وبني جُشَم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النَّبيت، وبني الأوس، إلى أن قال: «وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً (المثقل بالدين والعيال) بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل. وأنْ لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتّقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعَةَ[2] ظُلم أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَدَ أحدهم. ولا يَقتُل مؤمنٌ مؤمناً بكافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. وإن ذمّة الله واحدة، يُجير عليهم أدناهم. وإنه من تبعنا من يهودَ فإن له النصر والأسوة (المساواة) غير مظلومين ولا مُتَناصرين عليهم. وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدة، لا يُسالمُ مؤمنٌ دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلَّا على سواءٍ وعدلٍ بينهم، وإنّ كل غازية غزت معنا يُعقب بعضُها بعضاً.. وإنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.. وإنَّكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد.. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين (الدية) ما داموا محاربين.. وإن يهود بني عوف أمّة مع

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ١٤٧.

(٢) الدسيعة: الجفنة الكبيرة، والقوة، والعطية الجزيلة، والمقصود بها هنا شدة الظلم.

المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلَّا من ظَلَم أو أثِم فإنه لا يُوتِغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. . وإن بطانة[1] يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمد. . وإنّه لا ينحجز (لا يلتئم) على ثأر جرح. وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلَّا من ظلم. وإن الله على أبرّ هذا[2]. وإن على اليهود نفقتَهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصرَ على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وإن النصر للمظلوم. . وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم. وإنه لا تجارُ حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإنَّ مردَّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ. وإن الله ـ والمؤمنين على الرضا ـ بما في هذه الصحيفة. وإنه لا تجارُ قريشٌ ولا من نصرها. وإن بينهم النصر على من دهمَ يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبَسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دَعَوْا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلَّا مَنْ حارب في الدين، على كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم. وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المَحْض من أهل هذه الصحيفة. وإنَّ البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلَّا على نفسه. وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإنه من خرج آمنٌ ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم. وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ واتّقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) بطانة الرجل: خاصته وأهل بيته.

(٢) على أبرّ هذا: على الرضى به.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني، ص ١٤٨ و١٤٩ و١٥٠.

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها النبيّ محمد بن عبد اللّه ﷺ منذ أكثر من ألف وأربعمائة وخمسة وعشرين عاماً والتي تقرِّر الحقوق المدنية والسياسية، وتحرّم الجريمة والظلم، وتدعو إلى الوفاق والوئام، وإلى تقوى الله وبرّه، وإلى كل ما يكفل للإِنسان حياة مليئة بالقيم والمثل، وسليمة من الشوائب والرذائل. ويكفي أن تقرِّر هذه الوثيقة حرِّية العقيدة لأهل الأديان السماوية، حتى يبرز الإِسلام سمحاً، معطاء، غايته التكامل الإِنساني في الأرض، وعبادة الله وتقديسه.

وهذه هي الوثيقة التي حدّدت القواعد العامة أيضاً للعلاقات بين مختلف الفئات والجماعات التي تعيش في المدينة. فصارت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها، عليهم أن يدافعوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قرّرت هذه الوثيقة من الحقوق والضمانات. كما عيَّنت هذه الوثيقة الحدود التي يلتزمها كل طرف، حتى لا تكون دون قيود أو ضوابط، ولا يصار إلى سوء استعمالها، أو استغلالها وإشاعة الفوضى بما يضيّع فاعليتها، ولذلك كان لا بد من تعيين الحدود وفرض القيود والضوابط لتأتي متوافقة متفاعلة مع المصلحة العامة... فكان التحريم في الوثيقة لكل ما من شأنه أن ينتهك حرمة المدينة بحرب أو بنصرة على حرب، والتحريم على اليهود ـ خاصة ـ أن يجيروا قريشاً ـ عدوَّة الإِسلام، المتربصة في مكة للانقضاض والقضاء عليه ـ كما كان التحريم لأي فساد أو ظلم، والتشديد في كل حدث أو خلاف على تقوى الله تعالى، وأن يكون الفصل في كل أمر أو شأن للحاكم الوحيد في المدينة، محمد رسول الله ﷺ الذي يحكم بما أنزل الله، وإنِ الحكمُ ـ دائماً وأبداً ـ إلا لله العزيز الحكيم..

ولقد وقّع على تلك الصحيفة جماعات اليهود التي ذكرت فيها، كيهود بني عوف، ويهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني ثعلبة.. أما الآخرون منهم، الذين لم يشتركوا في تلك الصحيفة، أمثال بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، فإنهم عادوا وعاهدوا الرسول ﷺ على الانصياع لأحكامه وأوامره، فعقد معهم صُحفاً مماثلة. وبذلك سُوِّيت العلاقات بين جميع أهل المدينة، ولم يبقَ نفرٌ أو قبيلٌ إلَّا وقد عرف ما له من حقوق، وما عليه من واجبات..

وبتوقيع تلك الصحف ـ المواثيق، وما انبثق عنها من علاقات جديدة لم تعرفها المدينة من قبل، اطمأن الرسول الأعظم إلى هذا الفتح الجديد من الله سبحانه، الذي أيَّده به وحَباه بالعزة والمنعة، كي يقيم دعائم مجتمعه الذي يريده، وركائز دولته التي يعمل على تأسيسها، والتي سوف يكون هدفُها الأعلى نشر دين الإسلام لا في ربوع الجزيرة العربية وحسب، بل في بقاع الأرض وأمصارها ما دامت للمسلمين النية والإخلاص والإرادة التي يتوجهون فيها إلى الله تعالى.

وكان الوحيُ يتنَزَّل متتابعاً على النبي ﷺ بالتشريع الذي يدعِّمُ نظام المجتمع الذي يبنيه. فأُوحيَ إليه بالأذان[1] للصلاة. وصار أهل

(١) مهما تكن الملابسات أو التفصيلات حول الأذان وبيان جزئياته، فإنه لا يمكن أن يكون إلَّا بأمرٍ من الله تعالى، لأنَّ الأذان من شعائر الإسلام، وبه تعرف الجماعات الإسلامية أينما وجدت. وعليه فلا يجوز أن يترك لشورى المسلمين أو اجتهاداتهم كما ذكرت بعض السِّير.. كما وأن الأذان عبادة بحد ذاته، والعبادة لا تُعرف أجزاؤها إلَّا بوحيٍ من الله ـ عز وجل ـ إلى نبيه الكريم، لا برؤيا لغيره، مهما كانت مكانة هذا الغير في الإسلام، مما يدفعنا إلى القول باطمئنان ـ بإذن الله تعالى ـ بأن الأذان قد نزل به جبرائيل الأمين عليه السلام على قلب محمدٍ ﷺ فعلَّمه للناس عامة، ولأهل بيته خاصة، وأهل البيت أدرى بالذي فيه..

المدينة يسمعون كل يوم، دعوةً تتردد خمس مرات، يطلقها بلال بن رباح مرتَّلةً بصوت رخِيٍّ أحسن ترتيل، فتنقلها الرياح نشوى، ويحملها الأثير إلى الآفاق البعيدة عبقاً، فتترنم بها العوالمُ مَغْناةً للحق الأزلي، وتتلقفها المسامع فتحيلها إلى القلوب ترنيمةً للإيمان الثابت، وذلك بالإعلان الذي تخشع له السماوات والأرض ومن فيهن وما بينهنَّ، وهي تستمع إلى نداء «الله أكبر.. الله أكبر لا إلَه إلَّا اللَّهُ.. لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ـ محمدٌ رسولُ اللَّه.. محمدٌ رسول الله..» فهو النداء إلى تكبير اللهِ ـ تعالى ـ وتوحيده قبل كل شيء، لأنه سبحانه ذو الجلال والإكرام أكبر من الوجود ومخلوقاته، ومن الكون وعوالمه، لأنه سبحانه خالق الوجود، وخالق الكون، وخالق الأوصاف والنعوت..، فهو الله الذي لا إله إلا هو، وهو ربُّ العرش العظيم..

وبتلك الخطوات العقائدية والتنظيمية التي تعتبر فتحاً من رب العالمين، والتي قام بها الرسول الأمين بتدبيره الحكيم بدأت تلوح تباشير القوة المعنوية في حياة المسلمين، وهذا من شأنِهِ أن يطمئن إلى سلامة المسيرة، وغدها المشرق بإذن الله..

ومثل هذا الاطمئنان حدا بالنبي ﷺ لأن يفكر بترتيب بعض الشؤون الخاصة به.. فهذه عروسه عائشة، قد عقد قرانه عليها منذ ثلاث سنوات، يوم كان لا يزال في مكة، وقد هاجرت لتقيم مع ذويها في المدينة، فلم لا يدخلها بيت الزوجية، وقد صارت مؤهلة لذلك؟...

وبالفعل نقل ﷺ عروسه، وبنى بها في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة[1]، فكان لها نعم الزوج المحبّ الرفيق، وكانت له نعم

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١٣ ص٣٨.

الزوجة الوفية الرفيقة التي تعايشه في حياته الجديدة في المدينة، بل ومن الخاصة الأقربين منه، الذين وهبوا أنفسهم لخدمته، ومشاركته ـ ولو نفسياً ومعنوياً ـ في أعبائه الثقيلة، كما هو الحال مع ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام التي كانت لا تزال تعيش في الكنف النبوي بجميع مآثره..

الإسلام طريقة معينة للعيش

ولم تكن حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تختلف في واقعها عن حياة سائر المسلمين، اللَّهم إلَّا ما يحمل من أثقال الدعوة.. فالكل يعيش حياة التواضع والألفة، وحياة التضامن والتكافل، والكل على أهبة الاستعداد للتلبية حينما يدعوه نداء الواجب.. وكل ذلك طبقاً لما للإسلام من طريقة خاصة في الحياة، قامت عليها الحضارة الإسلامية فيما بعد، التي تختلف ـ بطبيعتها ـ عن حضارات الدنيا، باعتبار أن الحضارة لا تعدو كونها مجموعة من النظم والقيم والمفاهيم عن الإنسان والحياة والكون، التي تنبثق دائماً عن عقيدة معينة تعتنقها الأمة وتنشئ على أساسها حضارتها.

وتتلخص طريقة الإسلام في الحياة بأمور ثلاثة:

أولها: أن الأساس الذي تبنى عليه هو العقيدة الإسلامية.

وثانيها: أن مقياس الأعمال في الحياة يتحدد تبعاً لأوامر الله ـ تعالى ـ ونواهيه، أو بعبارة أخرى إن صورة الحياة في نظر الإسلام تبرز في دائرتين: إحداهما تحتوي الحلال وما ينبثق عنه من خير، والأخرى تنطوي على الحرام وما يَنجُم عنه من شر.

وثالثها: أن معنى السعادة يختصر بمشاعر الطمأنينة الدائمة في النفوس، والتي لا تتحقق إلا برضوان الله تعالى.

هذه هي الطريقة التي تقوم عليها حياة المسلمين، وينشدون السيرَ على نهجها طلباً للسعادة، وهذه السعادة لا تتم إلّا إذا كان لهم دولة تطبق الإسلام وتنفِّذ أحكامه.

والمسلمون حين انتظموا في المدينة المنوَّرة تحت لواء الإسلام، بدأوا يعيشون على هذا النهج الذي تأسَّسَ على العقيدة الإسلامية. وكان القرآن الكريم يتنزَّل تِباعاً على النبيّ ﷺ لتبيِّن آياتُه العظيمة حُكم الله ـ تعالى ـ في المعاملات والعقوبات، ولتكمّل ما لم يُتَنَزَّلْ بعدُ من العبادات.

فلما جاءت السنة الثانية للهجرة، نزلت فرائض الزَّكاة والصِّيام.. فالزكاةُ فُرضت تقريراً لقاعدة التكافل والتضامن بين جميع أفراد المجتمع، فلا يبيت فردٌ على جوع، ولا ينامُ آخر على تخمة.. والصيام شُرِّع لتقوية الإرادة الفردية، وتربية النفس على التحمُّل والصبر، وإرهاف الإحساس الإنساني نحو الفقير والمسكين.. فضلًا لما للصوم من ميزة خاصة على سائر العبادات والتي يبيّنها الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به».. إذن فالزكاة والصيام فريضتان من الشارع الأعظم، ربنا تبارك وتعالى، لحمل الإنسان على التكامل في حياته..

تحول قبلة المسلمين

وفي هذه الأجواء التي تعبق بشذى اتصال الوحي الإلهي بالأرض تحوَّلت قبلة المسلمين عن بيت المقدس إلى الكعبة المكرَّمة في مكة، ولمَّا يمضِ على مكوث النبي ﷺ في المدينة أكثر من سبعة عشر شهراً، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي

ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2]..

وظلت الآيات تترى نزولًا مع الوحي الكريم، لترسم للمسلمين كلَّ خطوة في العبادات والمباحات والمحرَّمات والعقود والمعاملات..

فنزل تحريم شرب الخمر، وتحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بهِ.

كما نزلت الآيات التي تبين حدودَ الله، والجنايات، وأحكام البيع، وتحريم الرِّبا، وما إليها من الأحكام التي تعالج مشاكل الحياة بأسرها..

وكان الرسول الأعظم يتلقَّى الوحيَ، ثم يبلِّغ الناس، ويفصِّل الأحكام التي يتلقَّاها، ويبين صورها ومفاهيمها وآثارها، ثم يقضي في أمور الناس، ويعالج مشاكلهم، ويدبِّر شؤونهم، ويَفْصِلُ في خصوماتهم على ضوء تلك الأحكام وبالاستناد إلى مضامينها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٤٩ و١٥٠.

وأكثر ما يدهش الإنسان في هذه الحقبة من حياة الدعوة الإسلامية، هو لطف رب العالمين بأهل الأرض، والعناية الإلهية بأولئك الناس الذين يدورون في فلك رسول الله ﷺ في دقائق أمور حياتهم الواسعة التي يتراحم بها الناس جميعاً فتطمئن نفوسهم، وتستقيم سبل حياتهم.

وتتجلى صورة من أجلّ صور الرحمة الربانية بالمسلمين، في حادثة خولة بنت ثعلبة وزوجها مالك بن أوس بن الصامت (من الأنصار)، فقد كانت تلك المرأة ذات حسن وجمال، وقد رآها زوجها ساجدةً في صلاتها فراقت له، حتى إذا فرغت من صلاتها دعاها إليه فأبت عليه.. ويبدو أنه كان امرأً سريع الانفعال، فإذا استحكم به الغضب جعل خُلقَ الجاهلية ـ الذي كانت بقايا آثاره لا تزال عالقة في بعض النفوس ـ يسيطر عليه، فلمْ يكنْ منه في سورة غضبه إلَّا أن قال لها: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أُمِّي (وكان هذا الظِّهار من طلاق الجاهلية).. ثم لم يلبث أن استعادَ وعيه، فندم وقال لها:

ـ ما أراك إلَّا قد حَرِمْتِ عليَّ.

ودهشت المرأة وصرخت في وجهه: ما ذكرت طلاقاً؟!

وحارَ الرجل في ما يفعل، فأشارت عليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي له في هذا الأمر!..

ولكنَّ الرجل أبى، استحياءً منه ﷺ وخجلًا من سوء فعله.. فما كان من المرأة إلَّا أن أتت نبيَّ الله، فوجدته يغسل رأسه الشريف، وزوجه عائشة تصب له الماء، فاندفعت تخبره بحالها وتبثُّ شكواها إلى الله، وهي تقول:

«يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة جميلة ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني، ظاهَرَ منِّي، وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه فتنعشني به؟ وإني أشتكي إلى الله سبحانَهُ ما يؤول إليه أمري؟».

فأبدى لها رسولُ الله أنَّ الظهار هو من طلاق الجاهلية، ولم يتنزَّل به حكم تشريعيٌّ بعدُ من الله تعالى. . . .

فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذَكَرَ طلاقاً، وإنه أبو أولادي وأحبُّ الناس إليَّ.

فأبدى لها الرسول بأن تنتظر لعلَّ الله تعالى يأمره في شأنها بشيء. . ولكنَّ المرأة، وهي ملتاعة، أبت إلَّا حلاًّ لمعضلتها، فأخذت تجادله في زوجها وتشكو إلى الله تعالى فاقتها وشدة حالها، وصبية صغاراً إن ضمَّتهم إليه ضاعوا، أو إليها جاعوا، ثم راحت تتضرع وتقول: اللَّهمَّ أنزل على لسان نبيك ما تُنعش به أملي، وتسكِّن فيه روعي. .

وكان ﷺ في تلك الأثناء ـ ولشدة ما رأى من انفعال المرأة وتأثرها ـ قد انقطع إلى ربه ـ تعالى ـ يدعوه ويتضرع إليه أن يُستجاب سُؤْلُ هذه المرأة، بينما السيدة عائشة ترقب ما يدور، فلا تجد ـ وخولة تلِجُّ في الطلب، وتُلِحُّ في الدعاء ـ إلَّا أن تقول لها:

ـ أقصري يا امرأة حديثك ومجادلتك، أما ترَين وجهَ رسول الله ﷺ؟!. . فسكنت خولة وقلبها يخفق بالأمل والرجاء!. .

وكان ﷺ إذا أنزل عليه الوحي، أخذه مثل السُّبات. . حتى إذا سُرّيَ عنه نظر إلى المرأة وهو يتبسّم، وقال لها: يا خولة قد أنزلَ الله

فيك وفي زوجك قولَهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

فيا سبحان الله!..

مَنْ مِنَ الناسِ، في مثل هذا الموقف، لا يقشعرّ بدنُهُ، ولا ترتجف أوصالُهُ؟! فالله ـ جلَّت عظمته ـ قد سمع قول خولة بنت ثعلبة، وهي تجادل النبيَّ ﷺ في زوجها أوس بن الصامت وتشتكي إليه سبحانه ظلم هذا الزوج وما أوقعها وأوقع نفسه فيه من الورطة؛ إنه ـ تبارك وتعالى ـ يسمع ـ من فوق عرشه العظيم ـ تحاورها مع رسوله الكريم لأنه سبحانه هو السميع البصير..

نعم، من لا ترتعد فرائصه خوفاً ووجلًا وهو يعلم أن الله يراقبه في كل حركة يقوم بها، وفي كل قول يقوله، وفي كل تحاور يجريه؟.. أوَ يعلم الإنسانُ ذَلك، ويَجرؤ من ثمَّ على قول بهتان أو

(١) سورة المجادلة: الآيات ١ ـ ٥.

زور، أو على فعل حرام أو منكَر؟!... ومن يفعل فإنما يكون من الظالمين لأنفسهم، وهذا في ما خصَّهُ هو بالذات.. فكيف لمن يسيء إلى وطنه أو لدينه أو لأمته؟! فتلك هي المصيبة الكبرى التي قد تحلُّ به وهو لا يتوقع حدوثها.. إيهِ أيها الإنسان، تفكَّر وتيقّن أن الله سبحانه وتعالى أقرب إليك من حبل الوريد، وهو دائماً معك، يرقبك في كلِّ قولٍ وفعل. إنه يسمع حوارك، ويسمع همسات نفسك وخلجات صدرك ويرى فعالك،.. فهلَّا اتَّقيت الله العليَّ الكبير، وخجلت من الخالق اللطيف الخبير فلا نويت، ولا قلت ولا فعلتَ إلَّا خيراً؟!...

تلك هي نفحة من نفحات ظلال الرحمة التي كان يُحيطُ بها الله سبحانه وتعالى نبيَّهُ والمسلمين، فلا شأنَ ولا حدثَ فردياً أو جماعيّاً إلَّا ويتنزَّلُ به الوحيُ حكماً يسري على مَدى الدهر، لأنَّ حكم الله ـ ولا ريب ـ عادل، ثابت، لا يتغيّر مهما دار الزمان، ولا يتبدل مهما اختلف المكان، ولذا كان حلالُ محمد ﷺ حلالًا إلى يوم القيامة، وحرامه حراماً إلى يوم القيامة.

أجل كان الرسول الأعظم يتلقى النفحة تلو النفحة من لدن العزيز الحكيم، ويتفيأ في ظلال الرحمة من رب العالمين، فيَنشر آيات الله تعالى أقوالًا وفعالًا تكرّس لنا شريعة ثابتة، وسنَّة نَبويَّةً دائمة، لأنه في كل أقواله، وفي كل أفعاله، كان لا يقول إلَّا الحق، ولا يفعل إلَّا الحق الذي نزل إليه من الله الحق، فإنه ﷺ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوْحَى..

ومن جميل أقواله، وحسن فعاله، بَنَى الأساس للحضارة الاسلامية، التي ـ نجدها ـ تتلخص بإجابته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأله عن سُنَّته، فقال: «المعرفة رأسُ مالي، والعقلُ أصلُ ديني،

والحبُّ أساسي، والشوق مَرْكَبي، وذكرُ الله أنيسي، والثقةُ كَنزي، والحزنُ رفيقي، والعِلْمُ سلاحي، والصبرُ ردائي، والرِّضى غَنيمتي، واليقينُ قوتي، والصدقُ شفيعي، والطاعةُ حسبي، والجهادُ خُلقي، وقرَّةُ عيني في الصلاة»[1].

هكذا كان محمدٌ رسول الله ﷺ بذاته، وسنته في القول والفعل ـ بل وفي سكوته ـ المثلَ الحيّ للتعاليم التي جاء بها، والتي برزت في تلقينها لأخيه في الإسلام، وابن عمه في القربى، عليِّ بن أبي طالب، لتكون سنَّةً نبويَّةً، للإنسانيةً، وحجر أساس للحضارة الإسلامية.

وها هي شذراتٌ من خلقه العظيم، وسلوكه القويم، تنبئ عن رفضه الظهور في أي مظهر من مظاهر السُّلطان، أو المُلك أو الرياسة الزمنية، بل كان يردد على مسامع أصحابه:

«لا تُطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدُ اللّه، فقولوا عبد اللّه ورسوله»[2]. وخرج يوماً على جماعة من أصحابه وبيده عصا يتوكأ عليها، فقاموا له، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظِّم بعضهم بعضاً»[3]. . وكان إذا بلغ مجلساً من مجالس أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس. وكان يخالط أصحابه ويحادثهم ويلاطفهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حِجْره، ويُجيب دعوة الحر والعبد والأمةِ والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويَقبل عُذر المعتذر، ويسبقُ من لَقِيَهُ بالسلام، ويبدأ

(١) أحمد بن حنبل، الجزء الأول ص ٤٤٤.
(٢) البخاري، الأنبياء، ص ٤٨.
(٣) سنن أبي داود، باب الأدب، ص ١٥٣.

أصحابه بالمصافحة، ولا يجيء إليه أحد وهو يصلي إلا خفَّف صلاتَه وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

أما في سيرته الذاتية، وما يخص شخصه النبيل، فالتواضع نهجُهُ: يطهر ثوبه ويرقعه، ويحلب شاتَهُ، ويخصف[1] نعلَهُ، ويعقل ناقتَهُ، ويأكل مع خادمه.. والحدب شَجْوُهُ: يحنو على الأرملة والضعيف، ويقضي حاجة الفقير والمسكين، ويعين البائس وابن السبيل، يؤثرهم على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة.. أما محبة الأهل وذوي القربى فهي ديدنه.. والوفاء للصحابة طبيعته.. والإسلامُ دينُهُ.. والقرآن كتابه.. ورضى اللَّهِ تعالى رجاؤه..أجل تلك نفحات من حياته الخاصة.. ولا تقف أخلاق محمد ﷺ وفضائله عند حدود الإنسان بالبر والرحمة، والمعاملة بالحسنى، ومحاربة الظلم والفساد.. وما إلى ذلك من صفاته النبوية والإنسانية، التي تعدُّ منهلًا يستقي منه الإنسان المدرك، والتي كانت الأساس الذي ابتنى فوقه المسلمون حضارتهم التي تتزود منها الحضارات.. أجل، لم يكنِ الإنسانُ وحدَهُ مدارَ اهتمامِ محمدٍ ﷺ، بل عدّاه إلى الحيوان، فكان يفتح بنفسه الباب لهرةٍ تلتمس عنده الملجأ، أو يقوم على تمريض ديك مصاب، أو يعالج الأنعام بالكي، أو يمسحُ جواده بكم ثوبه... حتى شملت رحمته كلَّ ما اتصل بها، وأظلَّت كل من كان بحاجة للتفيؤ بظلالها..

إنه محمدٌ الرسول.. ومحمد الإنسان.. ومحمدٌ المثل الأعلى والأسوة الحسنة للمسلمين، ولجميع خلق الله ممَّن أراد أن يحتذي

---

(١) خصف النعل: أطبق عليها مثلها وخرزها.

بسنته.. وقد اقتدى به كثيرون، فأقبلوا على الإسلام يزيدهم شرفاً وعزَّةً، ويزداد بهم قوةً ومنعةً.. فانطلقت الحياة في المدينة على طريقة الإسلام: فكراً، وقولًا، وعملًا صالحاً..

وأقبل المسلمون ـ في جلّ اهتمامهم ـ على ملازمة هذا الرسول الكريم، يتعلمون أحكام الدين، ويحفظون آيات القرآن، ويتثقفون بمعانيها الواعظة، ويتربّون بأخلاقها الفاضلة، وينهجون على سنة الله ورسوله...

ظهور النفاق في المدينة

إلَّا أنَّ هذا الوضع الجديد الذي نشأ في المدينة بات يخيف اليهود والمذبذبين ويدفعهم للتفكير في ما يجب صنعُهُ تجاه هذه الدعوة التي يحملها «محمد»، والتي هي السبب في كلِّ ما يجري من حولهم، فهل يتركون هذه الدعوة تنتشر، وسلطانَها الروحي يمتدّ، مكتفين بالأمن في جواره، ثم لا يجدون أنفسهم إلَّا وقد غلبت تعاليم دعوته على أفكارهم ومعتقداتهم، وصهرت الناس في هذا المعتقد الجديد، وهذا ما لا يرضونه على الإطلاق؟!.

لا، إنهم لا يريدون ـ أصلًا ـ الإقرار بالإسلام، ولا التصديق بنبوة «محمد»، وبالتالي فلن يقبلوا بأن ترتفع أية مداميك للبناء الإسلامي!.. ولكن ما السبيل، وحال المسلمين قد تغيرت عمَّا عهده الناس في مكة؟ لقد استطاعت قريش أن تناصب «محمداً» العداءَ جهراً وعلانيةً، وليس هذا بمقدورهم هنا في المدينة، مما يجعل سلاحهم الأقوى الدسيسة والنفاق. ولذلك اجتمع الدهاقنة: عبد الله بن صيف، وعديُّ بن زيد، والحارث بن عوف ودعوا كبار

الأحبار من اليهود لوضع استراتيجية العمل المقبل، الذي يقوم على اختيار أكفاء في ضروب الكذب والنفاق، فيعلنون دخولهم في الإسلام كي يتاح لهم أن يندسّوا بين المسلمين، وليقوموا من ثَمَّ بالأفاعيل التي يوجّههم إليها زعماؤهم، والتي من شأنها بذر الشك، والتفرقة، والعداوة بين صفوف المسلمين.. ومن جملة ما أوصوا به، أن يقول بعضهم لبعض: «تعالوا نؤمن بما أنزل على «محمد» غُدوة، ونكفر به عشية، حتى نَلبِسَ على المسلمين دينهم، لعلَّهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن هذا الدين»(١).

وكان ما خطَّطَ له اليهود.. فدخل أحبار منهم في الإسلام كذباً ورياء، وراحوا بعد إعلان «إسلامهم» يجلسون إلى رسول الله ﷺ، ويلقون عليه من المسائل، ما هو كفيل ـ بحسب ظنهم ـ أنْ ينشُرَ الشكوكَ حول العقيدة الإسلامية، وزعزعة ثقة المسلمين بنبيّهم.. ولكنَّ الله بالغُ أمره، فأنزل قرآنا مبيناً يفضح سرائرهم ويظهرُ النفاقَ وأهلَهُ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾(٢).

وهنا، وبهذا التنبيه من رب العالمين ـ فطن المسلمون لخطر المنافقين، فصاروا يَحذَرون منهم لئلا يستفحل كيدهم، كما حصل عندما وجد رسول الله ﷺ جماعة من المنافقين في المسجد، قد لصق بعضهم ببعض، وهم يتخافتون فيما بينهم، فأمر بإخراجهم ولو عنوةً وبالقوة...

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٠٢.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان ٧٢ و٧٣.

ومع ذلك فقد استمروا في الدأب على الوقيعة بالمسلمين، ومثاله ما فعل شاس بن قيس وهو يرى نفراً من الأوس والخزرج يجتمعون سويةً على المودة والألفة، فغاظهُ صلاح ذات بينهم، كما حدَّثته نفسه وهو يقول: «قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، وما لنا معهم إذا اجتمع ملَؤهم من قرار».. وواتته الفرصة لإثارة الخلاف بينهم، إذ رأى فتًى يهودياً بالقرب منهم، فناداه وأسرَّ إليه أن يندسَّ بينهم، ويجهد ليذكر يوم «بعاث» وما كان فيه من انتصار للأوس على الخزرج.. وما إن سمع القوم بذكر تلك الواقعة المشؤومة حتى تنازعوا فيما بينهم، وهم يقولون لبعضهم البعض: «إن شئتم عدنا إلى مثلها»!.. وبلغَ رسول الله ﷺ خبرُهم، فأتاهم، ومعه جمع من الصحابة، يذكّرهم بما ألَّف الإسلام بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً متحابّين.. وما يريد لهم اليهود والمنافقون من كيدٍ حتى يتفرَّق شملهم، وتذهب ريحهم.. وبدا عليهم التأثر ـ وهم يستمعون إلى نبيهم ﷺ، وهو يرشدهم بالحكمة والموعظة الحسنة ـ حتى بكوا.. فتدافعوا يتعانقون، ويستغفرون الله على ما بدرَ منهم في نزعة جاهلية بغيضة، عافتها نفوسهم منذ أن منَّ الله عليهم بالإسلام.. ولمَّا لم تكن مثل تلك الدسائس التي كان يفتعلها اليهود والمنافقون لِتُجديَهم نفعاً، فقد تحوّلوا إلى أساليب في الدهاء أشدّ وأعتى، فصاروا يأتون النبي ﷺ إما منكرين نبوته، أو طالبين معجزات تثبت بعثته، كما فعل عبد الله بن صوريا الفطيوني عندما قال له: «ما الهدى إلا ما نحن عليه، وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها»، وفي ذلك تنزَّل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٩.

وجاءه مرةً رافع بن حُريملة، ووهب بن زيد، يقولان له: «يا محمد، ائتِنا بكتاب تُنزِّله علينا من السَّماء نقرأُه، وفَجِّرْ لنا أنهاراً، نتبعك ونصدقك»!..

فأنزل الله تعالى في ذلك قوله الحق: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

ورأى أهل الكيد والمكر في صرف القِبْلة إلى الكعبة الشريفة منفذاً للإيقاع برسول الله ﷺ، لأنه ينقُض ـ على حسب اعتقادهم ـ ما جاء في الكتب السماوية السابقة، ويجعل «محمداً» يستنُّ لنفسه أموراً لا تأتلف مع تعاليمهم الدينية. فاجتمع إليه وفد منهم، وفيه: رفاعة بن قيس، وقَرْدَم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو، (حليف كعب بن الأشرف)، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقيق، وأخوه كنانة، قائلين:

«يا محمَّد، ما ولَّاك عن قبلتِك الَّتي كنتَ عليها، وأنت تزعم أنك على ملَّة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نَتَّبعك ونصدِّقك» ـ وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه كما هو بادٍ بوضوح ـ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٨.

لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

فهذه الآيات المبيّنة واضحة الدلالة على بطلان قول السفهاء، ذلك أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي ولَّى رسوله محمداً ﷺ عن قبلته التي كان عليها ـ وهي بيت المقدس ـ إلى المسجد الحرام ـ في مكة المكرمة ـ حيث الكعبة الشريفة مصلّى الأنبياء.. وإنَّ أهلَ الكتاب ليعلمون أن هذا التولّي هو الحق من ربهم، وما على الرسول محمد ﷺ إلَّا اتباع أمر ربه، لا اتباع أهوائهم، فأمرُهُ ـ عز وجلَّ ـ هو الحق، وليس ما يمترون!..

لقد جحدوا بتلك الآيات ـ واستيقنتها أنفسهم ـ فازدادوا غيًّا، حتى وصَلَ الأمر إلى حد الأذى العلني على الرغم مما يربط اليهود من عهد مع رسول الله ﷺ.. وحسبنا لتقدير هذا الوضع ـ بسبب الإفك من تلك الفئة الباغية ـ أن نذكر ما جرى مع أبي بكر رضي الله عنه عندما كان يحاول أن يهدي يهودياً، يدعى فنحاص، إلى الإسلام، فما كان من ذلك اليهودي المارق إلَّا أن كشَّر عن نابه، وهو يقول له: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما ندعوه كما يدعونا. وإنا

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٤٢ ـ ١٤٥.

عنه أغنياء، وما هو عنّا بغنيّ، ولو كان غنياً عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، وأعطانا وأَعطيناه، ولو كان غنيّاً عنا ما أعطانا»[1].

ولكنَّ أبا بكر ـ وهو ما هو عليه من دماثة خلق، وطول أناة ولينٍ في الطبع ـ لم يحتمل مقولة ذلك اليهودي، فغضب لله، ولطم فنحاص على وجهه لطمة شديدة، وهو يقول له:

ـ والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله!..

واستغل اليهود هذا الحادث، منكرين جملة وتفصيلًا أن يكون فنحاص قال ذلك القول، أي بما يكذب أبا بكر ﷺ ويسيء إليه.. بل وراحوا يشيِّعون بأن المسلمين هم الذين يستفزّونهم ليعتدوا عليهم، وينالوا منهم!... ولكنَّ كيدهم ارتدَّ إلى نحورهم، إذ تنزَّلت الآيات القرآنية التي تفضح كذب المنافقين، وتتوعدهم بعذاب السعير بقول العزيز الحكيم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[2].

---

(١) لقد كان فنحاص اليهودي مثالًا للحاقدين على القرآن وأهله، فما وجد لشدة بلاهته ورعونته ـ إلا آيات الله ـ المنتقم الجبار ـ سبيلًا لينفث سمومه: وذلك بالتطاول على قوله تعالى الذي تنزل في الآية ٤٥ من سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.. فانظر إلى هذا الكيد اليهودي، وتلك السفاهة، وعلى ماذا؟ على القول الحق من لدن الكبير المتعال؟!.. الله أكبر، ما هذه الجرأة؟! وما هذا الكفر؟! أبقول الله ـ عز وجلَّ ـ وآياته يستهزئون ويعبثون؟!

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

وكان رسول الله ﷺ، على الرغم من تلك الحوادث، لا ينفك عن دعوة اليهود إلى الإسلام وترغيب الناس جميعاً في هذا الدين.. ولكن أنَّى للنفوس التي امتلأت بالشر والدنس أن تحيد عن غيِّها وسفاهة أحلامها، فقد كان أهل الكفر والشرك في كل مرة يدعوهم الرسول الأعظم إلى الهدى، يعكسون الآية ويحاولون إيقاع المسلمين في الفتنة، أو يردّون عليه ـ هو ـ بالرفض المطلق محتجّين بأنهم وجدوا آباءهم على ملة ـ وهم أعلم منهم ـ وهم يتبعون ملَّةَ آبائهم، كما احتجَّ بذلك رافع بن خارجة، ومالك بن عوف لدى رسول الله ﷺ، كما يبينه قول الحق تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

وفد نصارى نجران في المدينة

وفي ذلك الوقت الذي اشتدَّ فيه الجدال والخصام بين المسلمين من ناحية، والمنكرين من اليهود والمشركين من ناحية ثانية، قدم المدينة وفدٌ من نصارى نجران، عدّتُهُ ستون راكباً، وغالبهم ممَّن درس الكتاب، وحسن علمه في الدين، فكان ملوك الروم ـ وهم على النصرانية ـ قد شرَّفوه، وأمدّوه بالمال، والعقار والخدم، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه المكرمات حتى صارَ من ذوي المكانة الرفيعة في بني قومه.. وقد جاء ذلك الوفد رغبةً في استطلاع خبر النبي ـ في آخر الزمان ـ ومعرفة الدين الذي يدعو

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

إليه؛ واتصل الوفد أولًا بأحبار اليهود، وعقد معهم الاجتماعات لأنهم أهل كتاب مثلهم، أما ما دار بينهم فذلك شأنٌ هم يعلمونه.. المهم أن الوفد النجراني كان مقصده الرسول محمد ﷺ، فجاؤوا يحاورونه، ويلقون عليه المسائل التي في ظنهم أنها تعجزه، والرسول يردُّ بالآيات القرآنية التي تبين حقيقة الإسلام وأحقية نبوّته، ثم يلقي عليهم الحجة بدعوتهم إلى الإسلام، مستفتحاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

وزادهم الرسول الأعظم بأن يجتمع وإياهم إلى اليهود على أن يكون الحكم الفاصل نصوص التوراة والإنجيل وما تنزَّل عليه من آيات القرآن الكريم في كل ما يمكن أن تجري مناقشته أو يدور حوله من جدال، لأن الغاية هي الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ رب السماوات والأرض، ورب العالمين أجمعين.

فهل بعدُ أبسط وأقوى من هذه الدعوة الصريحة؟

وانعقد الاجتماع الذي شهدته المدينة المنورة والتقت فيه الرسالات السماوية الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام، في أول لقاء من هذا النوع في دنيا الناس.. وقبل الدخول في المسائل الفرعية، طرح محمدٌ رسول الله أن يكون محور الاجتماع الإقرار بالألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة لله رب العالمين، وعمادُهُ قوله

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

وأراد المجتمعون، ولاسيما اليهود، التملّص من بحث هذه المسألة، فابتدروا الرسول ﷺ بالسؤال عن رأي الإسلام في ما أنزل على الأنبياء والمرسلين، وبماذا يؤمن مما أنزل عليهم، وبمن يؤمن به منهم؟!..

وكان محمد رسول الله واضحاً في تبيان هذه المسألة التي لا يرقى إليها الشك لدى أحدٍ من المسلمين، وهو يتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2].

فماذا يستطيع، بعدُ، اليهود، وماذا يستطيع، بعدُ، النصارى، أو غيرهم من الناس أجمعين، أن يقولوا في إيمان المسلمين الحق بالله الذي هو عماد الإيمان والتقوى، ومن ثم الإيمان بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل إلى جميع النبيين بلا أدنى تفريق بين أحد منهم؟!.. فقد بعثوا جميعاً بدعوة الحق، وكلمة السواء بين الناس: ألَّا يعبدوا إلَّا الله ولا يشركوا به شيئاً.. ولكن هل اتَّبعَ الناسُ، وأهلُ الكتاب خاصة، هذا المنهاج الرباني؟! ولماذا ابتعد الناس عن الدين حتى صارت الماديَّة شرعتهم؟! من هنا كان المعوّل على الإنسان وما

(١) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

تمتلك نفسه من بذور الإيمان أو الكفر للانصياع إلى الحق، أو الابتعاد عنه!..

فأما الإنسان الذي كرَّمه الله تعالى بالعقل والحسّ، وأودعَ فيه الفطرة السليمة فلا بدَّ أن يستشفَّ الإخلاص لله العلي العظيم، ويؤمن بحقيقة بعث جميع النبيين والمرسلين لهدي الناس، فلا يكون بالتالي من مجال له إلَّا أن يؤمن بإيمان محمد رسول الله ﷺ لأنه الإيمان الذي يسع الأديان كلها، وما حملت نصوصها الأصيلة ـ قبل أن يدخل عليها التحريف ـ وهو الإيمان الذي يجعله مسلماً لله تعالى، ويلتزم بأحكام الإسلام، ويعمل بتعاليمه..

ولكن، وكما يتراءى لنا في الحياة، فإنَّ مع الجانب النفسي هناك الجانب المادي ـ الذي يبدو الأشدّ تأثيراً على النفوس ـ والذي يطغى على الإنسان، ويجذبه إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها، فيخذله وينسيه آخرته، فيشتري زيف هذه الحياة الدنيا بأحقية الآخرة، كما يصرّح به «أبو حارثة»، أكثر أفراد الوفد النجراني علماً ومعرفة، وهو يسرُّ إلى أحد رفاقه بأنه على قناعة تامة بصدق «محمد» وأحقية كل ما يقول.. فهنا يسأله رفيقهُ:

ـ فما يمنعك منه وأنت تعلم ذلك؟!

فيكون جوابه الذي يعبّر عن الجانب المادي، وتأثيره على الناس، بقوله: «يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم (يعني ملوك الروم): شرَّفونا، وموَّلونا، وأكرمونا، فلو فعلت (أعلنت صدق محمد) نزعوا منا كلَّ ما ترى»!..

وهذا هو شأن أكثرهم الذين غرَّتهم الحياة الدنيا الفانية، فاتبعوا

أهواءهم، وتركوا الدين الذي أرادَه الله سبحانه وتعالى ديناً قيّماً، ليس للمسلمين وحدهم، ولا للنصارى أو اليهود وحدهم، بل للناس كافة..

ويبدو أن وفد نجران، وبعد تفكير طويل في كل ما أبداه «محمد» في المجادلات التي جرت، طلب من النبيّ ﷺ أن يبعث معهم حَكَماً للفصل في مسائل اختلفوا عليها، فانتدب لهذه المهمة أبا عبيدة بن الجراح[1] على أن يحكم بينهم بالكتاب والسنّة في ما اختلفوا فيه.. وفي رواية: إنَّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلًا يعلّمنا السنَّة والإسلام، فأخذ بيد أبي عبيدة ابن الجراح وقال: «هذا أمينُ هذه الأمة»[2].

وهكذا وبقوة الفكر الإسلامي المبنيّ على القرآن الكريم، استطاع رسول الله ﷺ أن يفنّد، بالكلمة السواء والحجة البالغة، المجادلات الكلامية التي كانت تُثار من هنا وهناك.. وبذلك اختفت ـ أو كادت أن تختفي ـ الأفكار غير الإسلامية في المدينة، ولم يبق إلَّا الإسلام الذي يقدر على حمل لواء الفكر الإنساني، في أسمى مراتبه، وإقامةِ الحكم بما أنزل الله تعالى.

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح واسمه عامر بن عبد الله الجراح بن هلال الفهري، القرشي ولد سنة ٤٠ق.هـ. وتوفي سنة ١٨هـ/ ٥٨٤ ـ ٦٣٩م. وحدَّث أبو عبيدة بن الجراح أن رسول الله ﷺ قال: «أخرجوا يهودَ الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أنَّ شرَّ الناس الذين اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٨١، عن: مختصر تاريخ ابن عساكر ج١١ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٨٣، عن مسند الإمام أحمد ج٣ ص١٣٣ ـ ١٤٦ ـ ١٧٥ ـ ١٨٤.

بروز أجواء القتال

وعلى الرغم من تلك الظاهرة الإيمانية والحضارية التي كانت تعيشها المدينة المنورة في تلك الحقبة، فإنَّ أعداء التوحيد، وأعداء الرقيّ الفكريّ أبَوْا إلَّا أن يعلنوها حرباً، متحلّلة من كل المقومات الأخلاقية للإجهاز على النظام الإسلامي الذي يقيمه محمد ﷺ قبل أن تكتمل قواعده وأسُسُه، وذلك للحؤول دون أن يكون للمسلمين القوة الفاعلة التي تضرب ـ أول ما تضرب ـ الذين يخادعون الناس، وما يخدعون إلَّا أنفسهم ولكن لا يشعرون. فكان لا بدَّ من التخطيط للجهاد ـ الذي لم يغب يوماً عن بال رسول الله ﷺ ـ بعدما برزت دوافعه العديدة، وكل دافع يشكل بمفرده سبباً كافياً لرصد تحرك الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، وإعداد العدّة لمنعهم من التمادي في طريق الغيّ والضلال التي اختاروها.. فالهدف الأسمى عنده ﷺ هو نشر الدعوة الإسلامية، تلبية لنداء الواجب القدسي الذي فرضَهُ الله تعالى على النبيين والمرسلين ومَن والاهم من المؤمنين، فكان حريّاً بخاتم النبيّن أن يكون حاملًا لواء الدعوة إلى الله الواحد الأحد، وبشيراً ونذيراً لقوم يعقلون.. فإيصال الإسلام إلى الناس ديناً وعقيدةً، وحضُّهم على امتلاك القيم والمثل والمناقب التي يحملها هذا الدين، واعتناقهم أفكاره ثقافةً ومنهجاً ـ وذلك بطريق الإقناع والاقتناع، لا بطريقة المبشرين، كما هو معهود منهم على مر العصور، ـ أجل إن إيصال الإسلام إلى الناس على هذا النحو.. دونه الموانع والعوائق من أعداء هذا الدين الذين يمتلكون العدد والعدة المادية، ويبتدعون الطرق والأساليب الفكرية، التي من شأنها أن تقف حائلًا دون الإسلام وتحقيق أهدافه العليا، ولاسيما في ما خص تربية الإنسان في جوهره، وتخليصه

من الشوائب والأدران التي تسيطر على عقله وقلبه، من جراء العبادات الصنمية المنوعة، والأهواء الشخصية المتقلبة، بحيث لا يبقى للإنسان البسيط إلَّا الركضُ وراء المادية.. ومن هنا كان الجهاد ـ القتاليُّ والنفسيّ ـ فرضاً على عباد الله المخلصين لأنهم وحدهم يمتلكون القوة المعنوية، القائمة على الإيمان الصادق، والسلوك السويّ..

وكان واضحاً ـ منذ البدء ـ أن قبيلة قريش، ومن دار في فلكها، هي في طليعة أعداء الإسلام والمسلمين، فقد حاربت هذا الدين ونبيَّه منذ أن انبلج فجره النوراني في مكة، وكانت لا تزال أهم القوى التي تعمل جهراً وعلانيةً للقضاء عليه، مما يفرض على المسلمين أن تكون لهم القوة التي تحول دون قريش ـ وأمثالها ـ من تحقيق مآربها الخبيثة، وهذا يستدعي تهيئة الجيش الفاعل الذي يحمل مهمات الدفاع، وتبعات القتال، لاسيما وأن المواجهة مع قريش ـ بالذات ـ كانت من الأمور التي لا محيصَ عنها بسبب استيلائها على أرزاق المسلمين في مكة، ومنعهم من حمل أي متاع معهم، في مهاجرتهم، كي تتركهم يقعون في الضيق والجوع والفقر، لولا أن تداركتهم رحمة الله تعالى، وهبَّ إخوانهم الأنصار ـ بفعل الإيمان الذي يعمر قلوبهم، والمواساة النادرة التي كانت تعتمل في نفوسهم ـ يشركونهم بالأموال والأرزاق، ويرفعون عنهم العوز والفاقة..أمَّا وقد تغيرت الأحوال وعمَّ الشحُّ، وندرت الغلال بسبب القحط الذي حلّ بُعيدَ الحقبة الأولى من الهجرة، فإنه لم يعد بمقدور المهاجرين أن يزيدوا من الأعباء على كاهل إخوانهم الأنصار، كما أن الأعمال التي كانوا يقومون بها، لم تكن لتؤتي ثماراً كافية ـ في الغالب ـ بسبب تلك الظروف المحيطة بهم.. ويكفي للتدليل على الحالة التي وصل إليها

المهاجرون ـ والتي لم تكن أخفّ وطأةً على الأنصار ـ أنه كانت تأتي عليهم أيام من غير أن يجدوا ما يحصّلونه من القوت والرزق، فكان المهاجر يستحي أن يلقى صديقاً أو رجلًا يعرفه، غريباً عن المدينة، ولا يدعوه ضيفاً عزيزاً على عادته في مكة... أو أن يقع أهله في ضائقةٍ ولا يستطيع دفعها، أو حاجة ولا يقدر على قضائها، حتى أشبعت نفوسهم بالمرارة والألم..

وكان من الطبيعي ـ في تلك الضائقة الشديدة ـ أن يرنو المهاجرون بأنظارهم إلى مكة، الموطن الذي تركوا فيه أموالهم ومتاجرهم لتظفر بها قريش، وتستولي عليها عنوةً، ثم لتحتلَّ الديار والبيوت، وتتصرَّف بها تصرف المالك بملكه[1].. إنهم يتفكرون في ما كانوا عليه من اليسر الكريم، وما هم فيه من الفقر المدقع، فيتأثرون كثيراً، ويتحفَّزون إلى ما لا يعلمون له تفصيلًا... ويزيدهم ترقباً هذا الحنين إلى الوطن الذي ترعرعوا في ظلاله، ومشوا على رماله، وعاشوا فيه حياتهم على الحلو والمرّ، حتى جاء اليوم الذي أخرجتهم منه قريش بالقوة، وجعلتهم أغراباً في موطن آخر.. إنهم مهاجرون يلوذون بالشوق والحنين، وليس لهم إلَّا الحسرة على أيام الصبا الخوالي، والأمل في معاودة العيش مع العيال والأهل آمنين في البلد الأمين.. ولكنْ! أين هُمْ أولئك الأهل؟ وأين هم الأقارب والأصدقاء، وهم ينأون عن أنظارهم ورعايتهم؟! فقد أجبروا على

---

(١) ومن قبيل ذلك: أنَّه لما خرج بنو جحش بن رئاب من ديارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب، فبَاعَها من عمرو بن علقمة، أخي بني عامر بن لؤي، فلما بلغ ذلك بني جحش، أتى رسولَ الله ﷺ عبدُ الله بن جحش، وأخبره بما صنع أبو سفيان، فقال له الرسول ﷺ: ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك اللَّهُ بها داراً خيراً منها في الجنة؟ قال: بلى، قال ﷺ: فذلك لك. (انظر السيرة لابن هشام ج٢ ص، ١٤٥).

الرحيل عنهم، ليخلّوهم إلى ذئاب مكة الآدميين، ينهشون كرامتهم، ويمزّقون عواطفهم.. إنهم هناك محاصرون من تلك الزمر الكافرة الخسيسة، وهم إما ممنوعون من الهجرة، وإمَّا غير قادرين على تحمل المشقات، وقطع المسافات، هذا فيما لو أجازت لهم قريش الخروج.. إنَّهم ـ في نهاية المطاف ـ في حبسٍ قسريٍّ، مجبرون على احتمال مهانة المشركين، وسوء فعال قريش وصلافتها..

فبالله! أية حالة تلك التي كان يعيشها المهاجرون بلا عيالٍ، ولا مال ولا ديار؟! وأية أعباء كانت تضغط عليهم بسبب ما يعانون من الهموم، فوق ما يعتمل في نفوسهم من مشاعر بالظلم والعدوان اللذين أوصلاهم إلى ذلك الوضع المقيت؟! ولقد انعكست تلك المشاعر على الأنصار الطيبين.. إذ لم يعد لعيشهم هناءةٌ على الرغم من أنهم في ديارهم، وبين عيالهم، وهم يرون إخوانهم المهاجرين، مهمومين قلقين، فقد صاروا مسلمين بفضل الله، والمشاعر الإسلامية تغلغلت في نفوسهم، فجعلتهم يتحسَّسون المشاركة الجماعية مع إخوانهم المسلمين في شتى أحوالهم المعنوية، وأوضاعهم المادية.. وليست العاطفة الإسلامية حيال المهاجرين هي وحدها التي كانت تدفع بالأنصار إلى رصد ما قد تنبئ به الأيام من أحداث وتطورات، بل إنَّهمْ هُم أيضاً كانوا يتطلعون إلى مكة حيث البيت العتيق، الذي كانوا يحجون إليه في جاهليتهم، فكيف وقد صارت الكعبة الشريفة قبلتهم التي يتوجهون إليها خمس مراتٍ كل يوم، لا يريدون إلَّا وجْهَ الله تعالى، ولا يسألونه إلَّا أن ينصر دينَهُ، فيتاح لهم أن يؤمّوا بيته الحرام، حاجين ومعتمرين وآمنين!..

أفتطيب لهم حياة وهم محرومون من الذهاب إلى ذلك البيت

المقدّس، والطواف حول بُنيانه، والجلوس عند أركانه، والصلاة في أفنيته تقرباً إلى جوار الله في بيته المعظَّم؟ وهل كان ذلك البعد عن بيت الله الحرام إلَّا بفعل قريش، الفئة الضالَّة الغاشمة؟ وهذا لا تطيقه شعلة الإيمان التي تتوهج في نفوسهم كمسلمين، وهي التي تحفزهم على قتال أولئك المشركين، ومن ثَمَّ لأجل إعادة الكعبة إلى سابق عهدها، موئلًا للحجيج، وملاذاً للمؤمنين وعودة المهجَّرين إلى أهليهم وديارهم.. فهذه المشاعر التي كانت تتأجج في نفوس المسلمين في المدينة ـ من مهاجرين وأنصار ـ جعلتهم يترقبون على أحرَّ من الجمر اليوم الذي يؤذَن لهم فيه بالقتال، إعلاءً لكلمة الله تعالى، ولإزالة الفساد من حول الكعبة الشريفة، ورجوع المهاجرين إلى ديارهم التي أُخرِجوا منها بغير حق، إلَّا أن يقولوا: ربُّنا الله...

وكان رسول الله ﷺ يفكّر في كل تلك الأمور، فيأخذها بعين تقديره وحسبانه... فالميزانُ الأكبر في نَظَرِه، كان يحمل في إحدى كفتيه: الشركَ وعبادةَ الأصنام، وفي الكفة الأخرى: الإسلام وعبادة الله الواحد الأحد. فإما أن ترجَحَ كفةُ الدين، ولا يكون ذلك إلَّا بالقوة والغلبة، وإما أن ترجح كفة الشرك، ولا يكون ذلك إلا بالضعف والانكسار، وعندئذٍ قد لا تقوم للمسلمين قائمة على الإطلاق.. فالمسألة ـ إذن ـ مسألة حياة أو موت: إما الاسلام وعزّتُهُ وفيه الحياة للمسلمين قاطبة، وإما الجاهلية ووثنيتها وفيها موت للمسلمين عامّة!.. وهذا ما لا يرضاهُ ربُّ العالمين لعباده المؤمنين..

الإذن بالقتال

ولكنَّ رسول الله ﷺ لم يكن مخيراً في هذا الأمر الجلل ، بل كان ينتظر إذْنَ ربه ـ تعالى ـ بالقتال. ففي مكة رفع شعار التهدئة

والصبر عندما كان يقول للمسلمين: «لم أُؤمر بالقتال».. أما اليوم في المدينة فقد بات الحال بالمسلمين غير السابق، وهم يقدّرون بأنهم على الحق، وأعداءهم على الباطل، وهو بدوره الرسوليِّ، وبتقديره النبوي لا يعقل أن يستبق أمر ربه تبارك وتعالى . . . وإنَّه لعلى تلك الحالة من الترقب والانتظار، إذا بأمر ربه يتنزّلُ عليه بقوله تعالى﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

إذن فالمسلمون كانوا على حقٍّ في ما يفكرون، وما يأملون من قتال العدو اللدود قريشٍ، وها إن التنزيل الحكيم يبين أنَّ السميع العليم قد أذن لهم بالقتال لأنهم ظلموا. . . وقد برزت أهم مظاهر هذا الظلم في مكة بشتى أنواع السُّخرية، والعذاب والتهجير ومصادرة الأموال. . إلى حد التآمر على قتل النبيّ نفسه. . ، وإنَّ ما يحيق بالمسلمين الآنَ في المدينة هو الظلم بعينه أيضاً، ولكن بأساليب أخرى: النفاق، والتكذيب، وبذر التفرقة، والتآمر لضرب النظام الإسلامي. . فكان لا بدَّ أنْ يقاتلوا من أجل رفع الظلم عنهم بشتى أنواعه، بما في ذلك استعادة حقوقهم المسلوبة، وأموالهم المغتصبة

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.

التي يشرِّع العلي القدير استردادها بقوله المبين: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1].

وجمعَ الرسول الأعظم أصحابه يشاورهم في الأمر، ويتلو عليهم آيات الله العظمى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمۡۖ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾[2].

وامتلأت قلوب المؤمنين فرحاً بإذن الله ـ تعالى ـ الذي جاء أمره يحضّهم على القتال وإعداد القوة لمجابهة الأعداء.. وتبدَّى هذا الأمر حماسة على الوجوه الشجاعة التي رأت أنه قد جاء اليوم الموعود، وولَّت أيام الهوان والانتظار، والسكوت على الظلم والكيد، ولاحت لهم أول تباشير التصدّي للإرهاب القرشي، وبغي النفاق المدني، بل والصلَف الجاهلي برمته.. ودنا وقت الجهاد، حيث يتعانق الإيمان مع السيف في ساح الوغى، وحيث تتطلَّع النفوس المطمئنة، التي تروم رضوانَ ربها، وترنو إلى جنة خلدِهِ، راضية مرضية.. ولذلك كانت الاستجابة للنبيّ فورية، وهو يحثّ المسلمين على الاستعداد وتعبئة كامل القوى للقتال، فيما لو أراده الأعداء وأصرّوا عليه!.. ثم كانت أولى خطواته العملية، البدء بإرسال كتائب محدودة لتقصّي أخبار عير قريش، واستطلاع الطرق التي تسيّر عليها قوافل تجارتها،

(١) سورة الشورى، الآيتان: ٤١ و٤٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

حتى إذا أمكن سدُّ الطريق عليها، انقطع الشريان الأهم الذي يمدُّها بأسباب القوة والجبروت..

وفي تلك المرحلة التي تُعدُّ انعطافاً هاماً في حياة المسلمين، اختار النبيُّ ﷺ لأول مهمة استطلاعية من هذا القبيل عمَّه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فكان أميراً على أول سريّة من سرايا الإسلام..

سرايا المسلمين وغزواتهم الأولى

سَريّة حَمْزَة

وخرج حمزة في شهر رمضان من السنة الأولى هجرية (٦٢٣م) بثلاثين رجلاً من المهاجرين[١] دون الأنصار، بعدما حدَّد له النبي ﷺ وجهةً يتّبعها نحو شاطىء البحر من ناحية «العيص». وما إنْ أدركوا تلك المحلة حتى فاجأتهم قافلة لقريش جاءت من الشام، وعلى رأسها أبو جهل في ثلاثمائة راكب. وأراد حمزة ـ على قلّة عدد فرسانه، وكثرة أعدائه ـ أن يقاتلهم، لولا أن حجز بينه وبينهم مجدي بن عمرو ـ سيِّد جهينة ـ وكان موادعاً للفريقين، فانصرفوا عن بعضهم من غير قتال. ورجع حمزة فأَخبرَ النبيّ ﷺ بما حدث، فأجازَه لأنه لم يأمره بقتال...

سرية عبيدة بن الحارث

وفي شوال من تلك السنة (٦٢٣م) بعث النبيُّ سرية استطلاعية أخرى بقيادة عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف في ستين راكباً من المهاجرين أيضاً ـ دون الأنصار ـ وانطلقت تلك السرية إلى أرض الحجاز حتى بلغت وادياً يدعى «رابغ»، من جانب الجحفة، فإذا

(١) الجامع الصحيح، الجزء ٣، ص٥١٧.

على الماء هناك أبو سفيان بن حرب وهو في مائتين من أصحابه. . وتوافق قائد المسلمين مع إخوته على قتال أولئك المشركين، فكان أولُ البادئين سعد بن أبي وقاص، فرمى العدو بسهم[1]. . . ولكنَّ أبا سفيان أمر بعدم الرّد، وبعث من جماعته نفراً يعرضون عدم القتال، فوافق المسلمون لأن مهمتهم الاستطلاع؛ ولكن ما إن ابتعدوا قافلين إلى المدينة حتى لحق بهم المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان، وقد فرَّا من المشركين[2]، إذ كانا قد أسلما وكتما إسلامهما، فوجدا في تلك المناسبة فرصة للهروب والالتحاق بالمهاجرين في المدينة.

سرية سعد بن أبي وقاص

وفي شهر ذي القعدة من السنة الأولى الهجرية بعث النبيُّ ﷺ سرية ثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص وفيها عشرون راكباً، إلى محلة تدعى «الخرّار» وهو واد يصب في الجحفة على طريق مكة.

وكان العهد إلى سعد بألَّا يتجاوز الخرار، بل يتقصَّى أخبار عير قريش التي تمرُّ من هناك. فلما علم سعدٌ أن العير قد مرَّت بالأمس، عاد بسريته إلى المدينة، دون أدنى نتيجة. .

وهكذا كانت تلك السرايا الثلاث، تهيئةً للظروف التي ستواجه المسلمين. إلَّا أنَّ وجهها الإيجابي الآخر كان في إدراك المنافقين للجديّة في عمل المسلمين، كما كانوا يتوقعون، فهذه سرايا «محمدُ» قد بدأت تخرج فعلًا، لترقب تحركات قريش وقوافلها، إلَّا أنهم آثروا الترقب والحذر، دونما أية مبادأةٍ بشيءٍ ضد هذا التحرك الإسلامي.

---

(١) فكان سعد يقول: «أنا أول مَنْ رمى المشركين بسهم من المسلمين».

(٢) تاريخ الخميس، جزء أول ص ٣٥٩.

غزوة الأبواء[1]

أما وقد رأى النبيُّ ﷺ أن تلك السرايا التي بعثها، لم تفِ بأغراض التحرك الجديد، فإنه خرج بستين راكباً من الصحابة على رأس الشهر الثاني عشر من مقدمه المدينة، وهو يريد عيراً لقريش، قيل له إنها تمرُّ بالأبْواء، فسار حتى بلغ ودّان، وهي قرية جامعة، فالتقاه سيد بني ضمرة بن بكر، وكان ـ يومئذ ـ مخْشي بن عمرو الضَّمْري، فعقد معه صُلْحاً على ألَّا يغزوه ولا يغزوهم، ولا يعينوا عليه عدواً، وإذا دعاهم لنصرٍ أجابوه..

وقد اعتبر رسول الله ﷺ أن هذا الصلح يُعدُّ بذاته نصراً للدعوة، إذ حوَّل أعداءً لها إلى مؤيدين عند الحاجة، ثم رجع إلى المدينة[2] مكتفياً بهذا الفضل من ربه تعالى، فكانت غزوة «الأبواء» أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

غزوة بواط[3]

وأقام النبي ﷺ شهراً بالمدينة، بقية صفر وصدراً من شهر ربيع الأول بعد غزوة الأبواء أو غزوة ودّان[4]، ثم خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار فبلغ «بواط» من ناحية رَضْوى يريد قافلة لقريش تناهَى إليه خبرها بقيادة أمية بن خلف الجمحي، وكانت عدَّتها ألفين وخمسمئة بعير يحميها مئة مقاتل من قريش، فلم يدركها، لأن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٤١: عن ابن إسحاق.
(٢) المصدر السابق؛ وتاريخ الخميس، ج١ ص٣٦٢.
(٣) بواط: جبل من جبال جهينة، قرب ينبع.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٤١.

العيون كانت تترصّد حركات المسلمين، مما جعل تلك القافلة تتخذ ـ هرباً من حادث يفاجئها ـ طريقاً ملتويةً غير الطرق التي كانت تسلكها القوافل عادة، فنجت بذلك من المواجهة، فرجع ﷺ ولم يلقَ كيداً[1].

غزوة العُشَيْرة

وفي جمادى الأولى، خرج النبيُّ ﷺ، بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، في حوالى مائتين من المسلمين، فنزل «العُشيرة» من بطن ينبُع، ومراده عير لقريش قد تخرج من مكة إلى الشام، بقيادة أبي سفيان بن حرب، ولكنه علم من بني مُدلج أن عير قريش قد عبرت فأقام بها بقية جمادى الاولى وبضع ليالٍ من جمادى الثانية وادَعَ خلالها بني مدلج، فكان ﷺ مطمئناً لهذه الغزوة التي أكسبت صفوف المسلمين حلفاء جدداً، قد عاهدوه على ما عاهده عليه حلفاؤهم بنو ضمرة في غزوة الأبواء.

ويذكر أن النبيَّ ﷺ كنَّى في هذه الغزوة علياً عليه السلام «أبا تراب» كما روى ابن إسحاق عن عمار بن ياسر حيث قال: «كنت أنا وعلي ابن أبي طالب رفيقين في غزوة العُشَيرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها، رأينا أناساً من بني مُدلج في عينٍ لهم وفي نخلٍ، فجئناهم، ننظر كيف يعملون (وكان ذلك طبعاً بعد عهد الموادعة من النبي معهم). ثم غشينا النوم في صُور من النخل (صغاره) وفي دقعاء من التراب (التراب اللين). فواللّه ما أهبَّنا (أيقظنا) إلا رسول الله ﷺ وهو يحرّكنا، وقد تترَّبنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها، فيومئذٍ قال

(١) تاريخ الخميس، ج١ ص٣٦٢؛ السيرة الحلبية، ج٢ ص١٢٦؛ ابن هشام، ج٢ ص٢٤٨.

رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: «ما لَكَ يا أبا تراب»!.. لما رأى عليه من التراب. ثم قال ﷺ: ألا أحدِّثكما بأشقى الناس رجُلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: أُحَيْمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا عليّ على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يبلَّ منها هذه ـ وأخذ بلحيته[1] (أي أنه أشار ﷺ بيده إلى رأس عليٍّ ولحيته)، وهي ذات الكنية التي كنَّاه بها رسول الله ﷺ عندما وجده نائماً في المسجد، وقد ترب جنبه، فجعل يحثُّ التراب عن جنبه، ويقول له «قم يا أبا تراب»[2].

غزوة بدر الأولى

ولم يكد رسول الله ﷺ يقيم في المدينة بعد «العشيرة» إلَّا ليالي قلائل لا تعدو العشرة، حتى أغارَ كُرْز بن جابر الفهري ـ وكان من المتصلين بمكة وبأهلها من قريش ـ على إبل المدينة وأغنامها، واستاقها، وذلك أثناء رعيه في جبل من جبال جهينة بناحية رضوى. فخرج الرسول ﷺ في طلبه، بعد أن استعمل على المدينة زيد بن حارثة، وراح يتعقب آثار كُرز حتى بلغ وادياً يقال له «سَفْوان» من ناحية بدر. فتوقف هناك بعدما تبين له أن كرزاً قد فاته، ولم يعد قادراً على اللَّحاق به. وعُرف ذلك الخروج ببدر الأولى.

... إنَّ تلك السرايا والغزوات، وإن لم تقع فيها مواجهات فعْلية، إلَّا أنها كانت خطواتٍ ميدانيةً، وتهيئةً عملانيةً وجدّية للجيش

---

(١) البداية والنهاية؛ ج ٣ ص ٢٤٧؛ مسند أحمد، ج ٤ ص ٢٦٣ و٢٦٤؛ مستدرك الحاكم، ج ٣ ص ١٤٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٤٩ و٢٥٠.

(٢) انظر جامع البخاري.

الذي سيتولى مهمات القتال، وهو آتٍ لا محالة، فإمَّا فرضَهُ عليهم الأعداءُ، وإمَّا المسلمون أنفسهم من أجل الهدف الأعلى الذي يبقى فوق كل هدف وفوق كل حساب، ألا وهو نشر راية الإسلام خفاقة في أنحاء الجزيرة العربية.. وإذا كانت قريش هي القوة المانعة لتحقيق ذلك الهدف، فإن الرسول الأعظم ـ وقد أرسى قواعدَ دولته في المدينة على مبدأ الإسلام، ووفقاً للسياسة الحكيمة التي اعتمدها ـ كان يرى أن السياسة نفسها يجب تطبيقها أيضاً في مكة المكرمة. ولن تقف في وجهها عنجهيةُ قريش بإذن الله تعالى. وإذا كانت سراياه وغزواته لم تبدأ مناوشة أو قتالاً إلى الآن، ، فإن الأمرَ بات يفرض الدخول في مثل هذه الأجواء.. ولأجل ذلك أعدَّ سريَّةً خاصَّة، وأودعَ قائدَها أوامِرَ تختلف عما سبقها من السرايا..

سرية عبد اللّه بن جحش

ولبضعة أيام خلَوْنَ من شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، بعثَ الرسولُ ﷺ عبد اللّه بن جحش بن رئاب، في اثني عشر رجلًا من المهاجرين[1]، في مسيرة حدَّد له وجهتها، من غير أن يعيّن له المكان الذي يقصد، إلَّا أنه دفع إليه بكتاب وأمره ألَّا ينظر فيه قبل يومين من خروجه، فإذا وقف على ما فيه، أطلع أصحابه عليه، وترك لهم الخيار في ما يفعلون، لأن الأساس ألَّا يُستكره أحدٌ من المسلمين على القتال!!..

ولمَّا انقضى يومان على الانطلاق، فتح عبد اللّه الكتاب، فإذا

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص١١٦٩.

فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائِف، فترصدَ بها قريشاً وتعلمَ لنا من أخبارهم»[1]. . وأعلَمَ قائدُ السرية أصحابَه بالأمر، وبأنه لا يستكره أحداً منهم، فمن شاء رجع، ومن شاء تابع متابعةً قد تحمل الشهادة. فساروا متوكلين على الله، وإلى المصير الذي يشاءُ اللَّهُ تعالى لهم. . وقد تخلف عنهم في الطريق اثنان: سعد بن أبي وقَّاص الزهري وعتبة بن غزوان، وهما يبحثان عن بعير لهما قد تاهَ وبَعُدَ، فكان نصيبهما الوقوع في الأسر بين أيدي رجال من قريش، صادف التقاؤهم بهما. . وكان قائدُ السرية ومن بقي معه قد تابعوا سيرهم حتى نزلوا في بطن نخلة يترصَّدون قريشاً، وبقوا هناك إلى آخر شهر رجب، فإذا بعير لقريش قد أقبلت من الطائف، وكانت تحمل كعادتها من ذلك البلد الزبيب والأَدَمَ (الجلد) وعليها عمرو بن الحضْرمي، فأناخت بالقرب منهم؛ وقد روي أن عكاشة بن مِحْصَن الأسديّ (من رجال السرية الاسلامية) قد أشرف لرجال العير، وهو حليق الرأس، فقالوا: عمَّارٌ، لا بأس عليكم منهم. .

وتشاور عبد اللّه وأصحابه الستة في ما يَصْنَعون!. . فهذا كتاب النبيّ لا يشير إلى القتال، لاسيما وأنهم في الشهر الحرام والقتال فيه حرام فقال بعضهم لبعض:

ـ «والله لئن تركتم القومَ هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتَنِعُنّ منكم به، وإن قتلتموهم لتقتُلُنَّهم في الشهر الحرام!»[2] وتردَّد رجال السرية وهابوا الإقدام على هذه الخطوة. وأخيراً استقرَّ بهم الرأي على

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٥٢.
(٢) المصدر نفسه.

مهاجمة القافلة، واغتنام أحمالها، ردّاً على قريش في استيلائها على أموال المسلمين جميعها في مكة.

وكانت، بالفعل، خطوةً جريئةً، عندما أقدم ذلك النفر القليل المسلم على قتال المشركين، وغايته ردّ بعض حق مسلوب، أو الشهادة، فأخذ واقد بن عبد الله التميمي سهماً ورمى به قائد العير، عمرو بن الحضرمي فقتله. ثم هجموا على رجال القافلة يقاتلونهم، ففرُّوا من أمامهم منهزمين، بعدما وقع رجلان من قريش بالأسر، وبذلك أمكن لتلك السرية الصغيرة أن تستولي على القافلة، ثم تقتاد الأسيرين، وتقفل راجعة إلى المدينة، لتلقى رسول الله ﷺ على غير الرضى الذي كانوا يأملونه، وذلك عندما قال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»[1]. وأوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من الأموال شيئاً.

وأُسقط في يد عبد اللّه بن جحش وأصحابه، وظنوا أنهم قد هلكوا، وزادهم ألماً وندامة غضبُ رسول الله ﷺ، وتعنيف بعض إخوانهم المسلمين على ما صنعوا!.

ولقد أيقن أصحاب تلك السرية أنهم أخطأوا!.. ولكنَّ الحرقة التي كانت تتأجج في صدورهم من صلافة قريش هي التي أبت عليهم إلَّا أن يقاتلوا تلك القافلة المحمّلة بالطيبات، بينما قد لا يجدون ـ هم ـ ما يسدُّون به الرمق، إلَّا أن ذلك قد حدث في الشهر الحرام، وهم لا يعلمون ما تأثيره عليهم كمسلمين، بل وما هو موقف الإسلام من عمل من هذا القبيل؟..

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٤.

إنَّ القتال في الشهر الحرام أمرٌ ذو أهمية خاصة ولكنَّ دوافعه لدى أولئك النفر من المسلمين متعددة وسببها الأول والأخير ظلم قريش العاتي، ولعلَّ الشعور بهذا الظلم هو الذي غلب عليهم، فأقدموا على قتال الظالمين.. تلك كانت الحالة، ولم يكن على الرسول ﷺ إلَّا أن ينتظر حكم الله ـ سبحانه ـ في هذا الشأن، لأنه ـ جلّت عظمته ـ يرقب مسيرة دينه خطوةً بخطوة، وتتجلَّى مشيئتهُ بأدق الأمور لتبيان الحق من الباطل، فكيف والموقف حاسمٌ وتترتب عليه آثار هامّة جداً، ولا سيما في ما يعود إلى القتال في الأشهر الحُرُم؟!...

ورأت قريش فرصةً كبيرة لإثارة الدِّعاية ضد «محمد» والتشهير به وبالإسلام، فراحت تنادي في كل مكان: إن «محمَّداً» وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام، وسفكوا الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال.

وتساءل الناس: أيكون في الشهر الحرام قتال؟

تساؤل فيه استنكار!.. إذِ اعتبر الناسُ أنَّ «محمّداً» هو الذي قام به ـ وإن كان على يد عبد اللّه بن جحش ـ فكيف يفعل ذلك، وهو الذي «يزعم» بأنه يسير في طاعة الله ربه، ويدعو إلى دين قيّمٍ ويهدي إلى صراط مستقيم؟!...

وكان من الطبيعي أن يستغلَّ اليهود ـ مثل قريشٍ بل وأكثر ـ هذا الظرف، ويدخلوا مع المسلمين في مجادلات طويلة، ونقاشات حامية بعدما رأوا في ذلك فرصة سانحة للكيد بالمسلمين الذين لا يجدون ما يدفعون به عن أنفسهم، لأنَّ العمل خطير، ويشكِّل قاعدة ثابتة في أنحاء شبه الجزيرة كلِّها. فقد كانت قبائلها، تتوقف عن القتال في الأشهر الحُرُم، مهما كانت العداوات شديدة، ومهما كانت الحروب

قاتلة.. وراح اليهود يشنِّعون على فعل عبد اللّه بن جحش، ويشهرون به. حتى بات الوضع شديداً على المسلمين، إلّا أنهم باتوا ينتظرون الحُكمَ من الله سبحانه وتعالى. فإن كانت فيه مؤاخذة على فعل السريّة نال قائدها عقابه، فالأمر متروك إلى الله يحكم ما يشاء.. ونزل الوحي على النبيّ ﷺ بالآيات المباركات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾[1].

وسرِّي عن المسلمين، لأنَّ التنزيل المبين ينقض عرفاً من أعراف الجاهلية الذي كان يقوم على تحريم القتال في الأشهر الحرم، ويسوّغ، في الوقت نفسه، النسيءَ ـ تبديل الشهر الحرام بغيره ـ وفقاً للمصالح والأهواء.. وعلى كل حال، ولئن كانت مثل تلك الأعراف تحرِّم القتال في أشهر معيَّنة من السنة، إلّا أنها لا تسوِّغ لقريش الصدَّ عن المسجد الحرام، ولا إخراج أهله منه بدون حق، كما أنها لا تخوِّل لطغاتها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، فذلك أكبر عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من القتال في الشهر الحرام.. ثُم إنَّه ليس في هذا القتال شيء ضد إنسانية الإنسان، بل الهدفُ منه حماية المسلمين من كيد قريش، وحماية الدعوة الإسلامية من أعدائها، سواء أكان هؤلاء الأعداء قريشاً أم غيرَ قريش، ويجدرُ بالمسلمين أن يقاتلوهم أينما ثقِفوهم وفي أي وقت استطاعوا، فلم يعد من حساب لأشهر حُرم أو غيرِ حُرم من أجل الجهاد في سبيل الله... وهكذا تنزَّلتِ الآيات الكريمة لتضع الأمور

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

في نصابها. وبارك النبيّ ﷺ عملَ عبد اللّه بن جحش، وأخذ العير والأسيرين.. أمَّا من ناحية قريش فقد أرسلت تطلب الأسيرين من رجالها، فكان ردُّ الرسول ﷺ لا نفديكموهما حتى يُقدم علينا صاحبانا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، فإنّا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحِبَيْكم(١).

ونزلت قريش على أمر رسول الله، وجرت المفاداة بالأسرى من الطرفين، الَّا أن الحكمَ بنَ كَيْسان آثَرَ الإسلام والبقاء في المدينة، بينما رجع عثمان بن عبد الله إلى مكة ليلحق ببني قومه من المشركين.

هذه قصةُ سرية عبد اللّه بن جحش، وما عقبها من نتائج وآثارٍ هامة.. وقد كانت في واقعها حدثاً عادياً لا يزيد على قتال شارك فيه بضعةُ رجال من المسلمين وجماعة من المشركين.. ولكنَّ وقوعه في الشهر الحرام جعل له أصداءً بعيدةَ المدى، وكان لا بد من حُكم تشريعي يفصل في هذا العمل ويبين الحق من الباطل.. فالقتال في رجب الحرام كان يعتبر من الكبائر عند العرب، وقد اتخذت قريش منه سلعة لإثارة الرأي العام ضد المسلمين، ولكنَّ العدل الإلهي هو الذي يفصل بين الحلال والحرام، فكان لا بدَّ من مساءلة المشركين: أتستكبرون القتال في الشهر الحرام؟.. نعم إنه لكبير، ولكنْ أكبرُ منه أن تُبيحوا أيها المشركون لأنفسكم قتالَ المؤمنين، وصدّهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه.. أجل إنَّ ذلك أكبرُ عند الله... وأيهما أكبر: الفتنة أم القتل؟

أوَ ليست الفتنة أن يقاتل المشركون والكفارُ أهل الإيمان حتى

---

(١) ابن الأثير، ج ٣ ص ٥٦٦؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٢٥٥.

يردوّهم عن دينهم إن استطاعوا؟ أفلا تكون الفتنة ـ وهذه حالها ـ أكبرَ من القتل في الشهر الحرام أو في غيره؟ إذن فلا جناح على من يقاتلُ كلَّ مَن يعمل بالباطل، ويسعى بالظلم لفتنة الناس عن دينهم، ولصدِّهم عن سبيل الله تعالى، في أي وقت أمكنه فيه قتالَ الفتنِ وأهلِها..

هذه هي النتيجة التي يجب أن تعيها قريش وغير قريش، وهذا هو المنهج الذي بدأ المسلمون يسيرون عليه..

لقد كانت سريةُ عبد اللّه بن جحش مفترقَ طرق في السياسة الجديدة التي يجب على المسلمين انتهاجها، وفي طريقة التعامل مع أعداء الدعوة الإسلامية. فالإسلام لا يأخذ بأحكام الجاهلية، ولا بأحكام أهل الأرض كلها، بل يستقي الحكم من الله سبحانه وتعالى، لأنه الحكم الحق... وفي هذه الحادثة فإن حكمَ الله قد نسخَ تحريم القتال في أشهر معينة من السنة، طِبْقاً لما دلَّت عليه الآية ٢١٧ من سورة البقرة، في القرآن الكريم التي أباحت القتال في الشهر الحرام، أو في غيره من الشهور، إذا كان القضاء على فتنة قاتلة جماعياً، بوسيلة قتالٍ محدودٍ مادياً....

البحث الثاني



الخروج في طلب العير

من المعروف أنَّ القوة الاقتصادية تشكل ـ عادةً ـ أهم الدعائم الأساسية للمجتمعات البشرية، إذ بدون توفر الموارد الاقتصادية الكافية، وقيام النظام الاقتصادي السليم، الذي يؤمّن للدورات الاقتصادية ظروفَها وطرقَ نجاحها، فإن المجتمع يبقى عرضة للتقلبات واستجداء مقومات الاستمرار والاستقرار.. ولقد كانت قوة قريش الاقتصادية في تجارتها الواسعة، حيث كانت قوافلها تجوب الأقطار البعيدة لتصل إلى بلاد الشام، واليمن، ومصر، وتجني الثروات الكبيرة، التي جعلتها سيدة القبائل في جزيرة العرب.

ولم يكن الهدف الأول من السرايا والغزوات التي قام بها المسلمون، في طليعة العهد المَدينيّ، إلَّا رصد أخبار قوافل قريش، لتدبير الخطة التي تمكِّن من القضاء على قوَّتها الاقتصادية، تلك القوة التي كانت في نظر المسلمين بمثابة الأجنحة التي تحلِّق بها قريش في الأجواء البعيدة، والمخالب التي تمزّق بها كلَّ من يحاول اعتراضها أو الوقوف ضد مصالحها ومآربها.. فإذا أمكنهم قصُّ تلك الأجنحة،

وتقليم تلك المخالب، فإن شوكة قريش ـ ولا ريب ـ سوف تنكسر، فينهار طغيانها ويذهب استبدادها، وعندها يمكن للمسلمين نشر دينهم واستعادة حقوقهم وأموالهم التي سلبتهم إياها ظلماً وعدواناً.

أما قريش ـ وقد صار مؤكّداً لديها ما يخطط له «محمد» وأصحابُهُ ـ فقد راحت من جانبها تُعِدُّ الخطط أيضاً لحماية قوافلها، والمحافظة على تجارتها، متخذةً لذلك كافة الوسائل، وجميع تدابير الحيطة: فزادت الرجال الذين يرافقون القوافل ويحمونها، وغيَّرت بعض الطرق التي كانت تسلكها في العادة. ولعلَّ استيلاء عبد اللّه بن جحش على تلك القافلة الصغيرة التي كانت قادمة من الطائف، ما ينذر بالخطر الذي كانت تتوقعه لقطع طرق التجارة عليها، وحصرِها في داخل مكة، مما جعلها تتخذ وسائل الحماية تلك، وتنفِّذها فعلياً.

وفي تلك الأثناء، التي كان فيها الحذرُ سيدَ الموقف، خرجت قافلة لقريش، يقودها أبو سفيان بن حرب، كانت من أعظم قوافلها، وأجمعها لأموالها، حتى قيل بأنَّ أكثر أهل مكة قد شاركوا في تلك القافلة التي قدِّرت حمولتها بحوالى خمسين ألف دينار ـ وهذا في الوقت الذي كان فيه للمال قيمة كبيرة، نظراً لقلته بين أيدي الناس ـ ممَّا جعل رسول الله ﷺ يخرج بنفسه في غزوة العُشيرة، يريد تلك القافلة، بعدما تناهت إليه أخبارها، ولكنها فاتته في ذهابها إلى الشام إذ تأخر عن إدراكها بيومَين، ولكنَّهُ قدَّر المدة التي قد تستغرقها في رحلتها، ومقاربة الوقت الذي قد تعود فيه إلى مكة.. فبات ينتظر اقتراب الموعد، بعدما بثَّ العيون ترصد الأخبار عنها، فلمّا فصلت العير (القافلة) من بلاد الشام، جمع أصحابه من ذوي المشورة، وأبلغهم عزمه على العمل لاعتراض أموال قريش..

ثم دعا إليه المهاجرين والأنصار، يحضّهم على الخروج، ويقول لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا لعلَّ الله يُنفِلُكموها»[1]. . ثم بعث كلاًّ من طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد، يتسقّطان الأخبار، ويوافيانه بها. .

وبدون أن يرتقب رسول الله ﷺ عودة عيونِ رَصْدِهِ، ومن غير أن ينتظر غائباً أو يحثّ متراخياً، أمر بساعة الخروج، فأسرعَ من أسرعَ ملبيّاً، وأبطأ من أبطأ متخلّفاً، وفي ظن هؤلاء المتخلّفين أنها غزوة كغيرها، ويعود الرسول وصحابتُهُ كما خرجوا، من غير أن يقع قتال ـ أو تدور مناوشة ـ تماماً كما كان يحصل في البعوثات السابقة. . على أن جماعةً من المسلمين، وقد رأت ذلك الجمعَ يلتفُّ حول رسول الله ﷺ، فإنها تصورت بأن عير قريش لا تستأهل عدداً أكثر من الرجال، فقعدت مع القاعدين. . ولقد أراد رجالٌ من غير المسلمين أن يندسّوا في الركب، بحجة أن يكونوا عوناً، ولكنَّ نواياهم لم تكن لتخفى على الرسول، إذ كانوا يبدون ـ في الظاهر ـ تقديم المؤازرة، ولكنهم يخفون ـ في الباطن ـ الطمعَ في الغنيمة الوافرة، ولذلك طلب منهم رسول الله واحداً من أمرين: إما الدخول في الإسلام والخروج معه ـ إن أرادوا خروجاً ـ أو الاستغناء عن مرافقتهم. . وأسقط في أيدي الطامعين، إذ لم يكونوا يتوقعون أن يصدَّهم «محمد» بمثل هذا الموقف الحازم، فتولّوا معرضين، مبهوتين. . وبذلك أمكنه ﷺ الخلاص منهم، وكفى الله المؤمنين خبالَهُمْ. . وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثمان ليالٍ خلون من شهر رمضان[2] سنة اثنتين للهجرة،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٥٨.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦٣.

في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، عدد أصحاب طالوت[1]، بعدما استعمل على المدينة أبا لبابة، وأوكل إلى عمرو بن أم مكتوم الصلاة بالناس... وخطا الرسول ﷺ أول خطوةٍ أمام جيشه، مستفتحاً بذكر الله تعالى: «بسم الله وعلى بركة الله»، فردّدتِ الحناجر من ورائه «بسم الله، وعلى بركة الله»..

وعندما بلغت المسيرة بيوت السقيا، وهي على مسافة ميلٍ واحدٍ من المدينة، أمر ﷺ بالنزول، والتزوّد من ذلك الماء العذب للمشوار الطويل.. وتعجَّبَ الناسُ!.. إذ لم يكن التعب قد بلغ ما يستدعي الراحة، ولكن سرعان ما ذهب ذلك العجبُ عندما رأوا رسول الله ﷺ يتفحَّصُ الرجال فرداً، فرداً، ليعرف من هو قادر على حمل السلاح، ومن لا قِبَلَ له بذلك.. ووجد بين المقاتلين بعض الفتيان، من حديثي السن، الذين لا يقوون على تحمل وعثاء السفر، فكيف بهم على تحمل أعباء القتال، إذا ما فرض على المسلمين في ذلك الخروج؟!..

وأخذ رسول الله ﷺ يمسحُ على رؤوس هؤلاء الفتيان وأكتافهم بيده الشريفة، وهو يواسي نفوسهم بما تحمل من همّةٍ وإقدامٍ، وبما ينتظر الإسلام منهم في مقبل الأيام.. ثم طلب إليهم الرجوعَ، وهو يدعو لهم بالتوفيق.. وكان بين هؤلاء الفتيان البراء بن عازب الأنصاري[2] وعُمير بن أبي وقاص ـ أخو سعد بن أبي وقاص ـ

---

(١) السيرة الحلبية، ج٢ ص١٤٩.

(٢) عن البراء أنه قال: «استصغرني رسول الله ﷺ يوم بدر أنا وابن عرم، فردَّنا، فلم نشهدها وشهدت أُحُداً..» وعنه أنه قال: ما كل ما نحدّثكموه عن رسول الله ﷺ سمعناه، حَدّثَناهُ أصحابُنا.

فقد ظل مستخفياً عن الأنظار حتى رأى رفاقه يعودون، فأجهش عندئذٍ بالبكاء، وتقدم يتمسّك بأطراف أخيه، لكي يشفع له عند رسول الله، فيأذن بمرافقته، لأنَّه عازمٌ على هذا الخروج ـ على الرغم من صغر سنه ـ لعلَّ الله (تعالى) يرزقه الشهادة، وهو يجاهد في سبيل إعلاء كلمة الدين!.. واحتار سعدٌ في ما يفعل، بيد أنه رأى أن يأخذَ أخاه على لينٍ فقال له:

ولكنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يأمرنا، يا أخي، بطاعته وطاعة رسوله الكريم، وخروجك معصية لأمره ﷺ، ولا طاعة، يا أخي، في معصية الله ورسوله!.. فقال عمير: إذاً، ما العمل، وأخاف أن يردَّني رسول الله ﷺ على أعقابي؟!.

قال سعد: هاتِ يدك، وتعالَ معيَ لتخبرَ الرسولَ ﷺ بأمنيتك في الذودِ عن حياض الدين.. ولن يبخل عليك، أو على إنسانٍ، صغيراً كان أو كبيراً، بالمكرمة التي فيها نيل رضوان الله تبارك وتعالى..

وتتصدر على صفحات الزمان حكاية الفتى عمير بن أبي وقاص، ابن السادسة عشرة الذي لم تطب له نفس إلَّا بالخروج مع المؤمنين.. وقد استكبر الرسول الأكرم همَّة هذا الفتى، وقوة الإيمان والشجاعة لديه، فأجاز له المسير مع الرجال، ليكون له في بدرٍ شأن خاص ـ كما سنرى ـ.

وانجلت ـ إذن ـ الغاية من الوقوف على بعد ميلٍ من المدينة؛ فخروج المسلمين، بقوة الحماسة والاندفاع، لا يكفي وحده، بل يجب أن يقوم على اختبار مدى العزم لدى الرجال، وتنظيم الصفوف حتى يكون للعمل الجماعي التأثير والفاعلية اللذان يتيحان التعامل مع

المخاطر التي قد تواجههم، لاسيما وأنَّ سيرهم في أرض الأعداء الذين ينتشرون في مختلف النواحي، قد يدفعهم إلى مهاجمة هذا الجيش المسلم الصغير، بصورة مفاجئة، فيُنزلون به ـ إن لم يكن منظماً، ومتأهّباً للقتال ـ خسارة كبيرة، تأتي بأسوأ النتائج على مسيرة الدعوة ككل.. والأدهى من ذلك، أنه كلما بَعُدَ هذا الجيش عن المدينة، ازدادت أخطار الأعراب عليه، من جميع القبائل التي استلهمت عناد قريش، في محاربة الإسلام، تحت ذريعة الحفاظ على دينها ودين آبائها وأجدادها.. من هنا عمد النبي ﷺ إلى تنظيم صفوف رجاله على بيوت السقيا ـ بعدما تفقدهم ـ بما يحول دون مفاجأة العدو وغدره، فجعل في المقدمة الزبير بن العوام، وفي المؤخرة قيس بن أبي صعصعة، ثم عقد ثلاث رايات: راية بيضاء ودفعها إلى مصعب بن عمير، ورايتين سوداوَيْن: أعطى واحدة، واسمها العقاب، إلى علي بن أبي طالب (عن المهاجرين)، والأخرى إلى سعد بن معاذ (عن الأنصار)[1]. فكان أولئك المقاتلون، وبمثل هذا التنظيم، أولَ نواةٍ للجيش الإسلامي في المدينة، أما سلاحه فكان ـ قبل أي اعتبار ـ الإيمان بالله تعالى، وعدّتُهُ ملءُ نفوس هؤلاء الرجال صدقاً وتوكّلًا، وعتاده سعة الصدور عزماً، وصلابةً وشجاعة.. أما وسائل النقل لذلك الجيش، فكانت هزيلة ـ لا تذكر ـ إذ لم تزد على سبعين بعيراً[2] وفرسين: واحدة للمقداد بن الأسود، والثانية للزبير بن العوام.. لذلك أمر النبي ﷺ أن يتناوبَ الإثنان والثلاثة بعيراً فكان رسول ﷺ وعليّ بن أبي طالب، ومرثد بن أبي

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٦٤.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

مرثد الغنومي يتعاقبون بعيراً، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو كَبْشَةَ وأَنسَة (موليا النبي) يتعاقبون بعيراً، وكان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف يتعاقبون بعيراً[1]. وكم حاول المقداد والزبير أن يأخذ النبي ﷺ أحد فرسيهما ليكون له طوال الطريق، فيأبى عليهما؛ وكذلك فعل عليٌّ ومرثد وهما يتوسّلانه أن يبقى في ركوبه على البعير، ويسيرا بركابه، فلا يرضى إلَّا أن يكون مثل أيّ نفرٍ في جيشه، حتى لا يتميز عن أحدٍ منهم بخصيصةٍ ـ شأنه في كل حياته الشريفة ـ، فيقول لهما: «ما أنتما منّي بأقوى على المشي، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر»..

وتلك هي روعة الإسلام، فالكل سواء في الواجبات، كما الكلّ سواء في الحقوق، ورسول الإسلام محمد ﷺ هو القدوة والأسوة، فلا يخرج عن هذا النهج السويّ.. فالإسلام عقيدة، ومبدأ، ونهجاً، إنَّما تطبيقه واحد على الجميع، بما يتوافق مع مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على حدٍّ سواء..

وهذه الحقيقة من حقائق الإسلام قد سنَّها رسول الله ﷺ لتعايش كل زمان ومكان، فلا يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فالحقوق مقابل الواجبات، والأجر على مقدار الإخلاص والمشقة، ووحدة الصف أساس النهج، ووحدة الكلمة واجب شرعي.. فكان طبيعياً أن تكون هذه التعاليمُ الإسلامية زادَ الجيش في مسيرته، وأن يكون رسول الله، قائد هذا الجيش، مثالًا حيّاً لسلوكِ أفراده..

وبمثل هذه الروحية الإسلامية، مضى الركب المحمدي من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

محلة بيوت السقيا كأمضى من السيف في عزمه، في تشكيلٍ مفتوحٍ لتحقيق غرضين اثنين: السرعة في السير، والأمن من مفاجأة عدوٍ، في انقضاض غادر.. وزيادة في الحرص، وحين صاروا بالقرب من قرية الصفراء بعث الرسولُ القائدُ كلاًّ من بسبَس بن الجهني ـ حليف بني ساعدة ـ وعَدِيِّ بن أبي الزَّغباء ـ حليف بني النجار ـ بمهمة استطلاعية، لتحسُّسِ الأخبار، فتقدما الركب إلى أن انتهيا إلى ماء بدر، فأناخا إلى تلّ قريب من الماء يستسقيان، فاسترعى انتباههما حديثُ جاريتين من جواري قومٍ نزلوا على الماء، إذ تقول إحداهما للأخرى:

ـ لكِ أن تلوميني يا أختاه على ما قصّرتُ في أداء دينك عليّ، ولكنْ أحسبُ أن الفرج قد قرب، وسوف أوفي حقك كاملًا..

قالت الدائنة: وكيف؟

قالت المدينة:

ـ لقد سمعت بأن العير التي يقودها أبو سفيان بن حرب سوف تصل غداً أو بعد غد. وعندما تمُرّ من هذه الناحية سوف أعرض نفسي على خدمتها، مقابل أجر أتقاضاه على ذلك، فأدفع لكِ ما بذمَّتي.

عندها هبَّ الرجلان ينطلقان إلى رسول الله ﷺ، ويخبرانه بقرب وصول القافلة، كما يُستشفّ من حديث الجاريتين.

وإذا كان محمد ﷺ قد حسب الوقت الذي تعود فيه عير قريش، فإن أبا سفيان بن حرب لم ينسَ ـ بدوره ـ أن المسلمين قد خرجوا في طلب قافلته وهي ذاهبة إلى بلاد الشام، وأنه يمكن أن يكونوا بانتظاره في طريق العودة، فترك العير، وسبقها ليستكشف

الطريق بنفسه، فلما وصل ماء بدر، وجد عليه مجديَّ بن عمرو، فسأله: «هل أحسستَ أحداً؟ فقال: ما رأيت أحداً أنكره، إلَّا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شنّ [1] لهما، ثم انطلقا»[2]. فتقدم أبو سفيان إلى حيث أناخ الراكبان، فوجد بعراً، ففتّهُ، فإذا فيه النوى، فقال: إنَّ هذه علائف يثرب، فقفل مسرعاً ليحوّل وجهة قافلته عن بدر، ويتجه بها يساراً من ناحية ساحل البحر، ثم استأجر ضَمْضَمَ بن عمرو الغفاري، وبعثه مسرعاً إلى مكة يلقي الصرخةَ على قريش لتهبَّ إلى حماية قافلتها من «محمد» وأصحابه.

واتخذ ضمضمُ لذلك كل مظاهر الصارخ الملهوف، إذ ما إن وصل إلى بطن الوادي في مكة حتى قطع أذنَيْ بعيره، وجدعَ أنفه، ثم وقف وقد شقَّ ثوبَهُ، وجعل يصيح:

«يا معشر قريش! اللطيمةَ اللطيمة[3]! أدرِكوا أموالكم مع أبي سفيان فقد عرض لها محمد في أصحابه.. الغَوْث الغَوْث..»[4].

واجتمع فراعنة قريش في ناديهم، فوقف أبو جهل يزعق، ويحرضهم على القتال، قائلًا: ويحكم يا معشر قريش!... أتتركون «محمداً» يظن بأنها مثل عير ابن الحضرمي؟ كلَّا والله ليعلمنَّ أنها غير ذلك!. فهيا بنا إليه لِنريهُ وأصحابه من هي قريش، وأننا ما نزال سادة العرب!.

وعلت في مكة أصوات النفير، فاندفع أهلوها يتراكضون من كل

---

(١) الشنّ: الزق البالي.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٦٩.

(٣) اللطيمة: الإبل التي تحمل البر والطيب.

(٤) السيرة الحلبية، ج ٢ ص ١٤٣ و١٤٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٦٠.

جانب وهم يشدّون على خيولهم وإبلهم، ويتمنطقون بسيوفهم ورماحهم.. فمن لم يجد سيفاً ولا رمحاً ولا قوساً، تناول مدية، أو حمل عصا، أو مقلاعاً، كل يستعد للخروج إلى حرب المسلمين!..

خروج قريش لقتال المسلمين

وبناءً على هذا الأمر، كان اجتماع قريش وهي تتلهّف لملاقاة «محمد» وأصحابه، لا لتردَّهم عن أموالها ـ وهو أمر يسير كما تظنّ ـ وإنما لتظفر بهم بعدما نأوا عن أذاها، وتزيل كل وجود لهم، فتقطع تلك الأخبار التي كانت تصلها عنهم بعد هجرتهم عنها!.. ولذلك فما بقي أحد من زعامة قريش إلا وأخرج مالًا لتجهيز جيشهم، وقالوا: من لم يخرج نهدم داره. ولم يتخلف رجل إلا أخرج مكانه رجلًا. فتخلَّف بذلك أبو لهب، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة على أربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلسَ بها[1]. كما حاول التخلّف أميَّةُ بن خلف، لكبر سنّهِ وفتور همته، فقعد بجانب الكعبة يشهد استعداد القوم. ولكنَّ عقبة بن أبي معيط وأبا جهل، لم يتركاه وشأنه، بل ذهب عقبة وجاء بمجمرة فيها بخور، بينما جاء أبو جهل بمكحلة ومرود، فقال له عقبة وهو يضع المجمرة أمامه:

ـ يا أبا علي! استَجْمِرْ فإنّما أنت من النساء.

وقال له أبو جهل، وهو يأبى إلَّا أن يناوله المكحلة بيده:

ـ اكتحل أبا علي، فإنما أنت امرأة!.

وطار صواب أميَّة بن خلف من تهكُّم الرجلَين وازدرائهما له،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٦١.

فقام يلملم شتات نفسه، ويخرج مع القوم، حتى لم يبقَ أحدٌ في مكة قادراً على القتال إلَّا وخرج...

وسارت قريش تريد ملاقاة أبي سفيان أولًا للاطمئنان على أموالها، ومن ثمَّ لتذهب إلى ملاقاةِ «محمد» وأصحابه.

القرار بقتال قريش

أما النبي ﷺ فقد كان يغذُّ السير بركاب جيشه الصغير منعطفاً يساراً عن الصفراء حتى بلغوا وادياً يقال له «ذَفِرَان» فنزلوا فيه. وجاءه الخبرُ بأن قريشاً قد خرجت على بكرة أبيها، برجالها وفرسانها، ليمنعوا عيرهم. إذ ذاك تغيّر وجه الأمر، وأصبح محصوراً بمواجهة قريش أو عدم مواجهتها، لا بقافلة أبي سفيان وما تحمله من أموال!...

أجل، لقد باتَ الأمر خطيراً: فهل يعودُ المسلمون من حيث أتوا؟ ولئن فعلوا، ألا يجعل ذلك قريشاً تطمع بهم؟ ثم ماذا عن بني يهود في المدينة، ألا يطمعون ـ حينئذٍ ـ بهم أيضاً!؟ بل هل يبقى للمسلمين ماءُ وجههم إن رجعوا إلى المدينة خوفاً من ملاقاة قريش!..

ولو فرضَ ورأى رسولُ الله في المهادنة سبيلًا إلى تهيئة الأجواء التي يريدها فيما بعد، فهل يقدر أن يمنع على تلك الفئات الباغية أن تكثر من الأقاويل والشائعات التي من شأنها أن توهن عزيمة المسلمين، وتضعف موقفهم؟ ثم ما تأثير ذلك ـ وهو الأهم ـ على الدعوة؟ تلك هي التساؤلات التي كانت تدور بخلد رسول الله ﷺ، فرأى أن يستشير أصحابه، فيطلعهم على فرار أبي سفيان بالعير، وخروج مكة لقتالهم.. ثم يسألهم ماذا يصنعون؟ هل يعودون إلى

المدينة، وفي ذلك ما فيه من الهوان، أم يواجهون قريشاً في حرب مصيرية لا أحد يعرف نتائجها إلَّا الله سبحانه وتعالى؟

وهذا ما حصل بالفعل، فقد جمع رسول الله ﷺ أصحابَهُ إليه، وأخبرهم بجلية الأمر وما قد ينتظرهم من المخاطر في مقاتلة قريش، أو من الذل والهوان في الرجوع إلى بيوتهم بدون قتال!.. وهنا قام المقداد بن عمرو (وهو المقداد بن الأسود) متكلماً بلسان المهاجرين فقال: «يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها. وقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به الحقُّ من عند الله. والله لو أمرتنا أن ندوس جمر الغضا، وشوك الهراس لدسناه معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1]. ولكنا نقول: اذهب لأمر ربك فإنا معك مقاتلون. والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك، ولو خضت بحراً لخضناه معك. فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا بَرْك الغماد (يعني مدينة الحبشة أو موضع على ثماني ليال من مكة إلى اليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»[2].

فدعا رسول الله ﷺ له وللمهاجرين بالخير.. ثم عاد يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»..

ومَن يقصد رسولُ الله بقوله هذا؟..

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٢) تاريخ الخميس، الجزء الأول ص ٣٧٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص ٢٦٦؛ مغازي الواقدي، ج١ ص٤٨. والغضا: شجر خشبه صلب وجمره يبقى طويلًا لا ينطفئ، والهراس: شجر كبير الشوك.

فالمهاجرون وَضُحَ موقفهم، إنهم على استعداد للقتال، وقد وافقوا صراحةً على ما أبداه المقداد.. إذن بقي الأنصار، والرسول ﷺ يعنيهم هم!.. نعم إنه يريد موقف هؤلاء الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، ولم يبايعوه على قتالٍ خارج مدينتهم كما يفهم من قولهم في العقبة «إنا براءٌ من ذِمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مِمَّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا»[1].. فلهم الحقُّ في اتخاذ الموقف الذي يرَون. ولا غضاضة عليهم، لو امتنعوا عن القتال، ورأوا أن عليهم نصرته في المدينة إن دهمه عدوّ، لا في خارجها..

فقام سعد بن معاذ، صاحبُ رايتهم، وقال مخاطباً رسول الله:

ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله، واللَّهِ لكأنك تريدنا؟

فقال الرسول ﷺ: «أجل».

قال سعد: فلعلك قد خرجت على أمر قد أُمرتَ بغيره؟

فقال ﷺ: «أجل».

وما قاله سعدٌ يعني أن الرسول قد خرج في طلب العير، بينما أُمِرَ بغيره، أي الحرب، وهذا يعني «أن أمر الحرب مقضيٌّ ومأمور به مِنْ قِبَل الله تعالى، وما استشارته لأصحابه إلَّا لأنهم جند الله وعليهم تقع أعباء الحرب»[2]، فحريٌّ أن يكونوا على بيّنةٍ مما ينتظرهم من شدةٍ، بل ومن فضل عظيم من ربهم تبارك وتعالى، وهذا ما أدركه سعد بن معاذ فقال:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٦٧.

(٢) الصحيح من سيرة النبيِّ الأعظم، ج٥ ص٢٥.

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنّا قد آمنّا بك وصدَّقناك وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق من عند الله، وأعطيناك ـ على ذلك ـ عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. ولعلك يا رسول الله تخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها إلَّا نَصْرَكَ في ديارهم. وإني أقول عن الأنصار: فاظعنْ يا رسول الله حيث شئت، وصِلْ حبلَ من شئت، أو اقْطَعْ حبلَ من شئت، وسالم وعادِ من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبُّ إلينا مما تركت. وما أمرت فيه من أمر فأمرُنا تبعٌ لأمرك.. فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً. إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللِّقاء. لعلَّ الله يريكَ مِنَّا ما تَقَرُّ به عينُك؛ فسر بنا على بركة الله»[1].

وأشرق وجهُ النبي ﷺ بالمسرَّة، فقال مخاطباً الجيش: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتَين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[2].

وتأهّبَ المسلمون مرتحلين عن وادي ذَفِران، حتى بلغوا مكاناً قريباً من بدر[3]، فنزلوا فيه حتى حلَّ المساء فبعث الرسول ﷺ عليَّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٦٣؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٢ ص ٢٩٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٦٧.

(٣) بدرٌ هي سهلٌ رمليٌ ما بين مكة والمدينة، وعلى مسافةٍ تقارب المئة والستين كيلومتراً من المدينة. وتحدُّ هذا السهل تلالٌ شديدة الانحدار من الشمال والشرق، وكثبان رملية=

وقاص (رضي الله عنهم) في نفر من الصحابة إلى ماء بدر يتلمسون له أخبار قريش، فوجدوا غلامين قد بعثهما جيش قريش يستسقيان له الماء على الإبل، فاقتادوهما إليه ﷺ فأدناهما منه، ببشاشته المعهودة وهو يطيب خاطرهما، ويبعد عنهما الخوف، حتى أنس منهما هدوءاً، فسألهما عن القوم من مكة وأين ينزلون؟! فقالا له: إنهم في الناحية الأخرى وراء هذا الكثيب من الرمل الذي ترى..

فقال لهما: كم القوم؟

قالا: كثير، ولا ندري ما عدّتهم..

فقال لهما: كم ينحرون كل يوم؟

فأجابا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً.

فعرف ﷺ من ذلك أن عدد قريش يراوح بين تسعمائة إلى ألف رجل[1] من المقاتلين..

ثم سألهما عمَّن يعرفان من شيوخ أولئك القوم، فراحا يعدّدان

= من ناحية الغرب. أما جنوبه فينتهي بمنحدر صخري منخفض.. ينساب في واديه جدول ماءٍ، يعبره من الشرق إلى الغرب، ويتقطع هذا الجدول في أماكن متفرقة، فيشكل آباراً كان المسافرون يقيمون من حولها سدوداً صغيرةً لتصير على شكل أحواضٍ، يقضون منها حاجاتهم، ويسقون رواحلهم.

وقد جُعل الماءُ من بدرٍ محلةً مشهورةً، فكانت تقام بها مواسم العرب، يجتمعون فيها مرةً كل عام لإقامة سوق واسعة يتمُّ فيها تبادل السلع والبضائع على اختلافها، وفي السيرة النبويةً لابن هشام (ج٢ هامش ص٢٥٧): أن بدراً اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر، وقيل هو بدر بن قريش بن يحلد الذي سميت قريش به، وقيل: إنّ بدراً اسم رجل كانت له بدر..

(١) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٢٦٣ و٢٦٤؛ صحيح مسلم، ج ٥ ص ١٧٠.

كلَّ رجالات قريش الشهيرة فقال ﷺ: «وهذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها»[1].

وتبيّن لرسول الله ﷺ أنَّ الأمر ـ ولا ريب ـ خطيرٌ للغاية!.. فهذه قريش تزيدهم في العدد ثلاثةَ أضعاف، وفي رجالاتها من هم أشدّاءُ العزم، أقوياءُ الشكيمة وقادرون على القتال المرير، ولديها كل أنواع العتاد والسلاح.. ممَّا سيجعل المواجهة شديدة على المسلمين، ولا سيما لعدم وجود التكافؤ بينهم وبين أعدائهم، من جميع الجوانب المادية!.. ولكن!.. وأيّاً كانت القوة التي بلغتها قريش، ومهما كان شأنها عظيماً، فهي لا تحوز تلك الشعلة النورانية التي تتوهج بها أفئدة المسلمين، والتي يحيلها الإيمان، ساعة الوغى، شظايا لاهبة، تذيب الحديدَ على أجسام المشركين، لتنفذ إلى قلوبهم فتحرقها، وتجعلها مثل الرماد، تذروه الرياح في كل جانب!..

لا!..

إنَّ قريشاً لا تتمتع بمثل هذه القوة، لأن هذه القوة هي للمسلمين وحدهم.. فهم يملكون الإيمان الصادق بالله (تعالى)، فلا خوفَ معه من عديدِ جُندٍ، ولا وَجَلَ من كثرة عتاد.. إنَّ أعداءهم مشركون، وبئس الشركُ الذي يضعفهم أمام قوة الإيمان.. وكفى بهم شركاً أنَّ نفوسهم لا بدَّ من أن تنخذل أمام ضربات الحق، وتودي بهم إلى الخذلان والخسران، بإذن الله!...

هذا ما كان عليه تقدير الرسول الأعظم.. ولكن يبدو أن

(١) الرحيق المختوم، ص١٩١.

الصحابة، كانوا في أكثرهم ـ كما في غالبية السِّيَر ـ يميلون إلى طلب العير، وترك النفير[1]... والأصحّ أنَّ فئةً من المسلمين ـ وليس أكثرهم ـ كانت تودُّ عدم المواجهة مع قريش لاعتبارات عديدة، وأهمها قلة المسلمين مقابل كثرة عدد عدوِّهم، وخروج الصناديد من قريش لحربهم، مع عتادٍ أوفر. يضاف إلى ذلك الظروف غير المؤاتية للقتال، لأنَّ وجودَهم كان في مكانٍ بعيدٍ عن الماء، ويفصلهم عنه كثيب من الرمل من الصعب قطعه، إذ تغوص فيه الأقدام، فلا تتحرك إلَّا بمشقة.. بينما هم بأمسّ الحاجة إلى الماء للشرب والوضوء من أجل الصلاة (لأنه لم يكن قد رخّص بعدُ بالتيمُّم).. إذن فالمسألة تعود في محورها إلى الخوف من العطش الذي يهدّ القوى، ويجعل المشركين يقوون عليهم!... وهكذا فإن مجادلة تلك الفئة كانت منبثقة من ضعفها أولًا، والحاجة إلى الماء، وهي حجة يجب أن تؤخذ بالحسبان، لأن الماء مادة الحياة الأساسية، ولا قِبَلَ لأيِّ جيش على مواجهة عدوٍّ بلا ماءٍ.. بل ولا يمكنه أن يدخل معركةً ونفوس جنده مزعزعة، مهزومة من داخلها.. ولذلك كانت تلك الفئة تود العودة إلى المدينة، وألَّا تدخل في القتال، فجادلتِ النبيَّ ﷺ كراهةَ ألَّا ترتكبَ المعصية في عدم طاعته.. ويبين لنا القرآن الكريم ذلك الوضع الذي كان عليه المسلمون بقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَوَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا

(١) انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٥ ص٢٣ عن: الكشاف، والبيهقي، والبداية والنهاية لابن كثير، ج٣ ص٢٦٣، وغيرهم..

لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

أجل، هذا ما يبيّنه التنزيل الحكيم، فالمسلمون كانوا كارهين لإخراج النبيّ ﷺ عنوةً من بلده مكة، وقبل كراهتهم لإخراجه، كانت كراهة الفئة الضعيفة لقتال المشركين، لأنه غاب عن بالها أنَّه كما كان إخراج النبي ﷺ خيراً، فكذلك قد يكون في هذا القتال خير لهم..

ولا بدَّ هنا، ومن منطلق إيماني بحت، أن ندرك أن الضعف الذي أصابَ تلك الفئة من المسلمين، إنما كان بفعل الشيطان ووسوسته، فهو قادر على أن يتغلغل في نفوس الناس، ويزيّن لهم أعمالهم، ويصدّهم عن السبيل حتى ولو كانوا مستبصرين.. إلَّا عبادَ الله المخلصين، فلا سلطان للشيطان عليهم.. وقد أمكنَ له، في ذلك الموقف، أن يوهن عزيمة تلك الفئة من المسلمين، وأن يزيّنَ لها العودة بلا قتال، فظهر منها ما ظهر من الضعف والخور.. بل وانعكس ذلك على الجيش الإسلامي، فدبت في صفوفه البلبلة، والجدال لولا أنَّ الله (تعالى) تداركهم برحمته، فأمدَّهم بالعون الذي أذهبَ عنهم كل أسباب الخور والهوان.. وتجلّت رحمة ربهم بهم إذ يغشيهم النعاس فينقلبون نائمين، آمنين.. نعم، ناموا فجأةً، بقدرة القادر المقتدر، وخيَّم عليهم السبات العميق، فكأنما لا يحفلون بأيّ أمرٍ، أو كأنما هم في بيوتهم، وبين عيالهم وأهليهم، لا بين أذرع الفلاة، أو في أجواء الحرب والقتال.. ناموا آمنين من القلق، ومن عبث الشيطان، ومن الخوف، ومن أيّ شيء قد يُكَدّرهم في تلك

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٥ ـ ٧.

الساعة!. ولم يصحوا من نومهم إلَّا من جراء المطر الذي أنزله الله ـ تعالى ـ حتى سالَ الوادي، فقاموا يملأون الأحواض، ويشربون، ويسقون الركائب، ثم يغتسلون ـ ويتطهّرون ـ ويملأون الأسقية[1]... بل وأكثر من ذلك فإنَّ هذا المطر الذي جاء ليلًا قد جعل الأرض التي عليها المشركون موحلةً، تغرق فيها الأرجل، بينما لبَّدَ الرملَ الرخوَ على أرض المسلمين، وجعلها صلبةً تثبت عليها الأقدام في السير.. وإلى نعمة النعاس، ونعمة المطر، تلازمت نعمة أوفى وأعظم، ألا وهي الأمنة في النفوس.. فقد حلَّ بهم النعاسُ وهم في أشدّ حالات الصحو من النقاش والاحتدام، ثم فجأةً هدأوا فناموا.. ثم قاموا وحالُهم غيرُ حال!.. إنهم، جميعاً، تتملكهم المشاعرُ التي تلحُّ عليهم في المواجهة مع قريش، وإعطائها درساً في القتال لا تنساه أبداً ما عاشت.. فالله أكبر، ما هذا النعاسُ الذي انداحَ به الخوف، وحلَّ معه الأمان؟! وما هذا النعاس الذي بدَّل الضعف قوة، والهوانَ صلابة، والشوكةَ بدلًا من العير؟! أما أمنية الشيطان التي زيّنت الإياب إلى الديار فقد حلَّ محلَّها طلبُ الشهادة.. لقد بات كل رجز للشيطان منسيّاً!.. فقد أذهَبَ كيدَهُ هذا النعاسُ الذي غشَّاهُمُ الله تعالى به أمنةً، فولّى اللعين خاسئاً مدحوراً، بعد أن وقف إلى ساعاتٍ يقهقه مزهواً، وفي ظنّه أنه حقق الانتصار على المسلمين.. أجل، في لحظات، اختنقت أنفاسُهُ، فانفلت من الضحك إلى العويل والصراخ، وهو يرى رجزهُ يرتدُّ إلى نحره، ويزيد في حسرته هذا العزم، وهذه الصلابة في نفوس المؤمنين، فيخلّيهم وشأنهم، لكي يتسنَّى له أن

(١) الكشاف، ج٢، ص٢٠٣ و٢٠٤؛ وتفسير ابن كثير، ج٢ ص٢٩٢ (إلا أنه لم يذكر اتخاذ الحياض).

ينصرف بكيده تلقاء المشركين.. وتنتصب آيات القرآن المجيد دليلاً ساطعاً على أن الله ـ عز وعلا ـ هو القادر المقتدر، الذي غيَّر أحوال المسلمين من حالٍ إلى حال، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[1]. الله أكبر! وألف مرة الله أكبرُ!... فما أعظم ما يهب العزيز الحكيم لجنده، وما أجلَّ ما يؤمنهم به، وما أنقى ما يطهرهم به من رجس الشيطان.. فهل إلَهٌ إلَّا الله في السماوات والأرض قادرٌ على أن يمنَّ، ويتفضَّلَ، ويبدّل الأحوال كما يشاء؟

بأمره الجليل، وفي بضع ساعات، تغيرت أحوال الجيش الإسلامي في بدر، فعادَ المسلمون إلى أصالتهم التي عبَّر عنها المقداد بن الأسود، وسعد بن معاذ.. أجل لقد عادوا مسلمين حقاً لله، وجنوداً لرسول الله، لا يتحرّكُ في كيانهم، إلَّا حبُّ الله العظيم، وطاعةُ رسوله الكريم..

فما أجمَلَ هدأة النفس بعد قلق يصيبها، وما أروع عودة اللحمة إلى صفوف الجماعة بعد علامات تنذر بالتشتت والتصدع!. وليس عيباً ما يحلُّ بالإنسان في ساعة ضعف يخذله بها الشيطان، ما دام نداءُ الحق يبقى في داخله، ويتكفَّل ـ بإذن الله ـ أن يجمع عليه شتات نفسه، ويقدِّم له سبل الغلبة على ضعفه، فيطرد كل وسوسة للشيطان من صدره.. ولقد مكّن الله سبحانه وتعالى للمسلمين في تلك الواقعة من قوة الإيمان ما يستطيعون به الغلبة على الشيطان.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١١.

تلك كانت أحوال المسلمين منذ خروجهم من المدينة ونزولهم بالقرب من بدر.. فكيف كانت بالمقابل، أوضاع المشركين، عندما خرجوا من مكة؟!

لقد رأينا استعدادهم للحرب ، وتصميمهم على قتال «محمد» وأصحابه، بعد أن يمنعوا عيرهم وأموالهم منه. وكان أبو سفيان، قائد العير، قد حوَّلها عن بدر وتوجّه بها ناحية ساحل البحر، ليباعد ما بينه وبين المسلمين؛ فلما أمكنه ذلك بعث إلى الزحف الذي خرج لملاقاته يقول لهم: «يا معشر قريش، إنكم خرجتم لتمنعوا العير وتحموا الأموال، وقد نجّاها الله لكم، فارجعوا».

وجاءهم الخبر، وهم لا يزالون في الجحفة.. فنزل عليهم أحلى من العسل، وكادت الفرحة تأخذهم لأنهم يريدون الرجوع والتمتع بحياة الدَّعة واللذة.. فأين ليالي الغناء والطرب والجواري، من الإقامة في البطاح، وبين أحضان الرمال، حيثُ يفترشون الأرض بحرِّها في النهار، ويستظلّون السماءَ ببردها في الليل. لا! إنهم لا يريدون أن يتكبدوا هذه المشاقّ.. لا سيما وجني الأرباح ينتظرهم بفضل أبي سفيان الذي يدعوهم هو، للرجوع!.. ولكنَّ القولَ بالعودة إلى مكة لم يُرضِ أهل التكبّر والخيلاء، ولم يُقنع المتغطرسين من زعماء قريش، فقد واتت الفرصة لأن ينقضوا على محمد وأصحابه، ويبيدوهم على بكرة أبيهم!.. فهل يرجعون من غير أن يحققوا هذا المأرب؟! أبداً لن يقبلوا بذلك. ولذلك وقف أبو جهل يزعق في وجوه دعاة الرجوع وهو يكيل لهم المسبّاتِ والشتائم.. حتى إذا أفرغ ما في جعبة صدره من الرذيلة، عاد يقول لجيشه: يا معشر قريش! أتحسبون، وقد عدتم، أن تظل لكم مكانة عند العرب تسودون فيها؟

يا معشر قريش! واللهِ لا نرجع حتى نردَ بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً: ننحرُ الجُزُرَ، ونطعَمُ الطعامَ، ونُسقَى الخمرَ، وتعزفُ علينا القيان.. لا، واللاتِ والعُزّى، لا نرجع حتى نقحم عليهم بيثرب، ونأخذهم أسارى، فندخلهم مكة، وتتسامع بنا العرب، وبمسيرتنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، ولا يقوم بيننا وبين متجرنا أحد نكرهه، فامضوا[١]. وهكذا انقسم المشركون وهم ما يزالون في الجحفة إلى فريقين: فمنهم من يريد الرجوع، ومنهم من يؤيد متابعة الخروج.. واشتدَّ النزاع بين القوم، فأمَّا الذين يعرفون أبا جهل، ومآربَهُ، ولا سيما طمعه بزعامة قريش، فقد قفلوا راجعين إلى مكة، وكان من بين هؤلاء الأخنس بن شريف حليف بني زهرة، إذ قال لهم: «قد نجَّى اللَّهُ لكم أموالكم. وخلَّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، إنما نفرتم لتمنعوه وما لَهُ، فاجعلوا بي جنبها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَيْعة (في غير منفعة)، لا ما يقول هذا (ويعني أبا جهل).. فأطاعوه ورجعوا لأنه كان فيهم مطاعاً»[٢].

كما أراد بنو هاشم الرجوع، فاشتدَّ عليهم أبو جهل، وقال: «لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع»[٣].

ولم يكن بطنٌ من قريش إلَّا وقد نفرَ منهم ناسٌ، إلَّا بني عديّ ابن كعب لم يخرج منهم رجل واحد، وبذلك فإنه لم يشهد أحدٌ بدراً من هاتين القبيلتين[٤] (ويعني بني زهرة، وبني عديّ).

---

(١) البحار، ج١٩ ص٢٥٠ عن تفسير الواقدي، مغازي الواقدي ج١ ص٧١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧١.
(٣) زاد المعاد، ج٢ ص١٢٦.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧١.

ورجعَ مَنْ رجع من المشركين عن الجحفة، بينما تابعت سائرُ قريش أبا جهل، تحتذي حذوه، وتسير على خطاه، حتى كان منزلهم في وادي بدر، بالعدوة القصوى ـ من ناحية مكة ـ.

القتال في وادي بدر

وهكذا نزل المسلمون بالعدوة الدنيا من وادي بدر، والمشركون بالعدوة القصوى، والتقى الجمعان، على الرغم من أن الدافع لهذا الالتقاء، وهو عير قريش، قد ذهب، إلَّا أنه تدبير العلي العظيم، الذي شاء أن يجمع بين المؤمنين والمشركين في ذلك الوادي من أرض نجد، من دون موعد اتفقوا عليه، بل ولو تواعدوا لاختلفوا في الميعاد، كما يبينُهُ لنا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾[1].

وما كان التقاء الجمعين: قلةٍ مؤمنةٍ وكثرة مشركة إلَّا لتكون المعركة بينهما فرقاناً بين تصورين مختلفين، ومنهجين متناقضين، الأول يقوم على عقيدة ربانية، ومنهاجه الإيمان بالله الواحد الأحد، وبقدسية الحق الذي بعث به محمد ﷺ، والثاني يتمسك بعقيدة الوثنية، ومسلكه الشرك في عبادة الله، والكفر بدين محمد ﷺ... فكان يوم الفرقان الذي أراده الله تعالى ليُحقَّ الحقَّ، ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون، كما يؤكده التنزيل الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١ ـ ٤٢.

ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]

فهذه الآيات تهدينا للاعتقاد بقضية هامة، قد يتعامى عنها الناس، أو يتغافلون عن حقيقتها، وهي الغاية من أفعال العباد.. فإن كانت الغاية طلب الحق ونصرته، كانت الغلبة للحق، ولو طال الأمر.. وإن كانت الغاية طلب الباطل والسعي له كانت الهزيمة للباطل، ولو امتدَّ الزمن.. فإنْ ظن الناس أو اعتقدوا بأن الغلبة للقوة وكثرة العتاد، أو للاستكبار والظلم، أو للنفوذ والسلطان، وخدعتهم تلك المظاهر، فإن ذلك قد يكون إلى حينٍ، ثم تعود الدولة والغلبة للحق، بل ويجب أن تكون للحقّ، لأن الحقَّ من عند الله سبحانه وتعالى، وهو الغالب على أمره، كما ورد في محكم التنزيل بالقول الحق: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2]؛ وهذه الحقائق القرآنية كان رسول الله ﷺ أعلم الناس بمضامينها، ولذا كان أوثق أصحابه وجنده إيماناً بنصر الله (تعالى).. فبات الصحابة نياماً، وظلَّ هو ساهراً، قائماً على الصلاة، داعياً ربه تعالى أن ينجز ما وعَده.. وطلع الفجر، والنبي ﷺ ما يزال يصلّي، فهبَّ الجيش بأسره، يصلي وراء الرسول

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٧ ـ ١٠.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

الأعظم، والقائد الحكيم، حتى إذا أتموا الصلاة، خرج بهم إلى الماء ليسبق المشركين إليه، إلى أن جاء أدنى ماء من بدر فنزل به[1] وقال: «أشيروا عليَّ في المنزل»[2].

وتروي كتب السيرة: أنَّ الحبابَ بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله! أمنزلًا أنزلكموه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟!.. فقال له ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». فقال الحباب: «يا رسول الله! فإن لي خبرةً في هذه الأمكنة، وقد غشيتها مرات عديدة، وأنا عالم بها وبقُلَبها (آبارها)، إن رأيت أن نسيرَ إلى قُلَبٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها[3] وتكون موقعاً أفضل للمسلمين لأنها أدنى ماءٍ من القوم (قريش) ونغوّر ما وراءه من القُلَب، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.. فقال له ﷺ: «لقد أشرت بالرأي يا حباب»، ثم أمر بنهوض المسلمين حتى أتوا أقرب منزل من قريش، لا يفصل بينهم إلّا كثيب من الرمل فباشروا ببناء الحوض وغوّروا ما عداه من القُلَب...

وتتابع كتب السيرة: وبعد أن استقرَّ المسلمون في نزولهم، أشار سعد بن معاذ بأن يبتنوا عريشاً للنبي ﷺ، فيقول سعد: «يا نبيَّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ويصدّ عنك المهاجمين، ثم نلقى عدونا، فإنْ أعزَّنا الله وأظهرَنا عليه، فذلك النصر من عند الله، وإن

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٢.
(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٢٦.
(٣) زاد المعاد، المصدر السابق.

كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنك يا نبيَّ الله أقوامٌ ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم، ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك»[1]. وبُني لرسول الله ﷺ عريش على تلٍّ مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، يشرف منه على المعركة[2]، بحيث يشكل وراء ظهره نوعاً من الحماية الطبيعية..

فإذا أخذنا بهذه الروايات، فإنَّ الاستراتيجية التي اعتمدت تنصبّ على أهم المقومات التي يرتكز عليها سير المعركة، وذلك أن همَّ الجيش المحارب يكون، أولًا، قطع الإمدادات عن العدو، وأهم إمداد ـ يومئذٍ ـ الماء ولاسيما في الصحراء، ثم تجهيز ما يسمى بغرفة العمليات التي تصدر فيها الأوامر عن القادة، وربما حراسة هؤلاء القادة لأن القضاء عليهم يؤدي إلى هزيمة جيوشهم.. وهذا ما اعتمده المسلمون في بدر حيث غوّروا الآبار لقطع مدد الماء عن عدوهم، وبَنَوْا عريشاً على تل مرتفع للرسول ﷺ، كي يشرف على سير القتال، وأمّنوا بذلك رجوعه إلى المدينة في حال انتصر المشركون..

هذا ما تذهب إليه كتب السيرة!.. والواقع أن المسلمين عندما صاروا على مقربة من بدر، قام الرسول ﷺ بنفسه بعملية الاستكشاف مع أبي بكر رضي الله عنه [3]، فبعدما عاين المنطقة، عاد يأمر الجيش بالتقدم

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٢ و٢٧٣.
(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٢٧.
(٣) الرحيق المختوم، ص١٨٩.

والنزول على أدنى ماءٍ من المكان الذي تنزل فيه قريش، بحيث لا يمكنها التزوّد من هذا الماء إلَّا إذا غضَّ المسلمون الطرف عنها، ولم يأمر رسول الله ﷺ أن يغوّروا القُلَب (الآبار) لأنه ليس في خُلُق محمد العظيم أن يحرم الناس من الماء حتى ولو كانوا أعداءه، ثم إنه يعلم جيداً أن الآبار في بدر هي مما ينتفع به الناس، فهو مشاع للعموم، ولكلِّ مَنْ نزلَ تلك المحلة، فكيف يغوّر الماء ويمنع على الناس السقاية منه؟! أمن أجل قريش لمَّا جاءت لقتاله؟! ولكن أليس هذا القتال لمدة ثم تذهب قريش من بدر ويذهب المسلمون أيضاً، وتبقى الآبار على حالها لعموم الناس؟! أجل.. فالرسول الكريم عمل برأي الحباب بالانتقال إلى المكان الذي أشار إليه ولا نظن أن يكون رسول الله ﷺ قد أمر بأن يغوّروا الآبار في بدر.

ثم إنَّ بناء عريش لرسول الله ﷺ كان ضرورياً لأنه قائد الجيش.. ولكنَّ الاعتراض هو ـ هنا ـ على ما روي على لسان سعد بن معاذ «فإن كانت الأخرى (أي الهزيمة للمسلمين) جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا».. وهنا أيضاً نقول ـ وعلى يقين ـ بأن ليس في خُلُق محمد العظيم، أن يفرَّ، ويخلّي جيشه يتلقى الهزيمة وتنزل به الخسائر، لكي ينجوَ بنفسه!.. وأن سيرة حياته تدل ـ كما سنرى في معركتي أحد وحنين ـ على أنه ﷺ كان يدعو جيشه وقت الهزيمة، للرجوع والصمود، وكان أقرب الناس للعدوّ، فيستمدّ منه الصحابةُ الشجاعةَ والثباتَ!..

أجل، هذا محمد رسولُ الله ﷺ القائد القدوة لجيشه، وذو الفكر المستنير، فقد أنزل جيشه عند أدنى ماء من قريش، حتى يكون في موقعٍ أقرب من عدوه إلى الماء، فكان نزوله ـ بعد استكشافه بنفسه ـ

في العدوة الدنيا من بدر، حيث أقيم معسكر المسلمين.. ثم، وبإقامة المعسكر، اكتملت الصورة الجغرافية لرسول الله ﷺ.

فانبرى يعيد تنظيم جيشه حتى يؤمن الترابط واللحمة بين المقاتلين، ثم جعل وجوههم لناحية الغرب بحيث تكون الشمس من ورائهم ـ إذا بدأ القتال في الصباح ـ فإذا تقدم الأعداء نحوهم كانت الشمس في وجوههم، ثم دفع رايته إلى مصعب بن عمير لينصبَها في مكانٍ تظهر منه للجيش وبعد انتهائه من هذه الترتيبات، وقف الرسول الأعظم قبالة المجاهدين، فحمد الله وأثنى عليه، بما هو أهلُهُ، ثم راح يحثهم على الصبر والاحتمال، ويرغبهم في الأجر والثواب قائلًا: «أما بعد، فإني أحثكم على ما أحثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإنَّ الله (تعالى) عظيم شأنه، يأمر بالخير، ويحبُّ الصدق، ويعطي الخير أهله على منازلهم عنده، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله تعالى فيه من أحدٍ إلَّا ما ابتغى به وجهه. وإنَّ الصبر في مواطن البأس مما يفرِّجُ الله به الهمَّ، وينجي به من الغمَّ، وتدرك به النجاةُ في الآخرة.. فيكم رسول الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطَّلع الله عزَّ وجلَّ على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1].. وابْلُوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبون به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإنَّ وعدَهُ حق، وقولَهُ صدقٌ، وعقابَهُ شديدٌ. وإنّما أنا وأنتم بالله الحيِّ القيّوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه

(١) سورة غافر، الآية: ١٠.

المصير، يغفر الله لي وللمسلمين[1]! قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»[2].

وبعد هذه التعبئة النفسية، الإيمانية والاستشهادية، طلب الرسول ﷺ من الصحابة ألَّا يحْدثوا جلبةً في المعسكر، وألَّا يبدأوهم بقتال[3]، حتى يخيّم الهدوء، فلا يحسّ لهم العدو ركزاً (حِسّاً) . . وكانت قريش قد نزلت ـ بدورها ـ منازل القتال، وانصبّت (انحدرت) من العدوة القصوى إلى وادي بدر، فصار الجيشان في موقع المواجهة. . .

وأراد أبو جهل أن يتبيّن وضع المسلمين، فاختار لذلك عمير بن وهب الجمحي ـ وكان فارساً شجاعاً ـ وكلَّفه القيام بجولة استطلاعية حول المسلمين. فدار من حولهم، ثم ضرب في الوادي حتى أبعد، فلم يرَ غير تلك الصفوف القليلة، المتأهبة للقتال، فرجع إلى القوم يقول: «ما لهم كمين ولا مدد، ولكنهم قومٌ ليس لهم مَنَعَةٌ إلَّا سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلًا مثله. . إنهم، وما يبدون، نواضحُ (المدافعون عن) يثرب قد خرجت تحمل الموت الناقع[4]، ترونهم خرساً لا يتكلمون، ويتلمَّظون تلمُّظ الأفاعي. . فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟!. فروا رأيكم»[5].

---

(١) ابن ماجة، باب الدعاء ص١٥.
(٢) أخرجه مسلم، والامام أحمد.
(٣) السيرة الحلبية، ج٢ ص١٤٨.
(٤) الموت الناقع: البالغ في الإفناء.
(٥) الرحيق المختوم، ص١٨٩.

ولم يعجب كلامُ عمير أبا جهل لأنه رأى فيه ما يجبِّن جيشه، فقال له: «كذبت وَجبنت، فما هم بقادرين على قتالنا. ما هُمْ إلا أكْلَة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد»!...

فلما سمع ذلك حكيم بن حزام، أتى عتبة بن ربيعة وقال له: «يا أبا الوليد! إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكرُ فيها بخير إلى آخر الدهر؟! قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي (الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش).. قال: قد فعلتُ، أنت ضامن عليَّ بذلك، إنما هو حليفي فعليَّ عَقْلُهُ وما أُصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية (أم أبي جهل، وهي أسماء بنت مخرّبة) فإني لا أخشى أن يشجُرَ (يخالف) أمر الناس غيره»[1]. فذهب حكيم إلى أبي جهل يعرض عليه الرجوع، وموافقة عتبة بن ربيعة على ذلك، فرد عليه مغضباً وهو يشتم عقبة، ويقول: «لقد انتَّضَحَ والله سَحْرُهُ (ظهر خوفه وجبنه) وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور، (يعني أن عددهم قليل) وفيهم ابنه ـ وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم وهاجر ـ فتخوَّفكم عليه»[2].

وفي تلك الأثناء حين كانت المفاوضة تدور بين المشركين حول عدم القتال، كان رسول الله ﷺ يفكّر كيف يمكن أن يلقي الحجة على المشركين.. فقد أرادَ أن يُشهدَ ربَّه على أنه أوفى بالحسنى، وأنه وإنْ كانت قريش عدوَّة دينه وعدوه اللدود، فإنه لا يريد إهراق الدم، إن كان ثمة وسيلة للسلم والتفاهم، أو ما يوصل إلى تقبُّل تلك العصبة

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٤ و٢٧٥.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٥.

المشركة الاسلام حقيقةً لا مناص منها، والانصياع لحكمه، فأرسل ﷺ إلى المشركين من يقول لهم:

«معاشر قريش، إني أكره أن أبدأكم بقتال، فخلوني والعرب وارجعوا، فإنْ أكُ صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً، وإن أكُ كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري»[1].

ورأى عتبة بن ربيعة في قول «محمد» صدقاً وحقاً ـ وهذا فوق اقتناعه برأي حكيم بن حزام ـ فصاحَ في قومه: «ما ردَّ هذا قومٌ عقلاءُ قطُّ.. فأفلِحوا يا معشر قريش!»..

ثم ركب جملًا له أحمر اللَّون، وراح يجول بين المعسكرين، ناهياً عن القتال، فنظرَ إليه رسول الله ﷺ وقال: «إنْ يَكُ عند أحدٍ خيرٌ، فعند صاحب الجمل الأحمر، وإنْ يُطيعوه يَرشدوا».

وبعدما جالَ عتبة بن ربيعة على جمله مراتٍ عديدة، وقف وعادَ يخطب في قومه وهو يقول:

«يا معشر قريش! أطيعوني اليوم واعصوني الدهر. إنَّ «محمداً» له آلٌ وذمة. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه أن قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلًا من عشيرته.. فارجعوا وخلُّوا بين «محمد» وسائر العرب. فإن يكُ صادقاً فهو ابن عمٍّ لكم وأنتم أعلى به عيناً. وإن يكُ كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. وذلك ما تريدون»[2].

وثارت ثائرة أبي جهل، وخاف أن يُفسد عليه عتبةُ ما جهد لأجله ودبَّره طويلًا، فطلب عامرَ بن الحضرمي ـ أخا عمرو الذي قتل

---

(١) الدارمي، باب المغازي ص٣٥.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٥.

على يد رجال سرية عبد اللّه بن جحش ـ وراح يؤجّجُ في صدره نار الثأر لأخيه، وهو يقول له: «أرأيت يا عامر! هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس. وقد رأيتَ ثأرك بأمِّ عينك، فَقُمْ فانشد خُفْرتك[1] ومقتل أخيك»[2]..

وركب عامر على فرسه، وراح يصرخ في ملأ قريش: «واعمْراه! واعمْراه!...»...

وتواثبت صرخة الثأر من نفس إلى نفس، تُهيِّج عاطفة الجاهلية، ولبَّى نداءَها زعاقُ الموت عويلًا حانقاً، فدوَّت في جنبات بدر أصداءُ المنايا وهي تهتف بالرجال: «هلموا إلى حتوفكم فقد دنت مواسمُها»..

وكان للشيطان ما أرادَ في تلك الساعات الحرجة، فبعدما أوقع الخلاف بين المشركين، راح يزين لفراعنة قريش أنَّ الغلبة لهم، وأنهم هُمُ الأعزة فلا يجب أن يذلوا.. كما يبينه لنا رب العالمين بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[3].

وانبرى من بين صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلًا شرساً سيِّئ الخُلق، قد صعقه هتاف الثأر فاندفع نحو المسلمين، وهو ينادي: «أعاهدنَّ اللَّهَ لأشربَنَّ من حوضهم، أو لأهدمَنَّهُ، أو لأموتَنَّ دونه»[4]. وكان الحماةُ الأشاوسُ الذين وقفوا متأهبين لكل هجوم بانتظاره، حتى إذا اقترب من

(١) أنشد خفرتك: أي اطلب من قريش الوفاء بعهدهم لك، لأنه كان حليفاً لهم وجاراً.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٦.

الحوض، اندفَعَ إليه حمزةُ بن عبد المطلب كاللَّيث الجسور، يستقبله بضربة من سيفه فيقطع ساقَهُ، فيسقط على الأرض يشخَبُ بدمِهِ، ثم يعاجله بضربة أخرى تقضي عليه، وتُرديه جثة هامدة لا حراك فيها..

ورأى أبو جهل ما حلَّ بالأسود المخزومي، فاستشاط غضباً على عُتبة بن ربيعة، وراح يكيل له الشتائمَ، ويُلصق به أشنع التهم وأقلّها اتهامه بالجبن والخذلان.

ووقف عتبة في وجهه يردُّ عليه شناعته، وهو يرميه بالأَبنة (العيب والحقد)، كما كان الأنصار يرمونه بها.. ثم تعجَّل مستحثاً أخاه شيبة بن ربيعة وابنَه الوليد بن عتبة وانطلق نحو صفوف المسلمين طلباً للمبارزة وعتبةُ ينادي: «يا محمد... ها نحن سادةٌ من قريش قد جئنا نقاتلك، فهل بعثت إلينا أكفاءنا من قريش؟».

فبرز إليهم ثلاثة شبان من الأنصار وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث (وأمهما عفراء) وعبد اللّه بن رواحة فقالوا لهم: ارجعوا، فإنا لسنا إياكم نريد إنما نريد الأكفاء من قريش، فأرجعهم النبي ﷺ. وقد أرادَ أن يبدأ بأهل بيته، لا بغيرهم من المهاجرين والأنصار، فنظرَ إلى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وهو يومئذ في السبعين من عمره وقال له: «قم يا عمّاه»، ثم تطلّع إلى عمه حمزة بن عبد المطلب وقال له: «وأنت أيضاً يا عمّاهُ، فقم إليهم».

ثم حدَّق بناظريه صوب عليٍّ بن أبي طالب وقال له: «هيَّا يا أصغَرَ السن وأبطشَ الذراع»!..

ولبَّى القُرشيّون الأبرارُ، من ذوي القربى، أمرَ نبيّهم، فاندفعوا إلى ساحة المعركة، بنفوس مؤمنة، صادقة، تتوَقّد بالشجاعة والعزيمة.. فاختارَ عبيدةُ مواجهة عتبة، بينما اختار حمزةُ مواجهة شيبة، واختار علي مقاتلةَ الوليد.. هنا وفي أشدّ الظروف وأحلك

الساعات نجد السلوك الإسلامي قويماً، مستقيماً يبرز في اختيار الرسول الأعظم للصحابة الثلاثة بعدما رأى أولئك المبارزين من المشركين، فبعث إليهم من هُم صنوٌ لهم قوةً وسنّاً، ومن أبناء عشيرتهم بالذات كما أرادوا... ووقف كلّ من الأبطال الثلاثة في مواجهة نظيره تماماً: الشيخ قبالة الشيخ، والرجل أمام الرجل، والفتى في مواجهة الفتى، ولكنَّ الفارق ما لبث أن برز سريعاً في البطولة.. فما هي إلَّا جولة وكان حمزة وعليٌّ رضي الله عنهما قد أجهزا على عدوَّيهما بمثل ومض البرق، إذ عَاجَلا بسيفيهما ذَينك الكافرين وجندلاهما على الثَّرى. ثم التفتا نحو عبيدة وعتبة، فإذا هما قد وقعا على الأرض، وقد نالَ كل منهما الآخر بضربة، فتقدما إلى عتبة، يهويان عليه بضربة واحدة تورده حتف المنون. ثم حملا عبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدم يسيل من ساقه المقطوعة، فأفرشه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ركبته الشريفة، وبشره بالجنة. وهكذا هوى ثلاثةٌ من أعاظم رؤوس الكُفر والضلال إلى قعر جهنم وباؤوا بغضب الله (تعالى)، فانكسرت بهذه الضربة البِكر شوكةُ الطغاة من قريش، وذلَّت رقابهم، بعد أن خسروا ثلاثة من زعمائهم، الذين كانوا يعوّلون عليهم في الملمات..

وعندما رأى المشركون ما حلَّ بأصحابهم الثلاثة من قتل، اندفعوا نحو المسلمين كالسيل الجارف، وأبو جهل من ورائهم، يحاول إنقاذ الموقف بتحريضهم على القتال وهو يزعق كالغراب: «لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر أبناء ربيعة. عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً، وعليكم بقريش، فخذوهم أخذاً، حتى ندخلهم مكة، فنعرفهم ضلالتهم التي هم عليها»[1].

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، م٥ ص٥١.

فيا لجهالة هذا الرجل الذي لا وصف ينطبق عليه أكثر من أنه «أبو الجهل»! وجهالته تكفي للدلالة على ما تضمُّ جوانحه من كفر وحقد!..

على أن المشركين كان يأخذهم الظن بأن في كثرة عددهم ما يُدخل الرعبَ في قلوب أعدائهم، وبأنهم إذا ما رأوهم يندفعون نحوهم، سيتراجعون أمامهم، ويولون الأدبار.. ولكن أين هم من ذاك الوهم، والمسلمون في انتظارهم يتحرقون شوقاً لملاقاة هذا العدو الغاشم؟. وها هُم، وقد رأوا الهجوم عليهم، لم يتحرَّكوا من أماكنهم بل ظلّوا ثابتين: تشدُّ سواعدهم القوية على الأقواس، لتمطرَ الزاحفين بوابل من السهام والنبال، فتخترق منهم الضلوع، وتصيب الرؤوس والأحشاء، فيهوي منهم من يهوي، ويفلت من يفلت.. ثم ينقضّ المسلمون عليهم كالنسور تهبط من شواهقها، وقد شرعت سيوفها وحرابَها للقنص الوفير..

واعتلى النبيُّ ﷺ التلَّة، يحرِّض المسلمين على قتال أعداء الله، وهو يُلقي على مسامعهم قولَ الحق، بقوله الكريم: «والذي نفس محمد بيده لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتَل صابراً محتسباً، مُقبلًا غيرَ مُدبِرٍ، إلا أدخلَهُ اللَّهُ الجنة»[1].

ثم لا ينسى النبيُّ الكريم، ورسولُ الحق، حتى في هذا الموقف الحرج، ومن خلال نداء التحريض، والحضّ على القتال، أن يهيب بالمسلمين ألّا يقاتلوا إلَّا عدلًا.. فلا يقتلوا من يقع في أيديهم أسيراً، أو من يسلِّم نفسه إليهم، وأن يتحاشَوا مصارع قوم ذبّوا (دافعوا) عنهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٧٩.

في مكة ومنعوهم.. وأن لا يتوخَّوا من قتالهم إلَّا الذودَ عن دين الله، وحماية الإسلام من الكافرين..

ذلك هو الخُلق المحمديُّ يتلألأ مشعَل نور على جبين الدهر، ليُضيء جوانب الظلام كلما خيَّمَ على حياة الإنسان الظلمُ والفسادُ، وكلما اشتعلت الحروب وَسُفِكَتِ الدماء..

فالرسول الأعظم، وفي أول معركة يخوضُها الإيمانُ ضد الكفر، لم يغفلْ عن نَفر في عداد قريش، قد وقف يوماً إلى جانبه يذودُ عنه، وعن المسلمين، في أحلك الظروف وأشدِّها صعوبة.. ولم يكن ذلك النفرُ إلَّا بني هاشم ومن شايَعَهم من قريش، أو وقَفَ مثل مواقفهم.. فأولئك ما كانوا يوماً إلْباً على المسلمين في مكة، يتهددون وجودهم وكيانهم، بل على العكس كانوا الحماة يوم أرادتها قريش حملةً شعواءَ لا تُبقي ولا تذر. ويكفي أنهم عاشوا مع المسلمين نكبة المقاطعة، لكي يحفظ لهم رسول الله ذلك الصنيعَ الجميل، فكيف وقد كانت كل مواقفهم إلى جانب النبي ﷺ وأصحابه إبَّان المحن والنكبات؟!... فهل يعاملهم رسولُ الحق مثل الأعداء الغادرين في قتالٍ قد فرض عليهم كرهاً من شياطين قريش، وهي تهددهم بهدم بيت كل من لم يخرج لحماية العير، ومنع الأموال؟!.

لا والله لا يكون منه ذلك. فهو محمد بن عبد اللّه، الإنسان العادل، الذي يحفظ العمل الجميل، ويفيه حقَّه يوم يقدر على الوفاء.

ومثل بني هاشم أيضاً، كانت لنفرٍ من قريش أيادٍ بيضاء على المسلمين، يوم سعى هذا النفرُ لإيصال المؤن والمياه إلى المحاصرين متحمِّلًا المخاطر في سبيل ذلك، ويوم حرَّض على نقض صحيفة المقاطعة غير آبهٍ لعنَتِ المتعنِّتين من زعماء قريش أو لصلافة المتكبرين منهم..

نعم، ومن أجل الوفاء الإنساني، كان نداءُ رسول الله ﷺ لأصحابه، وهم يشدُّون على المشركين، ألَّا يقاتلوا أصحابَ الصَّنيع الحسن ـ وهم معروفون منهم ـ بمثل ما يقاتلون به رؤوس الشرك وأسيادَ الكفر، ومَن نزا نزوتَهم الحاقدة على الإسلام..

وإذ الْتقى الجمعان، كان نداء الرسول يتردد في آذان المسلمين وهو يعدهم بالجنة، ويوصيهم بقتالٍ شريفٍ عادل، فهفتْ قلوبهم لنيل الشهادة ومشاعرُهم لتنسُّم رياح الخُلْد، فإذا الحياة الدنيا عندهم مجرد عبورٍ سريعٍ إلى رحاب الله الفسيحة، العابقة برحمته ورضوانه..

بل أخذتْ تهتفُ في أعماقهم الطمأنينةُ فرحةً جذلى، فتردِّدُ حناجرُهم ذلك الهتافَ الرائعَ، وكُلُّهم يتغنَّى بلسان عمير بن الحمام، أخي بني سلمة: «بخٍ بخٍ[1]!... أفما بيني وبين الجنة إلَّا أن يقتلني هؤلاء؟ إيهِ أيتها التمرات الطرية في يدي: اذهبي، لئن أنا حييت حتى آكلك، إنها لحياة طويلة».

ولم يَرْمِ عمير تمراتِه من يده فقط.. ولم يلفظ ما كان قد وضعه في فمه منها وحسب، بل أبت عليه مشاعره إلَّا أن يعبِّر عما يجول في صدره، وصدور إخوانه، في تلك الساعة، وهم يندفعون نحو الأعداء، فيهتف منشداً:

ركضاً إلى الله بغير زادِ ... إلَّا التُّقى وعملِ المعادِ
والصَّبر في الله على الجهادِ ... وكلُّ زاد عُرضَة النَّفادِ
غير التُّقى والبر والرشادِ

(١) بخٍ بخٍ: كلمة تقال في موضع الإعجاب، انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، هامش ص٢٧٩.

وما زال عمير يقاتل حتى سقط شهيداً، كما تمنى وأراد[1].

ويشتد احتدام المعركة: فهنا يسقط هامٌ على الثرى، وهناك يهوي فارسٌ، وبجانبه ينكبُّ راكب، ويرتمي راجل.. ومن تحت الأرجل والحوافر يرتفع الغبار، فيغطي الأجواء. الكلُّ في كرٍّ وفرٍّ، وصيحات الرجال تختلط بمقارعة الدروع والسيوف، حتى ليخيّل للرائي أن الأرض تميد تحت الأقدام، وأنَّ السماء تُنزل اللَّعنات على المشركين الفاسقين...

ووقف النبيُّ ﷺ أمام عريشه يشهد تلك الواقعة، وقد أرادها سفهاءُ قريش معركة شرسة، لا لشيء إلَّا لأنهم يرفضون الانصياعَ لدعوة الحق، والاهتداءَ إلى الإيمان.. وإنَّه، وهو يرقب سير المعركة واحتدامها، لا يجد إلَّا أن يتوجَّهَ بناظَرَيْهِ وقلبِه إلى الله (سبحانه وتعالى) خاشعاً، متضرعاً، مبتهلًا، مستعيناً به (عز وجل) على نصر المسلمين، وخذلان المشركين، فيأتيه الاطمئنانُ، استجابةً من ربِّه تعالى بتنزيل صادق كريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[2].

ويستبشر رسول الله ﷺ بالنصر، فيتعالى صوته يشقُّ عنان الفضاء، ولكن، على الرغم من قرقعة الحديد، وصهيل الخيول،

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج٢ ص١٢٦؛ وتاريخ الخميس ج١ ص٣٨٠، والسيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٧٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

وصيحات الرجال.. يصلُ إلى المسلمين قبساً روحانياً، ويحُلُّ في نفوسهم قوةً ربّانية تشعُّ من نفس محمد ﷺ لتبعث في نفس كل مسلم قوىً مضاعفة، حتى ليحِسّ الواحدُ بأنه كفؤٌ لعشرة رجال، وأنَّ يد الله سبحانه فوق يده تحرِّك سيفه فيضرب، وتسدِّدُ رميته فتُصيب، وأنه وإخوانَهُ المسلمين ليسوا وحدهم في المعركة، بل هُم في حشد من جنود الله الخفية، لا تقع عليها عيونهم ولا يعرفون عددها، بل يحسُّون بوجودها تقاتل معهم جنباً إلى جنب.

وتَضعُف في عيون المؤمنين شكيمةُ المشركين العاتية، وتتضاءل في نفوسهم قُواهم الباغية، فيفرِّقون صفوفهم ويشتِّتون جموعهم، ويكتسحون دفاعاتهم كما يكتسح السيل العرم الغُثاءَ الأحوى، وهم يبحثون عن زعماء قريش وعظمائها، حتى يطيحوا برؤوسهم، ويستأصلوا وجودهم، فيقضوا على أكبر معقل للكفر في بلادهم. ومن خلال هذا البحث عن شياطين قريش يلمحُ بلالٌ ـ المسلم الذي أوذيَ في سبيل اللَّهِ أذى شديداً ـ أميَّةَ بنَ خلفٍ وإلى جانبه ابنُه عليٌّ، فيندفع نحوهما، ويصرخ في وجهَيهما، يذكرهما بما كانا يفعلان به في مكة حتى يفتناه عن دينه، فيقول لأمية: إيهِ يا رأس الكفر، ألا تحمل الصخرة العظيمة اليوم بين يَديك، تريد بها صدر بلال الحبشي؟!... فوالله لن أدعَك تفلت من يدي وأنت على كُفرك العاتي حتى أُوردك نارَ جهنم، وبئس المصير..

ويتصدَّعُ كيان أمية من صرخة بلالٍ، فترتعد أوصالُهُ ويُدرك أن ساعته قد دنت، فيتطلع حوالَيه يريد هرباً، فإذا به يلمح عبد الرحمن بن عوف، وكان صديقاً له في مكة، فينطلق نحوه وهو يصرخ بابنه أن يتبعه، مستجيراً بعبد الرحمن كي يحميه وابنَهُ، وهو يقول له: «هل لك فيءٌ فأنا خير لك من هذه الأدرع التي تحمل؟»، ثم

يغدق له الوعود بالنوق والجمال الكثيرة إن أنجاه وابنه.. مما جعل عبد الرحمن يطرح أدرعه، ويجيبه إلى دعوته، فيقول له:

«نعم والله فقد كنتَ صديقاً»..

ولكنّ بلالًا لا يتركه، بل يلحق به، وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أنصارَ الله، هذا رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا».

ولفتت صرخةُ بلال مسامع بعض المسلمين، فاندفعوا نحو أمية، يلتفون حوله التفاف السوار حول المعصم، غير عابئين بصراخ عبد الرحمن بن عوف، في الإبقاء على حياة الرجل بل يُردون ابْنَهُ قتيلًا، قبل أن يصلوا إليه، فيصرخ ـ حينئذٍ ـ فيه عبد الرحمن، يحضُّهُ على الهرب، وهو يقول له:

ـ أُنجُ بنفسك يا أمية، وإلَّا فلا نجاة بعد الآن، فوالله ما أغني عنك شيئاً.

ولكن سيفَ بلال كان أعجل، وهو يتلقّف به رقبة أمية بن خلف، بضربة المؤمن الذي ذاق لوعة التعذيب، فجعل رأسه يتدحرج تحت سنابك الخيل، وأخفاف الجِمال.. فيرتفع، حينئذ صوت بلالٍ يشقّ عنانَ السماء وهو ينادي: أحَدٌ، أحدٌ!.. فيردد المسلمون من ورائه نداء الحق: أحدٌ، أحدٌ..

وتذهب آمال عبد الرحمن بن عوف أدراج الرياح، لأن الأمرَ قد انتهى إلى غير ما يشتهي. فكان يقول: (رحم الله بلالًا، أَذهب أدراعي وفجعني بأسيريَّ).

وهوى أمية بن خلف، مثلما هوى غيرُهُ ممن كانوا أشدَّ شياطين قريش عنتاً على المسلمين.. ولكنّ رحى المعركة لم تتوقف، وأبطال

المسلمين يخوضونها معركة فاصلة، وفي الطليعة علي ﷺ الذي قال عنه ابن إسحاق: إن الكثير من قتلى المشركين يوم بدر كان لعلي[1]، وقد سماه الكفار يوم بدر بـ «الموت الأحمر» لعظم بلائه ونكايته[2]. ومثله كان عمُّهُ حمزة، وعمر والمقداد، وسعد بن معاذ، وزيدٌ بن حارثة، والزبير، ومعاذ بن عمرو، وسعد بن الربيع.. وغيرهم من الأبطال الميامين الذين كانوا يميلون على الكفار فيفرقونهم بدَدَاً، دون أن ينسوا وصية رسولهم الكريم بوجوب الرفق ببعض من أحسنوا إليهم في مكة، فيجهدون لأخذهم أسارى دون القتل، إلَّا من أرادَ قتلَ نفسه، كما فعل أبو البختري بن هشام، عندما لقيه المجذَّرُ بن زياد البَلَويّ، حليف الأنصار فناداه:

ـ يا أبا البختري إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك إذ كنت عوناً أيام الشدة، وما أحب إلَّا أن تخلي ساحة الوغى يرحمك الله، أو تذهب إلى رسول الله تتفيَّأ بعطفه ورعايته.

وكان صاحبه جنادة بن مليحة من بني ليث قد خرج معه من مكة، فقال أبو البختري:

ـ وصاحبي هذا جنادة؟

قال المجذّر: وهل أعانك صاحبك هذا يوم نقض الصحيفة؟

قال أبو البختري: لا والله!..

قال المجذّر: إذن فسَلْهُ أن يأتي رسولَ الله، ويسلّم نفسه إليه..

وهنا أجاب جنادة قائلًا: لا!.. لن أفعل، وتعيّرني قريش!..

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٥ ص٥٩ عن: البحار ج١٩ ص٢٩١ المناقب لابن شهرآشوب، ج٣ ص١٢٠.

(٢) المناقب لابن شهرآشوب، ج٢ ص٦٨.

ثم التفت إلى أبي البختري، ينهاه عن مؤازرة المجذَّر له، وهو يقول:

«أوَقد سمعتَ ما قال الرجل يا صاح، فخلِّ بيني وبينه، واذهب لأمرك»..

ولكنَّ أبا البختري بن هشام، لم يمتثل لنصيحة المجذّر، بل قال له:

ـ ما أنا بتارك صاحبي، ولأموتنَّ دونَهُ حتى لا تتحدث عني نساء مكة، أني تركت الصحبةَ حرصاً على الحياة.

وهكذا اختار أبو البختري المصير الذي رآه، فاشتبك مع المجذّر في قتال أودى بحياته، ولم يكن نصيبُ صاحبه من الحياة بأوفرَ حظّاً منه، إذ لقي مصرعه أثناء المعركة عندما اقتحم عليه أبطال من المسلمين، وأردوه إلى جانب أبي البختري..

...فالقتالُ يتأجج لهيبه، واحتدام الغضب يشتدُّ سعيرُهُ! ولكن أين رأس الفتنة أبو جهل، عمرو بن هشام، في كل هذا؟

إنه في وسط المعركة مثل الأفعى يتلوى من ناحية إلى ناحية، وهو يحاول ألّا يدخل في اشتباك مباشر، أو في مواجهة حاسمة... بل يحرِّض قومه متجنِّباً الضربات، ويشد عزم مقاتليه متفادياً الهجمات، حتى شدَّ عليه مُعاذُ بن عمرو بن الجموح (الأنصاري) وأمكنه أن يصل إليه بضربة أطنَّت بنصف ساقه (أطنَّ الساق قطعها، يراد بذلك صوت القطع)، وكان ابنه عكرمة من ورائه، فتقدم من معاذ، وضربه على عاتقه فقطع يده وبقيت معلّقة إلى جنبه بجلدة لها، فلم يعد قادراً على قتال... ويرى معوّذ بن عفراء ما حلَّ بصاحبه معاذ فيهجم على أبي جهل، يرميه بضربة وهو يقول: «لقد أرسلك الله

إليَّ يا مفسد القوم، فخذها من يد مؤمنٍ جزاءً وفاقاً لما عذَّبتم المسلمين في مكة»!.

ويهوي أبو جهل على الثرى مثخناً بالجراح، فيظنهُ معوّذ قد قتل وذهب إلى الجحيم، فيبتعد عنه ليواصل القتال ذوداً عن دين الله، دونَ أن يمكِّن ابنَهُ عكرمة من الوصول إليه..

وفي هذا الجو المشحون، وفي حمى هذا الوطيس، كان الرسول ﷺ ما يزال على عهده مع ربّه، يستغيث به، ويتضرع إليه أن يؤيِّد المسلمين بنصره المؤزَّر، حتى لا تعلو كلمة الكفر، وتحول دون نشر دينه الحق.. ثم يأخذ ﷺ حفنةً من الحصى، ويستقبل بها قريشاً، وهو يقول:

«شاهت الوجوه»[1].

وتستمر المعركة لتستبين سبيلُ المجرمين، ولكنْ، وبعد هذا القتال الشديد تخور القوى من المشركين، وتوهن عزائمهم إذ ينظرون من حواليهم، فلا يجدون إلَّا الجثث تغطي الأرضَ، فقد سقط سادتهم صرعى، وصار فتيانهم جثثاً هامدة. ولم يعودوا قادرين على مواصلة القتال منهكين، لاهثين، ودونما جدوى يرتجونها..

لقد تصدَّع كيانُهم وأصبح حالُهُم أشبه بثوبٍ مهترئ، يتمزَّق في مهب الريح.. حيالَ هذا الواقع، لم يَروا إلَّا الفرار هرباً من المسلمين، فولوا وجوهم نحو كثبان الرمال، وهم يلقون أسلحتهم من أيديهم كي لا تعوقهم عن الهرب.. ولكن أنَّى لهم خلاصٌ، والمسلمون في أثرهم يجدُّون، ويلاحقونهم بنفوس حميَّة، وقلوب

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٨٠ (عن ابن اسحاق).

أبيَّة، فيأسرون منهم من يأسرون، ويغنمون منهم ما يغنمون؟ وما زالوا بهم يشتتون قواهم، ويبددون جموعهم، حتى انجلت معركة «بدر الكبرى» في عصر يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك، من السنة الثانية للهجرة، عن هزيمة ساحقة للمشركين، ذهب فيها من رجالهم سبعون قتيلًا، ووقع في أيدي المسلمين مثل عددهم أسارى، فضلًا عما خلّفوه من متاع وزاد وعدة حرب كانت كلها غنائم للمسلمين.. ومقابل هزيمة قريش كان نصرُ الله (تعالى) للمؤمنين، على ما وعَدَ به سبحانهُ رسولَه الكريم، وأيّده بقوى خفية، حققت لهم ذلك النصر العظيم..

وأقبل النبي ﷺ والمسلمون من ورائه يتفقدون ساحة المعركة علَّهم يجدون بعض الجرحى ـ من الفريقين ـ لكي يُسعفوهم وينقذوهم من الموت.. وفيما هم في تجوالهم إذا بعبد اللّه بن مسعود يجد أبا جهل، ما يزال به رمقٌ من حياة، فيعتلي صدره، ويمسك بلحيته يشدها إليه، فيقول له ذلك اللئيم: «لقد رقيت مرتقى صعباً يا رويعي[1] الغنم»... ولم يتلفَّظ بأكثر من ذلك حتى انفصلت نفسه الخبيثة عن جسده النتن، فحزَّ عبد اللّه بن مسعود رأسه عن رقبته، وحمله مهلِّلًا مكبِّراً على ما منحهم اللّهُ تعالى من مكرمةٍ بموت أشدِّ الناس حقداً على الإسلام وأهله، وذلك بسبب ما كان يصيبهم به هذا الرجل من أذى وعذاب، وما كانوا يعانون من كراهيته وعداوته..

وكان من بين شهداء المسلمين الفتى عمير بن أبي وقاص الذي بكى، ليظل مصاحباً أخاه في الخروج، وها هو قد حضر معركة بدر،

---

(١) رويعي: تصغير كلمة «راعي» ومن استعمالات هذه الصيغة التحقير والتصغير.

وقاتل قتال الأبطال، فتنزَّلت الملائكة تحف به في اسمى مقام الشهادة، وترفعه على أجنحة الإيمان إلى السماء، راضياً مرضياً، ليترك على الدهر أنشودة الفتوة والشهادة تتغنى بها نفوس شباب المسلمين قبل حناجرهم، وتهوي إليها أفئدة المسلمين صلاة قدسية، لمن أراد أن يخلد في حياة الطمأنينة الأبدية، وفي نعيم السعادة الأزلية.. فطوبى لك يا عمير أيّها الفتى المقدام، وأنت تنال وسام شرف الشهادة في سبيل الحق!.

تلك حكاية من حكايات البطولة الفتيّة في الإسلام، لا نذكرها هنا للتفاخر وحسب، بل ولنؤكد للمسلمين اليوم بأن أسلافهم عندما آمنوا باللَّهِ (تعالى)، إيماناً صادقاً، راسخاً في النفوس، وعرفوا أهمية دينهم في حياة بني الإنسان، وقدرته في تربية الناس تربية صالحة، أقدموا على مثل تلك البطولات والتضحيات التي ظلت تردّدُ أصداءَها أطرافُ الدنيا، حتى جاءت العهودُ التي حاولت طمس معالمها وآثارها، من أجل أن تموت معها بذور الخير في النفوس، فيشرئبُّ الشرُّ ويتطاول بأضراره على حياة الناس.. وهذا ما حصل بالفعل، كما تشهده مختلف جوانب العالم الأرضي في وقتنا الراهن!..

ولم تكن حكاية عمير إلَّا مثالًا حياً على كل ما حفلت به معركة بدر، التي لم تزد على بضع ساعات من ذلك النهار المبارك من رمضان.. ولكن لا تؤخذ قيمتها على أنها واقعة حربية مظفرة، بقدر ما يجب النظر إليها من زاوية ما أحدثت، رغم قصر وقتها، من الآثار والنتائج مما هو جدير بأن يبقى ماثلًا في أذهان المسلمين، بل وفي أذهان الناس أجمعين، كي يستقوا من معينه الدافق عبَراً وعظاتٍ يفيدون منها في مواجهة الحياة، كلَّما تبدَّى النزاع أو الاختلاف حول

شأن من الشؤون التي حفلت بها حياة المسلمين في ذلك الوقت، والتي قد تحفل بها حياة الناس في كل وقت..

أهم الآثار والنتائج التي ترتبت على معركة بدر

١ ـ وثوق الجماعة بالقائد:

فمن دروس بدر القيِّمة، نستخلص أهمية وثوق الجماعة بالقائد، واعتمادها على صدقه، وحسن تقديره لمجرى الأمور.. فالمسلمون يوم خرجوا من المدينة كانوا يطلبون أموال قريش التي تمدُّها بالقوة المادية والمعنوية، والتي تبقيها على موقفها من العداوة للإسلام.. فلما تبين لهم هرب أبي سفيان بالأموال رأى بعضهم الرجوع، بينما رأى قائدهم رسول الله ﷺ الثبات ومواجهة قريش، بعدما جاءت بمظاهر القوة والخيلاء، تتحدى خروجهم، وتهدد باستئصالهم.. وكانت عظمة المسلمين بإدراكهم لرحمة الله التي تنزلت عليهم ساعة الحَيْرة، ومن ثَمَّ بإجماعهم على موافقة الرسول ﷺ فيما رآه، حتى لم يشذَّ عن هذا الإجماع رجل واحد، بعدما رأوا من آثار رحمة الله ما بدَّلَ أيَّ أثر للتردد..

وبخلاف ذلك كان وضع المشركين، إذ لم تكن لهم قيادة موحَّدة، بل كان لكل قبيلة قائدٌ يختلف عن غيره رأياً ومنهجاً وعملاً... فهنا قادة يريدون الرجوع إلى مكة بعد نجاة الأموال ـ وقد رجعوا فعلاً ـ وهناك قادة يصرون على لقاء محمد ﷺ وأصحابه، وفريق ثالث لا يعنيه إلَّا التخلص من ضغط زعماء قريش، ونجاته من الهلاك، لا سيما بعدما تأكد له تصميم المسلمين على خوض المعركة، واستهانتهم بالموت، مهما عظمت قوة قريش.

وهكذا برزَ عامل رئيسي يميِّز بين الطرفين. . ففي طرفٍ قائدٌ واحدٌ هو صاحب الأمر والنهي، والجميع من حوله مطيعون له، لإيمانهم بقدرته وحكمته وإخلاصه، بينما في الطرف الآخر توزعت القيادات أشتاتاً مختلفة، وكلٌّ منها ينزع نحو غاية، يرى أنها توافق مآربه وأهواءه.

٢ ـ اعتماد الأساليب الحربية السليمة:

وتوحي لنا بدرٌ أيضاً بأهمية الأسلوب واعتماده كأحد مقومات الحرب الرئيسية. . والأسلوب في الحرب يعتمد أصلًا على التخطيط والتنظيم. فبقدر ما يجري من تخطيط سليم للمعركة، وبقدر ما يحصل من تنظيم للقوى وتهيئة للإفادة من الوسائل المستخدمة، بقدر ما يتيح ذلك من تحقيقٍ للنصر. . ولقد تميَّز أسلوب المسلمين في معركة بدر، باعتماده على التخطيط والتنظيم. فقد منعوا عدوَّهم من السيطرة على الماء فأمنوا عدم العطش في قتال يدور خضمُّهُ في الصحراء القاحلة. وقد اعتمدوا الشمس وسيلةً لإرباك العدو بحيث يستقبلها في عيونه فتعوّقه عن سرعة الحركة واقتناص العدو. وقد نظَّموا أنفسهم جماعات جماعات: جماعةً للنبال، وأخرى للسيوف، وغيرها للرماح، وأُوكِل إلى كل جماعة موقعٌ تشترك منه في المعركة. وكانت خطتهم المحكمة أن يجعلوا عدوهم هو البادئ في الهجوم، والجيشُ المهاجمُ يتعرّض عادة لخسائر أكثر بكثير إذا كان عدوُّه كامناً له متربِّصاً به. وهذا ما حصل فعلًا يوم بدر، إذ عندما هجم المشركون انهالت عليهم النبال مثل المطر المدرار، تفتك بهم وتثخنهم بالجراح، حتى إذا اندفعوا نحو المسلمين، كان هؤلاء بانتظارهم في حرابهم وسيوفهم، فانقضُّوا عليهم بالروح القتالية الباسلة التي جعلت أعداء الله أشتاتاً متفرقة. .

وحيال هذا الأسلوب الحربي السليم، فإن القلة تغني عما لا تغني عنه الكثرة.. فأية فائدة من كثيرٍ لا يستجمع العناصر التي تحيل كثرته قوة فاعلة، وأي نفع من الأعداد الغفيرة إن لم تتوفر لها عوامل التعبئة والإعداد والغاية؟... أوَ ليس في واقعنا ما يعبِّر عن تلك الحقيقة عندما نجد العدوَّ الصهيوني، على قلة عدده، قد هزم العرب على كثرتهم؟..

٣ ـ الأهداف والدوافع:

فالمسلمون كان عندهم هدف سام وهو عبادة الله تعالى وإعلاء كلمته بنصرة دينه ونبيّه، ومن أجل ذلك كانوا يتمتعون بقوة معنوية عظيمة، دافعُها الإيمان وصدْق العقيدة، بينما كان هدف المشركين مطامع الدنيا ـ من خلال القضاء على الدين الإسلامي ـ وهو هدف لم يكن وراءه قوة معنوية سوى حقدهم على النبيّ الذي يحمل هذا الدين.. يضاف إلى هذا الحقد عنصر ماديٌّ آخر وهو حماية الأموال.. فلما أمَّنُوا عليها، ضعفت عزيمتهم عن القتال. كما أن من أسباب إضعاف قوتهم المعنوية، الأوهام والخرافات التي كانت تتلبس عقولهم وأفئدتهم.. فقد ضربوا القداحَ قبل خروجهم يتلمّسون عونَ «هبل» فما زادهُمْ ذلك الوهمُ إلَّا سخريةً من عقولهم دفعتهم إلى التشاؤم..كما كانت الشائعات قد سرت فيما بينهم عن رؤى كثيرة جعلتهم يتطيّرون من الخروج.. فقبل أن يأتيهم نذير الاستنفار الذي بعث به أبو سفيان بن حرب، كانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت في المنام أن راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح ينادي: ألا انفروا يا آل غُدُر لمصارعكم في ثلاث[1].. ثم صعِدَ هذا الرجل

(١) تقول: يا غدر، أي غادر، فإذا جمعت قلت: يا آل غُدُر (انظر السيرة لابن هشام، ج٢، هامش ص٢٥٩).

ببعيره على جبل أبي قبيسٍ، فأخذ صخرةً فأرسلها فأقبلت تهوي حتى تفتَّتت، فما بقيت دار بمكة إلَّا دخلتها منها فِلْقة.

فأخبرت عاتكة أخاها العباس برؤياها، فحملها العباسُ إلى الوليد بن عتبة بن ربيعة فذكرها الوليد لأبيه، فقال: «هذه والله مصيبة تحدث في قريش».

وفشت تلك الرؤيا بمكة حتى تحدّثت بها قريش في أنديتها، فكان أبو جهل يقول ساخراً: «هذه نبيَّة ثانيةٌ في بني عبد المطلب.. واللات والعزى لننتظرنَّ ثلاثة أيام، فإن كان ما رأت حقاً، وإلَّا لنكتبنَّ عليهم كتاباً: أنه ما مِنْ أهل بيتٍ في العرب أكذب رجالًا ونساءً من بني هاشم».. وخابَ ظن ذاك الأفاك. إذ لم يمر اليوم الثالث إلّا ووقفت قريش ترتعد فرائصها لاستغاثة ضمضم الغفاري في بطن الوادي وهو ينادي: «يا معشر قريش! اللطيمة اللطيمة»[1].

ولم تكن عاتكة كاذبة في ما رأت، ولذلك فإن أبا لهب كان يقول لمن حوله:

«إنما رؤيا عاتكة أخذٌ باليد».. أما في الحقيقة فإنها رؤيا أراها إياها الله تعالى كي تكون أحد العوامل في زعزعة نفوس المشركين، كما حصل فعلًا.. بل ولم تكن عاتكة وحدها من رأت تلك الرؤيا في منامها، بل وغيرها من قريش كانت لهم رؤى مماثلة.. ففي أثناء طريق قريش إلى بدر، انفردَ جهمُ بن الصلت ببعض أصحابه يروي لهم أنه رأى في منامه وكأنَّ راكباً أقبل على فرس ومعه عيرٌ، حتى وقف فوق رأسه، وهو يخبره بأن جمعاً من سادة قريشٍ قد قُتلوا، وبأن

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٦٠؛ والبحار، ج ٩ ص٢٤٥.

أشرافاً منهم قد أُسروا.. وما زال فوق رأسه يُعدِّد من أسماء القتلى والأسرى حتى ذكر كثيرين، ثم راح يضرب خنجره في كبَّة بعيره ويرسله بين عسكرهم، والبعير يطوف بين الأخبية، فلم يبقَ خباءٌ إلّا وأصابَهُ من دمه...

وانتشرت هذه الرؤيا في معسكر القرشيين، فأراد كثيرون منهم التخلّف والعودة من منتصف الطريق، ولكنَّ مناياهم كانت قد سبقتهم إلى بدر، فشدتهم إليها لتحول بينهم وبين العودة التي رغبوا فيها.

وكذلك كانت رؤيا لضمضم الغفاري نفسه، الذي أعلنَ نداء الاستغاثة، إذ قال للحارث بن عامر، وهم في الكثيب الرملي، على قرب من بدر: أتدري يا حارث، إني أفقت من نومي ليلة البارحة وأنا أرتعدُ خوفاً وغمّاً؟

فسأله الحارث: وممَّ الخوف والغمُّ يا ضمضم؟

قال ضمضم: من رؤيا بغيضة.. فإني وكاليقظان على راحلتي نظرت إلى واديكم ـ يعني مكة ـ فكأنَّ به دماً يسيل.. فقال الحارث: ما خَرجَ أحد وجْهاً من الخروج أكره له من وجهي هذا!.

قال ضمضم: ولِمَ لا نرجع؟

قال الحارث: لو سمعت منك هذا وأنا في مكة، ما خطوت وراءها خطوة واحدة... فاطوِ هذا الخبر وإياك أن تُعلمه لقريش، حتى لا نتعرض لسوء شتم.. فإنهم يتهمون كل من يحاول أن يعوقهم عن القتال!..

تلك كانت حالة قريش النفسية التي رافقتهم في فترة معركة بدر، وهي حالة لا تبعث على أية قوة معنوية، بل على العكس إنها توحي

بأسباب الضعف والهزيمة.. فالقوم ذهبوا إلى الحرب وملء قلوبهم التشاؤم والتطير، ولا بدَّ لمن كانوا كذلك أن يكونَ الشقاق سيداً عليهم، وأن تكون التفرقةُ تقود خطاهم. وذلك فضلًا عما كان بينهم من تباين في الأهداف والغايات، كما يدلُّ عليه ما دار بين طليحة بن خويلد وهو يقول لصاحبه: ويحكم ما يهزمكم؟. قال: «وأنا أحدثك ما يهزمنا: إنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله. وإنا لنأتي قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه»[1]. وكان يزيد في تصدع المشركين تسلط رجل مثل أبي جهل عليهم، يخافون حقده وغدره، مثلما يخافون سليط لسانه وشنيع فعاله... وكانت النتيجة الحتمية لذلك كله ما حلَّ بهم من انكسار وذل، أدَّى لأن يُقتل من قُتل ويؤسَرَ من أُسِرَ، وأن يولي الأدبار من أرادَ النجاةَ خاسئاً مهزوماً.

٤ ـ انتصار المسلمين:

أما المسلمون فقد اعتبروا أن الحرب، بعد أن فرضت عليهم، باتت مصيرية بالنسبة إليهم، لأنهم لو غُلبوا وهُزِموا فلن يُعبد الله في المدى الذي يقدّرونه لنصرة دينه؛ فكانوا يريدون النصر العسكري بأي ثمن، ومن أجل ذلك لم يهابوا المعركة، بل أقدموا على القتال، وقد أعزَّهم الله بنصره المؤزر. لقد جمعوا بعد المعركة شهداءهم ودفنوهم، ثم جمعوا القتلى من الكفار بعد أن أعدُّوا لهم قليباً من قلب بدر ودفنوهم فيه. ووقف رسول الله ﷺ فوق هذا القليب وراح يخاطب القتلى من الكفَرة وهو يقول: يا فلان ويا فلان ويا فلان «بئس

(١) سنن البيهقي، ج ٨ ص١٧٦؛ حياة الصحابة، ج٣ ص٧٧٠.

العشيرة أنتم التي كنتُم لنبيّكم، كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربِّي حقاً!»[1].

قال المسلمون من حوله: يا رسول الله، أتنادي أقواماً قد ماتوا؟

فقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوني»[2].

وحانت من رسول الله ﷺ، وهو يتفقد أصحابه بناظريه، التفاتة نحو أبي حذيفة بن عتبة، فألفاه كئيباً، غطَّت وجهَهُ أماراتُ الحزن، حتى لَيكاد الدمعُ أن يفرَّ من مآقيه، فتقدم منه الرسول الكريم يواسيه، ويسأله:

«لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شيء؟».

قال أبو حذيفة: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من هذا الأب رأياً وحلماً، فرجوت أن يهتدي إلى الإسلام، ولكنَّه أبى إلّا أن يبقى على كُفره، وإني أتذكر الآن ذلك فيحزنني أمرُه.. لَكان خيراً له لو ماتَ مسلماً».

ودعا له النبيُّ ﷺ بالخير، فأذهبَ عنه الحزن..

.. وولَّى ذلك النهارُ بخيره وشرِّه، إذْ كان خيراً على المسلمين، وشرّاً على المشركين. ولكنَّ آثاره ما تزال ترتسم في آفاق الأرض حتى اليوم، بما أنتجت من دروس وعظاتٍ يمكن الاهتداء بها..

واضطجع المؤمنون في مرابضهم بوادي بدر، يستظلُّون تحت النجوم، بنعيم الرحمة التي حفَّهم الله تعالى بها، لتفيء على أفئدتهم

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٣٢.

(٢) زاد المعاد، المصدر السابق؛ تاريخ الخميس ج١ ص٢٨٦؛ السيرة الحلبية، ج٢ ص٨٢.

ظلالاً وارفة من الطمأنينة والسعادة، فيناموا قريري العين، تكلأهم عينُ ربهم الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم، بعدما أبلوا في سبيل دينه القويم بلاءً حسناً، فحقَّ لهم أن يقرُّوا عيناً، وأن يهنأوا بالاً..

وأصبح الصبح، فارتحل المسلمون قافلين إلى المدينة، يحفُّون بالركب المحمدي، ومعهم الأسارى من المشركين، وفي حوزتهم الغنائم التي أصابوها... حتى إذا قطعوا بعض الطريق، أمر النبيُّ ﷺ أن ينزلوا على كثيب منبسطٍ، وهناك قسَّم الغنائم (النفل) فيما بينهم سواءً بسواء.. فجعل للفَرسِ نصيباً، وللفارس نصيباً، وجعل لِوَرثة المستشهدين من المسلمين حصصاً.. وكانت حصةُ من قام بالأعمال غير القتالية، مثل حصة من قاتل. وقد تعجّب بعض الصحابة لهذه القسمة بالتساوي، فسألوا رسول الله ﷺ عن عدم تفريقه بين راكب أو راجل، وبين مقاتل أو قائم بعمل، وبين ضعيف أو يتيم، وهم يقولون:

«يا رسول الله، أتعطي فارس القوم الذي يغيظهم مثل الذي تعطيه للضعيف والبائس؟».

فقال لهم ﷺ: «وهل تُنصرون إلَّا بضعفائكم؟» تدليلاً منه ﷺ بأن الأمرَ ليس كلُّه للقوة التي يعتدّون بها، بل هو للتضامن والتكافل بين الجماعة، وللوحدة وألفة القلوب وجمع الكلمة، والمصير المشترك. وعن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه [1] أنه قال: «فينا أهل بدر

(١) عبادة بن الصامت من أهل العقبة، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل الشجرة وأحد النقباء، وله جهادٌ بعد موت النبي ﷺ كبير. ومن مآثره أنه عندما حضرته الوفاة، جمع أهله وأوصاهم قائلاً: إذا خرجتْ نفسي فتوضؤوا وأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسانٍ منكم المسجد فيصلي، ثم يستغفر لعباده تعالى ولنفسه، فإنَّ الله تبارك وتعالى قال: «واستعينوا بالصبر والصلاة» (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص١١٣٧ و١١٣٨).

نزلت الأنفال حين تنازعنا في الغنيمة وساءت فيها أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله، فقسمه بين المسلمين على السواء».

وتابع المسلمون بعد القسمة، السيرَ إلى المدينة، حتى إذا بلغوا الأُثَيْل، أناخوا يستريحون من وعثاء الطريق.

واختلى النبي ﷺ إلى نفسه، يفكِّر.. ثم أمر أن يأتوه باثنين من الأسرى: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط.. وهما من شياطين قريش، وأكثر من حرَّض على أذى المسلمين وعذَّبهم. وكانا أيضاً أشدَّ من حاول فتنة المسلمين عن دينهم، وطرح المعجزات على النبيّ ﷺ كي ينالا منه ويقضيا على دعوته..

ونظرَ إليهما نبيُّ الله ﷺ نظرة ارتعدت لها فرائصهما، وأيقنا أن الموت حالٌّ بهما.. فأسرَّ النضر بن الحارث إلى مصعب بن عمير ـ وكان قريباً منه ـ أن يطلب إلى «محمد» عدم قتله. فنظر إليه مصعب شزراً، وقال له: «أو ما حسبت يوماً ينقلب فيه الشر على أهله يا ابن الحارث... أو لعلّك نسيت ما كنت تفعل بالمسلمين؟. اذهب إلى نار جهنم وبئس المصير، لتلقى سوء عاقبة شرِّك المستطير». وحاوَل عقبة بن أبي مُعَيْط أن يستدرَّ الشفقَة عليه، فصرخ بأعلى صوته مخاطباً الرسول ﷺ:

ـ يا محمد، من للصبية؟

قال له الرسول الذي لا ينطق عن الهوى: النار![1]..

ثم أمرَ رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب أن يبتعد بالنضر بن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٩٨.

الحارث وعقبة بن أبي معيط عن أعين الناس ويضرب عنقهما[1] لشدة فتنتهما، فالفتنة أشدّ من القتل.. وهكذا دوماً يكون مصير المفتنين، الظالمين، إذ لا بدَّ أن يأتي اليوم الذي يلقون فيه العقاب الذي يستحقون، والقصاص الذي يستأهلون، لأنَّ في القصاص حياة لأولي الألباب...

وتابع أبطالُ بدر رجوعهم المظفّر إلى الديار، حتى إذا بعدوا عن الأثيل بعث رسول الله ﷺ عبد اللّه بن رواحة[2] وزيد بن حارثة، يتقدمانهم إلى المدينة، بشيريْن بما فتحَ الله على المسلمين من نصر موعود. وطارَ الخبرُ في أرجاء المدينة، فهلّل المسلمون مستبشرين فرِحين.. أما اليهودُ والمنافقون فلم يصدِّقوا في بادئ الأمر ما يسمعون، أو لعلَّهم لم يريدوا أن يصدِّقوا خبراً هو أصعب عليهم من القتل، فخرجوا من أوكارهم يزرعون الشك في نفوس المؤمنين، فلم يلقوا إلّا صدوداً واستهزاءً.. فلما رأوا أن محاولاتهم الدنيئة قد فشلت وافتضح كذبهم ومكرهم، عادوا إلى بيوتهم يقفلون على أنفسهم أبوابها، وهم يكادون أن يموتوا من الغيظ...

وخَرجَ المؤمنون لملاقاة إخوانهم، فاجتمعوا بهم في «الروحاء».. وكان اللقاءُ مؤثراً بين الإخوة في العقيدة، وبين الأهل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق، ونجد أنَّ قول رسول الله ﷺ بمثابة إخبار بالغيب وهو لا يعني إلَّا أنَّ أبناء عقبة بن أبي معيط سوف يكونون من الأشقياء في الدنيا، الذين يستحقون نار الآخرة.

(٢) قال أبو الدرداء: كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني ضرب على صدري أو بين كتفي ثم يقول: يا عويمر!! اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس، فنذكر الله تعالى ما شاء، ثم يقول: هذه مجالس الإيمان (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج ٢ ص١١٩٠).

والخلَّان.. فقد سالت المشاعرُ متدفقة، وقت تلاقت الأحضان، واعتنقت الوجوه، وتشابكت الأيدي، وشدَّت السواعد... وأقبلوا على الرسول ﷺ يهنئونه بالفوز العظيم، ومنهم من يحاولون أن يبدوا أعذارهم في تخلُّفهم عن مرافقته، فيقول أسيدُ بن حُضَير:

«يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرَك وأقرَّ عينَك. والله يا رسول الله ما كان تخلُّفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوّاً وقتالًا! ولكن ظننت أنها عيرٌ، فقلت يكفيها من خرجوا»....

فقال له رسول الله ﷺ: صدقتَ.

والتفت سلمة بن سلامة إلى أسيد يمازحه، وهو يقول:

«ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلَّا عجائز صُلْعاً كالْبُدن المعقَّلة[1]، فنحرناها»[2]!..

وتبسَّم رسول الله ﷺ، من هذه المداعبة، فقال: «أي ابن أخي، أولئك الملأ»[3]. وكان في ذلك اللقاء لطائف كثيرة راح الجميع يتبادلونها، تعبيراً عن الفرح والسرور اللذين يملآن نفوسهم الطيبة...

وترك المؤمنون «الروحاء» يغذُّون السير حتى بلغوا المدينة يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك.. ودخَلها رسولُ الله ﷺ على رأس موكبه، مظفراً منصوراً، وقد أعزَّه الله (تعالى) وأصحابه بما أيّدهم به من نصر. وأقبل من بقي في المدينة من المؤمنين يهنئونه ويدعون له بدوام النصر، ونشر ألوية الحق...

---

(١) البدن المعقّلة: الإبل المقيدة، ومنه الحديث الشريف: «إعقلْ وتوكَّلْ».

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٩٧.

(٣) المصدر السابق.

٥ ـ معاملة الأسرى:

وكان وصولُ المسلمين إلى المدينة قبل الأسرى بيوم واحد. فلما جيء بهم في اليوم التالي، أمرَ الرسول ﷺ بتفريقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»[1]. وامتثَل المسلمون لأوامره ﷺ فكانوا يُكرمونهم، ويحسنون معاملتهم، حتى لَيؤثرونهم على أنفسهم بطيبات الطعام.. ولم يعاملوهم قطُّ كأسرى إلَّا في الحد الأدنى من تلك المعاملة التي توجب بقاءهم محتجزين، لا يتمتعون بحرية الذهاب والإياب، كما يشاؤون ... وهذا ما جعل أسارى قريش لا يشعرون بأي استعلاءٍ من المسلمين عليهم، لاسيما وأنهم لم يسمعوا من أحد منهم تعييراً بهزيمة، أو استهزاءً بانكسار، على خلاف ما كان المشركون ليفعلوا بالمسلمين لو كان لهم النصر!...

أوَ لم يطلب إليهم أبو جهل ـ لعنه الله ـ بأن «يجزروا أهل يثرب جزراً وأن يأخذوا أهل مكة أخذاً، ليدخلوهم مكة ويعرفوهم ضلالتهم»؟!. أي أنه كان يريد قتل الأنصار حقداً عليهم بسبب نصرتهم للنبي ﷺ، وأسر المهاجرين ـ دون قتلهم ـ خوفاً من حرب أهلية تثور في قريش.. ولكن الله (سبحانه) كذَّبَ وعد ذلك الكافر لنفسه، فثوى في المعركة قتيلًا، وبات في القليب دفيناً. وهؤلاء أبناء قومه أسارى عند المسلمين، ولكن لا يلقون إلَّا حسن معاملة، لأن الإسلام يأمرهم بمثل هذه المعاملة الحسنة، ولأنَّ رسول الإسلام يطبق تعاليم دينه الحق، ومن قواعدها الأساسية الرفقُ والرحمةُ بالضعيف والمسكين والأسير.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٩٩.

وكما كانت هذه المعاملة عدلًا وقت الأسر، فإنها تبقى هي هي، عدلًا من أجل إطلاق سراحهم، ولذلك اتخذ الرسول ﷺ عدة طرقٍ للمنِّ عليهم بالحرية.. فأما المتعلم منهم فشرط عليه أن يقوم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ثم يطلق سراحه، وذلك تقديراً منه ﷺ للعلم وتشجيعاً للقراءة والكتابة. وكان ممن تعلم بهذه الطريقة زيد بن ثابت[1]. وأما الفقراء والمساكين، فقد أمر ﷺ بردِّهم إلى أهليهم وعيالهم من دون أي فداء.. وهذا أحدهم ـ أبو عزَّة عمرو بن عبد اللّه بن عمير الجمحي ـ يقول لرسول الله ﷺ: «لي خمس بنات ليس لهنَّ شيء فتصدق بي عليهنَّ يا محمد، وإني لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثِّر عليك أبداً»[2]. ومنَّ عليه الرسول ﷺ بما طلب، وأخذ عليه العهد ألَّا يُظاهر على المسلمين أحداً.. وأما الآخرون فكان على قريش أن تفتديهم، وكان الفداء يومئذ من ألفٍ إلى أربعة آلاف درهم للرجل، أي حسب ما عنده من قدرةٍ مادية، أو حسب ما هو عليه من غنىً أو فقر..

وكان بين الأسرى أبو العاص بن الربيع، زوج زينب ـ ابنة النبيّ ﷺ ـ وهو من رجال قريش البارزين مكانة، وصاحب مال وتجارة واسعة، فقدم أخوه عمرو في فدائه، وأرسلت معه زوجُهُ قلادة لها، ما إن رآها النبيُّ ﷺ حتى عرَفَها، إذ كانت أمها خديجة رضي الله عنها قد أهدتها لها يوم زواجها من أبي العاص، فرقَّ لها النبي ﷺ، وقال لأصحابه من حوله:

---

(١) السيرة الحلبية، ج ٢ ص ١٩٣؛ تاريخ الخميس، ج ١ ص ٣٩٥.
(٢) المصدران السابقان.

«هذه قلادة ابنتي زينب، فإن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها قلادتها، فافعلوا»...

وأجابه الجميع: نفعل يا رسول الله...

ودعا النبيُّ ﷺ أبا العاص إليه، بعدما أفلتوه من الأسر، وطلب منه أن يفارق زينب وقد فرّق الإسلام بينه وبينها، فنزل أبو العاص صاغراً على أمره ووفى بوعده فور عودته إلى مكة، وأمرها باللحاق بأبيها[1].. لتكون طليقةً من قيود الزوجية بما منَّ الله (تعالى) عليها من نعمة الإسلام.

هذه بعض النفحات من دروس محمد ﷺ في معاملة الأسرى. وهي تحمل من المعاني الإنسانية ما تسمو به شواهد ثابتة، خالدة، على عظمة ذلك الإنسان، وخِصَاله الفريدة، التي ما كانت يوماً إلَّا نبراساً وهدى لمن أرادَ التكامل في حياته.. فقد نظرَ إلى الفقير بين الأسارى، ومن له عيالٌ يكفلها، فما فرض عليه فداءً، بل منحه حريته ليعين العيال والأبناء.. ولم يأبه لصلة القرابة والرحم، فعامَل أي قريب له مثل أي أسير آخر دون محاباة أو تفرقة إلَّا بما يتوافق والأسس التي اعتمدها لتلك المعاملة، ولذلك لم يطلق سراح أبي العاص إلّا بعدما دفع أخوه الفدية عنه، لأنَّ هذا المال حق للمؤمنين، فلا يعقل أن يفرِّط الرسول بدرهم منه على الرغم من المصاهرة التي كانت تربطه بالنبي ﷺ، قبل ان يأمره بفراق ابنته..

نعم هذا هو محمد ﷺ، الإنسان العادل في كل مواقفه، وفي كل أعماله.. وهذه هي عدالته التي جعلته لا يميّز أيضاً بين عمّه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، م ٢ ص ٣٠٨؛ البحار ج ١٩ ص ٢٤١.

العباس بن عبد المطلب وبين الآخرين من الأسارى، وقد ظنَّ كثيرون أنه سوف يطلب من أصحابه أن يطلقوا سراح العباس، لأنه عمُّهُ، وكان من الحماة الذين منعوه في مكة.. ولكنَّ رسول الله ﷺ كان فوق كل ظنٍّ وأسمى من كل توهُّم، إذ جعلَ عمَّه بين الأسارى حتى يؤتى إليه بمال يفديه، ويفدي نفراً من أهله وحلفائه الذين خرجوا معه...

وطال الوقت وفداء العباس وأصحابه لم يصل.. فطلب مقابلة النبي ﷺ والتحدث إليه. فلمَّا جيء به قال:

«يا رسول الله، لقد كنت مسلماً، وفي صميم أعماقي مؤمناً بما تدعو إليه، وقد رآني المسلمون أدفع عنهم الكريهة، وأذبُّ عنهم الإساءة، فكيف أُعامَلُ مثل معشر قريش الآخرين»؟!

فأبدى له الرسولُ: أنَّ الله أعلمُ بإسلامه، فإن يَكُ في جوارحه مسلماً فالله سبحانه وتعالى يجزيه على إسلامه، ولكنَّ ظاهره كان على المسلمين، لأنه ما خرج إذ خرج إلَّا بدعوةِ الحرب والقتال، ولذا وجب عليه افتداء نفسه. وافتداء ابنَي أخيه: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وحليفه عتبة بن عمرو - أخي ابن الحارث بن فهر.

قال العباس: «ما ذاكَ عندي يا رسول الله»!.

قال له ﷺ: «فأين المالُ الذي دفنته أنتَ وأمُّ الفضل؟ لا أظنك إلَّا ادخرته لأبنائك الفضل وعبد اللّه[1] وقثم، ولكن صار

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب هو - كما ورد في العديد من المؤلفات - تَرْجُمانُ القرآنِ وحَبْرُ الأمّةِ، لازم النبيَّ ﷺ فأخذ منه علماً جمّاً، ورأى جبرائيل عند النبي مرتين.. وكان يقول: نحن أهل البيت، شجرة النبوة، ومختلف الملائكة، وأهل=

فيه حقٌّ للمسلمين إذ خرجت بالدعوة لقتالهم».

قال العباس: «يشهد الله أني ما نويت قتالك أو قتال المسلمين، ولكني أردتُ حماية الأموال، لئلا تقول قريشٌ إنَّ لها فضلًا على بني هاشم، فيعيِّروننا، وينحون علينا باللائمة إن تقاعسنا، وما من طباعنا، أن نقبل لومة لائم»، ثم إنني قررت العودة وبني هاشم جميعاً، في الجحفة، إلَّا أن عمرو بن هشام قد حال بيننا وبين ذلك.. ولكنَّ رسول الله ﷺ أفهَمَ عمَّه العباس أن الخروجَ كان خطأ بذاته، وكان يمكنه وصحبه الرجوع مثلما فعل بنو زهرة حتى لا يشاركوا في القتال.. وإذ ذاك طأطأ العباسُ رأسه خجلًا، وقد ندم فعلًا على بقائه مع قريش، فقال للرسول ﷺ: «والله إني لأعلم أنك رسول الله. إنَّ هذا لشيء ما علمهُ أحد غيري وغير أم الفضل، وقد أسررتُ لها بصدق ما بعثك الله به نبياً ورسولًا، فهل لي من عفو يا رسول الله؟ وهل تحسب لي عشرين أوقيةً من المال أصبتموها مني من أصل فديتي عندك وفدية أصحابي؟».

قال له رسول الله ﷺ: «لا!.. فذاك شيء أغنَمَنا إيَّاه الله تعالى منك».

= بيت الرسالة، وأهل بيت الرحمة، ومعدن العلم. وقال: ضمَّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علّمه الحكمة». سئل ابن عباس في مجلس عمر بن الخطاب عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال: فتح مكة. وعن قوله تعالى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ قال: أعلم أن هذه آيته من الموت. ثم سئل عن ليلة القدر، فقال: فما نراها إن شاء الله إلَّا ليلة ثلاث وعشرين يمضين وعشرين بقين.. قال جندب لابن عباس: أوصِني بوصية. قال: أوصيك بتوحيد الله، والعمل له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإنَّ كلَّ خير أنت آتيه بعد هذه الخصال منك مقبول، وإلى الله مرفوع (انظر: موسوعة عظماء حول رسول، ج٢ ص١٢٢٦ ـ ١٢٣٤).

قال العباس: «سمعاً وطاعة يا رسول الله، فما عرفت ابن أخي إلَّا صاحب عدل وحق، فكيف إذا كان نبيَّ الله ورسوله».

ودفع العباس الفدية التي طلبها رسول الله ﷺ عنه، وعن ابنَي أخويه نوفل وعقيل ـ وهما بالوقت نفسه ابنا عَمَّيْ رسول الله ﷺ ـ وعن حليفه عتبة بن عمرو..

وإذا كانت هذه سيرته ﷺ قولًا وفعلًا، منهجاً وتطبيقاً، فمن أحق بالمسلمين من اتباعها والسَّير على هداها؟.. فهذا مصعب بن عمير، يرى أخاه «أبا عزيز بن عمير» أسيراً لرجل من الأنصار، فلا يأبه لأسره، ولا يطلب إلى رسول الله ﷺ أن يطلق سراحه، بل على العكس يقف منه الموقف نفسه الذي وقفه الرسول ﷺ من أقربائه، فيقول للأنصاري وقد رآه يوثقه: «شدَّ يديك فإنَّ أُمَّه ذاتُ متاع، لعلّها تفديه منك»[1]؛ فسألت أمُّهُ ـ وكانت ذات مال وفير ـ :«ما أغلى ما فُدِيَ به قرشي؟».

قيل لها: «أربعة آلاف درهم»، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها[2].

وعادَ الأسارى كلٌّ إلى أهله، ولهم أن يحدِّثوا بما لاقوه من معاملة حسنة من المسلمين، ومن رأفة بهم، ومن عدالةٍ لمسوها لمس اليد بما لم يسمعوا بمثلها في سابق عهودهم، كما يخبر بذلك أبو عزيز ابن عمير نفسه، قال: «وكنتُ في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدَّموا غذاءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٣٠٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

لوصية رسول الله ﷺ إيَّاهم بنا، ما تقع في يدِ رجل منهم كسرة خبز إلَّا نفحني بها»[1].

أجل عادوا إلى أهليهم وفي نفوسهم مشاعرُ متضاربة، وفي عقولهم أفكارٌ مختلطة، لا يدرون هل هُم فعلًا على حق في ما يفعلون، أم أن محمداً وأصحابه هم على الحق؟! ذلك هو شأنهم الخاص، بما يحدِّثون أو يشعرون أو يفكرون.. وأما شأن المسلمين معهم، فسوف لا يكون إلَّا وفق المواقف التي يتخذها أولئك من دينهم. ويبدو أن بعضهم قد أثَّرت فيه معاملة محمد ﷺ إلى الحدِّ الذي جعله يعدل عن مواقفه المعادية نحو الإسلام. فهذا أبو العاص بن الربيع، يقعد بعد عودته إلى مكة، ساعاتٍ طويلةً مفكِّراً، مراجعاً حساباته ومواقفه. ويصمم أخيراً على أمر، فيجهِّز قافلة من مال قريش يريد بها الخروج إلى الشام، ولكنَّ سوء طالعه جعَلهُ يقع في أيدي سريَّةٍ من المسلمين، عندما كان على مقربة من المدينة، فتصيب ما معه، ويهرب هو مختبئاً من مكان إلى مكان، حتى يُسدل الليل ستاره، فيدخل المدينة ويقصدُ زوجَه السابقة زينب بنت رسول الله ﷺ يستجيرها، فأجارته، وردَّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكة، يردُّه بدوره لأصحابه من قريش ثم يقول لهم: يا معشر قريش! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

قالوا: لا! فقد وجدناك وفيّاً كريماً.

قال: إذن فأنا تاركٌكم إلى محمد بن عبد اللّه، فوالله ما منعني من البقاء عنده إلَّا مخافة أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

فلَّما أدَّاها الله إليكم وفرغتُ منها، فإني ذاهب إلى حيث أرى الحق..

وحمل أبو العاص بن الربيع ما عنده من مال ومتاع، مرتحلًا إلى المدينة، ثم جاءَ رسولَ الله ﷺ بقلبٍ مؤمن، يُعلن إسلامه ويشهد شهادة الحق: «أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله»...

ويُسرُّ الرسول ﷺ بإسلام الرجل لأنه كان أميناً في تعامله مع الناس، وفياً على عهوده مع الآخرين. والإسلام يعتزُّ بأناسٍ يحملون مثل صفات هذا الرجل، فيبارك له إسلامه، ويردُّ عليه زوجه زينب، فيأتيها قرير العين وهو يقول لها: «والله يا ابنة عمّ، ما خرجت من أسري عند رسول الله إلا وأنا مؤمن بصدق رسالته، حتى إذا أجرتني، علقت بي الندامة حتى كادت تقتلني، ولكن أعانني الله على الصبر حتى عدت سريعاً إليكم، يا من أنتم في الناس أشراف، وفي الحسنَى نبراس، وفي العدل ميزان...».

تلك هي معركة بدر ببعض مقدماتها وأحداثها ونتائجها، وهي تحفل بالصور والمشاهد العديدة المتنوعة ولكن يبقى أهمّها على الإطلاق الإيمان بالعقيدة، واللحمة، والوحدة بين أبناء هذه العقيدة والعمل بما يرضي الله ورسولَهُ.. فكان مقدراً أن ينصرهم اللَّهُ نصراً مؤزَّراً.

أحوال الناس بعد معركة بدر

لقد كان لمعركة بدر أن تنتج آثارها، وتؤتي مفاعيلها، يوماً بعد يوم، سواء في حياة المسلمين أم في حياة المشركين ولاسيما المنافقين واليهود...

فأما المسلمون، فقد ذاعَ صيت انتصارهم على قريش في أنحاء شبه الجزيرة كلها، وبات العرب يرهبونهم كقوة جديدة تقوم على أساس متين وهو: التفافهم حول نبيِّهم ﷺ، وتكاتفهم وتماسكهم كالبنيان المرصوص يشد بعضُه بعضاً، فهم قد حققوا أول انتصار لهم في بدر.. والنصر من شأنه أن يعطي المنتصر دفقاً معنوياً إضافياً، يجعله أكثر تحفُّزاً وتصميماً لتحقيق انتصارات أخرى، فكيف إذا كان هذا الدَّفْقُ مرتكزاً على الإيمان الصادق بنصرة دين الله، وفقاً للقاعدة القرآنية ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾، وأن النصرَ من عند الله يؤتيه من يشاء والله ذوُ الفضل العظيم.

وهذا الوضع الجديد الذي صار المسلمون يعيشونه في المدينة، كان لا بدَّ أن ينعكس على إخوانهم في مكة، مما أدّى إلى انحسار أذى قريش عنهم، بعد هزيمتها، وخوفها من سوء العاقبة الوخيمة على الأسرى، فيما لو استمرت بعنتها تجاه المسلمين..

وفي هذا الفيء من الرحمة والرضوان، بما وفّق فيه المولى تبارك وتعالى المسلمين من انتصار، وبما تحقَّق من نجاح في إقامة المجتمع الإسلامي في المدينة.. رأى رسول الله ﷺ أمارات هامة ومؤثرات لصنع المستقبل الذي ينشده الإنسان، فيما لو استمرت المسيرة الإسلامية بنفس الروح، والإخلاص لله تعالى.. أما على الجانب الآخر، فكان لا بد لذلك النجاح الإسلامي من أن يوغر الصدور، ويجعل الأعداء أشدَّ إصراراً ـ أكثر من أي وقت مضى ـ للقضاء على «محمد» ودعوته، من أجل استعادة النفوذ والسلطان اللذين بدأت علامات زوالهما بالظهور.. ولذلك كان الرسول الأعظم لا يني عن تنبيه الصحابة، وتحذيرهم من غفلةٍ قد يستغلُّها الأعداء، أو

تقاعسٍ قد يفيدون منه.. وأما المنافقون فقد زعزعت معركة بدر مفاصلَهم وجعلتهم في حيرة من أمرهم!.. فقد كانوا يعوّلون على قوة قريش ومراسها في الحرب، فإذا النتائج تأتي على عكس ما كانوا يتوقعون.. وأسوأ ما وصلت إليه حالهم أنهم باتوا مكشوفين للمسلمين بمكرهم ونفاقهم، فلم يعودوا يجرؤون على الجهر بعداوتهم لهم حتى لا يصيبهم ما أصاب قريشاً من القتل والأسر، كما صاروا يخشون من القوى الأخرى المعادية للمسلمين خوفاً من اتهامهم بالذبذبة، وعدم وضوح موقفهم من تلك القوى، وبخاصة إذا كان ذلك النصر الذي حققه «محمد» وأتباعه نصراً مؤقتاً، ولا يلبث أن يزول في معارك أخرى..

إذن ففي جميع الحالات صار المنافقون في ورطة، ولا يدرون ماذا يفعلون.. ولكنَّ أسلَمَ الطرق التي رأوها ـ في ظنهم ـ البقاءُ على الحالة الراهنة التي هم عليها، وذلك بعدم إعلان العداوة السافرة للمسلمين، أو الانضمام علناً إلى شياطينهم، إلى حين ينجلي الموقف ويظهر الفريق الذي ستكون له الكلمة الفصل، ليميلوا إلى صفوفه. وبذلك تكون صفقتهم رابحة، لا تحتمل الخسارة أو المجازفة. ومثل هذا النفاق أخبرَ عنه القرآن الكريم بكلمات موجزات معبرات بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

وعلى هذا السلوك المخادع ساروا، يُظهرون إسلاماً مع المسلمين، ويبطنون كفراً مع الكافرين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤.

لقد خفي موقف هؤلاء المنافقين على المسلمين في أول الأمر، وأتاح لهم الاندساس بينهم والوقوف على أسرارهم. إذ مارسوا لعبةً أمكنهم أن يتقنوا خلالها دور الحذلقة والدهاء، وأن يستعملوا أساليب المكر والخداع والالتواء، فليسوا مع المسلمين ولا مع الأعداء، مذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء.. وحقيقتهم أنهم قومٌ منافقون.. وكفى بهم شرّاً أن يكونوا منافقين!. ولكنَّ النفاق الذي اتخذوه مبدأً، والخداع الذي جعلوه منهجاً، إن خفيَ على أهل الأرض ـ إلى حين ـ فإنه لا يخفى على الله سبحانه في أي حين.. فالله (تعالى) يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم ما تسرُّ الصدور وما تبطن الأنفس. وهو جلَّ شأنه وعلا، يرقب موقف هؤلاء المنافقين، فأنزل آيات من قرآنه الكريم تتوعدهم بما يستحقون من عذاب شديد، وذلك بقوله العزيز: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[1].

.. فجعَلَ الله (سبحانه وتعالى) عقابهم إليه وحده، ولكنْ أبانَ ـ جلت عظمته ـ لرسوله الكريم ما يدور حوله من نفاق أهلِ البادية مثل قبائل أسلم وأشجع وغفار، وما يحيط به من منافقين في المدينة، محذِّراً إيّاه من أولئك الأعراب المارقين، ومن أهل المدينة الذين لجّوا في النفاق، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[2].. عذابٍ في المرة الأولى على كفرهم، وعذابٍ في المرة الثانية على نفاقهم أو

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

«عذاب بالفضيحة أو القتل في الدنيا، وعذاب القبر»[1]، ثم سيكون لهم العذاب العظيم الأبدي في النار... فسبحان الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فلا يغيب عنه مثقال ذرة من أفعال عباده الصالحة منها، أو الخادعة، ولكل عمل جزاؤه: الخير بالخير، والشر بالشرّ، وما للإنسان إلَّا ما صنعت يداه..

ومَثَلُ اليهود كمثل المنافقين، فهم أساطينُ في المكر والدهاء، وفي الكيد والتآمر.. لأنهم مناكيد بالطبع، وكثيراً ما يقدمون على فعالهم بتحدٍّ وجرأة، غير عابئين بأية أصول تمتّ إلى الاخلاق الرفيعة بصلة.. فقد حاولوا منذ قدوم النبيّ ﷺ إلى المدينة، أن يمارسوا عليه وعلى أصحابه ضغوطاً خفيّة حتى لا يقووا، وينتزعوا منهم مكانتهم، التي وصلوا إليها، بعدما أصابوا العَربَ بالدسِّ والتفرقة.. فلمَّا لم ينجحوا في أساليبهم الضاغطة، ولم يفلحوا في طرقهم الملتوية، اضطروا لإقامة العهود مع محمد ﷺ صاغرين، وإلى عقد المواثيق معه مكرهين. وكانت خطتهم الترقب والانتظار إلى أن يحين الوقت الذي ينقضُّون فيه على الإسلام والمسلمين بضربة ساحقة. ولكنَّ معركة بدر قد جاءت لتقلب الموازين ولتغيِّر التقديرات، فالأمور قد اختلفت كليّاً، والأوضاع جميعاً قد تبدَّلت. فكلمة الإسلام قد علت، وصار للمؤمنين قوة تُرهب وسلطان يعلو.. وما دام الأمر كذلك، فما يمنع أن يطغى هذا السلطان على كيانهم اليهودي، وتقضي تلك القوة على وجودهم بأسره؟!

هكذا كانوا يفكرون... ولذا قرروا عدم البقاء ساكنين، بانتظار

---

(١) تفسير الجلالين للآية: ١٠١ من سورة التوبة.

مصيبة قد تحلُّ بهم. بل وحتى يتداركوا أي خطر محتمل من قبل «محمد» وأتباعه، اندفع أحبارهم ورؤساؤهم يجاهرونه بالبغضاء، ويرمونه بالافتراء، على النقيضِ تماماً، ممّا كان يُؤمل منهم انصياعاً للحق، وإذعاناً لربهم الكريم الذي فضّلهم بإنزال التوراة عليهم، وكان يفترض فيهم الاحتكام إليه ولكن على العكس من ذلك راحوا يؤلِّبون أبناء قومهم على المسلمين، ويدعونهم إلى الجهر بكراهيتهم لهم وإعلانها سافرةً وقحة.. ونتيجة لذلك التحرُّك، بدأت العداوة تستحكم بين المسلمين واليهود رويداً رويداً، والعلاقات تتدهور شيئاً فشيئاً، حتى ظهر جليّاً أن اليهود يُعدّون لمؤامرة كبيرة على الرسول الكريم وعلى المسلمين أجمعين.

سفارة كعب بن الأشرف إلى قريش

وظهرت بوادِرُ تلك المؤامرة عندما أوفدوا أحد زعمائهم كعب بن الأشرف مع جماعة منهم إلى مكة، وأوكلوا إليه أمرَ الاتصال بقريش، والتنسيق معها في الإعداد لمقاتلة المسلمين.

أما اختيارهم كعباً بالذات، فأسبابه عديدة ومنها: ما كان له من مكانة مرموقة عند اليهود، وبخاصة عند بني النضير بانتمائه إليهم من أُمِّه، وإن كان أبوه من طيء، ولما له من مال جعَله يبتني حصناً كبيراً ويقيم فيه جنوب يثرب، خلف ديار بني النضير. والأهم من ذلك كله موقفه العدائي من محمد ﷺ وأصحابه، منذ قدومهم المدينة، فلم يترك باباً من أبواب الإيقاع بهم إلَّا وحاول ولوجَهُ، ولا ناحية من النواحي التي تؤذيهم إلّا وسعى إليها. وقد أجفَل من المهادنة التي أقامها أبناء قومه مع محمد ﷺ فلم يوافقهم على الدخول معه في أي

من العهود، ولم يعترف بأيٍّ من المواثيق التي عقدوها معه.. حتى إذا بلغَه نبأ هزيمة قريش في بدر، قام ينوحُ، ويصرخُ في مَن حوله: ويلكم! أحقٌّ هذا الذي تقولون؟! أترون «محمداً» قتل هؤلاء، فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان «محمد» أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها[1].

وذهب كعب بن الأشرف إلى مكة يحرض قريشاً على القتال، متباكياً على أصحاب القليب، نادباً مصارع الأشراف، مستعيناً بقصيدة شعر يقرضها ويستثير أدْمُع الناس، وذاك قوله في مطلعها:

طَحَنَتْ رحى بدْرٍ لمَهْلك أهلِهِ ولِمِثْل بدرٍ تَستهِلُّ وتَدْمَعُ[2]

قُتِلتْ سَرَاةُ الناسِ حولَ حياضِهمْ لا تبعدوا إنّ الملوكَ تصرَّعُ

وكانت قريش تجتمع من حوله، وتستمع إلى رثاء قتلاها، فيهيج بها الوجدُ على فراق الأحبّة، وتتأجج في أحشائها النيران حقداً على «محمد» ﷺ وعلى المسلمين، ولا تجدُ شفاء لما في صدورها إلّا بالثأر منهم..

.. عجيب أمر قريشٍ، إنها عربية المحتد والشأن، فكيف تأمن ليهودي جاءَ يتلاعب بعواطفها، ويتقاذف مشاعرها بأساليبه المضلِّلة، حتى أمست مجالسها في مكة لا تنعقد إذا لم يحضرها ابن الأشرف، ويكون هو صاحب الرأي والمشورة فيها؟! ولعلَّ ما أبداه أبو سفيان بن حرب ـ وقد صارَ رجل قريش الأول بعد بدر ـ أشدَّ ما يعبر عن انصياع بني قومه للداهية اليهودي المارق، عندما سأله بذلٍّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق.

وهوان: «أناشدك يا كعب، أدينُنا أحب إليك أم دينُ محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدى برأيك إلى الصواب؟!».

ويجيب اللعين ابن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلًا، ودينكم خيرٌ من دينه..

ويتنزَّلُ الذكرُ المبين، ليظهر مدى تشبث إبليسَ برأس هذا اليهودي الكافر ـ المدعو ابن الأشرف ـ ومقدار عبادته للجبت والطاغوت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[1].

أية زندقة هذه؟

وأي مارقٍ مُدَّعٍ مخادعٍ هذا الذي يُدعى كعب بن الأشرف؟

أوَ ليس هو يهودياً، ويعتنق ديناً سماوياً، فكيف يُبيح لنفسه أن يفضل الوثنية على دين أنزله الله (تعالى)، وأن يجعل الشرك في موضع الحق، بل وبديلًا عن الحق نفسه؟

ولئن كانت غايةُ هذا الشيطان، من شياطين الإنس، إغواءَ قريش، وتأليبَها على الإسلام ـ وهي التي ما كانت تنقصها عداوة للإسلام ـ فأية غاية دنيئة تنحدر بإنسانٍ ـ مثله ـ وتجعله يتنكّر للإيمان باللَّهِ (تعالى) ويقف في صفِّ الكفر والكافرين؟!..

زنديقٌ وكافرٌ ـ حقّاً ـ أنتَ يا ابن الأشرف، ولمثلك تكون

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥١ و٥٢.

الغايات الدنيئة، والصفات الذميمة.. أتجعل هبل، وإساف ونائلة، والجبت والطاغوتَ ذواتَ دينٍ خيرٍ من دين محمد ﷺ؟!.. عارٌ عليك صنيعك ما طلعتْ على الأرض شمسٌ، وزان سماءَها نجم!..

لا واللَّهِ ما أنت وتلك الأصنام والأوثان وجميع المشركين على شاكلتك، إلا حطب جهنم! ويكفيك ذلاً وهواناً مما أنزله ربّ العرش العظيم، وتظلُّ اللعنةُ عليك وعلى أمثالك باقيةً، إلى يوم الدين..

... وأوفى كعبُ ابن الأشرف بعهد الكُفر عند قريش، فعادَ إلى المدينة، وقد أُترعت نفسُه بنشوة الضلال، ومتعة السفاهة، فراح يسكبها في أقوال شعر ينالُ بها أعراض المسلمين، لا سيما وهو يشبِّب بنسائهم الكريمات، ويطالهنَّ بسوء القول، ورذيلة اللسان.. حتى آلمَ المسلمين، وضاقت به صدورهم، بل وتمادى في غيّه، فراح يحرِّض بني النضير ـ أخواله من اليهود ـ على نقض عهدهم مع محمد ﷺ. والغريب في أمره أنَّه كان يفعل ما يفعل، ويقول ما يقول، وهو بلا عشيرة تحميه، أو قبيل يمنعه...

إذنْ، فقد طَفح الكيلُ شراً بابن الأشرف، وصار لا بد من القضاء عليه.. إنه لم يَعُدْ مصدر ضرر للمسلمين، وخطرٍ على دينهم وحسب، بل وأصبح حجرَ عثرةٍ في طريق الدين الذي يعتنقون، وإنْ تركوه يشبّب بنسائهم الكريمات فلأنفسهم يسيئون.

حينها أمر النبيُّ ﷺ بإهدار دمه، فأبدى محمد بن مسلمة ـ [1] من

---

(١) محمد بن مُسلمة بن خالد بن عديّ الأنصاري (من الأوس). أسلم على يدي مصعب بن عمير في المدينة، قال الحافظ ابن عساكر: شهد محمد بن مسلمة المشاهد كلها ما خلا تبوكاً، فإنَّ رسول الله ﷺ استخلفه على المدينة حين خرج إلى تبوك. ومما يؤثر عنه =

الأنصار ـ استعداداً كاملاً لهذا الأمر، وهو يقول: أنا له يا رسولَ الله، أقتلُهُ ابتغاءَ مرضاة الله ورسوله، ولكن لا بدَّ من رفقة لي في هذه المهمة، وأن يأذن لنا رسول الله أن نتقوّل شيئاً. (وهو يقصد أن يقولوا سوءاً بحق المسلمين إيهاماً للرجل) فأجازه الرسول ﷺ بأن يقولوا، وهم في حلٍّ منه..

ودعا محمد بن مسلمة إليه عباد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبا عبس بن جبر، وأبا نائلة سِلكان بن سلامة، وأخبرهم بما ندبَ إليه رسولُ الله ﷺ، فطابوا نفساً للخلاص من حقودٍ لئيمٍ، وأوفدوا إليه أبا نائلة يستدرجه، لأنه كان أخاً له في الرضاعة..

وجلس أبو نائلة يستفيض معه في أحاديث شتّى، وهو يلمّح بين الحين والآخر أن لديه أمراً هامّاً يكتمه في نفسه، ولا يجرؤ على البوح به لأحد.. وهذا ما جعل كعباً يبدي اهتمامه، ويحلف بالكتمان عما يدور بينهما.. فلما أَنِسَ أبو نائلة من إيهام الرجل، قال له: ويحك يا ابن الأشرف! «أتدري بأن قدوم هذا الرجل علينا كان بلاءً من البلاء، عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعتْ عنا السُّبُلَ حتى ضاع العِيالُ، وجُهِدت الأنفس، وأصبحنا وقد جُهدنا وجُهد عيالُنا»[1].

= أنه عندما كان مروان بن الحكم والياً على المدينة، دخل إلى مجلسه ابن يامين البصري، وأثناء الحديث، سألَ مروان: كيف كان قتل ابن الأشرف؟ فقال ابن يامين: كان غدراً، ومحمد بن مسلمة جالسٌ شيخ كبيرٌ، فقال: يا مروان! أيُغَدَّرُ رسول الله ﷺ عندك؟! واللَّهِ ما قتلناه إلّا بأمر رسول اللَّهِ الذي كان يُؤمَر من ربه، واللَّهِ لا يؤويني وإياك سقف بيتٍ إلَّا المسجد، وأما أنت يا بن يامين فللّهِ عليَّ إنْ أفْلِتَّ فلا قدرتُ عليك وفي يدي سيف إلَّا ضربت به رأسك (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج ٣ ص١٧٤١). وروى ابن عساكر أن محمد بن مسلمة هو الذي كان أخاه في الرضاعة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص٥٨.

ولم يصدِّق ابن الأشرف ما يسمع، ولكن أخذتْهُ الغفلة القاتلة، فقال: أما والله لقد قلت في الرجل، وأخبرت أنَّ الأمر سيصير إلى ما أقول..

فقال أبو نائلة: إنَّ معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك ونوثق لك في الرهن!..

قال ابن الأشرف: «أترهنوني أبناءكم؟».

قال أبو نائلة: «لقد أردت أن تفضحنا، قلتُ لك: تبيعهم وتحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة[1] ما فيه وفاء»[2].

وكأنَّما اشتمَّ ابن الأشرف رائحة الدم في قول صاحبه، وعلَّل النفس بأن يكون دم «محمد»، فقال له يريد أن يطمئن: «وهلَّا أخبرتني عن غرضكم؟».

قال أبو نائلة: أقول بأننا عصبة لا نريد إلَّا أن نرهنك من السلاح ما فيه وفاء لأثمان الطعام الذي تبيعنا».

وأُدخِلَ في روع ابن الأشرف، أن المؤامرة التي يتمناها واقعة لا محالة، وأن هذه الزمرة ما جاءت بحجة الرهن إلَّا لتخبِّئ السلاح عنده بعيداً عن أنظار المسلمين، فقال: حبَّذا، حبَّذا.. تعالوا إليَّ ساعة تشاؤون، وهاتوا سلاحكم فهو عهد لكم بذمتي.

وأتم أبو نائلة سلكان بن سلامة دوره بإتقان. فلما أرخى الليلُ سدوله ذهبوا إلى رسول الله ﷺ يعلمونه بما دبَّروه، فخرج معهم،

---

(١) الحلقة: السلاح، وأصلها في الدروع.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص٥٩.

وكانت الليلة قمراءَ، حتى بلغوا بقيع الغَرْقد، فتوقف يوجّههم ويدعو لهم: «انطلقوا على اسم الله، اللّهم أَعِنْهم»[1]..

وكَمَنَ هذا النفرُ القليلُ من المسلمين على مقربة من حصن كعب بن الأشرف، ما عدا سلكان، فإنه ذهب يطرق بابه، فهبَّ من جانب عروسه ـ وكان حديث العهد بزواجه ـ فأمسكت به تحاول أن تثنيَهُ عن الخروج في مثل هذه الساعة، لأنه امرؤ حرب، إلَّا أنه لم يصغ لتحذيرها، فنزل يلتقي سلكان وصحبه، ثم ساروا إلى شِعْب العَجُوز بظاهر المدينة[2]، حتى يكونوا بمنأى عن الأعين، فكانوا، طوال الطريق، يطرونه بالمديح ليطمئنّ إليهم، إلى أن حانت ساعته، فشدَّه أبو نائلة إليه شدَّة عنيفة وهو يحرّض أصحابه بقوله: اضربوا عدوَّ الله... فاختلفت عليه السيوف، تثخنه بالجراح، فأهوى إلى الأرض صريعاً، يتخبَّط بدمه.. إلى جهنَّم وبئسَ المصير.

وعاد أولئك النفرُ المؤمنون يخبرون رسولَ الله ﷺ بنجاح المهمة، وقتل كعب بن الأشرف، فدعا لهم بالخير، وبذلك حقق الله (تعالى) على أيديهم اجتثاث أحد رؤوس الكفر.. وظلَّت جثة ابن الأشرف مطروحةً في الفلاة، حتى بعثت عروسه في الصباح من يبحث عنه، فجاؤوها بجسده مضرَّجاً بدمه.

وتطايَر خبرُ مقتل ابن الأشرف في أنحاء المدينة ومن حواليها، فجاء أحبار اليهود إلى «محمد» يحتجُّون ويشتكون، فلم يحفل النبيُّ ﷺ بهم، لأنَّ ما حَصلَ للرجل ما كان ليحصل لو لم تكن كل

(١) السيرة النبوية لابن هشام، م ٣ ص ٥٩.
(٢) المصدر السابق، ص٦٠.

مواقفه عداءً، وخطراً على دين الله تعالى.. فلقد نالَ من المسلمين بالأذى، وهجاهم بالشعر، وشبَّب بأعراض نسائهم، ناهيك عن ذهابه إلى قريش يؤلِّبها ويحرِّضها، حتى صار كالعضو الفاسد في الجسم السليم وليس له دواء إلَّا البتر. وها هو قد بُتِرَ، فلقي ما كان يجب أن يلقاه، جزاء على فعاله المضلِّلة، وأقواله الشنيعة....

نقض اليهود للمواثيق

وبات اليهودُ، جميعاً، في كمدٍ وغمّ كبيرين.. ولكن سرعان ما راحوا يعملون بتعاليم أحبارِهم وذلك بافتعال المشاكل، والاعتداء السافر على المسلمين، فانبرى بنو قَيْنُقاع ـ بخاصة ـ يتحرَّشون بالشتيمة والسباب لأي مسلم يلقونه.. يُساعدهم على ذلك سُكناهم في وسط المدينة (في حين كان بنو النضير وبنو قريظة يقيمون في رياض المدينة وأطرافها) وما كانوا عليه من خشونةِ الطباع، وحدَّة المشاكسة. فكان اختلاطهم بالمسلمين، والاتصال اليومي معهم، عاملًا مباشراً للاحتكاك بالمسلمين وإثارة الفتنة فيما بينهم. ولم تقف فعال الأحبار من بني قينقاع عند حدود المناوأة، بل كانوا يُغرون شعراء اليهود بالمال للاستهزاء بالمسلمين، والتعرّض لكراماتهم، وتقليلِ شأن انتصارهم في بدر. حتى وصل هجاؤهم إلى رسول الله نفسه ﷺ، يطاله بالكلام القارص، والقول الساخر.. ولعلَّ ما حصل في سوق بني قينقاع ينبئ عن السفاهة والوقاحة التي وصلوا إليها، إذ بينما كانت إحدى نساء المسلمين تعرض حليّها على صائغ في تلك السوق، اقترب خلسةً من خلفها أحد اليهود، وأثبت طرف ثوبها بشوكةٍ إلى ظهرها، دون أن تشعر به، حتى إذا قامت، انكشفت

سَوْءَتِها، فراحت تولول، وتصرخ، وبنو قينقاع من حولها يسخرون ويضحكون.. وصادف مرور رجل من المسلمين، في تلك المحلة، فرأى استهتار اليهود بأختِهِ في الدين، فوثب على اليهودي السافل فقتله، فانقض عليه اليهود، فقتلوه.

وزاد في شناعة أفعال اليهود أنَّ بني قينقاع، كانوا قد أقدموا على نقض عهودهم والمواثيق التي التزموا بها مع النبيّ ﷺ، مما يشكل خيانةً سافرة، يُذمُّ أهلها، ويُلعن فاعلوها.. فعزم ﷺ على تأديب هؤلاء الخائنين، حتى لا يبقوا يعبثون بقيَم المجتمع الذي يبني، ويقفون عثرة في وجه الدين الذي ينشر. ثم نزل حكم الله (تعالى) بتوجيه نبيّه محمد ﷺ إلى السبيل الذي ينبغي أن يتخذه للتعامل مع الخائنين وذلك بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[1].

وأراد رسول الله ﷺ أن يلقي الحجة على بني اليهود، فدعا إليه أحبارَهم وزعماءهم، يحذِّرهم عاقبة البغي ونكث العهد، وسوء التصرف، فقال لهم: «يا معشر يهود! احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش من النقمة، وأسْلِموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم وعهدِ الله إليكم»[2].

إجلاء بني قينقاع

لقد كان خطابُ رسول الله ﷺ واضحاً عندما أرادَ أن يردَّهم إلى حكم كتابهم الذي يثبتُ بأنه نبيٌّ مرسلٌ، وأنَّ ما يدعوهم إليه إنما

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٥٠.

يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة.. ولكنَّهم قومٌ أبعد ما يكونون عن الدين، فقد وضعوا كتابهم وراء ظهورهم، وشروا الحياة الدنيا بالآخرة.. وها هم يجيبون رسول الله ﷺ - وهو يهديهم - بما ينضَحُ بسوءِ نواياهم، وإدلائهم بالقوة والصلافة، قائلين:

«يا محمد، إنك ترى أنّا قومُك!. لا يَغرَّنَّك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتَلْتَنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنَّك لم تَلقَ مثلنا.. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1].

فماذا بعدُ أمام محمد ﷺ والمسلمين؟

فهؤلاء بنو قينقاع قد كشفوا عن حقيقتهم، وأظهروا تمرّداً دونه التهديد بالحرب. مما يستدعي - وقد باتَ الأمر واضحاً - اتخاذ الموقف الحاسم منهم... فأمَرَ الرسول ﷺ بضرب الحصار عليهم في دورهم، بحيث لا يَدعون أحداً يدخلُ عليهم أو يخرج من عندهم. وظنَّ بنو قينقاع أن أبناءَ قومهم من يهود بني النضير، وبني قريظة، سوف لا يلبثون أن يأتوا مدافعين عنهم، ذابِّين المسلمين من حولهم. ولكنه ظنٌّ بقي في إطاره الوهمي. فهذا الحصار يدوم، ويمضي عليه خمسة عشر يوماً، ولا أحد يتقدم لنجدة بني قينقاع، أو تقديم أي معونة لهم، حتى ضاق بهم الحال، ولم يبق لهم إلَّا النزول على حكم

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٢ و١٣.

محمد ﷺ والتسليم له. ودعا الرسول الأعظم كبار المسلمين يستشيرهم في أمر تلك الفئة من اليهود، فأقرُّوا قتلهم جميعاً، حتى يُقضى على أسباب التمرُّد والعصيان، ويُقطعَ الطريقُ على أية فئة باغية تناصب المسلمين العداوةَ..

وتحرك زعماءُ اليهود باتجاه حليفهم عبد اللّه بن أبيّ بن أبي سلول، يرجونه التدخُّلَ لدى «محمد» كي يعفوَ عن بني قينقاع، فأتى النبيَّ يقول له: «يا محمد! أحسِنْ في مواليَّ».

وأعرض الرسول ﷺ عن الرجل حتى يذهب عنه، ولكنَّ ابن سلول أبى إلَّا أنْ يمضي في إلحاحه ولَجاجته حتى أهَاجَ غضبَه ﷺ، ولكنها هنيهةٌ، وزالَ عنه الغضبُ، إذ أرادَ أن يعطي ابن أبيٍّ، ويعطي الناسَ من بعده، درساً في التسامح وغفران الإساءة، وأن يُسديَ هذا الصنيعَ الجميل إلى الرجل، وإلى أطفال بني يهود، إذ لعلَّ في ما يحسن به إليهم، ما قد يُفيدهم في مقبل أيامهم، فيعرفوا أن ما يُقَرِّرهُ محمد بن عبد اللّه، لا يكون إلَّا في سبيل الله تعالى، ومن أجل خير الإنسان، فهو لا يغضب إلَّا للَّهِ، ولا يرضى إلَّا لما فيه رضاء الله... وبمثل هذا التفكير السامي، قبل الرسول ﷺ بما عرَضَه عليه عبد اللّه بن أبي، من إحسانٍ لبني قينقاع، والعفو عنهم.. ولكنه شرط عليه أن يجلوَ هؤلاء الخائنون، المستكبرون عن المدينة من فورهم، ومن بقيَ منهم يكون مصيره القتل.

وطمع عبد اللّه بن أبيّ في كرم رسول الله ﷺ وتسامحه، فأخذ يلحُّ عليه، من جديد، بالرجوع عن قراره، والسماح لبني قينقاع البقاء في المدينة، مما جعلَهُ يتضايق منه، ويظهر ذلك على وجهه الشريف، فقام أحد المسلمين يريد إبعاده فوجدها الخبيث سانحةً ليثير

الشجار معه، إلَّا أنَّهُ لم يمكِّنه من ذلك، إذ اضْطُرَّ لأن يضربه، فيشجّه، وينتهي به الأمرُ جريحاً في ديار بني قينقاع. فلما رأوه على تلك الحالة، والدم يسيل من رأسه، أجمعوا قائلين: «لا، لم يعد لنا مقامٌ في بلد يشجُّ فيه ابن أبيٍّ، ولا نستطيع عنه دفاعاً»..

وأذعن بنو قينقاع لأمر رسول الله ﷺ، فتركوا المدينة في منتصف شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، وهم يخلون وراءهم السلاح والمالَ والذهب والأدوات التي كانوا يستعملونها في صياغته.

وكانت مغادرتهم وفي نفوسهم حسرة على الديار التي عاشوا فيها نعيماً أزالوه بأيديهم، فساروا مكظومين، مهزومين حتى بلغوا وادي القرى، فأقاموا هناك زمناً، ثم احتملوا القليل مما معهم، وساروا صَوْب الشمال حتى استقرَّ بهم المقام في أذرعات على حدود الشام..

وبترحيل بني قينقاع عن المدينة، استكان نفاقُ بني يهود، فصاروا لا يجرؤون على المجاهرة بعداوة المسلمين أو الإساءة إليهم، وإن ظلوا في قلوبهم يحملون اللؤم والغدر، ويمنّون النفوسَ بالنيل منهم، عندما تؤاتيهم الظروف لذلك!..

تلك كانت الأوضاع التي أعقبت معركة بدر في المدينة: انهزام لليهود والمنافقين، وانتصار جديد للمسلمين.

أحوال المشركين في مكة

ولم تكن الأحوال عند قريش بأفضل، فما إن انتهت معركة بدرٍ عن تلك الهزيمة الساحقة ـ على الرغم ممّا كان عليه المشركون من كثرة العدد، ووفرة السلاح ـ حتى كان الحَيْسُمان بن عبد اللّه

الخزاعي، قد أسرع إلى مكة يُخبر عما حلَّ بجيش قريش.. فظنَّ المشركون أنه يهذي، وقد أصيبَ في عقله، فقال صفوان بن أمية لأصحابه، وهو جالس في حِجْر الكعبة:

ـ إن يعقلْ هذا الرجل فسلوه عنِّي!..

قيل له: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال الخزاعي: ها هوذا جالس أمامكم في حجر الكعبة، وقد والله رأيتُ أباه وأخاه حين قتلا.

وصُعِقَ صفوانُ لما يسمع، وسحقه الخبر، فانهار مُغمىً عليه.

وتأكَّدَ لقريش نبأ الهزيمة، فذهلت.. بل وتمنَّى رؤوس الشرك في مكة، لو تبتلعهم الأرضُ ولا تسمع آذانُهم ما يقوله رجلٌ «حقيرٌ» مثل هذا الخزاعي، وهو يأتي ناعياً إليها تلك النكبة العظيمة، وناشراً الشؤم فوق ربوعها. إلَّا أنه الواقع الأليم، الذي يجبهها بحقيقته المرّة، فقامت تندبُ حظها التعيس، وسوء قدرها اللعين، حتى أن بعض المشركين لم يحتمل هَوْلَ الكارثة، فمات كمداً، كما حلَّ بعدوّ الإسلام اللدود، أبي لهب، إذ لم يُطِقْ أن يَسمَعَ بأن قريشاً قد هَوَتْ مثخنة بالجراح، فكان النبأ كصاعقة نزلَت به، فمرض من توِّهِ، وعُلَّ سبعة أيام، يتقلَّبُ فيها على فراش يحسّهُ نيراناً تتأجَّجُ من تحته، ولهيباً يُحرقه، حتى أكَلَ اللهبُ قلبَهُ وأحشاءه ففارق الدنيا لعيناً ملعوناً، ليلقاه سعيرُ الآخرة مذموماً مدحوراً..

وروى أبو رافع، مولى النبي ﷺ خبر موت أبي لهب، فقال: «كنت غلاماً للعباس، ابن عبد المطلب. وكان الإسلامُ قد دخلنا أهلَ البيت، فأسلم العباسُ، وأسلمتْ أم الفضل، وأسلمتُ أنا. وكان العباس يهابُ قومَهُ ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه. وكان ذا مال

كثيرٍ متفرّقٍ في قومه. وكان أبو لهب قد تخلَّف عن بدر، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش كَبَتَهُ الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعِزّاً. وكنت أنحتُ الأقداح (سهام الأقداح) تحت ضغط المشركين عليَّ لأنني كنت رجلًا ضعيفاً، فوالله إني لجالس في حجرة زمزم، حيث كنت أقوم بعملي، وعندي أم الفضل (زوج العباس) وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجرّ رجليه جرّاً حتى جلس على طُنُب الحجرة[1]، فكان ظهره إلى ظهري. فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان، المغير بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم. فدعاه إليه أبو لهب وقال له: هلمَّ إليَّ، فعندك لعمري الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيام عليه. فقال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيمُ الله مع ذلك ما لُمتُ الناس. لقينا رجالًا بيضاً على خَيْل بُلْقٍ (ما يجتمع فيها البياض والسواد) بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئاً (أي ما تبقي) ولا يقوم لها شيء.. يقول أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة. قال أبو رافع: وثاوَرْته (وثبت إليه) فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عليَّ يضربني، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلعت (شقت) في رأسه شجَّةً منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؟ فقام موليّاً ذليلًا. فوالله ما عاش إلَّا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعَدسَة[2]، فقتله.

---

(١) طنب الحجرة: طرفها.

(٢) العَدَسَة: بثرة صغيرة شبيهة بحبة العدسة، تخرج بالبدن، أو قرحة قاتلة كالطاعون.

وتأكَّدت أخبار بدر، فقامت المنادِبُ في قريش، تبكي على القتلى، وتنوح على الأبطال!..

وتوشَّحت منازلُ مكة بالرايات السود، وخلت جنباتها من الضحكات ـ إلَّا تلك الابتسامات الساخرة التي امتلأت بها أشداق آلهتها وهي تسخرُ من هؤلاء القوم الذين آمنوا بها واتخذوها معبودات ـ ولو قدِّر لأحد أن يرى إبليسَ في تلك الساعة، لسمعه يقول: فقد آن الأوان لتزيل هذه الآلهة عن سحنتها مظاهر الوقار التي تحفُّها بها قريش، وأن تستهزئ بجهالة هؤلاء القوم وصغر أحلامهم.. فها هي ذي آلهتهم ترى في مناحات قريش، وفي عويل نسائها، وبكاء أطفالها، ما يشفي غليلَها مما نصَّبوها له، وأقاموها عليه.. وهذه هي الشماتةُ بعينها من إبليس، إلَّا أنه أحالها على تلك الآلهة، التي هي ـ على كل حال ـ أنصابٌ من عمله، ولكنه أغرى بها الجهلاء ليعبدوها، فحق له أن يسخر من قريش وجهالتها! وأن يزيِّنَ لها أعمالها بجهالة أعتى!. ولذلك فإنه لما طافت المنادبُ على البيوت وفي الأزقة، جعل تلك الآلهة المزعومة ـ وفي جوف كل منها عشٌّ للشيطان الرجيم ـ توحي للنذّابين: أن اهدأوا. هل نسيتم أن أعداءكم المسلمين سوف يعلمون بأحزانكم، وشتات أنفسكم، وأنَّ ذلك سوف يجعلهم يشمتون بكم ويفرحون بمصيبتكم؟!.. يكفيكم شهر من النواح على قتلاكم، فاسكنوا الآن، واعملوا من أجل الثأر!!...

وهكذا أمكن لإبليس أن يفعل فعله في أتباعه من قريش، فزيّن لهم حبَّ الانتقام، مما دسّ في نفوسهم من الأحزان والآلام.. ولو كان دهاقنة قريش يعقلون، لندبوا أنفسهم إلى حسن التفكير، وتداركوا الأسباب التي تكمن وراء المصائب التي تحلُّ بهم.. ولكنهم

ويا للأسف، انقادوا للشيطان الذي ما أراد إلَّا الانتقام لهزيمته ـ هو ـ في بدرٍ، فراح يطوف في نفوس المشركين، ويغرّهم بالبأساء والشدة حتى أفلح.. فهمدت حينئذٍ الأحزانُ في مكة، لتنساب آلاماً في الأحشاء على صرعى بدر، وتتغلغل حقداً في القلوب، وغيظاً في الأفئدة على «محمد» ، لأنه هو أصل البلاء، ومسبب الفواجع التي حلَّت بهم ـ كما يتوهمون. وتحولت النكبة إلى مقولة يردّدونها: أن لا طيب للحياة بعد اليوم إلَّا بالانتقام من هذا الرجل، وإرواء الغليل منه. ولذلك قرروا إيقاف كل مظاهر للأسى، وقالوا: «لا تفعلوا فيبلغ «محمداً» وأصحابه فيشمتوا بكم».

وكانتْ نساءُ قريش أكثر من رجالها حقداً على رسول الله ﷺ. إذ جززن شعورهن، وخاصمن أزواجهنَّ، وأقسَمْنَ ألَّا يلتفِتْنَ إلى الأزواج والأبناء حتى يأخذوا لهنَّ بالثأر.. ومشى رجالُ قريش على وتيرة نسائهن، فَغَدَوا شُعثاً غُبْراً، يسود أيامَهم الوجومُ والصمت، ويخيمُ على لياليهم القلق والتعاسة.. فأقفلوا أبواب الفرح والبهجة، وسدّوا منافذ اللذة والمتعة، وراحوا يستعدون شيوخاً وفتياناً، ورجالًا ونساءً للقاء «محمد» وأصحابه.. وتزعمت هند بنت عتبة هذه الحركة الثأرية، فهجرت مضجع زوجها أبي سفيان بن حرب، وحرَّمت على نفسها الطيب، حتى يأتي اليوم الذي تثأرُ فيه من «محمد» لأبيها وأخيها وعمِّها.. وفعلت نسوة قريش مثلما فعلت هند بنت عتبة، وحذون حذوها في كل شيء.. حتى يوم الانتقام!!..

أما أبو سفيان ـ زوج هند ـ فلم يجدْ ما يواسيها به إلَّا أن يُقسم بألا يمسَّ زوجه، أو أية امرأة أخرى، قبل أن ينتقم لقريش، ويعيد لها مكانتها بين العرب، فترضى عنه هند، وترتاح من آلامها!..

غـزوة السويـق

وندبَ أبو سفيان بن حرب نفسه لزعامة قريش، فراح يشرف على استعدادها للقتال. فلما دَخلَ شهرُ ذي الحجة، ولم يكن قد انقضى على معركة بدر أكثر من شهرين ونصف، رأى أن يخرج متقصِّياً أخبار «محمد» وأصحابه، فركب في مئتين من رجال قريش، وانطلقوا صوب المدينة، متخفِّين في النهار، جادِّين المسيرَ في الليل، حتى بلغوا أطرافها، وباتوا على مقربة من منازل بني النضير، فطلب من ركبه الاختفاء وراء كثيب رملي، ثم قصد مع نفر من رجاله دارَ حييّ بن أخطب يطرق بابَهُ، فأبى أن يستقبله، بل وطرده ورجاله.. فذهبوا إلى سلام بن مشكم فلاقاهم بالترحاب، وأدخلهم على الرحب والسعة، يقدم لهم الطعام والشراب، ويبالغ في إكرامهم لما سرَّه من رؤيتهم.. وهو لا ينفك عن الحديث عما يفعل «محمد»، وما صار له من عزٍّ ومجدٍ يجب العمل على إزالتهما!.. وطال السَّهَرُ حتى أدركَهُمُ السَّحَرُ، فعادوا إلى الركب، وانطلقوا إلى أن بلغوا ناحية يقال لها العريض ـ على بعد ثلاثة أميال من المدينة ـ فوجدوا رجلًا من الأنصار، وحليفاً له، في حرث لهما، فقتلوهما، ثمَّ ولّوْا مسرعين قبل أن يبلُغ خبرُهم «محمداً».. وإذْ فعَل ابن حرب فعلته تلك، فقد اعتقد أن يمينه قد حلّت، وفي ذلك حافزٌ آخر للوصول إلى مكة، والالتقاء بزوجه هند!..

وتناهى خبرُ مقتل المسلميْن على يد جماعةٍ من المشركين إلى رسول الله ﷺ، فخرج في مِئتين من المهاجرين والأنصار، في طلب المجرمين..

وكان ابن حرب يحثُّ رجاله طوال الوقت على الإسراع،

والابتعاد عن مكان جريمتهم، فلما رأى بعض التباطؤ منهم صَاحَ بهم محذراً:

ـ ويحكم يا رجال، أو تظنون أنّ «محمداً» قد يتقاعس عن اللَّحاق بكم؟!. هيَّا وانفضوا عنكم التعبَ، وتخلَّصوا مما يعوقكم، وارموا ما يُثقل سيركم، حتى يمكنكم النجاة بأنفسكم.

وارتعدت فرائص رجال ابن حرب خوفاً مما يسمعون، فراحوا يلقون أَجْرِبَة الزَّاد التي يحملون، ويغذّون السيرَ فراراً بجلودهم من القتل أو الأسر الذي قد يصيبهم. وهذا ما عوَّق المسلمين عن اللحاق بهم، إذ كانوا في الطريق يعثرون على أجرِبتهم، فيتوقفون لأخذها، ويضيع الوقت دون إدراكهم. فلما رأى رسول الله ﷺ تأخره عن المجرمين، أمَرَ أصحابه بالعودة إلى المدينة، وكان قد تركها منذ خمسة أيام، بعد أن استعمل عليها أبا لبابة بشير بن عبد المنذر. ولكثرة ما أصاب المسلمون من الزاد، ولا سيما منه السويق، سميت تلك الغزوة بغزوة السويق..

ولئن أمكن لجماعة أبي سفيان أن تغدر برجلين من المسلمين، إلا أن رجوعها إلى مكة على ذاك النحو من الفرار، قد جعلها في موقعٍ شبيهٍ بالهزيمة، فدخلت مكة تتستر وتخفي أخبار ما فعلته، حتى تحفظَ ماء وجهِهَا..

وشعَرَ أبو سفيان بأنَّه أشدُّ الهاربين هزيمةً، بعدما ظهر أمام عيون أصحابه بذلك المظهر من الخوف والجبن. ولكي يغطي فشله فقد ضاعف من اهتمامه على تحريض قريش، والاستعداد لغزوٍ لم تشهد العرب مثيلًا له في حياتها!..

سريـة القَـرْدَة

وكان الهـمُّ الأكبرُ لقريش، إلى جانب استعدادها للقتال والحرب، تأمين تجارتها وعدم توقف رحلاتها لأجل ألَّا تفقد أهم العناصر التي تستقوي بها، وهي القوة الاقتصادية. ولكن ها هي طرق قوافلها أصبحت محفوفة بالمخاطر، وعيون المسلمين ترصدها، وسراياهم لا تنقطع عن استكشافها ومراقبتها، فماذا عليها أن تفعل؟.

إزاء هذا الواقع، ولما كانت حماية الأموال ضرورة ملحّة، فقد رأت قريش أنَّها أمام خيارين لا ثالث لهما: فإما المجازفة وسلوك الطرق العادية المألوفة للقوافل، وفي ذلك ما فيه من خطر استلاب المسلمين لأموالها فتنقطع موارد عيشها.. وإما سلوك طرق جديدة، وهذه ليست مأمونة المخاطر كذلك، بسبب ما فيها من مشقة، ومظنَّة التأخير والهلاك في متاهات الصحراء ونجودها المترامية.. ومع ذلك فقد اعتمدت قريش السبيل الثاني فسيرت قافلة على سبيل التجربة، ولكنَّها لاقت الصعوبات والخسارة بما جعلها تقرب نتيجةً من تعرُّض المسلمين لأموالها..

وجهد القرشيون في التفكير لإيجاد مخرج جديد، إلَّا أنهم وصلوا إلى النتيجة الحاسمة وهي أن جميع المسالك قد سدَّت في وجه تجارتهم، فقال عندها صفوان بن أميّة: «إنَّ محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا تجارتنا، فما ندري كيف نصنع بهم وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامَّتُهم معه، فإن نحن أقمنا في ديارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء»!

واتفقوا على أن يسير صفوان نفسه بتجارة جديدة، وذلك خير من البقاء ساكنين، على أن يتنكَّب فيافيَ لا يصل إليها أصحاب «محمد»، فجيءَ برجل من بني بكر بن وائل، يدعى فُراتَ بن حيّان، ليكون دليله في الطريق. وراحت قريش تجهّز أحمالها، وبضائعها من الأواني الفضية، والسلع المتنوعة، حتى بلغ ما دفعت به في تلك القافلة مئة ألف درهم، انطلق بها ابن أميّة، وفي ظنهم أن خبرها لن يبلغ المسلمين.. ولكنَّ عيونَ الرصْدِ نقلت خبرها إلى رسول الله ﷺ، فأمر زيد بن حارثة أن يخرج إليها في مئةٍ من المهاجرين والأنصار، فانطلقوا على بركة الله (تعالى) يبحثون عن قافلة قريش، حتى وجدوها عند ناحية تدعى القَردَة ـ وهي ماء من مياه نجد ـ فانقضُّوا عليها كالليوث الهواصر، يغنمون العيرَ، وما يثقل ظهورها من نفيس المتاع بعد أن فرَّ المشركون نجاةً بأنفسهم فكانت غنيمةً سهلةً، وأول غنيمة يحرزها المسلمون بلا عناءٍ، ولا قتال. فلمَّا عادوا بها إلى المدينة، أفرَدَ منها رسول الله ﷺ الخُمسَ، ثم قسَّمها بين أصحاب السريّة..

ولقد كانت خسارة تلك الأموال، مصيبة كبيرة تحل بقريش بعد مصيبة بدر، مما جعلهم يعتقدون بأن وجودهم بات يراوح بين الحياة والموت..

وإزاء هذا الوضع الجديد الذي ينذر بأشد حالات الخطر على حياة أهل مكة، تَداعى زعماء قريش لتدبّر الوضع الذي من شأنه تلافي هذا الخطر، فما وجدوا، بعد التشاور، أفضل من التعجيل في اتخاذ الخطوات العملانية للحرب التي وطّنوا النفوس عليها بعد بدر، فقرروا أن يكون أبو سفيانَ زعيم حربهم، وقائد جيشهم، على أن يبدأ من

فوره باتخاذ كافة التدابير التي تهيّئ لحربهم على «محمد» وأصحابه، فراح أبو سفيان يطوف على الناس، يدعوهم للتبرع، وهو يقول:

«يا معشر قريش! يا أهل مكة! إن محمداً قد وتَركم وقتلَ خيارَكم، فأعينونا بالمال على حربه لعلَّنا ندرك منه ثأراً».

وكانت حملةٌ شاملة، اندفعت فيها النساءُ ـ والموتورات خصوصاً ـ إلى التبرّع قبل الرجال، بما ملكن من حليٍّ وأدوات زينة، حتى شارك الجميع في توفير المال والعتاد، وهم يقولون لبعضهم البعض: «إنها للذلة والخزي والعار إن لم ننل من المسلمين مأرباً وثأراً، أو نسترد شرفاً ضاع وندفع عاراً»...

تلك كانت حال مكة وأهلها.. حزنٌ يخيّم في أجوائها، وقهرٌ يغرس في النفوس آلاماً وأحقاداً.. ولكنْ في الوقت نفسه كان هناك استعداد للحرب، وتهيئةٌ لجيش كبير، وتوفير للأسلحة والعدة والعتاد حتى يمكنهم إحراز ذلك النصر الذي يكون فيه الثأر من هزيمة بدر.

أفراح المسلمين في المدينة

أما في المدينة، فكانت الأجواء مختلفة تماماً عما يجري في مكة.. فلا خوف ولا قلق على المصير بعد اليوم، إذ ذهب الضعف الذي كان يفتُّ في عضد المسلمين، وأبدلهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ به قوةً ترهب ألدَّ أعدائهم، وأكثرَهُم قوة وشدّة.. فهذه قريش، التي كانت في تلك الحقبة من تاريخ جزيرة العرب سيدة القبائل، وصاحبة السلطان الأعلى، باتت مهزومة، مشتتة القوى على أيدي المؤمنين. فصار القاصي والداني يهابهم، وأهل البوادي والحضر يحسبون لهم ألف حساب!..

ولم يكن النجاح الذي حققه المسلمون حتى ذلك الوقت،

ليقعدهم عن التهيئة والاستعداد لمواجهة شتى الاحتمالات التي قد تطالعهم بها الظروف المستجدة، والتي كانت ما تزال ظروفاً متحركة بسبب كثرة الاعداء، وانتشارهم في مختلف نواحي نجدٍ والحجاز..

ولذا فإنهم لم ينصرفوا ـ كغيرهم من الأمم والشعوب، بعد انتصارات حربية تحرزها جيوشها ـ إلى الملذات، والاستكانة إلى العيش السهل، بل ظلوا على إيمانهم ثابتين، وعلى العزم قائمين، وبذلك أمكنهم أن يكشفوا دسائس المنافقين، وأحقاد بني يهود، وأن يلاحقوا قوافل قريش ويترصدوا تحركاتها بصورة دائمة.

على أن ذلك السلوك السوي، والاضطلاع الدائم بأداء الواجب، لم يمنعْ شيءٌ منه على المسلمين أن ينعموا بما أكرمهم الله تعالى به، وأن يهنأوا برحيق السعادة التي يستحقونها.. فأشاعوا الأفراح في ديارهم، وأقاموا الأعراس في جنبات بلدهم.. وبذلك يُعطون من ناحية للرسالة المقدسة ما تفرضه من إقدام وتضحية، ويبذلون في سبيلها ما توجبه من عمل واندفاع، ولا ينسون من ناحية ثانية نصيبهم من الدنيا، ولا يتخلون عما تستحقّه الحياة من عيش هنيء كريم.

وإذا كانت مظاهرُ هذا العيش كثيرة، فإنَّ أقربها إلى نفس الإنسان، وأشدَّها لصوقاً بحياته، واستمرار وجوده، هو الزواج: النظام الاجتماعي الذي أودعَهُ المولى (تبارك وتعالى) في بني البشر ليكون رابطة «قدسية» تجمع بين الرجل والمرأة، وتعاقداً على الرضى والمشاركة في الحياة بسرّائها وضرّائها، فضلًا عن كونه واجباً تجاه المجتمع، كي تنتظم علاقاته بصورة سليمة وصحيحة..

ومن هنا نرى الإنسان، في كل زمان ومكان، يترك ـ على الرغم

من كثرة مجالات اهتمامه بالأعباء العامة، والشؤون الخاصة ـ مساحةً هامّةً للارتباط بعشيرة العمر، وإنشاء البيت الزوجي.. فالحاكم السياسي على كرسيّه، والجندي على سلاحه، وطالب العلم في أروقته والمتخرج من جامعته.. والتاجر والصانع والمزارع والعامل، وكلٌّ يذهب إلى نفس هذه الغاية، بما ينشد من استقرار في الحياة العائلية التي يحلم بها.

وبمقتضى هذه السنَّة في الحياة، انصرف المسلمون، بعد معركة بدر، يقيمون أفراح الزواج.. فتشهد المدينة أعراساً كثيرةً، تَتْرى على مدى بضعة شهور. ويكون للبيت النبوي الشريف منها نصيبه الوافر، لأنه أول البيوت التي تتوجه إليها الأنظار وتمتدُّ الأعناق، رغبةً في الاتصال بالبيت الرفيع، وبالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء. بل نستطيع القول بأنه قد طمع في مصاهرة البيت النبوي كل مسلم يرى في نفسه الكفاءة لذلك.. وكيف لا، وإنه ـ والحقّ ـ بيتٌ هو مهبط للوحي والتنزيل، وهو مهوى الملائكة ومزار جبرائيل والمؤمنين، بل وهو همزة الوصل لخاتم النبيين بين: فيض فضل الله ـ تعالى ـ وبِرِّ الأرض، ويشرِّفه فوح الرسالة ـ خاتمة الرسالات السماوية ـ وروح الدين الكريم ـ خاتم الأديان ـ وعبق النبوة ـ نبوّة خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد رسول الله ﷺ ـ.

ولذا تسابق أكابر الصحابة إلى خطبة سليلة الوحي، المصونة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، على الرغم من أنَّ الرهبة كانت تأخذهم، وتقصر خطاهم هيبةُ رسول الله، وصِغَرُ سنِّ الزهراء عليها السلام، قبل الإقدام على طلب يدها.. إذْ إنَّ مفاتحةَ النبي ﷺ بمثل هذا الأمر كان مرهوباً بحد ذاته، لأسباب لا يدرك سرَّها إلَّا اللَّهُ تعالى!..

وكان أبو بكر الصديق ﷺ أولَّ من تجرأ وأمَّ منزل الوحي، في محاولة لاستئذان النبيِّ أن يخطب فاطمة عليها السلام.

وأطرق النبي ﷺ لحظة ثم قال له: إنّي أَنتظرُ بشأن فاطمة أمْرَ ربي عزَّ وجل. وذهب من بعده عُمر بن الخطاب ﷺ يعرض على النبي ﷺ خطبة ابنته فاطمة لنفسه، فردَّ بنفس الجواب: إني أنتظر أمر ربي عزَّ وجل بشأن فاطمة الزهراء[1].. ولقيَ الردَّ إيَّاهُ كلُّ مَنْ تقدم غيرهما لخطبة الزهراء (رضوان الله عليها). أما لماذا هذه الميزة الخاصة لزواج فاطمة بالذات الذي ينتظر فيه أمرَ ربه، وبخلاف سائر بناته، بل وسائر الحرائر من نساء المسلمين، فهذا ما سوف تبرزه المباهلة التي يطلبها رسول الله ﷺ من وفد نصارى نجران، في السنة العاشرة من الهجرة.. ولكنْ، ومن باب توكيد مكانة فاطمة الزهراء يجدر التذكير هنا، بأهم ما تميزت به عن سائر الحرائر التي يتسابقُ الأكفاءُ ـ عادةً ـ لخطبتهن، والزواج بهنّ.. فإنَّ فاطمة هي بنت خاتم النبيين وسيد المرسلين، وسائر الخلق أجمعين.. وأمها السيدة خديجة بنت خويلد، الطاهرة، المصونة.. وهي بضعة النبيّ ﷺ[2]. بل هي أم أبيها [3] ـ كما كان يسميها رسول الله ﷺ بعد فقد خديجة الكبرى ـ وهي بعد ـ سيدة نساء العالمين[4]، بل ومن سيدات أهل الجنة [فقد أخرج الطبراني في الأوسط والكبير، عن ابن عباس قال: قال رسول

(١) مستدرك الحاكم؛ ج٢ ص٦٧، السيرة الحلبية، ج٢ ص٢٠٦؛ أسد الغابة، ج٥ ص٥٢٠.

(٢) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج١٣ ص٧١.

(٣) البداية والنهاية، ج٦ ص٢٣٣٢؛ البحار، ج٣ ص١٩.

(٤) أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن فاطمة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يا فاطمة! ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين (انظر البخاري: فتح الباري، ٧/ ٨٤؛ مسلم؛ والمستدرك للحاكم، ٣/ ١٥٨).

الله ﷺ: سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران: فاطمة، وخديجة، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون][1]. وكانت أحبَّ الناس إلى أبيها [أخرج الحاكم في المستدرك، وصححه من حديث بريدة، قال: كان أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ فاطمةُ ومن الرجال عليَّ][2]، [وعن السيدة عائشة، أنه قيل لها: أيُّ الناس كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة من النساء، ومن الرجال زوجُها][3]. وعن حذيفة، قال النبي ﷺ: «نزل مَلَكٌ فبشرني أن فاطمة سيدةُ نساء أهل الجنة»[4].

ولعلَّ هذه المزايا، التي كانَ رسولُ الله ﷺ يخصُّ بها ابنتَهُ فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) ـ بل وغيرُها من المزايا كثير ـ قد تغني عن السؤال، لماذا كان النبي ﷺ يردُّ الصحابةَ الذين يخطبونها.. فقد كان يراها مرصودة لأمر جللٍ، وسوف يكون لها شأنٌ عظيم، فينتظر الوحيَ بشأن تزويجها..

وشاعَ بين المسلمين ردُّ كلِّ من تقدَّم لطلب يدِ ابنةِ رسول الله، فتناقل الصحابة هذا الخبر، مجملًا ومفصَّلًا، ولكنّ أحداً لم يفقه السرَّ من ورائه!..

ومن باب الفضول ليس إلَّا، كان الصحابة، ولاسيما أبو بكر، يسألون علياً عليه السلام عمَّا يمنعُهُ من أن يخطب فاطمة؟[5] فلا

---

(١) الإمام أحمد، ٥/ ٣٩١؛ مجمع الزوائد، ٩/ ٢٠١.
(٢) الترمذي، تحفة: ١٠/ ٣٧٥؛ والمستدرك للحاكم، ٣/ ١٥٥.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج٢ ص١٢٥.
(٤) الحاكم: المستدرك، ج٣ ص١٥١.
(٥) البداية والنهاية، ج٦ ص٣٢٢؛ البحار ج٤٣ ص١٩؛ أسد الغابة، المصدر السابق.

يجيب بأكثر من ابتسامةٍ تخفي في ثناياها الشيءَ الكثير..

وتردَّدَ عليٌّ (كرم الله وجهه) قبل أن يقصد بيت النبوَّة، ويدخُلَه خاطباً، فلما جلس إلى رسول الله، وأنسَ بحبه له زال من نفسه كل أثر للتردد، فقال له: وددت أن أخطب فاطمةَ، بنتَ رسول الله.

وتهلَّل وجه الرسول ﷺ بالبشر، فأشار إلى عليٍّ أن يدنو منه، ليضمَّهُ إلى صدره، ويخبره بأنه كان ينتظر مجيئه لهذا الشأن، وهو يقول له:

«فاطمة بضعة مني، من أرضاها فقد أرضاني، ومن أغضبها فقد أغضبني. وإن جبريل عليه السلام قد نزل وقال لي: يا محمد، إن الله يأمرك أن تزوج فاطمة ابنتك من علي»[1].

ثم أخذ الرسول ﷺ رأس عليٍّ، وقبّله في جبينه، وهو يقول له:

«إني حين أقبّل فاطمة أشمّ منها رائحة الجنة»...

وتدحرجت على خدَّيْ عليٍّ دمعاتٌ، هي أكثرُ من أي شيءٍ تعبيراً عن شكره لله تبارك وتعالى، وحنان هذا الرسول الكريم الذي يلوذ في أحضانه مثل الأب الرحيم.. لأنه لا شيء في الوجود أسمى من المشاعر الصادقة التي تملأ القلوب إخلاصاً، وتفيض بالمحبة،

---

(١) ذخائر العقبى، ص٣٠؛ شرح نهج البلاغة، ج٩ ص١٩٣؛ مناقب الخوارزمي ص٢٠٥؛ وفي موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٣٠ أنَّ الطبراني أخرج (في الكبير) عن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ أمرني أن أزوج فاطمة من علي» عن مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢٠٤.

ليس على من تحب وحدهم، بل وعلى الدنيا، بمن فيها وما فيها.. ويأنس عليٌّ برسول الله، ويأنس رسول الله بعليٍّ، ثم يقوم ﷺ ليشاور الزهراءَ في الأمر ويخبرها بأنَّ عليّاً قد جاء يخطبها.. فلم تجب عليها السلام في بادئ الأمر، إذ قد غمرها خجلُ الأنثى الشريفة، كريمةِ الأصل والمحتِد، إلَّا أنَّها سألت أباها:

ـ ما أكثر ما خُطبتُ إليكَ قبل اليوم يا أبتاه، فما سألتني مرةً، بل كنت تردّ الخاطبين، فهل أذن لك ربنا الكريم بأمر زواجي؟

ويبيّن الرسول الكريم لابنته بأن الله (تعالى) قد زوجها من عليٍّ في السماء، وأعلن ذلك لملائكته، وأنه يزوجها منه بناءً على أمرِ ربِّه عزَّ وجلَّ.. حتى إذا رآها اطمأنّت نفساً، عاد يقول لها: «وأريد أن أخطبك الآن إلى أقوى الناس إيماناً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم أخلاقاً، وأعلاهم نفساً»[1].

نعم، إنها فاطمة الزهراء، بنتُ رسول الله، فهي على يقين بأنَّ والدها لا يقرر أمراً إلَّا إذا كان فيه مرضاةٌ لله سبحانه وتعالى، فهل أحبُّ إليها ـ إذن ـ من رضى الله ربها؟! وهل أزكى نعمةً تستشعرها من حب هذا الأب لها، وخطبتها لمن يحبُّهُ هذا الأبُ؟

ويزف رسول الله ﷺ إلى عليٍّ البشرى السعيدة برضى فاطمة وقبولها، فيشكر ربَّهُ (تبارك وتعالى) على هذه النعمة، وعلى كل نعمِهِ الفيّاضةِ، التي حباهُ بها منذ وجوده في هذا العالم..

ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، فحق لأهل بيت رسول الله أن ينعموا جميعاً، بهذا الفضل العظيم..

---

(١) المصادر السابقة.

ومضى بياضُ ذلك النهار على الخير والبركة، وأتبعه ليلُ التهجد والعبادة، يستروح بها أهل بيت رسول الله صفاءً وطمأنينة، حتى آذن انبلاج فجرٍ جديد، فإذا بصوت بلال يتهادى في الأرجاء بنداء الحق: الله أكبر، الله أكبر، فيهب أهل التقوى، ويتراكضون إلى المسجد، لأداء صلاة الفجر وراء رسول الله، والجلوس إليه للتزود من دروسه وعظاته بما يغنيهم، ويغني الحياة من حولهم.. وبعد انصراف المؤمنين، كلٌّ إلى واجباته وشؤونه، انفردَ عليٌّ برسول الله ليقف منه على مراسم الزواج، والمهر الذي يؤديه إلى عروسه، ولكنه بدا عليه الحياءُ، لأنه لم يكن يملك من المال شيئاً، فيسأله ﷺ عن الدرع التي أصابها يوم بدر، فيقول له: هي عندي يا رسول الله. فيطلب إليه أن يذهب ويبيعها، ثم يأتيه ليتدبَّر الأمر، وكانت تلك الدرع من نصيب عثمان بن عفان رضي الله عنه بعدما نقدَهُ ثمنها أربعمائة وسبعين درهماً، فحملها إلى الرسول ﷺ، فأعطاه منها ما يشتري به طيباً وعطراً، ثم عهد بالباقي إلى أم سلمة رضي الله عنها كي تشتري جهاز ابنته فاطمة.

ونشطت أم سلمة في تجهيز العروس الغالية، فاشترت لها قميصاً بسبعة دراهم، وخماراً بأربعة دراهم، وقطيفة سوداء خيبرية، وسريراً مزملًا بشريط، وفراشين من خيش حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من صوف الغنم، وأربع مرافق من أدم الطائف ـ حشوها إذخر ـ وستراً رقيقاً من صوف، وحصيراً هجرياً، ورحىً لليد، ومخضباً من نحاس [وهو إناء تغسل فيه الثياب]، وجرة خضراء وكوزاً من خزف، وقربة ماء.. وإلى ذلك مما أتمت أم سلمة شراءه من جهاز بسيط جاءت به رسول الله ﷺ، فجعل يقلبه بين يديه الكريمتين وهو يقول: «بارك الله لأهل البيت».. ثم رفع رأسه إلى السماء داعياً:

«اللَّهم بارك لقوم جُلُّ آنيتهم من الخزف».

وكان علي كرّم الله وجهه في هذه الأثناء يُهيّئ بيته لاستقبال عروسه، حتى حان الموعد فجاءَ رسولَ الله ﷺ يستأذنه في إتمام الزواج المبارك.

وأمر رسولُ الله ﷺ نساءه أن يزيّنَّ فاطمة ويطيِّبنها ويُصلحن من شأنها في حجرة أم سلمة، ثم ينقلن جهازها، ويُعِدْنَ ترتيب البيت بما يَسَّرَ الله من المتاع والآنية...

وكانت ساعة الفرحة الكبرى حين دخل رسول الله ﷺ على بضعته الزهراء، ثم خرج يعلن على الملأ من المؤمنين إتمام عقد قرانها على عليّ بن أبي طالب وهو يقول: «إن الله جعل المصاهرة سبباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً أوشَجَ به الأرحام، وألزم به الأنام، فقال عز من قائل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[1] فأَمْرُ الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكلِّ قَدَرٍ أجلٌ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2]. ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني زوّجْتُه إيّاها على أربعمائة مثقال فضة»... وجلس النبي ﷺ وحوله حمزة وعليٌّ ونفرٌ من بني هاشم، وجمع الصحابة الأخيار من المهاجرين والأنصار، ودارت عليهم

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

أطباقٌ من التمر هي حلوى الفرح، يتباركُ بها الحضور مع صوت بلال الرنان، تكبيراً وتهليلًا وتسبيحاً.. وأزفت الساعة، فاعتنقَ عليٌّ رسولَ الله ﷺ، شاكراً ممتنّاً على كرمه، وعطفه، فقام ﷺ يمسك بيد ابنته، ويقودها إلى البيت الزوجي، وهناك احتضنَها وابن عمها عليّاً، وهو يقول: «بارك الله لك يا علي بابنة رسول الله».

ثم وقف يتأملهما بعين الأب الرؤوف العطوف. وطلب وعاءً فيه ماءٌ، فأخذه وهو يذكر اسم الله عليه، ثم أخذ يغمس يده الكريمة في الإناء، وينفح العروسين، وهو يدعو لهما قائلًا: «اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما».

هكذا كان عرسُ الزهراء، فاطمة بنت رسول الله ﷺ الذي تمَّ على أبسط ما تكون الأعراس الكريمة.. بل ولعلَّه كان عرساً شاركت فيه الملائكة الذين يصلّون على النبيّ، مثلما شارك فيه المؤمنون وهم يصلّون على النبي ﷺ وآل بيته الطاهرين.. صحيح أنه كان عرساً غمرت فيه الفرحة القلوبَ والوجوهَ، ولكنه خلا من المظاهر الرنَّانة الطنَّانة، فلم تُرشَّ فيه النقودُ، أو توزع فيه سبائك الذهب، كما تشهدها أعراس الأغنياء في زماننا.. فجلُّ ما قُدِّم فيه للناس بعض من التمر يتبرك به الحاضرون، ويدعون للزوجين بالوفاق والتوفيق بعيداً عن كل المظاهر المادية التي لا ترضي الله سبحانه وتعالى، ولاسيما ذلك البذخ وصرف المال في الأعراس الذي يمكن أن يكفي لمساعدة مئات الفقراء والمساكين وإنعاشهم. فقد أبى رسولُ الله ﷺ أن يكون عرسُ ابنته فاطمة، إلّا عرساً نبوياً يتميّز بالبساطة وبكل ما هو عادي من المظاهر، حتى لا يرى عامة الناس، ولا سيما ذوو الدخل

المحدود، أية غضاضة، أو أية مهابة من الإقدام على الزواج، إذا كانوا لا يستطيعون مماشاة المسرفين في أعراسهم، وحتى يعرف الناس أن الإنفاق الفاحش، في مثل هذه المناسبات وغيرها، إنما هو التبذير بعينه الذي يذم الله (تعالى) مَنْ يفعلونه، فهو منهيٌّ عنه حكماً في الإسلام «لأنَّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين». . ففي الأصل ليست إقامة الأعراس والأفراح مناسبة للمفاخرة والمباهاة، وإنما هي أمور عادية في الحياة، لها حدود تقف عندها، ولا يجوز أن تتعداها حتى لا تنقلب من المباح إلى المكروه، أو إلى الحرام. .

ورأى عثمان بن عفان ﷺ في غمرة الفرح النبوي أن يخطب يد أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، إذ كانت أختها رقية، زوجته السابقة قد توفاها ربها، على أثر مرض أودى بحياتها في نفس الوقت الذي جاءت البشائر إلى المدينة بانتصار المسلمين في بدر، فقصد رسول الله ﷺ يخطبها. وسأل الرسولُ ابنته رأيها، فلما لم يجد عندها ممانعةً أو رفضاً، وافق على طلب عثمان. وما إن حل شهر جمادى الثانية من السنة الثالثة للهجرة، حتى استأذن عثمان النبي ﷺ بأن ينقل إليه أهله. واعتُمدت في زواج أم كلثوم نفس المراسم التي تمت في زواج أختها فاطمة، لأن زواج بنات النبي من السنة الشريفة التي لا تتغيّر بتغيّر الظروف والمناسبات. .

زواج النبيّ ﷺ من السيدة حفصة

ولم ينقضِ قرابة الشهرين على هذا الزواج المبارك، حتى شهدت المدينة المنورة فرحاً جديداً عندما تزوج الرسول نفسه ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ في شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة، وذلك بعد إكمال عدتها على زوجها السابق الخنيس بن

حذافة السهمي[1]، أحد السابقين إلى الإسلام، وقد توفاه الله سبحانه بعد رجوعه من معركة بدر. وترمّلت حفصة وهي في ريعان الصبا، إذ كانت ما تزال في الثامنة عشرة من عمرها، فأثَّر في نفسها هذا الترمّل، وجعل الكآبة تخيِّم على حياتها، حتى باتت تفضل العزلة، والعيش الحزين بعيداً عن الناس..

وهَال الأمرُ عمرَ، خوفاً على ابنته من ان تَذويَ بين يديه، دون أنْ يفعل شيئاً، فرأى في زواجها خير السبل لمواساتها، وإبعاد اليأس والكآبة عن حياتها.. ولكنَّ السؤالَ الذي كان يحيّره: أيُّ رجلٍ يليق بابنته الغالية كي يزوجها به؟! وراودته خاطرة أعجبته، فذهب يسعى لملاقاة صديقه أبي بكر ويعرض عليه الزواج بابنته حفصة، إلَّا أنه أبدى أسفَهُ واعتذاره.. فقصد عثمان بن عفان، ولم يكن قد خطب بعدُ، يدَ ابنة رسول الله أم كلثوم، فاعتذر بدوره.. مما جعل هذا الأب الملهوف يشعر وكأنما الدنيا أطبقت عليه بذهاب أمله أن يكون أحد الرجلين زوجاً لابنته!.. ولكنَّ وضع حفصة يؤذيه في الصميم لأنه ليس أضنى على قلوب الأهل من رؤية أولادهم يعيشون في الألم، ولا يستطيعون دفع غائلته عنهم، وكان رسول الله ﷺ يرى عمر مهموماً، وعلى غير عادته مما يألفُهُ به، فدعاه إليه، يسأله عمّا به؟! فاندفع عمر يخبره بحال ابنته حفصة، ويشكو إليه صاحبَيْه، وخيبةَ أمله بهما.. فما كان من رسول الله ﷺ إلَّا أن بادره بقوله: «يتزوج حفصةَ

(١) ورد في موسوعة عظماء حول الرسول ج ١ ص١٢٩ أن زوجها اسمه الخنيس بن حذافة السهمي الذي شهد بدراً وأحداً ومات بعد أحد.
كما ورد في نفس الكتاب ص٦٦٣ أنها كانت عند حصن بن حذافة الذي شهد بدراً ومات في المدينة، والأرجح ما كتبناه.

من هو خيرٌ من أبي بكر وعثمان، ويتزوج عثمانُ من هي خيرٌ من حفصة». وينجذب عمر لقول رسول الله ﷺ وتشرق في خاطره الآمال، فيقول لرسول الله ﷺ بلهفة: إنه لشرف عظيم يا رسول الله، وما كنت أحسب أنَّ الله سبحانه وتعالى ينعم عليّ بهذا الفضل الكبير.

ويتم زواج الرسول ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب، وتهنأ المدينة بالزواج الميمون، وهي تبارك وتمتدح عمل الرسول الأعظم الذي أراده ﷺ مواساةً لصاحبة قلبٍ كسير، هو قلب تلك الصبية حفصة التي أوقعها استشهادُ زوجها في اليأس، فامتدت يدٌ مباركة تنتشل الصبية من مصابها، وترفعها إلى أكرم الدرجات، لتصير أمّاً للمؤمنين.

ذلك هو العمل الإنساني في أحسن صوره وأسمى مراتبه، وليس غير محمد بن عبد اللّه، الرسول الأعظم ﷺ من يصنع هذا العمل ومثلَه من الأعمال المجيدة...

ذلك أن مضامين الانسانية ومعانيها الشمولية وما تبعث من الغايات الجليلة، كانت رائداً لـ«محمد» الإنسان، فما افترق يوماً عن إنسانيته الكاملة في سلوكٍ سلكه، أو فعلٍ قام به، أو كلمةٍ قالها.. فهو كما تدل عليه سيرةُ حياته كلها، ما كانَ يتوخَّى إلَّا الخيرَ للناس، إن على المستوى الفردي، أو على الصعيد الجماعي. ومن هنا كان زواجه بالعجوز أو الصبية، لا يريد به إلَّا أن يردَّ غائلة الوحدة، أو أن يشدَّ أواصر اللحمة، أو أن يرسي قاعدة للوفاء، أو أي هدفٍ آخر يمكن أن يخدم الدعوة الإسلامية ، أو النزعة الإنسانية .. ولا يمكن لنا، نحن الناس أن ندرك آفاق الفكر المحمدي، فهو نسيج وحده.. كما لا يمكن لقدراتنا الفكرية، مهما بلغت، أن تصل إلى منتهى المقاصد المحمدية..

البحث الثالث



وهكذا وفيما كانت المدينة المنورة تشهد الأعراس والأفراح، عابقةً بشذى النصر، مفعمةً بأصداء الإيمان.. وما إن حلَّ شهر شوال ـ من السنة الثالثة للهجرة ـ حتى وصلت من مكة أخبار تدعو إلى القلق، فتنشر الضباب في الأجواء، وتدعو إلى اتخاذ الحيطة والحذر..

استعدادات قريش للقتال:

ذلك أن قريشاً كانت قد وطَّدت العزم على حرب شاملة ضد «محمد» والمسلمين لتأخذ بثأرها، وتشفي غليل حقدها. وكان عكرمة ابن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبي ربيعة قد عمدوا إلى احتجاز العير التي نجا بها أبو سفيان، وكانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: «يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك فيه ثأراً؛ فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعيرٍ، ولا يقل ثمنها عن خمسين ألف دينار» [1] وفي ذلك أنزل الله تعالى :

(١) الرحيق المختوم، ص ٢٢٤

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾[1]. . وبتلك الأموال الوفيرة، ومما جمع من تبرعات وهبات، قامت قريش بتجهيز الجيش بهدف الانتقام لقتلى بدر، بكل أنواع الأسلحة والعتاد التي استطاعت أن تؤمّنها. . حتى إذا استدار العامُ كان قد اجتمع من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش، وحلفائها من أهل تهامة وكنانة، ومن الأحابيش أمثال بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة. . إذ كانت قريش قد شرعتْ عامَها ترسل إلى قبائل العرب، تحرضها على قتال المسلمين؛ فبعث صفوان بن أمية ـ في جملة الوفود ـ أبا عزّة الشاعر الذي كان قد أسر في بدر، وأعتقَهُ رسولُ الله ﷺ من أجل بناته اللواتي لا معين لهنَّ غيره، وهو يعاهده ألَّا يُظاهر عليه أحداً ويكثِّر عليه جمعاً. . وقد منَّ عليه الرسول الكريمُ بحريته من غير فداء بعدما أخذ عليه الميثاق. وها هو الآن ينكُثُ العهدَ وينقضُ الميثاق، فيكون أوَّل رُسُل قريش إلى القبائل، وإلى كنانة وتهامة خاصة، يدعو بأشعاره للاستعداد لمقاتلة «محمد»، والقضاء عليه وعلى جماعته.

فهل بعدَ فعلةِ هذا الرجل الكاذب، الماكر، من خيانة أقوى للعهد، أو تنكُّر أشدّ لصُنع الجميل؟!. . .

وكأني بالتاريخ قد أراد أن يحفظ في هوامش صفحاته ذكرَ أبي عزّة الشاعر، ليكون رمزاً للغادرين والسفهاء الذين يعادون الخيرَ وأهله، ويناصرون الشرَّ وفاعليه، فيتخذون الخيانة طريقاً، والباطل مأرباً!. .

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

وغدت قريش على عتبة الحرب. . فلما دقت ساعةُ النفير كانت النساء قد أتممن ـ بدورهنَّ ـ الاستعداد للخروج مع الغزاة، فوقع الجدال بين مؤيد لهذا الخروج ومعارض له ولكل دوافعه وحججه. .

وكاد تضارب الآراء أن يَشُقَّ وحدة الصف، لولا أن هاجت هندٌ بنتُ عتبة، زوجُ أبي سفيان بن حرب، التي كانت تتزعَّمُ حملةَ خروج النساء، وراحت تعنّف المعارضين وهي تقول: «لقد سلمتم يوم بدر فرجعتم إلى نسائكم! والله لنَخرج فنشهد القتال، ولا يردُّنا أحدكم كما رُدّت الفتيات في سفرهنَّ إلى بدر، فقتلت الأحبة، ولم يكن معهم من يُحرِّضَنَّهُم». .

أما دافع هند، فكان حقدها على «محمدٍ» وعمه حمزة، الذي أجّج في أحشائها ناراً ظل يتلهَّبُ لظاها منذ مقتل أبيها وأخيها يوم بدر، حتى صار حقدها بمثابة الوحش الذي يَفْغَرُ فاهُ يريد أن يمزِّقها إنْ لم تشارك بنفسها في القتال، وتثأر من عدوَّيْها اللدودين، فتروي الغلّ الذي صبرت على آلامه، ويلتئم في قلبها الجرح الذي تحملت نزفه.

لا! لن تفوِّت هندٌ بنت عتبة على نفسها منظرَ الدماء تسيل، وهي وحدها كفيلة بأن تردَّ إليها رونق الحياة!. . فهل تقنع إذن بعدم الخروج؟!.

وتصايحت نساءُ قريش من خلفها، يُرِدْنَ ثأراً لقتلاهنَّ. فلم يَر القوم إلَّا النزول على تلك الرغبة الجامحة، والانصياع لتلك الإرادة العاتية من نسائهنَّ.

وكان قائد الحملة أبو سفيان بن حرب أكثرَ القوم وأشدَّهم

حرصاً على بث الروح القتالية. فجاء بني عبد الدار، وكان اللواء لهم، يقول متهكّماً، متوعداً: «يا بني عبد الدار! وُلِّيتم اللواء يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناسُ من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا. فإمّا أن تكفونا لواءنا، وإما أن تُخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه».

وهمّوا به، وأرادوا القضاء عليه، لولا حراجة الموقف والتهيئة للمسير. وأبعدوه، وهم يقولون: «نحن لن نسلم لواءنا لأحد، ستعلم غداً يا أبا سفيان يوم اللقاء كيف تكون صناعتنا في الحرب».

وتوزع الجيش في ألوية ثلاثة عُقدت في دار الندوة. فكان على اللواء الأكبر منها طلحة بن أبي طلحة، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عِكرمة بن أبي جهل. أما الرجّالة فقد وضع على رأسهم صفوان بن أمية، وعلى رماة النبال عبد الله بن أبي ربيعة..

ولقد توفرت لهذا الجيش، بالإضافة إلى ضخامة عدده، كثرةُ سلاحه وعُدّته، فكان معه سبعمائةٍ من الدروع الصلبة الواقية، يلبسها سبعُمائةٍ من الدارعين، ويتمنطق مثلُ عددهم بالزَّرد العريض.. وقد أمكنهم جمع مئتي فرس وثلاثة آلاف بعير يركبونها ويحملون عليها الأسلحة والذخيرة والأمتعة. وكان يقوم على خدمة هذا الجيش وقضاء حوائجه جمعٌ من الغلمان والعبيد. وكان بعض هؤلاء قد أوكل إليهم القيام بأدوارٍ خاصةٍ وهامة، كما هو الحال مع عبدٍ حبشي يُدعى وحشي بن حرب، مولى جبير بن المطعم، الذي عَهِدَ إليه بأنْ يترصّد أثناء المعركة حمزة بن عبد المطلب ويقتله ثأراً لعمه في بدر (طعيمة بن عدي بن المطعَم). وقد تلاقى هوى هذا الرجل مع هوى هند بنت عتبة فأغدقا الوعود على ذلك العبد النتن، وهما يمنّيانه

بالحرية والمال، ويحرضانه بالقول: إن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب، فأنت عتيق.

ووافق ذلك العبد الرخيص على مكيدة الغدر التي أوكلت إليه، مقابل الحرية والمال؛ وبئس الحرية، التي تُشرى بقتل الأحرار أمثال حمزة بن عبد المطلب، حامي لواء الحق، وناصر الدين، الذي أنزله الله (تعالى) ليحرِّر الإنسان من كافة أشكال العبودية الأرضية، فلا يكون عبداً إلَّا لخالقه وحده.. وشتّان بين عبودية العبد لربه وهي جوهر الحرية، وبين استعباد الناس بعضهم بعضاً، الذي جعله المستعبِدون نظاماً ظاهراً أو خفياً، للتعدّي على حقوق الإنسان وهدر كرامته واستلاب أتعابه.. بل وبئس الحرية التي أرادَ مقايضتها ذلك العبدُ، وحشيُّ بن حرب ـ كما يدل عليه اسمه ـ بالغدر والدم..

ولكن هل يدرك عبدٌ مثلُ وحشيٍّ ذلك؟

أمَا كان قميناً[1] به أن يرفض عبوديته، كما فعل الكثيرون من الموالي والعبيد، التي يستغلّه بها من هم على شاكلته من عبّاد الأصنام، وينضوي تحت لواء الإيمان، الذي ينادي به محمد ﷺ لتحرير الإنسان، فيكون حينئذٍ قد أعتق نفسه حقاً، بدل أن يكون قاتلًا مجرماً ليدفع ثمن هذا الانعتاق؟!..

ومثل وحشيٍّ كان في جيش المشركين مَنْ وتَرَهُمُ الحقدُ على رسول الله ﷺ، فانزلقوا إلى الهاوية، ينضَوُون تحت إمرةِ قريش في ذلك الزحف الجهنمي، فكانوا عبيداً لأنفسهم الأمَّارة بالسوء، بل عبيداً للشيطان.. ومن أبرز هؤلاء كان أبو عامر ـ واسمه عبد عمرو

---

(١) قميناً: جديراً.

ابن صيفي ـ من الأوس، فقد كان يدّعي الترهّب، ويكثر من الحديث عن ظهور نبي قَرُبَ زمانُه، يعرفه بصفاته، وسيكون أول المؤمنين به وبالدَّعوة التي يحملها.. ولكن، ما إن جاء رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، ورأى أبو عامر الناسَ يلتفون من حوله، حتى أنكر نبوَّتَهُ وأضمَرَ له البغضاء والعداء، لأن زعامته في الأوس ـ التي كان يوهم بها نفسه ـ لا بدَّ من أن تذبل، وتنذر بالأفول.

ولذلك لم يقدر ابن صيفي، أن يتحمَّل وجودَ «محمد» في المدينة، وإرساءَه قواعد المجتمع الجديد النظيف، فارتحل عنها معانداً، كافراً، بعدما أغوى قرابة خمسين شاباً من الأوس وغلمانهم للالتحاق به، والخروج معه.

وذهب ابن صيفي، بعد بدرٍ إلى أشد الناس حقداً على محمد بن عبد اللّه، وأكثرهم عداوة له، وهم شياطين قريش.. وقد أمكنه أن يوهمهم بأنه قادر على أن يلعب دوراً هاماً في قتالهم النبي ﷺ، نظراً لمكانته في بني قومه، ويكفيه يومَ المعركة ـ كما كان يعدهم ـ أن يسمعهم صوته كي يبعدهم عن «محمد»، فيميلون إليه... .

وصدَّقت قريشٌ أقاويله وادعاءاته، وهي تمنّي النفس بأن يقدر هذا الرجل على انتزاع بني قومه الأوس من صفوف المسلمين، فيكون ذلك من أكبر العوامل على تمزيق وحدتهم، وإلحاق الهزيمة بهم..

وفي أوائل شهر شوال ـ لستّ خَلَوْن منه ـ سارت قريش وهي تريد غزو المدينة والقضاء على المسلمين. وخطتها لذلك مفاجأة المسلمين في عقر دارهم، وإنزال الهزيمة بهم بأسرع ما يمكن.. بل ولقد حسبت أنه إن أخفق عنصر المباغتة معها، فإن التخذيل، وإشاعة التفرقة بين المسلمين هو البديل. وإنها لتعتمد في ذلك على عامر بن

صيفي، وعلى أمثاله من أعداء «محمد»، ولا سيما المنافقين في المدينة الذين يتظاهرون بالإسلام. وكانت خطتها ترتكز، قبل كل شيء، على قتل النبيّ ﷺ وكبار الصحابة من المهاجرين، ثُمَّ الانقضاض على كامل جيش المسلمين والفتك به. وبذلك تحقق النصر الذي تحلم به، وتتخلّص من ألدّ أعدائها الذين أقضّوا مضاجعها!..

ولقد كان القرشيون يحرصون ـ منذ البداية ـ على ألَّا يعلمَ بخططهم المسلمون القلائل في مكة، وأن يعمّوا على بني هاشم بالذات في كل ما يفعلون.. ولكن يبدو أن تلك السريَّةَ التي أرادوها، كانت ضرباً من الخيال والتصوّر فقط، فقد كان العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله ﷺ يقف على كل ما يدور في مكة، ويعرف كل ما يأتمرون به ويقررونه. ولقد رفض أن يماشيهم في استعدادهم للقتال، بل وأبى السير معهم، وبقيَ في مكة، دون أن يجرؤ أحدٌ على مساءلته عن موقفه. إذ كانت له عبرة من خروجه معهم يوم بدر، فحلف ألَّا يسايرَ هؤلاء المشركين على أمرٍ يناهضون به الإسلام. وأبدى من الجفاء ما جعلهم ينقمون عليه، ويتركون محاسبته لما بعد «النصر» على ابن أخيه.. ولذلك كان يرقب كل ما يقومون به حتى تحين الساعة التي يردُّ بها لقريش الكيل!. وهكذا فإنه ما إن بدأ جيش المشركين في خروجه حتى دفع العباسُ بكتاب إلى رجل من بني غفار ليسلِّمه إلى النبيّ ﷺ مؤكداً عليه كتمان الأمر، والإسراع في الوصول إلى المدينة خلال أيام قليلة[1]. فانطلق رسول العباس على

(١) تاريخ الخميس، ج ١ ص ٤٣٠؛ حياة محمد، هيكل، ص ٢٥٥.

جناح السرعة حتى أدرك النبيّ ﷺ في مسجد قباء، فأعطاه الكتاب، وأخبره عمَّا خرجت به قريش من جيش لجب، ومن عدة وعتاد. وبذلك تأكَّدت له الأنباء التي كانت تأتيه من العيون الذين بثَّهم في كافة الجوانب والأنحاء، ما بين مكة والمدينة، فذهب من توِّه إلى بيت سعد بن الربيع يعرض عليه كتابَ العباس ـ لأنه كان يكتب في الجاهلية، وكانت الكتابة في العرب قليلة[1] ـ فقال سعد: والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير!.

وخرج النبي ﷺ وهو يوصي سعداً بالكتمان، فلمَّا كان الفجرُ وصلَّى ـ كعادته ـ بالصحابة في المسجد، جمعهم من حوله وعرض عليهم أمر خروج قريش في جيش لجب، وهي تريد غزو المدينة، وبعد أن توضَّحت لهم الصورة، أمَرَهُمُ النبيُّ ﷺ بالاستعداد فوراً لمواجهة شتى الاحتمالات، لأن الوقت قصير، وموعد وصول العدوّ قد بات وشيكاً، ثم بعث مَن يترصَّدُ الجيش الغازي ويستطلع المكان الذي وصل إليه، فلم يلبث هؤلاء الفتية إلَّا أَنْ عادوا يخبرون رسول الله ﷺ بأن قريشاً قد نزلت ببطن الوادي في أُحد!.. مما يعني أن العدو قد بات على أبواب المدينة، ولا يفصله عنه أكثر من خمسة أميال. ولذا فإن الخطر قد حلَّ، ويمكن أن يكون الهجوم بين ساعة وأخرى..

وكان وصول قريش إلى أُحد يوم الأربعاء في الثاني عشر من شهر شوال (سنة ثلاث للهجرة)، فنزلوا بعَيْنين، على جبل ببطن السَّبْخة من قناةٍ على شفير الوادي الذي يقع شمالي المدينة[2]، فركنت، بعدما

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص٨٨٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٦٦؛ الرحيق المختوم، ص٢٢٦.

حطت الرحال، إلى الراحة والنوم من وعثاء السفر.. وهذا تدبير من الله سبحانه وتعالى إذ قد أرهق جيش الكافرين، فلم يباغت المدينة بهجوم مفاجئ كما جرت له الاستعدادات، فآثروا النوم تلك الليلة، ليكون من مطلع صباحها الهجوم الساحق!.. هذا في الوقت الذي ظلت عيون المسلمين ساهرة، خوفاً من هجوم غادر قد يفاجئهم به عدوهم، فقام بعض الفرسان يحرسون المسجد خوفاً على رسول الله ﷺ، بينما انتشر الباقون يضربون حول المدينة طوقاً لردِّ العادين.

ولم تلاحظ جواسيس قريش في اليوم التالي، دبيب الرجال، وحسيس السلاح في المدينة، أو تلك الحركة التي تدلّ على أن أهلها ينشطون للقتال، فأدرَكَ أبو سفيان بن حرب ما وراء ذلك، فقال:

ـ أحلف بالله أنهم جاؤوا «محمداً» فأخبروه بمسيرنا وحذَّروه، وهم الآن يلزمون حصونهم، ولن نصيب منهم شيئاً.

فقال صفوان بن أمية:

ـ إن لم يخرجوا إلينا في فضاء الصحراء عمَدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، وتركناهم ولا أموال لهم، فلا يجتنون أبداً. وإن أصحروا لنا (واجهونا في الصحراء) فعددُنا أكثرُ من عددهم، وسلاحُنا أفتكُ وأوفرُ من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل لهم، ونحن نقاتل على وتر (ثأر) عندهم، ولا وتْر لهم عندنا.

قرار المسلمين بالقتال خارج المدينة

أما رسول الله ﷺ فعاد وجمع أصحابَهُ ليشاورهم في الأمر ويقرروا كيف يلقون عدوَّ الله وعدوّهم. فقال (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام): أشيروا عليَّ!..

وأول من بدأ عبد اللّه بن أبيّ بن أبي سلول، فرأى التحصُّن في المدينة، وعدم الخروج منها لمواجهة غزو قريش، فقال:

يا رسول الله، لقد كنا ونحن في الجاهلية نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي (الحصون)، ونجعل معهم الحجارة. ونَشْبِك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية. وترمي المرأة والصبي بالحجارة من فوق الصياصي والآطام، بينما نقاتل العدو بأسيافنا في السكك. وإنّ مدينتنا عذراء ما فُضَّت علينا قطُّ، فأقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطّ إلَّا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه. فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا[1]. اسمع لي في هذا الأمر يا رسول الله، فإني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم، وقد كانوا أهل رأي وتجربة.

ورأى الصحابةُ، شيوخُ السنِّ من المهاجرين والأنصار الرأي ذاته، أي المكوث في المدينة والدفاع عنها من فوق الآطام، فإن دخلوها عليهم، كان القتال في الأزقة، وأهلها أعلم بها من المعتدين.

ولكنَّ حميَّة الشباب أبت على الذين لم يشهدوا بدراً ـ بل وأولئك الذين ذاقوا حلاوة بدر ـ إلَّا الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل، فقالوا لرسول الله ﷺ وهم يرغبون في الشهادة: اخرج بنا يا رسول الله إلى أعدائنا، لا يرون أنّا جبُنّا عنهم وضعفنا.

وأيَّدَ رجالٌ، من أهل النية الحسنة، الخالصة لوجه الله تعالى، رأي الشباب فقالوا: إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوُّنا أنّا كرِهنا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٦٧.

الخروج إليه جُبْناً عن لقائه، فتكون له جرأة علينا. وقد كنتَ يوم بدر في ثلاثمائة فظفَرك الله على عدوك، ونحن اليوم بشرٌ كثيرٌ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به، فقد ساقَهُ إلينا في ساحتنا.

وكان مالك بن سنان مِمَّنْ يحبّذون الخروج فقال: يا رسول الله، نحن بين إحدى الحسنيين: إمّا أن يظفرنا الله تعالى بهم، وهذا الذي نريد، وإما أن يرزقنا الشهادة، والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان، إنَّ كلاًّ لفيه خير.

قال حمزة بن عبد المطلب ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم بعد اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي هذا خارجاً من المدينة.

وقال النعمان بن مالك، معقباً على حماسة حمزة: يا رسول الله! لمَ تحرمنا الجنة؟ فوالله الذي لا إلَهَ إلا هو لأدخلنَّها..

وهزَّ حديث الاستشهاد هذا رسول الله ﷺ، فسأل النعمان: وبم؟

فقال النعمان: إني امرؤ أحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ، ولا أفرُّ يومَ الزحف.

فقال إياس بن أوس: إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا «محمداً» في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه مجرِّئة لقريش. وها هم أولاء قد وطأوا سقفنا، فإذا لم نذُبّ عن شجرنا لم يزرع. وإن قريشا قد مكثت حولًا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها مع من تبعها من أحابيشها، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا. أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يُكْلَموا؟ لئن فعلنا لازدادوا جرأةً،

ولَشنُّوا الغارات علينا، وأصابوا من أطرافنا، ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا، ثم لَقطعوا الطريق علينا.

وقال خيْثَمةُ أبو سعد بن خيْثَمة: عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعةُ بدر وكنت عليها حريصاً حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت بابني في الخروج، فخرج سهمه فرُزق الشهادة. وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو في أحسن صورة، يرتع في جنان الخلد، ويهنأ بنعيم السعادة الخالدة، وهو يقول: إلحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فادعُ الله، يا رسولَ الله، أن يرزقني الشهادة لأكون مع ولدي سعد في الجنة، فوالله لقد أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته. وقد كبرت سنّي، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربِّي.

ورأى رسول الله إجماعَ الغالبية على الخروج، وهم يرومون الشهادة، فهل يحول بينهم وبين حق يطلبونه، وعزّة يرتجونها ما بعدها عزّة؟..

إنه كان لا يحبّذ هذا الخروج، ويفضّل الدفاعَ عن المدينة من داخلها، ولكنَّ كثرة المؤمنين كانت ترنو إلى ملاقاة العدو حيث نزل. ولذلك ترك اتخاذ القرار النهائي إلى اليوم التالي، وبعث بعض الفتية يرقبون تحركات جيش قريش، فجاءه الخبر بأن خيول قريش قاربت المدينة وهي ترعى الزروع المحيطة بها، فأشار بالبقاء على التأهب للقتال.

وانقضت تلك الليلة كسابقتها، وأصبح يوم الجمعة، وما زال المسلمون في حالة تأهُّب، حتى كان الظهر فصلى بهم رسول الله ﷺ ووعظهم، وأمرهم بالجد والجهاد، وأن لهم النصر ما صبروا، فأيقن الذين أرادوا الخروج أن الرسول ﷺ عازم عليه، وظلَّ الذين يمانعون

فيه على موقفهم من كراهيته ومعارضته، لاسيما وأن الرسول ﷺ يكرهه أيضاً .

فلما كان العصر، صلّاه رسول الله ﷺ، ثم دخل بيته بعدما ترك الناس وراءه يتحاورون، وكلٌّ فريق ما يزال مصرّاً على رأيه. ويظهر ذلك في ما أبداه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ـ وهما من المشيرين بالتحصّن بالمدينة ـ لمؤيدي الخروج بالقول: لقد قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، وهو كارهٌ له، إنه يتلقى الأمر من ربه تبارك وتعالى ينزل إليه، فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه.

وما زالوا كذلك حتى خرج عليهم رسول الله ﷺ من بيته وهو يلبس درعه ويتقلّد سيفه، فأيقنوا عندئذٍ أنه قرّرَ الذهابَ لملاقاة العدو، فأقبل عليه الذين كانوا يلحُّون في الخروج، وقالوا: «يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعُد صلّى الله عليك»[1].

فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لَأْمَتَهُ (درعه) أن يضعها حتى يقاتل، أو يحكمَ الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما آمركم به فاتبعوه، والنصر لكم إن شاء الله ما صبرتم»[2]. ثم دعا الرسول العظيمُ الناس إليه، فأمّرَ على المدينة ابن أم مكتوم يصلي بالناس، وأمر أن يرفع النساء والأولاد فوق الحصون والآطام. حتى إذا فرغ من إعداد الجو الداخلي وتأهيله، عاد إلى الجيش يرتِّب أوضاعه وفق تنظيم دقيق، فجعله في ألويةٍ ثلاثةٍ: عهد إلى أسيد بن حُضير بلواء

---

(١) تاريخ الخميس، ج ١ ص٤٢١ و٤٢٢؛ البداية والنهاية، ج٤ ص١٢ و١٣.

(٢) المصدران السابقان، والسيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٦٨.

الأوس، وإلى الحباب بن المنذر بلواء الخزرج، وإلى مصعب بن عمير بلواء المهاجرين. . . ثم لمَّا فرغ من هذا الإعداد، اعتلى ظهر فرسه، وخطب في الجيش، يبث فيه روح التضحية والفداء، ويبيِّن عظمة الجهاد في سبيل الله تعالى، وسُمُوَّ البسالة من أجل إعلاء الحق، ويذكِّرهم بضرورة الحفاظ على النظام، والتقيّد بقواعد التنظيم، والالتزام بالأوامر، لكي يكون الجيش قادراً على مواجهة العدوّ العاتي الذي جاء لغزوهم، والذي يفوقهم عدةً وعدداً، ويفوِّت عليه المأرب الذي استعدَّ له خلال عام كامل، فيعيده إلى مكة أشتاتاً مبعثرة.

ولقد أفاض رسول الله ﷺ في التحدث والتشجيع، وشدِّ العزائم وشحذِ الهمم، وأبان كل ما يجب على جيش المسلمين القيام به. حتى إذا فرغ من ذلك كله، وأعلَمَ وبلّغ، دعا بالمسير على بركة الله تعالى.

وسار الجيش الإسلامي، وقوامه ألف مقاتل[1]، جلُّهم من المشاة، ولا يزيد عدد الدارعين فيهم على مائة، وتقدمهم السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، يعدوان في الطليعة، للاستكشاف. .

وكما في الخروج إلى بدر، ولما وصلوا إلى منطقة «الشيخين» وجد الرسول ﷺ بين المقاتلين بعض الغلمان، حديثي السن، وقد خرجوا بإرادتهم لحضور القتال أو المشاركة فيه، فردَّهم إلى بيوتهم في المدينة؛ إلَّا أنَّ رافعَ بن خديج، أخا بني حارثة، أبت عليه نخوتُه العودة، فتقدم من رسول الله ﷺ يرجوه البقاء، ويبيِّن له أنه يجيد

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٦٨.

الرماية، ويريد أن يرميَ في سبيل الله (تعالى)، فأجازه الرسول ﷺ كراهية أن يردَّ هذا الفتى عن أمرٍ يريده لله سبحانه وتعالى. . .

ورأى سمرة بن جندب الفزاريُّ في بقاء رفيقه ما يُحزنه ويُبكيه فلما قيل للرسول بأنَّ سمرة يصرع رافعاً، عادَ وأجازه هو الآخر رأفةً به، لما كان عليه من الوجد والحسرة في عدم الخروج مع المقاتلين.

وحلَّ الليلُ فاختار الرسول ﷺ خمسين رجلًا بقيادة محمد بن مسلمة (الأنصاري) يدورون حول الجيش في تقدُّمه. فلما أقبل السَّحرُ صلَّى ﷺ بجنده الفجرَ، ثم ساروا حتى بلغوا بستاناً، ما بين المدينة وجبل أحد، يقال له الشَّوْط[1]، فإذا بحركة غريبة تدبُّ بين الصفوف، وذلك عندما أمر عبد اللّه بن أبيّ بن أبي سلول رجاله بالانفصال عن الجيش وكانوا يبلغون ثلاثمائة مقاتل، وهو يقول لهم: محمد عصاني وأطاع الوِلْدان. ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟، فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيب [2].

وحاول عبد الله بن عمرو بن حرام ـ والد جابر بن عبد اللّه الأنصاري، أن يثني ابن أبي سلول عن فعله، وهو يناشده ألَّا يشق عصا الجماعة، وألَّا يخذل الناس والنبيَّ، في أدق مرحلة وهم على مقربة من العدو، إلَّا أنَّ ردَّ ذلك المنافق لم يكن إلا التهكّم، وهو يقول: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، ولو أطعتَنا لرجعتَ معنا[3]؛ فقال له ـ عندئذٍ ـ عبد الله: أبعدكم اللَّهُ أعداءَ الله، فسيغني اللَّهُ عنكم نبيَّه ﷺ[4].

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ١٩١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، م ٣ ص ٦٨.
(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٦ ص ١٢٢.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٦٨.

وبالفعل فقد نفّذ ابن أبي سلول ما كان قد خطط له في الخفاء، فعاد برجاله إلى المدينة، ساخراً من المسلمين، مستهزئاً بخروجهم لقتال قريش. ومنذ ذلك اليوم بدأ نفاق ذلك الرجل بالظهور على حقيقته، كما ستكشف عنه الأيام لاحقاً، والمواقف التي سوف يقفها لإثارة الفتنة، وضرب المسلمين!..

وكان من الطبيعي ألَّا يمرّ مثل هذا الفعل الشنيع من غير أن يترك أثره في الجيش، تماماً كما كان يتوقعه ابن أبي سلول، ويعمل له في السرِّ. إذ سرعان ما ظهرت البلبلة بين صفوفه واختلَّ تنظيمه بانسحاب فئة كبيرة منه تبلغ ثلثَهُ.. وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل همَّت طائفتان بالرجوع: بنو حارثة بن البنت من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج[1]، وهما الجناحان، وأن يفعلوا مثلما فعل ابن أبيّ، لولا أن عصمهم الله سبحانه بالإيمان، فعادوا إلى لُحمة الصفّ، ووحدة المسيرة..

القتال في يوم أحـد

وتابع جيش المسلمين سيره، وعدّته سبعماية مقاتل[2]، حتى وصل إلى «أحد» وهو الجبل المعروف بكثرة مسالكه وشعابه، والأودية التي تقطعه، وبما هو عليه من شكل مميّز بحيث يبدو للناظر وكأنه يلتف حول نفسه التفافاً ليشكل مرتفعاً جغرافياً مستقلًّا عن المرتفعات الأخرى، فكانت من جراء ذلك تسميته بـ«أحد»..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١١٢؛ والرحيق المختوم، ص٢٣٠.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٧٠.

واختار رسول الله ﷺ النزول في الشِّعب من أُحُد، على عُدوة الوادي (جانبه)، بحيث يكون ظهره وعسكره إلى الجبل، وهذا الاختيار لأغراض القتال الاستراتيجية، إذ أعاد تنظيم الجيش إلى عدة فرق، ووزعها أمام الجبل حتى يكون من ورائها، ويشكل عاملًا طبيعياً لحماية الجيش بأكمله من الخلف، كما جعل خمسين[١] من الرماة الأشداء على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة ـ وعرف فيما بعد بجبل الرماة ـ جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الاسلامي[٢]، ليكون موقعاً ثابتاً لهم، لا يبرحونه حتى يأتيهم الخبر. وأوكل الإمرةَ على هؤلاء الرماة إلى عبد اللّه بن جبير أخي بني عمرو بن عوف، بحيث تكون مهمتهم الأساسية، حماية ظهور المسلمين، والحؤول دون تقدم العدو والالتفاف عليهم.

ولقد كان الرسول ﷺ يعوّل كثيراً على أولئك الرماة أثناء سير المعركة، نظراً للدور الكبير الذي عهده إليهم. ومن أجل ذلك كانت أوامره المشدَّدة بألَّا يبرحوا مكانهم على التلّ، أياً كان وضع القتال، وكيفما بدا لهم مسار المعركة، سواء بدا النصر للمسلمين، أو كان لأعدائهم.. فقال لقائدهم: «إنضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثْبُتْ مكانك لا نُؤتيَنَّ من قِبَلِكَ»[٣]، ثم قال للرماة: «أيها الرُّماة، يا جند الله احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن قد غَنِمْنَا فلا تشركونا»[٤] ثم عاد يؤكّد عليهم

(١) المصدر السابق.
(٢) الرحيق المختوم، ص٢٣١.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٧٠.
(٤) الرحيق المختوم، ص٢٣٠.

بالقول: «وإن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القومَ، ووطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[1].

كانت الخطة التي اعتمدها الرسول ﷺ حكيمة للغاية تجلّت فيها عبقريته كقائد عسكري قلَّ أن يدانيه قائد آخر، إذ اختار أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمي به ـ إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين ـ كما أنه عوَّض النقص العددي في رجاله بموقع الرماة الذي يحميهم[2]، وكلّ ذلك يثبت كفاءته ﷺ كما سوف يدل عليه سير المعركة ـ لولا مخالفة الرماة لأوامره ـ.

وبعد أن أتمَّ رسول الله ﷺ تلك التهيئة، واطمأنَّ إلى التنظيم الذي وضعه، والذي يجعل كل مقاتل يعرف دوره ومكانه، وقف قبالة الجيش، ثم جرد سيفاً باتراً ونادى:

من يأخذ هذا السيف بحقه؟

فقام أبو دجانة سماك بن خَرَشَة، ـ أخو بني ساعدة ـ فقال:

وما حقه يا رسول الله؟

قال: «أن تضرب به العدوَّ حتى ينحني»[3].

---

(١) تاريخ الخميس، ج ١ ص ٤٢٣؛ ورواه أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس (انظر الرحيق المختوم، ص٢٣١).

(٢) انظر الرحيق المختوم، ص٢٣١، ٢٣٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٧١.

قال أبو دجانة: «أنا آخذه بحقه يا رسول الله».. فأعطاه إياه[1]..

وكان أبو دجانة مشهوراً بشجاعته، وشدّته في القتال، فما إن صار السيف بين يديه، حتى عصب رأسه بعصابة حمراء، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. (وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها). وراح يتبختر في مشيته مُدلاً بقوته وبأسه. فنظر إليه الرسول العظيم وقال «إنها لَمِشيةٌ يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن»[2].

وأما جيش قريش فيبدو أنه قد ظل على تنظيمه الذي خرج به من مكة: فعلى الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى طلحة بن طلحة يحمل اللواء. ثم تقدم في السهل المنبسط أمام التل بفرسانه الأشداء، ومن معهم من المناصرين والعبيد، والنسوة حوله من جميع الجوانب، يضربن الدفوف، ويحرّضن على القتال، ويثرن الحمية..

وكانت هند بنتُ عتبة (زوجة أبي سفيان) على رأسهن، تزيدهن تحريضاً وإثارة، وهي تنشد، فيرددن معها:

وَيْـهـا بـنـي عـبـد الـدارْ ويْـهـاً حُـمـاةَ الأدبـار
ضـربـاً بـكـلِّ بـتَّـار[3]

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٧١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص٧٢.

وتقول:

نـحـنُ بـنـاتُ طـارقْ نَمشي على النمارق[1]
إنْ تُـقـبـلوا نُـعـانِـقْ ونـفـرُش الـنـمـارقْ
أو تُـدبـروا نُـفـارقْ فِـراقَ غَـيـرِ وامِـقْ[2]

ووقف الجيشان: جيش قريش اللجب، وجيش المسلمين الأقل عدداً وعدة، وجهاً لوجه!..

وراح أبو سفيان ينفذ الخطة التي اتفق المشركون عليها، وكانت ترمي أولًا إلى التخذيل بين الأنصار والمهاجرين، فرفع صوته صارخاً: يا معشر الأوس والخزرج، خلُّوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم[3].

ولكنَّ صراخه كان كعويل ذئبٍ تبدّده فيافي الصحراء، فلم يُسمَعْ له صدىً إلَّا السبَّة واللعنة، فرجع خاسئاً مذموماً.. وظهر أبو عامر[4]، ـ الذي كان قد وعد قريشاً بسحب بني قومه الأوس من صفوف المسلمين ـ، وهو يعدو على فرسه مسرعاً، حتى قارب جيش عدوِّه فصاح: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر، إليَّ إليَّ، فلا تتباطأوا..

وسقط في تحريضه هو الآخر، فما كان الرد عليه إلا التقبيح واللعن، والأوس يقولون له: فلا أنعمَ الله بك عيناً يا فاسق!.

---

(١) النمارق: الطنافس.

(٢) الوامق: المحب.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج ٢ ص ١٥١.

(٤) واسمه عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان، أحد بني ضُبيعة، كان يسمى في الجاهلية: الراهب، فسمّاه رسول الله ﷺ: الفاسق (انظر السيرة لابن هشام، ج٣ ص٧١).

وخاب ظن ذاك المخادع، وخذلته آماله الكاذبة، فولّى هارباً من حيث أتى، وهو يولول بهذيان المجنون: «لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ».

وظهر للعيان أن القتال وحدهُ باتَ سيّدَ الموقف.. فما منّت به قريشٌ النفس من هجوم مباغت على المدينة قد فشل.. وخطة التخذيل قد ذهبت أيضاً سدىً بعد أن واجَهَ الأنصارُ قائدها أبا سفيان بالسخرية والضحك عليه، مما جعله يرتَدُّ إلى جيشه، وهو يشعر وكأنَّ الأرض تميد من تحته، وتكاد تنشق لتبتلعه..

أما أبو عامر بن صيفي المتآمر على بني قومه من الأوس، فإنه لم يلقَ منهم أقلَّ مما لقيه أبو سفيان من الأنصار: لعناتٍ تُخزي صاحبها وتَخذله، ويكفيه عاراً أن يلقبه الرسول الأكرم بـ«الفاسق»، فيناديه بنو قومه بهذا اللقب المشين.

وحميت النفوس على الوغى، فاندفع عِكرمة بلوائه مبادئاً في القتال، وذلك بحركة التفاف سريعة على جناح المسلمين، فإذا النبال تنهال على فرقته مثل وابلٍ من المطر وتجبرها على الانكفاء إلى الوراء.. فانتفض خالد بن الوليد يشن هجوماً على يمين عسكر المسلمين، فارتدت خيوله على أعقابها، وكادت ترمي فرسانها من على ظهورها، لكثرة ما نزل عليها أيضاً من النبال والسهام..

وتكررت تلك الهجمات حتى رأت قريش فيها نُذُرَ شؤم، فاشتعل الحقد في قلوب أولئك المشركين، وهاج بهم الغضب، فتصوَّر البعض منهم أنهم يملكون من القوة والشجاعة، ما يجعلهم قادرين على البطش بأبطال عدوهم، إذا ما تقابلوا وإياهم واحداً لواحدٍ، فانبروا يطلبون المبارزة..

وكان أول من تقدّم للمبارزة طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار، وكان من أشجع فرسان قريش، ويسمونه «كبش الكتيبة» فاندفع إليه فارس الفوارس علي بن أبي طالب في هجمة بطولية علويّة، ليعانق هامَهُ بضربةٍ واحدةٍ من سيفه البتار، فيفلقه، فيهوي على الرمل العطش فيمتص دماءه.

وتعالت هتافات التكبير والتوحيد من المسلمين، وكان أول المكبرين رسول الله ﷺ، إذ سرَّه أنْ يرى ضربةَ الحق تفلق هامَ الباطل.

وبقي عليّ (كرَّم الله وجهه) في الساح ينتظر من يخرج إليه، فدفعت المنية عثمان بن أبي طلحة، إلى النزول لملاقاة علي، فكان حظه من الموت مثل حظ أخيه طلحة. عندها برز أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة يريد أن يقتل عليّاً بأخَويه، فاختلفا ضربتين، فنبتْ ضربةُ المشرك بينما أسقطته ضربة المؤمن على الثرى، فرُئِيَ علي ينصرف عنه، ولا يجهز عليه. ولقد سأله أصحابه ـ فيما بعد ـ عن السبب الذي حمله على ترك أبي سعد بن أبي طلحة من غير أن يقضي عليه، فقال:

«إنه استقبلني بعورته، فعطفتني عنه الرحم، وعرفت أن الله عزَّ وجلَّ قد قتله»[1].

---

(١) ورد في السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث، في هامش صفحة ٧٨ أيضاً أن عليّاً عليه السلام قد أعرض عن بسر بن أرطاة يوم صفين، بعد أن أسقطه على الثرى، فكشف بسرٌ عن عورته، فانصرف عليٌّ عنه. وكذلك فعل عمرو بن العاص يوم صفين إذ أعرض عنه عليٌّ بعد أن كشف له عمرو عن عورته.. وما تلك المكيدة إلَّا لينجو كل منهما من موت محتوم كان ذائقه لولا معرفته بخلق علي بن أبي طالب، وكراهيته أن ينظر في عورات الآخرين.. وانظر أيضاً: مغازي الواقدي، ج ١ ص ٢٢٦، وشرح نهج البلاغة للمعتزلي، ج ١٤ ص ٢٣٦ وغيرهما من المراجع حول هذا الأدب العلوي الهاشمي.

ولم ينزل أحد من المشركين بعد ذلك في مواجهة مع عليٍ المقدام، إلَّا وألحق به الموت بضرباته الْبِكْرِ التي كانت وحيدةً، فريدة، تميَّزت عن سائر ضربات الأبطال..

وأين من يجرؤ من قريش بعدها على الاقتحام، وإلقاء نفسه في أتون الغضب للحق؟ إنَّ في الساحة سيّدَ الوغى، لا يحول ولا يزول.. إنه عليٌّ يقف صامتاً، صامداً كالطود الشامخ، في تطلّعه نحو المشركين، فتنقضُّ نظراتُه عليهم لتبعث الرعبَ في قلوبهم، وكأنها تقتلعها من الصدور، فيجمدون في أماكنهم، ولا يجسرون حتى على التحديق به.

ويأخذ الحنق من كلاب بن طلحة بن أبي طلحة كل مأخذ، على ما حلَّ بأبيه وعَمَّيْه عثمان وأبي سعد فينبري إلى الميدان يريد قتل علي. ولكن هذا البطل المسلم يأنف من قتله رأفةً به مما أصابه في مصارع أهله، فيشيح بوجهه عنه، ويحيد من أمامه. إلَّا أن كلاباً، وقد أعماه الغضب، لم ينتبه إلى تلك الرحمة به، فصرخ متحدياً أبطال المسلمين، ومتهكماً على علي، فنزل إليه الزبير بن العوام وهجم عليه كالأسد الهصور فأثخنه بالجراح، ثم أهوى عليه بالضربة القاضية فلقي مصيره المحتوم، ثم حمل اللواء أخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة واندفع يريدُ القتال، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقضى عليه.

وراحت المبارزات تتعاقب، وأبطال المسلمين يصرعون كل من دنت منيته، حتى رأت قريش أن المبارزة لم تعد في صالحها، وأنها إن بقيت على تلك الحال فإنها سوف تفقد أشدَّ أبطالها وأقواهم.. عندها صرخ أبو سفيان بن حرب، قائد حملة الكفر، مهتاجاً، مسعوراً،

يدعو جيشه إلى هجوم شامل.. فاندفع الجيش المشرك في هجمة عاتية شرسة، تروم انتزاع المهج، وسلب الأنفس، ولكن أنَّى له ذلك والجيش الإسلامي يلقاه بقلوب ملؤها الإيمان، وبنفوس ذُخرها الحق، فيشتبك معه في معركة حامية، لا تُسمع فيها إلَّا قرقعات السيوف والدروع، وأصوات الضرب والطعان، ولا يُرى إلَّا هامات تهوي، وسواعد تتطاير، ورؤوسٌ تتدحرج...

وكان طبعاً في قلب المعركة أبطالُ المسلمين: علي، وحمزة، وأبو دجانة ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله.. وغيرهم ممن ضرَّستهم الحروب بأنيابها من الأنصار والمهاجرين الذين نذروا أنفسهم للذود عن دين الله، فراحوا يُنزلون بالأعداء الضربات الشديدة والطعنات القاتلة التي كان يعبّر عنها أبو دجانة، وهو يضرب يميناً وشمالاً، وينشد غير مهموم ولا متكدِّر:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحنُ بالسفح لدَى النَّخيلِ
ألَّا أقوم الدهر في الكَيُّولِ[1] ... أضربُ بأسمِ اللهِ والرسولِ[2]

وكان أسدُ الله، حمزة بن عبد المطلب، يكرّ على المشركين، ويلاحقهم من مكان إلى مكان، وهم يفرّون أمامه فرارَ النِّعاجِ من أسدٍ كاسرٍ، فلا يدرك أحدَهَم إلَّا ويطيح برأسه، ولا ينقضُّ على متكبر إلَّا ويجعل روحه تفارق جسده.

---

(١) الكيّول: مؤخرة الصف في الحرب، أي عندما يلحق بالجيش المهزوم وهو يضرب في مؤخرته.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٧٣.

وكان العبد الحبشي المأجور «وحشي بن حرب» يلاحق حمزة أثناء المعركة في كرّه ودورانه على الأعداء، دون أن يجرؤ على التقدم منه، حتى إذا تمكّن رماه بحربةٍ من بعيدٍ، فأصابته، وهوى على يدِ النذالةِ والخيانةِ في وسط المعركة، يعانق الشهادة ويخلد في جبين الدهر، سيِّدَ الشهداء، بمنطوق الوحي الإلهي على لسان رسول الله ﷺ إذ قال يوم وقف يبكيه: «سيدُ الشهداء حمزةُ بن عبد المطلب، ورجلٌ قال كلمة حقٍّ أمام سلطان جائر، فقتله»[1].

وراح المشركون يصيحون: «قتل حمزة بن عبد المطلب.. قتل حمزة..».. وهم يظنون أن فرحهم وصيحاتهم من شأنها أن تخذل المسلمين، وتفتَّ في عضدهم. ولكن أنّى لهم ذلك، وفي نفوس المسلمين قوة من الإيمان لا تزحزحها خسارة مهما كبرت، ولا يثنيها مصاب مهما عظم، حتى ولو كان مصرع «حمزة» أحد أبطالهم الميامين!.

صحيح أن حمزة بطل لا كالأبطال، وقد يعدُّ كألف من الرجال الأشداء، وفقدان أسد الله وأسد رسوله في حمأة الوغى من شأنه أن يُفقد المسلمين قوةً لا يستهان بها، وليس من السهل أن يعوّضوها في هذا الموقف الحرج، ولكن ـ وبالمقابل ـ فقد كان استشهاده دافعاً جديداً لهم في شحذ قوتهم، واندفاعهم أكثر في القتال، إلى أن مكّنهم الله (تعالى) من الظفر بعدوهم وتحقيق معجزة النصر فعلًا، قبل أن تُدرك الشمسُ كبدَ السماء.. فقد كان الضعفُ قد نال من جيش عدوِّهم، وخارت قواه، فأدرك أنه غير قادر على متابعة المعركة،

(١) كنز العمال، ج ٣، رقم ٥٥١٢.

فراحت جحافله تلوذ بالفرار وهم يطلقون لخيولهم وجمالهم العنان، تحملهم بعيداً عن ضربات المسلمين، الذين كانوا يتحدّون الموت، حتى ليظن كلُّ من يراهم أنهم يصرخون قائلين: هَلُمَّ إلينا يا منايانا، فإننا لفي سبيل الله نقاتل، وإن مات منا سيدٌ، قام سيّدٌ.

واندفع المشركون في الهرب، يخلون وراءهم المتاع والسلاح، وأرزاقاً وفيرة احتملوها من مكة. بل لقد تخلّوا عن النساء، فانطلقن هاربات حتى لا يقعن أسيرات ذليلات.. هذا في حين تابعهم المسلمون حتى أجلوهم بعيداً عن ساحة المعركة، ثم عادوا إلى الغنائم يجمعونها وكلَّ ما خلّفه أولئك الأعداء وراءهم.

وكان الرماة يرقبون ما يصيب إخوانهم من الغنائم، فقال بعضُهم لبعض: الغنيمة.. إي قوم! الغنيمة! ظهر أصحابُكم، فما تنتظرون...

ونهرهم قائدهم عبد اللّه بن جبير وهو يقول لهم: ويحكم أنسيتم ما أمركم به رسول الله ألَّا تبرحوا مكانكم؟!..

ولكنَّ الغنائم غلبت على صرخات قائدهم، فقالوا له: لنأتينَّ الناس ولنصيبنَّ من الغنيمة، فإن المشركين قد انهزموا، فما مقامنا ها هنا؟!..

واندفعوا يُخلون مراكزهم، دون أن يسمعوا لقائدهم الذي ثبت في مكانه، ومعه نفرٌ قليل، لأن أمرَ الرسول ﷺ كان عندهم فوق كل مكسبٍ أو مغنم..

ونَظَر خالد بن الوليد وراءه، فوجد أن الجبل قد خلا من الرماة إلَّا قليلًا منهم، وأن ظهور المسلمين باتت مكشوفة، وقد انشغلوا

بالغنيمة، فصاح في خيله من المشركين، وتبعه عكرمة في مجموعات من المشاة، فحملوا على من بقي في الثغرة، فقتلوهم جميعاً، ثم حملوا على المسلمين من خلفهم، يقاتلونهم، ويبدّلون نصرَهم هزيمة..

ورأى رسول الله ﷺ ما حلَّ بالمسلمين من مصيبة مفاجئة، فثبت في مكانه لا يتقدم ولا يتأخّر، بل بقي يرمي بالنبل حتى لم يبق معه شيء. فامتشق سيفَه يردُّ عن نفسه. ولكنَّ رجالًا من المشركين كانوا يتقدمون نحوه، فكسر رباعيتَهُ عتبة بن أبي وقاص وجرحه في شفته وشجَّهُ في جبهته عبد الله بن شهاب الزهري ورماه ابن قميئة الليثي بالحجارة، فأصابه في وجهه الكريم، ونشبت حلقتان من المغفر في وجنته، فلم يثنِهِ كلُّ ما أصابه عن القتال، وإلى جانبه مصعب بن عمير يذبُّ عنه، وهو يحمل الراية (راية رسول الله: العقاب)، حتى تكاثرَ العدو عليه ولم يعد قادراً على الصمود لكثرة ما نزف من دمه، فوقع على الأرض مضرَّجاً بالدم الزكي دفاعاً عن رسول الله ﷺ. وكان علي بن أبي طالب قد تنبَّهَ للأمر، فاندفع يكشف المشركين عن مصعب، وعن النبي، فأخذ الراية، ورفعها كي يراها المسلمون فلا يتفرقوا، ولا يتبدَّدُوا أشتاتاً.. ولكن هيهات أن يبقى لهم حولٌ أو تجتمع لهم قوة الآن، وقد تفرّقت صفوفهم، وتمزقت وحدتهم، فراحوا يقاتلون ـ فُرادى ـ لينجوا من براثن الموت، بعد أن كانوا لساعةٍ يقاتلون مجتمعين بأمر اللَّهِ ورسولِهِ، متراصّين، متضامنين منتصرين..

ورجع ابن قميئة بعدما قتل مصعب بن عمير ـ وهو يظن أنه قتل رسول الله ـ يصيح في قريش: إني قتلت «محمّداً».

وكان أبيّ بن خلف الجمحي من المشركين، قد لمحَ النبيَّ من

بعيدٍ، فهجم عليه مثل ذئبٍ مسعورٍ يريد أن يقتله. وهو يصرخ: يا محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ!.

وتصدّى له بعض الصحابة فأشار إليهم رسول الله أن يُخلوا بينه وبين هذا الكافر، فتناول من الحارث بن الصمّة حربَتهُ ثم استقبله فطعنه في عنقه، ولكنَّ الحديد الذي كان يلبسه قد ردّ عنه القتل، وإنْ لم يحْمِه من جرح أصابَهُ، فما إن أحسَّ به ولمس دمه، حتى ولّى هارباً لا يلوي على شيء. فلما وصل إلى أصحابه وقع عن فرسه، يخور كما يخور الثور، وهو يصيح: قتلني والله «محمد».

وظنَّ أصحابه أن التعب قد أنهكه، وأن ما يقوله عن بقاء «محمد» على قيد الحياة هو نوع من الهذيان، فاحتملوه وهم يشدون من عزمه، ويطمئنونه إلى أنّ ما أصابه ليس سوى جرح صغير لن يؤثّر عليه، فقال لهم بهَلع:

ـ لو كانت الضربة بربيعة أو مضر لقتلتهم! أليس هو من كان يقول لي: بل أنا أقتلك؟ فوالله لو بصق عليَّ لقتلني. أجل لقد كنت ألقى «محمداً» في مكة فأتوعده وأقول له: يا «محمد»، إنَّ عندي العَوْذَ، فرساً أعلفه كل يوم فَرْقاً[1] من ذرة، أقتلك عليه. فيقول: بل أنا أقتلك ـ إن شاء الله[2] ـ.

وبالفعل فإن الخوف من غضب الله ورسوله قد قتل اللعين الكافر، أبيَّ بن خلف، فمات عدو الله بـ«سَرَف»[3] وهم قافلون به

(١) الفرق: مكيال يسع اثني عشر رطلًا (انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٣، هامش ص٨٩).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٨٩.
(٣) سرف: موضع على بعد بضعة أميال من مكة.

إلى مكة، إذ انقضَّ عليه أجلُهُ ينتزع روحه، من جرحٍ بسيط أحْدثه رسولُ الله في عنقه، وما قتلَهُ جرحُهُ، ولكنه توعُّدُ محمد ﷺ له بأنه سيقتله بمشيئة الله، وهو توعُّدُ النبيّ الصادق الذي لا يمكن أن يقع على نفس كافرةٍ إلَّا ويقتلها، مهما طالت المدة أو استدار الزمن بصاحبها.

إذن كان خبر مقتل النبي ﷺ قد انتشر بين المشركين فأذهلهم، ولكنه ذهول الفرح والابتهاج! فقد زُين لقريش أنها قَدِرت بعد سنين طويلة، أن تقضي على عدوها اللدود، الذي جاء يزيل مكانتها بين العرب، ويقوّض أركان وجودها، ويهدم الآلهةَ التي ألفت الآباء والأجداد على عبادتها، فاقتدت بهم..

أما المسلمون، فقد كان وقع الخبر عليهم مميتاً.. وكيف لا، وهم يجدون أنفسهم قد فقدوا في لحظاتٍ حاميَهُم، ومحرِّرَهم، ورائدَهم في الحياة؟.. وكيف لا يزلزل هذا الخبر بهمُ الأرضَ والموتُ لا محالة ينتظرهم بعد رسول الله ﷺ؟!.. فسيطرت على غالبيتهم روح الهزيمة.. فتفرقوا في الجبل، كلٌّ يلوذ بالفرار، أو يأوي إلى ناحية يختبىء بها، إلَّا من عَصَمَ الله أمثال علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأبي دجانة، وأمِّ عمارة الأنصارية، ومالك بن سنان، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن النضر، وقتادة بن النعمان، وغيرهم ممَّن لا يزيد عددهم على ثلاثين مقاتلًا، فقد فاؤوا إلى رسول الله ﷺ واستماتوا في الدفاع عنه، استماتةً لا يُقهر صاحبُها أبداً.

فهذه أمُّ عمارة، نُسيبة بنت كعب المازنية (الأنصارية)، كانت

تجوب أرض المعركة منذ الصباح، وهي تحمل الماء، تدور به على المسلمين تسقي من استسقى. فلما انهزم المسلمون، ورأت ما حلَّ برسول الله ﷺ ألقت سقاءها واستلّت سيفاً، وراحت تقاتل دفاعاً عن رسول الله ﷺ، إلى جانب مصعب بن عمير، ببسالة نادرة، وجرأة لا توصف.. ولكنَّ الجراح التي أصابتها، وقد زادت على ثلاثة عشر، كانت قد أوهنت قواها، وجعلتها تسقط أرضاً تتخبط بنزيف دمائها الزكية، فيلقي عليها رسولُ الله ﷺ نظرة إعجابٍ وإكبار، هو يقول: «والله ما التفتُّ يميناً وشمالًا إلَّا ورأيتك تدافعين عني، بارك الله عليك يا نسيبةُ».

إنها بطولة إسلامية، لا تقابلها إلَّا تضحية إسلامية، فكما استهانت أم عمارة بالموت، وهي تدفع عن رسول الله ﷺ حتى أثخنتها الجراح، كذلك فعل أبو دجانة، الذي جعل جسمه ترساً للرسول ﷺ إذ انحنى فوقه يتلقى النبال التي تنزل عليه وهو يقول: بأبي أنت وأمي، ليتني أموت وأحيا ألف مرة يا رسول الله لأحميك من عدوِّك اللئيم..

إيهِ أبا دجانة! فما أروع التضحية التي قدَّمت، والوفاء الذي خلَّدت!..

أو يظنون أن سهامهم نالت منك؟

لا وحقِّكَ، فأنت فوق كل سهام الغدر، وفوق كل نبال الحقد!..

لقد دافعتَ عن حياة رسول الله ﷺ بتضحيتك الباهرة، فقدَّمت للحياة الإنسانية كلِّها سببَ وجودها وبقائها، ففرحت بكَ الحياةُ لتكون

أنموذجاً للتضحية، ولم تقبل أن يأخذك الموت منها، فعشت ـ على الرغم من كثرة سهام الأعداء ـ بإذن ربك تبارك وتعالى، الذي يهب الحياة لمن يشاء[1]..

وأنت يا حباب بن المنذر، ما بالك، وأين هذه الغيبة وحبيبك «محمدٌ» في خطر؟!..

إن عُذرك أيها البطل المقدام، أن كثافة المشركين من حولك قد غطت الأنظار فلم تعد تراك إلَّا وأنت تفرّق جماعاتهم، وتحوشهم كالغنم، وتدقُّ أعناقهم بسيفك، وتحمل عليهم وهم يفرون أمامك وقد أجليتهم بعيداً عن رسول الله ﷺ...

وأما أنتَ يا سهل بن حُنيف، فللَّه درُّكَ، وأنت تبايعُ يومها على الموت، وتنفَحُ عن رسول الله ﷺ وتقول: «نبِّلوا سَهْلًا، فإنَّه سَهْلٌ»..

ومثل هؤلاء الأبطال الصابرين، الذين قاتلوا دون رسول الله ﷺ، شبانٌ بواسلُ غيرهم، استجابوا لنداء رسول الله ﷺ عندما سمعوه، بعدما غشيه القوم، يقول: «من رجل يشري لنا نفسه»؟! فاندفع زياد بن السكن في خمسة نفر من الأنصار، يدافعون عن النبيّ ﷺ بكل قوة وثبات، فيُقتلون رجلًا تلو رجلٍ، ويكون زياد آخرهم، فيقاتل حتى توهنه الجراح، وتسلب منه كلَّ عزيمة، فيقع قرب نبيِّه الكريم، مستقبلًا الشهادة، فيشدُّهُ النبي ﷺ صوبه، ويوسِّده ركبتَيه الشريفتين إلى أن تفيض روحُه الطاهرة..

---

(١) فقد يظنّ، للوهلة الأولى، أنَّ أبا دجانة قد مضى من كثرة ما أصابه من النبال، ولكنَّ الله تعالى شفاه، وشهد مع رسول الله ﷺ مواقع كثيرة بعد «أحد».

وانفلت أنس بن النضر (عم أنس بن مالك)[1] من براثن الموت، فراح يبحث عن الفارين بين الشعاب، حتى يستحثهم على العودة إلى المعركة ـ وكان أنس مثال المؤمن الصادق، المخلص، الذي يفنى في عقيدته ويستميت في الدفاع عنها حتى انتهى إلى مجموعة كبيرة من المهاجرين والانصار، وقد ألقوا ما بأيديهم[2]، فتقدم منهم صارخاً: وما يجلسكم؟

قالوا: قُتل رسول الله ﷺ.

قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ[3].

ثم استقبل أنس بن النضر القومَ الكافرين حتى سقط شهيداً، فُوجد بعد المعركة وبه سبعون ضربة وطعنة، وقد مُثِّل به، وشوِّهت خلقته، واختلطت معالمه، فما عرفته إلَّا أختُهُ بواسطة خاتم ببنانه.

---

(١) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري، خادم رسول الله ﷺ وصاحبه. عن سعيد بن المسيب عن أنس، قال: أخذت أمي بيدي وانطلقت بي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لم تبقَ امرأة من الأنصار إلَّا قد أتحفتك بتحفة، وإني لا أجد ما أتحفك به إلَّا ابني هذا، فخذه فليخدمك ما بدا لك، فخدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما ضربني ضربة، وما سبّني سبّة، ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي وقد أوصاني رسول الله ﷺ فقال (يا غلام أسبغ الوضوء يزدْ في عمرك، وأفشِ السلام تكثر حسناتُك، وأكثر من قراءة القرآن تجئ يوم القيامة معي كهاتين) أي أنه ضمّ السبابة والوسطى (أنظر موسوعة عظماء حول الرسول،ج١ ص٤٦٦ و٤٦٩ و٤٧٠). وعن تمامة بن عبد الله عن أنس بن مالك أنه قال لبنِيه: يا بَنيَّ قيدوا العلم بالكتاب (الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٧ ص١١).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٨٨.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق؛ تاريخ الطبري؛ ج ٢ ص ١٩٩، الكامل لابن الأثير، ج ٢ ص ١٥٦.

إنها لأُمثولات كثيرة، وبطولات نادرة قدَّمها شهداء المسلمين يوم أحد..

ومثل هذا العطاء لمن آمن بالله ورسوله لا يجدي معه التساؤل: لمن كان النصر؟.. فهذا العطاء هو النصر بعينه يوم أحد، لأنَّ مِلْئَهُ الإخلاص، والفداءُ، وطلبُ الجنة... وهيهات بعد هذه المقاصد نصرٌ هنا، أو هزيمة هناك... إلَّا أن العبرة تبقى قائمة، فمن اقتدى بأبطال المسلمين يوم أحد وانتفح بالروحية التي ملأت كيانهم، لابدَّ من أن يحمدَهُ أهل الأرض، كما تحمده ملائكة السماء، مثلما كان حمد الملائكة لشهداء أحد....

ومن صور «أحد» الخالدة ـ أيضاً ـ ما رواه زيدٌ بن ثابت عن أبيه، قال: بعثني رسول الله ﷺ ـ بعدما سكن القتال وانصرف المشركون ـ أطلب سعدَ بن الربيع، فألفيتهُ وهو بآخر رمق، فقلت له: إنّ رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنتَ، فهو يقرئك السلام، فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، وقل له: يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الانصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم ﷺ ومنكم عينٌ تَطرِف»[1]، وفاضت روحه من وقته ـ رحمه الله ـ..

وبنفس الروح قاتل عبد اللّه بن جحش مثل إخوته الآخرين، وكانت أمنيته الوحيدة أن لا يموت إلَّا شهيداً في سبيل الله.. وها هو يلقى في «أحد» الشهادة التي وعَدَ نفسه بها، فتكون انتصاراً له على

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٠٠ و١٠١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣ ص٥٢٣ ـ ٥٢٤.

أهل الخبث والحقد، الذين لم يكفهم قتله، بل دفعتهم قلوبهم الصدئة بالقسوة إلى التمثيل به أشنع تمثيل..

وهكذا تعاقب على الشهادة يوم أحد صحابةٌ أبرارٌ، حتى بلغوا نحواً من ثلاثين، منهم من لقي وجه ربّه عندما التقى الجمعان، ومنهم من جادَ بروحه دفاعاً عن رسول الله، بعدما ضحَّى بحياته فداءً له، وكأنّي بكل واحدٍ منهم لا يودّع هذه الحياة إلَّا وهو يقول: وجهي لوجهك الفداء ونفسي لنفسك الوفاء، وعليك سلام الله غيرَ مودَّعٍ يا رسول الله.. فسلام الله عليهم في أعلى علّيين.. وإذا كانت الشهادة في سبيل الله فضلًا ورضواناً منه ـ عزَّ وعلا ـ وقد أكرم بها شهداء «أحد»، فإنَّ الفئة المؤمنة التي لم يكن قتالها دون قتال المستشهدين الأبرار، كانت هي الأخرى في عين الله (تعالى)، ولكن لم يرزقها ـ سبحانه ـ الشهادة، بل ادَّخرها لمهمات أخرى في الإسلام، أو لمواقيت أخرى تنالُ فيها الشهادة بنفوس راضية مرضية.. وهي الفئة ـ وبخاصّة ـ التي اجتمع فيها أولئك الأحرار حول رسول الله ﷺ يصدّون عنه الأعداء، ويحملونه بعيداً عن الخطر، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى، ليحفظ رسوله الكريم حتى يكمل للناس دينهم، ويتم عليهم نعمته، ويرضى لهم الإسلام ديناً.. ومن تلك البطولات التي يُفاخر بها المسلمون في «أحد» الوقفة التي وقفها النبي ﷺ نفسه ومعه عليّ بن أبي طالب، وبعض الفتيان من الأنصار، في وجه كتيبةٍ من بني كنانة، تقارب خمسين مقاتلًا، اندفعت نحو النبي ﷺ تريد قتله.. فتصدّوا لها، وفرَّقوا جمعها، وردَّها الله (تعالى) خائبةً لم تنل من رسوله الكريم.. وقد أبلى عليٌّ (رضوان الله عليه) في ذلك التصدّي بلاءً عظيماً، لا يقل عمَّا أبلاه منذ بدء المعركة، حتى قال

جبريل الأمين لرسول الله ﷺ: لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى (ويعني به علياً)[1]، فقال رسول الله ﷺ: وما يمنعُهُ وهو مني وأنا منه؟.. فقال جبريل عليه السلام: وأنا منكما.

وإذا كان أجرُ الشهداء عظيماً، ومثلَه أجرُ الأبطال الذين ذبّوا عن رسول الله ﷺ، فإن كلَّ من رمى بسهم، أو ضربَ بسيف، أو طعن برمح في «أحد» له أجرُهُ عند ربه تبارك وتعالى، لأنه إنما كان يقاتل في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله... وإنما تبقى المفاضلة الدقيقة بين الذين انقلبوا على أعقابهم وآثروا الفرار بأنفسهم، لقول الناس قتل «محمد»، وبين الذين ثبتوا في وجه العدو، وأخصّهم الشهداء، فهؤلاء أضفى اللَّهُ (تعالى) عليهم صفة الشاكرين، إذ إن ثباتهم، واستشهادهم نعمةٌ من الله، تستحق الشكر، فنزل بحقهم قرآن كريمٌ يُثيبهم فيه ربهم على شكرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[2].

وكان يوم «أحد» يوم السبت للنصف من شوّال[3]، إذْ ما كادت شمسُ ذلك اليوم تنحدر نحو المغيب، حتى هدأ أوار المعركة، وتوقف القتال، وكان التعب قد أنهك جميع المقاتلين، فلاذ كل واحد بجمعه..

---

(١) قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أنَّ ابن نجيع قال: نادى منادٍ يوم أحد:

لا سيف إلَّا ذو الفقار ولا فتى إلَّا عليّ

وقال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم/ أن رسول الله ﷺ قال لعليّ بن أبي طالب: لا يصيب المشركون منّا مثلَها حتى يفتح الله علينا (أنظر السيرة لابن هشام، ج٣، ص١٠٦).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٠٦.

وكان أول من عرف بنجاة رسول الله ﷺ، والمسلمون يجمعون شتات شملهم، كعب بن مالك تعرّف إليه من عينَيهِ اللتين كانتا تُزهران من تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا فهذا رسول الله ﷺ. فأشار إليه الرسولُ ﷺ أن يسكت لحراجة الموقف وخطورته.

ثم صار المسلمون يفيئون إلى رسول الله زرافات ووحداناً، فحرص على أن يرجع بهم إلى مراكزهم الأولى، لأن ذلك سوف يجعل الجبل من خلفهم، فيجعلون الحرب إلى جهة واحدة[1] تماماً كما هي الخطة الأولى. فلما كثر الرجال من حول النبي ـ القائد المجاهد ـ أسرع علي بن أبي طالب ﷺ إلى ماء فملأ درقته، وتقدم يغسل الدم عن وجهه الشريف ويسقيه، حتى يبلَّ ريقَه بعد الجهاد المضني، وهناك في سفح «أحد» أمر ﷺ المسلمين أن يستقرّوا، ويسكنوا ولا يجاوز أحدٌ منهم مكانه..

أما المشركون فقد غمرهم الابتهاج وعلت صفوفهم الأهازيج، وقرع الطبول، وكان أكثر ما سرَّهم خبر مقتل «محمد» وأقاربِهِ، وأكابرِ صحابته، فرأوا أن يهنأوا بما وعدَهم به «هُبَل»، وأن ينعموا بما منّت عليهم أوثانهم وأصنامهم، فأقاموا حلقة للنصر، يحتفلون به على طريقتهم في العربدة والمجون.

ثم أمروا الغِلمان والعبيد أن يأتوا بالذبائح فينحروها، وبالخمرة فيترعوا من كؤوسها، وانبرت القيان يغنين ويرقصن، بينما أقبلت النساء على رشِّ العطور، والعناق.. جذلات... إلَّا هنداً بنت عتبة

(١) تفسير القمي، ج ١ ص ١٦٦؛ البحار ج ٢ ص ٥٤.

فقد ذهبت ـ مع أمثالها من نسوة قريش ـ يُمثّلن بالقتلى من المسلمين، فيجْدعن أنوفهم ويصلمن آذانهم، ليتخذن منها قلائد وأقراطاً.. ووقفت هند، فوق هام حمزة سَيد الشهداء ـ وما تركت الأفراح إلّا بحثاً عنه ـ وهي تقهقه جذلى، سكرانةً لمرآه بدمه النازف. ثم ما لبثت أن انقضت عليه بوحشية موتورة، وأعملت السكين ـ التي حملتها خصيصاً من مكة ـ في قطع أنفه وأذنيه.. ولم تشْفِ غليلها بذلك، فأنشبت أظفارها في وجهه، ثم بقرت بطنه بالسكين، وانتزعت كبده من جوفه، وراحت تلوكه في فمها مسعورة، وهي تحاول أن تأكله، إلا أنَّ الكبد الطاهر أبى الدخول إلى جوفها النجس، واضطرها لأن تلفظه كي يستريح في العراء، حُرّاً من دَنسِ تلك الوحشة، آكِلةِ أكباد البشر..

وعاد إلى أبي سفيان بعضُ الوعي الذي كانت نشوة الخمر قد أطاحت به من رأسه، فلم يجد زوجَه هنداً بجانبه، فقال في نفسه: ما بال هذه المرأة قد بعدت عني، ألا تعلم أنني أريد أن أشفي غليلي من «محمد» وهو ملقىً على الثرى، فتكون إلى جانبي وتشاركني هذه الفرحة الكبيرة؟ ولكنه تذكَّر مقدار حقدها على حمزة بن عبد المطلب، قاتل أبيها وأخيها، وما دبّرت من أمر العبد الحبشي النجس «وحشي» للغدر به، فقال: لا شك بأن هنداً هناك، تنعم برؤية «محمد» وحمزة قتيلين في العراء!

واندفع أبو سفيان إلى أرض المعركة، وتبعه الحليسُ بن زبان أخو بني الحارث، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش، فوجد زوجَهُ هنداً مع العبد وحشي، وقد غطت الدماء يديها وفمها. فأمر العبد أن يقودها والنسوة اللواتي معها إلى المعسكر، ثم وقف على حمزة يضرب شدقه

برمحه، ويقول: ذُقْ عقق (أي ذق جزاء فعلك يا عاقّ).

وتعجب الحليس من فعلة أبي سفيان بن حرب، فقال له منكراً: وكيف تفعل هذا يا رجل، وقد نهيتَ أنتَ، يوم مررتَ بالأبواء عن نبش قبر آمنة بنت وهب؟ كما رغبتْ في ذلك زوجتُك هندٌ؟!

فقال أبو سفيان: لقد أبيت تلك الفعلة حتى لا تكون سنَّةً عند العرب.

فقال له الحليس: بل لقد حرصتَ على قبوركم من أعدائكم!.. أما قلت ذلك اليوم لمن أرادوا النبش: لا تفعلوا ذلك، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا.

ثم أردف منددا به، وكأنه يريد أن يُسمعَ صوته الناسَ كلَّهم، وهو يصرخ: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً؟![1] (أي ميتاً لا يقدر على الانتصار).

فقال له أبو سفيان: ويحك! اكتمها عنِّي فإنها كانت زلّة[2].

وعاد أبو سفيان يطوف في ميدان المعركة بحثاً عن «محمد» فلمّا لم يجده بين القتلى، بدأ الشك يساوره، ويحسّ كأنَّ فرحة النصر تنسلُّ من جانبيه.. مما يعني أن بقاء «محمد» على قيد الحياة سوف يجعل القضية أكثر تعقيداً على قريش، وقد تتخذ منحىً جديداً لا تعرف عواقبه.

وتهيأت قريش للعودة إلى مكة، ولكن أبا سفيان لم يرد المسير،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٩٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٩٩،؛ الكامل في التاريخ، ج٢ ص١٦٠؛ السيرة الحلبية، ج٢ ص٢٤٤.

ما لم يتحرَّ خبر «محمد»، فانطلق حتى أشرف على الجبل، فنادى:

«أفيكم محمدٌ؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم ابن الخطاب؟».

ونهى الرسول ﷺ أحداً أن يردّ عليه؛ فظنَّ أنهم قد هوَوا في المعركة، فعادَ يصرخ من جديد: أمّا هؤلاء، فقد كفيتموهم!

فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه، أن قال: كذبت يا عدو الله، فقد أبقى الله ما يخزيك.

وكأنما أراد أبو سفيان أن يردَّ على شتيمة عمر له، فقال مرتجزاً:

أنْعِمَتْ فِعالْ، إن الحرب سجالْ، يوم بيوم، أَعْلِ هُبَلْ[1].

فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله أعْلى وأجلّ». (أي أظهر على معبودك هبل).

فقال أبو سفيان: إنَّا لنا العزَّى، ولا عزَّى لكم..

فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله مولانا ولا مَولى لكم».

فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر.

فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: «لا سَواء! قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»[2].

قال أبو سفيان: أنشدك اللَّهَ يا عمر، أقتلنا محمداً؟

قال عمر: اللهم لا، وإنه يسمع كلامك الآن[3].

قال: أنت عندي أصدق من ابن قميئة وأبرّ (قال ابن قميئة لهم: إني قد قتلت محمداً).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٩٩.

وكأنما خاف أبو سفيان أن يتهمه المسلمون بأنه هو الذي حرَّض على التمثيل بالقتلى، فأراد أن يدفع عنه التهمة فنادى قائلًا:

إنه قد كان في قتلاكم مُثْلَة، والله ما رضيتُ، وما سخطتُ، وما نهيتُ، وما أمرت[1]. ولعلَّ في حقيقة موقف أبي سفيان من حمزة ما يكذّب مقولته هذه، كما قدمنا في إنكار الحليس بن زبان لفعلته وهو يضرب وجه حمزة رضوان الله عليه ـ برمحه! . . .

ثم صاح ابو سفيان قبل أن ينصرف: إن موعدكم بدرٌ للعام القابل. فقال رسول ﷺ: قولوا له: هو بيننا وبينكم موعدٌ.

وانطلق المشركون من أُحد، وما زالت الفرحة تعمر صفوفهم، والأغاريد تسبق حوافر خيولهم، حتى بَعُدوا بعض المسافة، والمسلمون يرقبون ذهابهم، ولكنهم لا يأمنون غدرهم وخبثهم. ولذلك بعَثَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب يرقب مسيرتهم، ويقف على وجهتهم، وقال له: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون. فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل (قادوها إلى جنوبهم) وامتطوْا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأُناجزَنَّهم»[2].

وعاد عليٌّ إلى النبيِّ ﷺ يخبره بأنَّهمُ جنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجَّهوا إلى مكة. . فاطمأن عندها ﷺ على مدينته. .

وذهب جيش الشرك وانجلى النقيع (الصراخ ـ القتال) من أجواء

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٠٠.

«أحد». . فهدأ روع المسلمين، وعادت إليهم أواصر اللُّحمة، فكان لا بد لرسول الله ﷺ أن يعظهم من غير توبيخ أو تأنيب، فطلب منهم أن يستووا وراءه صفوفاً، وأخذ يُثني على ربِّه عزَّ وجلَّ، ثم رفع يديه وناظريه إلى السماء وراحَ يدعو الله سبحانه في ابتهال جليل، وهو يقول:

«اللّٰهُمَّ لك الحمدُ كلُّه، اللّٰهُمَّ لا قابضَ لما بَسَطتَ، ولا باسطَ لما قبضتَ، ولا هادي لمن أضللتَ، ولا مضِلَّ لمن هَديتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا مانع لما أَعطيتَ، ولا مُقرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُبعِّد لما قرَّبتَ. اللّهمَّ ابسُطْ علينا من بركاتِكَ ورحمتِكَ وفَضلِكَ ورزقِكَ. اللّهمَّ إني أسألُكَ النعيمَ المقيمَ الذي لا يحولُ ولا يزولُ. اللّهمَّ إنّي أسألُكَ العونَ يومَ العلّةِ، والأمنَ يوم الخوفِ، اللّٰهم إني عائذٌ بِكَ من شرِّ ما أعطيتَنا وشرّ ما مَنَعْتَنا. اللّهُمَّ حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزيّنْهُ في قلوبِنا، وكرِّهُ إلينا الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيَانَ واجعلْنا من الراشدين. اللّهُمَّ أَحْيِنَا مُسلمِينَ وتوفَّنا مسلمينَ، وألحِقْنا بالصَّالحينَ غيرَ خَزايا ولا مَفتُونِينَ. اللّهُمَّ قاتِلِ الكَفَرَةَ الذين يُكذِّبونَ رُسُلَكَ ويصدُّونَ عن سبيلِكَ، واجعلْ عليهم رِجْزَكَ وعذابَكَ. اللّهُمَّ قاتِلِ الكَفَرَةَ من الذين أُوتوا الكتابَ، إلَهَ الحقِّ، إنَكَ سميعٌ، قريبٌ، مجيبٌ، يا ربَّ العالمين»[1].

فلما انتهى الرسول ﷺ من دعائه، ـ والمسلمون يردّدون من ورائه ـ كان الألم يعتصرهم، وكانت الغالبية الساحقة منهم تبكي، ولكنه بكاء الفرج النابع من الإيمان الذي يشد القلوب، وبكاء الندم

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في مسنده، ج٣ ص٤٢٤.

ممن خالفوا أمر نبيهم، وظهر لهم الخطأ الفادح الذي ارتكبوه، فتقدموا من النبيّ ﷺ يعتذرون، ويسألون ربَّهم المغفرة. وكان النبيُّ ﷺ لا يرد معتذراً ولا يُجافي خاطئاً، بل يطلب منهم الابتهالَ إلى الله تعالى، والثناء عليه عزَّ وجلَّ، عسى أن يرحمهم ولا يُنزل غضبه بهم.

ونزل رسول الله ﷺ يطوف في كل شبرٍ من أرض المعركة وهو يرقب بأم العين ما حلَّ بالمسلمين من نكبة، وما نزل بهم من مصاب، حتى بلغ عمَّه حمزة، فوجده قد مثّل به أشنع تمثيل، إذ زادت المثلة به عن غيره من الشهداء ببقر بطنه، ونزع كبده. ولذلك كان حزنه لمرآه شديداً. وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ، فقال ﷺ: «ما وقفت موقفاً قطُّ أغيظ إليَّ من هذا. ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وأسد رسوله»[1].

وكان عدد المستشهدين من الأنصار أربعةً وستين شهيداً، ومن المهاجرين ستة، (أحدهم حمزة). فلما رأى المسلمون ما مُثِّلَ بهم، قالوا: لئن مكَّننا الله تعالى منهم، لنفعلنَّ بهم، ولنُرْبِيَنَّ عليهم. فقال لهم ﷺ: «بل نصبر»[2]. وقد أراد بذلك تذكيرهم بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[3]، وبذلك نهى رسول الله ﷺ عن المثلة. ووقف الرسول ﷺ يوم «أحد» على سعد بن الربيع يقرئه السلام، ثم على

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ١٠١ و١٠٢.
(٢) البحار، ج ٢٠ ص ٢١ عن مجمع البيان.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

مصعب بن عمير صريعاً في برده، فنعاه لمن حوله، وقال: «لقد رأيتك بمكة، وما بها أحد أرقّ حلة منك ولا أحسن لمّة، ثم أنت أشعث الرأس في بردة».

ولما مرَّ ﷺ على عمرو بن الجموح، قال: كأني أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة..

ثم أمر أن يدفن عمرو وابن أخيه، ومولى لهم، في قبر واحد.

وقصة عمرو بن الجموح أنه كان رجلًا شديد العرج، فلما كان الخروج إلى «أُحد»، أراد بنوه الأربعة أن يحبسوه، فقالوا له: إن الله تعالى قد عذرك. فأتى رسولَ الله ﷺ، وقال: إن أبنائي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه. فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد عذرك الله تعالى، فلا جهاد عليك. وقال لبنيه: ما عليكم ألَّا تمنعوه، لعل الله (تعالى) أن يرزقه الشهادة[1] وهكذا كان.. إذ استشهد يوم «أحد»، ونعاه رسول الله ﷺ مبشراً أبناءه بدخوله الجنة، حيث لا عرج، ولا وصب..

وتدفقت نفس الرسول ﷺ بالآلام لتلك المشاهد القاسية، فلم يقدر على حبسها. بل لقد انعكست تلك الآلام مجسّدة في جراح جسده الشريف، التي عاد بعضُها ينزف، ويثور منه الوجع حتى يمنعه ﷺ من المسير، فيقف مودعاً الشهداء، ويقول: زمِّلوهم بدمائهم، فإنه ليس أحد يَكْلَمُ في الله إلَّا ويبعثه الله يوم القيامة وجرحه

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٩٦.

يدمى: اللون لون الدم، والريح ريح المسك»[1]. ثم قرأ ﷺ:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[2] ثم قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم، وزوروهم، وسلّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام»[3].

وكان طلب الرسول ﷺ إلى الصحابة أن يلفُّوا أجساد الشهداء بدمائهم وجراحهم، وأن يدفنوهم بعد أن ينظروا أكثرهم جمعاً للقرآن، فيجعلوه أمام أصحابه في القبر إذ قال: «ادفنوا الاثنين والثلاثة في قبر واحد وقدموا أكثرهم قرآناً»[4]. ثم جاؤوه بفرسه، فركب ودعا بالعودة إلى المدينة، فساروا من ورائه، بعد أن حمَل بعضُهم قتلاهم يريدون أن يدفنوهم في المدينة...

ووَصل جيش المسلمين إلى أبواب المدينة، والناس بالانتظار، فزاد تدفق العبرات من العيون تبكي الشهداء، وتعالت آهات النساء، وصراخات الأبناء تفتقد الأحبة.. ولكنَّ اللافت أنه على الرغم من الآلام التي كانت تعصف بالناس، فإن الكلَّ كان يتلهَّف لرؤية رسول الله ﷺ حيّاً ـ بيد أنه كان جريحاً، وقد اخذ منه الجهد والتعب ـ فلما رأوه هان عليهم كلُّ مصاب.. فهذه امرأة من بني دينار، نُعيَ إليها

(١) كنز العمال، ج ٤ رقم ١١٢٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٣) الموطأ، باب الجهاد، ص ٣٣؛ وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤ ص٣٧٠.

(٤) تاريخ الخميس، ج ١ ص ٤٤٢ عن أحمد؛ والترمذي؛ وأبي داود والنسائي.

زوجها وأخوها وأبوها، فقالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: هو بحمد الله كما تحبين يا أم فلان، قالت: أرونيهِ حتى أنظر إليه. فلما قربتْ منه، ورأته قالت المرأة ـ وهي أم عامر الأشهلية ـ تعبِّر عن مشاعر الثكالى والحزانى: «كل مصيبة بعدك جلَل يا رسول الله»[1]. وتقدمت نحوه أم سعد بن معاذ، فقال لها الرسول العظيم: أبشري وبشري أهليهم يا أم سعد، إن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً... فتقول أم سعد: رضينا برسول الله سالماً، وليس من يبكي عليهم بعد هذا. ولكنها عادت تسأل رسول الله ﷺ الدعاء لذوي قرباهم فقالت: «ادعُ لمن خلَّفوا يا رسول الله». فقال ﷺ: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبُر مصيبتهم، وأحسن الخَلف على من خلَّفوا».

ثم أقبلت صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ تريد حمزة (أخاها لأبيها وأمها) لأنها كانت تظنُّ أنه بين القتلى المحمولين إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ الزبير أن يدركها، فجاءها يقول لها: اهدئي يا أماه، فأبت عليه، وقالت:

«لقد بلغني أنه قد مُثِّلَ بأخي وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله»... ولكنَّ ابنها الزبير عاد يهدِّئ خاطرها، ويبدي لها بأن خاله حمزة لم يُحملْ، بل دفن مع ابن أخته عبد الله بن جحش ومصعب بن عمير في ضريحٍ واحدٍ حيث سقطوا على أرض أُحُد..

ومرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظَفَر، فسمع النواحَ والبكاء على قتلاهم، فذرفت عيناه، وقال:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ١٠٥.

«لكنَّ حمزة لا بواكيَ له»، فلما وصلَ سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير إلى دار بني الأشهل أمرا النساء أن يذهَبْنَ فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهنَّ قال: «رحم الله الأنصار، فإنَّ المواساة منهم ما عتمت لقديمة، مروهُنَّ فلينصرفن»، ونهى يومئذٍ عن النواح، وذلك لِمَا رأى من مظاهر الأسى ما ينمّ عن جاهلية يأنفها الإسلام، فقد كان بعض النساء يَشْدُدْنَ الشّعَر، ويخدشْنَ الوجوه، وَيَشْقُقْنَ الثياب، وغيرها من الأفعال المنكرة التي لا تجدي الحزانى فتيلًا، ولا تغيّر من القدر قليلًا أو كثيراً.. إلَّا أنه ﷺ لم يمنع البكاء، فكان يقول: «البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان»[1].. وبسبب تلك المظاهر أمر رسول الله ﷺ بإعادة القتلى، ودفنهم في أرض المعركة حيث صرعوا، لعلَّ في ذلك ما يخفف من غلواء المصيبة على الناس.. وكان لا بدَّ لنصح لرسول الله ﷺ أن يفعل فعله في النفوس، فاختفت المظاهر «المفجعة» وتفرّق الكل إلى بيوتهم لمداواة الجرحى، وتوفير شيء من الراحة للمحاربين. وأبى السعدان إلَّا مرافقة الرسول ﷺ إلى بيته، فنزل عن فرسه يتوكأ عليهما، ثم دعا لهما بالخير، فذهبا ـ مثل الآخرين ـ يخلدان إلى سكينة، كانا بأمسّ الحاجة إليها بعد تلك المعاناة التي أصابت جيش المسلمين.. فاندفعت نساءُ النبي ﷺ، وابنته فاطمة الزهراء، يرتمين عليه، ولسان كل واحدة يلهج بذكر الله (تعالى) وشكره على هذه النعمة، حيث عاد إليهم رسول الله ﷺ سالماً.. أما فاطمة حبيبة أبيها، فاحتضنته باكية، تمسح دموعها برأسه الشريف، وتنظف جروحه من الدم، فلَّما وجدتِ

(١) أحمد بن حنبل، ج٥ ص٣٢٥.

الدمَ لم يرقأ (بجفّ وينقطع)، أحرقت قطعةً من الحصير، وأخذت تذرُّ الرمادَ على الجروح لوقف النزيف.. وكان رسول الله ﷺ عند وصوله ناولَ ابنته فاطمة سيفَهُ، وقال لها: اغسلي عن هذا دمَهُ يا بنيَّة، فواللّه لقد صَدَقني اليوم، وناولها عليٌّ سيفَه، وقال: وهذا أيضاً، فاغسلي عنه دمه، فواللّهِ لقد صدَقني اليوم»[1].

ظلال آثار غزوة «أحد»

إن سرائر القلوب، ومكنونات الصدور لا يعلمها إلّا ربُّ العالمين.. فالإنسان قد يتصرف في الحياة إما بدافع إرادي، وإما بانفعال عاطفي تبعاً للنوازع الذاتية، والظروف الخارجية التي تؤثر فيه.. وعلى هذا فقد يصبح أحدهم أسير الظروف التي تضغط عليه، فيقف متحيّراً، متردداً لا يعرف ماذا يفعل!.. ومن حيث لا يدري يجد نفسه مندفعاً تحت تأثير هذا الظرف الضاغط للقيام بأمر، أو القبول بأمر، دون أن يستطيع تفسيراً لذلك.. ومثل هذا الانجذاب للقيام بفعل ـ أو الامتناع عن القيام بفعل ـ هو الذي يؤدي إلى ارتكاب الجرائم والمحرمات، أو غيرها مما يكرهه الإنسان بطبيعته.. ثم تأتي الصحوة، ويعود الوعي، فيجد كثيرون أن ما أقدموا عليه كان غريباً عنهم، فيحزنون.. ويندمون.. ولكن ما النفع وما حصل يكون قد حصل؟!..

وعلى هذا فإذا تتبعنا الأحداث التي سبقت «أحداً»، وما جرى أثناء المعركة ـ وهو كثير وهامّ ـ نجد أنها حملت من المعاني، وأظهرت من الأحداث، ما ينمّ عن تعدّد النوايا، وخفايا القلوب.. فمنذ أن اتَّضح للمسلمين مجيء قريش وحلفائها لغزوهم في عقر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٠٦.

دارهم، تشعَّبت بينهم الآراء، وكثرت المحاورات والمناقشات.. فكان من دعا إلى البقاء داخل بلدهم والتحصُّن فيه، حتى إذا هاجمهم العدو أوقعوا به الخسائر الفادحة، نظراً لما يتعرض له الجيش المهاجم ـ عادة ـ من أخطار أكثر من الجيش الذي يتصدّى له.. بينما كانت غالبية الآراء تؤيد الخروج وملاقاة العدو بعيداً عن المدينة، صوناً لحرمتها، وتعزيزاً أكبر للمسلمين.. ووقف الرسول ﷺ يقلّب مختلف الآراء بين الداعين للتحصّن، وبين المظاهرين على الخروج، فوجد أن كثرة العدو وتنوع سلاحه وعدّته، قد لا تجعل الخروج مأمون العاقبة، فكرهه.. بل وصرَّح بكراهيته له، إلَّا أن الأكثرية ظلَّت على حماستها، ولم تقنع برأي الأقلية.. وهنا أراد رسول الله ﷺ أن يثبت للمسلمين أن القرارات الحاسمة تعود في الأصل ـ وفي كل ما لا يتعلق بتطبيق حكم شرعي ملزم ـ إلى الأمة التي تمثلها الأكثرية... إذن، فما تقرره الأكثرية، في مثل هذه المناسبة الحربية، يجب اعتماده أياً تكن التجربة التي قد يقع بها المقاتلون، ومهما تكن النتائج التي قد تترتب على قرار الأكثرية... ولذلك ترك رسول الله ﷺ الناسَ في تحاورهم، ودخل يستعدُّ للقتال، ثم ظهر عليهم يعلن أُهْبَتَهُ للخروج.. ذلك أنه لم يكن بوسعه ﷺ أن يتردَّدَ في المواقف الحرجة، واتخاذ القرار النهائي الذي يحسم الجدل دونما أي تباطؤ، كي لا يرى الناس في مواقفه مظاهر ضعف هو بعيدٌ عنها.. وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون تفكيره إلَّا صواباً، ودأبه إلَّا حقاً، وهداه إلَّا صلاحاً.. ولذلك تراه يظهر كراهيته للخروج مبدئياً، ثم يوافق عليه، لأنه أراد أن يكون للمسلمين ـ في بداية تأسيس دولة الإسلام ـ بناء ذاتي قوي، أساسه الشورى التي تقوم على الحوار والنقاش الهادىء،

ليستقرَّ الرأي على وحدة الصف، واجتماع الكلمة، ومصلحة الجماعة.. وهذا ما يجب أن يفهمه المسلمون.. إذ ليس في الإسلام ـ في معالجة شؤون الحياة كافة ـ ما يستدعي موقفاً يمليه ظرف معين، ثم يناهضه موقف آخر في ظرف مماثل أو مشابه.. بل توجد في الإسلام أحكام وقواعد ثابتة لمواجهة الظروف المماثلة، ومعالجة المشاكل المتشابهة، في كل زمان ومكان... وفي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ما يغني من الأحكام والقواعد التي تجمع المسلمين على وحدة الكلمة حيال أي واقع، أو تجاه أي موقف.. ومع ذلك فإن الإسلام يحتاج، في كل وقت، إلى العلماء والفقهاء والمجتهدين من ذوي الاطلاع الواسع، والفكر العميق، والرؤية الصادقة، والنوايا الحسنة.. الذين يستوحون القرآن والسنة لمواجهة كل طارىء ومستجد، بما لا يخالف جوهر الدين. ومتى وجد هؤلاء المصلحون، الذين يكون نهجهم الإسلام، ورائدهم خدمة المسلمين ليس إلَّا..، فإنَّ عين الله (تعالى) ترعاهم، وتجعلهم قادرين، بعد التوكل على الله، على ولوج شتى ميادين الحياة، وإيجاد الحلول لمختلف المستجدات... وهذا ما من شأنه ـ يقيناً ـ أن يأخذ بيد المسلمين، ويد الإنسانية بأسرها، إلى الصلاح والفلاح... بل، وهذا ما تهدينا إليه سيرة الرسول الأعظم، إذ يبدو أنه أراد من الخروج ـ وقت «أحد» ـ تحقيق هدفين أساسيين:

ـ ترسيخ النظام الذي يأخذ بتعدد الآراء، ولكن من دون التأثير على وحدة الكلمة.

ـ والعمل برأي الأكثرية في المواقف الهامة التي تؤثر على مستقبل الأمة.

وإنَّ في هذين الهدفين ما يجعل «أُحُداً» تهيّئ لما هو أبعدُ منها بكثير.. إلى وحدة الكلمة ومستقبل الأمة.. بخلاف ما وصل إليه حال المسلمين من التنازع في الرأي، والتضارب في الاتجاه، وفرقة الكلمة!..

ثم تتلاحق بعد القرار بالخروج، الأحداث التي تكشف عن خفايا القلوب والنوايا، وما كان لها من تأثيرات أدت إلى النتائج التي أسفرت عن معركة «أحد»!.

فقد بَدَا جيش المسلمين وقتَ خروجه، وعدده ألف مقاتل، وكأنه جمع متلاحم، ووحدة متراصّة!. ولكن هذا الظاهر سرعان ما تبدَّدَ، إذ ما كادوا يقطعون بعض الطريق حتى تكشفت نوايا المنافقين في صفوفه، وظهرت حقيقة نفوسهم المريضة عندما أمَرَهم زعيمهم عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول بالانسحاب من الصفوف والرجوع إلى المدينة، مما أفقد الجيش الإسلامي ثلث عدده، وأثار القلق في نفوسه، لاسيما في خروجه لمواجهة ألدّ الأعداء، وأكثرهم عدداً وعدَّة في شبه الجزيرة، ولم يكن هنالك من سبب يدعو ابن أبي سلول لمثل هذا التصرف الخطير، فإن كانت ذريعته الدفاع عن المدينة «لئلا تفضَّ بكارتها» ـ وفقاً لمقولته ـ فإن تلك الذريعة تسقط عندما تُكشَفُ نواياه الخبيثة، وهي أنه كان يؤمِّل هزيمة المسلمين، وغلبة الشرك والنفاق، فيعود له الملك الذي كان يعدُّ له نفسه، وإلَّا إذا سقطت المدينة، وخربت، فإنَّ ذلك يُذهب أمله في تنصيب نفسه ملكاً فيها.. ثم إذا كانت تلك حجته، فلماذا لم يعلن ابن سلول عدم مشاركته وجماعته ـ من أهل النفاق ـ في الجيش، وعدم خروجهم معه إلا عندما وصل إلى منتصف الطريق؟! أما كان قميناً به أن يقول بصراحة: أنا لا أريد

الخروج، وها أنا وجماعتي في المدينة قاعدون؟! إلَّا إذا كانت نيته ضربَ الجيش الإسلامي، بما يملي عليه نفاقه!.. وهذا بالفعل ما كاد أن يحصل، إذ همَّت طائفتان أخريان ـ بنو حارثة وبنو سلمة ـ بالرجوع مثلما فعل ذلك المنافقُ، وطائفةُ المنافقين معه، لولا أن تدخل الوليُّ الأعلى، وأوكل إلى ملائكته أن تحول بينهما وبين اقتراف الإثم الذي وقع فيه رأس النفاق عبد الله بن أبيّ، لأن أفراد الطائفتين كانوا من المؤمنين والله تعالى هو وليُّ المؤمنين. وقد ذكر سبحانه ما كان من أمْر هاتين الطائفتين في كتابه العزيز حين حكى عن تلك المعركة. فقال عزَّ من قائل: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

لقد كاد ابن ابيّ أن يُصدِّع بنيان الجيش الإسلامي، ويقوِّض أركانه، فيعود مهزوماً قبل أن يلقى قتالًا!.. إلَّا أن الله (تعالى) قضى أن يُفوِّت عليه تحقيق مقاصده الإجرامية، فقوَّى الورعَ في نفوس المؤمنين، وعاد الجيش يتابع مسيرته للقاء العدو الظالم.. ولكنَّ قلة عدده جعلت وضعه مترجرجاً بما يشبه جيش المشركين عند خروجه إلى بدر، وتخلّف بنو زهرة، وبنو عديّ في الجحفة عنه، ورجوعهم إلى مكة...

على أَنَّ رجوع المنافقين من بين صفوف المسلمين قد يعتبر ـ ظاهرياً ـ في غير مصلحتهم، إلَّا أنه في الحقيقة كان خيراً لهم، بل ومن الأفضل أن يحصل قبل ملاقاة العدو، وإلَّا كان الشرُّ أشدَّ، والخطبُ أفدحَ فيما لو انفضَّ المنافقون من بين الصفوف إبَّان القتال،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.

لأن ذلك سوف يكون مفاجأة كبيرة للمسلمين، من شأنها أن تؤثر سلباً على كيانهم المادي والمعنوي، وتجعل العدو يستقوي عليهم، وينزل الهزيمة بهم!.. إلَّا أن شيئاً من ذلك لم يحصل.. والفضل للَّهِ وهو يتولى ـ سبحانه ـ أمر المؤمنين، فيبدِّل الفشل عزماً ثابتاً، ويخزي المنافقين فيظهر نفاقهم ويذهب كيدهم أدراج الرياح.

وتتعاقب آثارُ وقعة «أُحدٍ»، فيظهر أشدُّها تأثيراً على مسار القتال ونتائجه، مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ وهي مخالفة فادحة، كان سببها الوحيد الطمع في الغنيمة. إلَّا أنها تنمُّ أيضاً عن التنكر للجندية التي خرجوا فيها وعدم التحلي بالروح العسكرية في خوض القتال ومواجهة الأعداء.. ذلك أن إطاعة الأوامر هي جوهر النظام العسكري، والاختلال في هذا النظام يؤدي إلى فقدان كل مقوماته، وفي مقدمتها إخلاص الجندي وتضحيته في سبيل القضية التي من أجلها يدافع أو يقاتل..

من هنا فإنَّ من بديهيات الأمور في الشؤون العسكرية، ولاسيما في أوقات الحرب والقتال، أن يكون من أولى واجبات الجندي إطاعة أوامر قادته ورؤسائه.. وبالمقابل فإن مهمة القادة تكون، في الدرجة الأولى، التخطيط واعتماد أفضل الأساليب القتالية، وحسن إدارة المعركة وتوفير كل ما يتعلق بذلك من تأمين العتاد، والأدوات والوسائل التي تساعد على تحقيق النصر..

ولكن!.. أية فائدة من الخطط مهما كانت محكمة، وأي نفع للوسائل والأعتدة مهما كانت متطورة ـ بل كيف يكون للقادة سلطة ـ إذا انعدمت الطاعة بين الجنود، وتحللوا من تنفيذ الأوامر؟! ففي مثل هذه الحالة الخطيرة تكون النتيجة محسومة سلفاً، وهي الهزيمة لا محالة..

وهذا ما حصل بالضبط في معركة «أحد»، عندما خرج الرماة على خطة القائد الأعلى، وعصوا أوامر قائد كتيبتهم عبد الله بن جبير، الذي كان يلحُّ عليهم بعدم ترك مواقعهم على الجبل، والبقاء في تلك المواقع.. بل وضربوا عرض الحائط بكل ما حذَّرهم منه رسول الله ﷺ، ونبَّه إليه، وهو ألَّا يبرحوا أماكنهم حتى ولو رأوا العدو يقتل إخوانهم، ويهزم جيشهم!.. وبسبب مخالفتهم أحدثوا الثغرة التي استطاع العدو النفاذ منها، والالتفاف على الجيش ـ الذي كان منهمكاً بدوره في جمع الغنائم المادية ـ وأحال نصرهم، الذي بدأوه في أول المعركة، إلى الهزيمة التي انتهوا إليها، تلك الهزيمة التي كادت تقضي على الجيش الاسلامي برمته، وتبيده على بكرة أبيه، لولا رعاية الله (تعالى)، وثبات رسول الله ﷺ والثلة التي باعت نفسها في سبيل مرضاةِ الله، وطاعة رسوله.

ولقد كان في هذا الدرس القاسي، من دروس الجندية التي قدمتها «أحد»، ما يجعلنا ندرك بأنَّ النصر لا يكون إلَّا بأسبابه، كما أن الهزيمة لا تكون إلَّا بأسبابها.. بل وأهم من النصر والهزيمة، توحي «أحدٌ» بأنَّ من سنن الله تعالى في خلقه، أنه ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يكون مع الانسان، إلَّا إذ كان الانسان مع ربه، وأن ربَّهُ يتخلَّى عنه إن شغل نفسه بأمور عارضة من أمور الحياة الدنيا.. فالمسلمون عندما أخلصوا النية لله تعالى في بدرٍ، وقاتلوا عدوهم ـ الذي هو في الأصل عدوّ لله تعالى بضلاله وشركه، ومحاربته لدينه القويم ـ فقد نصرَهُمُ الله تعالى، وأيَّدهم بجنود من الملائكة لم يروها... بينما ها هُمُ في «أحدٍ» يُهزمون، وهزيمتهم وإن كان سببها المباشر الغنيمة ـ أي متاع الدنيا ـ إلَّا أنها في حقيقتها نوع من القصاص الربّاني، لأن فئة منهم شغلها

عرَض الدنيا، فكان لا بدَّ أن يأتيهم الدرس بليغاً بالعبر والعظات، وأهمها هذا البلاء العظيم الذي وقعوا فيه في أحد..

ولكنّ الله عزَّ وجلَّ رؤوفٌ رحيمٌ بالعباد، وبالمؤمنين خاصة، وإن زلّوا أو أخطأوا! فمن الصحيح أن المسلمين قد وقعوا في الابتلاء والتجربة المريرة يوم «أحد»، إلَّا أنهم عادوا وأدركوا الخطأ الذي ارتكبوه، فكان عفوُ الله عنهم فضلًا من فضائله السنية التي لا تحدُّ. ولذا منَّ سبحانه عليهم بالعفو بعد الابتلاء كما يبيّنه قولُهُ العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ثم تتعاقب الظلال عديدة ومتنوعة.. ولكنَّ ما يثير العجب في تلك الظلال يوم«أحد»، هو ذلك الضعف الذي سيطر على نفوس فئة كبيرة من المؤمنين، ساعة ارتداد العدو عليهم. فقد وقع التشتت في صفوفهم، وحلَّ القعود عن القتال بينهم.. بل إن اكثرهم قد فرَّ من المعركة، مولياً وجهه شطر المدينة حتى بلغَ جوارها، فأربكه فراره وأوقعه في حياء منَعَ عليه دخولها.. فهنا العجب!.. أوَ لم يكن حَرِيّاً بالمؤمنين بدل أن يَدَعوا الضعف والخوف يسيطران عليهم، أن يلجأوا إلى الله (تعالى) وينادوا: اللَّهُ أكبرُ.. وهو النداء الذي يكفل أن يعيد جمعهم، ويحيلهم كتلةً متراصة في وجه عدوهم، فيقوَوْا على تشتيت صفوفه ـ وهم قادرون على ذلك ـ لأن إعدادهم كان إعداداً صحيحاً،

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٢ .

وأوامر نبيهم كانت واضحة؟!.. وقبل ذلك، فإنهم أهل الإيمان والتقوى، وجهادهم إنما هو في سبيل الله، وهذا بخلاف عدوهم الذي يفتقر لمثل هذه المقومات العظيمة!.. نعم لقد كان حريّاً بهم، وهم الذين تلقّوا الإعداد النبوي منذ بدء الدعوة، وقبل أية معركة، ألَّا يهنوا وألَّا يضعفوا أمام العدو!.. على أنه قد يبدو مثلُ هذا الضعف أقلَّ مدعاة للعجَب من موقف آخر عندما تخلَّى أكثرهم عن رسول الله ﷺ وتركوه وحيداً، في أكثر اللحظات خطورة وأشدِّها حرجاً... فأين محبة رسول الله ﷺ في نفوس الذين راحوا يصعدون في الجبل ولا يلوون على أحد؟! وأين إيمانهم بصدقه، وبالحق الذي يدعو إليه؟.. بل أين ذلك التفاني والإخلاص اللذان كانا يدفعان بالمسلمين لحمايته ـ وحماية أنفسهم ـ يوم كانوا في أشدّ حالات ضعفهم في مكة، حيث كانوا يتخلّون عن كل شيء في سبيل إسلامهم، ويضحون بكل غال ونفيسٍ من أجل نبيِّهم؟..

فهل تغيّرت عند الهاربين تلك النفوسُ الخيرة في ساعة الشدّة، فآثروا النجاةَ حرصاً على الحياة، وتخلّوا عن النبيّ، والقائد والمحارب؟! مع أنهم يعلمون حق العلم أن أعداءه يريدونه قبل كل الناس، وقبل أي أحد آخر من المسلمين؟!.. إنه الضعف البشري قد فعل فعله في أولئك الصحابة في تلك اللحظات الحرجة، فكان أن بَدَرَ منهم ما بدر من التخلي عن الرسول الكريم ﷺ في ساعة الشدّة والابتلاء!....

ولكنْ، وإن افتقد رسولُ الله ﷺ غالبية الصحابة من حوله في تلك اللحظات، فإنه سرعان ما عوَّضت عن ذلك هجمةُ الأبطال

الأشاوس الذين اندفعوا نحوه يذبّون عنه، ويفرّقون الأعداء عنه وهم يَهبون نفوسهم للموت دونه.

أجل، لقد جاءت هذه الجماعةُ الشجاعةُ تفدي نبيَّها بالأجساد والمهج قبل أن تدافع عنه بالسلاح. ولكنها كانت قليلة أمام كثرة الأعداء، فراحت تتساقط شهيداً تلو شهيد، حتى أمكنها أن تُبعد الأعداء عن الرسول ﷺ بفضل الله ورعايته له، لأن أولئك البررة البواسل، ما كانوا ليغنوا عنه شيئاً، لو لم يكن حفظهُ بأمرٍ من الله عزَّ وجلَّ.. فمكّن لجنوده المخلصين الدفاع عنه وحمايته، والله تعالى هو خيرُ حافظٍ وهو أرحم الراحمين..

وإنَّ أبعد ما يمكن تصوُّره في مواقف الهاربين إلى الصخور في شعاب «أحد» هو عدم الاستماع لصوت رسول الله ﷺ الذي كان يدعوهم في أخراهم إلى الرجوع.. فلا يستجيبونَ، بل يمعنونَ في الهرب متخلّين عن كل ما وراءهم، تاركين كل شيء، ولا يلوون على أحد.. فسبحان الله الذي يُحصي على عباده كل صغيرة وكبيرة، فيتنزَّلُ في اولئك الهاربين قرآنٌ كريمٌ يصوّر ما كانت عليه حالتهم، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[1].

فلله ما أروعَ القرآن الكريم، وهو يرسم بكلمات معدودة مشهداً كاملًا لأولئك الفارِّين، بحيث يُظهر الصورة التي تعجُّ بحركاتهم الحسية والنفسية في آنٍ معاً!.

على أن ذلك المشهد لم يكن ـ في الواقع ـ إلَّا تعبيراً عن ضعف

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

مجموعة من الرجال، يُمثل الضعفَ البشريّ على حقيقته.. أي تلك الحالة المعنوية التي يتهافت فيها الإنسان، فيظهر في تهافته على تلك الحالة الحسيّة من الوهن والخوَر، التي تدفعه لنسيان الواجب، حتى ولو كان من أقدس الواجبات وأعظمها!..

وكما صوَّر القرآن الكريم مشهد الهرب، وكما عرض ذلك الضعف الذي حلَّ بنفوس الهاربين وتأثيره عليهم، فقد أبرز حقيقة أخرى هامة جداً، وهي أن الخطأ الذي يرتكبه الإنسان في حالة من حالات ضعفه، لا غافر له، ولا مسامح إلَّا الله سبحانه وتعالى. وهكذا يتنزَّلُ الآي الحكيم وهو يحمل عفوَ الله ـ تعالى ـ ومغفرته للذين تولّوا يوم «أحد»، بقوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

تلك هي الظلال السوداء من وقعة «أُحد» في حياة المسلمين.. ولكنها لم تكن هي الوحيدة التي حفلت بها أجواء ذلك اليوم، بل كان بجانبها ظلال أخرى مختلفة عنها أشد الاختلاف، لأنها ازدانت بالإشراق والنور، وطفحت بالشجاعة والبطولة، وفاضت بالعزَّة والكرامة، حتى جعلت نصرَ قريش يخبو أمام لمعانها البرَّاق، ووهجها الساطع...

فهذا رسول الله ﷺ يثْبتُ طوداً منيعاً، وقائداً عظيماً مهيباً في مواجهة الأعداء في تلك الساعة الرهيبة التي وجفت فيها القلوب، وتخبَّلت منها العقول. فعندما أخذت الكثرة في جيشه تتوزع أشتاتاً،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

وتتفرق هرباً من الذعر، وقف هو ﷺ يكافح ويقاتل وحيداً بتصميم وثبات، حتى أَنَّ بعضاً ممَّن كانوا يدافعون عنه، صاروا يلوذون به، ويحتمون في ظله من شدة ما يؤمنون به ملاذاً، ويأوون إلى حمى بطولاته اطمئناناً لمكانته عند ربه، شأنه في كل المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون تحت لوائه «فكان إذا لقي العدو يدعو قائلًا: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».. وكان إذا اشتدَّ البأسُ وحميَ الوطيس، وقصده العدو يُعلن عن نفسه فيقول:

أنـــا الـــنـــبـــيُّ لا كـــذب أنـا ابـن عـبـد الـمـطـلب

وكان الناس إذا اشتدَّ الحرب اتقوا به ﷺ، وكان أقربهم دائماً إلى العدو»[1]. أجل! هذا هو محمدٌ رسول الله ﷺ، القائد الحربي، والطليعة في القتال... وهذا ما يدعونا للتأمل في شخصية هذا الرسول العظيم، عندما نعلم أن الضعف سمةٌ في طبيعة الإنسان، وكثيراً ما يطير قلبه هلعاً، وترتعد فرائصه في مواجهة الخطر القاتل، بل ويضعف عزمه حتى يفقد السيطرة على نفسه فيصير لقمة سائغة لعدوه.. أما محمد ﷺ فقد ظلَّ في «أحد» رجلَ المعركة، بكل مخاطرها ومسؤولياتها، يدعو الهاربين من ورائه للعودة والثبات، ويظل وحيداً في مواجهة الأعداء، إلى أن يرسل الله (تعالى) إليه صحابةً أبراراً، ورجالًا أبطالًا يدفعون عنه شدة الخطر، ويردّون عنه غائلة القتل بإذنه تعالى!

فهل أروع وأعظم مما تجلّت به بطولة محمد ﷺ وقوة رجولته

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٩٣.

في ذلك الموقف؟!.. وإذا كان موقفه ﷺ ينضح ـ أجل ـ بالروعة والعظمة، فإنَّ حسنَ خلقِهِ الذي تجلَّى بعد انتهاء المعركة، في معاملته للمسلمين، يجعله المثلَ الأعلى في بني الإنسان ـ وعلى الزمان ـ في التسامح، والعفو والحكمة.. فقد راح يحتضن ـ بمعهوده ـ الجيش «المنهزم» باللطف، والحنان والعطف.. فلم يعنّف أحداً، ولم يوجه لوماً أو تأنيباً لأحد، ولم تبدر منه سانحة غضب أو نفور، ولم يغلظ في قول أو اتهام.. بل على عكس ذلك كله، كان يستقبل الجميع بقلب شفوق، ونفس رحيمة: يواسي الجريح ـ رغم جراحه هو ﷺ ـ ويشدُّ من عزم الضعيف، ويهوّن على المتعب.. ويعدُ الثابتين بنصرٍ قريب آتٍ بإذن الله تعالى.

لقد نظرَ رسول الله ﷺ إلى الهزيمة من منظاره النبوي السامي، فأرادها أن تكونَ عظةً بالغة للمؤمنين، يُفيدون منها في مقبل الأيام، والتعامل مع الحياة.. لا شدّةً تقضي عليهم، وتذهب بقواهم النفسية والمعنوية. صحيح أنه قد هوى في تلك المعركة شهداء أبرار أخيار، ولكنهم كانوا الشعلة التي تضيء الطريق أمام الباقين، والمثال الذي يجب أن يحتذوا به. والشهداء ـ على كل حال ـ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقد أثابهم الله تعالى رحمةً منه ومغفرة، لأنهم مضوا على العهد صادقين، وماتوا على الطاعة لله وَرسوله مخلصين.

نعم لقد عفا رسول الله ﷺ عن الذين أخطأوا وتسببوا بالهزيمة، واستغفر اللّهَ لهم، فأثنى اللّهُ عزَّ وجلَّ على موقفه الرائع، ونزل قرآن كريم بهذا الثناء الرَّباني بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ

لَهُمْ﴾[1]، واستغفار الرسول الأعظم، وبأمرٍ من ربه، ليس له معنى إلَّا الغفران والرحمة من الغفور الرحيم.

أما الصحابة الأبرار فهم، بعد الرسول الأعظم، المصابيح المتلألئة، الذين ينيرون ظلال «أحد»، ويزينون آفاقها بصدق الإيمان، وقوة العزيمة، وقد صنعوا ـ فعلًا ـ نصراً، على الرغم من مظاهر الهزيمة التي وقعت على المسلمين...

فالصحابة الأخيار والشهداء الأبرار، وغيرهم من الشجعان الأشاوس، كانت لهم مواقفُ بمثابة مناراتٍ، تبقى على الزمان مآثر مجدٍ يخلّدها التاريخ.. لقد وهبوا نفوسهم للموت في سبيل الله (تعالى)، وكانت غايتهم القصوى نيلَ رضوان ربهم، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى..

لقد كانوا، يوم «أحد»، سيوفاً لله ودروعاً للإيمان، وحصناً للإسلام، فصفَّق لهم المجد عبر الأيام.. إنهم لم ينشدوا مجداً ولا عظمة لذواتهم، بل أرادوا وجه الله ـ عزَّ وجل ـ وأيقنوا أنَّ العزَّة لله جميعاً، وما داموا كذلك ـ وطالما أن القتالَ سجالٌ ـ فلا بدَّ أن ينتصر اليوم فريقٌ، وغداً فريق آخر.. إلَّا أن النصرَ العزيز، هو في نهاية المطاف للحق.. والاسلامُ ـ دينُ الله ـ ما كان إلَّا حقّاً، فإن انهزم جندُهُ في معركة «أحد»، فإنّ النصرَ سيكون حليفهَم في مقبل الأيام..

ولئن كانت معركة «أُحد» بذاتها تجربة قاسية، وامتحاناً عسيراً ـ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

كما رآها المسلمون ـ إلَّا أنها كانت ضرورية؛ وكان يجب أن تحدث ليمحِّص الله (سبحانه) فيها السرائر، ويمزق النقاب عن مخبوء الضمائر. وبالفعل، فقد تميز أهلُ النفاق من المؤمنين، بل وتميّزت مراتب المؤمنين أنفسهم، فَعُلِمَ الذين ركلوا متاعَ الدنيا بنعالهم، ولم يعرّجوا على مطامعها، تماماً كما عُرِفَ الذين مالوا إلى الحياة الدنيا ـ ولو بعض الميل ـ فنشأ عمَّا استزلَّهم الشيطان به ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروِّعة. وكما مسَّ المشركين قرح عندما اختلفوا في الرأي، إذ تبلبلتْ صفوفهم وتفرقوا وانهزموا، كذلك مسّ المسلمين قرح عندما اختلفوا وتفرقوا وعصوْا رسول الله. والأيام دُوَلٌ بين الناس. وصدق الله العظيم بقوله تعالى:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

. . وهكذا تظهر «أُحد»، قاتمةً حيناً، ومشرقةً حيناً آخر. .

فقد أبانت للمسلمين أخطاءً ارتكبوها، تمثّلت بتلك الوقائع التي عايشوها لحظة بلحظة. . لتكون درساً وعبرة فيتلافوها في مستقبل أيامهم، ولا يقعوا بمثلها مرةً أخرى. . .

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٠ و١٤١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٦.

وقد كشفت للمؤمنين ـ أيضاً ـ ما يعلو على مصائبها، ويسمو على أحداثها، إذ شعروا بأن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم في غمرة اليأس الذي يقتل النفوس، بل مسح على أحزانهم برفق، ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع. . . ، بل وتيقَّنوا ـ بنعمة الله التي أنارت بصائرهم ـ أن شدةَ الهزيمة مهما بلغت فإنها لا يمكن أن تنال من شرف الغاية التي من أجلها يقاتلون، ولا من سموّ المبدأ الذي عنه يدافعون، بل يظل مبدأهم ـ الإسلام ـ أكملَ المبادئ، وتبقى غايتهم ـ رضوان الله تعالى ـ أشرف الغايات. وما النصر والهزيمة إلَّا عارضان من عوارض الأَيام التي يداولها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بين الناس، وسنّة من السنن التي تتفاعل بما كسب الناس:

فيومٌ علينا ويوم لنا ويوماً نُساءُ ويوماً نُسَرُّ

وإذا كان الموتُ شهادةً يُفرح أهلَ السماوات والأرض ـ على الرغم من الحزن اللاإرادي عند بني البشر لفقد الأحبة ـ فإنَّ الموت ـ على مختلف وجوهه ـ يبقى في نظر الأعداء شماتةً مثلما كانت شماتة المشركين والمنافقين في قتلى «أحد». . ولئن بلغت الجهالة بالمشركين كلَّ مبلغها، والخبث بالمنافقين كل أَوجِهِ ـ وذلك بما أظهروا من الشماتة والحقد ـ فإن الشهادة تبقى أرفع وأجلَّ عطاء يمكن أن يقدمه الإنسان ومثاله شهداءُ «أحدٍ»، وهم يذودون عن حياض الدين القويم، وسلامة النبي الكريم. . لقد تناسى المشركون والمنافقون أنهم بشَرٌ، وأن الموت سيأتيهم عاجلًا أو آجلًا. . وشتان ما بين الموت الذي كتبَهُ الله على رقاب العباد، والموت شهادةً. . . فالذين لا يدركون من الحياة إلَّا مظاهرها الحيوانية البحتة ـ أمثال المشركين والمنافقين ـ لا يرون في الموت إلَّا أنه يسلب منهم الحياة،

ويحرِمهم من تلك المتع الرخيصة التي يعيشون لأجلها!... أما الموت شهادةً فهو الحياة بعينها، لأن الشهداء لا يموتون ـ وإن فارقوا هذه الحياة الدنيا ـ بل هم أحياءٌ عند ربهم يرزقون، ويتمنون ـ لكثرة ما وجدوا من طيب الحياة هناك ـ أن تكون لهم دعوة ثانية، ليجاهدوا في سبيل الله، فيقتلون ويُقتَلون، مرةً أخرى.. وهذا ما عبَّر عنه الرسول الأعظم وهو يعزّي بشهداء «أحد» بقوله ﷺ: «لمَّا أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل ذهبٍ معلقة في ظل العرش.. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحُسنَ مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا كي يجاهدوا ويلقوا الشهادة»[1].

فعلم الله عزَّ وجلَّ أمانيَّ الشهداء، فخاطبهم مُطمئناً: أنا أبلِّغهم عنكم.

وكان التبليغ ما أنزل الله سبحانه وتعالى من آيات بينات:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

التطورات التي أعقبت معركة أحد

انتهى يوم «أُحد»، وغطَّى الليلُ المدينةَ بضوء قمره، فهجع المسلمون تلفّهم الأحزان، وتخيِّم على بيوتهم السكينة والكآبة.. لقد أصابتهم النكبة، ولكن رحمة الله أوسع...

---

(١) سنن الدارمي، الجنائز ص ٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ١٦٩ و١٧٠.

أما المنافقون واليهود فقد تواعدوا على السهر والسمر، إذ عادت الآمال تراودهم، والمطامع تدغدغ أحلامهم، بعد هزيمة المسلمين التي تعد نصراً لهم.. كما يُعدُّ يومُ «أحدٍ» يومَهم، لأنه لم يكن يوم خسارة الأعداء وحسب، بل ولأنه يوم السبت الذي أقيمت فيه الصلوات واستجيبت الدعوات!!!..

وإن هذه المناسبة العظيمة ـ بعرفهم ـ تفرض عليهم أن يقيموا الاحتفالات التي هجروها منذ سنوات. ولذلك فما كاد الليل يحلّ حتى تلألأت المصابيح والشموع في دورهم، والتهبت الألحان في نواحيهم، وراحت بيوتهم تصدح بالأنغام وغناء القيان، وتوغل في المتع واللذائذ...

فالجميع يشاركون في هذه الفرحة الكبيرة، ولا أحد يريد أن يفوِّت عليه عيدَ الشّماتة.. فكانت لهم تلك الليلة العامرة التي أحيوها، كلّ على طريقته وخُلُقِهِ ومزاجه، كما يعبِّر عنها شيوخ النفاق، ودهاة اليهود ـ معاً ـ وهم يتسامرون، ويتحدثون عن أُحد..

فمن قائل:

ـ لقد أوغرنا قلوب الناس على «محمد» حتى يتفرَّقوا عنه، فعسى أن ننال ثمرة أتعابنا أكثر من يومنا هذا..

ومن قائل:

ـ وبذلنا وسعنا في زيادة فجيعة ذوي القتلى على موتاهم..

إلى قائل: ونحن لم نألُ جُهداً في إسماعهم شتى ألوان التشفِّي!.. وأننا كنا قوماً أشدَّ حزماً وأكثر حكمةً، حين رجعنا من الطريق ولم نمضِ معهم إلى القتال..

وإلى قائل:

ـ وأوجعناهم لوماً ونحن نُشيعُ بينهم بأنهم لو سمعونا وأطاعونا ما قُتلوا..

حقد .. ورعونة.. بهما كانوا يسمرون، ويتقوّلون هازئين، ساخرين، وانتقام .. وتشفٍّ.. بهما باتوا يبتهجون شامتين، حاقدين.. لقد سرَّهم كثيراً أن يُقتَلَ المسلمون، فأحيوا ليلَ الشماتةِ والضلالة.. ولكنَّ الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ قد أنزل في نفاق أولئك المتقوّلين آياتٍ تُبيِّنُ خطَلَ ما يدَّعون، بل ويتوعدهم بأن يدرأوا عن أنفسهم الموت إنْ كانوا صادقين في أقاويلهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

غزوة حمراء الأسد

أمّا رسول الله ﷺ فقد بات ليلته ساهراً يفكِّر بالغد، لأن الأمر أصبح دقيقاً، ويستدعي اتخاذ خطوة سريعة وحاسمة، وإلَّا، إن لم يفعل شيئاً، فإن الأمور سوف تتعاظم. وقد تُسوّلُ للمنافقين نفوسُهم، ولغيرهم من قبائل العرب التي ما تزال على عداوتها للدعوة، أن ينقضّوا على المسلمين، ويحاولوا القضاء على كيانهم... ولذا صمَّمَ الرسول ﷺ أن يزيل أثر الوهن من نفوس المسلمين، وأن يعيد إليهم الثقة في ثباتهم أمام الدسائس والمناورات، فعزم على الخروج في أثر قريش، على الرغم مما أصابَ المؤمنين من قَرْح، وما هم عليه من إعياء..

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

ولقد قدَّر ﷺ أن النتائج التي ستعقب ذلك الخروج، تتركَّز في هدفين: قطع الطريق على المرجفين في المدينة، وإشعار قريش ومن يوالونها بأنهم لن يطأوا أرض المدينة إن راودتهم نفوسهم الرجوع للقتال؛ لأن المسلمين لم يضعفوا كما يتوهمون، بل لا يزالون يملكون من القوة التي يستطيعون بها أن يُرهبوا عدوّ الله وعدوَّهم...

فلما كان الغدُ من «أُحُد» أي يوم الأحد في السادس عشر من شوال، إذا بصوت مؤذِّن الرسول ﷺ يتعالى في أرجاء المدينة، ويدعو المؤمنين للخروج في طلب العدوّ، وأن لا يخرجنَّ أحدٌ إلَّا إذا حضر يومنا بالأمس.

وهبَّ المقاتلون، يمتشقون أسلحتهم، ويتدافعون نحو المسجد، وكأنما ذهب الوهن عنهم بتلك الدعوة الصارخة، وجاء معهم من تخلَّف عن أحد. وبينما هم ينظِّمون الصفوف، ويشدُّون العزائم، خرج إليهم رسول الله ﷺ في لباسه الحربي، ونادى فيهم: «ألا عصابة تشدُّ لأمر الله تطلب عدُوَّها؟ فإنها أنكأ للعدو وأبعد للسمع؟»[1]. «وقد ورد في بعض الروايات عن القميّ (رحمه الله): أن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّ اللَّهَ يأمرك أن تخرج في أثر القوم، ولا يخرج معك إلَّا من به جراحة؛ فأمر ﷺ مناديهُ أن ينادي بذلك»[2].. ولكن الأصحَّ أن رسول ﷺ قد دعا

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٦ ص٣٠٢، عن: مجمع البيان، ج ٢ ص ٥٣٩؛ البحار، ج ٢٠ ص ٣٩.

(٢) الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج٦ ص٣٠٣ عن: تفسير القمي ج١ ص١٢٥؛ والبحار، ج٢٠ ص.٦٤

للخروج الذين شهدوا «أحداً» لأنه الأوْلى بهم أن يتعقّبوا جيش قريش، بعدما ثابَ إليهم عزمهم الاسلامي الصحيح. . .

وأبصرَ ﷺ بين المقاتلين أناساً تخلفوا عن أُحد، فأبعدهم. . ثم طلب إليه ابنَ أُم مكتوم فاستخلَفَهُ على المدينة، ودفع اللواء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وسار في طليعة جيشه على بركة الله. .

وهكذا انطلق الجيش الإسلامي من جديد يريد اللحاق بقريش، لمقارعتها في قتالٍ حاسم، حتى تعرف هذه الفئة الباغية أن أنصار الله ورسوله هم سيوف الحقّ، ولن يناموا على الضيم.

لقد خرجوا جميعُهم ـ من كانوا معافين منهم أو جرحى ـ يلبون نداء الواجب. لا بل إنَّ الجرحى كانوا أكثر حماسةً، كما يصوّر حالهم أحدُ الصحابة من بني عبد الأشهل فيقول: «شهدت أُحداً أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، وهو يتلو الآيةَ التي أنزلها الله تعالى على نبيِّه الكريم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ﴾[1]. . نعم لما أدركتنا هذه الآيةُ المباركة تواعدنا على ألَّا تفوتنا غزوة مع رسول الله. . واللهِ ما لنا من دابَّة نركبها، وما منَّا إلَّا جريحٌ ثقيلٌ. وكان أخي رافع أكثر مني جراحاً، فكان إذا ضعف عن السير، تقدمت وحملته على ظهري، وأنا أجهدُ في المسير، حتى لا أعودَ أقوى على احتماله، فأنزله عن ظهري، ليمشي قليلًا، ثم لا ألبث أن أعودَ وأحمله من جديد. . وما زلنا كذلك حتى انتهينا إلى ما انتهى

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

إليه المسلمون، فأتينا رسول الله ﷺ نعتذر عن تأخُّرنا»[1].

وكان الجيش الاسلامي قد بلغ حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة، فعسكروا هناك.. وأمر رسول الله ﷺأن يجمعوا الحطب، ويجعلوهُ أكواماً متفرقةً على مختلف جوانب المعسكر، فلما كان نصف اللّيل، أمر بأن يشعلوا النيران حتى ترتفع ألسنة اللّهب بحيث يمكن للمسافر أن يراها من بعيد، فيظنّ بأن أصحاب تلك النيران قوم لا يحصى لهم عدد، ولا تغلب لهم قوة..

وانقضت تلك اللّيلة ونيران المسلمين لا تنطفىء. وعادوا إليها في اللّيل التالي، مما جعل أخبارها تصل قريشاً، فتهنُ منها العزائم، وتفترُ القوى. وكان ذلك أحد العوامل التي كبَتَ (أذلَّ) الله تعالى بها قريشاً.

وبينما كان المسلمون يعسكرون في حمراء الأسد، أقبل عليهم معبد بن أبي معبد الخُزاعي، وكانت خزاعة بمسلمهم ومشركهم لا يُضمرون عداوة للنبي ﷺ. بل كانوا ـ على العكس ـ موضع سرّه في تهامة، لا يخفون عنه شيئاً كان بها، فجاء معبدٌ يواسي رسول الله ﷺ وهو يقول:

«أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك، ولَودِدْنا أنَّ الله عافاك فيهم»[2]..

ثم خرج معبد حتى بلغَ الروحاء، على بعد خمسة وثلاثين ميلًا من المدينة، وفيها أناخ المشركون للراحة، فسأله أبو سفيان: «ما

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٨.

وراءك يا معبد؟»، قال: «محمد قد خرجَ في أصحابه يطلبكم في جمْعٍ لم أرَ مثله قطُّ، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً. قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا. فيهم من الحنق عليكم شيءٌ لم أرَ مثله قطُّ». قال: ويحك! ما تقول؟ قال: «والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ـ أو ـ حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم، لنستأصل بقيَّتهم»[1].

قال معبد: فلا تفعل، فإني ناصحٌ[2].. والله لقد حملني ما رأيت ـ من المسلمين ـ على أن قلت فيهم أبياتاً من شعر[3].

قال أبو سفيان: وما قلتَ؟!

قالَ معبدُ: قلت[4]:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحِلَتِي[5]
إذْ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأَبابيلِ[6]
تَرْدِي[7] بأُسْدٍ كِرامٍ لا تَنَابِلَةٍ[8]
عند اللِّقاء ولا مِيلٍ مَعازِيلِ[9]

---

(١) الرحيق المختوم، ص٢٥٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٠٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) كادت تسقط راحلتي لهول ما سمعت من أصوات الجيش وكثرته.
(٦) الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. والأبابيل: الفرق الكثيرة.
(٧) تردي: تسرع.
(٨) التنابلة: القصار في القامة، أو الكسالى.
(٩) المِيل المعازيل: الجبناء العزّل الذين لا سلاح معهم.

فـظـلْتُ عَـدْواً أظـنُّ الأرضَ مـائِلَةً
لـمَّـا سَـمَـوْا بـرئـيـسٍ غـيـر مَـخْـذُولِ
فـقـلتُ: وَيْـلَ ابـنِ حـربٍ مـن لـقـائِكُـمُ
إذا تـغـطـمـطـتِ الـبـطـحـاء بـالـجـيـلِ[1]
إنـي نـذيـرٌ لأهـلِ الـبَـسْـلِ[2] ضـاحـيـةً[3]
لـكـل ذي إربَـةٍ[4] مـنـهـم ومـعـقـولِ
مـن جـيـشِ أحـمـدَ لا وَخْـشٍ[5] تـنـابـلة
ولـيـس يـوصَـفُ مـا أنـذرتُ بـالـقِـيـلِ[6]

وجمع أبو سفيان الرجالَ، وأطلعهم على ما حدَّثهُ به معبد الخزاعي، فاختلفوا بين منكرٍ للرجوع إلى مقاتلة «محمدٍ»، وبين داعيةٍ للعودة إليه وقتاله حتى يحافظوا على هالة النصر، وتبقى لهم سمعة الظفر به.. ولكن غلب عليهم حبُّ الدعة، والخلود إلى المتعة بدل الحرب، فقاموا يشدُّون الرحال، للعودة إلى مكة.

ومرَّ بهم ركبٌ من عبد القيس، يريد المدينة في طلبِ الميرة، فقال لهم أبو سفيان:

هل أنتم مبلِّغون عني «محمداً» رسالةً أرسلكم بها إليه، وأحمّل لكم رحالكم هذه غداً زبيباً بعكاظٍ إذا وافيتُمُوها؟

---

(١) تغطمطت البطحاء: اهتزت وارتجّت الأرض المنبسطة بأصناف الناس.
(٢) أهل البسل: يريد قريشاً بأنهم أهل مكة والبيت الحرام، لأن البسل معناه الحرام.
(٣) ضاحية: عند الضحى.
(٤) الإربة: العقل.
(٥) الوخش: الأراذل من الناس أو أخساؤهم.
(٦) القيل: القول.

فأجابوا: نعم!..

قال أبو سفيان: فإذا جئتم «محمداً» فأخبروه أنَّا قد أجمعنا الكرة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيَّتهم.

..فلما مرَّ ذلك الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، وأخبروه بما أوصاهم به أبو سفيان، لم يزد رسول الله ﷺ على أن قال: «حسبنا الله، ونعم الوكيل»[1].

وانقضت أيام ثلاثة: الإثنين والثلاثاء والأربعاء، والمسلمون ينتظرون رجوع قريش ولكنها لم ترجع، بل عاد النفر من المسلمين الذين بعثهم الرسول ﷺ يترصدون أخبار الأعداء، ويرقبون تحركاتهم، ليخبروه بأن قريشاً قد سار ركبها إلى مكة مرتحلًا، ولم يتخلَّف أحدٌ عن هذا المسير. عندها أمر الرسول ﷺ برفع المعسكر، والرجوع إلى المدينة. فأنزل الله تعالى قرآناً كريماً، يَعِدُ أولئك المؤمنين، الذين خرجوا على رغم جراحهم لمقاتلة العدو الكافر، بالأجر العظيم الذي يستحقون. ويصف حالهم عندما جاءَهم أناس يوهنون منهم العزم، ويثيرون في نفوسهم الخوف، فما زادهم ذلك إلَّا إيماناً واحتساباً، فقال عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ١١٠.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥۖ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

ويشاءُ اللهُ العليمُ الحكيمُ أن يُلاقوا في طريق العودة معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وأبا عزّة الجمحي[2]، الذي أُسر ببدرٍ، ولكن الرسول ﷺ كانَ قد منَّ عليه من أجل بناته الخمس، اللواتي لا معين لهنَّ غيرُهُ، إلَّا أنه خان العهد، فخرج مبعوثاً لقريش إلى القبائل، يظاهر بشعره على رسول الله ﷺ والمسلمين، بل وخرج لمقاتلتهم في أحد.. وحاول ذلك المخادعُ أن يتخلَّص مرةً أخرى بنفاقه وخبثه، وهو يبدي عذره وأسفه لرسول الله ﷺ، وبأنه لم يكن راغباً فيما فعل، بل إنَّ صفوان بن أميَّة هو الذي أغواه عندما قال له: «يا أبا عزة! إنك امرؤٌ شاعرٌ فأعنَّا بلسانك.. لئن خرجت معنا، فلك عليَّ عهدٌ إن رجعت لأعيننك في بناتك»..

فقال له بعض المسلمين:

ـ ورضيت بعهد ابن أمية لك، ونقضت عهدك مع رسول الله! فما جزاء من ينقض عهد رسول الله؟..

فقال مخادعاً: يا رسول الله، أقلني.

فقال له الرسول ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين... إن المؤمن لا يلدغ من جُحْر مرتين»[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٧٢ ـ ١٧٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١١٠؛ والصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، ج٦ ص٣٠٥.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١١٠ و١١١؛ البخاري، باب الأدب، ص٨٣، وورد هذا الحديث في حاشية كتاب أبي علي النسائي على النحو التالي: «لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين».

ثم أمر أن يأخذوه جانباً وتُضرب عُنقه، وكذلك ضُرِبَ عنقُ معاوية بن المغيرة لشدة عداوته للمسلمين وأذيتهم في مكة..

وعادَ المسلمون من غزوة حمراء الأسد أرفع رأساً وأعزَّ جانباً.. فقد طاردوا العدو، ولبثوا بضعة أيام ينتظرون رجوعه إليهم، ولكنه آثر- على الرغم من النصر الذي حققه - عدم مواجهتهم من جديد، بل وولَّى إلى دياره قانعاً بالسلامة، مكتفياً بما حقق من نصر.

وظنَّ المسلمون أن تلك المطاردة، التي عادوا منها أرفعَ رأساً، وأعزَّ جانباً، سوف تخفف من غلواء أعدائهم، في المدينة وخارجها. إلَّا أنَّ الأمر كان على خلاف ذلك، لأن الغرور كان قد ركب رؤوس الحاقدين، فاعتقدوا أنه لن تقوم للمسلمين قائمة بعد، وأن مظاهر القوة التي أبدوها في المطاردة، إنْ هي إلا ذرُّ رمادٍ في العيون، لن تُزيل الضعف الذي حلَّ بهم!..

كما وأنَّ كثيراً من قبائل العرب، خارج المدينة، نقضوا من جانبهم المواثيق التي عقدوها مع الرسول ﷺ وانقلبوا إلى سابق عهدهم من العداوة.. بل وراحوا يستعدون لمهاجمته وقتاله..

وكان رسول الله ﷺ، يبعث العيون في كل النواحي، فتأتيه بالأخبار عمَّا يُعِدُّه أعداء الداخل والخارج من مؤامرات ضد الإسلام، ومن استعدادٍ لقتال المسلمين..

سرية أبي سلمة

وفي تلك الأجواء المشحونة، بلغَ رسولَ الله ﷺ أنّ بني أسد ابن خزيمة يُعدّون للإغارة، واقتياد مواشي المسلمين التي ترعى في أطراف المدينة، فدعا إليه على عجلٍ أبا سلمة بن عبد الأسد، وعقد

له لواء على سرية بلغت مائة وخمسين مقاتلًا من خيرة أبطال المسلمين وأكثرهم شجاعة، وأمرهم بالمسير إلى بني أسد، ليغزوهم في عقر دارهم، قبل أن يقوموا هم بغزوهم على المدينة. وكانت أوامر الرسول ﷺ بأن يسيروا الليل ويقعدوا النهار، وبأن يسلكوا طرقاً غير مألوفة، ويستخْفوا عن الأنظار، فلا يطَّلع أحد على خبرهم، وبذلك يُمكنهم مفاجأة العدو على غرَّةٍ منه.

وسارت تلك السرية حتى بلغت منازل بني أسد، فضربت حولها نطاقاً في عماية الصبح، واندفع قائدها أبو سلمة أمام رجاله، يحضّهم على الجهاد في سبيل الله، والنيل من أعدائه... وكانت ساعة مباركة، انقضوا فيها على العدو يشتِّتون شمله، ويصيبون إبلَهُ وشاءَه، ثم عادوا يسوقون الأموال التي غنموها، وهم يكبرون ويهلِّلون بالظفر، ويهزجون بالفلاح. ولم يلبث أبو سلمة، بعد هذه السرية، إلَّا قليلًا، إذ نكأ جرح كان قد أصابه في أحد، فمات ـ رحمه الله ـ[1].

مقتل خالد بن سفيان الهذليّ

ثم لم يمرَّ وقت طويل على تلك السريّة، ونُقِلَ إلى رسول الله ﷺ بأنَّ خالد بن سفيان الهذلي قد أقام بعرنة، يجمع الناس من حوله ويستعد لغزو المدينة. فبعث رسولُ الله ﷺ عبد الله بن أنيس ليقتله، فذهب حتى بلغ منازل خالد الهذلي، واجتمع إليه، مبدياً إعجابَهُ بما سمع من إعداده وجمعه لحرب المسلمين!.. وتراءى للهذلي بأنه صار مشهوراً بين العرب، وأنَّ القبائل سوف تفدُ إليه لتعقِدَ له لواء الحرب.. ومازال عبد الله بن أنيس

(١) الرحيق المختوم، ص٢٦٥، عن: زاد المعاد ج٢ ص١٠٨.

يدهن له في القول حتى استدرجه للخروج في نزهة كي يستريح من أعبائه. . . فلما وصَلَ به وراء كثيب من الرمل، استلَّ سيفه، وقتله بغروره من نفسه، وعادَ إلى رسول الله ﷺ ليخبره بما جرى معه، وقتْله ذلك اللعين الكافر، الذي كانَ يجمع فعلًا لحربه، وضرب الإسلام والمسلمين.

يوم الرجيع

وتناقلت الأخبارُ ما حلَّ ببني أسد، وبزعيم بني هذيل، فهدأت ثائرة القبائل منفردةً ومجتمعةً، ولم تعد واحدة منها تجرؤ على الإعلان عن استعدادها لمهاجمة المدينة، لئلّا يعرف «محمد» بأمرها، فيأتيها جنده، وتقع الواقعة عليها. . إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع بعض القبائل أن تسلك طريق المكر والخداع، كما فعل بنو لحيان، ـ بنزعة ثأرية جاهلية[1] ـ إذ حرَّضوا قبيلتيْ عَضَل والقارة من الهون بن خزيمة بن مُدْركة، أن يبعثوا برهط منهما إلى «محمد» ويقولوا له «إنَّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يقرئوننا القرآن، ويعلموننا الدين وشرائع الاسلام»، وقد بيتوا النية على قتلهم إن جاؤوهم! . .

ولم يكن النبيُّ ﷺ وقد جاءه أولئك القوم ـ وهم يطلبون منه ذلك ـ ليتأخَّر عن تلبية نداء واجب الرسالة، فدعا إليه ستة من أصحابه[2]، وأمَّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، ثم بعثَهم معهم، فلما وصلوا إلى

---

(١) بسبب قتل خالد الهذلي، وهو من بني لحيان، حيٍ من هذيل.

(٢) قيل: إنهم كانوا عشرة، ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار على ما ورد في الروض وشرح ديوان حسان ـ طبع أوروبا ص٦٦، وشرح المواهب اللدنية، ج٢ ص٦٤ (انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ هامش ١٧٨).

الرّجيع ـ وهو ماءٌ لهُذيل بناحية الحجاز بين عسفان ومكة ـ استصرخوا عليهم، حيَّ بني لحيان من هذيل، فجاؤوا يحيطون بهم قائلين: «لكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم رجلًا ولكنّا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة» فقال أميرُهُم مرثَد : «والله لا نقبل من مشركٍ عهداً ولا عقداً أبداً». ثم أمرَ مَن معه بالقتال ولكنه كان قتالًا بلا جدوى لكثرة الاعداء، فاستشهد ثلاثة منهم وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وعاصم بن ثابت ابن أبي الأفلح، وخالد بن البُكير اللَّيثيّ، بينما وقع الباقون في الأسر وهم: عبد الله بن طارق، وخُبَيب بن عدي الأوسي (البدري)، وزيد بن الدَّثِنَة بن معاوية بن عبيد الانصاري.

وأخذت هذيل هؤلاء الأسرى، قاصدةً مكة لتبيعهم من قريش بأسيرين منها كانا بمكة؛ حتى إذا كانوا بالظهران اغتنم عبد الله بن طارق غفلة من القوم، فانتزع يده من الغِلِّ، وامتشق سيفه يريد مقاتلتهم، ولكن لم يمكّنوه من الاقتراب منهم، فرموه بالحجارة وقتلوه شرَّ قتلة، ثم تركوه في الفلاة، (فقبره ـ رحمه الله ـ بالظهران).

والتفَّت قريش في مكة حول الأسيرين، تهزأ بهما وتشمت، حتى وقف صفوان بن أمية يصرخ في الجمع:

ـ يا قوم! اشهدوا لي بأني ابتعت أحد أصحاب «محمد» لأقتله بأبي (وكان أبوه أميّة بن خلف قتل في بدر)..

وسارع يجذب إليه زيد بن الدَّثِنة، ويسلمه إلى مولاه، ويقال له نسطاس، ليأخذَه إلى التنعيم[1] فيقتلوه..

واجتمع عليه رهطٌ من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب،

---

(١) التنعيم: موضع بمكة في الحل، وفيه الآن مسجدٌ يُحرم منه الحاجُّ أو المعتمر..

فقال له، حين قُدِّم ليُقتل: أيسرُّكَ أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟

فانطلقت صرخةُ زيد بِدَويٍّ يهزُّ كيان أبي سفيان قائلًا:

«لا والله ما يسرّني أنّي في أهلي وأنَّ رسول الله في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة».

فاهتاج أبو سفيان لسماعه ذلك، وقال: «ما رأيتُ من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً». . ثم قتله نسطاس[1].

أما خبيب بن عديّ فقد اشتراه حجير بن أبي إهاب التميمي، وحبَسهُ عنده إلى أن انقضت الأشهر الحرم، فكانت مولاة له، تدعى ماويّة، تأتيه بالطعام والماء، فتجده وقد جلس يتهجَّد بالقرآن، فتقف بعيدة عنه تصغي لقراءته، حتى يرقَّ قلبها وتبكي. . ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليقتلوه، فقال لهم:

«إن رأيتم أن تدعوني أصلي ركعتين ـ قبل أن ألقى وجه ربِّي ـ فافعلوا».

ونزل القوم على رغبته فصلَّى ركعتين وهو مقيَّد بالأغلال، ثم رفع رأسه بأنفةٍ وخاطبهم قائلًا:

«أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جَزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة»، وهزَّت رباطة جأشه نفوس المشركين، فاندفعوا إليه يرفعونه على خشبة ويشدّون وثاقه ليصلبوه، فأنشد قصيدة ومنها[2]:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، م ٣ ص ١٨١.

(٢) بخصوص القصيدة، انظر: زاد المعاد، ج٢، ص١٥٩.

ولستُ أُبالي حين أُقتَلُ مُسلِماً
على أيِّ شقٍّ كانَ في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأْ
يباركْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

ثم نظر إليهم بعينٍ غضبى، وصرخ فيهم وهو يرفع رأسه نحو السماء ويقول: «اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك، فبلغهُ الغداة ما يُصنع بنا. ثم قال: اللهم أحْصِهِمْ عدداً، واقتُلْهم بَدَدَاً، ولا تغادر منهم أحداً»(١).

وأُرْتِجَ عليهم من صيحته تلك، وشعروا وكأنَّ اللعنة تصيبهم، ثم عاجلوه بالقتل (رحمه الله تعالى وأصحابه من أهل العلم والفقه)..

وهكذا قتل أهل الرجيع غدراً، وبهتاناً، ولم تكن دماء الشهداء قد جفت في «أحد» بعدُ..

إنها قوافل الشهداء من المسلمين تترى في مسيرة التاريخ البشري، لتثبِّت دعائم الدين في صراعه مع الشرك والنفاق، جاعلةً من أجسادها مشاعل النور والهداية، ومن دمائها مداد الدين والإيمان.

فبالأمس هناك في «أحد».. واليوم هنا في الرجيع.. وغداً في أي مكان تُزرع أجساد الشهداء تحت التراب!. ولكن، أيَّان كان المثوى، فهو المزار للمؤمنين من أهل الأَرض، يتنشَّقون منه عبير الشهادة فيسري في النفوس بطولةً ووفاءً. فبالله عليك يا غادياً إلى مثوى الشهداء: أما شعرت بالعبير ـ نفسه ـ رجفةً في أوصالك، وهزَّةً

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٨٢؛ وزاد المعاد، ج٢ ص١٥٨ و١٥٩.

في كيانك؟! ثُمَّ وأنت تذكر مآثر هؤلاء الأحياء عند ربهم، أما ترتسم في مخيلتك صورة أهل بدر، وأُحُد، ومشهد أهل الرجيع، وصرخة زيد، وصلاة خبيب؟!..

إنهم كانوا رجال الإسلام، وغدوا شهداء الحق، فباركْ لهم، وسبِّح لربهم، ولكنْ: كن مثلهم، فلا تبخلْ في العطاء...

ولئن كان الشهيد لا يُبكى، ولا يُحزن عليه ـ عادة ـ عند أهل الإيمان، إلَّا أنَّ الغدرَ يُحزن ويؤلمُ، وقد حزن الرسول ﷺ على شهداء الرجيع، وتألم للمصيبة التي ألمّت بنخبة من الأخيار، لأنهم كانوا من ذوي الفقه في الدين، والجودة في قراءة القرآن، ولأنَّ قتلهم كان غدراً ونفاقاً، وبذلك الأسلوب الرخيص الذي استعمله أعداؤهم في امتهان كرامة رجالٍ ما أَتوْهم، أساساً، إلَّا لهدايتهم!.. وحزن المسلمون على إخوانهم، وأحسوا بالجرح يصيبهم في الأعماق. ولكن هذه هي دربهم جميعاً: التضحية والفداء حتى تعلو كلمة الله تعالى، وتنتصر على كلمة الكفر والشرك.

وكان حرياً بتلك الأحداث أن تهدَّ كيانهم، وهي تتسارع عليهم منذ «أُحُد»، لولا أن آيات القرآن كانت تتنزَّلُ تباعاً، فيتلوها عليهم رسول الله ﷺ، ويبيِّن لهم ما تحمل من مواساة لمصائبهم، واطمئنان لنفوسهم، ويوضح لهم ما تَعِدُ به الصابرين منهم على طاعة ربهم، من الخلود في جنّات غرس هو سبحانَه أشجارها بأمره، وأسال أنهارها بتقديره، وجعلها مستقرّاً ومقاماً لأهل دينه الطائعين، العابدين، وهم أولياؤه الصالحون وحمَلةُ دعوة نبيهم الكريم..

وكان أهمَّ ما يُريح المؤمنين، ويزيد في اطمئنانهم، إيمانُهم

القوي بأنَّ الله (تعالى) هو وليُّهم، وأنه يدخل من يشاء في رحمته، وأن الظالمين ما لهم من وليٍّ ولا نصير. . .

سرية بئر معونة

وفي صفر، على رأس أربعة أشهر من أُحد ـ في السنة الرابعة للهجرة ـ قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري (المدعو مُلاعب الأسنّة تدليلًا على شجاعته ومراسه في القتال)، وكان سيد بني عامر بن صعصعة، فعرض عليه الرسول الأعظم أن يدخل في الإسلام، ولكنه لم يسلم، ولم يظهر عداوة، بل قال: «يا محمد! إني أرى أمرك هذا الذي تدعو إليه حسناً ودينك جميلًا، فلو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد، يدعونهم إلى دينك، لرجوت أن يجيبوهم»[1].

وتفكَّر رسول الله ﷺ في الأمر، إنه واجب الدعوة، وهو مقدس. . ولكنَّ الغدر من الأعراب كان حديث عهد في الرجيع، وإنه يخشى على الصحابة من أهل نجد، فماذا يصنع غير أن يصارح أبا براء بهواجسه، وأنه لا يأمنهم من غدرٍ مماثل! . . ولكنَّ أبا براء انبرى يؤكد نواياه السليمة، وعزمه على الذود عنهم، وحرصه على سلامتهم. . وبلغ منه التأكيد لرسول الله ﷺ أن أعلن جواره لهم وهو يقول للرسول:

«أنا جار لهم، فابعثْهُمْ فَلْيَدْعُوا الناسَ إلى أمرك»[2].

لقد كان الرسول الأعظم يعرف أن أبا براء رجلٌ مسموعُ الكلمة

---

(١) زاد المعاد، ج٢، ص١٥٩.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٥٩؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ١٩٤.

في قومه، وأنه من أهل الشجاعة، ويحفظ العهد الذي يأخذه على نفسه. وقد اشتهر بذلك بين العرب حتى دعوه «مُلاعبَ الأسنَّة»، فهو أهل لمن يجير، ولا خوف منه أن يخون الأمانة والعهد. ثم فوق ذلك إن هناك نداء الواجب، ولا بدَّ أن يُجابَ.. فدعا إليه المنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة، وأمره بالخروج في أربعين[1] من خيار المسلمين وقرائهم، كي يذهبوا إلى بني عامر- قوم أبي براء - يدعون إلى الإسلام، ويفقهون في أمور الدين. وكان خروج هذه البعثة من المسلمين في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، فساروا ملبين نداء الواجب حتى نزلوا بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرَّة بني سُليم. فانتدب المنذرُ، قائدُ البعثة، حرامَ بن ملحان ليحملَ كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل(ابن أخي أبي براء)، ولكنَّ هذا الكافر لم ينظر ما في الكتاب، بل أمر ـ من فوره ـ جبّار بن سلمى بن مالك بن جعفر، فقتله، وكان هذا السبب في إسلام جبّار، إذ يُروى عنه أنه قال: «إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلًا منهم يومئذٍ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فُزتُ والله! فقلت في نفسي: بماذا فاز! أليس قد قتلتُ الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: بالشهادة. فقلت: فاز لعمرُ الله»[2].

ولم يكتف عامر بن الطفيل بقتل رجل مسالم، بل استنفر على المسلمين بني عامر كي يقتلوهم، فأبوا ولم يجيبوه وقالوا: «لن نخفر أبا براء، قد عقد لهم عقداً وجواراً».

---

(١) وعند البخاري، ومسلم، والروض، وشرح المواهب: أنهم كانوا سبعين رجلًا.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص١٩٦.

فاستصرخ عدوّ الله قبائل من بني سُليم، فأجابته: عصيّة ورِعْل وذَكْوان، فجاؤوا وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب، فقاتلوهم حتى قتلوا ولم يبق منهم إلّا كعب بن زيد، أخو بني دينار بن النجّار، فإنّه أغمي عليه من كثرة ما أصابه من جراح، فظنه المشركون مقتولًا، فتركوه..

وكان في سرح المسلمين عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة، أحد بني عمرو بن عوف[1]، فرأيا الطيرَ تحومُ، فأقبلا، فإذا المؤمنون صرعى.. ولم تجفّ دماؤهم بعدُ فنزل المنذر وقاتل القوم حتى استشهد، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر، أطلقَهُ عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه[2].

وقفل عمرو بن أمية راجعاً إلى المدينة، حتى إذا كان بالقرقرة (مكان على صدر وادٍ يأتي من الطائف)، نزل في ظلّ شجرة يلتقط أنفاسه، فإذا برجلين يقبلان، وينزلان بقربه، فسألهما: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر.. فسوَّلت له نفسه القصاص منهما، ثأراً لأهل معونة، فلما سنحت له الفرصة، انقضَّ عليهما وقتلهما، ثم انطلق إلى المدينة يخبر رسول الله ﷺ بالمصيبة التي حلَّت بأهل بئر معونة، وقتله الرجلين من بني عامر. وكان معهما عقدٌ من رسول الله ﷺ وجوار، فقال له:

«لبئس ما صنعت يا عمرو، لقد قتلت قتيلين، لأَدِيَنَّهما».

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٤ و١٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٥.

وأسف عمرو أشدَّ الأسف، وحزنَ كثيراً على ما قام به. ولكن من أين له أن يعرف أن رسول الله ﷺ قد أجار هذين الرجلين، ومجرد سماع ذكر بني عامر كان من شأنه أن يثير في نفسه الغضب لمقتل المؤمنين؟!

وتساءل رسول الله ﷺ والمسلمون: ما ذنب أولئك الصحابة حتى يقتلوا في بئر معونة، إلَّا أنهم ذهبوا لهدايةِ الناس؟! وهل الهدايةُ إلى دين الله جريمة إلَّا في نظر تلك القبائل التي تستبدّ بها الرعونة فتدفعها لأن تتخلّى عن كل الأعراف والشرائع، وحتى عن بعض العادات الفاضلة التي كانت من مقومات حياتها، فلا ترعى حرمةً لجوار، ولا تقيم مكانة لشرف أو عهد؟!

. . . وفي تلك الأثناء كان أبو براء يعاني من فعلة ابن أخيه أشدَّ المعاناة، حتى بات لا يقدر على الاحتمال، فمات حنقاً وأسفاً[1].

ورأى ابنه ربيعة ما حلَّ بأبيه، فانطلق إلى عامر بن الطفيل، وقتله ثأراً لأبيه[2]، ليكون عبرةً لكل من لا يحفظ حرمة الجوار.

لقد كان وقع المصيبة بشهداء «بئر معونة» كبيراً على المسلمين،

---

(١) تاريخ الخميس، ج ١ ص ٤٥٢.

(٢) وهناك روايات أخرى حول مقتل ذلك الغادر عامر بن الطفيل: فقد روي أنَّ وفداً من بني عامرٍ جاء المدينة، يعلن إسلامه، بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وكان فيه عامر بن الطفيل، وقد جاء يريد الغدر برسول الله ﷺ بعدما أفشى ذلك لبني قومه. وقد اتفق مع أربد بن قيسٍ على مساعدته في تنفيذ ذلك الغدر. فلمّا كانا عند الرسول ﷺ راح عامر الخبيث يفتعل المراوغة حتى يُقدم أربدُ على تنفيذ ما اتفق عليه، إلَّا أنه لم يجرؤ. وقد خرجا بعد ذلك، يشتم أحدهما الآخر، فتوفي عامر بمرض الطاعون في بيت امراة من بني سلول، بينما خرج أربد بعد مدةٍ لبيع جملٍ له، فنزلت عليهما صاعقةٌ وأحرقتهما. أما نحن فنستبعد قدوم عامر بن الطفيل في ذلك الوقت، وبياتُه النية على الغدر برسول الله ﷺ لأسبابٍ ثلاثة: =

وبصورة خاصة على رسول الله ﷺ.. بل لقد افتقدهم الإسلام نفسه، لأنهم كانوا طلاب دينٍ وعلم. وقد كانوا في المدينة من الأنصار الذين أكرمهم اللّهُ تعالى في محكم التنزيل العزيز.. وكانوا منذ دخولهم في الإسلام، إذا جنَّ الليلُ أوَوْا إلى معلّمٍ يدرسون على يديه، فيبيتون الليلَ على التزود بأحكام الدين وتعاليمه، فكان الأسفُ شديداً، لما كان يُعوَّل عليهم من خيرٍ للآخرين.. إلَّا أنهم رحلوا، على كل حالٍ شهداء أبراراً، وهم في رحمة الله الواسعة.

= ١ ـ إن عامر بن الطفيل هو الذي قتل على بئر معونةٍ أربعين رجلًا من خيرة قراء المسلمين وقد جاؤوا بأمرٍ من رسول الله ﷺ ليهدوا أهل نجدٍ إلى الإسلام، فليس من المعقول أن يترك الرسول ﷺ عامراً هذا، من السنة الرابعة للهجرة حتى السنة التاسعة، ولا يقتصّ منه، على جريمته النكراء تلك، لأنه ﷺ عوّدنا أن يتعقب كل من آذى المسلمين، ومنعهم عن متابعة دعوتهم، فكيف إذا كان الفاعل قاتلًا كافراً وارتكب جريمته على تلك الصورة من القتل العمد، وبلا ذنب ارتكبه أولئك المسلمون القرّاء؟!

٢ ـ إن رسول الله ﷺ قد أهدر عند فتح مكة دم أي مشركٍ قام بعملٍ إجرامي كبير، سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي، فهل بعد أكبر جرماً من ذاك القتل الذي قام به عامر بن الطفيل اللعين على بئر معونةٍ؟!.. ولم يبين أحدٌ من المؤرخين أن اسمه كان بين النفر الذين أهدر دمهم رسول الله ﷺ.

٣ ـ إن عامر بن الطفيل، وإن كان قد تجرّأ على القيام بما قام به، بعد أربعة أشهرٍ من معركة أحد، عندما بدا لضعاف العقول والنفوس، أن المسلمين صاروا في حالة ضعف تمكّن من النيل منهم، فإنه لا يمكن التصور إطلاقاً أن يجرؤ عامر بن الطفيل على القدوم إلى المدينة في السنة التاسعة هجرية، والنبي ﷺ والمسلمون جميعاً يعرفون خبَرَهُ وفعلته النكراء التي لا تُغتفَر. والأغرب من ذلك أن يكون قد أتى وهو ينوي الغدر برسول الله ﷺ في وقت كانت دولة الإسلام في أوج مجدها وأقصى حالات عزّها، وهي التي خافها الروم، بما لهم من امبراطورية عظمى في ذلك العصر. لهذه الأسباب وغيرها نستبعد بقاء عامر بن الطفيل على قيد الحياة إلى السنة التاسعة للهجرة، ومجيئه مع وفد بني عامرٍ، في مقصد غدر برئيس دولة الإسلام، رسول الله، محمد بن عبد الله ﷺ.



الفصل الخامس

القضاء على الفتن والاضطرابات

البحث الأول



لقد باتت الأجواء في المدينة المنورة تنذر بسوء العواقب!.. ولاسيما بعد ذلك الغدر الذي ظهر من بعض القبائل والأعراب في الحادثتين المروعتين: «الرجيع» و «بئر معونة»، وجعل المنافقين يشرئبون بأعناقهم، ويفتعلون المشكلات التي قد تؤدي، في حال استفحالها، إلى حرب داخلية في مدينة الرسول، لا يعرف نتائجها إلَّا الله سبحانه وتعالى، لأنَّ من شأنها ـ إن حدثت ـ أن تلتهم كل شيء من حولها، وهذا ما لا يريده الله ورسوله والمؤمنون.. ولكي لا يتفاقم الوضع، ويصل إلى هذا الحد، فقد قرر رسول الله ﷺ معالجة الشأن الداخلي، ليكون بعده قادراً على معالجة الشؤون الخارجية!..

أما الأسباب الكامنة وراء الأجواء الملبَّدة في المدينة، فهو الظن الذي غلب على المنافقين واليهود، ولاسيما بني النضير، بأن المسلمين صاروا ضعافاً، إذ بعد الهزيمة في «أحد» بدأت الأعراب تتحين الفرص، فتقتل منهم أفراداً وجماعات، وتستعدُّ لغزوهم في المدينة، فلماذا يبقون هم ـ المنافقون واليهود ـ ساكنين؟!. ولذلك كانت المبادرة سريعة من بني النضير، عندما دبروا مؤامرة لقتل النبي ﷺ، فبعثوا إليه: أن يخرج في ثلاثة من أصحابه، مقابل ثلاثة

من أحبارهم وعلمائهم للمناقشة في أمر هذا الدين، وكانوا قد خبأوا الخناجر للقيام بالفعل الشنيع، لولا أنَّ امرأة منهم، قد عرفت ـ من أخيها الذي كان قد أسلم ـ بالمؤامرة، فأرسلت إلى النبي ﷺ تعلمه بخيانتهم، فقفل راجعاً قبل أن يصل إليهم[1]، فكانت خيانتهم تلك وراء إجلائهم عن المدينة[2].

غزوة بني النضير

ومهما يكن السبب المباشر لغزوة بني النضير، فإن مما لا شك فيه ـ كما أجمعت عليه كافة المصادر ـ أن اليهود كانوا يبيِّتون الغدر بالنبيِّ وقتله. ولذلك عزم ﷺ أن يواجه أهلَ الغدر بما يستأهلون، لا سيما وأنَّ في غدرهم نقضاً للعهود التي عقدوها معه.

وجمعَ الرسول الأعظم الصحابة وأخبرهم بما كان بنو النضير قد عزموا عليه من خطة لاغتياله والغدر به.. فازداد حنقهم على تلك الفئة الباغية، وأشاروا بالمبادرة الفورية لقتالها، ولكن رسول الله ﷺ أمرهم بالتريث. ثم دعا إليه محمد بن مسلمة، وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم: أنِ اخرجوا

---

(١) دلائل البيهقي، ج ٢ ص ٤٤٥ و ٤٤٦؛ والسيرة الحلبية، ج ٢ ص ٢٦٣ و٢٦٤؛ تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٦٢.

(٢) ذكرت معظم كتب السيرة أن السبب في غزوة بني النضير المكيدة التي دبروها لقتل النبي ﷺ عندما ذهب إليهم يستعين بهم على دية القتيلين من بني عامر ـ لأنهم كانوا حلفاء لهم ـ اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري على أثر «بئر معونة»، وذلك بإلقاء حجر الرحى عليه من على سطح البيت الذي كان يجلس بجوار حائطه. فنزل جبريل من عند رب العالمين يخبره بما دبَّرَهُ له بنو يهود.. فقام يوري بحاجة يريدها، ورجع إلى المدينة، فلما استبطأه أصحابه الذين كانوا معه خرجوا من عند بني النضير، فأخبرهم رجلٌ التقوه في الطريق بأنه رأى النبي ﷺ قد سبقهم إلى المدينة.

من بلادي. لقد نقضتم العهد الذي جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بي. لقد أجَّلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه»[١].

ورأى بنو النضير أنه لا قِبَلَ لهم بقتال «محمد» وأصحابه، فأخذوا يستعدّون للخروج، لولا أن جاءهم خبر عاجل من عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول يحرضهم فيه على البقاء، ويقول:

«لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فإنَّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم أو يموتون عن آخرهم قبل أن يصل أحدٌ إليكم، وتمدّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان»[٢].

وأثار خبر ابن أبيّ الجدال بين القوم، بين مؤيد للبقاء، وبين داع للخروج، حتى وقف حيي بن أخطب وقال: «كلا لن نخرج.. وما علينا إلَّا أن نرُمَّ حصوننا وندخل إليها ما شئنا، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة، وماؤنا لا ينقطع، ولن يحاصرنا محمد سنة كاملة».

ثم بعث ابنُ أخطب إلى رسول الله ﷺ من يقول له: «إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك»[٣].

وكان ذلك إيذاناً للمسلمين بغزو بني النضير، فقال رسول الله ﷺ: «حاربت يهود»[٤]. وأذَّن المؤذِّنُ، بالاستعداد للقتال، فما جاء وقتُ العصر إلّا والنّبي ﷺ يصلي بالمسلمين بفضاء بني النضير، بعدما سار إليهم، وقد دفع رايته إلى علي بن أبي

---

(١) السيرة الحلبية، ج ٢ ص ٢٦٤؛ وتاريخ الخميس، ج ١ ص ٢٦٠.

(٢) أعيان الشيعة؛ ج ١ ص ٢٦٠.

(٣) أعيان الشيعة، المصدر السابق.

(٤) أعيان الشيعة، المصدر السابق.

طالب ﷺ ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

وطال الأمرُ عدة أيام، وبنو النضير ينتظرون قدوم الإمدادات التي وعدهم بها ابن أبي، ولكنَّ أحداً لم يتقدّم لنجدتهم، لا من بني يهود، ولا من حلفائهم العرب، فأيقنوا أن الخذلان قد حلَّ بهم، ولكنهم آثروا الانتظار أياماً أخرى، علَّ تلك الإمدادات تصلهم..

وأنزل الله (سبحانه) في نفاق عبد اللّه بن أبي بن سلول، وفي كفر اليهود من أهل الكتاب، قرآناً مبيناً، قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[1].

وفي تلك الأثناء كان المسلمون يضيّقون الحصار على بني النضير شيئاً فشيئاً، ويتقدمون نحو حصونهم وهم يقطعون نخيلهم، حتى يوهنوا قوى العدو، ويبعثوا الرعب في قلبه؛ ذلك أنَّهُ بإزالة النخيل، يصبح العدو مكشوفاً نظراً لما كانت الأشجار تشكل من حجاب يمنع الرؤيةَ على المسلمين، ويعوق تقدمهم؛ فلما رأى بنو النضير ذلك الحشر، وعرفوا أنْ لن تكون لهم نجدة من أحد ـ لاسيما وأن اليأس كان قد ملأ قلوبهم رعباً ـ سألوا رسول الله ﷺ أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة. فقبل بذلك على أن يخلوا السلاح ولا يأخذوا منه شيئاً، فامتثلوا لأمره صاغرين،

(١) سورة الحشر، الآيتان ١١ و١٢.

وراحوا يهدمون بيوتهم بأيديهم ويحملون منها على الإبل ما تقدر على حمله.. وارتحلوا عن المدينة منخذلين، فنزل قسم منهم في خيبر، وعلى رأسهم حُيَيّ بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وثلاثتهم من زعماء بني النضير، بينما سار الآخرون إلى أذرعات بالشام، تاركين وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من الغلال والسلاح، والأرض التي كانوا يملكون. وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1].

ولم تعتبر تلك الأرض مغانم حرب، ولذلك لم تقسّم بين المسلمين، «بل كانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء»[2].

وهل يمكن أن يضعها رسول الله ﷺ إلَّا حيث يجب أن تكون؟... فهؤلاء المهاجرون بلا أرضٍ ولا منازل، وقد احتملهم إخوانهم الأنصار سنوات طويلة، يشاركونهم في الأرزاق والأموال، وها قد أفاض الله تعالى بنعمائه على المسلمين جميعاً، فلم لا تكون

(١) سورة الحشر، الآيات: ٢ ـ ٥.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٢٠١.

تلك الأرض للمهاجرين، فيستغنون بها عن ممتلكات الأنصار، ويصبح لدى الجميع من أسباب الثروة ما يبعد عنهم الفقر وشظف العيش؟

ووقف رسول الله ﷺ خطيباً في المسلمين، فحمد الله (تعالى) وأثنى عليه، ثم عاد يذكّر بما قدمه الأنصار لإخوانهم المهاجرين، وما صنعوا لأجلهم، وكيف آثروهم على أنفسهم.. إلى أن قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاءَ الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».. ووقف سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، نائبين عن الأنصار، فقالا لرسول الله:

«اقسِمْهُ يا رسول الله بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا»..

ونادت الأنصار من خلفهما: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله..

فقال الرسول الكريم: «اللّهم ارْحمِ الأنصار وأبناء الأنصار»..

وهكذا كان.. فقد قسَّم رسول الله ﷺ الأرض على المهاجرين وحدهم إلَّا رجلين من الأنصار كانا من ذوي الفقر، وهما سهل بن حُنيف بن وهب، وأبو دَجانة سماك بن خَرَشة فأعطاهما رسول الله ﷺ مثلما أعطى للمهاجرين من حصص..

وفي هذا الفضل والفيء من الله على رسوله، أنزل سبحانه وتعالى في سورة الحشر قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

وانقضى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، بعدما شهد جلاء بني النضير عن المدينة، حين خانوا المواثيق، فصفت بجلائهم أجواء الداخل، واستقامت الأمور، مما أراح المسلمين كثيراً، وأتاحَ لرسول الله ﷺ أنْ يتفكَّر في تدبير أمر السياسة الخارجية، كما تمَّ التدبير لأمر السياسة الداخلية.

غزوة بدر الصغرى

وعاش المسلمون بعد ذلك فترة سكينة وهدوء لبضعة شهور، حتى إذا استدار العام على «أحد»، وكان قد حلَّ الموعد الذي ضربه أبو سفيان بن حرب (يوم نادى بالمسلمين في تلك الواقعة: يوم بيوم بدر والموعد رأس الحول). فخرج رسول الله بالمسلمين لموعده، وكان ذلك في شعبان سنة ٤ هجرية وجعل لواءه مع علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة[2] حتى انتهوا إلى بدر فنزلوا ينتظرون قريشاً.

وكان المشركون ـ من جانبهم ـ قد خرجوا من مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب، وهم حوالى ألفي رجل، حتى وصلوا إلى مرّ الظهران، فنزلوا بمجنة ـ ماء في تلك الناحية ـ ويبدو أنَّ أبا سفيان كان

---

(١) سورة الحشر، الآيتان ٦ و٧.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٦٣؛ الرحيق المختوم، ص٢٧٢.

متخوفاً من لقاء المسلمين، بعدما تناهت إليه أخبارهم واستعداداتهم، وتشوقهم لمقاتلته وجيشه، فجمع قومه ونادى فيهم: يا معشر قريش إنَّ عامكم هذا عام جدب ولا يُصلح أحوالكم إلا عام خصب ترعى فيه الأنعام وتشربون فيه الألبان، وإني راجع، فارجعوا . . ولعلَّ ذلك الخوفَ الذي داخل أبا سفيان كان يستولي على جيش المشركين كله، فلم يعارض أحدٌ قول قائدهم، فرجعوا . . فسمّاهم أهل مكة جيش السويق، أي أنهم خرجوا يشربون السويق.

وأقام المسلمون ببدر ثمانية أيام ينتظرون جيش المشركين، ثم رجعوا إلى المدينة بنعمةٍ من الله (تعالى) وفضل لم يمسسهم سوء.

ومما لا شك فيه أن أوبةَ الجيش المشرك على تلك الحالة، والخوفَ من مقابلة المسلمين، كانت هزيمةً لا تقل عن هزيمة بدر، إذ محت بدرٌ الصغرى آثار «أحد»، وبات المسلمون هم الأقوياء، فتوطدت هيبتهم في النفوس، وعاد إليهم زمام المبادرة. . كما كانوا. .

وعرفت قبائل العرب بانهزام قريش، فلاذت الى السكينة لا تجرؤ على التظاهر بالقوة حيال المسلمين، إلَّا من استبدَّ بهم الطيش وظنوا أنهم ما زالوا قادرين على حرب «محمدٍ»، فظلّوا يعدون العدة لمقاتلة المسلمين. .

غزوة ذات الرقاع[1]

ووصلت الأخبار إلى المدينة بأن الأعراب من بني محارب وبني

(١) سميت غزوة الرقاع لأن المسلمين كانوا يلفون على أرجلهم الخرق (الرقع). لمّا نقبت (انظر: زاد المعاد، ج٢ ص١٦٢).

ثعلبة من غطفان يحشدون جموعهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في أربعمائة من رجاله حتى نزل نخلًا (وهو موضع بنجد من أرض غطفان). . وإذْ تبين لأولئك الأعراب ما عليه المسلمون من قوة وبأس لاذوا بالفرار إلى رؤوس الجبال. . فعاد المسلمون تحفّهم رايات النصر بعدما ألقوا الخوف والرهبة في نفوس غطفان، وغيرها من البدو والأعراب، الذين مردوا على النفاق.

غزوةُ دومة الجندل

ثم خرج الرسول ﷺ بعد ذلك إلى دومة الجندل على بعد خمس ليال من الشام، بعدما بلغَهُ أن بها جمعاً كثيراً يريدون أن يدنوا من المدينة [1] فأراد أن يشتت شملهم، وفي نفس الوقت يؤدِّب القبائل التي كانت تغير على القوافل، ولكنه لم يظفر بتلك الجموع، لأنها ما لبثت حين سمعت بقدومه أن أخذها الفزع، فولت هاربة وتركت المواشي والأموال، فأخذها المسلمون غنائم بأيسر حال. . .

وهكذا استقامت الأمور لرسول الله ﷺ إذ استطاع أن يقضي على المقاومة الخارجية، فهدأت ثورات القبائل، واختفت مقاومتها. ولم يعد في المدينة عدو يتخفَّى وراء المكايد والأحابيل، بل أدرك الكلُّ أن سلطان الإسلام قد قام حقاً، ولم يعد من سبيل للوقوف في وجهه.

وبذلك أتيح لرسول الله ﷺ أن يعيد هيبة الدولة الإسلامية، وأن يأمن غدر المنافقين في الداخل، وكيدَ الأعداء في الخارج مما أتاح له في المجال لمتابعة التنظيم الذي تقوم عليه الدولة والمجتمع

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص ١٦٣.

على السواء، حتى يأتي البناء شاملًا، ومتوافقاً مع البناء الإيماني، لأن من أهداف الإسلام ليس بناء الإنسان وحده، بل بناء المجتمع على الأسس السليمة والصحيحة التي يمكن للبشرية جمعاء ـ وليس للمسلمين وحدهم ـ الإفادة منها، واعتمادها في عمارة الأرض والإصلاح فيها..

ولم يكن ﷺ، وعلى الرغم من مواجهته لخضمّ الشؤون العامة، ليُغفِل أيَّ شأنٍ من شؤون الأفراد الخاصة، التي كان يعلم بها أو تعرض عليه. إذ كان موئلَ العطف والمواساة، كما عرفه الجميع، لا يردُّ أي إنسانٍ يقصده لحاجةٍ أو عون. فكانوا يأتونه فرادى وجماعات، يفضون إليه بما يعانونه من مشكلات حياتية أو عائلية، فيجدون عنده الهديَ الرشيد، ويستمدون منه العلاج المفيد..

طلاق زيدٍ بن حارثة زوجَهُ زينب

ودخل عليه ﷺ، يوماً، زيدُ بن حارثة، والقلق بادٍ عليه، والهمُّ ظاهرٌ في عينيه، وأخبره بأن مشكلته مع زوجه زينب بنت جحش ما تزال على نفس الحال من عدم الوفاق، بل وإنها تستفحل يوماً بعد يوم، ومن أجل ذلك قرَّر أن يطلِّقها.. ولكنَّ الرسولَ الكريمَ أبى عليه هذا الأمر، ونهاه عنه بقوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[1] يا زيد..

ويسكت زيدٌ ولا يجيب، فهذا أمرُ رسول الله ﷺ وعليه الإطاعة..

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

ويذهب زيد مغموماً، حزيناً، فيجلس وحيداً، يسترجع ذكريات الماضي لسنوات خلوْنَ . فتتراءى له الصور وهي تتسارع ماثلة أمام عينيه، عندما جاء رسولَ الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، يخطب منه ابنة عمته زينب بنت جحش، فيبتسم له رسول الله ﷺ ويعده خيراً . .

ويعلم زيدٌ بعد ذلك أنَّ زينب رفضت الزواج به في بادىء الأمر، متذرعة بأصلها القرشي، وبأنها ابنة عمة رسول الله ﷺ ـ أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ـ وبأن زيداً كان فيما مضى مولى لرسول الله ﷺ، فلا تكافؤ ولا تجانس في زواجهما، فتقول للنبي ﷺ: يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا من قريش.

ولكنَّ رسول الله ﷺ يعمل على إقناعها، فتنزل زينب على أمره وتقول: «إني قد رضيتُه امتثالًا لأمرك يا رسول الله».

وينزل قولُ الله تعالى مؤيداً لحكم رسول الله ﷺ فيما يقضي به بين المسلمين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

وتم زواج زيدٍ بزينب، وقدم لهما الرسول ﷺ هديةَ عرسهما: عشرة دنانير، وستين درهماً، ودرعاً وخماراً، وملحفةً وإزاراً، وخمسين مدّاً من التمر. . ولم يكتف ﷺ بذلك، بل أَوْلَم لأجلهما وأطعم المساكين خبزاً ولحماً.

ويسترجع زيد تلك الأيام الهنيئة التي عاشها في ظلال البيت

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

الزوجي، وقد حظي بزينب، فيطفح وجهُهُ بالبشر!.. ولكنَّ الأسى سرعان ما يعود ويغلب عليه، وهو يرى شريط حياته، بعد ذلك، حافلًا بالنكد والتعاسة، إذ لم تمرّ على زواجه إلَّا مدةٌ من الزمن، حتى راحت زينب تعيّره بالفارق الاجتماعي بينهما، وتبيّن له بصراحة أنها لم تكن لترضى به زوجاً لولا أمر رسول الله ﷺ، وذلك مما يمسُّ بكرامته، فيعزم على طلاق زوجه.. ويذهب مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ مصرّاً على الطلاق، لأنه أدعى لكليهما أن يتخذ كلٌّ واحدٍ سبيلًا يرتاح إليه.

ويتفكر رسول الله ﷺ في أمر هذا الزواج من أساسه، فلا يجد في ما فعله إلّا خيراً. لقد كانت غايته منه تمتينَ قواعد المجتمع الإسلامي، وتقويةَ أواصر الصلات بين أفراده، حتى يقضيَ على العادات والتقاليد السيئة التي كانت تقوم على الاعتزاز بالحسب، والتفاخر بالنسب. ثُمَّ أوَ ليس الإسلام مبدأ الإنسانية السامي الذي لا يحفل بالعلاقات التي تقوم على التمايز الطبقي، بل يلفظها ليستبدلَ بها قواعد الروابط الاجتماعية التي يكون أساسها الأول والأهم التقوى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

أو ليسَ محمد هو رسول الله الذي يسنُّ للناس الحكمَ السويَّ، النابعَ من القاعدة القرآنية حين لا يجعل لعربي فضلًا على أعجمي إلَّا بالتقوى؟...

نعم لقد أراد الرسول الأعظم أن يجعل من زواج زيدٍ ـ المولى ـ وزينب ـ القرشية ـ واقعاً حياتياً، ومثالًا يمكن أن يُحتذى في كلِّ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الأزمان.. ولكن بشرطه الذي يؤلف بين القلوب، وينشئ الحياة الزوجية الكريمة. وقد أيَّده الله (تعالى) من عليائه بتصرفه الحكيم الذي يتوخى فيه خير الناس بما أنزل في ذلك من قرآنٍ مبين.

أما الآن فقد بات زيد تعيساً، وكذلك ابنة عمته زينب التي لم تشعر بالسعادة التي كان يتمناها لها ولزوجها. وهو لا يستطيع أن يفعل لهما شيئاً، حتى يأتيه أمر الله تبارك وتعالى فيهما.. وراح (صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله) ينتظر، دون أن يُفصح عن شيء مما يعتمل في نفسه، أو أن يصرح به لأحد، حتى من أقرب المقربين إليه، لأنه ما كان له أن يسبَقَ أمر ربه في أي شأن من الشؤون، صغيراً كان أو كبيراً، حتى يأتيه حكمه من المولى الكبير المتعال، فبات ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى.. ولشدَّ ما كان يدخل الأسى على قلب الرسول ﷺ الآلام النفسية التي يعاني منها زيدٌ.. صحيح أنه كان مولىً، ولكنه الآن مسلمٌ صادقٌ، وحريٌّ بزينب أن تطمئن إليه، ولكن هي الأخرى ليس لها من الأمر شيء، فقلبها ليس بيدها ـ لأن القلوب بيد الله يقلّبها كيف يشاء ـ وزيدٌ يعرف ذلك، ينتظر في آلامه، لا لشيء، إلَّا لأنه مطيعٌ لله ورسوله، وما عليه إلَّا الصبر كما طلب إليه ذلك رسول الله ﷺ، فيمسك زوجَهُ، مغلّباً أمر النبي ﷺ على شقائه، لأنه يرى أن السعادة الحقّة إنما تكون برضى الله، ورضى نبيّه، ولسوف يرضى بما يقدّر اللّهُ له..

وكانت تلك الفترة صعبة للغاية على الزوجين، كما كانت ثقيلةً على نفس رسول الله ﷺ، إلى أن أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الآيات التي تبيّن أمرَهُ ـ سبحانه ـ في هذه القضية، وذلك بقوله الحق المبين لنبيّه محمد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾(١).

لقد نزل الأمر من الله (تعالى)، فلا يخشى بعده النبيُّ ﷺ شيئاً مما قد يتقوَّله الناسُ، إذا رخَّص لزيد بطلاق زوجته. بل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحق أن يخشاه، وهو عزَّ وجلَّ يأمره بأن يفسح في المجال لهذا الطلاق الذي سيكون تمهيداً لبيان حكم تشريعي لن يكون بمقدور أحد أن يعارضه، أو أن يجتهد فيه رأيه لوضوحه وأحقيته.

نعم وقع قول الله تعالى موقع الفصل الذي ليس بعده تعقيب، وليس بعده حكم. وانفصل الزوجان وعادت زينب إلى رتابة العيش في بيت أخيها عبد الله بن جحش. ولكنها ومع الأيام بدأت تشعر بالقلق والضيق، وتخاف أن تقضي بقية حياتها بلا زوج يناسبها، لأنه لا أحد يجرؤ، ويتقدم لطلب يدها، على الرغم من شهرتها بين لداتها بالحسن والشرف والرفعة، فضلًا عن كونها إحدى المهاجرات اللواتي نَذَرْنَ أنفسَهُنَّ لعمل البرّ والخير.. وهذا ما جعلها تحسُّ بالمرارة في نفسها. ولكنها ما دَرَتْ ـ ومن أين لها أن تدري ـ أنَّ مَنْعَ الكرامِ عنها كان لحكمة وتقدير من الله سبحانه وتعالى، لأنه قضى في سابق علمه أن يجعلها موضعاً لحكم عظيم من أحكام الإسلام، وأن يُعدّها لتكون زوجة لأعظم رجل في الإنسانيةِ...

زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش

وجاءَ اليومُ الموعود لتظهر حكمة الخبير اللطيف، وتقديره السنيُّ. فقد كان رسول الله ﷺ في بيته، فجاءته الغشية ثم سرّي عنه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

فاستيقظ مرتاح النفس، وقال: «مَنْ يَذهَبْ إلى زينبَ ويبشِّرُها أن الله تعالى قد زوَّجنيها»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(١).

فسبحان الله العليم الحكيم، الذي يقرر بهذا التنزيل قاعدة من قواعد التشريع الاسلامي، التي من شأنها معالجة عدة قضايا، ومحو كثيرٍ مما ظل عالقاً من موروثات الجاهلية في الأذهان، ولذلك تناولت المعالجة الأمور التالية:

أ ـ فكرة التبنِّي التي كانوا يعطونها غير معناها الذي أراده الله تعالى. فالابن بالتبنيّ ليس ابناً طبيعياً لمن يتبنّاه، ولكنه ربيبٌ لا أكثر ولا أقل. فهو ليس إذن من أصول المتبنّي ولا فروعه، فلا يتوارثان، بل ولا يربطه به أكثر من الإحسان إليه في الصغر قربةً لوجه الله تعالى، وحفظ هذا الجميل من قِبله في الكبر.

ب ـ التقليد الذي كان سائداً بين الناس، وهو أن الربيب لا يمكن أن تتزوجه ابنة السادة في القوم، وإذا حصل وشذَّت سيدةٌ شريفةٌ عن هذا المبدأ، فإنها تكون مرمى لسخرية الناس وانتقاداتهم اللاذعة. أما إذا طلَّقها أو مات عنها، فالمصيبة عندئذٍ أكبرُ، لأنهم كانوا يأنفون خطبتها، ويعدون ذلك حطّاً بقدرهم وتحقيراً لشأنهم. فالقضاء على مثل هذا التقليد لا بد أن يكون بزواجها رجلًا محترماً بين الناس، كفوءاً في الإيمان والتقوى، ولذلك كان حكم الله ـ عز وعلا ـ أن

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

يتزوج محمدٌ ﷺ زينبَ مطلقةَ زيد بن حارثة دون أي حساب لما كان عليه زيد، أو زينب.

ج ـ العرف العام بأن أكبر العار يلحق بالأب أو بولي الأمر، إذا زوَّج ابنته أو أختَهُ لمولى فقيرٍ، لا يملك من الدنيا شروى نقير. ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما يكون الأبُ أو الولي سيداً أو نبراساً في القوم. أما إذا رضيت المرأة ذات الشرف الرفيع في الحسب والنسب أن تنزل إلى مستوى قبول الزواج بربيبٍ، أو مولىً أو مسكين، فلا يعقل أن تعود فتصعد إلى سُدَّة السيادة أو الشرف سواء ظلت مع زوجها أو فارقها لسبب من الأسباب، وهذا ظلم بحق المرأة مما ينبذه الاسلام..

من هنا فقد جاء هذا الحكم ليلغي فوارق اجتماعية كثيرةً، وليضع أحكاماً تشريعية كثيرةً، وليرسي أساساً من أسس عقيدةٍ متينةٍ يكون النبي ﷺ هو المثل المحتذى فيها لسائر العالمين، لأنه رسول الله لسائر الخلق أجمعين.

لقد كان زواج النبي بزينب أمراً من الله تعالى، غايته القضاء على فكرة التبني، وعلى التحرج من التزوج بمطلقة الوليّ أو الربيب، لأنَّ مثل هذه الأمور التي هي على غايةٍ كبيرةٍ من الأهمية، يقتضي أن يكون لها شخصٌ قادرٌ على تطبيقها وتأكيدها، وليس أكفأ ولا أقدر من رسول الله ﷺ على القيام بهذا التطبيق.. فهو قبل الإسلام كان تبنى زيد بن حارثة، وكان من عادة العرب أنَّ من يتبنى غلاماً فإنه يصبح كابنه المولود من صلبه، فلا يعود له الحق أن يتزوج امرأته من بعده. ولذلك انبرى اليهود والمنافقون يقولون«إن محمداً تزوج امرأة ابنه»، فأكذَبَهم اللَّهُ تعالى، وبيّن أن من يُدعى لغير أبيه ليس ابناً له، لأنه «وما

جعل أدعياءكم أبناءكم» ـ من أصلابكم ـ وإن كان ذلك قولكم بأفواهكم، بل الحق والعدل أن تدعوهم لآبائهم، فإن لم تعلموا آباءهم فهم إخوانكم في الدين، وذلك كما يبيِّنه قوله تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[2].

لقد نزلت الآياتُ القرآنية المبيِّنة، وأُخبرت زينبُ بأن الله العلي العظيم، قد زوَّجها من عليائه برسول الله، فسجدت لله تعالى شاكرةً[3] حامدةً، وجعلت عليها نذراً لله تعالى أن تصومَ شهرين عرفاناً بهذا الفضل، وهذه المنَّة.

ونقلها رسول الله ﷺ في صفر من السنة الخامسة للهجرة. ودعا إلى وليمةٍ عنده احتفاءً بهذه المناسبة الكريمة، فجاء الصحابة ملبّين، وبأفراح رسول الله مستبشرين، وجلسوا إلى تناول الطعام، ثم طال جلوسهم.. وكيف لا؟ وقد كانوا مسرورين، مستأنسين حتى

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤ ـ ٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، ج١٢ ص٢٧٦.

نسوا الوقت، وغرقوا في الحديث! ولكنَّ الله العليَّ القدير يأبى أن يكون اجتماع الناس في البيت النبوي كاجتماعاتهم في سائر البيوت، لأنه بيت له شرف النبوَّة، وشرف الرسالة. ولذا نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[1].

أجل نزل الحكم الذي ينظم سلوك الناس تجاه بيت النبوَّة ومنزل الوحي ومهبط الملائكة الذي له قدسيته، وله حرمته الخاصة، فليس لأحد أن يدخلَهُ بغير إذن، وليس له أن يجيل طرفه في أركان البيت، كما أنه ليس للناس الجلوسُ طويلًا، وإشغالُ النبيّ ﷺ في الأحاديث، التي قد يكون من شأنها هدر الوقت، إلَّا من الإيناس الذي يرجونه.. فالشؤون العامة كثيرةٌ وهي بحاجةٍ إليه، ولكنه يستحي من جلسائه، لما حباه الله تعالى من حُسن الخلق وأدب المعشر، بيد أن الله سبحانه لا يستحي من الحق، فنزل أمره تعالى بأن ينفضّوا حتى يفسحوا لرسول الله ﷺ المجال بالتفكّر والتدبّر لأن مسؤوليةَ الرسالة جسيمة، وأعباءها ثقيلة، تتطلب من حاملها كلّ جهده ووقتِهِ...

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

إنها حوادثُ لو أخذناها بالمنظار البشري لوجدناها عاديةً تحفل بها حياة الناس كلَّ يوم! فالمناسبات العامة كثيرة، والزيارات والدعوات الخاصة قد لا تعد ولا تحصى، ولكنها جميعها يجب أن تكون بحدود القيام بالواجب ليس إلَّا، لأن الإنسان ـ مهما كان شأنه، أو وضعه، أو مكانته ـ يجب أن يظل ذاكراً أنه مستخلَف في هذه الأرض، ويقع على عاتقه كفرد، مِثلُ الذي يقع على عاتق الأمة كجماعة، من القيام بمهمة الاستخلاف، وكل على قدر طاقتهِ واستطاعته، ولذلك فإنَّ ما قد نعتبره أموراً عادية هي في ميزان الحق تبارك وتعالى على خلاف ما نظن. لذلك كانت الرعاية والمعالجة تأتي من لدن رب العالمين وترافق النبيَّ في كل بادرة من بوادر حياة المسلمين حتى يستقرَّ البنيان الإسلامي الذي تقوم حياتنا عليه دائماً. فزيدٌ يسميه الله تعالى باسمه في تنزيله العزيز، (فلما قضى زيدٌ منها وطراً)، والصحابة يأمرهم بألّا يسترسلوا في الاستئناس في حضرة رسول الله ﷺ وينشغلوا بالأحاديث الطويلة عن الواجبات الأهم، والدخول إلى البيوت لا يكون إلا بأذن أصحابها، وما إلى ذلك من أوضاع حياتية كانت تتبيّن مع كل تنزيل حكيم... وعلى النحو الذي أمَرَ الله تعالى استقرت الأمور وعاشت زينب، بعد مرارة الأيام، في كنف رسول الله ﷺ هانئةً، سعيدةً. ويزيدها رضىً وسعادةً بأن الله سبحانه قد زوَّجها به من عليائه، فكانت تردد على مسامعه ﷺ أحياناً: «يا رسول الله. إني والله ما أنا كإحدى نسائك، ليست المرأة من نسائك إلَّا زوَّجها أبوها أو أخوها، أما أنا فقد زَوَّجنيكَ الله من السماء»[1].

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج ١ ص١٦٦.

وكانت أيضاً تردِّد هذا القول على مسامع زوجات النّبيِّ الأخريات «زوَّجكُنَّ أهاليكُنَّ وزوَّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات»[١].

ولئن كانت أحاديث السيدة زينب يبدو فيها بعضُ المفاخرة على نساء النبيّ ﷺ، إلّا أنها كانت في الواقع نعم الزوجة التي تحترمُ منزلة زوجها ومكرمته، وتقدر شخصيته حق التقدير، ويكفيه أن الله قد وصفه بأنه على خُلُقٍ عظيم. وهي تقرنُ مصداقية الزوجية بحقيقة النبوة، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ بالنسبة لامرأة «صالحة صوّامة قوَّامة، تصنع بيدها وتتصدق بريع عملها على المساكين، حتى سميت «بأمِّ المساكين»[٢]. وكان رسول الله ﷺ يقول: «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً»[٣]. فكانت أول مَنْ مات بعده من نسائه. وروي عن السيدة عائشة أن أزواج النبي ﷺ كنَّ يتساءلن دائماً عن معرفة صاحبة اليد الطولى بينَهُنَّ، فلما توفيت زينب بنت جحش عرفن أن النبي ﷺ إنما أراد طولَ اليد بالصدقة، إذ كانت زينب امرأةً، صناعَ اليدين، فكانت تدبغ وتخرز، وتتصدق به في سبيل الله وحين حضرتها الوفاة ـ سنة عشرين هجرية في عهد عمر رضي الله عنه، قالت رضي الله عنها: «إني قد أعددتُ كفني، وإنَّ عمر سيبعث إليَّ بكفن فتصدَّقوا بأحدهما، وإن استطعتم أن تتصدّقوا بحقوقي فافعلوا»[٤].

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٦٤ (عن البخاري عن أنس).

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول ج٢ ص٨٥٣.

(٣) البخاري، كتاب الزكاة: ١١، مسلم، كتاب فضائل الصحابة: ١٠١ (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص٨٥٣)

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨ ص١٠٩. (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص٨٥٤).

غَزوة بَني المصْطلق

وحلَّ شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة..

وبلغ رسولَ الله أن بني المصطلق، وهم فرعٌ من خزاعة، يتآمرون عليه، وأن زعيمهم الحارث بن أبي ضرار قد جمع الناس لحربه، وهو يتأهّب لغزو المدينة.. فنادى مؤذن الرسول ﷺ بالاستعداد للخروج. والتف جيش الإسلام حول راية الهدى لينطلق سريعاً تحت قيادة النبي ﷺ إلى حيث يدعوه واجب الجهاد. واصطحب ﷺ معه في هذا الخروج زوجه السيدة عائشة التي وقعت القرعة عليها ـ على عادته في مرافقة إحدى زوجاته في الغزوات ـ لتقوم على شؤونه الخاصة.

وخرج مع المسلمين جماعةٌ من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها، حتى نزلوا على ماءٍ قريبٍ من بني المصطلق يقال له المريسيع من ناحية قُدَيد إلى الساحل. ثم حاصروهم، ونادَوْا فيهم أن الرسول ﷺ يوثق لهم عهداً بالأمان، ويرغّبهم في الإسلام. فحسبوا أنه تقاعس عن القتال، وراحوا ينبلون المسلمين بالسهام، إيذاناً بقتالهم، مما دفع المسلمين لأن يحملوا عليهم حملة رجلٍ واحدٍ، ويوقعوهم بشرِّ كيدهم، إذ قُتل منهم عشرةُ رجالٍ، وألقى الآخرون السلاح مستسلمين تحت وطأة الضغط القويّ الذى دهمهم. فأخذهم المسلمون أسارى، وغنموا أموالهم. وكان بين الأسرى جويرية ابنة زعيمهم، الحارث بن أبي ضرار، وقد وقعت في نصيب ثابت بن قيس الشمَّاس من الأنصار.

وأخلَدَ المؤمنون على الماء ينشدون الراحة. ومن أين تأتي الراحة؟ والمنافقون قد اندسُّوا بين صفوفهم، وهم لا يطيب لهم أن

يسرَّ المسلمون ويهنأوا، فأَبَوا إلَّا أن يعكروا عليهم صفو السرور، ويذهبوا عنهم نشوة النصر؟... وها هم يجدون الفرصة سانحة لتحقيق غرضهم. إذ بينما كان المقاتلون في هجوعهم، بعد هدوء المعركة، إذا بحادثةٍ فرديةٍ تقع، فيستغلّها المنافقون، الذين كانوا قد خرجوا مع المسلمين، على ما يبدو، للغنيمة فقط.

ذلك أن تنافراً قد حصل بين أجيرٍ لعمر بن الخطاب، يقال له جهجاه (من بني غفار)، وبين سنان الجهني (مولى لبني عوفٍ)، من الأنصار، وهما يتزاحمان على الماء، حتى وصل بهما الحال إلى أن تصايحا وتضاربا...

فصرخ سنانٌ: يا معشر الأنصار!...

وصرخ جهجاهٌ: يا معشر المهاجرين!...

ولم يأبه المسلمون (مهاجرين وأنصاراً) لهذه الدعوة الجاهلية، ورأوا فيها تصايحاً لا يتعدى رجلين مغضبين من بعضهما.. إلَّا أنه لما بلغ ذلك عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول وجدها الخبيث فرصةً جديدةً ليثير الفتنة بين المهاجرين والأنصار، فصرخ والغضب يتآكله، في رهطٍ من قومه، «أوَ قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا (وهو يقصد المهاجرين)، والله ما عُدْنا وجلابيبَ[1] قريشٍ إلَّا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك! ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ»[2].

---

(١) جلابيب قريش: لقب المهاجرين، وقد لقبهم به المشركون لأنهم كانوا يلبسون الجلابيب (الأزر الغلاظ).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٣٠٣.

ولم يقف عند هذا التأليب وإثارة الفرقة، بل راح يلوم قومه ويعنّفهم وهو يقول لهم:

«هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم[1]، ولحقوا بعشائرهم ومواليهم. ثم لم ترضوا بما فعلتم معهم من حُسنى، حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقُتِلْتُمْ دونهم، فأيتمْتُمْ أولادكم وقَلَلْتُمْ وكثروا.. فلا تنفقوا على من حول رسول الله حتى ينفضوا جميعاً عنه، ويدوروا في أقطار الأرض، ليفتشوا عن أرزاقهم بعد أن تدركهم الحاجة».

وكان بين الرهط الذي جلس إلى ابن أبيّ الغلامُ زيدُ بن أرقم، فأخبر أباه بما قالَهُ ابن أبيّ فذهب إلى رسول الله ﷺ وأطلعه على ما يذرّ ذلك الرجل المنافق من أقوال تنمُّ عن الفتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها فتنة»[2].

وبعث رسولُ الله ﷺ نفراً من المهاجرين والأنصار، لتهدئة النفوس، وإخماد نار الفتنة في مهدها. ثم جيء بالفتى زيدٍ ليتأكد منه النبيُّ بنفسه، مما قاله ابن أبيّ، والفتى يثبت صحة خبره، وهو يقول: واللهِ يا رسول الله، لقد أَخْبَرْتُ بما سمعتُ بأذنيّ هاتين!..

ومشى الخبر في صفوف المسلمين، بما فعله ابن أبيٍّ. وصار الشغل الشاغل، لما ينبئ عن شرٍّ مستطير، مما دفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يُشير على رسول الله قائلًا: «مرْ به عبّاد بن بشر فليقتله»[3]،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الرحيق المختوم، ص٣٠٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٠٣.

ولكنَّ رسول الله ﷺ يأنفُ أن يفعل ذلك، فيقول له: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه. لا، ولكن أذِّن بالرحيل»[1].

وسمع الناسُ نداء الارتحال، في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فأيقنوا أنَّ أمراً قد أغضبَ رسول الله ﷺ وأحزنَهُ، فأتته جماعةٌ من الأنصار، ومعهم عبد الله بن أبيّ، فبادره الرسول قائلًا:

«ما هذا الذي بلغني عنك يا ابن سلول؟!».

قال المنافق: والذي أنزل عليك الكتاب بالحق، ما قلت شيئاً من ذلك قطُّ، وإن زيداً لكاذبٌ..

نعوذ بالله من هذا الرجل الشرير.. كيف يُقسمُ باللَّهِ كذباً؟ ثم كيف يرمي ذلك الفتى الصادقَ بالكذب؟ ثم أهذه هي أول مرة يقول رأس المنافقين أو يدّعي كذباً؟ أبداً، لأن المؤمنين ما عهدوا منه إلّا الخداع والمكر والنفاق. فقد كان له في المدينة، بعد التظاهر بالاسلام، مقامٌ يجلس فيه كل جمعةٍ، ولا يتركه شرفاً له في نفسه وفي قومه ـ كما كان يدّعي ـ فكان إذا خطب رسولُ الله ﷺ يوم الجمعة قام ابن أبيٍّ فقال:

«هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزَّكم به، فعزِّروه وانصروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس». وظلَّ على تلك الحال من التظاهر الخادع، والزيف الماكر حتى خرج المسلمون يوم أحد، وكان منه ما كان.. فلما قام ليقول ما كان يقول من قبل، شدَّه

(١) السيرة لابن هشام، المصدر السابق

المسلمون من أطراف ثوبه وأجلسوه عنوةً وهم يقولون له: «اجلس، أيْ عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت». . فخرج مذموماً وهو يقول: والله لكأنما قلت قولًا معيباً أن قمت أشدد أمره، فلقيه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد، فقال له: «ويلك! ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ»، قال: «والله ما أبتغي أن يستغفر لي».

فتأملْ نفاقه، كيف كان يعلن في المسجد على ملأ المسلمين نصرة رسول الله، بخلاف ما يبطن له من العداوة، وكيف كان يواري بالكلام، ويوارب الحقيقة، حتى كشف اللهُ تعالى أمره.

وها هو من جديد يحاول على ماء المريسيع أن يخدع عدداً من الأنصار بقسمه أمام رسول الله ﷺ أنه لم يقل بحقه شيئاً، فيصدقه هؤلاء، ويقولون:

ـ يا رسول الله إنه شيخنا وكبيرنا، ولا نصدق عليه كلام غلام من غلماننا، عسى أن يكون هذا الغلام قد فهم خطأ، ولم يحفظ ما قال الرجل!. .

وسكت رسول الله ﷺ ولم يجب. . . فظنَّ أولئك الأنصار أنه أعذر ابن أبيٍّ، مما كان له أسوأ الأثر على زيد بن الأرقم، إذ فشَت الملامة من الأنصار عليه، وهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه. وكان الارتحال قد بدأ، فجاء أسيدُ بن حضيرٍ إلى رسول الله ﷺ فحيَّاه بتحية النبوَّة، ثم قال: «يا نبيّ الله، أراك وقد رحت في ساعةٍ منكرةٍ؟!. فقال له ﷺ: أو ما بلغَك ما قال صاحبكم عبد لله بن أبيٍّ؟ قال أسيد: وما قال؟ قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلّ!. قال: فأنت

رسول الله، تخرجه منها إن شئت، وهو والله الذليلُ وأنت العزيزُ»[1].

وأراد أسيدٌ أن يواسي رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله ـ تعالى ـ بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنّه ليرى أنك قد استلبته ملكاً»[2].

وما كانت تلك المواساة، أو خلافها من الأعذار، التي يبديها الصحابة، لتشفع لابن أبيٍّ، فالرسول ﷺ يعرف مقدار نفاقه وكذبه، ولكنَّه يأبى أن يقتتل الناس من جراء الأفاعيل التي يقوم بها مثل هذا الرجل، الذي يتظاهر بالصحبة والمحبة. فسار بالناس يومهم حتى أمسى، فلم يأمر بالوقوف. وتابعوا ليلتهم حتى أصبح الصباح، فظل متابعاً إلى انقضاء صدر النهار. وكان التعب والإرهاق قد أخذا منهم كلَّ مأخذ، والشمس قد آذتهم بحرارتها اللاهبة، فحينئذٍ أمر بالنزول. ولم يكن من أولئك الناس عندما مسَّتْ أجسادهم الأرض إلّا أن وقعوا نياماً. فظهرت حكمةُ رسول الله ﷺ من ذلك المسير المُضني، إذْ أراد أن يُشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من ابن أبيٍّ، فوجدَ أفضلَ سبيل لذلك، أن يجعلهم يشغلون بأنفسهم وبما يصيبهم من تعب. وهكذا كان، فما استفاق الناسُ من النوم إلَّا وكان كثير من اللغط والتشويش قد ذهب...

ورأى بعضُ الصحابة الأخيار أن يتخلّصوا من المنافق عبد الله بن أبيٍّ بن أبي سلول فجاؤوا يعرضون على رسول الله ﷺ بأن يأذن لهم بقتله، ولكنَّه نهاهم عن ذلك، وقال لهم:

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، م٣ ص٣٠٤.
(٢) المصدر السابق.

«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وراحَ بعض الأنصار إلى ابن أبيٍّ يستحثونه على الاعتذار من الرسول، والندم على فعاله، فيستغفر له رسول الله، ولكنه أنكر عليهم ذلك، وراح يلوي رأسه مستكبراً، وهو يقول:

«أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت، فما بقي إلَّا أنْ أسجد لمحمد»...

منافق وفاسق.. فتنزَّلت الآيات التي تفضحه، وتفضح المنافقين أمثاله، وتعلن عن استكبارهم وفسوقهم، بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

أو بعد تلك اللعنة السماوية يا ابن أبيٍّ من ادّعاءٍ بالعزَّة؟ ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين، أو بعد تلك الآيات البينات تخفي نفاقك؟.. لقد كذَّبك قرآن الله تعالى المجيد، فعش في هذا الخزي مخذولًا مدحوراً إلى يوم حسابك! أنت وجميع المنافقين..

وأنت يا زيد بن الأرقم، أيها الفتى الصادق الصدوق، هل ما زلت تتباعد عن القوم، وتتحاشى الاحتكاك بهم؟!..

---

(١) سورة المنافقون، الآيات ٥ ـ ٨.

لا يا غلام الأنصار! وحقك ما قلت إلَّا الصدق، وهذا رسول الله ﷺ الكريم يبعث من يأتي بك، فهلمَّ إليه يبارك جرأتك، ونفحة إخلاصك..

ويدنو زيدٌ بن الأرقم من رسول الله ﷺ والخوف الممزوج بالخَفَر يعلو وجهه، فيظل مطأطىء الرأس، ولكنَّ الرسول الأعظم يأخذه من يده، ويجلسه بقربه، ثم يؤذّنُ في أذنه، بما يملأ نفسه عطفاً وحناناً، ويقول له:

«يا غلام! صدق قولك، ووعت أذناك ما وعى قلبك، وقد أنزل الله فيما قلت قرآناً».

وجذل زيدٌ.. فحمد الله (تعالى) على أن أبانَ صدقه، وقام يشكر رَسول الله ﷺ على ما امتنَّهُ به من البركة والإيناس، ثم بَعُدَ إلى وسط القوم، يتلقّونه بالترحاب، ويُسَرُّونَ عنه ذلك الهمّ الذي حمله في طيات قلبه.

وذهَبَ إلى عبد الله بن أبيّ مَنْ يخبره بأَنْ: أُنزِلَ فيه آيٌ شدادٌ، وقد أذاعَ بها رسول الله ﷺ وهو يتلوها على مسامع المسلمين».

فقال مأخوذاً: وما هي تلك الآيات؟.

فلما أسمعوه إيّاها، شعر وكأنَّ الأرض زلزلت به زلزالًا عظيماً، وأوشك أن ينهار ويسقط عن راحلته، ولكنَّ عنفه، وقساوة قلبه جعلاه يتماسك، ويتابع المسير..

في تلك الأثناء، وقد ظهر الحق من الباطل، ظنَّ الناس أن رسول الله ﷺ قاتلٌ ابن أبيّ لا محالة.. فجاءه ابنُه، وكان اسمه عبد الله ـ كاسم أبيه ـ يقول:

«يا رسول الله! إنه بلغني أن بعض الصحابة قد أشاروا بقتل

عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه. فإن كنت لا بدّ فاعلًا فمرني به، فأنا أكفيكَهُ!.. فواللَّهِ لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرَّ بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تَدعُني نفسي أنظر إلى قاتلِ أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأكون قد قتلت رجلًا مؤمناً بكافر، فأدخل النار»[1].

وعادَ رسولُ الله ﷺ يردد على مسامعه، ما قاله للنفر من الصحابة قبله، بأنه لا يرغب في قتله، وإنما يترفَّقُ به ما بقي في جوار المسلمين. فقد كان ﷺ يعلم هذا المنافق ـ ظاهراً وباطناً ـ، لكنَّهُ يأبى إلَّا أن يكون المثل في التسامح.. أمَّا النوايا وخفايا الصدور، فلا يحاسب عليها إلَّا اللَّهُ سبحانه..

وتابعَ رسول الله ﷺ طريق العودة من غزوة بني المصطلق، بعد تلك الليلة، التي نال فيها المسلمون قسطاً من الراحة، وكان ما كانَ مما فعل، عبد الله بن أبيّ، فكان همُّهُ ﷺ أن يعجّل بالمسير حتى يفوّت على المنافقين إعادة ذرّ رماد الفتنة بين المهاجرين والأنصار.. واستأذن عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول رسولَ الله بالتقدم عن الركب، ثم انطلق إلى باب المدينة، ينتظر أباه، ويسدُّ عليه الطريق، فصرخ فيه أبوه: ويلك، ما لك؟! قال ابنُه: واللَّهِ لا تدخلها حتى يأذن لك رسولُ الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل[2]... وظلَّ هذا الابن ـ الذي كان إخلاصُهُ للَّهِ ورسولِهِ يملأ كيانَهُ ـ على موقفه حتى جاءه الخبرُ من الرسولِ: أنْ خلِّ عنه، .فليدخل.. عندها قال لأبيه: «أما وقد جاء أمر رسول الله ﷺ، فنعم».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام،ج ٣ ص ٣٠٥.

(٢) انظر صحيح البخاري، ج١ ص٤٩٩.

حديث الإفك

وتفرَّق المسلمون إلى بيوتهم وأهليهم. ووقف رسول الله ﷺ ينتظر زوجَهُ عائشة أن تنزل من الهودج، إلَّا أنها لمْ تظهر، فسأل الرجلَ الذي كان يقودها، فقال بأنه أخذ بزمام البعير وهو يظن أنَّ حرم رسول الله في داخل هودجها، وسار مع الركب كعادته، دون أن يخطر بباله أن تكون قد تخلَّفت عن المسير. . .

وشدَّ نفرٌ من الصحابة يريدون الرجوع إلى الطريق بحثاً عن زوج الرسول، فإذا بها تطلُّ، وقد اعتلت ظهر بعير صفوان بن المعطل السُّلَمي، الذي كان يجرُّهُ من أمامها. .

وانتشر في المدينة خبرُ تخلّف حرم رسول الله ﷺ، ووصولها المتأخّر ـ قليلًا ـ كمثل انتشار النار بالهشيم، وذلك بحملةٍ دعائيةٍ مغرضةٍ، تولاها عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول، وجماعته من المنافقين، ومراده أن يثأر من «محمدٍ» بخاصة، ومن المسلمين بعامة، وهو يشيع بين الناس، وبكل قحةٍ ووقاحةٍ: امرأة نبيّكم تخلَّفت وراء الركب، ثم لحقت بالمدينة على بعير رجل غريب! . . .

وسَألَ رسول الله ﷺ زوجَهُ عن سبب تأخرها، فقالت له:

«لما غشي القومَ النعاسُ، نمتُ، ولكنني استفقت في الليل، فرُحْتُ بعيداً لبعض حاجتي، فٱنسلَّ عقدي الذي فيه جَزْع ظُفَار[1]، دون أن أشعر به في الظلام الدامس. فلما رجعت إلى الرحل، التمسته في عنقي فلم أجده، فعدت أبحث عنه حتى وجدته، فلما رجعت كان الناس قد ٱنطلقوا فآثرتُ البقاء في مكاني مُتَلَفِّفَةً في جلبابي، ورحتُ

(١) الجزْع: الخرز، وظفار: مدينة باليمن قرب صنعاء، وإليها ينسب الجزع الظفاري.

أنتظرُ مذعورةً، مقهورةً، علَّ الذين يرحِّلون لي البعير يفتقدونني فلا يجدوني، فيعودوا أدراجهم للبحث عني. ولكنهم لم يفعلوا. فظللتُ على حالي، حتى سمعت صوت حركةٍ، فصرخت من مكاني: هاأنذا هنا، عائشة، زوج رسول الله ﷺ، فقال رجل:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فلمَّا سألتُهْ من يكون، أجابني بأنه يُدعى صفوان بن المعطل السلَمي، وأنه قد تخلّف عن الركب للمهمة التي يتولاها[1]، ثم أسرع يقدِّمُ لي بعيره، وهو يقول: اركبي، يرحمك الله. وقد آستأخر عني الرجل حتى ركبت، فأخذ برأس البعير، وانطلق به سريعاً، فوالله ما أدركنا الناس، حتى قدمنا المدينة».

ولم يرَ رسول الله ﷺ ما يضيرُ، فالأمر عادي، ويمكن أن يحصل مع أي امرأة ذهبت لقضاء حاجتها في ظلام الليل، وفي برية قفراء من الناس.. ولكن ما إنْ صلَّى المغرب بالمسلمين حتى تقدم بعض الصحابة، يخبرونه بأنَّ المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ يشيعون كلاماً شنيعاً حول تأخر حرمه عن الركب، فاغتاظ ﷺ من البهتان الذي يفترونه، ولكنه احتسب اللَّهَ (تعالى) ودخل إلى سكنِهِ مهموماً، حزيناً..

وراح أهل النفاق في المدينة، يكثرون من الإفك، والرسول يحتسب أمره إلى ربه (تعالى)، دون أن يذكر لزوجه شيئاً.. إلَّا أنها أحسَّت بجفاءٍ منه، وبخاصة بعدما اشتكت شكوى شديدة، فما تلطف

(١) والمهمة التي كان صفوان مندوباً إليها، التخلف عن الركب ليلتقط ما يُنسى أو يقع من متاع المسلمين، فكان لزاماً أن يتأخر عنهم في المسير.

بها، ولا رحمها كعادته في مرضها، بل كانت تأتي أمها (وهي أم رومان)، زينب بنت عبد دُهمان من بني كنانة[1] تمرّضُها. فلما رأت من جفائه لها ما رأت، استأذنته أن تنتقل بها إلى بيت أبيها لتتولى تمريضها هناك، فأذن لها الرسول ﷺ بذلك.

وإزاء هذا الوضع الخطير الذي حبكه المنافقون، والذى شقَّ كثيراً على الرسول الأعظم، خطبَ في المسلمين، وكان مما قال: «أيها الناس! ما بال رجالٍ يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلَّا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلَّا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلَّا وهو معي»[2].

وهنا وقف أسيد بن حُضير[3] وقال: يا رسول الله، إن يكن الذين يتحدثون بهذا الحديث من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص٣١١ (وقيل: هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس، كما جاء في: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢١٢٨ عن: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج١٣ ص٢٠٨، ٢١٠؛ وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٥ ص٥٨٣؛ كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام، ج١ هامش ص٢٦٧ أن اسم امرأة أبي بكر، أم ابنه عبد الله، بنت عبد العزى).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٣١٢.

(٣) أُسَيْد بن حُضير بن سمّاك الأوسي. كان أبوه «حُضير» فارس الأوس، ورئيسهم يوم بعاث. وكان إسلامه بعد العقبة الأولى، وأحد النقباء السبعين في العقبة الثانية. وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها كان أسيد بن حضير من أفاضل الناس. وكان يقول: لو أنّي أكون كما أكون على أحوال ثلاث لكنت: حين أسمع القرآن أو أقرأه، أو حين أسمع خطبة رسول الله ﷺ، أو إذا شهدت جنازة (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٤٤٤ ـ ٤٤٥).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣١٣.

فأثارت مقالتُه سعدَ بن عبادة[1] (من زعماء الخزرج) فقال لأسيد: أما والله ما قلتَ ذلك إلَّا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج (ويعني ابن أبيّ وجماعته من المنافقين) ولو كانوا من قومك ما قلت هذا!!.. وكاد أن يقع بين المسلمين شرٌّ لولا أنَّ رسول الله ﷺ تدارك الموقف، وأبدى للناس أنه يترك الأمر لله تعالى. فهو القادر على أن يظهر الحق، ويميز الخبيث من الطيب، والمنافق من المؤمن..

وطالت المدة، والسيدة عائشة ما تزال عند أهلها الذين كبلتهم الكآبة، وأحزنهم الهمُّ كثيراً. وهي لا تدري من الأمر شيئاً، بل كانت شكوكها تزداد حول عدم اهتمام زوجها بمرضها، وإبداء رغبته بالعودة إلى بيتها، حتى علمت بالأمر من أم مسطح (وكان ابنها مسطح من

---

(١) سعد بن عبادة (أبو قيس): أحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والاسلام، شهد العقبة مع السبعين من الانصار وكان مشهوراً بالجود والكرم هو وأبوه وجدُّهُ ووُلدُهُ.. قال ابن عباس: كان لرسول الله ﷺ في المواطن كلها رايتان: مع عليٍّ راية المهاجرين، ومع سعد بن عبادة راية الأنصار.. وعن أنس: أن رسولَ الله ﷺ زارَ سعداً في منزله، فلما دخَلَ وألقى عليه السلام، ردَّ سعدٌ ولم يسمع النبيَّ ﷺ، فكررها ﷺ ثلاث مرات، فقال سعدٌ: لقد ردَدْتُ عليك ولم أسمِعْك يا رسول الله لأنني أحببت أن أستكثر من سلامك وبركتك، فلما أكَلَ من زبيبه، قال ﷺ: أكلَ طعامَكُمُ الأبرارُ، وصلَّتْ عليكُمُ الملائكةُ، وأفطر عندكمُ الصائمون.. وسمع سعد ـ وهم في حجة الوداع ـ أن زاملةَ رسول الله قد ضلَّت، فأتاه هو وابنُهُ بزاملةٍ، فقال ﷺ: «قد جاء اللَّهُ بزاملتنا فارجعا بزاملتكما بارك اللَّهُ عليكما؛ أما يكفيك يا أبا ثابت (وكان سعد يكنَّى أبا قيس، وأبا ثابت) ما تصنع بنا في ضيافتك منذ نزلنا المدينة؟ قال سعد: يا رسول الله ، المنَّةُ للَّهِ ولرسوله، واللَّهِ يا رسولَ اللَّه، لَلّذي تأخذ من أموالنا أحبُّ إلينا من الذي تَدَعُ! قال ﷺ: «صدقتُم يا أبا ثابت! أبشِرْ فقد أفلحتَ، إنَّ الأخلاق بيد الله (تعالى)، فمن أرادَ أن يمنحَهُ منها خُلقاً صالحاً فتحَه، ولقد منحك اللَّهُ خُلُقاً صالحاً»، فقال سعد: الحمد للَّهِ هو فعل ذلك (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص٨٨٩ ـ ٨٩٣).

المرجفين بالإفك)، فجاءت إلى أمها تلحُّ عليها بأن تخبرها بجلية الأمر. ولمَّا لم تجد هذه الأم التقية[1] ما تدفع به إلحاح ابنتها، ورجاءها وهي تسترحمها، أخبرتها بما تلوكها به ألسنة السوء، فوقع عليها مثل ذلك الإرجاف كوقع الصاعقة، وأذهلتها المفاجأة فاندفعت إلى غرفتها باكيةً، ناحبةً، شاكيةً..

ومضى قرابة الشهر، وأهلُ الإفك ما يزالون ممعنين في الغيّ! . بينما كانت السيدة عائشة تذوي يوماً بعد يوم، حتى أنهكها الضعف، وخاف عليها أبواها من الاعتلال، وهي لا تكلم أحداً، بل تقول: إنِّي أشكو أمري إلى الله!

ولما وصل أمر أهل النفاق إلى الحدّ الذي لا يطاق، جاءَ الفرج بالوحي الإلهي. ونزلت براءة السيدة عائشةٍ، براءةً خالصةً، ناصعةً، مثلما نزل التوعّدُ لعصبة الإفك ـ بما اكتسب كل امرىء منهم من الإثم، ولاسيما الذي تولى كبره ـ بالعذاب العظيم، وذلك بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

---

(١) ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد ج٨ ص٢٧٧: أنه لمّا توفيت أمُ رومان (أم السيدة عائشة) سنة ست هجرية، ولمَّا دُلّيت في قبرها، قال ﷺ: «من سرَّه أن ينظر إلى امرأةٍ من الحور العين فلينظر إلى أمّ رومان»؛ وفي الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ج١٣ ص٢٠٩: أن النبيّ ﷺ قد نزل قبرَ أم رومان واستغفر لها. وقال: «اللّهمَّ لم يخفَ عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك» (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢١٢٨).

(٢) سورة النور، الآية: ١١.

ولكن من هو الذي تولَّى كبرَ ذلك الإفك المقيت، ومن الذي توعَّدَهُ ربُّ العرش العظيم بعذاب عظيم؟.. إنّه عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول، كبير المنافقين، وشيخ الأفاكين.

لقد استعمل ذلك الكافر المنافق كل أسلحة الغدر والخيانة حتى ينال من رسول الله ﷺ فما قدر. فأراد أن يؤذيه في عرضه، ولكنَّ الله (تعالى) أظهر إفكه وبهتانه فارتدَّ كيدُهُ إلى نحرِهِ..

ولكن لماذا يا ابن أبيّ كل ذلك الحقد على محمد ﷺ، أمِنْ أجل ملكٍ زائلٍ كنتَ تأمل به؟! واللَّهِ لو كنت من الذين أرادَ اللَّهُ بهم خيراً، لعلمت أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى.. وأنَّ كل ما في الدنيا لا يوازي ساعةً من نعيم الآخرة.. ولكنَّها نفسك الأمّارة بالسوء هي التي جعلتك يا ابن أبيّ كبير أهل النفاق، بل ورئيساً في الفسق والتآمر والعصيان!.. فماذا بعدُ، ألمْ تحسب للموت حساباً؟.

لا، لم يعد لدى ابن سلول ـ بعد الإفك ـ أي سلاحٍ يمكن أن يقوى فيه على محمدٍ ﷺ، وجلُّ ما بقي له ذلك الحقد الدفين في قلبه، بل حتى الحقد نفسه لم يعد قادراً على الاحتباس في قلب مثل هذا الرجل المنافق، المخادع، الكاذب، فانفجر يمزّق القلب الذي حبسه، ويقطع أوصاله ليذيقَهُ الموتَ الزؤام، ثم لِيقذفَ به إلى عذابٍ عظيمٍ أعدَّه له الله (تعالى)، جزاءً على أفعاله المنكرة..

وصَدَقَ الله العليُّ العظيمُ وهو يقول لرسوله الكريم: «لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم».

بل هو خيرٌ لكم ليمحّص اللّهُ المؤمنين من المنافقين..

أجل إنه خيرٌ للمسلمين جميعاً، وقد أماتَ سبحانه وتعالى

عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول بقهره وغمّه، بعد فشل كل مخططاته الخبيثة، ليرتاح المسلمون من نفاقه وكذبه..

وهو الخيرُ من نعمة الله تبارك وتعالى، ينزل في سورة النور من القرآن الكريم آياتٍ بينات، لتكون شرعاً دائماً في الإسلام الذي يريده الله تعالى ويريده رسولُهُ العظيم شرعاً سويّاً للناس كافةً..

فحادث «الإفك»، أو «حديث الإفك» ـ كما يُقالُ عنه ـ لا يعدو كونه أمراً عادياً، غيرَ جديرٍ بأن يُثير شبهةً، إذ إنه لم يزد، في وضعه الطبيعي، عن أن سيدةً فاتها الركبُ ـ حتى ولو كانت زوجَ رسول الله ـ على حين غفلةٍ منها ومنهم، فأدركها تابعٌ للركب، فاحتملها حتى ردَّها إلى مأمنها..

ولم يكن ينبغي لأحد أن يكون عنده أدنى شكٍّ في أمر تلك السيدة لأنها زوج رسول الله، وهو ﷺ أكرم على ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعل تحته امرأة يمكن أن يُشَكَّ بوفائها، وحرصها على كرامتها، وحفاظها على شرفها، وصون طهارتها. كما لا ينبغي لأحد أن يَشُكَّ ولو بمقدار ذرةٍ في أمر ذلك الرجل، صفوان بن المعطَّل لأنه من الصحابة الأبرار المؤمنين، الذابين عن الإسلام ورسوله الذين كانوا يضحّون بالغالي والنفيس لإعلاء كلمة الله (تعالى)، فكان ـ حقاً ـ كما شهد له رسول الله ﷺ: بأنه ما علم منه إلَّا خيراً!. فالسيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ ـ بعفتها وطهارتها أكرم على ربها من أن يبتليها بالسوء الذي جاء فيه أهل الإفك، وإيمانُ الصحابي صفوان بن المعطّل، الذي ما علم منه رسولُ الله ﷺ، والمؤمنون إلَّا خيراً. نعم إنَّ هذين الأمرين يكفيان بذاتهما لإبعاد أي تصورٍ غير

أخلاقي، وغير مستساغ لا ذوقاً ولا إحساساً، حتى ولا عقلًا أو فكراً. لأن من الطبيعي، أن يُصادف ويتخلَّف أحد من الركب ـ رجل أو امرأة ـ لحاجة أو ضرورة، بل وهذا ما تحفل به حياتنا اليومية باستمرار، فكيف والأمر يتعلق ببيئةٍ صحراويةٍ لها ظروفها وطبيعتها؟..

وإذا كان في الحادث ما يلفت إلى معالجة الشأن الفردي، وهو تقديم يد العون والمساعدة لأي محتاج لهما، سواء أكان امرأةً أم رجلًا، في الحياة.. فإن القرآن الكريم لم يقف عند هذا الحد، ولم يكتف بنفي التهمة الشنيعة وإبعاد سوء الظن عن النفوس المؤمنة ـ وعن السيدة عائشة بالذات في ذلك الظرف الذي وجدت فيه ـ بل عالج موقفاً إنسانياً شمولياً بالحكم الذي من شأنه أن يصونَ الأعراض الطاهرة، وحرمة البيوت الشريفة، ثم ليقطع على ألسنة السوء والكذب الاستمرار في الأراجيف. وكل ذلك حفظاً للمجتمع الاسلامي من فساد المفسدين.. فقد بدأت آيات «سورة النور» بتحديد العقوبة الزاجرة لحد الزّنى، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقةٍ ولا رحمةٍ.. وأن يجري ذلك على مرأى من الناس ومسمعهم، حتى تكون فيه الموعظة الكافية، والعبرة الوافية، وما ذلك إلّا لأنَّ الزنى جريمةٌ تدنّس الناس، وتترك أسوأ الأثر في إفساد المجتمع، وإهدار الكرامة، وتضييع النسل..

ومثل هذه الجريمة لا يأتيها إلَّا من خبثت نفوسهم، وماتت ضمائرهم، وفسدت عقيدتهم.. أما المؤمنون الأطهار، فهم بحكم إيمانهم وتقواهم، أبعد ما يكونون عن هذه الفاحشة الكبرى، لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ

فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

ثم أعقبت هذه الآيةَ المباركةَ التي تقرِّرُ حدَّ الزنا آياتٌ أُخر فيها حدّ القذف وهدفها تحصينُ المجتمع الإِسلامي من شر أولئك الفساق الذين يَلِغون في أعراض الناس بغير علم، ويهدرون كرامات البيوت الشريفة، فألزمتهم بإقامة الدليل القاطع، والبرهان الذي لا يقبل الشك على صدق ما يتقوّلون به على الناس، وذلك بأن يأتوا بأربعة شهداء. فإن لم يأتوا بهؤلاء الشهود الأربعة، فإنَّ لهم العقاب الرادع، والهوان اللاذع، حتى يرتدعوا عن الخوض في أعراض الناس، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

ولمَّا كانت الأعراض مما ينبغي أن يصان، والحديث حولها مما قد يسرُّ ضعاف النفوس، ويستهوي الفسَّاق والمستهترين.. ونظراً لما للخوض في الأعراض من خطورةٍ على المجتمع، قد تُعرّض سمعته للهدر، وتودي بكرامات الناس للضياع.. فقد خَتَمَ الله سبحانه وتعالى ـ الخبير الحكيم ـ قوله عن «الإفك»، بهذه القاعدة

(١) سورة النور، الآية: ٢.
(٢) سورة النور، الآية: ٢٣.
(٣) سورة النور، الآيتان ٤ و٥.

الاجتماعية العامة التي تهدم التهمة من أساسها، والتي تصلح ميزاناً للحكم على كل فردٍ، وعلى كل جماعةٍ، في كل زمانٍ ومكانٍ، بقوله تعالى:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

هذه حادثة الإفك كما يبيّنُها القرآن الكريم. وهي في ظروفها وملابساتها، كانت سبباً لكي يشرع الله سبحانه ما شرّع من الحدود لحماية المجتمع الإسلامي من عقوبة الزنى، ومن عقوبة القذف في أعراض المؤمنات. وشدّد ما شدَّد في إثبات هذه الجريمة المنكرة، حتى لا يؤخذ البريء فيها بفرية مفترٍ أو إرجافِ مُرجف، وحتى لا تكون أعراضُ الناس منالًا لكل حاقدٍ، وهدفاً لكل رام، وعرضةً لكل أفَّاكٍ أثيم، وصدق العليُّ العظيم بقوله تبارك وتعالى ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2].

فقد أزاحَ الله (تعالى) كل ما اكتنف حادثة الإفك من غموضٍ، وظهرت الحقيقة جليةً ناصعةً ببراءة أم المؤمنين السيدة عائشة وحصانتها، وردَّ كيدَ المنافقين وأخزاهم، وكان في ذلك رضاءٌ لنفس رسول الله ﷺ فشعر بالارتياح، وحقَّ له أن يخلد إلى فترةٍ من الهدوء والسكينة.

ولكنْ مَنْ كان هو «محمد» الإنسان الذي يرنو دائماً ببصيرته وبصره إلى ربه تعالى، يستلهمه في معرفة حقائق الوجود بأسره، ومن

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٦.
(٢) سورة النور، الآية: ١١.

كان هو رسول الله، وخاتم النبيين، فهل يطيب له قرارٌ من عيشٍ، إن لم تبلغ رسالتُهُ المدى الذي يريدُ الله تعالى أن تبلُغَهُ؟.

فلا يمكن ـ إذن ـ للرسول الأعظم محمد ﷺ إلَّا أن يبقى دائم التفكير بهذا العالم المنحرف، حتى يصلَ به إلى الإيمان الحق، الكفيل بأن يُخلِّصَهُ من الأثقال التي ترهق كاهله، وأن يحرره من القيود التي تعوّق تقدمه، ويجعله صاعداً في معارج النضوج الفكري، والسمو النفساني..

أجل، ذلك كان الانشغال الفكري لرسول الله ﷺ.. أما اهتماماته بنشر الدعوة، وصون المجتمع الاسلامي، بل وعنايته بأَحوال الناس، جماعاتٍ وأفراداً، فكانت شغلَهُ الشاغلَ في جميع الأوقات والأحوال. وهذا مثالٌ حيٌّ ينبئُ عن ذلك عندما تستأذن بالدخول عليه امرأة لا يعرفها، فتقول له بصوتٍ تملأه نبرات الشكوى والاستعطاف:

«يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث، سيد بني المصطلق، وقد أصابني من البلاء ما قد علمت، فوقعت من نصيب ثابت بن قيس بن الشماس، فكاتبني على تسعِ أواقٍ من الذهب، فجئت أستعينك لتدفعها عني وتردّ إليَّ حريتي»..

زواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث

وأطرق رسول لله ﷺ قليلًا، ثم طلب إليها أن تعود إلى دار الصحابي الذي وقعت في نصيبه حتى ينظرَ في أمرها... ولكن منذ أن خرجت تلك المرأة من عنده، ترامى فكره إلى البعيد.. إلى هدفٍ يراه في مصلحة الإسلام والمسلمين.. بل ولعلّه يطاول الإنسانية كلها..

فهؤلاء بنو المصطلق، أسارى عند المسلمين، أي أنّهم وفقاً للأعراف السائدة في ذلك الوقت ـ أرقّاء في نظام للعبودية جائرٍ، يسود الأرض كلها وقد قبلت به البشرية، عبر الأجيال، نظاماً يتحكم في رقاب العباد، ويجعلهم بمثابة سلع تباع وتُشرى في أسواق النخّاسين!.. فماذا يمكن لرسول الله ﷺ أن يصنع بأسرى بني المصطلق، وقد صاروا غنائم، ولكل من الصحابة نصيب من السَّبْيِ هو حق له؟! فهل يجوز لرسول الله ﷺ أن يسلب الناسَ حقوقهم والغنائم شرَّعها اللّهُ تعالى حلالًا؟! ثم، ماذا يمكن أن يقول الصحابة، فيما لو عُرِضَ عليهم الهدفُ الذي يرمي إليه رسول الله، وكلهم يعلم بأنَّ بني المصطلق لم يكونوا ليرحموهم لو كتب لهم الظفر عليهم؟!.

ولكنَّ رسول الله ﷺ على يقين بأن الصحابة ـ في الغالب ـ أخيارٌ، قد طُبعَ الإسلام في قلوبهم، وهم رحماءُ فيما بينهم، ولا شيء يمنع أن يكونوا رحماء مع الأعداء الأسارى، إذا كان في ذلك ما يخدم مصلحة الدعوة..

ثم أليست تلك الجارية، كانت إلى الأمسِ القريب من الحرائر، بل وابنة سيد بني المصطلق؟ وها هي اليوم قد أصابها بلاء الرقّ الذي حرمها ـ كما يحرم كل رقيقٍ ـ من عزّته وكرامته؟!..

كل تلك الأمور كانت مدار التفكير عند رسول الله ﷺ، ولا بدَّ أن يتخذ الخطوة الأولى، ويترك الأمر لله سبحانه، الذي يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير..

ومن منطلق هذا التفكير النبوي، بعث رسول الله ﷺ في طلب ثابت بن قيس، فقال له: أدفع لك كتابتك لجويرية بنت الحارث، وأتزوجها..

قال ثابت: إني أعتقتها يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ بلا فديةٍ، ولا مِنَّة.. ثم انطلق ثابت إلى بيته، فنادى على المرأة، يهبُها حريتها إكراماً لرسول الله ﷺ، وهو يقول لها: «أنت حرةً يابنة الحارث».

وبُهتتِ المرأةُ ولم تصدِّق، ولكنها استدركت، فسألته:

وهل دَفَعَ لك رسول الله ما كاتبتني عليه؟.

قال ثابت: بل وَهَبَني أفضلَ مما هو من المال، ومن قناطير الذهب والفضة؟.

فسألته جويرية بدهشةٍ:

ـ لا أفقه ما تقول أيها الرجل!

قال ثابت: لقد أكرمني رسول الله ﷺ بأن طلبك زوجاً مني.

وتجد جويرية في نبرات ثابت بن قيس ما يُبعد عنها أي شكٍّ قد يراودها حيال هذا الأمر، فتحسُّ في أعماقها خلجاتِ الراحة والاطمئنان، فتقول، والعبرات تتلاحق من مآقيها: «أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

ويطير الصحابي فرحاً بإسلام جويرية، فيقول لها:

ـ هنيئاً لك إسلامك يا أختاه، وهيَّا بنا إلى رسول الله ﷺ فهو بانتظارنا..

ويشهد أهل المدينة زواج رسول الله ﷺ بجويرية بنت الحارث، فيقول المسلمون:

ـ وكيف نسترقُّ بعدُ أصهارَ رسول الله ﷺ؟!.

ويقبلون على بني المصطلق معتقين لهم، ومحررين إياهم من رق الأسر، وجبروته على الإنسان..

ويدرك بنو المصطلق عظيم ما فعله المسلمون، وهم يمنحونهم الحرية بلا قيدٍ أو مِنَّة، فيقبل جمعٌ كبيرٌ منهم على الإسلام مهتدين، وتكون جويرية هي صاحبة البرِّ بهم، كما قالت عنها السيدة عائشة: «فقد أعتق بتزويج رسول الله ﷺ إياها مئة أهل بيتٍ من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً كانت أعظم على قومها، بركةً منها»[1]. وعاشت أم المؤمنين جويرية في بيت رسول الله ﷺ زوجة كريمة معززة، وكانت كثيرة الاجتهاد في العبادة لله تعالى: فقد خرج ﷺ يوماً من عندها بعد صلاة الفجر، ثم رجع بعد أن أضحى وهي ما تزال في مسجدها. فقال: مازلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. قال ﷺ: لقد قلت بعد الصلاةِ أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزِنتْ بما قلتِ منذ فجر اليوم لَوَزَنَتْ ما قلتِ كلَّه: سبحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، ورضا نفسِهِ وزِنَةَ عَرشِهِ ومِدادَ كلماتِه[2].

صحيحٌ أن جويريةَ كانت مباركةً على بني قومها، ولكن بفضل تقدير رسول الله ﷺ وتدبيره. فهو ببصيرته النافذة، ورؤيته الصادقة قد وازن بين ذل العبودية وكرامة الإنسان، فرأى أن الخير كله في السعي لتحقيق كرامة الانسان، وهو، وإنْ لم يكنْ قد ألغى نظام العبودية في الأرض، إلَّا أن عمله هذا قد أسّس لفكرة اجتثاث ذلك النظام الفاسد في دنيا الناس جميعاً..

ومن هذه المنطلقات الإسلامية كان على رسول لله ﷺ أن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، م ٣ ص٣٠٧ و٣٠٨؛ وزاد المعاد، ج٢ ص١٦٥.

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٧٤، [عن صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أوَّل النهار، عن ابن عباس عن السيدة جويرية عن النبي ﷺ].

يتخذ زواجه بجويرية بنت الحارث سبيلًا لتحرير بني قومها، وخصوصاً أنه لا يريد أن يُلزم المسلمين إلزاماً بهذا التحرير، بل يدعه ينطلق من قناعاتهم، تماماً كما جاءت الأحداث تثبت صدق يقينه ﷺ، فيما قدَّر وفعل...

زواج النبي ﷺ بزينب بنت خزيمة

وما كان هذا الموقف الرائع هو الأول من نوعه في حياة محمدٍ ﷺ، فمِنْ قبل ـ في السنة الثالثة للهجرة ـ كان قد تزوّج زينب بنت خزيمة، العامرية الهلالية، بعد وفاة زوجها عنها، عبد الله بن جحش الذي استشهد يوم أحد[1].. وما كان زواج النبيّ ﷺ بهذه المرأة ـ التي أقامت عند النبي ﷺ ثمانية أشهر، ولعلَّها أمضت تلك الفترة في المرض ـ إلا من أجل حمل الناسِ على الصنيع الجميل. ذلك أن السيدة زينب بنت خزيمة كانت قد اشتهرت بالإحسان للفقراء، والحدب على الضعفاء حتى لقبت بـ «أم المساكين»، فمَنْ أوْلى منها أن تحمل لقب «أم المؤمنين» لكثرة مبرّاتها وخيراتها التي كانت تقدمها إلى أولئك المحرومين[2].

ولَفتاتُ محمدٍ ﷺ في العمل الإنساني أكثر من أن تُعدَّ أو تحصى.. وما كان زواجه مِنْ أم سلمة إلَّا من هذا القبيل.. فهذه المرأة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة من (بني مخزوم) وزوجها أبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأسد بن عمرو المخزومي (وأمّهُ برَّة بنت عبد المطلب). كان أول من هاجر من بني مخزوم إلى

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٤٠.
(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٤١.

الحبشة، وله ثلاثة أولاد: سلمةُ وعمر ودُرَّة، وولدت له بأرض الحبشة زينب، فهو من المهاجرين الأوائل.. فلما كانت معركة «أُحد» أبلى بلاءً حسناً، ثم جرح، غير أنه انتَصَرَ على جراحه، وعادَ إلى سابق عهده، فقاد كتيبة من المسلمين لغزو بني أسد، وكتب الله سبحانه له النصرَ، والظفرَ بهم. ولكنَّه لم يلبث طويلًا بعد رجوعه إلى المدينة، حتى التهب عليه جرحُهُ القديم فقضى عليه، مخلِّفاً وراءه امرأةً ذات عيالٍ، وليس عندهم من يعولهم لأنهم في دار الهجرة وأحوال المسلمين في تلك الأيام أميل إلى الحاجة والفقر، بسبب توزيع موارد العيش بين المهاجرين والأنصار، فما رأى النبي ﷺ سبيلًا يردُّ بها عن هؤلاء الأطفال ـ أولاد الصحابي البدريَّ، الأحديّ، الذي ناضل، وجاهد في سبيل الله، وأمهم الكريمة، ابنة أحد أجواد العرب، الذي لقب بـ «زاد الراكب» فلا يسافر معه أحدٌ إلَّا كفاه مؤونته وأغناه[1] ـ أجل، لم يرَ النبي ﷺ أن يردَّ عن أم سلمة وأبنائها غائلة الجوع والحرمان، ويبعد عنهم مرارة الحياة، وشبح اليتم، خيراً من الزواج بأمهم، حتى يوفّر لهم الرعاية الصالحة، ولأمّهم المكانة الرفيعة.. فكان زواجُهُ بأمّ سلمة كي يحتضن صغارها، وينزلها المنزلة التي تستأهلها، إذ قد شهد لها الصحابة ـ جميعاً ـ بالفضل الكبير، فكانت ذاتَ يُمْنٍ وبركة لأنها صحبت النبيَّ في أكثر غزواته الكبرى مثل خيبر، وفتح مكة وحصار الطائف وغزوة هوازن وثقيف والحديبية وحجة الوداع.. فضلًا عمَّا كانت تتميز به في ورعها ورجاحة عقلها ونُصح أمهات المؤمنين،

(١) المصدر السابق، ص١٤٤ (عن سير أعلام النبلاء للذهبي، ج٢ ص٢٠١).

الأخريات، وغيرها من الفضائل التي تخلّد ذكرها بين الصالحين والصالحات..

هذه بعض آثار محمد ﷺ الإنسانية، السامية..

فتارةً ينشدُ تدعيم أسس السلوك السوي والخلق السليم، كما فعل مع زينب بنت خزيمة، التي اشتهرت بأخلاقها وشمائلها.

وتارةً يهدف إلى تشييد صروح الحدَب والرحمة، كما فعل مع أبناء أبي سلمة، فقد بلغت حفاوته بهم مبلغاً كبيراً عوّض عنهم ما فقدوه وعاشوا معه كأولاده ﷺ[1]..

وها هو مع بني المصطلق يروم تحرير الإنسان، فلا يُسَجَّل على محمد ﷺ تكريسُ الرق، بل يُشهد له بكراهيته، والعمل على إلغائه، فيكون قد أرسى قاعدة منعه، ومحاربته بطريقته الخاصة التي يتمثّل الناس بها، من أجل محاربة الرق والقضاء عليه. بل وكان التنزيل الحكيم هو الذي يشجع دائماً على عتق الرقاب، وتحرير العبيد، إذ جعل في مطلع كل كفارة عن ذنب قد يقترفه المسلم «تحرير رقبة»..
وهذه الأفكار كان المسلمون يطبقونها في الوقت الذي كان الأعداء يسترقّون من المسلمين. من أجل ذلك رأى ﷺ وجوباً عليه الزواج بـ «جويرية» بنت الحارث، حتى يضع أول الأسس لإلغاء الرق في العالم كله، وذلك من زاوية النظرة إلى كرامة الإنسان الذي خلقَهُ ربُّهُ فأحسن خلقه وأكرمه.

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٥٠.

البحث الثاني



وفي ظلال هذه النفحات الإنسانية التي كان رسول الله ﷺ يشيعها في أجواء المدينة، كان المسلمون ينعمون بأوقاتهم، وكلها تحفل بالإيمان والخير والعطاء، فتتأصّل في نفوسهم الدعوة الإسلامية، وتزيدهم إنسانيةً على إنسانيتهم.. وفي هذا السياق الذي كان رسولُ الإسلام يعمل لجعله هدفاً وغايةً من أجل خير الإنسانية عامةً، وأبناء الجزيرة العربية في المقدمة، كان أعداؤه، وأعداء دعوته يغضبهم هذا النهج الاسلامي في المدينة ويدفعهم إلى تعميق الحقد عليه، واختلاق كافة الأسباب والذرائع للتآمر عليه وعلى دعوته.. لأنَّ مثل ذلك البناء في المدينة إنما ينذر بتهديم كياناتهم، لما فيه من قيم تدفع الناس للاطمئنان إليه، والانجذاب نحوه، بصورةٍ إراديةٍ أو عفويةٍ.. وهذا ما لا يريده أهل الشرك، فتدفعهم حميَّةُ الجاهلية لحشد شتى الطاقات، لاقتلاع هذا النهج من جذوره!.. ولم تكن أحقاد العرب ـ وبخاصة قريش ـ لتخفى على رسول الله ﷺ، أو يغيب عن باله ما يقومون به من استعداداتٍ لقتاله، إذ كان يبث العيون في شتى النواحي من الجزيرة، تتقصّى له الأخبار، وتطلعه على كل ما يدور فيها من تحركات. وإلى جانب قبائل العرب ـ في حقدهم على

الإسلام وعلى رسوله ـ كان هنالك ـ دائماً ـ اليهود وهم أشدُّ حقداً، وأعتى عداوةً. وكان بنو النضير من أكثر الناس حماسةً لفكرة القضاء على محمدٍ ﷺ، فمنذ أن أُخرجوا من المدينة مكرهين، وهم يخططون لذلك، بما عزموا عليه من جمع العرب في غزوةٍ واحدةٍ للمدينة، فخَرَجَ عشرون رجلًا من زعماء اليهود وسادات بني النضير أمثال: حُيي بن أخطب، وسلّام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق (عن بني النضير)، وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمّار الوائلي (عن بني وائل) للاتصال بقبائل العرب وحثّها على توحيد الجهود لمقاتلة العدو المشترك «محمد بن عبد الله»!.

وكانت وجهة هؤلاء الداعين للحرب مكة أولًا، حيث قريش، صاحبة السيادة بين القبائل.. فما يتقرّر في مكة من شأنه أن يشدَّ سائر القبائل فتسير في الركب!.. ويجعلها تفعل مثلها..

واجتمع الكيد اليهودي مع الشرك القرشي.. فلمّا أزفت ساعة المصارحة، سأل شياطين قريشٍ حييَّ بن أخطب عن حال قومه بني النضير، بعد إجلائهم عن المدينة، فقال حيي: لقد تركناهم بين خيبر والمدينة، يتردّدون حتى تأتوهم، فيسيروا معكم إلى «محمدٍ» وأصحابه!

وعادت قريش تسأل: وأخبار بني قريظة؟.

فأجاب حُيي: أقاموا بالمدينة يمكرون بـ «محمد» وإسلامه، حتى تأتوهم فيميلوا معكم!!...

إذن فالأمر الذي يشغلهم جميعاً هو واحدٌ، والنوايا متفقةٌ عليه!.. ولكن قريشاً تريد أن تتأكد من اليهود بالذات، وهم أهل

الكتاب، وأصحاب دينٍ سماوي، إن كان دينُ «محمدٍ» الذي «يزعمه» هو أحقُّ من دينها في عبادة الأصنام ـ مرةً ثانيةً ـ. ولذلك سألت الوفد اليهودي بقولها:

«يا معشر يهود! إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن «ومحمد»، أفديننا خيرٌ أم دينه»؟![1].

وجاء جواب اليهود بما يخالف الحقائق والأعراف، بل والفطرة السليمة في بني الإنسان، فأجابوا:

«بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحقِّ منه»![2].. أي تماماً كما كان جواب كعب بن الأشرف، من قبل، في سفره إلى قريش بعد انتصار المسلمين في بدر..

ولكن لماذا كل تلك البلاهة القرشية.. وأين هي من تلك المراوغة اليهودية؟! وكلتاهما كذبٌ بكذب، ونفاقٌ بنفاق.. فهل صحيحٌ أنَّ قريشاً لم تدرك إلى الآن أنّ دين التوحيد الذي يدعو إليه «محمدٌ» أحقُّ أن يُتَّبع؟! أوَ ليس اليهودُ يعلمون ممّا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة أن «محمداً» هو النبي المنتظر، والإسلام هو الدين لأهل الأرض؟! ومع ذلك كانوا يكذبون بعضهم على بعض، ويصدّقون كذب بعضهم على بعض، فيتفقون على الغي والباطل، لأن المآرب الدنيوية التي كانت تجمعهم هي واحدة... ولو تركنا زعماء قريش جانباً لأنهم على الوثنية، فهل يغفر لليهود ذلك الخطأ الفاحش الذي ارتكبوه، عندما أنكروا أحقية دين الله تعالى، وجعلوا الكفر خيراً منه؟!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٢٥.

(٢) المصدر السابق.

فهل بعد أفظع من تلك الجريمة يرتكبها أولئك اليهود؟

وماذا كان دافعهم حين أوغلوا في جريمتهم النكراء تلك إلَّا مداهنة قريش، وكسب عواطفها، وجعلها تسير في ركابهم؟ بل ولم تكن قريش لتحتاج إلى ذلك في كراهيتها لـ «محمد» وعداوته، واليهود أنفسهم يعلمون ما هي عليه.. ومع ذلك اتخذوا الكفر بدل الإيمان وسيلةً لتنفيذ مآرب حاقدة، موتورة..

أوَلا يدرك أولئك اليهود أنَّ إقرارهم بدين قريش ـ دين الوثنية والشرك ـ على أنه خيرٌ من الدين الذي يدعو إليه «محمدٌ» هو إقرارٌ في الوقت نفسه بأن ذلك الدين خيرٌ من اليهودية؟! لأنَّ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام هي كتابٌ سماويٌّ، مثلما هو القرآن الذي أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كتابٌ سماوي، فإن جعلوا الوثنية خيراً من إحدى هاتين الرسالتين السماويتين، فإنها تكون خيراً من الثانية.. ومع علم اليهود بأن رسالات السماء هي الأَولى باتباعها والإيمان بها، وعلى الرغم من يقينهم بهذه الحقيقة، فقد أنكروا الإسلام وفضّلوا الوثنية عليه.. ولكن قاتلهم الله، لماذا؟ إنه الحقدُ وقد أعمى بصائرهم، فكان منهم ما كان تعدّياً على الله (سبحانه)، وافتراءً على دينه الحق..

ولم يكن ذلك الموقف التاريخي الشائن من نفرٍ يهوديّ ـ وهو أشدُّ كفراً من شرك الوثنيين أنفسهم ـ ليمرّ دون عقاب، وها هو العقاب يتنزَّلَ في الآيات القرآنية التي تحملُ لعنةَ الله على أولئك اليهود الذين يكفرون بالتوراة والإسلام، ويؤمنون بالجبت والطاغوت، وذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا

﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾[1].

نعم ذلك هو الحق من الله عزَّ وجلَّ: لعنةٌ أبديةٌ، وسبّةٌ سرمديةٌ لبني اليهود إذ جعلوا الكفر خيراً من دين الإيمان بالله الواحد الأحد.. أجل! اللعنة لـ «أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً»، إنه قول الحقّ تبارك وتعالى.. «ومن أصدق من الله قيلاً»..

لقد أرادَها أولئك اليهود من سكان جزيرة العرب ـ يومئذٍ ـ مراوغةً خسيسةً، فإذا هي لطخةٌ سوداءُ في تاريخهم الطويل تدلُّ على المرض في قلوبهم.. وهي لطخة لن يمحوها الزمان ما دام كتاب الله، القرآن المجيد، قائماً على مدى الأزمان.. وليس العقاب لليهود ـ باللعنة التي تبعدهم عن رحمة الله ـ لأنَّ التعدّي حصل على دين الإسلام وحده، بل لأنه كان تعدياً أيضاً على التوراة نفسها ـ كتاب بني يهود ـ الذي يوصيهم أن يكفروا بالأصنام وعبّادها، وترك الشرك بالله وأعوانه، فإذا هُم والمشركون حلفاءُ قائمون! وهذا هو الفارق بينهم وبين المسلمين، ففي الوقت الذي ينكر فيه اليهود القرآنَ، ولا يصدقون بنبوّة محمدٍ ﷺ، فإن المسلمين يؤمنون بالتوراة، ويصدقون بنبوّة موسى عليه السلام، تماماً كما يؤمنون بالإنجيل، ويصدّقون بنبوة عيسى ابن مريم عليهما السلام، ومثل ما هو إيمانهم الحق بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرقون بين أحدٍ من رسله..

وانزلقت قريشٌ بالمخادعة ـ وإن كانت بالحقيقة لا تخادعُ إلَّا نفسها ـ فوافقت على خطة الوفد اليهودي لمقاتلة «محمد»..

وخرج اليهودُ، دعاة الحرب من مكة، يحملون موافقةَ قريش

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٥١ و٥٢.

حجّةً لإقناع قبائل العرب الأخرى بغزو المدينة. . وراحوا يتنقلون من مضاربَ إلى أخرى، وينزلون عند غطفان من قيس عيلان، وعند بني مرةٍ، وبني فزارةٍ، وأشجعٍ، وسُلَيْم، وبني سعدٍ، وأسدٍ. . وكل قبيلةٍ أو عشيرةٍ من هؤلاء تريد ثأراً من المسلمين، لأنّ في نفوسهم عداوة لنبيّ الاسلام. . نعم لقد ذهب اليهود إلى تلك القبائل وهم يحمدون لهم وثنيتهم، وينكرون الإسلام وأهله، حتّى مهّدوا لغزو ساحق ـ كما كانوا يتوهّمون ـ فعادوا إلى ديارهم يتحدّثون بما فعلوا، متفاخرينَ، متباهينَ، داعين بني قومهم من اليهود للتهيؤ والاستعداد.

خروج الأحزاب لغزو المدينة

وانقضت شهورٌ قليلةٌ، وحان الموعدُ المتفق عليه، فخرجت القبائل وبطون العشائر، جماعاتٍ وأحزاباً، يحملون رايات العرب، وتأييد اليهود. والكل يتوجهون إلى المدينة لغزوها، والقضاء على الإسلام وأهله. .

وخرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة، بقيادة أبي سفيان بن حربٍ، في أربعة آلاف راجلٍ، وثلاثمئة فارسٍ، وخمسمئةٍ وألف ممتط بعيره. ووافاهم بنو سليم وأصحاب بئر معونة بمرّ الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة يقودهم عُيَيْنة بن حصن، وبنو مرة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع بقيادة مِسْعر بن رخيلةٍ. ثم انضم إلى تلك القبائل والبطون: بنو سعدٍ، وبنو أسدٍ، وغيرهم من الأحزاب. .

وفي شهر شوال سنة خمس للهجرة، تجمّع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف محاربٍ، فتمركزت قريش ومن معها في

مجمع الأسيال (شمال غرب أُحد) بينما تمركزت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد قرب وادي القناة إلى جانب جبل أحد.

وكانت أخبارُ خروج القبائل تصل الرسول ﷺتباعاً، وبأدق تفاصيلها، فسارع إلى دعوة كبار الصحابة للمشاورة حول خطة الدفاع عن المدينة، والحؤول بين الأحزاب وتحقيق غايتهم العدوانية...

وبدت الآراء متوافقةً في التركيز على مواقع المدينة وجغرافية الأَرض المحيطة بها. إذ رأى المجتمعون أن أكثر نواحيها تشكل عوامل طبيعية تمنع الأعداء من الدخول إليها بطريقةٍ سهلةٍ. فإلى جانب الجبال ـ وهي حواجزُ طبيعية ـ تقوم حرة الواقم من الناحية الشرقية للمدينة، وحرة الوبرة من ناحيتها الغربية، وآطام بني قريظة في جنوبها الشرقي، فلا يؤتونها من قبلهم لأن عهدهم مع النبي ﷺ مازال قائماً..

وأشار البعض بأن تكون مؤخرة الجيش الإسلامي عند آطام بني قريظة بحيث يسهل عليه تلقي المدَد من تلك الناحية. ولكنَّ غالبية الآراء عادت واتفقت على أنَّ تلك الجماعة ـ وأي جماعة غيرها ـ من اليهود لا يُمكن أن يُركَنَ إليها، أو يؤمنَ غدرها، إذ ربما ترى في كثرة الأحزاب ما يشجعها على نكث العهد، لاسيما وأن لديهم من الاستعداد ما يكفي للانقلاب على المسلمين في أي وقتٍ. ومع أنه بدا ما يشبه الإجماع على صحة هذا الرأي، إلا أنهم وجدوا أن من الأفضل ألَّا يثيروا حفيظة تلك الجماعات من اليهود ـ في مثل ذلك الظرف بالذات ـ حتى إذا تبيّنت خيانتهم، وانضمامهم إلى الأحزاب، فسوف لا يعدم المسلمون السبيل الذي يتدبّرونه للحؤول دون خطرهم..

حفر الخندق

وبقيت الناحيةُ الشمالية من المدينة، فهي وحدها مكشوفةٌ ويمكن أن تشكّل نقطة الضعف في مقاومة المسلمين ودفاعهم، بل لعلّها الثغرة الوحيدة التي يمكن للعدو النفاذ من خلالها إلى قلب المدينة، حتى ولو تواجد الجيش الإسلامي كله هناك، ما لم يسارعوا إلى تحصين تلك الناحية بما يخفّف من شدة الهجوم عليهم. . . وهنا قال سلمان الفارسي:

ـ أتأذن يا رسول الله بأن أُشير؟! . . .

قال الرسول ﷺ: تفضل، وهاتِ ما عندك يا أخا الإسلام.

قال سلمان: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوَّفنا الخيل خَنْدَقْنا علينا». .

وانفرجت أساريرُ رسول الله ﷺ إذ «لما كانت المدينة تحيط بها الحرّات والجبال وبساتين النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبي ﷺ يعلم كخبير حاذق أنَّ زحف مثل هذا الجيش الكبير ومهاجمة المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال»[1] فقد وافق على حفرالخندق في هذا الجانب لأنه يؤمّن للجيش الاسلامي فرصاً أكبر في تصدّيه للعدو. . وعلى الفور أمر رسول الله ﷺ بأن يؤذَّن في المسلمين للاجتماع، حتى يبيّنَ لهم خطورة الغزو، وضرورة تحصين المنازل والآطام، وسدّ المنافذ والثغور. . ثم دعا الرجال إلى شدّ العزائم، وحمل المعدات والأدوات، للخروج إلى حفر الخندق.

وعُيّن مكان حفر الخندق بحيث يكون أمام جبل «سلع» مقابل

---

(١) الرحيق المختوم، ص٢٧٩.

جبل «أحد»، ويصل ما بين الحرّتيْن (واقم والوبرة)، ثم جرى توزيع الرجال إلى مجموعات، تضم المجموعة عشرة رجال، وتقوم بحفر أربعين ذراعاً، فيتم حفر الخندق ـ بهذه الطريقة ـ بوقت أقل. . .

وإذا كانت النفوس امتلأت حماسة، والسواعد اشتدّت قوةً، فإن العمل بدا صعباً وشاقاً، لأن الأرض صلبة، والطقس شديد البرودة. . ولكن في سبيل الدين تهون كل المتاعب والمصاعب. . فأقبل الجميع يعملون بهمة قلَّ نظيرها حتى يشقوا الخندق، قبل هجوم الأعداء، دونما همٍّ لوصب أو تعب. . فالكل يأنسُ بالغبار يختلط بالأنفاس، ويمتزج بالعرق الذي يتصبب منهم، ولا أحد يبالي بالأثواب تتشقق عن الصدور والبطون فيغطيها التراب، ولا أحد يهتم بجروح الأيدي وكدمات الأرجل وهي تدمى. . فالجميع يجهدون في العمل علَّهم ينالون الأجرَ والثواب. ورسول الله ﷺ لا يبخَلُ على نفسه بالجهد، شأن كلّ فردٍ من صحابته، فيضرب بالمعول، ويجرف بالمسحاة، وينقل على كتفه الصخور والحجارة. . إنَّه يكدُّ، ويحثُّ الرجال على الصبر والاحتمال، وهو يذكّر بقوله الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾[1] تبياناً لما في العمل ـ عندما يكون خالصاً لوجه الله ـ من الحسناتِ التي توضع في الميزان يوم الحساب. . وهذا ما يزيد المسلمين عزماً وصلابة في الحفر، علَّ الله تعالى يثيب العاملين على قدر ما يبذلون من الجهد والمشقة. .

وفيما الحفر على قدم وساقٍ، إذا بصخرة عظيمة بيضاء، تمتنع عن الاقتلاع، فلا تقدر عليها السواعد والأدوات، فأشارت مجموعة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

سلمان الفارسي، التي اعترضتها الصخرة، أن يرقى ويخبر رسول الله بأمرها، فسارع سلمان يقول له: يا رسول الله، لقد استعصت علينا صخرة كبيرة يضرب عمقها في الأرض، فلم نقدر عليها حتى وهنت السواعد وفُلَّ الحديد، فوالله ما نحب أن نتجاوز الخطَّ الذي رسمته لنا..

ونزل رسول الله ﷺ يجلس على تلك الصخرة، ويتفحّصها، ثم يأخذ معولًا كبيراً، ويهوي عليها بكل قوته وعزمه، وهو يقول: «بسم الله، وبعون الله»... فانقدح منها شرر أضاء لمعانه مثل البرق في جوف الليل البهيم.. فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة الفتح، وكبَّر من ورائه المؤمنون... وانهالَ ﷺ على الصخرة بضربة أخرى، فثالثة والشرر ذاته يلمع، والحناجر نفسها تردّد: الله أكبر، الله أكبر.. إنها روعة الإيمان تنطلق من أفواه المؤمنين بهذا التكبير الذي يشقّ عنان الفضاء، فيكبّر الوجودُ الكوني بأسره تكبيرة العبودية لله خالق السماوات والأرض، لأنه وحده الكبير المتعال، أكبر من السماوات والأرض، وأكبر من مخلوقاتهما، وأكبر من الوجود كله، وهو القادر ليس على صخرة في هذه الأرض، بل والقادر على أن يسجِّر البحار، وينسف الجبال، ويشقق الأكوان.. لقد استعان رسول الله ﷺ بالله في مغالبة تلك الصخرة، فكان لا بدَّ أن تنفلق في وسطها، وتتشقَّق في جوانبها.. فانبرى إليها الصحابة بمعاولهم يفتتونها، ويرفعون أجزاءها، وقطعها المتناثرة، وهم لا ينفكّون يكبّرون الله تعالى..

وجلسوا يستريحون، فاقترب سلمانُ من رسول الله، يسأله:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا اللمعان الذي رأينا وأنت تضرب الصخرة؟!

قال ﷺ: أوَ رأيتَ يا سلمان؟!

قال: بلى، والصحابة جميعاً، صلَّى الله عليك..

فقال الرسول الأعظم، الذي لا ينطق عن الهوى: «أما الأولى، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإنَّ الله ـ تعالى شأنه ـ فتح عليَّ بها الشامَ والمغرب، وأما الثالثة فإنَّ الله ـ سبحانه ـ فتح عليَّ بها المشرق»[1]، وظهرت لي قصورُ كسرى وقيصر، التي تجتاحها سنابك خيول المسلمين إن شاء الله تعالى.

وفرح المسلمون وهم يسمعون بشارة رسول الله ﷺ بالفتوحات.. فيرون بأنَّ تلك البشارة قد تكون المؤشر على أنَّ الله سبحانه سيؤيدهم بالنصر في جهادهم، فيقولون: الحمد لله على وعده الصادق.. وتتطايرُ فرحة البشرى، من جماعةٍ إلى جماعةٍ، فتكتنزها القلوب وتحتضنها النفوس، فإذا النداء من كل جانبٍ: «هذا ما وعدنا الله ورسولُه، وصدق الله ورسوله».

ويتواصَلُ العمل في حفر الخندق، ويبقى رسول الله ﷺ قائماً بين المؤمنين وهو يشارك في العمل، حتى أُجهد، وأخَذَ منه التعب كل مأخذ، فيفترش الأرض، ويتوسَّد الحجارة لكي يقيل قليلًا. ويراه المؤمنون على تلك الحالة فيشق عليهم الأمر، ويقولون: «لا حول ولا قوة إلَّا بالله»..

ويبدو أنه ﷺ قد أخذته إغفاءةٌ وجيزة، ما لبث بعدها أن صحا، فراح يعاتب الصحابة بمثل هذا العتب الرفيق، وهو يقول: «ألا أيقظتموني»!.. ثم يسارع إلى معولٍ، فيلتقطه، وينزل إلى عمق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٣٠.

الخندق يضرب فيه وهو يردد: «اللّهم لا خير إلَّا خير الآخرة، فارحم الأنصارَ والمُهاجِرَة»[1].

وينسابُ دعاءُ النبيّ ﷺ على الشفاه، فيغنّيه المؤمنون لحناً طيباً، وتتناقله الحناجر نغماً رخيّاً، تنزاح به كل المتاعب، وتسهلُ معه كل الشدائد، فيجيب المؤمنون قائلين:

نحنُ الّذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[2]

ثم يعاودون الإنشاد فرحين:

اللَّهُمَّ لولا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنَا ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً علينا وثبِّت الأقَدامَ إنْ لَاقَيْنَا

إنَّ الأُلَى قد بَغَوْا علينا وإنْ أَرادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا[3]

هكذا عاشَ المؤمنون تلك الفترات في حفر الخندق، يؤمنون بالواجب فرضاً مقدساً، وبالعمل شرفاً سنيّاً، ويصدقون الرسولَ نبيّاً كريماً، فلا يحفلون بعده بتعب، أو نصب مهما اشتدَّ.. بخلاف المنافقين، الذين جاؤوا يشاركون في العمل ـ خوفاً من المصير على حياتهم ـ، بهمة متراخية، يكاد حمل المعول أو المكتل أن يُضنيَهم فلا يجدون إلَّا الهرب سبيلًا للخلاص من «النكبة» التي أوقعوا بها أنفسهم، فيذهبون متسللين إلى بيوتهم، الواحد تلو الآخر، حتى بلا ذريعةٍ يحتجّون بها، أو إذْنٍ يستأذنون به رسول الله ﷺ...

لقد كانوا يفرّون خُلسةً عن الأعين، ولكنْ، غاب عن بالهم أن الله (تعالى) الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، يرقب كل

---

(١) أعيان الشيعة، م ١ ص ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح البخاري، غزوة الخندق ٢ ص٥٨٩.

حركةٍ يقوم بها الإنسان على وجه هذه الأَرض، وأنهم سيجازون على فرارهم بما قد يصيبهم من عذاب أليم، كما يخبرنا قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ومَن إلَهٌ غير الله في السماوات والأرض يحصي كل حركةٍ من حركاتنا، وكل سكنةٍ من سكناتنا.. فإن كانت فِعالُ المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون هرباً يستحقُّ العذاب الأليم، فإنَّ جهودَ المؤمنين الصابرين، المجالدين، الذين لم يستهينوا بالعمل، ولم يتخلّفوا عن الواجب، لها جزاؤها الكريم عند الله سبحانه، المجسَّد بالمغفرة والرحمة.. فإن احتاج بعضهم إلى قضاء شأنٍ خاصٍّ ـ ولكل امرىءٍ من الشؤون ما يغنيه ـ فلا يذهب إلَّا أن يستأذن رسولَ الله ﷺ.. وهنا تظهر رحمة الله (تعالى) بهؤلاء المؤمنين بالوحي الذي يتنزَّل على رسول الله ﷺ، يبيّن حالهم، ويأمر الرسول بأن يأذن لمن يشاءُ منهم ويستغفر لهم الله لأنهم ما رغبوا ترك العمل تباطؤاً وتخاذلًا، إنما لبعض الشؤون التي استدعتها الضرورة، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٢.

وبتلك النفحات القرآنية التي تقيم الموازين والفوارق بين المؤمنين والمنافقين، تَتَابع حفر الخندق حتى انتهوا منه ـ بما بذلوا من الجهود المضنية ـ بعد ستة أيام، تواصل فيها العمل ليلًا ونهاراً، وما كان لغير المؤمنين أن ينجزوه في مثل تلك المدة القصيرة..

ووقف رسول الله ﷺ يرقب عمل المؤمنين بعينٍ راضيةٍ، ونفسٍ مطمئنةٍ، فيحمد الله (تعالى) ويثني عليه، لما مَنَحهُ ومنح المؤمنين من قوة العزيمة، وطول الصبر حتى تمكنوا من إقامة هذا الخط الدفاعي عن أنفسهم وعن مدينتهم...

وبعدما اطمأنَّ الرسول ﷺ إلى التحصينات التي أقيمت، وتعزيز تدابير الدفاع التي اتخذت في المدينة، وعند الخندق، دعا إلى المناداة بالخروج، ثم ركب في ثلاثة آلاف مقاتل يتقدمهم إلى الناحية الشمالية من المدينة حيث نُصبت للرسول ﷺ خيمته، وعسكر الجيش الإسلامي، ما بين جبل سلعٍ (من ورائه) والخندق (من أمامه)..

هذا ما كان من أمر المسلمين، وما قاموا به من استعدادات للدفاع عن أنفسهم.

أما المشركون، وبعد التقاء جموع أحزابهم في بدرٍ ـ ولمّا لم يجدوا المسلمين في انتظارهم كما كانوا يأملون أو يظنون ـ فإنهم توزعوا كتائب عديدةً، يقودها أبو سفيان بن حربٍ، وتقدموا نحو المدينة.. وكما قلنا، فقد نزلت قريش بمجمع الأسيال، في أربعة آلافٍ من رجالهم وأحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، ونزلت بنو غطفان ومن تبعهم من أهل نجدٍ في ستة آلاف بذنب نَقْمى، إلى جانب أُحُد.

وكانت مفاجأة لجواسيس المشركين تلك التحصينات التي أقيمت حول المدينة.. أما ما أذهلَ الأحزابَ.. فهذا الخندق الذي جعلوه أول خطوط دفاعهم، والذي يظهر ـ بمدى طوله وعمقه ، وسعة عرضه مثل مارِدٍ ممدودٍ، لا يقترب أحدٌ منه إلَّا ويكاد يبتلعه في جوفه[1].

وتاهت الآمال من الأحزاب، فقد جاؤوا يريدون غزو المدينة، وفي ظنهم أنها لن تصمد أكثر من يوم أو بعض يوم.. ولكنهم وجدوا من التحصينات ما يضعهم أمام أحد أمرين: إمّا دخولها عنوةً، وهذا عسيرٌ جداً، إن لم يكن ضرباً من المحال.. أو محاصرتها حتى يجدوا السبيل لاختراق دفاعاتها!.. وهذا ما حصلَ، فضربوا عليها الحصار من مختلف الجهات، حتى لا يدخلها، أو يخرج منها أَحَدٌ..

وطالت مدة الحصار، دون أن يجد الكفار والمشركون وسيلةً لاقتحام الآطام، وغزو المسلمين في عقر دارهم، مما جعل الوهن واليأس يسيطران على النفوس، بل راح التململ يظهر في صفوف المقاتلين حتى وصل الحال بهم إلى الجهر بالتخلّي عن هذا الغزو والرجوع إلى ديارهم.

وتضاربت الآراء بين قادة الأحزاب: بين مؤيدٍ للرجوع، وبين مصرٍّ على البقاء، على الرغم من عدم كفاية المتاع والزاد الذي احتملوه، ورداءة الطقس، ولا سيما في الليل، ببرده القارس الذي ينخر العظام، وعواصفه الهوجاء التي تهبُّ بين الحين والآخر...

(١) بلغ طول الخندق خمسة آلاف ذراع، وعمقه من سبعة إلى عشرة أذرع، وعرضه من تسعة أذرع وما فوق.

وكان ممن أخافه تضارب الآراء أكثر من غيره، وأوقع في نفسه الوجد، حُيي بن أخطب، إذ خشي أن يغلبَ رأي الدعاة إلى التخلّي عن هذا الغزو، فتذهب سدىً كل تلك الجهود التي بذلها اليهود لجمع العرب وشدّهم إلى المدينة، وتضيع الآمال التي عوَّل عليها في القضاء على «محمدٍ»، لأنه لن يكون من السهل فيما لو تفرقت القبائل من إعادة جمعها على حربه!..

نقض بني قريظة العهود

ولكن أليس حُيي بن أخطب من بني يهودٍ، ولن يعدم الوسيلة التي يؤثِّر فيها على الأحزاب حتى تصمد لقتال «محمدٍ» وأصحابه؟! ولذلك جمع إليه قادة الأحزاب، وقال لهم: لقد نسيتم يا معشر العرب قدر قومي، وغاب عنكم أمر بني قريظة، فإنَّ إقامتهم بجوار «محمدٍ» ما كانت إلَّا على مضض، فلم لا نتسلل إلى بيوتهم، ونقنعهم بفتح أبواب آطامهم أمامنا، وبذلك نقطع المددَ عن المسلمين، وندخل إلى المدينة نقاتلهم في عقر دارهم؟...

وطافَ الفرحُ على وجوه زعماء الأحزاب، فقالوا له:

ـ وكيف السبيل إلى ذلك؟.

قال ابن أخطب: أنا أذهب إلى زعيم قريظة وأحرِّضه على الانضمام لجموعنا..

ووافق الجميع على رأيه، فانتظر حتى أقبل الليلُ، وغطت الظلمة القاتمة الأرجاء، فتسلل في نفرٍ من أصحابه حتى وقفوا على حصن بني قريظة، وطلبوا أن يتحدثوا إلى زعيمهم كعب بن أسدٍ، وصاحب عقد بني قريظة وعهدهم مع رسول الله ﷺ؛ فأبى أن يفتح

لهم بابَهُ خوفاً من أن ينكشف أمره لدى المسلمين، وتدور الدائرة عليه وعلى بني قومه. ولكن ابن أخطب ما زال به، يداهن ويراوغ، حتى أقنعه، ففتح له الباب، فبادره ابن أخطب قائلًا:

«ويحك يا كعب! جئتُك بعز الدهر وببحرٍ طام (يريد كثرة الرجال)، جئتك بقريشٍ على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسْيال من رومة[١]، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمى[٢] إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل «محمداً» ومن معه»[٣].

فقال له كعب بن أسدٍ: «بل جئتني والله بذُلِّ الدهر وبِجَهام[٤] قد أهرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيءٌ، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلَّا صدقاً ووفاءً»[٥].

وطالَ النقاشُ بين الرجلين، فكعبٌ يريدُ البقاء على الحياد، وحييّ يريده أن ينضمّ إلى الأحزاب، إلى أن أمكن لابن أخطب أخيراً أن يؤلّب صاحبه على النبي ﷺ، ويغويه بالآمال العريضة، حتى أقنعه بنقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ والدخول مع المشركين في محاربته، ولكنْ شرَطَ زعيمُ قريظة على حيي أنه إن لم يظفروا بمحمدٍ عليه أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه!.. فأجابه إلى ذلك،[٦] وعندئذٍ أقبل عليه يعانقه، وهما يتواعدان بالنصر!..

---

(١) رومة: أرض في أطراف المدينة، فيها بئر رومة التي اشتراها عثمان بن عفان، وتصدق بها.
(٢) ذنب نقمى: موضع قرب أحُد كان لآل أبي طالب.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٢٣٢.
(٤) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماءَ فيه.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق؛ زاد المعاد، ج٢ ص١٧٠.
(٦) زاد المعاد، ج٢ ص١٧١.

وظنَّت الأحزاب أن مسعى ابن أخطب سوف يحقق لهم الآمالَ بدخول المدينة.. ولكن أنَّى لذلك اليهودي المضلِّل، مهما كان صاحب حيلةٍ ودهاءٍ، وأنّى للأحزاب مهما كانت جموعها غفيرةً وقواها شديدةً، أن تحقق نصراً على المؤمنين، وهؤلاء على عهدهم لله باقون؟ أو أن تهزم جنده ـ سبحانه ـ وهم لدينه ناصرون؟... فما كادَ الصباحُ يطلع حتى كان خبرُ نقض بني قريظة لعهدهم قد بلغَ رسول الله ﷺ فاغتَمَّ له، واحتاط من سوء عاقبته الوخيمة.. فأمَرَ بألَّا يُشاع الخبر بين المسلمين حتى لا يكون له أثره السلبي على صمودهم. ولكنه أرادَ أن يقف على جلية الأمر، فدعا إليه سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ وسعد بن عبادة ـ سيد الخزرج ـ وعبد الله بن رواحة، وخوَّات بن جبيرٍ وبعثهم يستجلون الأمر، ويوصيهم بأن يكتموا الخبر إن وجدوه صحيحاً، وإلَّا، فإن وجدوا بني قريظة على الوفاء بالعهد، فليجهروا به للناس.

وذهب هؤلاء الصحابة إلى دار كعب بن أسدٍ القرظي، فأبى في بادئ الأمر أن يقابلهم، إلَّا انهم أصرّوا على الاجتماع به، فجاءهم في نفرٍ من بني قومه، على وجوههم الضغينة، وفي عيونهم الشرُّ.. فابتدرهم الصحابة بما أَتَوْا لأجله، وهو التوكيد على عهد موادعة رسول الله لبني قريظة.. إلَّا أنهم رَدُّوا بكل صلافةٍ ووقاحةٍ قائلين: مَنْ رسولُ الله؟ لا عهد بيننا وبين «محمد»، ولا عقد [1].

وكان سعد بن معاذ حليفاً لبني قريظة، وقد ساءه ما أبدى حلفاؤه اليهود من خيانة وعداوة، إلَّا أنه آثَرَ أن يكون لهم ناصحاً ـ علَّهم يرعوون عن غيّهم ـ فقال لهم:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٣٣.

«والله إني لأخشى عليكم مثل يوم بني النضير وأمرَّ منه، فقد نكثوا عهدهم، وخانوا وعدهم. فأنتم حلفائي، ويعزُّ عليَّ أن تقعوا بمثل ما وقعوا فيه»..

ولم يجدْ سعد بن معاذ، مقابل نصحه إلَّا الفحش في القول حتى أخرجوه عن حكمته وصبره، فراح يكيل لهم الشتائم بمثل ما يشتمون، فأخذه سعد بن عبادة من كتفه، وقال له: «دعْ عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى (أعظم) من المشاتمة»[1]، وأبعد من الخلاف في القول».

وذاع خبر بني قريظة بين المسلمين، فذعروا وخافوا من عواقبه، لأنَّ بني قريظة أمسوا عدواً في الداخل، قد يكونون أشد خطراً عليهم من العدو القابع خارج المدينة.

وزادَ في ذلك الخوف الذي دهمَ المسلمين، أنَّ ثلاث كتائب للأحزاب كانت تحاول التقدم نحوهم، وقد جاءت إحداها من فوق وادي جبل سلع، والأخرى تقترب من تحتهم، من الجانب السفلي، بينما وقفت الثالثة قبالتهم على الناحية الثانية من الخندق.. فدبَّ الرعبُ في القلوب، إذ أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظنَّ المؤمنون أنَّ جيش المشركين سوف يقتحم عليهم الخندق، وأن المحتوم قد وقع!...

هنالك ابتلي المؤمنون حتى زاغت الأبصارُ، وبلغت القلوب الحناجِرَ، كما وصف حالهم الله تعالى بقوله العزيز: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن

(١) المصدر السابق.

﴿فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

ورأى رسول الله ﷺ ما أصاب المسلمين من هلع في النفوس، وقلقٍ على المصير، فراح يهوّن عليهم بنصحه النبوي: بأنَّ الله سبحانه لن يتخلّى عنهم، وبأنه قادرٌ على إزالة الشدة، ورفع الظلم، وأنه فاتحٌ لهم طريق الظفر بالعدو والنصر عليه، وهو يقول بثقة النبي الصادق، والرسول الأمين: «والذي نفس محمدٍ بيده ليُفرِجَنَّ الله عنكم ما تَرَوْنَ من الشدة. وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إليَّ مفاتيح الكعبة، وليهلِكنَّ الله كسرى وقيصر، ولتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله».

ويطمئن المؤمنون لوعد النبي ﷺ، فيصبرون محتسبين، داعين الله سبحانه أن يعجِّل لهم في الخلاص من هذا المأزق الشديد.

أمّا المنافقون فلم يطمئنوا لوعد رسول الله بالنصر، وبأنه الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، فلم يحتملوا البقاء بين الصفوف، بل آثروا الابتعاد عن الخطر، فجاء بعض بني حارثة رسول الله ﷺ، يستأذنون بالذهاب إلى المدينة، وهم يحتجون بالقول: إنَّ بيوتنا عورةٌ من العدو، فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى ديارنا..[2].

وإذا كان هناك شيءٌ من حياءٍ في تصرف هذه الفئة من المنافقين، وهي تحتجّ بما تحتجُّ لترك المؤمنين في أصعب الظروف وأحلكها، فإن البعضَ قد بلغت به الوقاحة حدّاً كبيراً، فلم يتورّع أثناء

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٧١.

الفرار من أن يقول في ملأٍ من قومِهِ: «كان محمدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»[1]. وما زال المنافقون يتداعون إلى الهرب والفرار حتى لم يبقَ أحدٌ منهم بين صفوف المؤمنين، وفيهم نزلَ قولُ الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

فالمنافقون يفرون، وكتائب الأحزاب تتقدّمُ، من أعلى ومن أسفل.. أما المؤمنون فلم يكن أمامهم إلَّا الصمود، فتنهال سهامهم على الكتائب المتقدمة مثل وابلٍ من المطر، فتجبرهم على التقهقر والتراجع. والرسولُ ﷺ يحرّض المؤمنين على صدِّ الأحزاب والمشركين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[4].

---

(١) أعيان الشيعة، ج ١ ص ٢٦٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآيات: ١٢ ـ ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

قتل علي عليه السلام عمْرَو بنَ وَدّ العامريّ

وكره فوارسُ من قريش أن يبقوا على تلك الحالة فاندفعت منهم جماعة فيها: عمرو بن عبد ودّ العامريّ، وعكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد العزى بن المغيرة، وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب فتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه وجالت بهم خيلهم في السَّبْخَة بين الخندق وسلع، ثم راح عمرو بن عبد ودّ ينادي على المسلمين: هل من مبارز؟.

ولم يجرؤ أحدٌ من المسلمين على النزول إليه، لما كان له من شهرةٍ في القتال. حتى قيل عنه في الجزيرة: «بأنه البطل الذي لا يقوم له رجلٌ من العرب». وكان يُسمَّى «فارس يليل»[1].

أجل إنَّ تلك الشهرة هي التي أجفلت أبطال المسلمين، فلم تطاوع أحداً منهم نفسُه، بالبروز إليه ومقاتلته..

ورأى عمرو تقاعس المسلمين عن مبارزته، فازداد ـ وهو يختال في الساح وحده على فرسه ـ اعتداداً بنفسه، وهو لا يفتأ يردد متباهياً: هل من مبارزٍ، هل من مناجزٍ؟... ثم ينشد قائلًا:

ولقد بُحِحْتُ مِنَ الندا ءِ بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مبُارِزْ

---

(١) وتعود هذه التسمية إلى ذلك القتال الذي قام به عمرو بن عبد ودّ عندما كان يعبر في ركب من قريش بوادي «يليل»، قريباً من بدرٍ، فتصدى لهم عددٌ من فرسان بني بكرٍ، واشتبكوا معهم في القتال. ولم يلبث رفاق عمرو أن فرُّوا واختبأوا فوقف على مضيق الوادي وحده، يبدي بطولة نادرة، وهو يدفع عنه العادين، فيقتل بعضهم ويجرح آخرين، حتى أمكنه أن ينزل بهم الهزيمة ويولوا من وجهه هاربين. عند ذلك خرج أصحابه من مخابئهم، وهم يهتفون له قائلين: «أهلًا بفارس يليل». ومنذ ذلك الحين وذلك لقبُهُ يزيده شهرةً، تدليلًا على شجاعته وبطولته.

وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ المشجَّعُ وِقفةَ القِرْنِ المناجِزْ
وكذاك إنّي لم أزلْ مُتَسَرّعاً نَحوَ الهزاهِزْ
إنَّ الشجاعةَ في الفتى والجودَ مِنْ خيرِ الغَرائِزْ[1]

ويراه أصحابه على تلك الحال من الجرأة والشجاعة والتفاخر، فيقول أحدهم، وهو يصف خندق المسلمين بالمداد:

عمرُو بنُ ودٍّ كانَ أول فارسٍ طَفَرَ المِدَادَ وكانَ فارسَ يَلْيلِ

وبقي عمرو بن ود يجول في الميدان دون أن تنقطع مناداته للمسلمين، أو يتوقف افتخاره بنفسه.. بينما ظل المسلمون على صمتهم، وقد سيطر عليهم الرعب..

وليس لأحدٍ أن يتهم المقاتلين من المسلمين، ولاسيما أبطال «بدر» و«أحدٍ» بأن الشجاعة تعوزهم.. ولكنها تلك الظروف القاسية التي كانت تضغط عليهم، والحالة التي أصابتهم مثل الزلزال في نفوسهم، هي السبب في تقاعسهم عنه، ولواذهم بالسكون.. ولكن إلى متى؟!..

أجل! إلى متى؟!..ألا يوجد في جيش المسلمين من ينزل إلى هذا المشرك الذي لم ينقطع ـ مذ طَفَرَ الخندق ـ عن التعالي عليهم، ليَكْفِيَهُمْ شرَّه؟!

بلى والله..

إنه البطل المغوار، عليُّ بنُ أبي طالب، الكرَّارُ على الأعداء، الذي لا تطاوعه نفسه أن يرى كافراً يتعالى على المسلمين ويتركه

---

(١) أعيان الشيعة، ج ١ ص ٢٦٤؛ وموسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٢٧ و٣٢٨.

وشأنه، فيتقدم من رسول الله ﷺ قائلًا: «أنا له يا نبيَّ الله».. ولكنَّ الرسول ﷺ يقول له: «إنه عمرو يا عليّ! فاجلس»..

وتزداد دعوات عمرو حدَّةً، فتصل إلى مسامع المسلمين مؤنِّبةً جارحةً، تستهدف إيمانهم بالذات، وهو ينادي فيهم: «أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها»[1].

وغضب رسول الله ﷺ لاستهزاء هذا الكافر بهم، فنادى في جيشه:

من يبرز إلى عمرو وأنا كافلٌ له على الله الجنة؟!..

وظلَّ الجميعُ قابعين في الصمت، فوقف عليٌّ من جديد، وقال: «دعني يا رسول الله فإنما أنا بين حسنيين: إما أن أقتله فيدخل النار، وإمَّا أن يقتلني فأدخل الجنة»[2].

وينظر الرسول الأكرم إلى عليٍّ بعين ملؤها المحبة والعطف، وتتجاذبه حياله شتى الأفكار!.. إنه عليٌّ: الإنسان الذي يحبه من أعماق قلبه، فقد كان أول من آمن به بعد زوجه خديجة رضي الله عنها، ووقف بجانبه في أحلك الأوقات وأشدها مرارةً وصعوبة.. ويكفي أنه فداه بنفسه عندما نام في فراشه يوم هجرته.. ثم إنه زوج ابنته الزهراء، بضعة مِنْ «محمد»، وأم أبيها، بعد زوجه خديجة (رضوان الله عليهما) والتي منها نسله، فكيف يسلّمه إلى عمرو بن عبد ود العامريّ، صاحب القوة والبأس، وقاتل الرجال، ومشتت الفرسان؟ إنه محمدٌ الإنسانُ الشفوق العطوف الصبور المحتسب، فيقف في لحظات وهو يوازن بين مشاعره وبين دينه وكأنَّه يسائل نفسه:

---

(١) أعيان الشيعة، المصدر السابق، عن: السيرة الحلبية.

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٢٧.

أوَ ليس الإسلام بحاجةٍ إلى عليٍّ الآن؟.

أوَ ليس نداء الواجب أهمَّ من أي نداءٍ آخر؟

إذن فما من سبيل إلَّا الإذنُ لعليّ بالمبارزة.

ويأخذ الرسول ﷺ درعه (ذاتَ الفضول) ويعطيها لعليّ فيلبسها، ثم يسلّمه سيفه (ذا الفقار)، وينزع عمامته (السحاب) ويشدّها على رأس عليّ في تسعة أكوار، فوق وجهه المقنَّع بالحديد، ثم يشدّه إلى صدره، ويقول له: «تقدّم على بركة الله»..

واندفع عليٌّ نحو عمرو، بينما توجّه الرسول ﷺ بيديه وناظريه نحو السماء بالدعاء إلى الله تعالى قائلًا: «أللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته.. أَلَا إنَّه قد برز الإيمان كلُّه إلى الكفر كلِّه. أللهم سدِّد عليّاً وأيّده وانصره على خصمه، إنك أرحمُ الراحمين».

إن رسول الله ﷺ يقف في هذه اللحظات متوجهاً بكليته إلى خالقه، يناجيه بضمير المؤمن الصادق الذي يمتلىء بالخشوع، وبفكر العابد الذي يحفل بآفاق الإنسانية، وبنفس المخلص الذي يستوعب مشاعر البشرية... إنَّ الموقف حرجٌ، والوضع دقيقٌ للغاية، فإنْ ناجزَ عليٌّ بطلَ الكافرين وقهره، فالانتصار لا يكون لعليّ، بل إنه انتصارُ الإيمان على الكفر، ودَحْرُ الحقِّ للباطل.. وإنه الانتصار الذي تتبدّل به الأوضاع كلُّها، وتعود للمسلمين الثقةُ بنفوسهم، ويَهزِمون ذلك الضعفَ الذي يخفق في قلوبهم، فتكون البدايةُ لتحقيق النصر على العدو الغاشم بعون الله تعالى..

الرسول ﷺ في دعائه وابتهاله لربّه تعالى، وعليّ (كرَّم اللَّهُ

وجهه) في اندفاعه نحو عمرو بشجاعته وحماسته، غير هيَّابٍ لشهرة هذا الفارس التي تملأ آفاق الجزيرة، ولا وجلٍ من غطرسته التي هابها الفرسان. . إنه الفتى المقدام، في الثامنة والعشرين من عمره، في عزّ الفتوة والرجولة، ينطلق إلى عدوّه كالأسد الهصور يثب وثباً، وهو يرتجز متوعّداً، مفاخراً فيقول:

لا تَـعْـجَـلَنَّ فـقـد أَتَـا ... كَ مجيبُ صوتِكَ غيرَ عاجزْ
ذو نِـيّـةٍ وبـصـيـرةٍ ... والـصدقُ مُـنْـجي كـلَّ فـائـزْ
إنّـي لَأَرجـو أنْ أُقِـيـمَ ... عـلـيـكَ نـائِحَـةَ الـجَـنَـائِزْ
مـن ضـربـةٍ نـجـلاءَ يـبـقـى ... صـيـتُـهـا بـعـدَ الـهـزاهِـز[1]

ولما صارَ فارس الإِسلام على مقربة من عمرو، سأله هذا باستكبار وعجرفةٍ:

ـ من أنت؟!

ـ قال: علي بن أبي طالبٍ بن عبد المطلب بن هاشمٍ بن عبد منافٍ.

وانتصبت أخبارُ عليٍّ في «بدرٍ» و«أحدٍ» في مخيلة عمرو مثل لهيب نارٍ حارقةٍ، فخاف، وأجفل. . ولكنه تماسك لشدة كيده، فقال له:

ـ غيرك يا ابن أخي، من أعمامك من هو أشدُّ منك. وأبوك كان صديقاً لي، وإني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءَك خيرٌ لك.

---

(١) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٦٤؛ وموسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٢٨.

فقال له علي: يا عمرو، قد كنت عاهدت الله ألَّا يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلَّا أخذتها منه[1].

قال: أجل.

قال له عليّ: «فإني أدعوك إلى الله (عزَّ وجلَّ) وإلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام»[2].

قال: «لا حاجةَ لي بذلك».

قال عليّ: فإني أدعوك أن ترجع بمن معك من قريشٍ إلى مكة، وهذه خلّةٌ فيها نجاةٌ لك..

قال عمرو: إذن تتحدث عني نساء مكة أن غلاماً مثلك خدعني!

قال علي: فإني أدعوك إلى النِّزال!

فقال عمرو: «إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يروعني بها، ولمَ يا ابن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك»[3].

فقال عليّ: «لكنّي واللَّهِ أُحبُّ أنْ أقتُلَكَ»[4].

وثار غضب عمرو، فأراد أن يهجم على عليّ (كرَّم الله وجهه) بفرسه، غير أنَّ النخوة العربية أبت عليه أن يقاتله إلّا راجلًا، فقفز عن ظهر فرسه، ثم اندفع نحو عليٍّ يهوي عليه بضربةٍ شديدةٍ من سيفه، فتلقاها عليّ بدرقته[5]، فإذا هي قد قُدَّت وثبت السيف فيها.

---

(١) أعيان الشيعة، المصدر السابق؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٣٦.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) أعيان الشيعة، المصدر السابق.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٣٦.

(٥) الدرقة: الترس من جلد.

ولم يكن عليٌّ (رضوان الله عليه) ليقبَلَ بأن يتلَقَّى الضربات، بل شيمته أن يُقدمَ ويضربَ بلا هوادة.. وها إنه، ما يكاد يستقبل ضربة عمرو، ويدفعها عن نفسه، حتى يعاجله بضربةٍ من «ذي الفقار» تقطع منه الفخذ، فينقلبُ ذلك الكافر المستكبر على قفاه، مطروحاً على الأرض.. ولكنه لشدة جبروته يمتشق رمحه، ويحاول أن يطعن به عليّاً، فيحيد بوثبة المؤمن الواثق، ويصير بعيداً عن متناوله. فما يكون من عمرو إلَّا أن يعودَ ويسدِّدَ رمحه من جديد، ويرميه به فينفلت منه عليٌّ أيضاً، ويذهب عنه طائشاً في الهواء. فلمَّا رأى عليٌّ هذا المقدار من جبروت عمروٍ، أَسرَعَ يريدُ أن يجهزَ عليه، إلَّا أن عدوّ الله ظلَّ يقاوم بكل قوةٍ وبأسٍ، وهو يذود عن نفسه بالسيف، حتى مكَّن الله القادر لعليٍّ، وهو يدور حوله من كل جانبٍ، أن ينالَهُ بضربة نجلاء ـ كان قد وعده بها ـ فلقَت هامَهُ، وجعلته مطروحاً على الثرى، تشخب منه الدماءُ.. فوقف عليٌّ كالأسد الهصور فوق رأسه، وصوته يشق عنان الفضاء، مكبّراً بنداء الحق: الله أكبر.. الله أكبر..

وسمع رسول الله ﷺ والمسلمون تكبيرة عليّ، فتعالت تكبيراتهم، فكان ﷺ يكبر، ويقول: «والذي نفسي بيده قتله عليٌّ»..

واندفع بعض المؤمنين إلى مكان المبارزة، ليجدوا فعلًا عمرو بن ود، البطلَ الصنديدَ الذي تخافُهُ الأبطال، قد أضحى قتيلًا، مقطوعَ الفخذ، مفلوقَ الهام، بينما بطلُ الإسلام، وبطلُ دعوة الحق عليُّ بن أبي طالب واقف فوْقَ رأسه، وما زال ذو الفقار مشرعاً في يده، مشيراً بها إلى عمرو بن ود وهو ينشد قائلًا:

نَصَرَ الحجارَةَ مِنْ سَفاهَةِ رأيهِ ونصرتُ ربَّ محمدٍ بصَوابي

فضربتُهُ فتركتُهُ مُتَجَدِّلًا كالجِذعِ[1] بين دَكادِكٍ[2] وروابي[3]
وعفَفْتُ عن أثوابِهِ ولو انني كنتُ المُقَطَّرَ[4] بزّني[5] أثوابي
لا تَحْسَبُنَّ اللَّهَ خاذلَ دينِهِ ونَبِيِّهِ يا معشرَ الأحزاب[6]

ثم تركَهُ عليٌّ رضي الله عنه وتوجه نحو رسول الله ﷺ وهو يقول:

أعليَّ تقتحِمُ الفوارس هكذا عنّي وعنهم أَخبروا أصحابي
اليومَ يمنُعني الفرارَ حفيظتي ومصمّمٌ في الرأس ليس بنابي[7]

وكان أصحاب عمرو الذين عبروا معه الخندق قد وقفوا ينتظرون نهاية المبارزة وقد أخذتهم الدهشة من شدة الصراع، فما استفاقوا إلَّا وصاحبهم مجندلٌ على الثرى، فلوَوْا أعنَّة خيولهم، يلوذون بالفرار خوفاً من الموت. وقد بلغ بهم الرعب أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزمٌ، كما أنَّ نوفل بن عبد العزى بن المغيرة قصّر به فرسه فسقط في الخندق، فاندفع إليه نفرٌ من المؤمنين يقذفونه بالحجارة، فصرخ من تحت: «يا معشر المسلمين ألا قتلة أكرم من هذه؟». عندها نزل إليه الزبير بن العوام وقتله بسيفه.

..وانتهت تلك المبارزة.. وعادَ عليّ عليه السلام إلى صفوف المؤمنين يستقبلونه بهتافات النصر، فاحتضنَهُ رسول الله ﷺ بين

---

(١) الجذع: فرع النخلة.
(٢) الدكادك: جمع دكداك، وهو الرمل اللين.
(٣) الروابي: جمع رابية، التلة المرتفعة.
(٤) المقطَّر: الملقى على أحد جانبيه.
(٥) بزّني: سلبني وجردني.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٣٦.
(٧) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٢٨.

ساعديه، وقال له: «أبشر يا عليّ، فلو وُزن اليومَ عملُكَ بعمل أمةِ محمدٍ لرجح عملُك بعملهم»[1]. وراح الصحابة يهنئونه، فقام أبو بكرٍ وعمر بن الخطاب فقبلاه في رأسه[2]. وكان ابتهاج المسلمين عظيماً، فقد أذهب الله (تعالى)، عنهم بهذا البطل المغوار، شرَّ ذلك المشرك الذي كان ذكره يرعبُ القلوب. وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ، يشترون جثة عمرو بعشرة آلاف درهمٍ، فقال ﷺ: «هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى»[3].

وروي أنه لما نُعيَ عمرو بن ود إلى أخته، (واسمها عمرة وكنيتها أم كلثومٍ) قالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟.

قالوا: عليٌّ بنُ أبي طالبٍ..

فقالت: لم يعد قتله نكداً إن كان على يد كفوءٍ كريم. لا رقأت دمعتي إن هرقتها عليه، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يدِ فارسٍ مغوار من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بني عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتلُ عمروٍ غيرَ قاتلِهِ ... لكنتُ أَبكي عليه آخِرَ الأبدِ
لكنَّ قاتلَ عمروٍ لا يُعابُ بِهِ ... قد كان يُدعى أبوهُ بيضةَ البَلَدِ
يا أمَّ كلثوم إبكيهِ ولا تدعي ... بكاء معولةٍ حرّى على ولدِ

وهكذا كان لقتل عمرو بن عبد ود أثرُهُ في نفوس المشركين، فلم يعد أحد يجرؤ على الهجوم، أو طلب المبارزة. إلَّا أن ذلك لم

---

(١) الحاكم في المستدرك، بسنده.
(٢) السيرة الحلبية عن السهيلي، وفي الإرشاد.
(٣) أعيان الشيعة، ج ١ ص ٢٦٤.

يمنع المراماة بالنبل. فأصيب الصحابي سعد بن معاذٍ، بسهم من حيَّان بن قيس بن العرقة فقطع منه الأكحل[1]، وهو يقول له: خُذها وأنا ابن العرقة! فقال له سعد: «عرَّق الله وجهك في النار»..

وأوى سعد بجرحه البليغ إلى خيمة الجرحى، فكان رسول الله ﷺ والمسلمون يعودونه مطمئنين عليه، ثم يعود كلٌّ إلى مكانه، ليبقى على أهبة الاستعداد في مواجهة العدو الذي يحاصرهم.

أما سعدٌ، ورغم النزف الشديد، والألم الذي يعاني منه، فإنه كان مشغول البال على المسلمين في تلك الضائقة العظيمة، أكثر من انشغاله على نفسه، فكان دائم الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يفرج هذه الكربة عنهم، ويتمنى لو يشفيه ربُّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى تعود إليه عافيته، ويجاهد قريشاً في حربها على المؤمنين. فكان يدعو قائلًا: «اللهم إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قومَ أحبُّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم آذوْا رسولك وكذَّبوه وأخرجوه. أللهُمَّ وإن كنت قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعله (أي الجرح) لي شهادة، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لها حتى أجاهدهم فيك ولا تمتْني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة»[2].

فما أروع هذا الموقف من صحابيٍّ جليلٍ مثل سعد بن معاذ!..

إنه لا ينتابه شعورٌ بالقلق على مصيره من جراء هذا الجرح الذي أصابه، بل رجاؤه أن يبقى على قيد الحياة حتى يجاهد القوم المشركين

---

(١) الأكحل: عرق في الذراع يقال له عرق الحياة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٢٣٨.

الذين آذوا الرسول ﷺ، من قريش وغيرهم، وأن يقتص من الماكرين الذين نقضوا العهد، وخانوا الوفاء من بني يهود.

فهنيئاً لك يا أخا الإيمان في ما ترجو وتحب، وعسى أن يكون المسلمون من أمثالك، حباً بالله ورسوله، وطاعةً لله ورسوله.

ولم يتعظ المشركون بما حلَّ بأشدّ بطلٍ من أبطالهم، وأكثرهم شجاعةً وقوةً، وقسوةً، بل على العكس، فقد تفاقمت النقمة في قلوبهم، وزاد لجاجهم في تنفيذ غزوهم والقضاء على المسلمين. وهم في ذلك يعتمدون على كثرة عددهم، وعلى وقوف بني قريظة في داخل المدينة إلى جانبهم.. وبالفعل فقد بدأ هؤلاء اليهود يقومون بأعمال من شأنها إثارة حفيظة المسلمين حتى يتخلَّى بعضُ المقاتلين عن مواقعهم عند الخندق، وينشغلوا بحراسة إخوانهم فتتوزع قواهم، وتضعف مقاومتهم..

تلك خطةٌ من الخطط التي اعتمدها بنو قريظة وهم يشهرون العداوة السافرة للمسلمين، ولكنَّهم ما دروا أنَّ لدى هؤلاءِ نساءً يملكْنَ شجاعة لا تقلُّ عن شجاعةِ أشدّ الرجال، بما يجعلهنَّ قادرات على حماية الديار.

فمن حاميات الحمى، في غزوة الاحزاب، صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، وأخت حمزة، سيّد الشهداء، التي كانت في فارع حصن حسان بن ثابت، تقوم على رعاية النساء والذراري، وخدمة الشيوخ والعجزة. فبينما هي تقف وراء النافذة تراقب تحركات بني قريظة حذار غدرهم، إذا بها ترى رجلًا منهم يطوف حول الحصن، فتنادي على حسان بن ثابت ـ الذي يقول عنه كثير من أهل السير والمغازي أنه كان معتلاً في ذلك اليوم بعلة منعته

من شهود القتال ـ أن ينزلَ إليه ويقتله حتى يخلصوا من شره، فتقول له: إنَّ هذا اليهودي ـ كما ترى ـ يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنهُ أن يدلَّ على عورتنا مَنْ وراءنا من قومه فانزل إليه، فاقتله. ولكنَّ حسان تلكأ، فما حملتها نفسها على الصبر، وتَرْكِ الحال لهذا العدو أن يقوم بفعل غادرٍ خبيثٍ. فسارعت بنت عبد المطلب تشدُّ على وسطها، ثم تأخذ على كتفها عموداً ضخماً، وتنزل من الحصن، مندفعةً نحو اليهودي حتى أدركته، فهوت به عليه فحطَّم رأسه، وسقط يتخبط بدمائه.

وتناهت الأخبار إلى رسول الله ﷺ عن تحركاتٍ لبني قريظة تنذر بالخطر، فأمر بتأليف كتيبتين، الأولى بقيادة سلمة بن أسلم وتضم مئتين من المؤمنين، والثانية بقيادة زيد بن حارثة وعددها ثلاثمائةٍ، للذهاب والتوزّع حول المنازل حمايةً للنساء والذراري والشيوخ من بني قريظة، الذين باتوا وقريشاً وغطفان سواءً في العداوة..

وصارت الشدَّةُ على المسلمين أقوى.. فالأحزاب في الخارج تقوم خيولهم بالمناورة في محاولة لإرهاب المسلمين، وبنو قريظة يحرِّضون المشركين ـ سرّاً ـ على المباشرة بالقتال حتى يثوروا من الداخل، ورسولُ الله ﷺ يرى ما يعصف بنفوس المسلمين، فيلجأ إلى ربه مستجيراً، داعياً منيباً، وهو يقول: «ألّلهم إني أنشدك عهدك ووعدك، ألّلهم ادفع عنا شرّهم، وانصرنا عليهم، لا يغلبهم غيرك».

إنه دعاء رسول الله ﷺ، ودعاء نبيّ الإسلام محمد بن عبد الله.. وهو الدعاء الذي يحمل في طياته الإيمان الصادق بعهد الله سبحانه أن ينصر المؤمنين، لأن النصرَ من عند الله و«إن ينصركم الله

فلا غالب لكم». . وهو الدعاء الذي يؤمّنُ للعبد الصلة الوثيقة بربّه، ولا أحد ـ في الأرض أو السماء ـ يقدر أن يعرف مكنون هذه الصلة إلَّا من تعبَّد بها لله رب العالمين. . ولذلك كان توجيه الرسول الأعظم للمسلمين بأن يصبروا، ودعوته إليهم أنْ يتوجهوا إلى الله، بما قد يغنيهم عن كل ما يحفل به أهل الأرض، قائلًا لهم: «ادعوا الله مخلصين له الدين، وقولوا: ألّلهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا». وكان هو ﷺ يدعو قائلًا «اللّٰهمَّ منزّلَ الكتابِ، سريع الحساب اهزم الأحزابَ، اللّٰهمَّ اهزمهم وزلزلهم»[1]. .

وفي تلك الأوقات العصيبة، وقد اشرأبت الأعناق لخالقها طائعةً، وتفتحت مغاليق القلوب على بارئها مستيقنةً، ولهجت الألسن بالدعاء إلى ربها منيبةً. . أجل في تلك الحالة التي كان عليها المسلمون كان لا بدّ أن يتناهى إلى ضمير الوجود بأن كائنات العوالم تنصت إلى دعاء هؤلاء المؤمنين، فتتساءل بدهشةٍ: أإلى هذا الحد بلغ جبروت الباطل حتى صار شرّه مستطيراً في دنيا الأرض؟ ولكن ما بال أهل هذه الكرة الصغيرة لا يدركون أنه قد يكون للباطل جولاتٌ وصولاتٌ، ولكنَّ جولة الحق واحدةٌ، وفيها دائماً النصرُ الأخير! . .

وبفضل الدعاء لله تعالى ـ هذا السلاح الذي لا يدرك أسراره إلا المؤمنون ـ رأى رسول الله ﷺ أن يقوم بخطوة قد يكون من شأنها النفاذ إلى وحدة الأعراب، ليفكك أوصالها، ويوهن تماسكها. . فبعث إلى عيينة بن حصنٍ وإلى الحارث بن عوفٍ، وهما قائدا غطفان ومن معها من قبائل نجدٍ ـ التي تؤلف كتلةً كبيرةً من الأحزاب ـ

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد، ج١ ص٤١١.

يعرض عليهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما..
وتشاور الرجلان في الأمر، وتساءلا: ما الفائدة التي نجنيها إن قاتلنا «محمداً» وأصحابه وهزمناهم، ثم عادت قريش إلى مكة صاحبة السيادة في العرب، وعادَ اليهود إلى ديارهم في المدينة ينعمون بخيراتها، بينما نحن لا نصيب إلَّا بعض متاعٍ قد نغنمه؟! وهذا إن كان لجمع الأحزاب النصرُ، إلَّا أنه لا يبدو مؤكداً مع هذا الحصار الطويل؟! إذن فالصلح مع «محمدٍ» قد يكون أولى وأربح!.

وبدأت خطة رسول الله ﷺ تؤتي ثمارها، فقد اقتنع زعماء غطفان وقبائل نجدٍ بالتصالح معه، ولكنهم أرادوا أن يكون بينهم وبينه ميثاقٌ، فكتبوه وبعثوه لختمه منه، فطلب الرسولُ إليه السعدين، يعرض عليهما خطته، وكتابَ غطفان، لأنَّ الثمارَ ثمارُ المدينة، وأهلُها أحقُّ بالموافقة أو الرفض لما يسعى إليه، فقالا له:

«يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله ـ تعالى ـ به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟».

قال ﷺ: «بل شيءٌ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلَّا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، واشتدوا عليكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما»(١).

فقال له سعد بن معاذٍ: «يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً واحدةً إلَّا قرىً أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله ـ تعالى ـ بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه نُعطيهم أموالنا؟

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٣٤.

والله ما لنا بهذا من حاجةٍ. والله لا نعطيهم إلَّا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»[1].

والتفت رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادةٍ يسأله رأيه فقال:

ـ والله ما قال أخي سعدٌ إلَّا حقاً يا رسول الله.

هذا هو الحق الساطع، ينضحُ من قلوب المؤمنين الصادقين وعلى ألسنتهم.

فالأمر يتأرجح بين حدين:

إما عيشٌ مع الدعةِ والهوان، وإمّا موتٌ مع العزة والإيمان..

والسعدان، وهما مسلمان، لا يبغيان ـ طبعاً ـ إلَّا العزَّة لله ولرسوله والمؤمنين..

نعم لأنهما مسلمان يستهينان بالموت، إذ ليس في طبع المسلم محلٌّ للخنوع، ولا في نفسه مكانٌ للهوان..

وسُرَّ رسولُ الله ﷺ من السعدين، وما أبدياه من حرصٍ على نصرة الدين وعزّة المؤمنين، فأعطاهما كتاب الصلح الذي كتبه قادة غطفان قائلًا: فأنتما وذاك.. فتناوله سعد بن معاذٍ، ومحا ما فيه من كتابة، ثم قال: «لِيَجْهَدوا علينا»[2]. ثم سكت سعد قليلًا، وعاد فسأل رسول الله ﷺ:

ـ لقد أردت يا رسول الله أن تكسر شوكة المشركين عنا إلى أمرٍ ما، فهل تأذن بأن نعرف ما هذا الأمر الذي تفكر به؟ وكان من البديهي

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

أن يبيّن الرسول الأعظم للسعدين ما كان يرمي إليه، وجلُّه ينصبُّ على إزالة تلك الشدة عن المسلمين، على أن يكون الثمن المقابل ثلث الثمار، ولكن إلى الوقت الذي ينصُرُ اللّهُ تعالى دينه، فتنضوي غطفان وحلفاؤها تحت لواء هذا الدين، فيتخلّون ـ تلقائياً ـ عن ثمار المدينة.. ولكنه وجد في موقف السعدين ما هو أعظم من البلاء، وأغلى من الثمار... وَجَدَ من يحسن اتخاذ القرار، مؤْثراً الحق والدين على كل شيء آخر.. وهذا ما يجعله ﷺ يطمئن إلى مستقبل الأمة، وقدرتها على أن تنجب في كل زمان قادة، وعلماءَ يأخذون بيدها إلى طريق الصلاح..

وماذا بعد؟!

يقولون: «على العبد التفكير ولله التدبير».. وهذا حق، واللهِ.. وها هو رسولُ الله ﷺ يتلقّى من عناية الله ـ تعالى ـ بالمؤمنين ما من شأنه أنْ يُغَيِّرَ مجرى الأحداث، ويجعلها تنقلب إلى ما فيه صالح المسلمين.. ففي غفلةٍ من الأحزاب، وفي سباتٍ من إدراكها، دلف إلى داخل معسكر المسلمين أحد رجال غطفان، نُعيم بن مسعودٍ الأشجعي، وأتى رسول الله ﷺ قائلًا:

ـ يا رسول الله، إن الله سبحانه قد شرح صدري للإِسلام، وأنا أشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله. وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني يا رسول الله بما شئت.

وفرح الرسولُ بقدوم هذا المؤمن إليه، لأنَّ يقينَهُ وثقته بالله سبحانه وتعالى لا يتزعزعان، فَحَمِدَ ربَّهُ وأثنى عليه، ثم قال للرجل:

«يا نعيم إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ فخذّل عنّا إن استطعت فإنَّ الحرب خُدعةٌ»[1].

فذهب نعيم من فوره إلى بني قريظة ـ وكان نديماً لهم في الجاهلية ـ فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال:

«يا بني قريظة! قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصَّةً ما بيني وبينكم».

قالوا: «صدقت، لست عندنا بمتهم».

فقال نعيمٌ: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، وفيه أبناؤكم ونساؤكم وأموالكم.. وإنَّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب «محمدٍ» وأصحابه، وتركوا أبناءهم ونساءهم وأموالهم في بلدهم آمنين. وقد ظاهرتموهم عليه، فإن قدروا أن يصيبوه فذاك ما يريدون، وإن عجزوا عن ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم إلَّا أن تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقةً لكم، على أن تقاتلوا معهم «محمداً» حتى تناجزوه»[2].

فقالوا له: لقد أشرت بالرأي، فما حالنا إن رحلت قريش وحلفاؤها من الأعراب، ودخلنا مع «محمدٍ» وحدنا؟!.

لقد خذّل نُعيمٌ بني قريظة.. ثم خرج عنهم حتى أتى قريشاً، ودخل خيمة أبي سفيان بن حربٍ، وهو في جمعٍ من الناس، فجلس يستمع لأحاديثهم حول الغزو، ولومهم زعماء اليهود عندما ذهبوا إليهم يحرّضونهم على غزو المدينة، حتى أوقعوهم في هذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣ ص ٢٤٠.
(٢) السيرة لابن هشام، المصدر السابق ص٢٤٠ و٢٤١.

المأزق. . . فقال لهم: «يا معشر قريشٍ! قد عرفتم ودي لكم وفراقي «محمداً»، إنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني»[1].

فقالوا: «نفعل». .

قال: «تعلمون أن معشر يهود قد نَدموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين «محمدٍ». وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يُرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريشٍ وغطفان، رجالًا من أشرافهم فنُعطيكَهُم فتضربَ أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟! فأرسل إليهم: أن نعم» وتابع نعيم قائلًا: وهنا الأمر يا معشر قريش! «فإن بعثت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحداً»[2].

وقام نعيمٌ فذهب إلى بني غطفان، فأخبرهم بمثل ما أخبر قريشاً من غدر بني قريظة وعودتهم إلى جانب «محمدٍ». . وما زال بهم يحذّرهم من هذا الأمر الخطير، حتى جعلهم يستشيطون غضباً، ويطلبون زعماء قريشٍ للبحث في هذا الأمر، واتخاذ الموقف الملائم من بني قريظة، ومن هذا الغزو اللعين. .

وفي مساء تلك الليلة، وكانت ليلة السبت من شوال سنة خمس هجرية، بعثت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهلٍ في نفرٍ من القبيلتين إلى بني قريظة ليسألوهم الإقدام على قتال «محمدٍ» ومن معه، وبذلك يتبيَّنون صدق نواياهم أو كذبهم. .

---

(١) السيرة لابن هشام، المصدر السابق ص ٢٤١.

(٢) السيرة لابن هشام، المصدر السابق.

واجتمع عكرمةُ ومن معه في دار كعبِ بن أسدٍ، وقالوا لبني قريظة:

«إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخفُّ والحافر (الإبل والخيل)، فانهضوا بنا حتى نناجز «محمداً» ونفرغ مما بيننا وبينه»[1].

فقال بنو قريظة: إن غداً السبت، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئاً. وقد علمتم ما أصابَ مَن قبلنا عندما أحدثوا فيه.. ومع هذا فإنّا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقةً لنا. فإنّا نخشى إنْ ضرَّستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا (تسرعوا) إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه[2].

واقتنعَ رسلُ قريش وغطفان بأنَّ الغدر قد وقع من هؤلاء اليهود، فقالوا: لا نعطيكم رهناً أبداً، فإن كنتم تريدون قتالاً فاخرجوا فقاتلوا، وإلّا فلا عهد بيننا وبينكم.

فلما خرج عنهم الرسل، قال بنو قريظة: صدقنا ـ والله ـ نُعيم بن مسعودٍ.

ورجع عكرمة وأصحابه إلى جمع المشركين، فقالت قريش وغطفان:

«صدقنا ـ والله ـ نعيم بن مسعودٍ».

وهكذا استطاع هذا المسلم الذكي، البارع في أسلوبه، الجريء في إقدامه، أن يقوم بمهمةٍ من أدقّ المهمات وأصعبها، وأن يقوم بأكبر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص٢٤١؛ وزاد المعاد، ج٢ ص١٧٢..

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٤٢.

دورٍ في إيقاع الخلاف بين المشركين، وحلفائهم من اليهود في سبيل نُصرةِ إخوانه في الدين وإعانتهم.. وذلك بفضل الله ورحمته بعباده كي يذهب كيد المعتدين، فتصان مدينة الرسول الأعظم، وينكشف الضرر عن المؤمنين، فكان حقاً على رسول الله أن يحمدَ ربَّهُ ويشكرَه (تعالى) بذلك الدعاء الذي طالما كان يردده في تلك الغزوة بقوله ﷺ: «ألّلهم منزّلَ الكتاب، سريعَ الحساب، اهزم الأحزاب، ألّلهم اهزمهم وزَلْزِلْهُم، وانصرنا عليهم»..

الرياح تهزم الأحزاب

والدعاء في الأصل عبادةٌ ـ كما قدّمنا من قبل ـ غايته استدرار الرأفة والرحمة من الخالق، وتحقيق الأماني الخيّرة الصادقة للمؤمنين.. وأية عبادةٍ أطهرُ وأنقى، وأخلصُ من العبادة التي يقوم بها رسول الله ﷺ؟... إنه يدرك بأنَّ الله ـ سبحانه ـ ناصرُ دينه، ومبدد قوى عدوّه. ودعاؤه توكيد على عبودية العبد لربّه، واستسلامه لكل ما يشاء سبحانه ويقضي.. وها هي الاستجابة وها هو وعدُ الله الحق يتحقق، فتأتي على الأحزاب ريحٌ صرصرٌ عاتيةٌ، في ليلةٍ ظلامها داجٍ، ومطرها وابلٌ، تعصف بهم عصفاً شديداً، وتزلزل بهم الأرض زلزالًا كبيراً.. لقد بعث أمرُ اللَّهِ (تعالى) تلك الرياح، فجاءت تكفأُ (تُميل وتقلب) قدورَهم، وتقتلعُ خيامَهُم، وتطرحُ أوانيهم، وتطفئُ نيرانهم، حتى لكأنَّها تقوّض أركان وجودهم كله..

إنها قوىً عاتيةٌ، تهبُّ على أولئك المشركين وهم يحاصرون مدينة رسول الله، فتقذف الرعب في قلوبهم، والوهن في نفوسهم، مما جعل الهيجان يدب في صفوفهم، ويضاعف من بلائهم وعذابهم..

وأمام هذه النكبة المدمرة، لا يجد الأحزاب أملًا لهم في النجاة إلَّا الهرب بعيداً، إلى حيث لا مطرَ ولا عواصفَ ولا ظلام..

ويعبِّر عمَّا حلَّ بهم قائدهم أبو سفيان بن حربٍ، وهو يصرخ ببني قومه: يا معشر قريشٍ!.. لينظر امرؤٌ مَنْ جليسُه. إنكم والله ما اجتمعتم بدار مقام. لقد هلك الكُراع (قوائم الدابة) والخُف وأخلفنا بنو قريظة، وبلغناً عنهم الذي نَكره. وقد لقينا من شدة الريح والمطر ما ترون، فارتحلوا، فإني مرتحلٌ الساعة..

وولّت قريش الأدبار لا تلوي على شيءٍ، وتبعتها غطفان وبقية الأحزاب بالإسراع في الفرار، تاركين وراءهم كل متاعٍ. وجلُّ ما يريدونه اللحاقُ بديارهم ومضاربهم..

وكان المؤمنون في تلك الليلة ما يزالون ثابتين في مواقعهم، يتناهى إلى مسامعهم اللغط والضجيج، فيظنون أن الأعداء قد شمَّروا للهجوم عليهم، ولكن، ها هو الليل ينقضي والصباح يطلع، وما من هجومٍ أو اقتحام، بل الأمر على خلاف ذلك تماماً.. فالرياح العاتية قد هـدأت، والـمطر المدرار قد توقف، والجو المتلبِّد بالغيوم قد صفا، فيا له من صباحٍ مشرقٍ في شمسه، بل وفي كل شيءٍ.. فلا قرقعة للسلاح.. ولا ضجيج للكتائبِ الغازية.. بل هدوءٌ يعمُّ الأرجاء، وسكونٌ يخيم في الأجواء.. وتلك معسكرات الأحزاب قد تزحزحت، وأمتعتهم قد تناثرت، وخيامهم قد تبددت، ولا يظهر أحدٌ من جموعهم التي كانت تملأُ الفضاء والضواحي.

وأيقن المؤمنون أنَّ اللَّهَ تعالى قد أرسلَ الرياح، وجنودَهُ التي لم يروها، فهزمت الأحزاب وشتَّتَتْ جموعهم، وبدَّدت قواهم،

وجعلتهم ينهزمون بلا قتالٍ ولا مواجهةٍ.. فتنادوا يلتفون حول رسول الله ﷺ، يستبشرون ببركاته فرحاً، وبنصر الله خيراً، وهم يتعانقون مبتهجين مسرورين.. فتشرئب أنظار الرسول ﷺ نحو السماء، ثم يقول لهم: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا». ويتوجهون بالدعاء لله تعالى شكراً وامتناناً، فيهتف الرسول الأعظم، ويهتف وراءهُ المؤمنون: «لا إله إلَّا الله وحده، وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، لا إلٰه إلَّا اللَّهُ وحدَه وحدَه أنجز وعدَهُ، ونصَرَ عبدَه، وأعزَّ جندَهُ، وهزم الأحزاب وحده، فله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو على كل شيء قدير».

لقد تحقق النصر بقدرة الله القوي العزيز، وكفى الله المؤمنين شرَّ القتال، بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[1].

.. لقد جاءت الأحزاب غازيةً، تطلبُ النصرَ والظفرَ، فإذا بها تصطدم بصمود المؤمنين، وتلبث في قرقعة سلاحها، ومظاهرها الخادعة، مدةَ شهر، دون أن تحصل على شيءٍ مما جمعت له، وأعدَّت واستعدّت.. وفي ليلةٍ وضحاها، لا يبقى لها حولٌ ولا طولٌ، فتذهب مدبرةً، خاسرةً لا تبتغي إلَّا النجاة والخلاص.. وصدق اللَّهُ تعالى بقوله العزيز:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

لقد أرادتها تلك الأحزاب معركةً داميةً شديدةً.. فإذا هي معركةٌ أقسى مما تصوّرت، ولكن ليس في الميدان، ولا في القتال.. بل في النفوس، وفي امتحانٍ للأعصاب والعزائم، واختبار للقلوب والأفئدة.. لم يحصل كرٌّ ولا فرٌّ في تلك المعركة إلَّا القليل.. ولا تطايرت أعناقٌ ولا ضُربت هاماتٌ إلَّا بالقدر الضئيل.. بيدَ أنَّ النفوس والقلوب كانت تترصد بعضها بعضاً. فأما التي امتلأت بالعداوة والأحقاد والكفر، فقد كانت الخاسرة، وأما التي توهجت بنور الإيمان والصبر والاحتساب فقد كانت هي الرابحة..

أما في ميزان المفاهيم فقد كانت تلك المعركة صداماً بين قوى الضلال والبغي في ناحية، وقوى الهداية والعدل في ناحية ثانية، فكان لا بدَّ أن تنتهي إلى تلك النتيجة الحاسمة التي هي بيد الله سبحانَهُ وتعالى أولًا وأخيراً.. وما دَحَرَ اللَّهُ القويُّ، المقتدرُ المشركين، والذين كفروا من أهل الكتاب إلَّا بـ«كلمةٍ» منه ألقاها إلى الرياح والملائكة، أن تردَعَ الظالمين وتردَّهم على أعقابهم خاسرين.. فلعلَّ فيهم من يعقل، ويوقن بأن ما يشاءُ القهّار الجبّارُ فلا رادَّ له.. وكفى بالله وليّاً، وكفى بالله نصيراً..

سلمان الفارسي وتحرِّيه الحقيقة

إنَّ حياة الصحابي الجليل سلمان الفارسي موعظةٌ لكل من رامَ حقاً، أو تحرّى الحقيقة حتى وجدها. ذلك أن حياة الناس ـ أفراداً وجماعاتٍ ـ تزخر ـ عادة ـ بالحركة، وتمتلئ بالأحداثِ ـ حسنها وسيئها ـ فتكشف عن معادن الرجال، وصدق التوجّه، ونبل الغايات... وكذلك هو العكس عندما تغلي في النفوس شهوة

المطامع، وحبَّ الدنيا فتصير الغايةُ تبرر الوسيلة، ويتبدّى ما وراء ذلك من ظلمٍ وفسقٍ وفجور..

لذلك كان من أكبر نعم الله (تعالى) على الإنسان أن يجعله من المهتدين، الصابرين على الضيق والكرب، المحتملين الابتلاء حتى يجعل لهم المولى الكريم من لدنه فرجاً ومخرجاً..

ولقد كان سلمان الفارسي من ذلك الصنف من الناس الذين صدقوا في توجهاتهم ونبل مقاصدهم، فعانى كثيراً المرارة، والضيق والقهر ـ في بحثه عن الحقيقة ـ حتى اهتدى إليها بإسلامه، بل وبلغ مرتبةً من الشرف الرفيع قلَّ من بلغها من الصحابة الأخيار، وذلك عندما نسَبَهُ رسول الله ﷺ إلى البيت النبوي الشريف، أثناء حفر الخندق، إذ أراد المهاجرون أن يكسبوه في صفهم، فقالوا: «سلمانُ منّا».. فأبى الأنصار، وقالوا «سلمانُ مِنّا».. فما كان من الرسول الأعظم، إلَّا أن قطع عليهم جميعاً حبَّ الاستئثار بهذا الصحابي، واصطفاه ليكون من بيت النبوة، وهو يقول للمسلمين: «سلمان منّا أهلَ البيت»[1].. لا! لا يعجَبنَّ أحدٌ لما آلَ إليه حالُ سلمان الفارسي رضي الله عنه، فهذا هو الإسلام الذي يرفع إنساناً مثله إلى بيت الوحي، والطهر والقداسة... ويرذل إنساناً مثل أبي جهل عمرو بن هشام القرشي العربي، حتى يردَ نار جهنم، وبئس المصيرُ.. لا! لا يعجبنَّ أحد.. فهذا هو الإسلام الذي لا يفرق بين عروبة أو فارسية، ولا انتماء أو جنسية.. فمن انتمى لهذا الدين، واستسلم لربّ العالمين، كان من المسلمين المهتدين ـ إن شاء الله ـ فكان له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٣٥؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٤ ص٨٣.

ويروي سلمانُ ﷺ حقيقة إسلامه منذ أن خرج من أرض فارس حتى قاده المصير ليكون عبداً عند يهودي من يثرب. . . فيقص حكاية حياته على جمع من الصحابة مستهلاً بالحمد والثناء على الله تعالى الذي أنعم عليه بالإسلام، فيقول:

«الحمد لله حمداً كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلًا. من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادي له، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين ورحمة الله وبركاته. . . أما والله ـ يا إخوتي ـ إنَّها لنعمة ربانية جليلة أن يهدي البارئُ عبدَه إلى الإسلام، فيعرف حقيقة هذا الدين، وكمالَهُ عند رب العالمين. . أجل يا إخوتي، إنَّ في الإسلام لَلحياة، وبدونه للموات. . وإنَّ في الإسلام للنّور، وبدونه للظلمات. . فحرامٌ على امرئ أن يأتي إلى هذه الحياة ولا يتذوق ـ فعلًا ـ حلاوة الإيمان بالإسلام، وينعم برَوْحِهِ وريحانه. . وما كانت مظاهر الغنى أو الجاه أو الأمن، ولا الأفكار أو القيم أو العقائد ـ مهما كان شأنها ونوعها ـ لتغني عن الإسلام وعظمته، أو لتعوِّض الإنسان عنه بشيء أبداً.

لقد مهَّد سلمان ﷺ بهذه المقدمة، ثم راح يحكي للصحابة ما جرى معه في حياته فقال[1]:

. . . فقد كانت مباركةً تلك الخطوات التي مشيتها من أجل معرفة حقيقة وجود الله تعالى، وهو ـ جلَّت عظمته ـ قد أعانني حتى صرت مسلماً والحمد لله. . وكان ذلك منذ نعومة أظفاري. لقد

(١) مضمون القصة مأخوذ بمجمله عن السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول ص٢٢٨ ـ ٢٣٦، وهي مروية عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بن لبيد، عن عبد اللّه بن عباس عن سلمان الفارسي نفسه.

ولدت في قرية يقال لها (جَيّ) من نواحي أصفهان، وترعرعت في كنف أبٍ له وجاهة بين أبناء منطقته، وصاحب غنىً ويسر، إذْ كان يملك قرية بكاملها قريباً من (جَيّ)، وكانت تعطيه موارد وفيرة، لما يتمتع به من خبرة بفلاحة الأرض وإصلاحها واستصلاحها وغرسها..

وقد أحبَّني أبي حباً جمّاً، حتى أنه لِفَرطِ حبه حبسني في البيت، كما تُحبس الجارية، حرصاً منه على حياتي وسلامتي من أي مكروه، فعشت شبه وحيدٍ في دنيا مقفرة من حولي، إلَّا النار التي يقدّسها المجوس، فكانت مدار اهتمامي بأمرٍ من أبي ـ حتى يباركني الإلَه ـ كما كان يظن ويتوهم..

وذات يوم بعثني إلى قريته التي يملكها، لانشغاله في (جيّ) بالبناء الذي يشيده، وأوصاني بالعودة سريعاً فور الانتهاء مما ندبني إليه.. ويمكن أن تتصوروا كم كانت فرحتي عظيمةً وأنا أخرج من سجن البيت، وأنعم بيوم من الحرية. ولكنني وأنا في الطريق سمعت تراتيل وأنغاماً تنبعث من مبنى كبيرٍ، فوقفت أستمع، وطاب لي الدخول لأرى ماذا في الداخل، فعرفت أنهم من النصارى، وأنهم كانوا يصلّون في كنيستهم التي هي مكان العبادة عندهم. فأمضيت النهار بطوله هناك، بعدما شعرت بأن النصرانية هي خير من المجوسية التي تعتنقها بلاد فارس، فلما سألت: أين أتعلّمُ هذا الدين؟ قالوا: في بلاد الشام، ويقوم على رعاية أتباعه كهنةٌ من ذوي العلم بالكتب السماوية، فطلبت أن يحملوني معهم إلى تلك البلاد، فوافقوا على أن يعلموني بالأمر عندما يحين موعد السفر.

وعدت في المساء إلى البيت لأجد أبي في سَوْرةٍ من الغضب

والخوف عليَّ، أدَّت به إلى أن يكبّل رجليَّ بالقيود، حتى لا أخالف أوامره مرة أخرى.. ولكنني كنت حذقاً، إذ أغريت من يدلّني على الوسيلة التي يمكن أن أفك قيودي بها، ساعة أشاء، ومَن يؤمن لي الأخبار من أهل تلك الكنيسة. فلما جاءني البشير بعودة قافلةٍ من تجارهم إلى بلاد الشام، خرجت من البيت خفية عن العيون، والتحقت بتلك القافلة، فقادني أحد رجالها إلى ديرٍ واسعٍ، حيث قبلني كبير الأساقفة هناك في عداد أتباعه، على أن أقوم علىً خدمته، وأتلقى منه تعاليم الديانة النصرانية.

ومع الأيام تكشَّفت لي طويّةُ ذاك الأسقف. فقد كان يعظ الناس ويرشدهم بأحسن العظات، ويحثهم على دفع الأموال لرعاية المساكين ومساعدة المحتاجين، ولكنه بدلًا من ذلك كان يكنز الذهب والفضة.. حتى صار لديه ثروة كبيرة. فلما مات، وجاء الناس يحتفلون بتكريمه، أعلمتُ بعضهم بصنيعه، فلم يصدقوني، فأخذتهم إلى مخبأ المال الذي كان يخفيه، فأخرجوا سبع قِلالٍ من الذهب والفضة. عندها تنادوا إلى صلب جثمانه ورجمه بالحجارة ليكون عبرة لغيره من رجال الدين. وكان الأسقف الجديد رجلًا تقيّاً، ورعاً، قد نذر نفسه لعبادة الله تعالى، والقيام على خدمة الناس بحق، ولكن المرض دهمَهُ وجعله طريح الفراش، فسألته أن ينصحني بمن ألحق به من بعده، فقال لي: «أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه. فقد هلك الناس وبدّلوا، وتركوا الخير إلا رجلًا في الموصل، اسمه فلان، فالحقْ به»[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٣٠

وذهبت إلى الموصل ولحقت برجل الدين الذي أوصاني به الأسقف الراحل. ثم انتقلت إلى نصّيبين، ومن بعدها إلى عمورية[1] في بلاد الروم، حيث كانت إقامتي، فعملت وجنيت المال حتى كانت لي أبقار وأغنام. فلما دنا أجلُ زاهد عمورية، وشارف على الموت، أوصاني قائلًا:

«أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً أصبح على مثل ما كنّا عليه إلا واحداً من الناس آمرك أن تأتيَهُ ونحن نعلم أنه قد أطلَّ زمان نبيٍّ، وهو مبعوث على مِلَّةِ إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجَرةً إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد، فافعل»[2].

وجاء إلى عمورية تجار من بني كلب، فعرضتُ عليهم أن يصحبوني معهم إلى بلاد العرب مقابل بقراتي وأغنامي، فحملوني معهم. حتى إذا بلغوا (وادي القرى) عدَوْا على حريتي فباعوني من رجل يهودي عبداً. فأقمت عنده حتى جاءه ـ يوماً ـ ابنُ عمٍّ له من بني قريظة، فابتاعني منه، وحملني معه إلى يثرب، فحدَّثتني نفسي أنه البلدُ الذي وصفه لي صاحبي، فأقمت حتى سمعت ببعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، في مكة؛ ولكنها العبودية ـ قاتلها الله ـ هي التي حرمتني من الذهاب إليه حتى هاجر إلى المدينة.. فوالله إني لفي رأس نخلة، وصاحب البستان من بني قريظة تحتي إذ أقبل عليه قريبٌ له، فقال:

---

(١) سميت عمورية نسبة إلى عموري بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح (راجع معجم البلدان).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٣٢.

«إيه يا ابن عم، قاتل الله بني قَيْلة[1]، والله إنهم الآن لمجتمعون بقُباء على رجل قَدِم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبيٌّ».

وكدت أسقط عن الشجرة، وأنا أسمع ما يقوله اليهودي، إلَّا أنني تماسكت، ونزلت أسأل عن أخبار هذا النبيّ. فانتهرني صاحبي، ولكمني، فعدت إلى عملي، وملء قلبي الشوق لملاقاة نبيٍّ آخر الزمان الذي قطعت لأجله أقاصي البلاد، وتحملت لرؤيته ذلَّ العبودية وهوانها..

وجاء المساءُ فلم يهنأ لي مقام، فاستأذنت اليهوديَّ في الخروج لبعض شؤوني. ثم ذهبت إلى قُباء ومعي بعض التمر، فقدمتها لرسول الله ﷺ وأنا أقول له: «إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالح، ومعك أصحاب لك غرباء، ذوو حاجة؛ وهذا شيء قد كان عندي للصَّدقة فرأيتُكُمْ أحقَّ به من غيركم..» فلم يمسَّها بيده. فقلت في نفسي: «هذه واحدة مما أخبرني بها الكاهن الصالح في عمورية».

وجئت رسولَ الله ﷺ ثانيةً بعدما تحوَّل إلى المدينة، وحملت معي التمر أيضاً، فقدمته له، وقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية، فهل تقبلها من رجلٍ يعرف قدْر الكرام الصادقين؟ فابتسم لي، وأخذ بعض التمر فأكله، ثم أمر أصحابه أن يأكلوا.. فقلت في نفسي: «وهذه الثانية».. وكأنما أراد أن يُزيل ما في نفسي من حيرة فقال ﷺ: «إننا أهلُ البيت لا نأكل الصدقة، لأنَّ الصدقة حرام علينا».

---

(١) كان اليهود يسمّون الأوس والخزرج «بني قيلة»، نسبة إلى أمهم «قَيْلَة» بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلُمْ بن الحافِ بن قضاعة (انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٣٢).

ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو ببقِيع الغَرْقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه. ورأيت أن أقف خلف ظهره، علّني أرى الخاتم الذي وصفه لي صاحبي. ويشاءُ الله سبحانه أن يريَني بأم العين ما أبحث عنه، فألقى الرسول ﷺ رداءه عن ظهره، ثم توكأ على جانبه فبدا خاتم النبوة في موضعه من جسده الشريف. عندها انكببت عليه أقبّله وأبكي. فقال لي: تحوّل، فتحوَّلْتُ، وجلستُ بين يديه، فقصصت عليه حديثي، كما حدثتكم به يا إخوتي. فأُعجِبَ رسولُ الله ﷺ من عطش نفسي للتحرِّي عن الحقيقة وما تحمّلت لأجلها من الصعاب حتى اهتديت إليها بالاسلام، وبالاسلام وحده.. فالتفتَ ﷺ يشير إلى الصحابة أن يسمعوا، ويعوا أهمية الإرادة والنية الصادقة، للاهتداء إلى الحقيقة إذا رامها الإنسان، واعتماده على خالقه، وإخلاصه لنفسه، ومواصلة دأبه على السعي لبلوغ ما يريد.. وذلك أفضل بكثير ممَّن يقلّد ويعتنق مبدأ أو عقيدة دونما جهد فكري».

تلك هي قصة سلمان الفارسي..

وإنه لمن حقِّ كل امرئ أن يعجب لصحابيٍّ جليلٍ مثل سلمان (رضوان الله عليه)، وأن يكبر فيه الروح السامية التي جعلته يتخلّى عن الغنى والدعة، ويرفض المجوسية لعدم قناعته بها عقيدةً يقبلها العقل والوجدان. فلما أدرك النصرانية بهرته لأنها دين سماويٌّ، ولكنَّ أَحدَ الرجال الأخيار في النصرانية نصحَ له أن يلحق بالنبي الذي قرب زمانه، فعمل سلمان بنصح ذلك الرجل الفاضل حتى انتهى به الحال إلى أن يصير عبداً، وليكون ـ من ثَمَّ ـ من سادة الأحرار في الدنيا والآخرة، وكيف لا، وقد قال عنه رسول الله ﷺ: «لقد أُشبع سلمانُ

علماً»[1]، بل وأمر الرسول الأعظم بحبّ سلمان: «فقد أخرج الرّوياني من حديث بريدة عنه ﷺ: أُمِرْت بحب أربعة من أصحابي، وأخبرني الله (تعالى) أنه يحبهم: عليٌّ، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي»[2].

وكان أكثر شيء يحزُّ في نفس سلمان أنه لم يكن من أهل «بدر» وأُحد بسبب الرق ـ قاتل اللهُ الذي استرقّه، إذ لم يستطع الخلاصَ منه حتى أتى رسولَ الله ﷺ وشكا له سوء حاله، فقال له الرسول الكريم: «كاتب يا سلمان..».

وذهب سلمان إلى صاحبه القريظي، فكاتبه على ثلاثمئة نخلة يغرسها له، وعلى أربعين أوقية من المعدن. فقال رسول الله ﷺ عندها للصحابة: «أعينوا أخاكم».

وكانت المساعدة من الإخوة. فلم تمر إلَّا أيام معدودة حتى كانوا قد أنهوا غرس النخيل، ثم أعانَهُ الرسول الأعظم في دفع المال، وبذلك وفى سلمان ما كاتب عليه.. فأُعتق.. وَمُذْ ذَاكَ صار لا يفارق رسول الله ﷺ، فشهد معه الخندق، وهو حُرٌّ بفضل الله تعالى، وفضل رسوله الكريم، ليكون ـ دائماً، وأبداً ـ حامداً، شاكراً على ما بلغ من نعمةٍ وبركة، ولعلَّ أعظمَها اثنتان: الأولى: ما أخرجَهَ الترمذي، والحاكم في المستدرك من حديث عليّ رضي الله عنه قال: «إنَّ كلَّ نبيٍّ أُعطيَ سبعة نجباء رفقاء، وأعطيتُ أنا أربعة عشر: عليٌّ والحسن

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/ ٨٥؛ وكنز العمال للبرهان فوري، رقم: ٣٣٣٤٠.

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٨٧، الحديث عن: أحمد: ٥/ ٣٥١ و٣٥٦؛ الترمذي، ١٠/ ٢٢٠؛ ابن ماجة، ١/ ٦٦؛ ومجمع الزوائد، ٩/ ٣٠٧، وإسناده ثقات.

والحسينُ، وجعفر وحمزة، وأبو بكر وعمر، ومصعب بن عمير، وبلال، وسلمان، وعمار، وعبد الله بن مسعود، والمقداد، وحذيفة ابن اليمان»[1] والثانية: بشارةُ رسولِ الله ﷺ له بالجنة، فقد قال ﷺ: «ثلاثة تساق لهم الحورُ العين: عليٌّ وعمّارٌ وسلمانُ»[2].

أجل، تلك كانت قصة سلمان الفارسي، كما رواها لأصحابه وهم يستريحون من عناء السهر والانتظار، ومن عنت الأحزاب والكافرين... وهي قصة تحفل بأعظم العظات وأبلغها، إذ يبدو من أحداثها أن سلمان هو ذلك الإنسان الذي تخلى عن أهله وماله، وما كان ليعبأ براحة نفسه، بحثاً عن الحقيقة، حتى اهتدى إليها في الإسلام، فآمن بصدقٍ ويقين، وعمل بجهدٍ وإخلاص، فاستحق عن جدارة أعلى وسام شرَّفهُ به رسولُ الله ﷺ بقوله: «سلمان منّا أهل البيت»..

فهنيئاً لهذا المؤمن البارّ على ما بذل، وقاسى، وتحمّل حتى أمكنه الوصول إلى دينِ الله (عزَّ وجلَّ)، وهنيئاً له على ما بلغ من درجة رفيعة في المكانة والمقام بين صحابة رسول الله ﷺ وأكابر المسلمين. وعسى أن يكون هذا الإنسان ـ وهو أحد الروّاد الأوائل من المسلمين ـ قدوة للأجيال، ولا سيما منهم الشباب، ولكل من يريد أن يتحرّى الحقيقة، والحقيقة وحدها، ليستحق أن يدرج اسمه في سجل الخالدين من أبطال الإسلام، وسجل الرجال الصالحين من أولياء الله (تبارك وتعالى).

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٨٨، عن: كنز العمال رقم ٣٣١١٤، وتهذيب ابن عساكر، ج٤ ص٢١٣.

(٢) مجمع الزوائد، ٣/ ٣٤٤.

وبقليلٍ من المقارنة بين موقف سلمان الفارسي الذي ورث المجوسية بالولادة، وبين بني يهود في الجزيرة العربية الذين كانوا أهل كتاب، ودين سماوي، يتبيّن الفارق العظيم بين ذلك الإنسان الرفيع الشأن، وأولئك الناس الذين نسوا حظاً ممّا ذُكِّروا به.

فيا معشر الناس، كونوا كمثل سلمان الفارسي رضي الله عنه، تحرَّى عن الحقيقة، وطاف الأمصار من أجلها، فلما بلغها آمن بها وعاش لأجلها، فلما حضرَهُ الموتُ بكى، فسألوه عن ذلك فقال: «أما والله ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا، ولكن أبكي لأمر عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخشى أن لا نكون حفظنا وصيّة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لنا (ليكن بلاغُ أحدِكم من الدنيا كزاد الراكب»[1]..

أجل أيها الناس، كونوا طلَّاب الحقيقة والحق، ولا تكونوا كالذين وعدتهم كتبهم السماوية، وأمرتهم باتباع الدين الحق، فلما جاءهم دينُ الهدى من ربهم وعلى لسان رسوله محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم أنكروه، وكفروا به، ثم أوغلوا في العداوة له، وراحوا يحاربونه لطمس معالمه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر..

نعم لقد أنكر اليهودُ الإسلامَ حقيقةً، وواقعاً، وجهدوا في محاربته لإطفاء نوره.. ولكن لم يدروا أنَّ من يحارب الاسلام وأهلَهُ فإنما تكون حربه وبالاً عليه، لأن الله أبى إلّا أن يُتَمَّ نوره ولو كره الكافرون. وهذا ما فعله اليهود بالأمس ومنذ بزغ فجر الإسلام، وما زالوا يفعلونه حتى اليوم!.. وكان اللَّهُ عزيزاً مقتدراً!..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٤/ ٩١.

البحث الثالث



غزوة بني قريظة

انجلت الشدّة، وتفرَّق جمع الأحزاب من حول المدينة، فعادَ المؤمنون إلى بيوتهم يطمئنّون على الأهل والأحبة، ويحمدون ربهم تبارك وتعالى وقد حقق لهم النصر المبين. ولكنَّها بضع ساعات فقط وصلَّى فيهم الرسول ﷺ صلاة الظهر من يومه ذاك[1]، ثم أمر بلالاً أن يصعد سطح المسجد وينادي في الناس: «مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلِيَنَّ العصر إلَّا في بني قريظة»[2].

وهبَّ المسلمون يتخلَّون عن الراحة، على الرغم مما ذاقوا من مرارة السهر والخوف وعذابهما.. فتلك الفئة اليهودية التي غدرت بهم بغياً، ونقضت عهدها مع رسول الله ﷺ بغير حق، لا يجوز أن تظل في حصونها، تنصب شباك المكر والخداع للإيقاع بالمسلمين، ولا تتوانى عن ضرب الإسلام وأتباعه، والعهد بها مازال جاثماً على الصدور جرّاء ما لاقوا ـ من حصار الأحزاب، ومن خيانتها على

(١) عند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من غزوة الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

(٢) أعيان الشيعة، ج١ ص ٢٦٦.

السواء ـ حتى ابتلي المؤمنون أشد البلاء، وبلغت القلوب الحناجر وزُلزلوا زلزالًا شديداً.

فالمسلمون لم يطالبوا بني قريظة أن يقاتلوا معهم، ولم يخونوا عهدهم الذي عقدوه مع رسول الله ﷺ، بل ظلوا أوفياء على هذا العهد، كما يعترف به زعيم بني قريظة نفسه، كعب بن أسد، عندما جاءه حُيي بن أخطب النَّضري يحضُّه على شهر العداء للمسلمين والانضمام إلى الأحزاب، فقال له كعب بن أسد: «ويحَك يا حييُّ! فدَعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلَّا صدقاً ووفاءً»(١).

ولكنَّ زعيم بني قريظة ـ وأحباره من ورائه ـ عاد وآثرَ الانحياز إلى الأحزاب، وتغليبَ رأيِ ابن أخطب، ولم يسمع للصحابة الذين جاؤوه ناصحين، بألَّا يدخل بنو قريظة في سوء فعال، قد تجر إلى خرابهم.

وهكذا غلب صوت الحقد والرعونة على بني قريظة، وحضّروا أنفسهم، وتجهّزوا للاشتراك في قتال المسلمين، لولا أن الله سبحانه وتعالى قد دحر الأحزاب، وأوقع بهم شرَّ هزيمة، فعادوا خاسئين خاسرين.

على أن ذلك الموقف من بني قريظة، الذي لم يكن يهدف إلَّا إلى طعن المسلمين من الظهر، ما كان ليمرَّ بدون حساب.. بعد اليوم كيف يمكن أنْ يأمن المسلمون جانب هؤلاء الخونة الغادرين، ويقبلوا ببقائهم إلى جوارهم، دون أن يخشوا غدراً قد يكون أدهى وأمرّ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٣٢.

وخيانةً قد تكون أعتى وأشدّ؟! لا، لن يقبل المسلمون أن يبقى الخطر محدقاً بهم، وإلَّا أوقعوا أنفسهم في شروره ومآسيه!

ولذلك، فقد لبَّى كلُّ من اشترك في غزوة الأحزاب، نداء الواجب، وجاء مشمِّراً للقتال، وهو يدرك أنَّ أمرَ رسول الله بالخروج إلى بني قريظة، لا يكون أبداً إلَّا عن تقديرٍ وحكمةٍ بالغَيْن.. فقد عامَل بني النضير من قبلُ بالحسنى، واكتفى بإخراجهم من ديارهم فقط، وتركهم يذهبون لشأنهم، إلَّا أنهم بدلَ أنْ يقدّروا تلك الرأفة النبوية، التي تركتهم سالمين، راح بنو النضير يحرّضُون القبائل ويؤلبون بني قريظة عليه، ثم يُجمعون على غزو المسلمين في عقر دارهم.. فمن يضمن بعد هذا ألَّا يفعل بنو قريظة مثلهم، وتكون لهم مع المشركين غزوة جديدة للمدينة، فتعود تلك الحالة التي أوشكت أن تعصف بالإسلام وأهله، لولا رحمة الله تعالى وفضله؟

ومن منطلق هذا التقدير النبويّ الذي وعاه المسلمون حقاً وحقيقة، كان ضرب الحصار على ديار بني قريظة، ظهيرة انكشاف الأحزاب عن المدينة، لأنّ في مباغتتهم ما يحول دون إعطائهم الفرصة لكيدٍ جديدٍ، قد يعدّون له سريعاً، لاسيما أن اليهود ـ كما هو معروف ـ أهل مكر وخداع وخيانة.. وتراصَّت الصفوف أمام المسجد، واستوى المهاجرون والأنصار في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فنادى رسولُ الله ﷺ عليِّ بنِ أبي طالب كرّم الله وجهه فأمَّره على الجند، ثم دفع إليه الراية، وأمره بالسير في طليعة الجيش على بركة الله. وما أوشك العصرُ أن يحلَّ حتى كان الحصارُ حول آطام بني قريظة قد اكتمل، مما جعلهم يُباغَتون فعلًا، إذ لم يتوقعوا قطّ أن يسارع المسلمون إليهم في نفس اليوم، بل كانوا يظنون أنه

يلزمهم راحة لا تقلُّ عن عشرات الأيام أو بضعة أشهر، حتى يمكنهم أن يلتقطوا أنفاسهم، ويستعيدوا قواهم الواهنة. أما وقد أتوهم فعلًا يضربون الحصار من حولهم، فقد أسقط في أيديهم، ورأوا أن الأمر يعدُ بنذير شؤم.

وكان حريّاً بهؤلاء اليهود أن يراعوا الأوضاع ويتدبروا وسيلةً للتفاهم مع النبي ﷺ، ولو بالاعتذار عن غدرهم.. ولكنه غضبُ الله (تعالى) بما كسبت أيديهم، فبدلًا من أن يتداركوا الأمور، راحوا ينادون من وراء النوافذ، وطاقات الآطام بصيحات الحرب والاستعلاء، وهم يكيلون للمسلمين السبابَ، والشتائم على أنواعها، متعمدين أن ينالوا بسفاهتهم رسول الله ذاته!.. ولم يكن ردُّ المسلمين إلَّا قولًا وجيزاً، بعيداً عن السفاهة: «السيف بيننا وبينكم يا بني قريظة»!.

وكانت الخطّة التي اعتمدها الرسول ﷺ تقوم على عدم شنّ الهجوم على حصون بني قريظة، بل الاكتفاء بضرب الحصار عليهم، ومنع الإمدادات عنهم، أو أية نصرة يمكن أن تأتيهم من الخارج..

ومرَّت بضعة أيام على تلك الحال، كانت كفيلةً بأن يستفيق بنو قريظة من الغفلة... وظنّوا بأنهم قادرون على مفاوضة المسلمين، كي يتخلَّصوا من هذا المأزق الحرج الذي أوقعوا أنفسهم فيه، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه السماح لهم بالخروج مع نسائهم وأبنائهم، وما حملت الإبل من أموال، كما فعَلَ مع بني النضير، فكان جوابه لرسلهم بأنه لا خروج إلَّا بالنزول على حكمه!..

وعادوا يسألونه الخروج بالنساء والأبناء بلا مال ولا سلاح؛ فلم يكن ردّه إلا كالسابق: لا.. إلَّا أن ينزلوا على حكمه..

فلما أيقنوا أن «محمداً» غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال لهم زعيمهم كعب بن أسد: «يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خِلالًا ثلاثاً، فخذوا أيَّها شئتم»[١]. قالوا: وما هي؟.

قال: «نبايع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنه لنبيٌّ مرسل، وأَنَّهُ للذي تجدونَهُ في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم»[٢].

قالو: «لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره»[٣].

قال: «فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلُمَّ فلنقتلْ أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مُصْلِتِينَ السيوف، لم نترك وراءنا ثَقَلًا (متاع المسافر وَحَشَمُه)، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد: فإن نَهْلِكْ نَهْلِكْ ولم نترك وراءنا نَسْلًا نخشى عليه، وإن نَظْهَرْ فلَعَمري لنَجِدنَّ النساءَ والأبناء»[٤].

قالوا: «نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم»؟[٥].

قال: «فإن أبيتم عليَّ هذه، فإِنَّ الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أَمِنُونا فيها، فانزلوا لعلَّنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرَّةً»[٦].

قالوا: «نُفسدُ سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلَّا من قد علمت، فأصابه ما لم يخفَ عليك من المَسْخ»[٧].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٤٦.
(٢)و(٣) و(٤) و(٥) و(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق، ص٢٤٧.

قال: «ما باتَ رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً»[1].

خطأ أبي لبابة بن عبد المنذر

وكان حُيَيُّ بنُ أخطبَ، بعد أن ذهبت الأحزاب، قد دخل في حصن بني قريظة وفاءً لعهده مع زعيمهم كعب بن أسد، فلما جهدهم الحصار، أشار عليهم أن يوسِّطوا بينهم وبين «محمد» حلفاءهم من الأوس، فوافقوه، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يوفد إليهم أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر ـ أخا بني عمرو بن عوف ـ ليتشاوروا معه في أمرهم...

ووافق رسول الله على ذلك.. ولكنْ ما إن دخل أبو لبابة عليهم حتى هبَّ النساء والأولاد في وجهه، يبكون مذعورين، خائفين.. فقالوا له: ماذا نفعل يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمدٍ؟!. ويبدو أن العاطفة كانت قد غلبت عليه فقال لهم: نعم (وأشار بيده إلى عنقه بما يعني الذبح). ولكن سرعان ما عادَ لأبي لبابة رشده، وأدرك الخطأ الفادح الذي ارتكبه، إذ ما كان ينبغي له أن يفشي سراً للمسلمين ويخالف عهد الله ورسوله.. فخرج من عند بني قريظة لا يلوي على شيء، وانطلق، هائماً في المدينة حتى أتى المسجد، فارتبط إلى عمودٍ بجانب منبر رسول الله وآلى على نفسه مقسماً ألَّا يذوق طعاماً أو شراباً حتى يموت، أو يتوب الله تعالى عليه، فلا يطأ ناحيةً لبني قريظة، ولا يُرى في بلدٍ خان فيه الله ورسولَه..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٤٧.

ذلك ما كان من أبي لبابة وهو يعاهد الله مُقِرّاً بالخطأ الجسيم الذي ارتكبه. وجاء من يخبر رسول الله بأمره، فقال: «أَمَا إنَّهُ لو جاءني لاستغفرت له، فأَمَّا إذْ فعلَ ما فعلَ فما أنا بالذي أُطلقُهُ حتى يتوبَ الله تعالى عليه».

ولم يعد أحد يقرب من أبي لبابة إلا امرأته، فقد كانت تأتيه وقت الصلاة، فتفك وثاقه حتى يصلي، ثم تعود وتربطه من جديد. وانقضت ست ليالٍ وهو على تلك الحال، وقع بعدها مغشياً عليه، خائر القوى، فارغ الفؤاد إلَّا من خشية الله، فأسرعت إليه امرأته تُسعفه، فأفاق يبكي ويتحسَّر على ما صنع، وهو في ذلك لا تكاد أنفاسه تطلع من صدره إلَّا بالجهد الجهيد..

لقد كان لومُ أبي لبابة لنفسه شديداً، وندمُهُ على ما فعل كبيراً، فتاب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ توبةً نصوحاً مخلصة، ودعا ربَّه بأن يغفر له مقرّاً بذنبه، وغلبة عاطفته عليه من شدة تأثّره عند ملاقاة القوم له.. وهنا أيضاً ـ كما في كل حالٍ وشدَّةٍ ـ، تتجلَّى رعايةُ الله سبحانه للمسلمين، فرادىً وجماعاتٍ، فأنزل سبحانه قرآناً على رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وحدَّث رسول الله ﷺ زوجَهُ أمَّ سلمة بتوبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أبي لبابة، فقالت مستأذنة:

«ألَا أُبشّرُهُ يا رسولَ الله؟».

فقال الرسول الكريم: «بلى، إنْ شئتِ».

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

فقامت أم سلمة تقف على باب حجرتها، المحاذية لباب المسجد، وتنادي أبا لبابة قائلة:

«يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله تعالى عليك».

ولم يقبل أن يفكَّ أحدٌ وَثاقه، وهو يقول: «لا! لا يفكنَّ أحدٌ وثاقي إلَّا رسولُ الله ﷺ، فهو الذي يطلقني»..

ولمَّا أتاه رسولُ الله ﷺ، وحلَّه من رباطه، خرَّ أبو لبابة على ركبتيه أمامَهُ قائلًا:

«والله إني لَنادمٌ يا رسول الله على ما فعلت. وقد آليت على نفسي أن أهجر دارَ قومي وبلدي التي أصبتُ فيها الذنبَ، وأن أتخلى عن مالي».

فقال له الرسول الأعظم: «يجزيك الثلث أن تتصدّق به»..

... وانقضت عشرون ليلةً على الحصار، وتقدم عليُّ بن أبي طالب، وهو ينادي: «يا كتيبة الإيمان!» فانحاز إليه الزبير بن العوام، وجمع من المؤمنين، فقال عليٌّ «واللَّه لأذوقَنَّ ما ذاقَ حمزةُ أو لأفتحَنَّ حُصْنَهم»[1].. وكانت أحوالُ بني قريظة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، حتى أصابهم اليأس، فلمَّا رأوا كتيبةَ المسلمين تريد الاقتحام عليهم، لم يجدوا غيرَ النزول على حكم «محمد»، فبعثوا إليه قائلين: لقد نزلنا على حكمك فإننا خارجون!

... ونزل بنو قريظة من آطامهم فجرى حبس الرجال في دار بنت الحارث ـ امرأة من بني النجار ـ وذلك بعيداً عن النساء والذراري، فجاء رجالٌ من الأوس ـ وهم حلفاء بني قريظة ـ يعرضون

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٥١.

على رسول الله أن يعاملهم بمثل ما عامَلَ به يهود بني قينقاع ـ حلفاء الخزرج ـ وأن يقبل شفاعتهم بهم، كما قبل شفاعة عبد اللّه بن أبيّ ابن أبي سلول عندما طلب الرأفة بحلفائه.

فقال لهم رسول الله: «يا معشر الأوس! أترضون أن يحكم فيهم رجل منكم».

قالوا: بلى يا رسول الله.

وتمَّ التوافق أن يكون سعدُ بن معاذ هو الحكم، وكان ما يزالُ طريحَ الفراش مُذْ أصابَهُ سهمٌ في عرقه أثناء غزوة الخندق، ونقل إلى خيمة الجرحى التي تقوم عليها امرأة تدعى «رفيدة»، نذرت نفسها لخدمة إخوانها في الدين، ولا سيما من يصابون في غزوٍ أو قتال مع الأعداء، فأتاه نفرٌ من بني قومه يحملونه على دابة، ويلحون عليه في الطريق ألّا يجعل حكمه قاسياً على بني قريظة، وهم يقولون له: «يا أبا عمرو! أَحسِنْ في مواليك، فإنَّ رسول الله ﷺ إنما ولّاك ذلك لتحسن فيهم».

فلما أكثروا، ولَجُّوا عليه، وجعلوا يقولون: يا أبا عمرو! حلفاؤك ومواليك يقضون ما عليهم ولا يتأخرون، ومنْ قد علمتَ؟ قال لهم:

«قد آنَ لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم».

فلمَّا انتهوا به إلى مجلس رسول الله قال: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه»[1]. ثم قال له:

«احكم فيهم يا سعد»[2].

---

(١) خالد عبد الرحمن العك: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢، ص٩٠٠ (عن ابن سعد)

(٢) المصدر السابق.

قال سعد: «اللّهُ ورسولُهُ أحقُّ بالحكم».

فقال له الرسول: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم».

فقال سعدٌ للمسلمين: «عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه أنَّ الحكم فيهم بما حَكَمتُ!».

قالوا: نعم.

وأشارَ سعدٌ، وهو يغضُّ الطرف، ناحيةَ رسول الله إجلالًا له وقال: «وعلى مَنْ ها هنا؟».

فقال الرسول الأعظم: نعم.

والتفت سعدٌ إلى بني قريظة وقال: وأنتم يا هؤلاء، أترضون بحكم الله وميثاقه فيكم؟

قالوا: نعم..

قال: «عهدُ الله وميثاقه بأَنَّ الحكم فيكم ما أحكم به؟».

قالوا جميعاً: نعم..

فقال سعدٌ عندها: «فإني أحكم فيهم أن تُقتَل الرجالُ، وتقسَّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء»[1].

فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[2].

وبالفعل فقد نُفِّذَ فيهم حكمُ سعد بن معاذ، لأنه كان حكمَ الله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق ـ ومعنى الأرقعة: السماوات ومفردها: رقيع.

(تعالى) عليهم في قوله المبين: «فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً»[1]، وذلك أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قد علم ما صنعَ بنو قريظة، وما قد يصنعون فيما لو تركوا بلا عقاب، وكان اللَّهُ عليماً حكيماً..

ويُروى أنه عندما سيقَ حييُّ بن أخطب، لتنفيذ الحكم فيه، نظر إلى رسول الله، وقال: «أما واللهِ ما لُمتُ نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل اللّهَ يُخذَل»[2].

ثم أقبل على الناس، فقال:

«أيها الناسُ، إنه لا بأسَ بأمر الله، كتابٌ وقدر، وملحمة كتبها اللّهُ على بني إسرائيل»[3].

وتعالت الأصوات تنادي بالإسراع في قتل عدوّ الله، والناس تقول:

«ما كان الله سبحانه وتعالى ليظلمهم، وما كان رسولُ الله ﷺ ليأمر بظلم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون... وهذا هو الحق... فالظلم قد وقع من بني قريظة أنفسهم في خيانتهم، وتآمرهم، وإعدادهم لحرب المسلمين: إذ وَجَدوا بعد فتح دورهم ألفاً وخمسمائةَ سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع وخمسمائة ترس.. كانت مخبَّأةً كي ينقضّوا بها على المسلمين عندما يواتيهم الظرف، ولكنَّ الله (تعالى) خذلهم، فردَّ كيدهم إلى نحرهم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦، قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٥٢.

(٣) المصدر السابق.

وجعلَ سلاحهم بيد المؤمنين يقاتلون به أعداءَ الله أمثالهم.

وكان ثعلبة بن سَعْية، وأسيد بن سَعْية، وأسد بن عبيد، وهم من بني هَدْل، وأبناء عمّ بني قريظة، قد أسلموا في الليلة التي نزلوا فيها على حكم رسولِ الله، فأمّنهم ﷺ على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وصاروا إخوة في الدين..

وكان عمرو بن سُعدى القرظيّ قد وقف ضد رأي بني قومه في نقض العهد من المسلمين وقال: «لا أغدر بمحمدٍ أبداً». وقد شهِدَ بذلك محمد بن مسلمة وعددٌ من الرجال، فأمَرَ رسولُ الله بألَّا يقتل، بل أطلق سراحهُ، فذهب في الأرض، لا يعلم إلَّا الله سبحانه وتعالى أين توجهه، فقال الرسول الأعظم: «ذاك رجل نجّاه الله بوفائه»[1]..

وكان رفاعة بن السموأل ـ القرظيّ ـ قد بعَثَ، وهو في الأسر، إلى أم المنذر سلمى بنت قيس أن تجيره لمعرفتها به، وبالفضائل والحسنات التي تميّزه عن بني قومه، فذهبت إلى رسول الله تستوهبه، فوهبَهُ الرسول الكريم لها. وكان لذلك أثرٌ كبيرٌ في نفسه، فأعلن إسلامَهُ صادقاً.

ثم قسّم رسولُ الله ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأمر ببعض السبايا أن تُحمل إلى نجد وبلاد الشام، ليباع لهم بها خيل وسلاح..

كلُّ ذلك بأمرٍ من الله سبحانه الذي قضى بأن تُعامَلَ تلك الفئةُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣، ص٢٤٩.

الباغية بمثل ما تستحقُّ من العقاب على خيانتها، وتربّصها بالمسلمين الدوائر، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1].

فمن قبلُ غدرَ أعداءُ الله بالمسلمين في مواقعَ عديدة، فقتلوا أربعين بلا ذنب، وباعوا اثنين لقريش في مكة، بعد قتل رفاقهما!... فإن لم يُظهر المسلمون لسكان الجزيرة ـ وهم على ما هم عليه من عقلية جاهلية، وطباع وعادات قاسية ـ أنَّ بإمكانهم استعمالَ الأساليب التي يستعملها أعداؤهم، لكان ذلك مدعاةً للاستخفاف بشأنهم، وعدم الركون إلى قدرتهم!.. من أجل ذلك اختار رسولُ الله عدداً ضئيلًا من السبايا وأرسلَهُ للبيع في البلاد البعيدة، ولو أرادَ خلاف ذلك لكان بعث بالسبايا كافة للبيع، ولَمَا كانَ قد أعطى الأوامرَ المشدّدة بألَّا يُفرَّقَ بين الأم وابنها في القسمة، وهو يقول للمسلمين: «لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغوا»[2].. ولَمَا كانَ أيضاً قد جعل من إحدى نساء بني اليهود، ريحانة بنت عمرو بن خنافة ـ التي اختارها لتكون من نصيبه في القسمة ـ سيّدةً مصوناً، تقيم في بيته، حتى يتوفاه الله سبحانه وهي ما تزال عنده، على الرغم من بقائها على اليهودية، إذ لم يلزمها قطّ أن تدخل في الإسلام، بل أمر بحفظها، وصون كرامتها، حتى تظل على نفس المكانة التي كانت عليها في بني قومها[3] (علماً بأن بعض السِّير تذكر بأن ريحانة عادت ودخلت في دين محمد ﷺ بعدما

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٢) أحمد بن حنبل، ج٣ ص٤٨.
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٥٦.

رأت تلك المعاملة النبيلة، التي يعاملها بها الرسول وأهلوه)[1].

وكانت أخبار مصير الأحزاب قد بلغت الجزيرة كلها، فأيقن الناسُ أنَّ هناكَ قدرةً خفيةً عليّةً ترعى المسلمين، وتكلؤهم بعين الحفظ، وإلَّا لما كانت تسلّط على أعدائهم قوى الطبيعة لتعصف بهم وتبدّد قواهم، كما جرى لذلك الجيش العرمرم الذي ذهب ليغزوهم في عقر دارهم، فرجع مهزوماً بفعل الرياح العاتية...

وكانت الأخبارُ قد تناهت أيضاً إلى بني يهود في خيبر، وما حلَّ ببني قريظة ـ جزاءً لنقضهم العهد ـ فأنحى سلامٌ بن مشكم، أحد زعماء بني النضير، باللوم على ابن أخطب قائلًا: «هذا كله عمل حُيي ابن أخطب.. ما كان أحرى بالرجل أن يترك بني قومه وشأنهم! ولكنه أبى إلَّا أن يناجز «محمداً» وأصحابه فكانت تلك المصيبة الدهماء»..

موت سعد بن معاذ

والآن.. وقد فرغت المدينةُ من أعداء الله، فحق للمسلمين أن يهنأوا بالظفر وأن يلاقوا الراحة.. فعمّ السرور جميع بيوت المؤمنين، وطابتِ النفوس راضية، واستوثقت بحكم الله قانعة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أفاءَ على المسلمين بتلك الراحة، فمن أحقُّ بها، بعد رسول الله ﷺ، غيرُ المؤمنين الصابرين المجاهدين؟!..

---

(١) قال الكلبي: إن رسول الله ﷺ أعتق ريحانة، وتزوجها سنة ٦هـ، وماتت وهي راجعة من حجة الوداع فدفنها بالبقيع، وكذلك في سيرة ابن هشام (المصدر السابق) من أنَّ الرسول ﷺ عرض عليها الزواج فأبت، واستمسكت باليهودية ثم عادت فأسلمت، فسرَّهُ ﷺ ذلك مِن أمرها..

وهل كان سعد بن معاذ، إلَّا أحد أبرز هؤلاء المؤمنين؟!..

فها هو يتفكّر بما قدَّره الله ـ عز وجل ـ وما أنعم به عليه وعلى المسلمين من فضله فيقرُّ عيناً، ويهنأ بالًا...

لقد دعا سعدٌ ﷺ ربَّه، ساعة جُرِحَ، وعرفَ أن جُرحَه بليغٌ، وأنه قد يلاقي ربّه بين لحظة وأخرى، بأن يرأف المولى به فيمنحه فرصة من العمر ليناجز قريشاً إن أرادت حرباً على المسلمين، أو أن يشهد قصاص بني قريظة بسبب خبثهم وكيدهم، ومن بعدها فليمت قريرَ العين، وقد اطمأنَّ على الإسلام ـ بفضل الله ورسوله والمؤمنين ـ سيّداً في هذه الدنيا، كما أنزلَهُ ربُّهُ مباركاً من عليائه..

ويتفكّر سعدٌ بما حفلت به حياتُهُ منذ أنْ آمَنَ باللَّهِ ورسولِهِ، وما أنعَمَ عليه المولى تبارك وتعالى في الاسلام من المكانة المشرّفة، فيقول في نفسه: لا، واللَّهِ لم يبق لي من مطمع إلَّا في الشهادة..

ولقد كُتبت له الشهادة منذ أن جُرِحَ قرب الخندق.. إذْ لمَّا توجَّه بذلك الدعاء[1] الخالص للَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وبفعل إيمانه الصادق، ورجائه إلى ربه أن يحقق أغلى أمنيةٍ لديه.. أجل، ففي تلك اللحظات، وما إنْ أخلَصَ بكليته لربه تبارك وتعالى حتّى ورُفع دعاؤُهُ على بسطٍ من نورٍ، كلماتِ حقٍ واستسلام لربِّ العالمين، لتنتشر تلك الكلمات، في الوجود كله، أصداءَ نفسٍ تحبُّ الله، ويحبُّها الله (سبحانه)، فتستبشر الملائكة فرحةً، وكأنها تؤمَرُ فتردد: بارك الله لسعدٍ ابن الأرض فقد استحق أن يكون عبداً لله سبحانه..

وكيف لا يتردَّدُ دعاء هذا الصحابي الجليل في آفاق الوجود وهو

---

(١) راجع دعاء سعد في ص٣٦٣ من هذا الكتاب.

في قلب الشدّة والكرب، لا يعبأ بدمائه تنزف، ولا يطلبُ من يستطيع وقف هذا النزف، بل تصبو نفسه إلى رجاء واحد، وهو أن ينصُرَ الله سبحانه وتعالى الإسلام؟!..

فللّه درُّ هذا الصحابيّ ما أقوى إيمانَهُ بربه.. وما أقربه إلى ربه!. فأمَّا أن يكون الخالق قريباً من عبده، فهذا شأنٌ ربّانيٌّ، شاءه الله العزيز الحكيم منذ أن خلق الإنسان، ثُمَّ نزَّلَ التوكيد عليه في محكم كتابه بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].. فلا وجود أبداً لمسافة تفصل بين الخالق والإنسان، لأنه سبحانه أقرب إليه من خفقان قلبه.. وهذا هو السرُّ الذي قد يخفى على كثير من الناس، ولا يدركونه، فيذهبون مندفعين في طلب الدنيا، متنكرين لقلوبهم وخفقانها بالفطرة، بل ومتنكرين لخلقهم الذي ما زال معجزاً بدقيق صنعه، وعظيم إتقانه!.

نعم! أنْ يكونَ الله (تعالى) قريباً من عبده الإنسان، فهذا الحق المطلق. وأما أن يكون الإنسانُ قريباً من ربّه، فهنا حكمةُ هذا العبد وهدايته.. وأكبر واجبٍ عليه، حتى يدرك قرب ربه إليه أن يستجيب له في كل ما يأمره به وينهاه عنه. وهي الاستجابة التي تؤمّن له إجابة دعائه وتقرّبه هو إلى خالقه سبحانه، كما يبيّنه لنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].. والناس عندما يسألون الله، فإنه ـ جل وعلا ـ يؤتيهم، ويتمنَّن عليهم بالعطايا والمواهب التي لا تعدُّ ولا

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

تحصى توكيداً لقول رب العالمين: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[1].

ويبرز سعدُ بن معاذ على مدار الزمان مثالًا لعباد الله الداعين له، والمستجيبين له، والمؤمنين به ـ تبارك وتعالى ـ فحق أن يكون من الراشدين.. لقد آمن بالإسلام، وصدّق رسوله ﷺ، فبذل كل ما منَحهُ ربُّهُ تعالى من نفسٍ، ومن نفوذٍ ومال، في سبيل الله.. فهل بعدُ أحسنُ استجابة، وأخلصُ عبودية، وأشدُّ إيماناً مما كان عليه سعد بن معاذ؟

ولقد منَّ الله تعالى عليه بالشهادة وهو في معرض الدفاع عن دين الله، فكان ـ هنيئاً له ـ من الشهداء الأبرار. وإنَّ من كان مثل سعدٍ لهو جدير أن يُختار ليحكم بحكم الله.. وها نحن نجده قد قرَّ عيناً بالحكم الذي هداه الله (عزَّ وجلَّ) إليه، فحكم بما حكم على بني قريظة، لينام على الاستجابة لربه، ويغفو على طيب الشهادة. ويأتي الناس لنقل جثمانه إلى الثرى، فيجدونه خفيف الحمل، لا يُكاد يُشعَرُ له بوزن في النعش، مع أنه كان بادناً.. فيتعجبون!...

أجل، عجب المؤمنون لأنَّ الميت يثقل حملُهُ عادةً، ويزيد من هذا الثقل إن كان بديناً، بينما كانت جنازة سعدٍ أخفَّ ما حملوه من جنازات.. ولكنَّ رسول الله ﷺ، وهو يعلم بالأمر، لا يأخذه أيُّ عجب، بل يقول للناس، ليُذهِبَ عنهُم ما قد يخالط نفوسهم من تصورات: «إنَّ له حمَلةً غيركم. والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكةُ بروح سعد، واهتزَّ العرش لحبِّ لقاءِ اللَّهِ سعداً»[2].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

فهنيئاً لك أيها المسلمُ الصادق، يا سعد بن معاذ، يا منْ تنزَّل الملائكة بإذن ربهم يحفّون بجثمانك ، ويستبشرون بروحك الكبيرة تشعّ عبوديةً لله، وتتوهَّج قدسيّةً لخالقك. . هنيئاً لك أيها الصحابي، وألهَمَ اللّهُ تعالى أهلَ الإسلام كي يسيروا على خطاك، وينهجوا نهجك حتى يحظَوا بالمكانة التي حظيت بها عند الله ورسوله. .

ومثل سعد بن معاذ رجالٌ عاهدوا الله: فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلًا. فهم رجال الاسلام، والاسلام يفاخر بهم على الزمان. . وفي سِيَر هؤلاء العظام ـ إذا ما اطلعنا عليها ـ ما ينبئ عن صدق اسلامهم، ويهدينا الله إلى مدى رشدهم! . . .

وهكذا وبالقضاء على بني قريظة، ارتاحت المدينة المنورة من شرور المنافقين، بعدما فقدوا المؤلّبَ والنصير، ولاذوا بأنفسهم يحتمون من الخطر على حياتهم، فلم تعد لهم أصوات تُسمَعُ، أو شأن يبرز. . لقد كانت لهم شوكة سوءٍ، ولكنها انكسرت إلى الأبد، ولن تقومَ لهم بعْدها قائمةٌ على الإطلاق في مدينة رسول الله ﷺ. . وهذا من شأنه أن يريحَ المسلمين، فتستوي أمورهم شيئاً فشيئاً، وتسير في طريق أقلَّ تعثراً وأكثرَ أمناً، خصوصاً وأنَّ الدعوة الإسلامية قد أخذت تتسم بطابع القوة، والغنى والاعتزاز، بدلًا من طابع الضعف، والفقرِ والاستكانة التي رافقتها في مراحل عديدة من حياتها السابقة. فمن قبيل ذلك أن السلاح، الذي غنمه المسلمون من المشركين ومن بني قريظة ـ خصوصاً ـ وما أضافوا إليه من عتادٍ وعدَّةٍ صنعوها أو شروها، قد وفَّرت لهم القوةَ الكافية. كما وأنَّ ما أصابوا من المال والمتاع قد

أمَّنَ لهم كثيراً من أسباب العيش التي كانوا يفتقرون إليها. وهذا يعني أنه لو لم تكن غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، وما آلتا إليه من الناحيتين المادية والمعنوية، لما كان للدعوة هذا الوجه الجديد الذي ظهر للناس وجعلهم يرهبون المسلمين.. ولكن ـ ولا ريب ـ فإنَّ الفضل كله في الغزوتين كان لله تعالى، ولرسوله العظيم.. ففي غزوة الأحزاب قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(١).

«وردَّ الله الذينَ كفروا بغيظهم» أي قريشاً وغطفان «لم ينالوا خيراً»: مرادهم من الظفر، واستلاب خيراتِ المدينة المنورة..

ثم عقَّب في غزو بني قريظة، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾(٢).

فكان في التنزيل الحكيم أمور عديدة أبرزها:

ـ صدْق الإيمان بالله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٣).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

ـ هزيمة الأحزاب بصور مألوفة، عندما أرسل الله تعالى عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها. . .

ـ التصديق على حكم سعد بن معاذ في بني قريظة «فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً».

ـ وراثة المسلمين ـ حقاً شرعياً ـ لأرض وديار وأموال بني قريظة «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم».

ـ إن كل ما حصل ـ وما يحصل ـ إنما الأمر فيه لله تعالى «وكان الله قوياً عزيزاً»، «وكان الله على كل شيء قديراً».

غزوة بني لحيان

كانت السنة الخامسة للهجرة قد قاربت على نهايتها لمّا ظفر المسلمون ببني قريظة وَخَلَتَ المدينة من الأعداء. فانصرف الرسول الأعظم إلى تقوية دعائم المجتمع الإسلامي، شأنه في كل مرة تنأى فيها ظروف الحرب والقتال، وتتاح له الفرصة للبناء المجتمعي.

وإذا كان سلطان الإسلام قد ظهر قوياً في ذلك الحين، إلّا أنَّ أعداءه كانوا ما يزالون كثيرين في شتى أنحاء الجزيرة. ولذلك فإنَّ الاهتمامَ الداخليَّ لم يصرف رسول الله ﷺ عن أن يبقى دائماً على الحذر واليقظة، خوفاً من غدر مفاجيء أو مداهمة سريعة. فكانت عيونه منبثَّةً في كل مكان، ترقبُ وترصدُ تحرُّكَ العرب واليهود، لئلّا يحاولوا القيامَ بعمل ضده، فيسارع إلى تشتيت قواهم حتى لا يبقى لهم مجال للاتفاق عليه، أو السير إليه في أي حالٍ من الأحوال.

وإذا كان الثأر ما يزال يومذاك من عادات العرب المستحكمة في نفوسهم، فإن الإسلام ولا شك ينبذ تلك العادة الجاهلية ويعمل

للقضاء عليها. إلَّا أنه يأمر في الوقت نفسه بإنزال أشدّ العقاب بأهل الغدر والخيانة إذا قاموا بعمل يستدعي مثل هذا القصاص، وذلك حرصاً على اجتثاث جذور الشر، واستئصال العقبات التي تقف حائلًا دون انتشار الإسلام في المدى الذي يجب أن يصل إليه، أو الصعوبات التي تَسدّ الطرقَ والمنافذَ أمام هداه.. وكان رسولُ الله ﷺ يحرص دوماً على تطبيق القاعدة القرآنية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1]، وهذه القاعدة القرآنية تفرضُ على رسولِ الله ألَّا يدعَ بني لحيان، وما امتطوا من الشرّ، يومَ جاؤوه منذ سنتين مخادعين، يطلبون أن يبعث معهم نفراً من قرّاء المسلمين يعلِّمونهم الدين ويفقهونهم به، فعدوا على مَنْ بعثَ إليهم، ـ وكانوا ستةً من الصحابة الأخيار ـ في ماء الرجيع، فقتلوا ثلاثة منهم واقتادوا الآخرين إلى قريش للبيع والإذلال.

تلك الخيانة الكبيرة لم تكن لتمرَّ بدون عقاب. فما إن اهلّ شهر ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة، حتى جهّز رسولُ الله كتيبة من فرسان المسلمين، وخرج على رأسها في مئتين من الرجال الأشدّاء، يريد تأديب بني لحيان، الذين كانوا ينزلون في وادي غُران من نواحي مكة بالحجاز. ولقد آثر أن يخفي مقصده حتى لا يعلم به العدو فيتخذ لنفسه الحيطة اللازمة، فخرج من المدينة مُيمِّماً نحو الشمال، ومظهراً أنه يريد الشام، حتى إذا بعد به المسيرُ، وصارَ في منأى عن شبهة الأعداء وظنونهم، عاد وانفتل منحدراً إلى ناحية الجنوب ليصل إلى مقصده في أسرع وقت. وكان بنو لحيان أخذوا حذرهم لما بلغهم أمر خروج

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

المسلمين، فهربوا يعتصمون برؤوس الجبال ومعهم متاعهم، وبذلك فات رسول الله أن يصيبهم إذ وجد ديارهم خاوية خالية من الناس والحيوان. . فأقام في تلك الناحية سحابة يومين، بعث خلالهما باثنين من فرسان الإسلام إلى ناحية مكة، فسارا حتى بلغا مكاناً بين مكة والمدينة يسمى «كُراع الغميم» ولكنهما عادا بلا أية أخبار تنبىء بجديد. فأمر ﷺ الناس بالرجوع إلى المدينة. وقد دخلها بعد غياب أربع عشرة ليلة، في يوم قائظ بلغ من قيظه أن كان الرسول ﷺ يقول: «آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون، أعوذ بالله من وَعْثاء السفر، وكآبة المُنقَلب، وسوء المنْظر في الأهل والمال»[1].

غزوة ذي قَرد

لم تكد بضعُ ليالٍ تمرُّ على الأوبة من غزوة بني لحيان، حتى أغارَ عُيينة بن حصن الفَزاري في خيل من غطفان على نوقٍ لقاحٍ للمسلمين كانت ترعى في محلة تدعى الغابة[2] من أطراف المدينة. .

ولقد كان دافع عيينة إلى تلك الإغارة ما نالَهُ من خذلان في غزوة الأحزاب، إذ كانت غطفان قد عوّلت على صلح مع المسلمين تنال فيه من ثمرات المدينة وخيراتها ما يشبع أطماعها، فلمّا أبى السعدان، والمسلمون معهما، أن ينالَ أهل الشرك شيئاً من أموالهم، عزمت غطفان على أن تثأر لنفسها عن طريق السلب والنهب.

وكانت النوق الحوامل في رعاية رجل من بني غفار ومعه امرأته، فقتلوه واختطفوا المرأة. وكان سلمة بن عمرو بن الأكوع

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٩٣.

(٢) موضع قرب المدينة على بعد ثمانية أميال من سلع.

الأسلمي قد خرج في الصباح الباكر يريد الغابة متوشحاً قوسه ونباله، فرأى خيول غطفان وهي تشتدُّ في رجوعها، بعدما فعلت فعلتها الغادرة، فأشرف في ناحية سَلْع ثم صرخ ثلاث مراتٍ: «واصباحاه»!

وأسمعت صرختُه ناحيتي المدينة فهبَّ المسلمون وهم ينادون: «يا خيل الله اركبي».. وكان أوَّلَ الواصلين المقدادُ بن الأسود[1] فأمره الرسولُ أن يتعجَّل مع من جاء من فرسان المسلمين في الخروج إلى مكان الاستغاثة حتى يكون قد جهّز الرجال ولحق بهم..

وكان سلمة بن الأكوع قد اندفع ـ بعد استغاثته ـ وراء القوم، وهو يرشقهم بالنبال ويقول:

خـذهـا وأنـا ابـنُ الأكـوع الـيـوم يـوم الـرُضَّـع[2]

كما أن طليعة فرسان المسلمين كانت قد أدركت مؤخرة الغزاة، فاستطاع أبو قتادة الحارث بن رِبْعيّ، أخو بني سلمة، أن يقتل

---

(١) المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكندي، المعروف بالمقداد بن الأسود، حليف بني زهرة، كان أول من قاتل على فرس في سبيل الله، وأحد الاربعة الذين أمرَ اللَّهُ تعالى نبيَّهُ أن يُحبَّهم كما جاء في الحديث..

شهد المقدادُ بدراً وغيرها، وسكن المدينة بعد هجرته إليها من مكة، ودفن فيها، وقد روى عنه عددٌ كبير من الصحابة وكبار التابعين.. وكان المقداد من الرماة المشهورين.. زوَّجَهُ النبيُّ ﷺ بنت عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، وكان بها من الجمال والعقل مع قرابتها من رسول ﷺ..

وعن أنس، قال: قال رسول ﷺ: «إن الجنة تشتاق إلى أربعة: عليّ بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود» أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج٩ ص٣٠٧. (انظر حول سيرة المقداد بن الأسود ومناقبه: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص١٨٢٩ ـ ١٨٣٦).

(٢) الرضع: اللئام، وقوله يعني: اليوم يوم هلاك اللئام، انظر: السيرة لابن هشام، ج٣، ص.٢٩٤

حبيب بن عيينة بن حصن[1] فغشاه ببرده ليعرفوا أنه صاحبه، كما أدرك عُكَّاشَة بن مِحْصن أَوباراً وابنه عمرو بن أَوبار، وكانا على بعير واحد، فقتلهما معاً[2]، كما أمكنهم أن يستنقذوا بعضَ الإبل، بينما سارع عيينة وبقية الغارة معه في الفرار يسبقون المسلمين بأميال..

فلما أقبل رسولُ الله نزل في المسلمين بالجبل من ذي قَرَد، مبدياً عدم الجدوى من اللحاق بالقوم، وهم قد بلغوا منازلهم في بني غطفان، قائلاً ﷺ: «إنهم الآن ليُغبَقُونَ في غطفان»[3].

وأثنى الرسول الكريم على ما أبدته تلك الطليعة من ضروب الشجاعة والإقدام فقال ﷺ:

«خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخيرُ رجّالتنا اليوم سلمة»..

وزيادة في إكرام سلمة على صنيعه الحسن، فقد كان الرسول يعطيه سهمي الراجل والفارس معاً..

وما إن عادوا من تلك الغزوة، بعدما أقاموا بذي قَرَد يوماً وليلة، حتى أقبلت امرأة الغفاري[4] على ناقةٍ من نوق المسلمين التي استُنقذت، فجاءت تخبر رسولَ الله ﷺ بما جرى، وأنها بعدما اختطفوها وألحقوها بهم، استطاعت أن تتغفَّل القوم أثناء انشغالهم بالقتال، وتفلت من إسارهم. فسارعت إلى ناقةٍ من نوق المسلمين تركبها وتُغِذُّ السَّيْرَ فارّةً بنفسها. وكانت المرأة قد نذرت أن تنحر الناقة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٩٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق. (ومعنى ليغبقون: يسقون اللبن بالعشي، أي قد وصلوا ديارهم ولم يعد المسلمون قادرين على اللحاق بهم في الطريق).

(٤) قال ابن سعد: هو ابن أبي ذرّ رضي الله عنه واسم أمرأته ليلى (انظر السيرة لابن هشام، ج٣ هامش ص٢٩٤).

التي حملتها إن نجَّاها الله سبحانه عليها فداءً لنفسها.. فتبسَّم رسولُ الله ﷺ لمَّا سمعها تقول ذلك، وقال لها: «بئس ما جزيتها أنْ حمَلك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها! إنه لا نذرَ في معصية الله، ولا في ما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله»[1].

مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان يهودُ بني النضير بعد إجلائهم عن المدينة، قد أتوا خيبر وأقاموا فيها مع أهلها، وقلوبهم ملأى بالحقد على «محمد» وأصحابه... فوجدوا ـ حسبما ظنّوا ـ في إغارة عيينة نوعاً من التخاذل من قِبَلِ المسلمين يُغري بهم، فخرج أبو رافع سلام بن أبي الحُقيق، أحد كبار زعماء بني النضير، يؤلِّب عليهِمُ القبائلَ من جديد، كما فعل هو وحُيي بن أخطب، قبل غزوة الأحزاب، وحصار المدينة، وقد قرّر هذه المرة أن يستخدم أمواله الوفيرة لذلك، لأنه كان صاحب تجارة واسعة حتى كان يلقَّب بتاجر الحجاز..

وراح ذلك الزعيم اليهودي يتنقّل بين غطفان ومن جاورها من قبائل العرب، يغريهم بالمال كي يستعدوا لقتال «محمد» من جديد! أما لماذا يبذل المالَ وهو يهودي؟ فلأنَّ استئصال شوكة «محمد» كان عنده أهم من المال، بل وغاية الغايات التي نذر نفسه لها...

وعَرفَ المسلمون بتحريضه الجديد للقبائل، فجاء الخزرج إلى رسول الله يستأذنونه في قتله، حتى لا يظلَّ داعيَ إثارة لمقاتلة الإسلام

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٩٨.

وأهله، فيكون لهم الشرف في ذلك، كما كان للأوس شرفُ قتل كعب بن الأشرف. ووافق رسول الله ﷺ على الأمر، لأن المصلحة العامة تقتضي القضاء على هذا العدو الحاقد وأمثاله.. فخرج إليه خمسةٌ من بني سلمة وهم: عبد اللّه بن عَتيك، وعبد اللّه بن أنيس، ومسعود بن سنان، وأبو قتادة الحارث بن ربْعيّ، وخزاعي بن أسود (حليفٌ لهم من أسلم)[1]، وقصدوا الذهاب إليه في خيبر بعدما أوصاهم رسول الله ﷺ ألَّا يقتلوا وليداً أو امرأة، ولا ضعيفاً أو كهلًا، ممن لا قدرة لهم على حمل السلاح، إن دهموه في جماعة من أهله.

ودخل هؤلاء النفر خيبر متخفين، حتى إذا حلَّ الليل وخلتْ الطرقات من المارة، ذهبوا يطرقون بابه، فقامت امرأته تسأل من الطارق؟ فقالوا: ناس من العرب جئنا نلتمس الميرة، فأسرعت تفتح لهم الباب، وتأخذهم إلى مكان زوجها حيث كان يقبع في حجرته، منشغلًا بعدّ الأموال بين يديه.. فتقدموا منه مسرعين، لا يدعون له فرصة لسؤال، أو لقول كلمة واحدة، وأهوى عليه كلٌّ بضربة سيف، وهو على عجلة من أمره ـ بسبب ولولة امرأته وصراخها ـ إلَّا أنَّ عبد اللّه بن أنيس وقف وغرز ظُبَّةَ السيف في بطنه،ثم انطلقوا في الخروج، وصوت المرأة يلاحقهم بالصراخ والعويل، ولولا نهي رسول الله ﷺ لكانوا قتلوها معه...

وكان عبد اللّه بن عتيك رجلًا ضعيف النظر، فزلَّت به قدمُه، فالتوى كاحله يمنعُهُ من التقدم، فحمله رفاقه، وأسرعوا إلى شقٍّ يدخل منه الماءُ إلى الحصن، فاختبأوا فيه..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٢٨٧.

واشتدَّ رجال خيبر في أثرهم وهم يحملون المشاعل ويبحثون في الجوانب والطرقات، إلَّا أنهم لم يعثروا عليهم، فعادوا إلى صاحبهم يقيمون النائحة عليه، بينما انسلَّ النفر المسلم قافلًا إلى المدينة، يخبرون رسولَ الله ﷺ بالإجهاز على ذلك اليهودي الأرعن، فحمد الله تعالى أن يسَّرَ الأمرَ للتخلّص من عدوٍّ لدودٍ، حاقدٍ على الإسلام وأهله.

وهكذا كانت السنة السادسة للهجرة مليئة بالغزوات والمناوشات الدائمة، فلم يهدأ خلالها المسلمون قطّ، وهم يقصدون أعداءهم في نواحٍ عديدة من شبه الجزيرة، في كل مرة يعرفون بأمر عدوّ يستعد لقتالهم، أو قبيلة تتجهز لحربهم، معتمدين في ذلك عنصر المفاجأة، حتى تبقى المبادرة بين أيديهم، فلا يُفرضُ عليهم قتال في غفلةٍ، بل كانوا هم الذين يثيرونه أينما يريدون، ووقت ما يشاؤون.

ولكن العنصر الأهم والأعلى شأناً في قتال المسلمين كان في الفضيلة التي اعتمدها الرسول الحكيم ﷺ، إذ كان يأمر قادة حربه وسراياه بالتأني قبل الإقدام على القتال، ويوصي المؤمنين ألَّا يتمنوا قتالًا، لأنَّ فيهِ امتحاناً للقلوب وهدماً للأجسام، فكان يقول عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام: «لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموه فاصبروا»[1].

أما إذا وَجَدَ أنه لا مفرَّ من مواجهة العدو، فكان يدعو الله سبحانه وتعالى ويقول: «اللَّهم إنَّا عبادك وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، اللَّهم اهزمهم وانصرنا عليهم، لأنهم معتدون علينا وعلى الحق الذي أُنزل من عندك»..

(١) كنز العمال، الجزء الرابع رقم ١٠٩٠٦.

وكان رسول الله أشدّ ما يحرص على عدم الدخول في القتال، إذا وجدَ إلى ذلك سبيلًا، حتى عند أخذ الأهبة له. ولذا نراه ﷺ يبيّن مقاصدَ القتال عندَ المسلمين في وصيته لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن قائداً وهو يقول له: «لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإن بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلًا. ثم أروهم ذلك وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فَلَأَنْ يهدِي الله على يديك رجلًا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»؛ وروى ابن عساكر أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا بعثَ معاذ بن جبل لأهل اليمن وحضرموت قال له: «يا معاذ! إنك تقدم على أهل كتاب، وإنّهم سائلوك عن مفاتيح الجنة: لا إلّه إلَّا الله، وإنها تخرق كل شيء حتى تنتهي إلى الله عزَّ وجلَّ لا تُحجَبُ دونَهُ، من جاء بها يوم القيامة مخلصاً رجحت بكل ذنب»[1]..

ومثل هذا التوجيه من رسول الله كانَ في وقتٍ قد أعزَّ اللَّهُ (تعالى) الإسلام، وجعله ديناً ثابتاً، موطَّد الأركان والدعائم، وبعد أن كانت قد انتهت تلك الحقبة السابقة التي كان همُّ المسلمين فيها أن يردوا عنهم هجمة الأعداء، فلا يأخذهم الناسُ، الذين كانوا يخططون للقضاء عليهم!..

وكانت سُنَّةُ الرسول ﷺ في الحرب تتجسَّدُ ـ دائماً ـ في وصاياه التي تحمل الرحمة والرأفة، والإصلاح والإحسان من أجل خير الإنسان. فكان يوصي قادته وجيوشَهُ بقوله ﷺ: «انطلقوا باسم الله وعلى بركة الله. لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلًا ولا امرأة، ولا تغلّوا

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص١٧٨٨.

أو تخونوا، وضمّوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله تعالى يحب المحسنين»[1].

هذه هي التعاليم الرسولية التي كان يتبعها المسلمون في الحرب. ومنها يظهر جليّاً أن الحروب لا يجوز أن تكون إفناءً وإتلافاً، ولا إفساداً أو تحلّلًا من القيود والقواعد، بل هنالك دائماً أهدافٌ يجب أن تكون مشروعة. وقد فرضت الحرب كوسيلة أخيرة لتحقيق تلك الأهداف المشروعة كما في حالة الحقوق المسلوبة مثلًا التي يفرض الواجب الديني والدنيوي استرجاعها من المغتصبين أو المحتلّين، أو المعتدين.. وما أكثرها ـ إلى الآن ـ في دنيا الناس!.. أمَّا أن تكون الحرب من أجل الحرب، ومن أجل المطامع وما يرافقها من الاستغلال والظلم، فهذا ما يحرّمه الاسلام جملة وتفصيلًا.. وحتى في الحروب المشروعة، فلا يجوز أن يباح كل شيء، كما يفعل مجرمو الحرب وعملاؤهم في أيامنا هذه، إذ يتحللون من جميع النوازع الإنسانية، والقيم الخلقية، غير عابئين بما يحدثون وهم يهلكون الحرث والنسل، ويستبيحون كلَّ شيء من أجل أغراضهم الدنيئة..

وقد يأخذ الناسَ عجبٌ من الكلام عن الفضيلة في الحروب!.. فيتساءلون: وهل يعقل أن يكون للفضيلة أي مكانٍ في العقول والنفوس، إذا ما دوَّت المدافع، وانهالت القنابل، وأُزهِقت الأرواح، واستبيحت الحرمات؟!.. والحقيقة أنَّ مجرد مثل هذا التساؤل عين العجب، لأنَّ على الناسِ أن يعرفوا بأنَّ إبعادَ الفضيلة عن الحروب شرٌّ

(١) كنز العمال، الجزء الرابع رقم ١١٢٨٢.

كله، ولو لم تكن للحروب قواعد وضوابط لما عقدت المؤتمرات الدولية، ووضعت الاتفاقيات والمعاهدات التي تحدد السلوكَ الصحيحَ في الحروب، كحدٍّ أدنى للفضيلة التي يجب أن يتعامل معها المتحاربون..

على أنَّ كلَّ اتفاقيات أهل الأرض ومعاهداتهم، وما تتضمن من أنظمة للحروب، تبقى مقصّرةً عن النظام الأمثل الذي وضعه رسولُ الإسلام في حال الاضطرار واللجوء إلى حرب واقعةٍ لا محالة... وقد بانَ نظامُهُ ﷺ جليّاً واضحاً في وصاياه وأوامره إلى قادته وجيوشه.. فالرسولُ ﷺ قد قام حقاً بالحروب، ولكنها كانتْ حروبَ النّبوة المقيدة بقوانين الله تعالى. فما باشَرَ حرباً أو قتالًا إلَّا لدفع ضرر أكبر بضرر أقلّ..لا لقتل الناس وإفنائهم.. ومتى كانت الحرب دفاعاً عن الحق ـ بمفاهيمه الشمولية ـ ووفقاً للمفاهيم التي أرساها رسول الإسلام، فإنها تكون حينئذٍ رحمةً من الله تعالى على الناس، لأنها تكون من أجل نفع الناس أجمعين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

الفصل السادس

الأساليب النابحة

ـ توطئة ـ



لقد حقق الأسلوبُ الحربيُّ الذي اعتمد فيه المسلمون على عنصر مباغتة العدو، ومفاجأته على حين غفلة منه، أغراضه بنجاح.. إذ ما كادت السنة السادسة للهجرة تقارب نهايتها، حتى كانت قبائل العرب قد أقرت ـ ولو ضمناً ـ بهيبة المسلمين وبأسهم، بل وباتت تخشى القوة التي صاروا عليها... وهذا ما كان يجب أن يهيّئ لحياة استقرار من شأنها أن تقوم على علاقة حسن الجوار، وعلى نبذ الثارات ودفن الحزازات تمكيناً للعيش في أمن وسلام.

إلَّا أنه على الرغم من قناعة قبائل العرب، بل وقناعة اليهود، بأنَّ الإسلام قد ثبَّت سلطانه في المدينة بلا منازع، فإنهم أبوْا الاعتراف به كأحد أديان شبه الجزيرة، أو الإقرار لأتباعه بما لأتباع الأديان والمعتقدات الأخرى من حقوق، كما هو الحال مثلًا في حق المسلمين بزيارة المسجد الحرام، والحجّ والعمرة، وإقامة المناسك والشعائر الدينية في عرفات، ومنى، وغير ذلك من الحقوق التي يمارسها المشركون أنفسهم في المواسم..

وإذا كانت السنواتُ الستُّ التي انقضت منذ هجرة رسول اللّه ﷺ من مكة قد تلاحقت مليئة بالحروب والمعارك، فإنَّ ذلك بنظر المسلمين

لا يجوز أن يَدوم إلى ما لا نهاية، بل يجب أن يحلَّ اليوم الذي يدرك فيه أهلُ الجزيرة أن رسول الإسلام ما جاء داعيةَ حرب أو قتال، ولا صاحِبَ تفرقة أو فتنة بين الناس، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد بُعِثَ هادياً ليخلّص الناس من أدران الوثنية، وينتشلها من موبقات الجاهلية. وقد آن لقريش ولليهود ـ وهما بالذات قبل غيرهما ـ الانصياعُ لنداء العقل، والكفُّ عن محاربة الإسلام، بل وأن يدرك أسيادهما خطل عنادهم وبعدهم عن الحق، لا سيما وأن السنوات الأخيرة قد أثبتت أن الإسلام كلما تقدمت به الأيام، علا شأنه، وازداد انتشاره، فَلِمَ إذن البقاء على معاداته، دونما تفكير في سلام يؤمِّن مصالح أهل الجزيرة أجمعين، وهذه هي نقطة المحور التي يجب أنْ يضعها الجميع نصب أعينهم.. إلَّا أنَّ هذا الأمر كان أبعدَ شيءٍ عن إدراك أعداء الاسلام، كما يبدو، لأنهم لم يفكروا يوماً في أية مهادنة، أو إقامة علاقة سلام مع المسلمين، لأن الظن الذي كان يغلب عليهم هو أنهم ما يزالون قادرين على محاربتهم والنيل منهم.. إلَّا أن نبيّ الإسلام ـ وقد وصل إلى المراحل التي وصل ـ كان يريد مثلَ هذا السِّلم. وما كان تفكيره منذ جلاء الأحزاب عن المدينة إلَّا منصبّاً على هذه الناحية.. ولكن إلى من يتوجَّه في طرح الصلح وإقامة الهدنة ولو إلى حين من الزمن، حتى تنجلي الحقائق وتستوي الأمور؟! فهل يعرض الأمر على بني يهود في خيبر، وهم يصرّون على الاعتقاد بأن ما يتمتعون به من قوةٍ كفيلٌ بأن يحقِّق لهم القضاء على «محمد» وعلى دينه مهما طال بهم الأمر؟! لا، إنه أمر لن يجديَ نفعاً.. ولكن ماذا عن قريش؟ فقد يمكن إقناعها بإقامة صلح مع المسلمين.. وهنا أيضاً المشكلة: إذ ما السبيلُ إلى إقناع هؤلاء المشركين بضرورة إقامة حوار معهم للوصول إلى صيغة تفاهم معينة تقنعهم بأن يعترفوا بغيرهم؟!..

البحث الأول



لقد تفكر الرسول الأعظم طويلًا بكل تلك الأمور المتعلقة بالسعي لإقامة سلام في ربوع شبه الجزيرة، فما وجَدَ أفضل من الذهاب إلى بيت الله الحرام، ومقصدُهُ أداءُ فريضة الحجّ دون أية غاية أخرى، لعلَّ في ذلك ما يتيح لقريش أن تقبل بحجّه الذي سيكون الطريق إلى هدنة بين الطرفين، لاسيما أن احتمالات القبول، مثل احتمالات الرفض، غير مستبعدة تماماً، نظراً للظروف والأوضاع التي آلت إليها قريش. . . فالوحدة التي كانت تتمتع بها قد عراها الضعف، والقوة التي كانت تتعالى بها قد شابها الوهن، فقد باتت تخشى المسلمين، وترهب جانبهم. بل ويستبدُّ بها القلق، وتأخذها الهواجس كلما تناهت إليها أخبارهم، أو علمت بمآثرهم في البناء والمنعة، والنهج على الدين. . ومثل هذه الأحوال التي آلت إليها قريش لم تعد خافية، لا على القبائل، ولا على المسلمين، أو أية جماعات أخرى في الحجاز ونجد، التي تعيش الأحوال لحظة بلحظة، وتقبع في زوايا الانتظار لمعرفة ما ستؤول إليه الأوضاع في تلك المناطق. .

ولذلك عزم رسولُ الله ﷺ أن يتخذ من الحج إلى بيت الله الحرام خطةَ سلامٍ تمكّنه من الاجتماع بقريش، والتفاوض معها على

مختلف الشؤون التي تهم الطرفين.. وإنه لفي تدبُّر الطرق الكفيلة بتنفيذ هذه الخطة، إذا برؤيا نبويَّةٍ شريفةٍ تجيئه وهو نائم بأنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، لا يخافون عدواً يصدّهم، ولا مانعاً يمنعهم، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

وبشَّرَ رسول الله ﷺ المسلمين بذلك، ففرحوا كثيراً، وارتسمت أمامهم الآمال الواسعة، وأقبلت عليهم الأماني العريضة. فأمَّا الأنصار فقد كان الشوق يغالبهم لزيارة المسجد الحرام الذي حرموا منه منذ ست سنوات، عندما منعوا من دخول مكة والوصول إلى الكعبة الشريفة للطواف حولها، واللواذ بجوارها آمنين مطمئنين...

وأمّا المهاجرون فلم تفارقهم صورة البيت العتيق منذ أن ارتحلوا عنه مكرهين، فهم ما زالوا على عهدهم للعودة إلى أحضانه وبركاته.. إلى مكة ـ موطن الطفولة والشباب، وموئل الأهل والأحباب ـ التي لم يفارقهم الحنين إليها قط، ففيها قد خلّفوا شطراً من حياتهم لا يمكن أن يُصدئه النسيانُ أو أن يمحوه البعادُ....

وهكذا سرت بشرى الرسول ﷺ في النفوس، شوقاً لرؤية البيت العتيق، وحنيناً للعودة إلى الديار، خاصةً وأنَّ في روحانية الإسلام، وما يبعثه في الجوارح من صفاء ونقاوة، ما يزيد في تأثّر النفوس المؤمنة، ويجعلها أكثر رهافة وشفافية. وراح المسلمون يستعدّون للسفر إلى الحجّ، وقلوبهم مليئة بالأمل والرجاء..

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

على أن رسول الله ﷺ رأى ألّا يذهب بالمسلمين وحدهم في ذلك السفر المشهود، بل شاء أن يرافقهم من قبائل العرب التي لم تدخل في الإسلام، كلُّ من يرغب في ذلك، حتى تستيقن قريش بأن «محمداً» لم يأت مكة ليغزوها، وإنما جاء إلى الحجّ، ومعَه من الناس من ليسوا على دينه.. فإن وقفت في وجهه، وحالت دون وصوله إلى البيت الحرام، فسيكون ذلك حجة ضدها، وسبيلًا للنظر إلى الدعوة الإسلامية على أنها دعوة لدين جديد، يهدي للتي هي أقوم، بعيداً عن العداوة والقتال.. ومن أجل ذلك بعث الرسولُ العظيم والسياسيُّ الحكيم إلى قبائل العرب المجاورة للمدينة يدعوهم ليشتركوا معه في الذهاب إلى الحجّ في ذلك العام.

الخروج إلى الحجّ

وتهيّأت الأجواء للمسير، وتعالى الأذان بالحج، فخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من قبائل العرب، بعدما استخلف على المدينة نميلة بن عبد اللّه الليثي، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، قاصدين بيت الله الحرام في مكة. وعقد اللواء لعليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه فتقدم المسيرة، وقد أخذ معه سبعين بُدنةً من الهدي[1] ساقها النبيُّ ﷺ وحده، وحمل معه من نسائه أمَّ سلمة رضي الله عنها. وكانت عدة الناس يومها، من مسلمين وغير مسلمين ألفاً وأربعمائة رجل، لا يحملون من السلاح إلّا السيوف في أغمادها، وهي سلاح المسافر عادة في الصحراء. وكيف يحملون السلاح، بل ما الحاجة إليه

(١) الهديُ: ما يُهدى إلى الحرم من الأنعام ويكون لإطعام الجائع والمعترّ وابن السبيل.

ومقصدهم الحَجّ، في الأشهر الحرم التي كانت العرب تحرم فيها القتال أو الحرب؟.

وتقدَّم رسول الله ﷺ ذلك الموكب على ناقته، حتى بلغ «ذا الحليفة»[1] وهنالك أحرم وأمر بالإحرام، فلبّى المسلمون بالعمرة: «لبّيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وسار الرسول ﷺ بركبه نحو مكة، مقدّماً أمامه عبّاد بن بشر ـ من سادات الأنصار ـ في عشرين فارساً، ليكونوا للحاجّين طليعةَ حذرٍ وانتباه، وكشَّافةَ سلامٍ وأمان..

وفي الطريق بعث رسول الله ﷺ بشر بن سُفيان الكُعبيّ، يتقصّى أخبارَ قريش، وردَّة الفعل لديها على خروجهم.. وعادَ عين الرسول، وهم على مقربة من عسفان ـ على بعد مرحلتين من مكة ـ يخبره بأن قريشاً قد أخذتها المخاوف، وهي ترى ـ واهمةً ـ أن «محمداً» ما جاء مكة إلَّا غازياً، كما غزت الأحزاب المدينة من قبل، وإن كان مجيئه تحت ستار الحج إلى بيت الله الحرام. ولذلك أجمعت على الحؤول بينه وبين دخول بلدها، وجهَّزت جيشاً لذلك بلغ عدد فرسانه مئتين، عدا الرجّالة والمحاربين الذين استنصرت بهم من أقوام آخرين. وقد خرج ذلك الجيشُ بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل.. وكان ممَّا قاله بشرٌ: «يا رسول الله هذه قريشٌ قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذُ المطافيل (الإبل التي معها أولادها) قد

(١) ذو الحليفة، أو مسجد الشجرة، على بعد سبعة أميالٍ من المدينة، وهو ما يزال أحد المواقيت للإحرام.

لبسوا جلود النمور، ونزلوا بذي طُوى (موضع قرب مكة)، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كُراع الغَمِيم»[1].

فلمّا سمع رسول الله ﷺ ما فعلت قريش، قال: «يا ويحَ قريش! لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهره الله أو تنفردَ هذه السالفة»[2]..

وصدق الرسول ﷺ في تقديره عزم قريش على الحرب!.. وإلَّا فلماذا أخرجت كل ذلك الجيش لصدِّ المسلمين عن المسجد الحرام؟! ولو حصلت المواجهة ـ وهذا ما لا يريده الرسول ﷺ ـ فهل تقع الهزيمة إلا على القرشيين، عندما يعود المسلمون إلى المدينة، ويستعدّون لغزوهم؟!..

إن محمداً ﷺ قد خرج لا يبتغي حرباً، لأن خطته هي السلم والسلم وحده.. ولذلك كان بإمكانه أن يُظهر للملأ من الناس أن قريشاً لا تريد إلَّا الظلم والعدوان. وها هي فعلًا قد بعثت بجيشها لتحول بين هذه الجماعات التي جاءت مسالمة، تبتغي حقاً مشروعاً لا يجوز لأحدٍ أن يمنعها عنه. فإن استبدّت قريش برأيها فكأنها تريد أن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٢٢ و٣٢٣ (وكراع الغميم: واد أمام عسفان على بعد ثمانية أميال من مكة).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٢٣ (والسالفة: العنق).

تقتل كل بذرة ما تزال في النفوس على دين جدهم إسماعيل وملة أبيه إبراهيم عليهما السلام. وإنَّ في ذلك ما قد يجعل العرب كلها ضد قريش.. إذ ماذا يضمن للقبائل ألَّا تتحكم تلك الفئة من أهل مكة بمصائر الحجيج فتمنع أو تأذن بالحجّ لمن تشاء، ومتى تشاء؟!.. وما افتضاح أمر قريش هكذا أمام الرأي العام في جزيرة العرب، إلَّا انتصار للدعوة الإسلامية، وعاملٌ هامٌّ في نشرها بين الناس.. ولذلك آثر رسولُ الله ﷺ أن لا يحيد عن خطة السلم التي اعتمدها. فإن حيل بينه وبين مقصده، ومُنع هو ومن معه من الحجّ، وقدّر الله تعالى هذا المنع، فإنه يريده منعاً سلمياً لا عن طريق الحرب والقتال. وإن قدّر له دخولُ مكة والوصولُ إلى المسجد الحرام، فإنه يريده كذلك دخولاً سلميّاً، لا دخولَ عنوة وإذلال.

وبذلك كان رسول الله ﷺ في تفكيره أبعدَ نظراً وأكثرَ حكمةً، وأدقَّ سياسة من قريشٍ، بل ومن أي إنسانٍ قد يكون في نفس الموقف، فقرَّر ـ على الرغم من أنباء قريش ـ ألَّا يغيّرَ الخطة التي اعتمدها. فأعلن في الناس ما فعلت قريش، وما بعثت من جيش يرابط في طريقهم. ثم نادى في الجموع: من يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هم بها؟.

فقال حمزة بن عمرو الأسلمي: أنا يا رسول الله.

معاهدة الحديبية

وانطلق حمزة أمام حجاج بيت الله الحرام، يسلك بهم طريقاً وعرة، ضاقت ممراتها، وكثرت نتوءاتها، مما جعل السير فيها صعباً للغاية، قد لا يأمن السائر على نفسه من الانزلاق بين لحظة وأخرى، أو

الانحدار نحو أعماق الوادي الذي يمرون فوقه. وما زالوا يجهدون في قطع تلك المسالك حتى وصلوا إلى سهل، عند منقطع الوادي، فسلكوا ذات اليمين حتى خرجوا على ثنيّة المُرار، مَهبط الحديبية من أسفل مكة. وما إن بلغوا الحديبية حتى بركت ناقةُ النبيّ ﷺ القصواء ـ على حين فجأة، فظنها الناس قد جهدت، فقالوا: «لقد خلأت القصواء» ـ أي حرنت لا تريد القيام ـ. ولكنَّ رسول الله ﷺ قال لهم مستدركاً: «ما خلأت وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة! والذي نفس محمد بيده، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صِلَة الرحم ـ وتعظيمَ حرمات الله تعالى ـ إلا أعطيتهم إياها»(١).

ثم دعا الناسَ إلى النزول وإقامة معسكرهم في الحديبية، ولكن ما لبثوا أن جاؤوه يشتكون ويحذّرون مما قد يصيبهم من العطش والجفاف لعدم وجود الماء هناك، فأشار عليهم أن يتفقدوا قعر الآبار، وهي كثيرة، فلعلّ الله سبحانه يهديهم إلى ماء وفير.. وبالفعل، وببعض من الجهد والبحث وجدوا من الماء في عدة آبارٍ ما يكفيهم للإقامة ما طاب لهم، فزالت العقبة التي كانوا قد ظنُّوها سبباً للضعف، وعدم الإقامة..

أما جيش قريش، فما إن بلغه تحوّل المسلمين عن وجهة سيرهم، واتخاذهم مسلكاً يؤدي بهم إلى الحديبية، حتى أخذه الخوف والفزع، من تجاوزهم له واقتحامهم حدود مكة، فأصدر قادته الأوامر سريعاً بالاندفاع للتصدّي لهم، والوقوف في الناحية التي يمكن أن يشنوا منها الهجوم، لأنهم ظلوا على الظن بأن «محمداً» قد جاء غازياً، ولا شيءَ غيرُ هذا الغزو!.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٢٤.

ومرت بضعة أيام، والحالة على ما هي، فلا قرعُ طبولٍ، ولا إنذارٌ بالحرب، بل موادعة ومسالمة في عسكر المسلمين!. وحارت قريش في أمرها، لا تدري ما تصنع.. فإن هي خلّت بين المسلمين والدخول إلى مكة يحجّون، ويقيمون الشعائر فذلك دليل ضعفٍ، بل ومذلة ـ كما تتوهَّم ـ سوف تصمها بالعار مدى الحياة!. وإن هي قاتلتِ المسلمين فإنها لن تضمن النصرَ أن يكونَ لصالحها!.. وكلا الأمرين أشدُّ عليها من الآخر. ولذلك سيطر عليها الحنق حتى كاد يقتلها، إلَّا أنها ظلَّت ترصدُ الأجواءَ، من دون اتخاذ أي موقف حيال النازلين في الحديبية.

وكذلك المسلمون من ناحيتهم، فإنَّ الضيق والتململ كانَ قد بدأ يدبُّ في نفوسهم، وهم يرون بأنَّ قريشاً لن تمكّنهم من زيارة المسجد الحرام، فانطلق البعض يتساءلون: وماذا علينا لو نقاتلها، كي نردَّها عن غيّها، فتستوي الطريقُ آمنةً أمامنا لزيارة الكعبة التي غلبنا الشوق إليها؟!..

وجاءت جماعة كبيرة تعرض على رسول الله ﷺ فكرة القتال، ولكنه ﷺ رفض بشدّة، مؤكداً أنه لن يحيد عن خطة السلم التي رسمها منذ أن أعدَّ ـ في ذي القعدة ـ للحج عدته، وأنه يؤثر أن تكون قريش هي المعلنة عن نياتها..

وخلال تلك الفترة من الترقب والانتظار جاء بُديْل بن ورقاء الخزاعي في رجال من بني قومه، يسألون رسولَ الله ﷺ عمَّا جاء به. فكان جوابه ﷺ أنه ما جاء يريدُ حرباً وإنما جاء زائراً للبيت العتيق، ومعظِّماً لحرماته..

وذهب بديلٌ إلى قريش قائلًا: «يا معشر قريش! إنكم والله

تعجلون على محمد، إنه لم يأتِ لقتالٍ وإنما جاء، مع أصحابه، زائراً هذا البيت». ولكنهم اتَّهموا رجلَ خزاعة بالمراوغة، ممالأةً ونصرةً للنبي ﷺ، وقالوا:

«وإن كان جاء لا يريد قتالًا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، حتى لا يتحدث بذلك عنّا العرب»[1].

وأوفدت، بعدها، قريشٌ مِكرَزَ بن حَفْص بن الأَخْيَف، أخا بني عامر بن لؤي، فما سمع هذا الرجل من رسول الله ﷺ إلَّا ما سمعه بديلٌ وأصحابه، فعادَ يحدِّثُهم بنيّة «محمد» ومقصده، ولكنهم لم يصدّقوا..

ورأى القرشيون بعد مشاورات طويلة فيما بينهم أن يبعثوا إلى «محمدٍ» الحُليسَ بن علقمة، وكان سيد الأحابيش ـ يومئذ ـ وغرضهم إثارةُ حفيظة هذا الرجل على النبي ﷺ إن فشل في مفاوضته، ممَّا يدفع بالأحابيش في وجه «هذا الغازي» مغضبين، مقاتلين!.. ولكنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدرك خلفيَّةَ تفكير قريش في كل من تُوفِده إليه. فلما أشرف الحليس على المسلمين قال ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْنَ، فابعثوها أمامَهُ، ومرادُهُ أن تكون البدنُ دليلًا مادّياً محسوساً على حسن نية المسلمين في مقصدهم بيت الله الحرام..

فلما رأى الحليسُ الهدْيَ مقبلًا عليه من عرض الوادي في قلائده، وكأنه قد أكل أوباره من طول الحبس عن مَحلّه، ولمَّا لم يقع بصرُهُ في معسكر الحديبية إلَّا على أناسٍ مُحرمين، تحفُّ من حولهم مظاهر العبادة، وتنتشر في أجوائهم نفحاتُ الأمان.. كل ذلك جعل

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٢٥.

نفسه تثور لتلك المشاهد التي لا يراها ذو نفسٍ صافية إلَّا ويشعر بأنها تنفذ إلى أعماقه، وتزيل منها كوامن الحقد والضغينة..

أجل، لقد رأى الحليس بأم العين حقيقة ما جاءَ المسلمون ـ ومن معهم ـ لأجله، فانقلب إلى مكة من غير أن يلقى رسولَ الله ﷺ، ليقول لهم بأنْ يُخلّوا بين الرجل ومقصده، لأنه جاء طالبَ عبادة ليس إلَّا... فقالوا له: «اجلس فإنما أنت أعرابيّ لا علمَ لك»[1].

وأحسَّ الحليس بالمهانة، فنفر في وجوههم مغضباً، وهو يهدّدهم قائلًا:

«والذي نفس الحليس بيده لتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنَّ بالأحابيش، عن مكة، نفرةَ رجل واحد».

وخافت قريش من مغبَّة سوء فعالها، وانقلبَ السحرُ على الساحر، فبدلَ أنْ يُغاضِبَ «محمدٌ» الأحابيش ـ كما رسمت العقول الشريرة ـ ها هو سيدُهم الحليس يهدد بالنفور عن مكة في بني قومه.. ولئن فعل فإنها ستخسر قوماً محاربين، أشداء في القتال، فتضعف قوتها، وتخور عزيمتها، وبذلك تصبح لقمة سائغة، يستطيع أن يقضيَ عليها «محمد» قضاء تاماً... فاستدرك زعماؤها الأمر، وأجمعوا على أن يوفدوا إلى «محمد» رجلَ حكمةٍ ورأي ليقنعه بالعودة من حيث أتى؛ فذهبوا إلى عروة بن مسعود، سيد بني ثقيف، فلما حدّثوه بالأمر قال: أنا آتيه..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٢٦.

وجاء عروةُ الثقفيُّ يلقى النبيَّ ﷺ، ويقول له: «يا محمد! جمَّعت أوشاب (أخلاط) الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك[١]. لتفضَّها[٢] بهم. إنها قريش قد خرجت معها العُوذُ المطافيل[٣] قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله، لكأني بهؤلاء (يريد المسلمين) قد انكشفوا عنك غداً»[٤].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه حاضراً في الاجتماع، فلم يحتمل الطعن في إخلاص الصحابة لنبيهم فقال:

ـ ويحك يا عروة، أنحن نخذل رسول الله ﷺ وننكشف عنه، وكلنا مستعد للموت دونه؟! لا والله يا من تعبد الصنم الذليل المهين! ونحن نعبد الله العلي.

ونظر إليه عروة حانقاً، ثم قال له:

ـ أما والله لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، ولكن هذه بها.. (وكان عروة يشير بذلك إلى أنه كان يحمل دية فيما مضى فأعانه ابن أبي قحافة على أدائها، وكان في نيته ردُّها إليه، أما الآن فإن إهانته له بمقابلها)..

وطال الحوار بين رسول الله ﷺ وعروة، والمسلمون من حولهما، وفيهم المغيرة بن شعبة، قد لبس على وجهه، فخفي أمره على عمه، فلما رآهُ يمدُّ يده لتناول لحية رسول الله ـ جرياً على عادة

---

(١) بيضتك: أهلك وقبيلتك.

(٢) تفضّها: تكسرها.

(٣) العوذ: الإبل الحديثة النتاج، المطافيل: التي معها أطفالها، يريد: أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٢٧.

العرب في الملاطفة، والرغبة في التحية والتواصل ـ ضرب يده بكعب السيف، وهو يقول له: «أُكفُفْ يدك عن لحية رسول الله قبل أن لا تصل إليك»، فأجفل عروة وأبدى مضايقةً ونفوراً من الرجل المقنَّع، فقال له: «ويحك ما أفظّكَ وأغلظك!».

ثم سأل النبيَّ ﷺ: من هذا؟ فتبسَّم وقال له: إنه ابن أخيك المغيرةُ بن شعبة..

فدهش عروة وقال: ويحَك يا ثقفي (ويعني نفسه)!.. إن حبَّ «محمد» عند أصحابه فوق حبهم لأهليهم.

ولم يسمع عروةُ طوال الحديث إلَّا جواباً واحداً: السلم.. ولم يجد عند رسول الله إلَّا شيئاً واحداً: الدخول إلى بيت الله الحرام، إلى الكعبة التي اشتاقت لها النفوس المؤمنة.

فلما أفرغ كلَّ ما في جعبته، رجع عروة بن مسعود إلى قريش قائلًا: «يا معشر قريش! والله لقد وفدت على الملوك، فجئت كسرى، وقيصر، والنجاشي في ملكهم، وإني والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابُهُ كما يعظِّمُ محمداً أصحابُهُ،.. وقد عرض عليكم خطة رشد[1] فاقبلوها».

ولم يعد لدى قريش ذريعةٌ تحتجُّ بها: خزاعة، وعامر، والأحابيش، وثقيف وغيرهم.. فقد بعثت بهم جميعاً إلى «محمد» بغية التشكيك به والتحريض عليه، وجميعاً عادوا مصدّقين «محمداً»، ومُثبتين صفاء سريرته في مجيئه.. فآثرت الترقب والانتظار!..

ورأى النبي ﷺ أن قريشاً قد توقفت عن بعث المفاوضين،

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٨١.

فأرسل إليها خراش بن أمية الخزاعي، على جملٍ له، لكي يبلّغهم أنه يريد الدخول. فقاموا إليه يعقرون جملَ النبيّ ﷺ، ويريدون قتله، لولا أن منعته الأحابيش، فخلّوا سبيله..

واحتمل الرسول الأعظم ذلك الجرم الكبير الذي اقترفته قريش، على الرغم من أن مهانة الرُّسلِ لا تُغتفر، وتناسى تلك الحماقة التي ارتكبتها.. ولكنَّ هذا الموقف المتسامح لم يزدها إلَّا إمعاناً في الغرور والشطط، فراحت تبعث سفهاءها في جوف الليل يرمون جيش المسلمين بالحجارة، ويُسمعونهم شتى أنواع الشتائم وأقذر السباب، والمسلمون ساكنون لا يردون عليهم بشيء.. وفي ليلةٍ خرج من مكة سبعون من المشركين، فهبطوا من ناحية التنعيم، وفي نيتهم التسلل إلى معسكر المسلمين؛ غير أنَّ محمد بن سلمة قائد الحرس ورفاقَهُ اعتقلوهم جميعاً، وقادوهم إلى رسول الله ﷺ كي ينظر في أمرهم، فما كان منه ﷺ إلَّا أن عفا عنهُم، وأطلق سراحهم، كما يبيّنُهُ قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

تلك الفعال الشنيعة من قريش، وما قابلها من سماحة محمد ﷺ وخُلُقه العظيم، كانت لها أصداؤها المدوِّية في مكة، حتى باتت غالبية الرأي العام فيها إلى جانبه، ولو أرادَ دخولها من أقطارها لما وجد من يصده، إلَّا الذين وترهم الحقد والضغينة. ولكن مقاصده ﷺ كانت بعيدة، فترك لقريش أن تثوب إلى رشدها.. وقد نجح فعلًا في ذلك، فارتضت بمعاودة المفاوضة والركون إلى السلام، ولكن بصعوبة شديدة...

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٤.

أما كيف حصل ذلك، فقد كان عندما قررَ رسولُ الله ﷺ أن يبعث إلى قريشٍ موفده الخاص، فدعا إليه عمر بن الخطاب، وعرض عليه أمرَ الذهاب إلى قريشٍ فأبدى العذر قائلًا: «يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي وليس لي بمكة أحد من بني عدي بن كعب يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها»[1].

فدعا رسولُ الله ﷺ إليه عثمان بن عفان، وأوفده إلى قريش مفاوضاً.. وكان أوَّلَ من لقيه في مكة، أبانُ بن سعيد بن العاص، فطلب إليه أن يجيره[2]، فقط إلى الوقت الذي يفرغ فيه من أداء مهمته. وقصد عثمانُ أبا سفيان بن حرب، واجتمع إليه في عدد من كبار رجال قريش، ليخبرهم بأن رسول الله ﷺ لا ينفك يريد زيارة المسجد الحرام.. ولكنَّ القوم ثاروا في وجهه، وأبوا ذلك قائلين: «يا عثمان! إن شئت أن تطوف بالبيت فطف».

فأجابهم عثمان:

ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. إنما جئنا لنزورَ البيت العتيق، ولنعظِّمَ حرماته، ولنؤديَ فرض العبادة عنده. وقد جئنا بالهدي معنا، فإذا نحرناها رجعنا بسلام.

ورفضت قريش مُصرّة على عنادها.. ورفض عثمان رضي الله عنه أن يفارق مكة قبل أن يصل إلى ما يمكّن من تقارب وجهات النظر، وبذلك طالت المفاوضات بينه وبينها ثلاثة أيام، الأمر الذي أقلق المسلمين عليه، ثم سرت الشائعة بأنَّ قريشاً قد غدرت بعثمان بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام؛ ج٣ ص٣٢٩؛ زاد المعاد، ج٢ ص١٧٩.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

عفان وقتله. وكانت تلك الشائعة كافية لأن تهيج غضب المسلمين، وأن يطلبوا من رسول الله أن يعزم على القتال.. إلَّا أن الرسول الأعظم كان لا يزال مصرّاً على تنفيذ خطة السِّلم، وقد أعطى لقريش كلَّ الفرص كي تأنس منه هذا الموقف، وهو لا يريد أن يفقد الأمل بأنَّ الفرصة آتية لا شك. ولكنْ! عليه أن يحسب لجميع الاحتمالات حسابها. فهو وإن كان يستبعد قتلَ قريش لعثمان، إلَّا أنَّ ذلك لا يمنعه من اتخاذ التدابير التي يمليها الموقف. لذلك عزم على القتال إن تأكد له غدْر قريش بصاحبه، فقال لمن حوله: «لئن فعلت قريش فلا نبرح حتى نناجز القوم».

ولكي يهدّئ رسولُ الله ﷺ من ثائرة غضب المسلمين، ويمنَعَ ذلك الهياج الذي يسيطر عليهم، دعاهم إليه، ثم وقف تحت شجرة وطلب أن يبايعوه، فأقبلوا يبايعونه جميعاً «ألَّا يفروا حتى الموت».. وهم يبدون من عميق الإيمان أخلصه. وفيهم نزل قولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

وطابت نفوس المسلمين ببيعة الرضوان، وزادهم سكينةً رجوع عثمان بن عفان سالماً، وفي تلك الاثناء كان خبر البيعة قد تناهى إلى قريش، فخافت على نفسها، ورأت أنَّ الأمر لم يعد يحتمل التسويف، والمماطلة، ولذلك ائتمرت وأقرّت بأن تفاوضَ على صلح حدّدت هي شروطه بصورة مسبقة، ثم بعثت بها سهيل بن عمرو، أخا بني عامر، وهي توصيه قائلة: «ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلَّا أن

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.

يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدِّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً».

وجاء سهيل بن عمرو إلى الحديبية يطرح مطالب قريش على بساط المفاوضات.. وعلى الرغم ممَّا وجَدَ فيها الرسول ﷺ من صلافةٍ وقصرِ نظر، فقد وافق على البحث بها، لأن مقاصدَهُ أبعدُ بكثيرٍ ممَّا تتصوّر قريش. فقد كان ﷺ يرى أنَّ مجردَ إقامة عهد بينه وبين قريش إنما فيه مصلحة الدعوة والمسلمين.. فلا شيء يُضير إن زاروا البيت الحرام هذا العام، أو أن يأتوه العام المقبل ـ إن شاء الله تعالى ـ فالمهم أن يجعل قريشاً توقع على عهدٍ معه، لأن فيه اعترافاً منها بالإسلام ديناً من أديان جزيرة العرب، وبحق أبناء هذا الدين في زيارة البيت العتيق.. بل وهم أولى من غيرهم بزيارته بعد أن جعله الله سبحانه وتعالى قبلةً للمسلمين، فأعطاه قدسية أعلى من قدسية قريش له، لأن تقديسها غناءٌ وتصديةٌ، وغاياتٌ نفعيّةٌ طالما نالت بسببها مكانة بفضل هذا البيت الذي أعزه الله تعالى وكرَّمه في دنيا الناس. ثم أليس في إقامة صلح ما بين «محمد» وقريش ما من شأنه أن يعزل اليهود في خيبر، وهم ما يزالون يطمعون في محاربته والقضاء عليه؟! ولعلَّ أهمَّ من ذلك كله فرضُ الشروط التي تمنع على قريش الوقوف في وجه انتشار الدعوة الإسلامية، فتنطلق هذه الدعوة آمنة من الغدر ونصْب المكائد لها من جانب العرب على الأقل، وقريش بالذات؟!..

من أجل تلك المقاصد البعيدة، رضيَ رسولُ الله أن يتفاوض مع سهيل بن عمرو بالأناة والصبر، لما كان يبدي ذلك المشركُ، مرةً تلو مرةً، من رغبةٍ بالتوقف والانقطاع عن المفاوضة.. إلَّا أن الرسول

الأعظم، وبما عُهِدَ فيه من حِكْمةٍ، ورؤيا واضحة صائبة، وبما عُرِفَ عنه من دقة في السياسة، وقدرة على المحاورة، كان يحول بينه وبين رغبته تلك، مبدياً من التساهل ما أدهشَ الصحابةَ، ومن التسامح ما عقلَ ألسنتَهم، وإن كانوا في قرارة أنفسهم مغضبين على ابن عمرو لصلافته وتشدّده، إذ بدا كأنه يمثّل أصحاب القوة الغالبة، ومن بيدهم اتخاذُ القرار، بينما ـ في الواقع ـ هم على خلاف ذلك تماماً!.

ومهما يكن من أمر، فقد جرت مناقشةُ كافة المسائل المطروحة، حتى التأم الأمر على الصلح، ولم يبق إلَّا كتابةُ المعاهدة.. فدعا الرسول ﷺ عليَّ بن أبي طالب ليكون كاتبَهُ، فجلس أمام رسول الله ﷺ، وإلى جانبه سهيل بن عمرو، وقد أحاط بهم الناس من مسلمين وغير مسلمين...

وبدأ الرسول قائلًا لعليّ: «اكتب: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم».

فقال سهيل بن عمرو: «أما الرحمان فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللَّهُمَّ»[1].

فقال الرسول «اكتب: باسمك اللهم». فكتبها عليّ.

ثم عاد، فقال له: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسولُ الله سهيل بن عمرو». فاعترض سهيل وقال: «فوالله لو كنا نعلمُ أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله»[2] فقال النبيُّ ﷺ: إني رسول الله وإن كذبتموني. ثم أشار إلى عليٍّ قائلًا: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ بنُ عبد اللّه سهيلَ بنَ عمرو».

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٨١.

(٢) المصدر السابق.

وتابع النبيُّ ﷺ يملي على عليٍّ نصَّ المعاهدة حتى اكتملت، فجاء أبرزُ بنودها:

١ ـ إقامة هدنة بين المسلمين وقريش إلى عشر سنين، فلا يجري أثناءها قتال أو حرب، ولا إسلال أو إغلال[١].

٢ ـ من أسلَمَ من قريش وأتى محمداً بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، ومن ارتدَّ من المسلمين وجاءَ قريشاً لم يردّوه عليه.

٣ ـ من أحبَّ من العرب محالفة محمد وإقامة عهدٍ معه فلا جناح عليه، ومن رغب في محالفة قريش ومعاهدتها فَلَهُ ذَلك.

٤ ـ رجوع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها العام المقبل، فيدخلوها ويقيموا فيها ثلاثة أيام، وليس معهم من السلاح إلَّا السيوف في أغمادها، ولا تتعرض لهم قريش بأي نوع من أنواع التعرض.

٥ ـ مدة المعاهدة عشر سنين من تاريخ توقيعها.

وجرى التوقيع، وأشهد الشهود: رجال من المسلمين ومن المشركين.

فدخلت خزاعة في عقد مع «محمد» وعهده، بينما دخل بنو بكر في حلف مع قريش وعهدها.

على أن تلك المعاهدة، وعلى الرغم من أن رسولَ الله ﷺ هو الذي أبرمها، ووافق على ما فيها من الشروط (التي يقدّرُ، وحده، أبعادَها ومراميها) فإنها لم تُرضِ كثيراً من المسلمين، حتى أنَّ البعض

(١) الإسلال: السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

ثارت ثائرته، منددًا بقريش وصلافتها علناً، مما أدّى إلى الهياج في المعسكر.. ويمكن أن نستَدِلَّ على غضب أكثرية المسلمين من تلك المعاهدة بما دارَ من جدال طويل حولها بين عمر بن الخطاب الذي كان يعارضها، وبين أبي بكر الصديق الذي خالفه في معارضته وهو يقول له في نهاية النقاش: يا عمر! الزم غرزَهُ (أي أمرَهُ ونهيَهُ)، فإني أشهد أنه رسول الله[1]. فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ولكنَّ عمر لم تحمله نفسه على السكوت، فأتى الرسول قائلًا: ألستَ برسول الله؟.

قال رسول الله ﷺ: «بلى!».

قال عمر: «أوَ لسنا بالمسلمين؟».

قال ﷺ: «بلى».

قال عمر: «أو ليسوا بالمشركين؟».

قال ﷺ: «بلى».

فقال عمر: «فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا؟».

فقال رسولُ الله ﷺ: «أنا عبدُ الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يُضيِّعني»[2].

وليس لأحد من بني البشر أنْ يقدِّر الأقدار، لأنَّها تجري بأمرٍ من الله (سبحانه وتعالى)، فما إن انتهى توقيع المعاهدة ولمَّا يجفَّ حبرُها بعدُ، فقد حدث ما فيه امتحانٌ لصبرِ المؤمنين ووفائهم للعهد الذي أخذه النبي الكريم ﷺ على نفسه، وكتَبه ميثاقاً بينه وبين قريش

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٣١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

أجل، في تلك الساعة التي اضطربت فيها النفوس، ظهر أبو جندل، ابنُ سهيل بن عمرو ذاته، رئيسِ وفد المفاوضة، وقد جاءَ هارباً بإسلامه من مكة، يرسف في قيوده، مؤملًا أن يلحق بإخوانه المسلمين، ويذهب معهم قبل مغادرتهم الحديبية، فعمل ما في طاقته حتى يفلت من السجن، وقد واتَتْهُ الفرصة، فهرب يلوذ بالجبال، ويتجنب الطرقات، حتى قدر على إدراك الحديبية، ولكن في ساعةٍ كان العهدُ فيها قد جرى توقيعه، وأصبح ملزِماً للطرفين..

ورآه المسلمون يندفع نحوهم على تلك الحال المزرية، فتلقَّوه مهللين، مكبِّرين، وكأنه جاء تنفيساً عن الكرب الذي كان يملأ قلوبهم في مثل هذا الموقف الذي اعتبروه حرجاً بالنسبة إليهم.. وقام سهيل ابن عمرو يشتدُّ مسرعاً إلى ابنه، فيأخذه بتلابيبه، وهو يصرخ بأعلى صوته: هذا يا محمدُ أول ما أقاضيك عليه، على أن تردَّه.

وحاول رسول الله ﷺ جاهداً أن يخلّص أبا جندل من قساوة أبيه، فقال لسهيل بن عمرو: «هَبْهُ لي أو أجرْه من العذاب».. ولكنَّ ذلك لم ينفع شيئاً مع سهيل بن عمرو، بل قال للنبي ﷺ: لقد تمَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.

وهنا راح أبو جندل المسكين يصرخ:

ـ «يا معشر المسلمين أَأُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني عن ديني؟!»..

وماذا بيد رسولِ الله أن يفعل؟! فقد رمق أبا جندل بنظرة صبر واحتساب، ثم قال له مواسياً: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا

بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم عهد الله، وأعطَوْنا، وإنّا لا نغدر بهم»[1].

ولم يكن أمام أبي جندل إلَّا الرضوخُ لحكم الله تعالى، فخفض صوته ولاذ بالصمت، وأسلس الزمامَ لأبيه، يُعيده إلى مكة كما جاءَ، وهو يرسف في قيوده.

لقد حزن النبي على أبي جندل ـ كما حزن عليه سائر المسلمين ـ وتمنَّى أن يخلّصه من كربته، ولكنَّ قسوة الأب قد غلبت وهو يحتجّ بالعهد، مما اضطر النبيَّ للسكوت وفاءً لعهدٍ ما كان ليعقده لو لم يرَ فيه خيرَ المسلمين، والحفاظ على المصلحة العامة التي يجب احترامها ومراعاتها، حتى ولو تعارضت أحياناً مع مصلحة الفرد..

وبالفعل فقد كان رسول الله مطمئناً إلى ما فعله. ولكن ما أغاظه هو ما بدر من المسلمين من هياج، وعدم رضى، دون أن يتفكروا في النتائج التي سوف يحققونها في مستقبل أيامهم، لاسيما وأنه قد أمَرَ ببُدنة فنحرت، ولم ينحر مثلَهُ أغلبُ المسلمين، فذهب إلى خيمته وما تزال آثار الغيظ باديةً عليه، فسألته زوجه أم سلمة رضي الله عنها عما به قائلة: ما شأنك يا رسول الله؟!.

فأخبرها ﷺ بما عليه الناس من غضبٍ ونقمة، فقالت:

«يا رسولَ الله، أنت الأسوة لأبناء أمتك، وما رأيتُ مؤمنين أكثر إخلاصاً لرسالتهم، ولا أشدَّ حبّاً لله ولرسوله من هؤلاء المسلمين الذين تخلوا عن الدنيا ومباهجها واتبعوا دعوتك. فعلى بركة الله يا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق، ص٣٣٣.

رسول الله، فستجدهم بعون الله راضين، يُقبلون على ما تقبل عليه، ويفعلون مثل ما تفعل».

وقام رسول الله إلى الصلاة منفرداً في خيمته ـ كعادته في كل أمر يحزبه في الشدة ـ مبتهلًا إلى الله تعالى أن ينير سبيل المسلمين، حتى امتلأت نفسه الشريفة بالطمأنينة والرضى، فخرج وحلق إيذاناً بالعمرة. وما إن رأى المسلمون صنيع رسول الله ﷺ حتى تواثبوا ينحرون ويحلقون. وقد تخلّف البعض عن ذلك مقصِّراً.. ولاحظ رسولُ الله ذلك، فقال: «يرحم الله المحلِّقين».

فسألوه: والمقصّرين يا رسول الله؟

فأعاد: «يرحم الله المحلّقين».

وخافت الجماعة التي قصَّرت، فجاءت تسأله مسترحمة: والمقصِّرين يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «والمقصّرين».

وسألوه لماذا خصَّ بالرحمة المحلقين أولًا، فأجاب ﷺ «لأنهم لم يَشُكُّوا»...

لقد استجاب المسلمون، فنحروا الهدي، وحلقوا، وقصّروا، ولكنَّ أكثرهم كان ما يزال في قرارة نفسه، على مضضٍ من الصلح الذي جرى إنفاذه، فقد وجَدَه أولئك المعترضون مجحفاً بحق المسلمين، ونالهم فيه شيء من الحيف والغبن.. فتساءلوا: ولِمَ؟ أمِن أجل إقامة صلحٍ مع قريش وهي الأضعف والأذلّ؟! أم من أجل سلامتهم، وهم على نيّةِ القتال بسبب الصلف القرشي؟!...

ولشدة ما كان يعتمل في نفوس هؤلاء الغاضبين، فقد جاؤوا

يستجلون حقيقة الأمر من رسول الله، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ألستَ نبيّ الله؟!

قال ﷺ: «بلى».

قال عمر: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟!

قال ﷺ: «بلى».

قال عمر: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا إذاً، ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟!

فقال ﷺ: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه».

قال عمر: أو لست كنتَ تحدّثنا أنَّا سنأتي البيتَ، ونطوفُ به؟!

قال ﷺ: «بلى، أفأخبرتُكَ أنكَ تأتيه العامَ»؟!..

قال عمر: لا.

قال ﷺ: «فإنَّك آتيهِ، ومطوِّفٌ به».

قال عمر: فكيف نردُّ إلى الكفار من جاءنا مسلماً، ولا يَردُّونَ علينا مَن ذهب إليهم؟!

فأوضح لهم رسول الله ﷺ: أنَّ من ذهب إلى المشركين فلا ردَّهُ الله، لأنه ذهَبَ مرتدّاً كافراً، وأمَّا من جاء مِنَ المسلمين، ورُدَّ إلى الأعداء فإنَّ الله العلي القدير سيجعل له مخرجاً وفرجاً..

وكانت إقامة المسلمين في الحديبية قرابة عشرين يوماً، أذّن بعدها مؤذِّنُ الرسول بالعودة إلى المدينة. ولكنْ، حتى لا يبقى في نفوس المسلمين أثر للقلق مما أنفذ رسولُه من عهد، فقد شاء رب العزة والجلال أن يجعل الأمن في قلوبهم، والسكينة في نفوسهم، فأنزل على رسوله الكريم وهم في طريق العودة «سورة الفتح»، التي

تبشِّر رسول الله ﷺ بأنَّ ربَّهُ العليَّ العظيم قد فتح له فتحاً مبيناً وأنه قد أنعمَ عليه من المغفرة، وإتمام النعمة ما يطيب به نفساً، ويقرُّ به عيناً، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1] ـ فلما أتمَّ الرسولُ الأعظم تلاوةَ السورة المباركة، وما تحمل من وعود كريمة وعظات بالغات للمؤمنين، أيقنوا بأن معاهدة الحديبية كانت حقاً فتحاً مبيناً لرسول الله ﷺ ـ ولهم على السواء ـ أما ذلك الجموحُ الذي أخذ بنفوسهم، لفترة من الوقت، فإنما كان هفوةً ارتكبوها، فاستغفروا الله (تعالى) وأثنوا عليه، معاهدين على الوفاء والإخلاص في النية والعمل.

أما الأغراض التي قصد رسول الله ﷺ تحقيقها من معاهدة الحديبية فهي ترمي إلى ما يلي:

١ ـ العمل على تغيير الرأي العام من العداوة للدعوة الإسلامية إلى قبولها واقعاً قائماً، وفاعلًا، ليس عند قريش وحدها، بل عند العرب عامة. وهذا يعني الاعتراف بالإسلام ديناً، والإقرار بنبوة محمدٍ رسول الله..

٢ ـ إثبات مكانة المسلمين بين مختلف الأطراف في الجزيرة، بل واعتبارهم طرفاً قوياً، قادراً على عقد المعاهدات والمواثيق، والالتزام بتنفيذها.

٣ ـ التأكيد على قوة العقيدة الإسلامية في نفوس المؤمنين، إذ لولا

(١) سورة الفتح، الآيات: ١ ـ ٣.

أحقيّة هذه العقيدة، وصدق الإيمان بها، لما كان ذلك العزم الذي يجعل المسلمين يقدمون على خطوات جريئة ـ بل وخطيرة ـ كما في ذهابهم إلى الحج، ونيَّتِهِم دخولَ مكة على الرغم من عداوة قريش لهم وحقدها عليهم.

٤ ـ قطع الطريق على قريش بالتحالف مع اليهود، ومع قبائل العرب للقتال ضد المسلمين؛ وهذا يعني تأمين جانب عسكري هامٍّ في مسيرة الدولة الإسلامية الجديدة التي بدأت تفرض نفسها في جزيرة العرب.

٥ ـ جعل المسلمين المستضعفين داخل مكة يشكلون جيباً داخل معسكر العدو.. إذ لم تعد قريش تتعسَّفُ بظلمها لهم، وخففت كثيراً من القيود التي كانت تسلبهم حرية الحركة ووضعهم تحت المراقبة، وفرض الانصياع لأوامرها.

٦ ـ التبيين للمسلمين أن المناورات السياسية هي من وسائل الدعوة الإسلامية، وأن الطريقة في السياسة هي من جنس الفكرة: صدقٌ ووفاءُ عهد.. لكن الأساليب يمكن أن يتخلّلها دهاء من المسلمين بإخفاء الأهداف عن العدو، وصرفه عن السبل الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف.

ولكنَّ أبرز النتائج التي حققها صلح الحديبية، وأبعدها أثراً، يبقى ذلك الفتح المبين على الإسلام والمسلمين.. فالإسلام منذ أن بزغ فجرُهُ دينَ التوحيد، قامت ضدّه العرب بأجمعها، وحجتها البقاء على دين الآباء والأجداد... فكان محتوماً وجود الصراع الفكري والعسكري بين الإسلام الذي يدعو لعبادة الله الواحد الأحد، وبين الوثنية التي تقوم على

الشرك والكفر.. وبحكم قلّة المسلمين في بداية ظهور دعوتهم، لاقوا من الظلم والاضطهاد عنتاً شديداً.. وكانت قريش عدوَّهم الأول، لأنها ـ يومئذٍ ـ صاحبة أقوى كيان سياسي في شبه الجزيرة، والقبائل الأخرى تتأثر بمواقفها، وتحذو حذوها في كثيرٍ من الأمور، وفي كثير من الأحيان.. وهذا أمر واقع في حياة الدول والشعوب، نراه اليوم، كما كان قائماً في الماضي... وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها المسلمون، ولاسيما في معركة بدر، فإن حدَّة ذلك الصراع لم تنكسر حتى كانت الحديبية، وعقد الصلح مع قريش، الذي أدى إلى تخفيف وطأة العداوة في نفوس القبائل ضد الدعوة الإسلامية، ممّا قد يفتح أمامها سبل التقدم إلى الأمام، ويقضي على كثير من العوائق التي كانت تقف في طريقها؛ وهذا من شأنه أنْ يتيح للمسلمين المجال للاهتمام بالشؤون الحياتية، بدلًا من الانشغال الدائم في الغزوات والسرايا والمعارك، كما حصل خلال السنوات الماضية..

وهذا ـ بالفعل ـ بعضٌ مما حققته معاهدة الحديبية، إذ كان الصلح الذي انبثق عنها فتحاً مبيناً للمسلمين بكل معنى الكلمة، وقد أَمَرَ به ربُّ العالمين، وأثبته التنزيل الحكيم، وقد أجراهُ اللَّهُ تعالى على يَديْ رسولِهِ الكريم بما حَبَاهُ من بعد في النظر، ودقةٍ في الأمور السياسية. يقول الزهري: «فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، ولقد دخل في الدين الجديد مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»، والدليل على قول الزهري، كما قال ابن هشام، أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة ـ كما سنرى ـ بعد ذلك بسنتين ـ في عشرة آلاف[1].

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٣٦ و٣٣٧.

غزوة خيبر

عادَ رسول الله ﷺ من الحديبية مطمئناً إلى هَدْي الله (تعالى) ومنّته على المسلمين بالفتح المبين، فكان في ذلك عامل إضافي لاستكمال الخطة التي كان يفكر بها لتحركه الجديد... فقد بلغه قبل خروجه قاصداً الحجَّ أن اليهود وقريشاً يأتمرون به، ويعدّون العدّة لغزو المدينة من جديد. ولذلك كان من مقاصده عندما نادى مناديه إلى الحجّ، إقامةُ سلام مع قريش حتى يأمن غدرها من ناحية الجنوب، فلا يبقى أمامه إلَّا معالجة أمر يهود خيبر المقيمين في ناحية الشمال من المدينة.. فلما كان له ما أراد، وأبرم عهد الحديبية، عادَ إلى المدينة يتفكّر في شأن اليهود والسبيل الذي يسلكه معهم.. فرأى أنَّ إقامة صلح معهم على غرار الحديبية، غيرُ ممكن، لما في نفوسهم من ضغائن وأحقاد.. وعلى فرض موافقتهم على الصلح ـ وهذا أمر مستبعد كثيراً منهم ـ فكيف يؤمن ألَّا يفعلوا كما فعلوا من قبل بنقض العهود والمواثيق التي أقامها معهم؟! مما لا ينفع معهم أي ميثاق على صلح.. ومن ناحية أخرى، فإنه لا يمكن ترك اليهود في خيبر وهم على ما هم عليه في حصونهم المنيعة، وعندهم من الثروات والأموال والأسلحة ما يجعلهم يمتلكون القوة الضاربة، التي تشكل أهم الأخطار على المسلمين؟!.. كما أنه ليس ما يمنع هؤلاء اليهود ـ بعد أن نفضوا يدهم الآن من قريش ـ من الالتجاء إلى الملوك خارج جزيرة العرب، لإقناعهم بإعلان الحروب على الإسلام والمسلمين، حتى لا يقوى سلطان الإسلام في الجزيرة ويهدد كياناتهم وعروشهم بالزوال!!.. ولهذا فإنَّ صالح الدعوة يستوجب القضاء على شوكة يهود خيبر قضاءً تاماً، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك ببلاد العرب قائمة حرب وفتنة.

ومكث رسولُ الله ﷺ بالمدينة، بعد عودته من الحديبية، بضعة أسابيع. ثم أمَرَ الناس بالتجهيز لغزو خيبر، على ألَّا يغزوَ معه إلَّا من شهد الحديبية. أما غيرهم ممَّنْ يريدون الخروج غزاةً متطوعين فلهم ذلك، ولكن لا يكون لهم من الغنيمة شيء، لأنهم من الذين تخلفوا عن الخروج إلى الحجّ، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾[1].

وفي فترة وجيزة استُكمل الاستعدادُ، فاستخلف الرسول ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، ثم انطلق في بقية المحرم (سنة ٧ هجرية) إلى خيبر في أصحاب الشجرة، وفيهم مئتان من الفرسان، وقد صحب معه عشرين امرأة من نساء الصحابة لمداواة المرضى، وإسعاف الجرحى والاهتمام بشؤون الطعام، وغيرها من الشؤون التي توكل في الحروب ـ عادة ـ إلى النساء.. وساروا ثلاثة أيام حتى نزلوا بوادٍ يقال له الرجيع[2] كي يحولوا بين غطفان وإمدادها لليهود حين القتال في خيبر.. وذلك أن كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول كان قد أرسل إلى يهود خيبر «أن محمداً قصدكم وتوجه إليكم فخذوا حذركم، ولا تخافوه، فإن عددكم وعدتكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون» فأرسل يهود خيبر كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدون منها العون، وشرطوا لهم نصف خيبر إن هم غلبوا على المسلمين[3].. من أجل ذلك كان نزول المسلمين في

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٢) وهو غير ماء الرجيع ـ بين رابغ وجدة من أرض الحجاز.

(٣) الرحيق المختوم، ص٣٣٤.

وادي الرجيع، إذ لمَّا رأت غطفانُ الجيش الإسلامي قد نزل تلك المحلة خافت أن يغزوها، فرجع رجالها الذين كانوا في الطريق إلى خيبر حفاظاً على وجودهم.. وهكذا وبعد أن أمَّن المسلمون هذا الجانب ـ بعزل غطفان ـ عاودوا المسير إلى خيبر فبلغوها ليلًا، فلم يُغِرْ عليهم رسول الله ﷺ وفقاً للنهج الذي اتبعه، بألَّا يغزو قوماً إذا أتاهم بليلٍ حتى يصبحوا..

وكان أهل خيبر، بعدما نقلت عيونهم أخبار خروج «محمد» ناحيتهم، قد تداعوا إلى الاجتماع والتشاور، فتفرَّق بهم الرأي بين التصدي لجيش المسلمين ومقاتلته، وبين موادعة «محمد» على عهدٍ يضمن عدم غزوهم. إلَّا أنهم في نهاية المطاف آثروا الحرب على السلم، معتمدين على منعة حصونهم، وشدة مراسهم، وكثرة سلاحهم ومؤنِهم، وبمثل هذا الاطمئنان ضرب الله (تعالى) على أبصارهم وبصائرهم غشاوة، فلم يعلموا بنزول الجيش قريباً منهم.. حتى إذا طلع الصباح، وخرجوا ـ كعادتهم ـ إلى أعمالهم في بساتين النخيل وقد حملوا المعاولَ والفؤوس والمكاتل (أخواص توضع فيها التمور)، إذا بهم يفاجأون بذلك الجيش يعسكر قريباً منهم فولّوا مدبرين، وهم يتصايحون وينادون: محمد والخَميسُ مَعَهُ (أي ومعه جيشه).

فلما رآهم المسلمون على هذه الحالة مذعورين، مدبرين هرباً، قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فسَاء صباح المُنذَرين»[1]. وكان رسول الله ﷺ عندما وطئ أرضَ

(١) صحيح البخاري، باب غزوة خيبر، ج٢ ص٦٠٣ و٦٠٤؛ وزاد المعاد، ج٢ ص١٩٤.

خيبر، قد نزل عن راحلته، ورفع يديه نحو السماء يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى ويسأله النصر على الأعداء بدعائه وهو يقول:

«أللّهم ربَّ السمواتِ السبع وما أَظْلَلْنَ، وربَّ الأرضين السبع وما أَقْلَلْنَ، وربَّ الشياطين وما أَضْلَلْنَ، وربَّ الرياح وما أَذْرَيْنَ، فإنا نسألُك خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّ هذه القرية وشرّ أهلها وشرِّ ما فيها. أقدموا بسم الله»[1]..

ولم يتبين للمسلمين، وقد صاروا في أرض خيبر، أيٌّ من حصونهم قد تجمعت فيه مقاتِلة اليهود وقواها.. ذلك أنَّ تلك الحصون ومساكنها كانت موزعة على سفوح الجبال أو على رؤوس الهضاب في ثلاث مناطق: ففي منطقة «النطاة» قامت ثلاثة حصون: حصن الناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير، ويقال له حصن فلّة. وفي منطقة «الشق» برز حصنا أبيّ والبريء. أما في المنطقة الثالثة وهي «الكتيبة» فقد قامت حصون: الوطيح، والسَّلالم، والقموص (ويقال له حصن نزار). ولقد ساعد على إقامة تلك الحصون انتشار قرى اليهود في واحةٍ كبيرة خصبة، ذات ماءٍ وفير، وزروع ونخيل كثيرة فاستطاعوا بما أغنى اللَّهُ ـ تعالى ـ تلك الأرض من الخيرات أن يجمعوا الأموال، ويقيموا تلك الآطام المنيعة، لتشكل، خِصّيصاً، معاقل تمنع عنهم العادين، وتردّ الغازين.

وفي الوقت الذي وُضِعَ فيه المسلمون في حالة من الترقب والانتظار، كان اليهود قد أسرعوا يُلجِئُونَ النساءَ والأولادَ، ويجمعون

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٤٤؛ وزاد المعاد، المصدر السابق (قال ابن إسحاق: وكان يقوله صلوات الله وسلامه عليه لكل قرية دخلها).

الأموال في حصون «الكتيبة»، بينما كان مقاتِلوهم يستعدّون في حصون «النطاة»، وقد عقدوا لواء القيادة لأحد زعمائهم: سلام بن مشكم..

ولئن لم يتمكّن المسلمون من معرفة الحصن الذي تجمَّع العدو فيه للقتال، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد مهَّدَ لهم هذا الأمر، عندما رأَوا اليهود يعتلون حصن الناعم ـ في منطقة النطاة ـ وكأنَّما يريدون أن يدلّوا على أنفسهم بأنفسهم.. فاندفع المسلمون لاقتحام هذا الحصن، إلَّا أنهم سرعان ما تراجعوا لكثرة ما نزل عليهم من السهام والنبال والحجارة؛ وقتل، في هذا الهجوم محمود بن سلمة، برحى ألقيت عليه.

وجرت المناوشات بين اليهود والمسلمين عن بُعد لبضع ساعات، حتى رأى اليهود أن لا جدوى منها، لأنها في الواقع لا تصيب المسلمين بخسارة، بل تضيّع السلاح اليهودي وتذهب به بدداً، وهم أضنُّ من أن يفقدوا شيئاً منه لحاجتهم الماسّة إليه في مثل هذا الظرف العصيب، الذي يحاصرهم به عدوهم، ويمنع وصول أي إمداد إليهم. ثم هل يقبلون بهذا الوضع من الحصار؟ وأين اعتدادهم إذاً بالقوة واعتزازهم بالخبرة في القتال؟ لا! إنَّ كرامتهم تأبى عليهم الاكتفاء بموقف الدفاع، وفقدان السلاح عن طريق الاستنزاف.. لذلك قرر اليهود المواجهة لتكون معركةً طاحنة يُقتل فيها من يُقتل، ولكنها في النهاية تُجلي المسلمين عن أرضهم. لذلك، ما كاد صباح اليوم التالي يؤذِنُ بنورِهِ، حتى اندفع اليهود خارج الحصن، ودار قتال شديدٌ مريرٌ، أراد منه كلُّ فريق أن يُنزل بعدوه الضربة القاضية، ولكن لم يحصل شيءٌ من ذلك.. فاليهود بكثرة عددهم وعدتهم، وغرورهم بأنفسهم كانوا يتوهمون بأنهم سيسحقون المسلمين.

وهؤلاء بقوة إيمانهم، وبسالة أبطالهم كانوا يرجون تحقيق النصر. ولكنْ لم ينَلْ أي الجيشين من الآخر، حتى قُتِل قائد اليهود سلام بن مشكم، فارتعدوا، وانكفأوا إلى داخل حصنهم، وهم يُحكمون إغلاقه وراءهم.

فتوحات علي كرّم الله وجهه في خيبر

ودامت حالة القتال على هذا النحو طوال سبعة أيام.. يخرج اليهود، وتنشب المعركة، ثم يدخل اليهود حصنهم، حتى أجهدوا المسلمين، وقلَّ معهم الزاد.. وإنَّ استمرارَ مثل هذا الوضع يؤدي ـ ولا ريب ـ إلى الوهن في صفوفهم، ويقلل من صمودهم، بل ويجعل القتال أمراً صعباً عليهم. وكان رسولُ الله ﷺ يعطي كلَّ يوم لواءه لأحد الصحابة كي يقود المسلمين إلى فتح الحصن، فيرجع ومن معه منهوكي القوى، تعبين، دون أن يقدروا على فتحه.. فقد أعطى اللواء إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقاتل ومن معه قتالًا شديداً، بدون جدوى.. ثم أعطاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقاتل وأصحابه قتالًا أشدَّ، ولكنه عجز أيضاً عن فتح حصن الناعم[1]، حتى بدا وكأنه لمنعته مستعصياً على المسلمين.. إلَّا أن الرسولَ الأعظم، بدَّد تلك الفكرة من رؤوسهم عندما قال لهم:

«أمَا والله لأدفعنَّ غداً بلوائي إلى رجل يحبُّ الله ورسولَه، ويُحِبُّهُ الله ورسولُه، ولَنْ يرجعَ حتى يفتح الله عليه»[2]. فارتاح المسلمون قاطبةً لهذه البشارة بالفتح، ثم اشرأبَّت أعناق القوم ـ من

(١) هيكل، حياة محمد، ص٣٧٥ و٣٧٦.
(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٤.

أبطال المسلمين ـ تتطلَّع إلى من يُعطى الرايةَ في غدٍ ليفتح الله تعالى على يديه، وليكون الفائز بحب الله ـ عز وجل ـ ورسوله الكريم! . .

فما إن صلّى رسولُ الله ﷺ الفجر من الغد حتى دعا إليه عليّ بن أبي طالب (سلام الله عليه)، فجاءه وهو أرمدُ العين، فأمسك الرسول برأسه، وراح يمسح على عينيه ويَرقيه بتلاوة آيات من القرآن الكريم، وهو ينفخ فيهما، ويُمسّدهما بشيءٍ من ريقه الشريف، حتى شعر عليٌّ بأنه قد برئ من الرمد، وأن رأسه قد صفا، ونظره قد قوي، فوقف أمام رسول الله متأهباً، مستعداً، وهو في أحسن حال، فأخذ راية رسول الله ﷺ البيضاء، واندفع هو والمقاتلون لفتح ذلك الحصن، والرسول ﷺ يقول لقائد الفتح: «قاتِلْهم يا عليّ على أن يشهدوا أن لا إله إلَّا الله، وأن محمداً رسولُ الله بحقها، فإن فعلوا حقنوا منَّا دماءهم وأموالهم، وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ فوالله لَأَنْ يهدي الله بك رجلًا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم»[1].

وخرج اليهود يسبقهم فارس مقدام، عليه مغفر يمانيٌّ، قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وقد تدجج بالسلاح، وعجَّل في تقدمه كأنه يهب الموت لعدوّه قبل أن يلقاه! . .

وصرخ عليٌّ في اليهود داعياً إياهم إلى الإسلام، فذهبت صرخاتُهُ صدىً في الفضاء، وكأنهم لا يريدون سماعها. وكان أكثرَهم تعبيراً عن هذا الرفض لنداء الإسلام الفارسُ اليهوديُّ الذي كان يتقدم وهو يرتجز:

قد عَلِمَتْ خيبرُ أَنّي مَرَحب شاكي السلاحِ بطلٌ مجرَّبُ

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٤.

أَطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ إذا الليوثُ أقبلتْ تُحَرَّبُ[1]

إنَّ حِمايَ للحِمَى لا يُقْرَبُ يُحْجِمُ عن صَوْلَتِي المجرَّبُ[2]

فانطلق عليٌّ للقائه بقوة المؤمن الصادق، وبعنفوان البطل الأبيّ، وهو يردُّ عليه راجزاً:

أنا الذي سمَّتْني أمي حَيْدَرَهْ كليثِ غاباتٍ شديدٍ قسورةْ

أَكيلُكُمْ بالسيفِ كَيْلَ السَّنْدَرَةْ[3]

ثم الْتقَى البطلان، وثار النقع تحت حوافر فرسَيهما في مبارزة عنيفة مريرة، كان يشهدها المقاتلون فتهلع لها قلوبهم، وترتعد لمرآها فرائصهم. واستطاع مرحبُ اليهوديُّ أن يقارب علياً وأن يوجِّه إليه ضربة أرادها كالصاعقة، ولكنَّ علياً تلافاها وحاد عنها، فذهبت في الهواء طائشة خائبة. ثم لم ترتدَّ يدُ صاحبها منها، حتى كانت الضربةُ النجلاءُ من بطل الإسلام قد هوت فوق رأسه تقدُّ مغفره، وتفلقه شقَّين حتى وصلت إلى رقبته[4]، فهوى مرحبُ، اليهوديُّ الصنديدُ، عن ظهر فرسه، مجندلاً والدم الغزير يفور منه، ويروي التراب من تحته.

ورأى المحاربون اليهود ما حلَّ ببطلهم مرحب، فاندفعوا نحو المسلمين في هجمة شرسة عاتية، وقد استبدَّ بهم الحقد، وهاجت في نفوسهم الضغينة، فكأنما يريدون أن يستأصلوا أعداءهم عن وجه

---

(١) تحرّب: تغضّب، يقال: حرَّبه إذا أغضبه.

(٢) هيكل، حياة محمد، ص٣٧٦.

(٣) انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٢٩ (مع بعض الاختلاف). والسندرة: السرعة.

(٤) وجاء في مختصر ابن عساكر ج١٧ ص٣٢٦ ـ ٣٢٧ : «أنَّ عليّاً ضربَهُ على هامته حتى غطَّى السيفُ بياضَ رأسه».

الأرض استئصالاً.. ولكن من أين لهم تحقيق الوهم الخادع، والمسلمون يلاقونهم كالليوث الكاسرة، فيفرقون صفوفهم، ويشتتون جموعهم. وأراد أحدهم أن ينتقم من عليٍّ بالذات فراح يلحقه ويترصّده من مكان إلى آخر، يريد أن يختلسه بضربة تعجِّل عليه. وما زال كذلك حتى أمكنه الدنوُّ منه، فأهوى عليه بسيفه، فتلقَّى عليٌّ ضربته بدرعه، غير أنها وصلت إلى مقبضه فقطعته وأطاحت به من يده، فما كان من فارس الوغى إلَّا أن عاجله بسيفه البتّار، وأهوَى عليه بإحدى ضرباته البكر، لتفلقَ هامه، وتَذَرَهُ على البطحاء شطرَين.

ولم يكن اليهود قد شهدوا في سالف أيامهم مثل تلك الضربات التي تفلق هام الرجال. فأخذهم الهلع، وتقهقروا إلى الوراء مرتدّين إلى الحصن، فارِّين من هول ما رأوا. ثم حاولوا إغلاق بابه وإحكام إقفاله من الداخل، ولكنَّ علياً المغوار كان أسرَعَ من أن يمكّنهم من إيصاده في وجه المسلمين، إذ اندفع يدحوه في مقابلهم حتى اقتُلع، فحمله يتترَّس به، ويهجم على الأعداء يدحوهم به دحواً حتى أبعَدَهُم عن المدخل، فأجفلوا وولوا هاربين وأحدهم يولول ويقول: من هذا البطل؟! فلما سمع أنه علي بن أبي طالب قال: «علوتم ـ يا مسلمين ـ وما أنزل على موسى»[1].. ثم عجَّلَ عليٌّ رضي الله عنه وجعل الباب قنطرة على الخندق ـ الذي كانوا قد حفروه أمام الحصن ـ فاجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية الحصن[2]، يلاحقون الأعداء من ناحية إلى ناحية، ومن زاوية إلى زاوية، وهم يقتلون من يلحقون به حتى سقط

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٤ و١٩٥ عن صحيح مسلم.
(٢) هيكل، حياة محمد، ص٣٧٦.

حصن الناعم كله، بفعل بطولة عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه).. فدعاه الرسولُ إليه، يضمُّهُ إلى صدره، ويشكر الله تعالى على ما أنعَمَ به على هذا البطلِ الإسلامي، وعلى المسلمين، من أول فتوحات خيبر..

وكان شاعر رسول الله حسان بن ثابت، يرقب الحنان الذي يُفيضُهُ رسولُ الله ﷺ على حبيبه وأخيه عليّ فينفذ أثره إلى مشاعره، ويلتقي في ذهنه مع صور جولات عليٍّ وصولاته، فاستأذن النبيّ ﷺ وأنشد في ذلك شعراً معبّراً، كان من جُملته، قوله:

وكان عليٌّ أرمدَ العين يَبتَغي ... دواءً فَلَمَّا لم يُحِسَّ مداويَا
شفاهُ رسولُ الله مَنْهُ بِتَفْلَةٍ ... فَبُورِكَ مَرْقِيّاً وبُورِكَ رَاقِيَا
وقالَ سأُعطي الرايةَ اليومَ صارماً ... كَمِيّاً مُحبّاً للرسولِ مُوالِيَا
يُحِبُّ إلهي والإلهُ يُحِبُّهُ ... به يفتحُ اللّهُ الحصونَ الأَوابِيَا
فَأَصْغَى لها دُونَ البريّةِ كلِّها ... عَليّاً، وسمَّاهُ الوزيرَ المُؤَاخِيَا

وارتاح المسلمون إلى فتح الحصن الذي استعصى عليهم أياماً.. إلَّا أنَّ ما شهدوه بأنفسهم ـ قبل اليهود ـ من بطولة عليٍّ رضي الله عنه، وشجاعته في ذلك اليوم كان محور سمرهم وأحاديثهم في تلك الليلة، والبعض يتساءل: كيف أمكن لعليٍّ أن يقتلع ذلك الباب الضخم ثم يهجم على الأعداء يدحوهم به دحواً؟

يقول أبو رافع مولى رسول الله: «فقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه[1].. بل

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٥٠ عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن الحسن عن بعض أهله عن أبي رافع..

وروي عن أحدهم أنه قال: كنا عشرين نحاول رفع الباب الذي دحاه عليٌّ فلم يستطع الضوء أن ينفذ من تحته!.. وكانوا كلّهم أمناءَ صادقين، وقد خلّدوا لنا إرثاً نفاخر به، ونحمد اللَّهَ تعالى على عزّة المسلمين، كما كان الصحابة الأخيار يحمدونه تبارك وتعالى على ما منح علياً من القوة حتى أمكنه فتح الحصن، وكما منحَهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الفضلَ بقتل عمرو بن ودّ، فكان فريداً في الحَدَثين، كما كان فريداً في أُخوَّته لرسول الله ﷺ.

وطلع صباح اليوم التالي فقاموا ، بعد أداء فريضة الصلاة، يتأهبون لمعركةٍ جديدة. ولكنَّ عمَّار بن ياسر لم يقدر على مغالبة مشاعره التي تُلِحُّ عليه برؤية عليٍّ، فقصد خيمته ليجده قد قعدَ وأمامَهُ بعضُ الخبز اليابس، ووعاءٌ فيه ماءٌ يريد أن يتبلَّغَ به قبل الخروج.. وسمعَ عمارُ بأذنٍ واعية، ورأى بعينٍ بصيرةٍ ما أغناه عن كل سؤالٍ جاء يحدث به نفسه.. فقد أدهشه أن يرى عليّاً يأخذ كسرة الخبز اليابس بين يديه، وكأنه يجهد بفتِّها، فيقول له عمَّار: واعجباً مما رأى الناس منك بالأمس، وما أراه اليوم؟!..

قال عليٌّ: وماذا يا أخي؟.

قال عمار: لقد شهدك الناس تفتح الحصن كطودٍ هُدَّ من علٍ، وأجدك أمامي تجالد كسرة الخبز وكأنك لا تقوى عليها!.. أأنتَ، أنتَ عليٌّ، داحي باب خيبَر ويعجزك رغيف يابس؟!.

فابتسم عليٌّ وقال: يا عمار! بالأمس كنتُ أقاتل لله (تعالى)، فكانت قدرةُ الله، والآن أبذل جهداً لنفسي فهذه قدرتي.

وهنا تكمن العظمة في نفوس العظماء!.

ليس من الصعب على ولدٍ صغيرٍ أن يكسر رغيف خبز يابس. . . ولكنَّ أدبَ المائدة، وتقديرَ قيمة لقمة العيش التي جعلها الله تعالى لحياة الإنسان، هي بعض شمائل العظام!. . ولم تكن شيمة علي بن أبي طالب ألَّا يتأدب وهو يتناول طعامه، ويعطي لقمة العيش حقَّ قدرها، فيأخذ كسرة الخبز على هونٍ حتى ليبدو لناظره أنه يجد صعوبةً في كسرها. . وليس هذا وحده ما قد يتوقف الإنسان عنده ـ وإن كان ينمُّ عن أرفع الأخلاق وأسماها ـ بل ذلك الإيمان العميق في قلب عليٍّ وهو يؤكد أنَّ الله سبحانه وتعالى يهب لعباده المخلصين من القوة ما يجعل أعمالهم بمثابة المعجزات، عندما تكون الغاية خالصةً لله العلي الكبير، ويكون الجهد مرصوداً لنصرة دين الله عز وجل. . أما في شؤونه الخاصة، وفي حياته الشخصية، فإنَّ شموخ عليٍّ يتبدَّى في بساطته، وفي تقشفه، ولا سيما في تواضعه، فلا يفاخر بأنه أتى عملًا عظيماً قطّ، وإنما يجعل الفضلَ كله لله تعالى وحده.

نعم، هذا هو الإيمان الصادق، وهذا هو الخلق السمح! فكان جديراً أن يستحق علي بن أبي طالب المكرمة السنية عندما أعلن رسول الإسلام، إلى مدى الدهر: بأن علياً يحبُّ اللّهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللّهُ ورسولُهُ.

ذاك هو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، بطلُ خيبر الأول، الذي استطاع أن يدحر اليهود مع رفاق أوفياء في حصن الناعم، ويضطروهم إلى ترك الحصن والفرار منه، كي يلتحقوا بحصن الصعب بن مُعاذ ويحتموا في داخله. . ولكنّ المسلمين لم يمكنوهم من ذلك، إذ أظفرهم الله تعالى بعدوِّهم، ففتحوا هذا الحصن سريعاً، وأخذوا منه الأسارى، وغنموا الأموال والخيرات، مما أمّن لهم الزادَ

الذي أوشك على النفاد، وإبعادَ شدة الجوع والعطش التي قاربت أن تحلَّ بهم، كما يعبّر عن ذلك بنو سهم من ألم، عندما أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: والله يا رسول الله لقد جهدنا وما بيدنا من شيء.. فقال: «اللَّهُمَّ إنك قد علمت حالهم، وأَنْ ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيءٌ أعطيهم إيّاه. فافتح عليهم أعظم حصونها قوةً، وأكثرها طعاماً»(١).. أجل، لقد وجد المسلمون في هذا الحصن ما يغنيهم عن أية حاجة لكثرة ما فيه من التمر والعسل والسمن والزيت والقمح، وشتى أنواع المؤن ومختلف أصناف المتاع. بل وعثروا في داخله على دهليز قادهم إلى كهفٍ مليءٍ بآلات الحروب وأدواتها من السيوف والدروع والحراب والنبال، بالإضافة إلى منجنيق كبير، ندر وجوده في بلاد العرب، فسُرّ المسلمون بالعثور عليه سروراً عظيماً.

فتوح الحصون الأخرى

لقد كانت ذخائر حصن «الصعب بن معاذ» كثيرة، وأصبحت غنائمَ للمسلمين، وكادت تغريهم بحملها، وتشغلهم عن متابعة القتال ـ تماماً كما حدث يوم أحد ـ في حين أن حصون الأعداء كانت ما تزال عديدة ولم يفتحوها جميعها بعد.. من أجل هذا، ولكي لا يتوانى المسلمون عن متابعة أداء الواجب، نادى منادي رسول الله أن: «كُلوا واعلفوا ولا تَحْمِلوا».. فكان ذلك تطبيقاً لقاعدته ﷺ بقوله: «لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرَّتين»(٢). إذ لا مجال للانصراف إلى الغنائم، والانشغال بها، ما دامت غزوة خيبر لم تحقق مقاصدها كلها بعد!.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٤٦.
(٢) البخاري، باب الأدب، ص٨٣.

وكان اليهود قد فروا إلى قلعة الزبير التي تقوم على رأس قمة عالية، تجعل مهمة اقتحامها أمراً صعباً، والوصول إلى داخلها، أمراً شاقاً.. وواجهت المسلمين عقباتٌ كأداء إذ كان عدوّهم يعلو فوقهم، ويسدّد إليهم السهام والنبال التي كانت تنزل عليهم مثل المطر المدرار، فتمنعهم من التقدم، وتجبرهم على البقاء في أماكنهم. وكان يمكن أن يدوم هذا الحصار طويلًا وليس ثلاثة أيام، وعلى نفس الحال، لولا أن سخَّر الله (سبحانه) أسيراً من اليهود يقال له «عزال»، فأخبرهم بوجود جدول تحت القلعة يتزوَّدُ منه اليهودُ بالماءِ ليلًا، ثم يرجعون إلى قلعتهم.. فلمَّا حال المسلمون بينهم وبين الوصول إلى ذلك الجدول، اضطروا للمواجهة، فدار قتال عنيفٌ، قُتِلَ فيه لليهود عشرة رجال مقابل رجل واحد للمسلمين. ثم دارت الدائرة في النهاية على اليهود وغُلبوا على أمرهم، ففروا إلى الحصون الأخرى. وبسقوط قلعة الزبير، صارت منطقة «النطاة» برمتها تحت سيطرة المسلمين.

وكان فرار اليهود في هذه المرة إلى حصن «أبي» على رأس جبل شمران في منطقة الشق، فاندفع المسلمون يصعدون الجبل ويشنُّون عليه هجوماً عنيفاً، وعدوهم يفرُّ أمامهم من فوق الجُدُر التي توصل إلى حصن آخر، هو حصن «البريء» حيث احتمى اليهود فيه، وراحوا يرشقون المسلمين بالحجارة، ويرمونهم بالنبال، حتى أنَّ نبلًا طال ثوبَ الرسول ﷺ وعلقَ به. وإذْ رأى ﷺ أنَّه لا قدرةَ للجيش على التقدّم، وإلَّا تعرض لخطر شديد، أمر بالمنجنيق فنصب.. وخاف اليهود أن يقذفهم المسلمون بتلك الآلة الهدامة التي لا قِبَل لهم باحتمال قصفها، فولّوا هاربين إلى حصن آخر، فتقدَّم المسلمون ودخلوا حصن البريء دون حرب، وهم يشكرون الله تعالى على ما

أيَّدهم به من نصر عزيز. وسقطت منطقة الشق كلّها في أيديهم، كما سقطت منطقة النطاة من قبل. ولم يبق أمامهم من بلاد خيبر إلَّا المنطقة الثالثة والأخيرة وهي منطقة «الكتيبة» التي لاذَ اليهود للاحتماء في أشدّ حصونها منعة، وهو حصن القموص الذي كان لبني الحقيق ـ أبرز زعماء اليهود وأعلاهم قدراً ـ فجمعوا النساءَ والذراري فيه، وخبَّأوا الكنوز والثروات... وتحوَّل المسلمون إلى ذلك الحصن وأخذوا يضيّقون الخناق عليه، في حصارٍ شديد دام بضعَ ليال، أمكنهم بعدها فتحه على يدي علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، والاستيلاء على ما فيه، بعد أن سبَوا النساءَ والذراري وأسروا عدداً من الرجال والمقاتلين كان بينهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، الذي أبى أن يفارق الحصن، مفضلًا الأسر على تركه.

وكان معروفاً أن كنانة هو الذي حمل كنز بني النضير يوم إجلائهم عن المدينة[1]. فلما جيء به إلى رسول الله أنكر معرفته بوجود أي كنزٍ، وقال: أذهبتْه النفقات والحروب، فقال له الرسول ﷺ: العهد قريب والمال أكثر من ذلك[2]. فلم يردَّ، فحذَّرَه رسول الله من الإنكار، وإلَّا، إنْ وجدوه، فإنَّ مصيره سيكون القتل. ولكنَّ كنانة ظلَّ على إصراره نافياً معرفته بمكانِ الكنز، فأتى من يقول للرسول بأنَّ كنانة كان يتردّد إلى خربةٍ جانبية في الحصن، فأمر بحفرها فعثروا على الكنز.. حينئذ دعا رسولُ الله الصحابيَّ محمد بن مسلمة، ليأخذ هذا اليهودي الخبيث ويضرب عنقه.

---

(١) وقيل إن حيي بن أخطب هو الذي احتمل معه المال والحلى إلى خيبر حين جلاء بني النضير عن المدينة (انظر زاد المعاد، ج٢ ص١٩٧).

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٧.

وكان بين السبايا صفية بنت حييّ بن أخطب وابنة عمتها، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يذهب بهما إلى رحله، فمرَّ بهما على القتلى حتى تريا مصارع القوم، لشدة كيدهم للإسلام، وتآمرهم على نبيِّه الكريم؛ فانتاب ابنة عمةِ صفية الهلع والجزع وراحت تولول وتصرخ، وتلطم وجهها وتشدُّ شَعرَهَا، وتمزقُ ثوْبها، حتى كادت تقتل نفسها. فكره الرسول ذلك وقال: «أغربوا عني هذه الشيطانة». ثم قال لبلالٍ يؤنّبه: «أنُزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟»[1]، فأبدى بلال شدة الندم، وهو يعتذر إلى رسول الله ويقسم على ألَّا يعود إلى مثلها أبداً. فصَرَفه رسول الله، الرحيم بالناس، لأنه يرفض رفضاً قاطعاً ما فعله بلال، أو أي فعلٍ مشابه يصدر عن غيره.

ولقد كانت صفيةُ ابنةَ سيّدٍ في قومه، وسليلةَ نسب نبوي، تعود فيه إلى هارون بن عمران، أخي موسى عليه السلام، وأمها بَرَّة بنت سموأل، أخت رفاعة بن سموأل من بني قريظة. وقد تزوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق بعد أن فارقها زوجها سلام بن مشكم، وهي ما تزال في السابعة عشرة، فأراد الرسول ﷺ أن ينزلها منزلة كريمة، تليق بمثلها، خصوصاً أنَّ تجلّدها ووقارها كانا يحبسان آلامها عن الظهور، فأمر أن تُنحى جانباً عن السبايا، وأن يوضع عليها رداؤه، فكان ذلك إعلاناً من الرسول بأنه اصطفاها لنفسه.

ولم يبقَ أمام المسلمين إلَّا اقتحام حصنَيْ الوطيح والسلالم، فضربوا عليهما حصاراً قويّاً، وهمّوا بعد ثلاثة أيام من الحصار أن

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٧؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٥١.

يقذفوا عليهما بالمنجنيق؛ فلمّا رأى يهود خيبر أنَّ سلاحهم الذي بقي بين أيديهم قد قارب على النفاد، وأبطالهم وقادتهم، الذين كان يُعوّلُ عليهم، قد تهاوَوْا واحداً إثر آخر، وأن بقاءهم على تلك الحال إنما يعني هلاكهم وقَطْعَ دابرهم نهائياً.. حيال هذا الواقع، ولمّا لم يعد بيدهم حيلة، رضخوا وطلبوا الاستسلام. وخرج نفرٌ منهم يحملون رايةً بيضاء، ويطلبون من رسول الله ﷺ الصلح على أن يحقن دماءَ المقاتلين منهم، وأن يترك لهم الذرية، وعلى أن يخرجوا من خيبر، ويخلّوا وراءهم كل ما لهم من أرضٍ وزروع، وما عندهم من أموال وأسلحة وخيول.

وقبل رسولُ الله بهذا الصلح لأنَّ مقصده الأول والأخير من غزو خيبر إنما كان لقطع دابر الفتن، والقضاء على مكامن المؤامرات التي كان يحيكها اليهود ضده، وضدَّ الدعوة. وها قد أظفره الله تعالى بهذه الفئة الباغية، التي أنكرت تعاليم التوراة، فأرادت القضاء على الإسلام ـ خلافاً لتعاليم كتابهم ـ فأنفذ معهم الصلحَ مشترطاً ألَّا يكتموه شيئاً ولا يغيّبوا شيئاً وإلَّا فلا ذمةَ لهم ولا عهدَ[1]. أجل لقد قبل رسولُ الله بالصلح لأنه نبيُّ الرحمة، وقد أعانهُ ربُّه تعالى على دفع كيدِ تلك الفئة اليهودية عن المسلمين، التي لم يقاتلها ـ في الأَصل ـ إلَّا للقضاء على ضلالها، وبغيها، وما كانت تمثّل من شرٍّ مستطير على الناس أجمعين....

وبفتح حصون خيبر واستسلام اليهود انتهى عهدهم وما كان لهم من سلطان سياسي، ومن قوة مادية سواءٌ في المدينة أو في بلاد خيبر..

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٧.

. . وبات على اليهود التهيؤ للرحيل عن أرض الجزيرة كما طلبوا هم في صلحهم. . ولكنهم، وبعدما عزموا على الخروج، عادوا يستعطفون الرسولَ بالسماح لهم بالبقاء، على أن يقوموا على الأرض مقابل نصف الثمار. فوافقهم على ذلك، ولكنه حذّرهم ونبّههم إلى أنه إذا شاءَ أن يخرجهم خرجوا. . فقبلوا مرغمين. . أما موافقة رسول الله على إبقائهم في أرضٍ صارت فيْئاً للمسلمين، فإنَّما كانت من أجل الدعوة ليس إلَّا، إذ إنَّ عدم طرد اليهود، بعدما قطعوا عهداً بالمسالمة، من شأنه أن يُبقي على أراضي خيبر مصدراً للخيرات، يفيد منها المسلمون، بقدر ما يفيد منها اليهود، بما توفّره الثمارُ والزروع من مداخيلَ هم بأمسّ الحاجة إليها فضلاً عمَّا يتيحُ عدمَ انشغالِ المسلمين بالأرض وخيراتها، من مجال لبقائهم مجنّدين، من أجل الدفاع عن حقوقهم، ولاسيما حقهم في العمل على نشر الدعوةِ، وإيصالها للناس. .

وأما اشتراط الرسول الأعظم على اليهود إخراجهم متى شاء، فكان من أجل ردعهم عن التآمر، وإبعادهم عن المكائد. لأنه وإن كان قد أمِنَ بأسهم بسقوط خيبر، واطمأن إلى أنه لن تكون لهم قوة مانعة بعدها، إلَّا أنهم لن يعدموا الوسيلة للغدر ونقض الصلح، ولن يتورّعوا عن سلوك شتى الطرق الملتوية، واستخدام مختلف الوسائل والأساليب التي تمكّنهم من الوصول إلى أغراضهم والنيل من كرامة الآخرين. فحتى لا يكون لهم سبيل إلى ذلك، ولكيلا تسوِّل لهم أنفسهم معاودة التآمر ـ ما داموا هم الذين طلبوا عدم الخروج ـ من أجل ذلك كله كان شرطُ رسول الله ﷺ الذي اشترطه، سيفاً مصلتاً فوق رؤوسهم، يهددهم دائماً بالتشريد النهائي من جزيرة العرب إن قاموا بما يبرّر ذلك.

وكان بين الغنائم التي أحرزها المسلمون في حصون خيبر، صحائفُ مقدسةٌ من التوراة[1]. فلما رأى اليهود معاملة النبيّ ﷺ الحسنة لهم، زادَهم ذلك طمعاً به، فطلبوا أن يعيد لهم تلك الصحائف، التي حملها بنو النضير معهم يوم أن أُخرجوا من المدينة، وكان من بينها صحف تحتوي على وصية موسى عليه السلام لبني إسرائيل من بعده، فأمر الرسول الكريم بردِّ تلك الصحائف إليهم. وهذا يدل على ما كانت لهذه الصحائف في نفس رسول الله ﷺ من المكانة العالية.. الأمر الذي جعل اليهود يشيرون إليه ﷺ بالبنان ويحفظون له ذاك الجميل، حيث لم يتعرض لصحفهم المقدسة بشيء.. ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ميلادية، إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم. أو ما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة. بل ويتذكَّرون ما فعله بختنصر من قبل حين قتل اليهود وأسر الرجال والنساء والأطفال، وهدم الهيكل وأحرق ودمَّر.. وها هُمُ الآن يرَون البَون الشاسع بين أولئك الفاتحين، وبين رسول الإسلام (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، لِمَا يجدون في تعامله معهم من رحمةٍ ولطفٍ، وخُلقٍ سمحٍ رفيع..

ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من تسوية الأمور في خيبر، بعث إلى أهل فدك ـ وهي قرية يهودية إلى الشمال من خيبر، وبها قوم من بني مرة، وقوم من بني سعد بن بكر ـ أن يدخلوا في الإسلام أو يسلِّموا

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص٣٧٧.

أموالهم. فقذف اللَّهُ الرعبَ في قلوبهم، وبعثوا إلى رسولَ الله ﷺ يصالحونه على ما صالح عليه أهل خيبر، أي على نصف أموالهم من غير قتال. وبذلك كانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنه لم يوجف عليها بخيل أو ركاب، بخلاف خيبر التي أصبحت فيئاً بين المسلمين، لما جاهدوا في سبيل الله تعالى، حتى أمكنهم فتحها بالقوة. ولذلك فقد قسَّمَ رسولُ الله ﷺ غنائمها بين المسلمين، بعد أن خمَّسَها، فأعطى الراجل سهماً، والفارس ثلاثة أسهم ـ له سهم ولفرسه سهمان [1] ـ كي يحثَّ المسلمين على اقتناء الخيول، والاعتناء بها لتكون أداة مفيدة ومساعِدَةً لهم في حروبهم مع المشركين والأعداء. ثم أعطى من خُمسِهِ ما أراه الله تعالى لذوي القربى من الأهل، رجالًا ونساءً، كما أعطى للسائل واليتيم وابن السبيل. وكذلك أعطى شيئاً من تلك الغنائم لبعض النسوة والموالي ممن شهدوا خيبر، دون أن يسهم لهم، واستبقى فدكاً لنفسه ـ كما قُلنا ـ لأنها مما أفاء الله تعالى عليه بلا قتال..

لقد كانت مغانم خيبر كثيرة زادت على كل المغانم التي كسبها المسلمون حتى ذلك الوقت. وقد قدّر عبد اللّه بن رواحة الذي أقامه رسولُ الله ﷺ وكيلًا على بلاد خيبر، ليقسم الغلال كلَّ عام، أنَّ ما في خيبر من تَمْرٍ فقط بلغ حوالى أربعين ألف وَسَقْ (والوسق حمْل بعير)، هذا من التمور.. عدا المتاع الكثير ومختلف أنواع الغلال والمؤن والأموال.. وبذلك جرى تقسيم تلك المغانم على المسلمين ممن شهدوا الحديبية وخيبر معاً، تطبيقاً لأمر رسول الله ﷺ، إذ دعا

(١) انظر زاد المعاد، ج٢ ص١٩٩ و٢٠٠ وص٢٠٥ عن سنن أبي داود.

للخروج إلى غزوها من كانوا معه في الحديبية، إلَّا من شاءَ أن يخرج غازياً متطوعاً فلا يكون له سهم في الغنائم. ولكنه ـ وهو نبيُّ الرحمة ـ قد أعطى منها كلَّ من وجده بحاجة، أو كانت أحوالُه تستدعي عطاءه.. ومن هؤلاء الذين برَّهم النبيُّ ﷺ، المهاجرون إلى الحبشة. إذ كان قبل خروجه إلى خيبر قد أرسل كتاباً إلى النجاشي، يطلب فيه أن يبعث المهاجرين من المسلمين، فوصَلَ هؤلاء ـ بصحبة جعفر بن أبي طالب ـ المدينة، ثم لحقوا بالرسولِ إلى خيبر، بعد أن كان النصرُ قد تمَّ للمسلمين. فاستقبلهم ﷺ مسروراً ولاسيما بقدوم جعفر، فقال له: «واللّهِ ما أدري بأيهما أَنا أُسَرُّ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»[1]. وقسمَ لهؤلاء المهاجرين من الغنائم ما أراه الله سبحانه وتعالى..

وللتدليل على مغانم خيبر الوفيرة، نوردُ قصةَ أحد المجاهدين، الذي كان قد تزوج من إحدى النساء على سنة الله ورسوله، وعلى ما اتفقا عليه من رضى وقبول، ومهر مقدَّم ومؤخر. حتى إذا أتاه الأجل أوصى هذا الرجلُ قائلًا: «لقد زوجني رسول الله ﷺ من امرأتي، ولم أُعْطِها في حينه شيئاً، وإني أَشهد أنني أعطيتها صداقَها سهمي بخيبر»، فلما أرادت أرملته أن تبيع ذلك السهم، بلغ ثمنُهُ ـ يومئذٍ ـ مئةَ ألفِ درهم.

وهكذا كان في فتح خيبر خيرٌ كثيرٌ أفاضَهُ الله (تعالى) على المسلمين ـ كما دلّت عليه قصة الأرملة التي باعت سهماً واحداً من فَيْءِ تلك البلاد بمئة ألف درهم ـ ونعمةٌ كريمةٌ منَّ بها سبحانه على

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٠٠؛ وأخرجه الحاكم في المستدرك، ج٤ ص٢١١.

جنوده المخلصين، لتبقى نفوسهم متوثبة دوماً لنصرة دينه العزيز، فلا يشغلهم الكسب والمعاش وغيرهما من ضرورات الحياة ـ ولو بالحدّ الأدنى ـ عن الدعوة التي ما تزال بحاجة إلى من يذود عنها، ويحمل لواءها، حتى إذا تحققت لها عوامل النجاح والاستقرار أمكن لأولئك المسلمين الأوائل، متابعة شؤون حياتهم، والالتفاتُ إلى الكسب والرزق الحلال، وفقاً لسنَّة الله ـ تبارك وتعالى ـ في تسيير الإنسان كي يعمر الأرض.

. . . وكان رسولُ الله لا يزال مقيماً في خيبر يرتّب شؤونها، ويبعث برسُلِه إلى اليهود من حولها، عندما أتته هديةُ زينب بنت الحارث، زوجة سلَّام بن مشكم، بعد فراقه صفية بنت حيي، وكانت تلك الهدية شاةً مشويةً أرادت أن تخصَّ بها النبيَّ، فجلس ومِنْ حولِهِ أصحابُهُ ليأكلوا. . ولكن، ما إن تناول ﷺ قطعةً من ذراع الشاة، ولاك منها حتى لفظها، لأنه لم يُسغ طعمها، وأحسَّ منها رائحةً غير مقبولة، بخلاف بشر بن البراء بن معرور[1]، الذي ازدرد سريعاً ما تناوله من الشاة وأكله. . فأمر ﷺ الصحابةَ ألَّا يتناولوا شيئاً، وقال لهم: «إن هذا العظم يخبرني بأنه مسموم». ثم دعا إليه صاحبة الهدية يسألها عمَّا وضعت في الشاة. . فلم تُنكر تلك المرأة أنها وضعت فيها

(١) صحابيٌ من أشراف الأنصار، شهد العقبة مع أبيه البراء الذي كان أحد النقباء، وقد توفي أبوه قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بشهر، فلما قدمها ﷺ انطلق بأصحابه إلى قبره، فصلَّى عليه، وقال: «اللهم اغفر له وارحمه وارض عنه»، وقد سار بشر على نهج أبيه في الإخلاص لإسلامه، فشهد بدراً وأحداً والخندق، ومات مسموماً بخيبر بعد فتحها سنة سبع من الهجرة، ومن فضائل بشر (رحمه الله) أنه كان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٥١٩ ـ ٥٢٣).

السمَّ، بل اعترفت بجريمتها وقالت: لقد سألتُ عن أي عضوٍ من الشاة أحب إليك، فقيل لي: الذراع، فأكثرت فيه من السم، ثم جعلته في سائر الشاة.

وسألها رسول الله ﷺ: «ما حملكِ على ذلك يا امرأة؟».

قالت: بلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك. فقلتُ: إن كان كاذباً أو ملكاً استرحنا منه، وإن كان نبيّاً فَسَيُخْبَر أو لم يَضُرَّه.

وسواء أكانت تلك المرأة صادقة فيما قالت أم احتجَّت به حتى تخفّف من عقوبة جريمتها، فإنَّ الجريمة قد وقعت ومات بشر بن البراء بسبب السم. ولكنَّ رسول الله رأى ألَّا يقتلها به، تجاوزاً عنها، وأنفةً من قتل النساء. وذلك أخذاً بالحسبان لما لديها من دوافع للغدر به، إذ كانت امرأةً موتورة، قد قُتِلَ أبوها وزوجها، وأُخْضِعَ بنو قومها. وفي ذلك ما يكفي لملء قلبها بالحقد، والتفكير بتدبير الحيلة الخبيثة التي تقتل فيها محمداً ﷺ، فجاءت هذه الدوافع لتعفيها من عقوبة الإعدام، تعبيراً عن معرفة رسول الهدى بالنفس الإنسانية، وما تبلغ به حكمته من مراعاة مشاعر الإنسان على أيّةِ حالةٍ وُجد فيها هذا المخلوق الضعيف..

فماذا يريد اليهود بعد هذا التسامح الكريم من رسول الإسلام؟!

لقد حرص ﷺ على أن يقيم معهم العلاقات الطيبة، لأنهم أهل كتاب، وقد وجدوا في كتبهم ما يدلُّ عليه بصفاته، ويبشّر بنبوّته.. إلَّا أنَّهم بدلَ أن يؤمنوا به ـ أو يصدّقوه على الأقل ـ شهروا له العداوة، وأعلنوا الحرب على دعوته.. ثم نقضوا المواثيق والعهود التي عاهدهم عليها أماناً لهم في ديارهم وأموالهم. وبدل أن يحفظوا عهوده

تلك، راحوا يتآمرون على قتله، بل لقد توغّل اليهود في عداوتهم إلى أن صاروا يشكلون خطراً مستفحلًا على الإسلام، وحتى صار من الضرورة ـ وفاءً لعهد الله تعالى بحمل الدعوة ـ كسرُ شوكتهم وإزالةُ نفوذهم السياسي والاقتصادي والعسكري. فلمّا غزاهم الرسول وهزمَهم شرَّ هزيمة في آخر معاقلهم في خيبر، عادَ يصالحهم على البقاء في أرضهم. وفوق هذا كله، فإنَّ الذي يُفاخَر به من نبلِ نبي الإسلام محمد ﷺ وأخلاقه أمران: أنه لم يَحرمهم من تراث تاريخيٍّ هامٍّ لهم (بعض صحائف التوراة)، وأنه لم يقتل تلك المرأة الخبيثة التي أرادت أن تقضي عليه بالسم، بل نظر إليها بعين التسامح والعفو.. فهل يطلب اليهود أكثر من ذلك؟.

نعم طلبوا! إذ على الرغم من الضعف والهزيمة، جاؤوا بعد الصلح يشكون إليه أن بعضاً من المسلمين يقع في حرمهم. فما كان منه ﷺ إلَّا أن جمع المسلمين وخطبهم، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: «يا معشر المسلمين. إن بني يهود شكَوا إليَّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمَّنّاهم على دمائهم وأموالهم التي بين أيديهم، وعاملناهم على أراضيهم. وإنه لا يحل أموال المعاهدين إلَّا بحقها»... فكان المسلمون بعدها لا يأخذون من بقولهم أو زروعهم أو ثمراتهم شيئاً إلَّا بثمن[1].

(١) وحتى بعد فتح خيبر ورجوع المسلمين إلى المدينة، كان اليهود يبدون الاعتراض دوماً، مع أنهم كانوا لا يجدون إلَّا برّاً بهم ورحمة. فعندما كان عبد اللّه بن رواحة يذهب لتقسيم الغلال والثمار كانوا يقولون له: «لقد جُرْتَ علينا»، فلا يكون منه ـ وهو القيّم على استيفاء حقِّ المسلمين كاملًا ـ إلَّا أن يخيِّرهم: «إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا».. فلا يكون جوابهم إلَّا قولهم: «بهذا قامت السموات والأرض».

وهكذا كانت معاملات الفاتح الرحيم محمد بن عبد اللّه ﷺ لبني اليهود. ولا نظن أن فاتحاً غيره في التاريخ كانت له مع الشعوب التي أَخْضَعها، والبلدان التي احتلها نفس المعاملة. ولقد كان حريّاً باليهود بعد تلك المعاملة أن يرجعوا إلى تعاليم التوراة، فيصدِّقوا محمداً ويتخذوا الإِسلام ديناً، ولكنهم ظلُّوا مكابرين، معاندين:

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

.. وأخيراً انتهى رسولُ الله ﷺ من تثبيت الأمور في خيبر، واطمأنَّ إلى رضوخ أهل فدك، فأذّن مؤذنُهُ بالانصراف بعد أن عزم أن تكون عودته للمدينة عن طريق وادي القرى، وهو الوادي الذي تتوزع فيه قرى صغيرة عديدة، تسكنها جماعات من اليهود، تقوم حياتها على الزراعة لما فيها من تربةٍ خصبةٍ، وعيون وآبار في تلك الأراضي الواقعة ما بين خيبر وتيماء.. ونزل الرسول بالجيش الإِسلامي قريباً من وادي القرى، وبعث إلى أهلها يدعوهم إلى الإِسلام، فأبوْا وتجهزوا للقتال، فما كان من الرسول إلَّا أنْ أمر بمحاصرتهم وتضييق الخناق عليهم، فجرت مبارزات ورمي بالنبل طيلة ثلاثة أيام قتل خلالها منهم أحد عشر رجلًا، فأعطوا ما بأيديهم من سلاح ثم فتحها المسلمون وأغنمهم الله أموالهم ومتاعاً كثيراً[2].. وعلى الرغم من أنَّ «وادي القرى» كانت فيئاً، إلَّا أن رسولَ الله، عادَ وأنفذ، خلال إقامته فيها، صلحاً مع أهلها، بنفس الروحية من الرحمة والشفقة التي عامل فيها يهود خيبر.. وعندما رأى أهلُ تيماء أنه لم يبقَ غيرُهم من اليهود،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٢١١.

وأنه لا قِبَلَ لهم بمواجهة المسلمين وقتالهم، بعثوا إلى النبيِّ يطلبون الصلح دون أي قتال، فوافقهم عليه وكتب لهم كتاباً بذلك، ونصه: «هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديا، إنَّ لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد»[1].

وبذلك سقطت بلاد اليهود، وانتهى كلُّ ما كان لهم من نفوذ في جزيرة العرب. وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما أمنوا بعد صلح الحديبية من ناحية الجنوب إلى اليمن.

وإذا كانت كل مظاهر القتال قد هدأت من حول المدينة، فإنَّ سُعُرَ المعركة كان ما يزال يحتدم هناك في نفوس قريش، ولذلك نجد رجالها ـ ومنذ خروج المسلمين لغزو خيبر ـ ينقسمون إلى فريقين، ويقفون في جانبين: جانب يرى في قوة اليهود، وكثرة عددهم وعدتهم، وفي محالفة غطفان وما انضاف إليهم من الأعراب، عوامل تؤمّن لهم الغلبة، فيقول: «تظهر يهود وحلفاؤها»، وجانب يأخذ عبرةً من ماضي المسلمين وما يتميزون به من إيمانٍ قويٍّ بالدين الذي اعتنقوه، فيرى في هذا الإيمان، وما يمنحه لهم من عزم في القتال، ووحدة في الصف وتماسك في الشدة، واستهانة بالموت في سبيل عقيدتهم.. أجل كان الفريق الآخر يرى في ذلك كله الدليل الكفيل بتحقيق نصرهم، فيقول: «يظهر محمد وأصحابه»[2].

وكان كل فريق في قريش يأمل في كسب الرهان، فظلوا في ترقب، محاولين استطلاع غزو خيبر، حتى قدم عليهم الحجاج بن عِلاط السُّلمي.

---

(١) الرحيق المختوم، ص٣٤٦، عن ابن سعد.

(٢) انظر زاد المعاد، ج٢ ص٢٠٢.

وكان الحجّاج حديثَ عهد في الإسلام ـ فلم يعرف بأمره أهلُ مكة ـ وقد شهد خيبر مع إخوانه المسلمين. فلمَّا أتمَّ الله سبحانه وتعالى لهم فتحها، أتى النبيَّ ﷺ يستأذنه في الذهاب إلى مكة، قائلًا:

«يا رسول الله، إنَّ لي بمكة مالًا أودعته زوجتي أم شيبة بنت أبي طلحة (أخت بني عبد الدار بن قصي)، وديوناً متفرقة عند التجار هناك، وقد جئت أستأذنك بالذهاب إلى مكة لاسترداد مالي.. فإن أذنتَ لي يا رسول الله، فلا بدَّ لي أن أقول[1]».. أَذن له النبيُّ بذلك، قائلًا: «قل..».

وذهب الحجاج حتى إذا قدم مكة، وجد عند أحد مداخلها ـ بثنيّةِ البيضاء ـ رجالًا من قريش يتسقَّطون الأخبارَ، ويسألون عن «محمدٍ» وأصحابه ماذا فعلوا بخيبر؟!..

فقال لهم بدهاء: هُزِمَ هزيمةً لم تسمعوا بمثلها قطُّ، وقُتِلَ أصحابُه شرَّ مقتل، وهو الآن أسيرٌ بين يَدَيْ عدوه، يقولون: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيثأرون منه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم[2]...

وما يلفت في ذكاء الحجاج أنه لم يذكر ـ في كل مقالته وحديثه ـ اسم محمد أو النبيَّ، بل جلُّ قوله كان إخباراً عاماً عن غزوٍ وهزيمة!.. ولكنَّ رجال قريش أُخذوا بوقع الخبر، فأطار صوابهم، وراحوا يركضون نحو منازل مكة وهم يصيحون، ويصرخون: «يا

---

(١) وكان قصدُهُ أن يواربَ في الحديث، ويحابي في الحقيقة حتى يأمَنَ قريشاً على نفسه، ويكونَ له سبيل لجمع ماله.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٦٠.

معشر قريش! يا معشر قريش! قد جاءكم الخبر. وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدَم به عليكم فيُقتل بين أظهركم»[1].

وإنْ هي إلَّا تلك الصيحات، وخرجت مكة بأسرها إلى الساحات فمُلئت بالحاقدين، وإلى الأزقّة فعجّت بالموتورين، وكلهم يزغردون بالفرح، ويهزجون بالنشوة! إنه منتهى الأمل الذي يصبون إليه. وهل إلَّا هزيمة «محمد» هي وحدها ذلك الأمل، فلِمَ لا يفرحون، ولِمَ لا ينتشون؟!..

وعمَّ الابتهاج أنحاء مكة فرقص أهلُها وغنَّوْا.. وتناسى أصحاب الرهان ما تراهنوا عليه: فأمَّا من كان يقول بأن «محمداً» سينتصر، فلم يعد يهمه الآن ـ وقد بلغته هزيمته ـ أن يخسر، لأنه على استعداد لأن يدفع أضعافاً مضاعفة في ذلك الرهان، طالما أنَّ «عدوَّه اللدود» قد هُزم.. وأمَّا من كان يقول بأن الغلبة ستكون لليهود فلا يعبأ برهان يأخذه طالما أن الخبرَ عنده أهم من أي مالٍ!..

هكذا سيطرت عليهم الأوهام، فطابوا بها نفساً.. وأقبلوا على الحجاج، وهو من زفَّ لهم البشرى، يريدون أن يولموا له الولائم، ويقيموا له المآدب.. ولم يُبد الحجاج بن علاط أية ممانعة، إلَّا أنه رجاهم التريث في الأمر، وهو يتذرع بقوله:

يا قوم! إن أردتم تكريمي فأعينوني على جمع مالي بمكة من غرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فلِّ محمدٍ[2] وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هنالك.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

(٢) الفلّ: ما بقي من أثر، أي ما تبقى مما أخذ منه، أو: القوم المنهزمون.

وانطلت، بالفعل، على قريش حيلةُ الحجاج، فراحوا يعينونه على جمع ماله بكل طيب خاطر، وكذلك أُخِذَتْ زوجُهُ على حين غِرَّة، حينما قال لها: «يا أم شيبة، اجمعي ما كان لي عندك من مالٍ، فإني أريد أن أشتري من غنائم «محمد» وأصحابه ما قد أُحرِزُ به أرباحاً وفيرة!..» فانطلت عليها حيلته، وأعطته كلَّ ما كانت تحفظه له.. وكان العباس بن عبد المطلب لمَّا سمعَ الخبر، قد أخذهُ مثلُ الوجوم، فانزوى في بيته ساكناً، ولكنَّ نفسه لم تطاوعه على القعود أكثر ممَّا قعد، فهبَّ يبحث عن الحجاج حتى وجده في خيمة أحد التجار، فأومأ إليه هذا بطرف عينه، ثم أسرَّ إليه أن يستأخر عنه حتى يفرغ، فحفظها العباس في نفسه، إلى أن خلا به، فقال له الحجاج: احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل ثلاث ليال، فإني أخشى أن يطلبوني، ثم قل ما شئت. قال العباس: أفعلُ. قال الحجاج: فإنّي واللَّهِ لقد تركتُ خيبرَ بعد أن افتتحها رسول الله ﷺ وغنم أموال اليهود، وقد اصطفى صفية بنت حييّ بن أخطب لنفسه، وقد أسلمت، وما جئتُ إلَّا لأخذ مالي، ولو عرفتْ زوجي وأهلُها، وتجارُ مكة بإسلامي، فلا مال لي... فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك فهو واللَّهِ على ما تحبّ[1].

وانتظر العباس بفارغ من الصبر.. ثم خرج في اليوم الثالث ـ كما وَعَدَ الحجّاجَ ـ في أجمل حلة لديه، وقد تطيّب بالعطر، وحمل عصاه حتى أتى الكعبة طائفاً.. ورأته قريش على تلك الحال، فظنت أنه يموّه بفعله، كي يخفف من وقع المصيبة على نفسه، ويُذهب عنه بعض الحزنِ لهزيمة ابن أخيه محمد، فجاؤوا يقولون له: «يا أبا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٣٦١.

الفضل، هذا والله التجلّد لِحَرِّ المصيبة». فما كان من العباس إلَّا أن ابتسم وقال:

«كلا، والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبراً، وتُرك عريساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه»[1].

قالوا متعجبين: «هراء!.. ومن أتاك بهذا الخبر الكاذب؟»!.

فقال لهم العباس: الذي جاءكم بخبركم.. فلقد دخل عليكم مُسْلماً، فأخذ ماله وانطلق، هازئاً بكم، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معهم..

قالوا مغضبين: يا لعباد الله!!.. لقد سخر بنا عدو الله، وقدر على أن يستغفلنا؟.. أَمَا والله لو عَلِمْنا، لكان لنا وإياه شأن..

وهمدت قريش مكظومة، حتى أن كثيرين لم يريدوا أن يصدِّقوا ما قاله العباس، واعتبروه إيهاماً لهم.. ولكنَّهم لم يلبثوا إلَّا قليلًا حتى جاءهم الخبر اليقين. فقد توافد القادمون إلى مكة من جهات كثيرة، وكلُّهم يؤكد خبرَ العباس بن عبد المطلب، مما لا يدع مجالًا للشك عند قريش بنصر «محمد» على بلاد خيبر، فقعدت ملومة، محزونة، مقهورة.

لا، لم تكن قريش لتتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة، وهي على ما هي عليه من التحصين والمنعة. ولم تكن لتعتقد بأن محمداً قد بلغ وأصحابه هذا الحد من القوة. فَنَصْرُهُ قد أذهلها حقاً، وجعل أفراحها أحزاناً، وابتهاجها كآبة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

وتفكَّر رؤوس الشرك بالأمر: فهؤلاء اليهود عندهم ما ينوف على عشرة آلاف مقاتلٍ مدرّبين على أشد فنون القتال وضروبه. ولهم حصون كبيرة، منيعة، ملئت بآلات الحرب على اختلافها، وبالمؤن الوفيرة على تنوعها. ولا يتوقع لهم هزيمة في القتال، ومع ذلك فقد هزموا شر هزيمة، ولكن لماذا؟ وماذا فعل اليهود حتى آلت حالهم إلى هذا النحو؟!..

قد يشفع للمشركين مثل هذا التفكير طبقاً للواقع الذي كانت عليه حياة اليهود في خيبر من جميع الجوانب.. ولكنهم تناسَوْا أن العنصر الأهم، الذي قادَ المسلمين إلى النصر، هو ما كانوا يحملون في جوارحهم من بأس وعزيمة أقوى من كل الحصون، وأمنع من جميع المعاقل. فهم عندما جاؤوا لغزو خيبر لم يكن عددهم يزيد على ألفٍ وستمئة مقاتل[1]، ولم يحملوا معهم من آلات الحرب إلَّا السيوف والرماح والقِسِيَّ والنبال، ولكنّهم بفعل إيمانهم القوي، استطاعوا أن يحققوا النصرَ على الشعب الذي استبدّت به روح الغرور، وطغى عليه عنفوان الغطرسة، حتى ظَنَّ بنوه أنهم هم الأقوى و﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾[2]، بعدما قذف في قلوبهم الرعبَ وزلزل كيانهم، فكانوا فِرقاً أشتاتاً.

هذا النصرُ ـ الرَّباني، بحسب اعتقاد المسلمين ـ هو ما أذهل قريشاً، فكان حريّاً بها أن تدهش بعد أن تحققت خبره. وقد بُهرت مثلَها، على كل حال، قبائلُ العرب وجموعُهم، فقالوا متعجِّبين: «خيبر تسقط؟!»..

---

(١) ففي رواية جابر وأهل المغازي أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة (انظر: زاد المعاد، ج٢ ص١٩٩).
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

ولشد ما كانت الحيرة تأخذهم، وهم يرددون: «وتذعن اليهود في شتى ديارهم، وفي سائر أماكن تواجدهم: في فدك وتيماء مستسلمين بلا قتال، وينهارُ وادي القرى في بضعة أيام... إنه حقاً لَلْعَجبُ العجاب؟!»..

نعم لقد أَخَذَ هذا النصرُ ـ من رب العالمين ـ بألباب الناس، وجعلهم يُقِرُّون بأنه بات للمسلمين قوةٌ يُخشى معها بأسهم، وشدةٌ يُرهبُ بها سلطانهم، وأنهم لا يقيمون للكثرة وزناً، ولا للحصون حساباً، بل إن أيديهم تضرب بسرعة مذهلة، وإلى أماكن بعيدة، فلا يقف بوجههم حائل، ولا يَعوق تقدمَهم مانع..

ولذلك صار على قريش، بعد الذهول والانبهار اللذين أطارا صوابها، أن تستفيق لتدرك الحقيقة، وهي أن حلفاءها من بني يهود، وشركاءها ـ من القبائل ـ في العداوة للإسلام، قد زال كلُّ ما لهم من نفوذ في أقاليم الحجاز، وأنها بقيت وحدها في الميدان، فماذا يمكنها أن تفعل حيال هذا الواقع المرير؟. إنها لن تقدر بعد اليوم على البقاء في الصلافة والغطرسة، بعد أن وجدت نفسها، حيال قوة المسلمين، ملويةَ العنق، وطيئةَ الجبين. لقد فاتتها الحيلة بالمقاومة، وبعدت عنها الطريق إلى القرار، فلا ترى إلَّا الاستسلام للأمر الواقع، والمكوث في ديارها منتظرة ما قد يدهمها به غدها من أحداث...

تلك كانت الآثار التي خلّفتها غزوة خيبر على المكابرين والمشركين.

أما بالنسبة للمسلمين فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، إذ جاءت النتائج عظيمةً ومشجِّعة للغاية.

فإلى جانب النصر وما ينطوي عليه من تعزيز الثقة بالنفس، كان ذلك الفيءُ الكبير من المغانم التي أذهبت عنهم الفقر والحاجة إلى حد بعيد. ولكن الأهم من ذلك كله شعورهم الجديد، وهو أنّ السير بالدعوة على الدروب التي من شأنها أن تمهّد لانتشارها داخل جزيرة العرب وخارجها، قد أخذ يشق طريقه إلى النفوس والقلوب.

ولم تستغرق غزوة خيبر وما جاورها من بلاد اليهود إلَّا نحواً من شهر ونصف الشهر، فقد ذهب إليها النبيُّ ﷺ في أوائل المحرم من السنة السابعة للهجرة ورجع منها ظافراً في النصف الثاني من صفر.

زواج النبي ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب

وسبق لرسول الله ﷺ أَنْ أَكْرَمَ من السبايا صفية بنت حييّ بن أخطب، سليلة البيت النبوي، إذ رفع عنها السبيَ وأعتقها، وترك لها حرية الاختيار ما بين الإسلام فيتزوجها، أو اليهودية فتبقى في بني قومها.. فاختارت صفية الحقَّ الذي ملأ نفسها، وقالت للنبيِّ ﷺ بلهجة المؤمنة الواثقة: «يا رسول الله! لقد آمنت بالإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، وما بي في اليهودية إرب، وما لي فيها والدٌ ولا أخٌ. وقد خيَّرتني بين الكفر والإسلام. فاللّهُ ورسولُهُ أحبُّ إليَّ من العتق وأن أرجع إلى قومي.. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

ودخلت صفية في الإسلام طائعة، مختارة، فعقد عليها النبيُّ ﷺ قرانَهُ، ولكنه لم يُعرّس بها على الفور، لانشغاله في ترتيب الشؤون العامة، ولكي يترك لها فترة من شأنها أن تُذهِبَ عنها الحزن والأسى، لما حلَّ بها من نكبات ومصائب. ولمّا كان في طريق العودة

إلى المدينة، ونزل العسكر في مكان يقال له «تبار»، على بعد ستة أميال من خيبر، مالَ ﷺ يريد أن يعرّس بها، فرآها لا تزال في جوٍّ ذكرى المواقع والحروب والقتلى، فتركها. ولما بلغ المكان المسمى «الصهباء» توقف الجيشُ ليأخذ قسطاً من الراحة، وأقبلت صفية، تبدي استعدادها وتهيؤها للعرس، فطلب النبي ﷺ من أم سليم بنت ملحان ـ والدة أنس بن مالك ـ أن تقوم على تهيئتها. وقال لها ولمن كان معها من نساء: «عليكنَّ بصاحبتكنَّ فأمشطنها».

ولاحظ الرسول ﷺ عندما أُدخلت عليه عروسه في خيمته، آثار كدمة قرب عينيها، فلما سألها عنها، تنهدت طويلًا وقالت: يا رسول الله، إني رأيت في المنام ليلة زواجي من كنانة بن الربيع وكأنَّ قمراً أقبل من يثرب حتى وقع في حجري. وفي الصباح أفقت وما زال الحلم في مخيلتي لا يفارقني، ترتسم صورته أمام ناظريَّ، فأحسُّهُ وكأنه حقيقة راهنة أشهدها في اليقظة، مما أشعرني بالسعادة. ورجوت أن يشاركني زوجي هذه السعادة، فأقبلت أقصُّ عليه رؤياي في المنام، واللَّهِ ما ذكرت من شأنك شيئاً، فقال لي: «تمنين هذا الملك الذي بالمدينة» ثم راح يلطمني، وهذا الأثر على وجهي، كما ترى يا رسول الله.

وبعد أن طيَّب ﷺ خاطرها، ودعا لها بأن يعوّضها اللّهُ ـ سبحانَه ـ مَن هو خير من كنانة، عاد يسألها بتؤدة عما حملها على المحاذرة، وعدم الإعلان عن إسلامِها قبل تخييرها بين الزواج منه، أو الذهاب إلى بني قومها، فقالت بحزم: ما حبسني يا رسول الله إلا خشيتي عليك من دسّ أعدائك، وحقدهم الذي أعرفه عليك وعلى رسالتك. وأُثلج صدر رسول الله ﷺ بهذا الوفاء والنبل من إنسانةٍ

حكيمة مؤمنة، قد صدقت ما عاهدتْ عليه اللَّهَ ورسولَهُ، فحق لها أن تكون من أمهات المؤمنين الخيّرات.

وأَزِفَ موعدُ المسير، فأُذِّن في العسكر للعودة إلى المدينة، ليدخلها المؤمنون محفوفين بنصر الله تعالى ونعمائه.

وكان رسولُ الله ﷺ قد رأى ألَّا تقيم صفية مع إحدى زوجاته. فلما وصَلَ المدينة أنزلها في بيت أحد الصحابة، وهو حارثة بن النعمان[1]، حتى يبتني لها حجرة قرب المسجد، أسوة بنسائه الأخريات.

وانتشر خبرُ زواج النبيِّ ﷺ من السيدة صفية، بين نسوة المدينة جمعاء، لكثرة ما كان يتردّدُ على ألسنتهنَّ من الكلام حول جمالها وحسن أخلاقها وآدابها، فصرْنَ يتوافدن ويجلسن إلى أم المؤمنين صفية، فيجدن فعلًا أن الله سبحانه وتعالى قد وهَبَ هذه المرأة من حسن الخُلق، وجمال الخَلْق ما تستحق معه كل تقدير واحترام. وهذا ما أثار الغيرة في نفس أم المؤمنين عائشة، وجعلها تعزم على الذهاب لرؤيتها بنفسها. فخرجت من حجرتها متنقبة على حذر، إلَّا أنها لم تعلم بأن رسولَ الله كان يراقبها، ويدرك ما ترمي إليه، فلما عادت فاجأها بسؤالها: «كيف رأيتِ يا شُقَيراء؟».

---

(١) هو صحابي فاضل، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلَّها، وكان أبرَّ الناس بأمه، ومن مكرماته أنه كانت له منازل قربَ المسجد في المدينة، فكان كلَّما تزوج رسول ﷺ بامرأة تحوَّلَ له حارثة بن النعمان عن منزل بعد منزل حتى قال النبي ﷺ: «لقد استحيت من حارثة بن النعمان ممّا يتحول لنا عن منازله». وعن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأم حارثة بن النعمان: «إنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى» والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها (تفسير الترمذي: سورة المؤمنين) ـ انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٦١٢ ـ ٦١٣.

قالت، والغيرة ما تزال تستبدُّ بها: رأيت يهوديَّة!.

ولكنَّ النبيَّ نهاها عن ذلك، وقال لها: «لا تقولي ذلك فإنها أسلمتْ وحَسُنَ إسلامها»(١).

وفي الوقت الذي كان رسولُ الله ﷺ يُعِدُّ لعقيلة بني النضير ـ أم المؤمنين صفية ـ بيتها الزوجي، كان يُعِدُّ لبيتٍ زوجيٍّ نبويٍّ آخر، ليُدخِلَ فيه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، التي أرسل في طلبها من الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، بعد أن أوفده إلى النجاشي كي يعقد له قرانه عليها ويعود بها وبمن بقي في تلك البلاد من المهاجرين الأولين.. والسبب في ذلك أن أم حبيبة كانت قد تزوجت من قبل بعبيد الله بن جحش، وأقامت مع زوجها في مكة حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ نبيّاً، فآمنا به ودخلا في الإسلام، على الرغم من معارضة والدها أبي سفيان بن حرب، الذي كان يأتيها، ويزيّن لها ترك دينها وزوجها، وهو يقول: «ابنتي رملة، اتركي دينَ محمد بن عبد اللّه وتخلَّصي من هذا الصابىء عبيد اللّه، وأنا أكفل لك عزة العيش، وأجعل أسياد قريش يطلبون يدك»!.

ولكنَّ رملة لم تستجب لتوسلات أبيها، ولإغراءاته، ممّا

---

(١) كانت لأم المؤمنين صفية رعاية خاصة من النبي ﷺ بسبب غربتها، وكان يدافع عنها في كل مجال، ومن ذلك ما أخرج الترمذي أنه بلغها عن عائشة وحفصة كلام، فقال لها النبي ﷺ: «ألا قلت، وكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى» (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٨٠)، وروى أبو نعيم الأصفهاني (في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء): أن أم المؤمنين صفية رأت نفراً اجتمعوا على ذكر الله، وتلاوة القرآن، والسجود، فنادتهم رضي الله عنها «هذا السجود وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟» أي الخشوع لله تعالى، والبكاء من خشية الله عند ذكره وتلاوة قرآنه.

عرَّضها وزوجَها لظلمِ قريش واضطهادها. حتى إذا حاقَ بهما العذاب، مثل سائر المسلمين الذين طاولهم عذاب قريش وأذاها، هاجرا مع من هاجر إلى بلاد الحبشة..

وأقامت هذه المرأة المؤمنة مع زوجها عبيد اللّه بن جحش في ديار الهجرة على العهدِ من دِينها، إلى أن ارتدَّ زوجها عن الاسلام الذي من أجله قد هاجر، واعتنق النصرانية، دين أهل الحبشة في ذلكَ الوقت، فسعى أن يَرُدَّ زوجه رملة عن الإسلام أيضاً، إلَّا أنها أبتْ عليه ذلك، وخذلته شرَّ خذلان، فتفارقا كلٌّ في حال سبيله، لتعيش رملة مع طفلتها حبيبة، وحيدةً في تلك الديار، تذوق مُرَّ العزلة والفقر، وتلاقي من الصعاب ما يجعل أيامها تمتلئ بالهموم، ولياليها تثقل بالتعاسة..

وكان النبي ﷺ يتقصَّى أخبار المهاجرين، ويعرف ما تعاني منه أم حبيبة بسبب إيمانها، فما رأى ما يعوِّضها عن ذلك كله، إلَّا الزواج منها. ولما وصَلَ طلبه إلى ملك الحبشة بأن يخطبهَا له، أرسل النجاشي جارية له لتبلغها بالأمر، فدخلت عليها وقالت لها: «يا سيدتي، إن الملك يقول بأن نبيَّ العرب قد بعث إليه يخطبُك منه، فاختاري من تشائين ليكون وكيلًا عنك في هذا الزواج إن أردتِه»..

سبحانك يا رب!... أنت وحدك القادر على أن تغيِّر، بين لحظةٍ ولحظة، الأحوالَ والأقدار.. أنتَ الإلَهُ، وعينُك ساهرة على خَلْقك، فرحماك يا ربَّ الرحمة والنعمة..

لا، ليس بعدُ من رحمةٍ أوسعَ وأعظمَ لامرأةٍ مؤمنةٍ (أم حبيبة) من أن تنتقل من مآسي الوحدة، ومهانة الاغتراب، وذل الفقر إلى

أعلى المقامات وأرفع الدرجات، فتصير زوجاً للرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ. ولذلك كانت حقاً مفاجأة مذهلة لها. فلما استيقنت من البشرى، أقبلت على الجارية تخلع سوارَي الفضة الوحيدين لديها وتقدِّمُهما هدية لها. ثم لم تلبث أن أرسلت في طلب خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، أحد المهاجرين لتوكِّله بأمر تزويجها.. فبعث ملك الحبشة في طلب جعفر بن أبي طالب ليكون شاهداً على عقد التزويج.. وتمَّ العقد وأصدقَ النجاشي أم حبيبة أربعمئة دينار عن النبيِّ. ثم دعا إليه جميع المسلمين في الحبشة وأولم لهم وليمة الزواج قائلاً:

«اجلسوا وأولموا، فإن سنَّة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤْكل طعامٌ على التزويج».

وفي صبيحة اليوم التالي جاءت الجارية نفسها، وهي تحمل إلى أم حبيبة هدايا نساء الملك من عود الندِّ والعنبر الطيب. وقد رغبت أم المؤمنين أن تهدي إلى تلك الجارية خمسين ديناراً من صداقها، إلَّا أن الجارية رفضت أن تأخذها وقالت لها: إن الملك قد أجزل لي العطاء، وأمرني ألّا آخذ منك شيئاً، كما أمَرَ نساءه أن يبعثن إليك مما عندهن من طيب، وهو ما حملته إليك يا سيدتي.

وهكذا كانت عودة أم المؤمنين رملة من هجرتها إلى الحبشة، لتدخل بيتها بجوار النبيِّ ﷺ، الذي أرادَ أن يعوِّضها عما لاقته من كفر أبيها، زعيم قريش وقائد حربها.. وعما قاسته من مرارة الهجرة والغربة، فما رأى خيراً من أن يرفعَها إلى أعلى المراتب بين النساء، ويدخلها البيت النبويَّ، زوجةً عزيزةً، موفورة الكرامة، عليَّة المكانة،

أين منها مكانة أبيها، بل ومكانة سائر أشراف العالم وزعمائهم..

ولم تكن أجواء الطمأنينة تلك مقصورةً على آل رسول الله وحدهم، بل كانت تعمُّ المسلمين جميعاً، ما دام الرسول الأعظم يرعى شؤونهم كافةً بنفس الرعاية لأهل بيته، ولا سيما تلك الرعاية الدائمة على التثقيف بأمور دينهم وأحكامه، وترسيخ المفاهيم الإسلامية في مجتمعهم، المناهض لمجتمع الجاهلية وعاداتها..

وعاشَ المسلمون في تلك الأجواء الرحبة، ملتفِّين حول النبيِّ ﷺ متحابين، متآلفين، حتى لَيندر أن توجد وحدةٌ مثل وحدتهم، أو لُحمة مثل لُحمتهم عند أيٍّ من الأمم والشعوب الأخرى.. فكلُّهم على طريق واحد وإلى مصير واحد، وجميعهم يعملون من أجل هدف أعلى مشترك وهو إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، بلا تنافر أو تنابذ فيما بينهم، بل تنافس شريف على الإخلاص للدعوة، وتسابق على محبة الله ورسوله.. وإنّ في جدال عمر بن الخطاب وأسماء بنت عميس[1] (رضي الله عنهما) لأروعَ المثل على ذلك التسابق.. فقد جاءت أسماء مع زوجها جعفر بن أبي طالب ـ وكان من أحبّ الناس إلى قلب رسول الله ﷺ ـ مع من جاؤوا من مهاجري الحبشة في صحبة عمرو بن أمية الضمري على سفينتين أمَّنهم عليهما ملك الحبشة، ليقيموا مع الأهل والإخوان في المدينة بعد عناء الاغتراب والوحدة، وينعموا في ظلال الوحدة الإسلامية بأنفاس اللحمة المحمدية، وذلك على الرغم من تفرقهم في

(١) قال ابن سعد: أسلمت أسماء قبل دخول دار الأرقم، وبايعت ثم هاجرت مع زوجها جعفر إلى الحبشة فولدت له هناك: عبد الله ومحمداً وعوناً، ثم تزوجها أبو بكر بعد استشهاد جعفرَ في مؤتة (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٤٩٢).

الجاهلية إلى بطون مختلفة في الحسب والنسب.. لقد باتوا جميعاً مسلمين، وليس في مدينة رسول الله ﷺ إلَّا أجواء إسلامية، قوامها المحبة والتعاون، والألفة، والاجتماع على طاعة الله تعالى والوفاء للواجب.

وفي تلك الأجواء الطيبة، وفيما أسماء، زوج جعفر بن أبي طالب، في زيارة لحفصة ـ زوج رسول الله ـ إذ دخل عليهما أبوها عمر، وجلس يلاطفهما. وبعدما تشعب الحديث، أفلتت من عمر ملاطفةٌ ناعمةٌ عندما قال لأسماء: «الحبشية هذه، البحرية هذه؟»، يقصد أنها جاءت من الحبشة منقولةً مع المهاجرين على سفينة في البحر.

وردّت عليه أسماءُ، ملاطفة أيضاً، وهي تقول: «نعم!..».

فتابع عمر قائلًا: «سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله»!.

عندها نفرت أسماءُ وقالت: يا عمر! كلَّا واللَّهِ!.. لقد كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعم جائعكم، ويعظُ جاهلكم. وكنا في أرض البَعداء والبغضاء، وذلك في الله ـ تعالى ـ وفي رسوله. وأيم الله لا أُطعمُ طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نخالف ونؤذى، وسأذكر ذلك لرسول الله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك[1].

وقامت أسماءُ من فورها، وأتت رسول الله ﷺ تخبره بما دار بينها وبين عمر بن الخطاب، وتسأله أيّاً من المهاجرين أولى بالفضل؟ فقال لها الرسول الأعظم: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٠٠.

هجرة واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان»[1] ـ وفي الصحيح عن ابن بردة عن أسماء أن النبيَّ ﷺ قال لها: «لكم هجرتان وللناس هجرة واحدة»[2].

وكان ذلك هو التنافس بين المؤمنين.. تنافس على كسب الفضل والأجر، وعلى محبة الله ورسوله. وفي هذا التنافس موطن الشرف وموئل الفخار، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

هاجروا مع النبيِّ ﷺ أوفياء، أمناء: فنالوا نعمة الموعظة وشرف الجهاد..

وهاجروا بأمرٍ من النبي إلى الحبشة لواذاً واحتساباً: فذاقوا ألم العزلة ووحشة الغربة.. ولكنهم عندما عادوا إلى موطن الرسالة ـ يحملهم نفسُ الإيمان الذي ارتحل بهم إلى البعيد ـ عادوا ينضوون، مثل سائر المهاجرين الآخرين، تحت لواء القائد الأعلى، والرسول الأعظم، ليشاركوا في حمل أعباء الدعوة، ويَحْيَوا الجهاد ونُصرة الدين، فنالوا شرف الهجرتين..

فأصحاب الهجرة، وأصحاب الهجرتين، كانوا جميعاً مسلمين صادقين. ولكنَّ الأجر كان على قدر المشقة والبلاء.. فمن كان له هجرتان فحقه بالأجر والثواب أكثر ممن له هجرة واحدة، وتلك هي حكمة رسول الله تنبع من صدق إيمانه وسموِّ فكره. فكفى بهم جميعاً جنوداً لدين الله، أحباء لرسوله، وكفى بالمتنافسين في سبيل إعلاء

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٠٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، ٣٧؛ وفي كتاب المغازي، ٣٨ بلفظ «ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان..».

كلمة الله تعالى والإخلاص لرسوله الكريم اعتباراً وافتخاراً. فقد نالوا جميعاً الفضل والأجر، فهنيئاً لهم على ما نالوا، وطوبى لهم على ما استحقوا..

أجل، لقد عاش المسلمون الأوائل في ظلال الإسلام، وفي رعاية رسوله الأعظم حياة نقية، طاهرة، تبقى على الزمان مثالًا خالداً لكل أُمَّة أرادت أن تتكامل في هذه الحياةِ الدنيا، وتسلك سبلَ الطهرِ والإيمان والجد في القول والعمل.. وإنه للحقُّ من ربك، فالإسلام يرعى الفرد في أدقّ شؤون حياته، مثل رعايته لشؤون الجماعة بأوسع شؤونها وأشمل أمورها.. وإذا كان فضل الله تعالى تدلّ عليه آثاره على حياة أولئك المسلمين الأوائل كلها جملةً وتفصيلًا، فإن في ما انبثق عن عهد الحديبية من حوادث فردية، وما كان لها من آثار على حياة الجماعة عامة، لأكبر مثالٍ على ذلك الفضل العظيم من رب العالمين.. لقد تضمنت المعاهدة أحكاماً كان النبيُّ حريصاً على الالتزام بها بصورة كاملة. وأمَّا ما خرج على تلك الأحكام، ولم يكن فيه للفرد الإسلامي أو للجماعة الإسلامية مصلحة، فلم يتقيَّد به الرسول ﷺ.. وإذا كانت المعاهدة تنصُّ على ردِّ كل مسلم يخرج من غير إذن وليه القرشي، ليلتحق بإخوانه المسلمين، فإنها لم تتطرق قطّ في أحكامها إلى النساء، ولم تأتِ على ذكرهنّ، ولذلك لم يقبل رسولُ الله أن تُردَّ المهاجراتُ من قريش، إن جئن مؤمنات، مهتديات.. وقد هاجرت إليه بعد الحديبية كثيراتٌ لأنهن رفضن الحياة مع أزواج مشركين، كما فعلت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، التي كان أبوها ـ كما هو معروف ـ من أشراف مكة وسادة قريش، كما كان أخوها عثمان بن عفان (من الأم) أحد صحابة النبي ﷺ المقربين. لقد

هربت من مكة طمعاً بدينها، وخرج أخواها عمارة والوليد يطلبان ردَّها إلى قومها بحكم معاهدة الحديبية، ولكنَّ رسول اللهﷺ أبان لهما أن هذه المعاهدة لا ينطبق حكمها على النساء، وأن النساء إذا استجرن وجب أن يجابَ طلبُهنّ. والأهم من ذلك، أن المرأة إذا أسلمت لم تعد حِلاً لزوجها المشرك ووجب التفريق بينهما.. ولذلك ردّهما الرسول دون أن يسلِّمهما أختهما أم كلثوم، بعد هجرتها إليه مؤمنة..

وكان على رسولِ الله ألَّا يقبل المهاجرات على أنهن مسلمات مؤمنات إلَّا بعد امتحانهن، ومعرفة صحة إيمانهن، وذلك بأن تُستحلف المرأة بأنها لم تهاجر، ولم تفارق زوجها ناشزاً، وإنما هاجرت لله ورسوله، مؤمنةً معتصمةً بالإسلام من الشرك[1]، ففي هذه الحالة يصبح من الواجب عدم إرجاعها إلى زوجها الكافر لأنها لم تعد حِلاً له، ولم يعد هو حلاً لها، وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2].

---

(١) وفي الطبقات الكبرى لابن سعد (ج ٨، ص٢٣٠) أنَّ الصيغة التي اعتمدها رسولُ الله ﷺ في امتحان المؤمنات: « ما أَخْرَجَكُنَّ إلَّا حُبُّ اللَّهِ ورسولِهِ والاسلامُ، لا حبُّ زوجٍ ولا مال» (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢١٦٩).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

ومثل هذه الأحكام المنزلة من الله سبحانه وتعالى، هي التي تسوِّي العلاقات بين الشعوب والأمم والجماعات، وتقيمها على قاعدة العدالة، ولاسيما في حالة الاختلاف في العقيدة، أو في نمط الحياة وأسلوب التعايش. فالمؤمن والمؤمنة حقوقُهما مصونة، وكذلك الكافر حقوقُه مصونة، ولكنَّ حكم الله تعالى يوجب الفراق ـ حُكْماً ـ بين الرجل الكافر والمرأة المؤمنة، على أن يردَّ عليه ـ ولو كان كافراً ـ ما أعطاها من مهرٍ، وأن يستردَّ ـ بالمقابل ـ المسلمُ الذي فارقته زوجُهُ، بسبب الشرك ـ من الفيء، أو من بيت مال المسلمين ـ مقدار ما أعطاها من مهرٍ.. فهذه الأحكام ثابتة في شرع الإسلام، ومنها يتَّضح صريحاً أنْ ليس من عقيدة أو مبدأ إلَّاهُ ـ الإسلامُ ـ إن رُمنا عدالةً بين الناس.

على أنه بالمقابل كان رسولُ الله ﷺ حازماً في تطبيق ما نصت عليه معاهدة الحديبية، حريصاً على الوفاء بجميع شروطها، وذلك انسجاماً مع خُلقه العظيم، وتكريساً منه لإقامة العلاقات السليمة واحترام المواثيق والمعاهدات، وتنفيذ أحكامها دون أي إخلال بمنطوقها عملًا بأوامر الله سبحانه وتعالى، ومنها قوله الكريم:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

فقد أتاه، وهو ﷺ في المدينة، أبو بصير عتبة بن أسِيد بن جارية ـ حليف بني زهرة ـ وكان قد أسلم وحُبس بمكة ـ إلَّا أنه استطاع الإفلات، فخرج منطلقاً بدون إذن مولاه. وعرف المشركون

(١) سورة النحل، الآية: ٩١.

بأمره، فبعث أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شرَيق رجلًا من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم إلى رسول الله، ومعهما كتاب كي يردَّ أبا بصير إلى قومه. فدعا إليه أبا بصير وقال له: «يا أبا بصير. إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح لنا في ديننا نقض العهد أو الغدر، وإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك»[1].

قال أبو بصير: «يا رسول الله! أتردُّني إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟».

فعاد الرسول يؤكد عليه بقوله: «يا أبا بصير! انطلق فإنَّ الله سبحانه سيجعل لك ولمن معَكَ من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

وامتثل أبو بصير لأمر رسول الله ﷺ، وخرج مع المشركين يجرُّ رجليه جرّاً، وفي نفسه لوعة وأسى على ما ستفعل به قريش، وما سيلاقي من جراء جبروتها من ألم وعذاب. وفيما هو غارق في همومه لمعت في ذهنه خاطرةٌ، فأقبل على الرجلَين يحدثهما، ويمازحهما، ويحكي لهما ما عنده من الطرائف حتى بلغوا ذا الحليفة، وهناك أمكنه أن يغافلهما، ويعاجل بامتشاق سيف العامريّ من غمده، ثم يهوي عليه بضربة قاتلة، تُردِيْهِ من فوره. وكان المولى الذي يرافقه يرى بأم العين ما حلَّ بالعامريّ، فانطلق يعدو نحو المدينة طلباً للنجاة بنفسه، فلم يقدر أبو بصير على اللحاق به، بعدما كان قد وصَلَ إلى المسجد يحتمي به، ويشتكي مما فعَلَهُ أبو بصير بالعامريّ. وفيما هو يروي قصته إذا بأبي بصير قد طلع، متوشحاً السيف، فأسرع يتقدم من النبيِّ، ويَمْثُلُ بين يديه، وهو يقول:

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢٠٢٣.

«يا رسول الله، قد وفيتَ ذمتَك، وأدّى الله عنك. أسلمتني للقوم وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن أو يُعبث بي». . فلم يكن من النبيِّ ﷺ إلَّا أن قال: «ويلُ أمِّهِ، مَحِسَّ حرب (أي: موقِدَ حربٍ) لو كان معه رجال»[1].

وخاف أبو بصير مما قاله رسولُ الله، وشعر بأنه لن يتأخر عن تسليمه إلى قومه، فالتزم الصمت. ثم طلب الإذن بالخروج لبعض حاجته، إلَّا أنه كان قد عزم على الفرار، فانطلق في البراري والطرقات حتى نزل العيص على ساحل البحر، في طريق قريش إلى الشام.

وكان المولى الذي جاءَ مع العامريّ قد عادَ وأخبر قريشاً بما جرى معه، وكيف أن أبا بصير قد هرب، ولا يعرف أحدٌ أين ذهب، مما جعلها تغضب وتحنق. بينما وقع الخبرُ على مسامع المستضعفين من المسلمين، المغلوبين على أمرهم، مثل النسائم تهبُّ على تائهٍ في وسط الهاجرة، ليشُدَّ من عزمهم، ويجعلهم يتحفّزون لاغتنام الفرص والإفلات من قيود المشركين، هاربين من جورهم إلى البعيد. . وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو أولَ من استطاع الهرب بعد تلك الحادثة، فلم يأتِ المدينة خوفاً من أن يردّه الرسول ﷺ إلى قريش، بل راح يبحث عن أبي بصير حتى عرف مكانه فانضم إليه. . ومثل أبي جندل خرج كثيرٌ من مستضعفي المسلمين، الواحد تلو الآخر، حتى بلغ عددهم حوالى سبعين رجلًا[2]، التفُّوا كلُّهم حول أبي بصير، وألَّفوا جماعة مشاكسة، وضعت نصب أعينها أمراً واحداً وهو مناوأة

(١) المصدر السابق، ص٢٠٢٤.
(٢) المصدر السابق.

قريش والتصدّي لها، حتى صاروا لا يتركون لها عيراً تمرُّ إلَّا واعترضوها، فيقتلون من رجالها، ويأخذون من أموالها ما تصل إليه أيديهم..

وأفزَعَ أمرُ هؤلاء الرجال قريشاً فعلًا، وهم يهاجمون قوافلها، ويأخذون من تجارتها..بل، وباتوا يشكلون مصدر خطرٍ على حياتها كلِّها، لأنهم إن استمروا في ذلك، فسوف يحرمون القوافل من الخروج، ويوقعون مكة كلها في الحاجة والعوز..

ولما لم تقدر قريش على أن تفعل شيئاً حيال هؤلاء الرجال، فقد بعثت إلى النبيِّ ﷺ تسأله بأرحامها إلَّا أن يؤوي أولئك المسلمين إليه، لكي يتركوا الطريق آمناً فلا تقع قريش في التهلكة..

ولكم كان ارتياح رسول الله شديداً وهو يتبلَّغ رسالة قريش.. فهي لا تنطوي فقط على الضعف وقلة الحيلة، بل وتحمل أيضاً تنازلًا صريحاً عن الشرط الذي أصرَّت عليه في معاهدة الحديبية بأن يردَّ إليها كل من أتاه من المسلمين في مكة بغير إذن وليّه.. نعَم سقط ذلك الشرط، وأصبح الرسول في حِلّ منه، يستقبل من يأتيه من المسلمين مهاجراً من عنتِ قريش وظلمها، كما يستقبل المهاجرات المؤمنات، بلا قيد ولا شرط (إلَّا أن يمتحنوهُنَّ، كشأنٍ إسلاميٍّ بحت لا علاقة به لقريش أو غيرها).

وبعد أن ثبتَ لرسول الله ﷺ سقوط ذلك الشرط ـ الذي رآه المسلمون جائراً ـ فإنه بعث إلى أبي بصير بالقدوم إليه في المدينة، هو ومن معه من الرجال، وألاّ يعترض بعد اليوم مَنْ يصادف مِن قريش، أو يتعرَّض لعيرها... ولكنَّ أمر الرسول كان قد بلغ أبا بصير وهو مشرفٌ على فراق الدنيا لمرض أصابه، فتلقَّاه برضىً واطمئنان.

وأغمض عينيه مرتاح الضمير لأنه قدر أن ينجو من عذاب قريش، وأن يتخلَّص من فتنتها له عن دينه، ثم ينتصب لها هو وأصحابه قوةً تهدد كيانها، وتنشر الأخطار في دروبها، مما جعلها تذلّ، وتنزل عن تلك الغطرسة التي تستكبر بها على الآخرين، ومات أبو بصير وكتاب رسول الله في يده[1]. وذكر موسى بن عقبة، في المغازي، أنَّ أبا بصير كان في صلاته يكثر من القول:

الحمدُ للَّهِ العليِّ الأكبَرِ مَنْ يَنْصُرِ اللَّهَ فسوف يُنْصَرِ[2]

ودُفِنَ أبو بصير ـ رحمه الله ـ بينما ارتحل أصحابه إلى المدينة، نزولًا على أمر رسول الله. وعادَ طريقُ الشام آمناً أمام قوافل قريش.

وعلى هذا النحو كانت الأوضاع تسير بعد معاهدة الحديبية، من حسَنٍ إلى أحسن في صالح المسلمين. لا سيما وقد ظهر أنَّ الإسلام آخذ في الانتشار، فلا تخلو منه بقعة من بقاعها، ولا يغيب عن أتباعه حدثٌ من أحداثها. لقد اشتد ساعد هذا الدين وبدأ سلطانه يقوى شيئاً فشيئاً، بعد القضاء على نفوذ اليهود، حتى ترامت منعته إلى أقاليم الحجاز كلها. وبذلك لم تعد قريش تشكل تلك القوة التي تستطيع الوقوف في وجه الدعوة، كما لم يعد لليهود ذلك الشأن الذي يعرقل مسيرتها..

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، ج٦، رقم ٥٣٨٩.

(٢) انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢٠٢٥.

البحث الثاني



وانقضت بضعة شهور بعد معاهدة الحديبية وغزوة خيبر، يُمناً وبركة على الدعوة الإسلامية، لما حفلت به من الأعمال المثمرة. فبعد أن أمِنَ الرسول (صلواتُ الله عليه وآله) من مقاتلة قريش وغدر اليهود، انصرف لتقوية البناء الداخلي أكثر من ذي قبل، لأن الأوضاع الاجتماعية قد تحسنت، والأحكام التشريعية تتنزَّلُ من رب العالمين، ولا بدَّ من تطبيقها على أرض الواقع لتكون أحكاماً ثابتةً للمسلمين على مدى الزمان. .

ولم تمرَّ تلك المدة بلا مناوشاتٍ يقوم بها بعض قبائل الأعراب طمعاً في الغنيمة والسلب من القوافل التي تجوب أنحاء الجزيرة. . . فيأتيها التأديب السريع من المسلمين أنفسهم، وإبعادها، ليس عن طريق القوافل فقط، بل وأحياناً عن أرض الجزيرة التي أصبح النفوذ الإسلامي فيها يسودُ سائر القوى ويهيمن عليها. . والخسارة الوحيدة للمسلمين في تلك الفترة كانت باستشهاد بعض المؤمنين، الذين كانوا يخرجون في السرايا، وهو أمر طبيعي، لأنه ما من قتالٍ أو حرب أو احتكاكٍ مسلّح يحدث، إلَّا ويؤدي إلى إزهاق النفوس البشرية. وفيما عدا ذلك ظلّت الدعوة الإسلامية طوال السنة السابعة للهجرة، تسير

من حسنٍ إلى أحسن، ومن توسعٍ إلى توسُّع، وهي تكرس هيبة الدين في النفوس، وتوطّد دعائم الإيمان في القلوب، حتى دار الحول على عهد الحديبية، وحان الموعد لخروج المسلمين إلى بيت الله الحرام، كما قضى به ذلك العهد.

عمرة القضاء

وهكذا وما إن أهلَّ شهر ذي القعدة من السنة السابعة حتى أعلن رسولُ الله الاستعدادَ للخروج إلى العمرة على أن لا يتخلف عنها أحدٌ ممَّن شهد الحديبية..

وكان لهذا الإعلان أثره الكبير في القلوب المؤمنة التي اشتاقت لرؤية البيت العتيق، فاندفع أصحاب الحديبية يتهيأون للخروج الميمون، ومعهم جمعٌ كبير من المسلمين غيرهم، حتى بلغ العدد حوالى الألفين من الرجال، عدا النساء والصبيان[1].

وحان اليوم الموعود فاستخلف رسول الله على المدينة أبا ذر الغفاري (رضي الله عنه)[2]، وأحرم للعمرة من على باب المسجد[3]، ثم خرج في تلك الجموع على هدى الله تعالى وبركاته..

وسار ذلك الركب الإسلامي يتدفق على الطرقات بأعداده الغفيرة، ويملأ الأجواء بتلبياته ونداءاته. فلا ترى في صفوفه إلَّا معتمرين ينشرون في الدروب البِرَّ والسلام، ويشيع من نفوسهم العزم والإيمان، يتقلدون السيوف ويحملون الدروع والرماح، لا تنكّراً لعهد

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٢.
(٢) وقيل: استخلف عويف أبا رهم الغفاري (انظر الرحيق المختوم، ص٣٥٢).
(٣) وقيل: أحرم من ذي الحليفة (أنظر الرحيق المختوم، المصدر السابق).

الحديبية ـ وهو يقضي بألَّا يحملوا معهم إلَّا السيوف في أغمادها ـ ولكن حذر غدر قريش ولؤمها، لأن تجارب الماضي تشهد أنَّ زعماءها لا يتورعون ـ في معظمهم ـ عن ارتكاب الذميمة، وافتعال الشر إذا وجدوا الظروف المؤاتية، والأوضاع المساعدة لذلك.

وكانوا يسوقون معهم من الهدي ستين بدنة، ويقودون من الخيول مئة، لا ليوجفوا بها على أحدٍ من الناس، ولكن تحسباً من هجوم مباغت من عدو حاقد وإعلاناً عن هيبة الدعوة وعلوّ شأوها، حتى ولو كانت وجهةُ الركب زيارةَ بيت الله الحرام، طالما أنه ليس لدى أصحابه أية نية لقتال أو حرب. وقد قدَّم رسول الله، وهم في الطريق، قائد السلاح بشير بن سعد، وقائد الخيالة محمد بن مسلمة، مع كتيبة من الفرسان لتكون طليعة للمسلمين، على ألَّا يتخطَّوا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مرَّ الظهران إلى وادٍ قريب منها. ومضت خيول المسلمين على أمر قائد الركب، وما إن تقدموا بعيداً حتى التقوا نفراً من قريش أربكهم الفزع، ولكنَّ المسلمين طمأنوهم قائلين: «لا تخافوا، ولا تجزعوا فهذا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم يصبّح هذا المنزل غداً إن شاءَ الله تعالى».

وعاد ذلك النفر من قريش، يخبر القوم بأن المسلمين قادمون عليهم بالخيول والسلاح. فأخذتهم المباغتة والخوف، وقالوا: «والله ما أحدثنا حدثاً! وإنا لعلى كتابتنا ومعاهدتنا، ففيم يغزونا «محمد» وأصحابه؟». ثم أسرعت قريش، فأوفدت مكرز بن حفص في عدد من رجالها كي يسترحموا «محمداً»، ويذكّروه بعهد الحديبية، وما ينص عليه من عدم القتال. فقدموا إليه قائلين: يا محمد! ما عُرِفْتَ

صغيراً ولا كبيراً بالغدر. وقد شرطنا عليك ألَّا تدخلها علينا «إلَّا بسلاح المسافر: السيوف في القرب؟»[1]. فتبسَّمَ رسولُ الله وطمأنهم، بلهجة الصادق الواثق، أنه لن يدخل عليهم إلَّا بالسيوف، بينما يضع السلاح الآخر خارج مكة. فقال له عندئذٍ مكرز بن حفص: «وهذا الذي تُعرف به من البر والوفاء». ثم عادَ ليقول لبني قومه: يا معشر قريش! إن محمداً على الشرط الذي شرط لكم.. فلا تخافوا، ولا تجزعوا، فما محمدٌ بالذي ينقض عهوده، ولا بالذي يخون أمانته. إنه جاء معتمراً، وهذا من حقه، فعليكم أن تفوا أنتم بعهدكم وتفسحوا له في الطريق، بلا مضايقات، ولا خبث أو مكيدة!.

وإذا كان صلح الحديبية قد شرط على قريش أن تجلوَ عن مكة عند دخول «محمد» وأصحابه إلى الكعبة، فإنّه كان في نفوسهم من الضغينة والحقد ما هو أقوى من شروط المعاهدة، وبنود المواثيق. فقد أبت مشاعر الكراهية على زعمائهم إلَّا أنْ يحملوا معهم أهلهم، ويصعدوا إلى التلال المجاورة، وهم يرددون: «لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه».. ولو أنّ معشر قريش جرَّبوا عدم الخروج من مكة، لوجدوا أن نبيَّ الإسلام كان يؤْثر لقاءهم، والاجتماع إليهم بعيداً عن كل مساومة أو شروطٍ سابقة، لأن في ذلك ما يؤلف القلوب، ويبعد التنافر..

ودخل رسول الله ﷺ من الثنيّةِ التي تطلعه على الحجون.. وكانت الشائعات قد سرت في مكة بأن المسلمين قد أصابتهم الحمّى، وأنهم في عسر وشدّةٍ من جراء المرض، فرأى أهل الشماتة أن يصطفّوا لهم عند دار الندوة، ليروا من ضعفهم وهزالهم ما يسرّهم.

---

(١) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٣٣.

ولكنهم وجدوهم على خلاف ذلك تماماً، إذ كانت وجوه المسلمين تطفح بالبشرْ، وأجسادهم تمتلىء بالصحة والعافية. ويزيد في رونقهم التفافُهم حول نبيّهم وهو يعتلي ناقته «القصواء»، وهم لا يتوشحون إلَّا بالسيوف، ولا يتنقلون إلَّا بالتوثب، ولا يغريهم شيء في هذه الدنيا ـ كما يظهر عليهم ـ إلَّا محبة هذا النبيِّ الكريم، وبلوغ بيت الله الحرام.. وكان موكب المسلمين يسير متهادياً في أرجاء مكة، والأصوات تصدَحُ بالتلبية لله العلي القدير، الذي منَّ عليهم بهذه العمرة: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبَّيك، لبيك لا شريكَ لكَ لبيك، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لَكَ والملكَ، لا شريكَ لَكْ».. فتأخذ نشوة الفرح عبد اللّه بن رواحة وهو آخذ بزمام ناقة النبيِّ، فيندفع راجزاً وهو يقول:

خَلُّوا بني الكُفَّارِ عن سَبيلِهْ ... خَلُّوا فإنَّ الخير مع رسولِهْ
قد أنزل الرَّحمٰنُ في تَنْزيلِهْ ... بأنَّ خيرَ القتلِ في سبيلِهْ
اليوم نضربكم على تأويلهْ ... كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويُذهلُ الخليلَ عن خليله[1]
يا ربِّ إنّي مؤمِنٌ بقيلِهْ ... إنّي رأيتُ الحقَّ في قبولِهْ

ويجد الرسول في إنشاد عبد اللّه[2] ما ينمُّ عن صيحة حرب،

(١) رواه الترمذي ـ بشيءٍ من الاختلاف ـ في أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر ٢/ ١٠٧.

(٢) وكان عبد الله بن رواحة شاعراً، فعن هشام بن عروة عن أبيه، قال: لما نزلت «والشعراء يتبعُهُم الغاوون»، قال عبد الله بن رواحة: قد علمَ اللَّهُ أنّي منهم، فأنزل اللَّهُ تعالى: «إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

فيأمره قائلاً: مهلًا يا ابن رواحة، وقل: «لا إلَهَ إلا الله وحده، أنجزَ وعده، ونصَرَ عبدَه، وأعزَّ جُندَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه».

فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته، وردَّدها المسلمون من بعده بقوة وحماسة، فتجاوبت مع أصدائها جنبات مكة كلها، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الحانقين، الذين أبوا إلَّا أنْ يفارقوا بيوتهم لئلا ينظروا ويسمعوا، فيأبى الله سبحانه إلَّا أن يُسمعهم ما يشاء، وأن يريهم ما يريد، رغماً عنهم، وخلافاً لإرادتهم.

قيام المسلمين بفريضة العمرة

وسار الموكبُ على روعته وبهائه حتى بلغ رسول الله ﷺ المسجد، فنزل عن ناقته، والتفَّ بردائه، ثم انتقل بخطوات ثابتة وئيدة حتى لامس الركن عند الحجر الأسود، وقال: «رحم الله امرأً أراهم اليومَ من نفسه قوة»[1]. ثم لمَّا وصل إلى الركن اليماني راح يمشي بما يقرب من الهرولة، والجموع معه تسير على نفس المشية حتى قطعوا سبعة أشواطٍ في طوافهم حول الكعبة الشريفة، وقد ظهر عليهم مدى ما تحفل به نفوسهم من إيمانٍ عامرٍ، وما تزخر به أجسادهم من قوة صلبة، وهذا ما جعل رجال قريش يقولون لبعضهم البعض: «أهؤلاء الذين تزعمون أن الحمّى أضعفتهم؟ إنهم لينفرون كما تنفر الظباء!». وبذلك أدركت قريش أنها تشهد وترى بأم العين ما يكفل للمسلمين تفوقهم عليها، وما يمحو من أفئدتها كلَّ وهمٍ بوهَنِ «محمدٍ» وأصحابه.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣.

ولما أتمَّ النبي والمسلمون الطواف حول الكعبة المباركة، انتقل بهم إلى السعي ما بين الصفا والمروة في سبعة أشواط. حتى إذا أتمّوها، وقف ﷺ يدعو إلى نحر الهدي قائلًا: «هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر». ونُحِرَ الهديُ عند المروة، وشارك في النحر مع النبي ﷺ كل من شهد الحديبية مسلماً. وما كادوا ينتهون حتى حلق النبيُّ رأسه، وحلق أصحابه، متِمّين بذلك فرائض العمرة. وكان رسول الله عندما بلغ بطن يأجج وضع السلاح وخلَّف عليه أوس بن خولي الانصاري في مائتي رجل، فبعث من يقوم مقامهم على حراسة الخيل والسلاح، لكي يأتي أصحاب الحراسة ويتمّوا مناسك العمرة أسوةً بسائر المسلمين المعتمرين، فلا تفوت الفرصة المباركة على أحدٍ منهم.

وأقبل بعد ذلك رسول الله إلى الكعبة، وفي قلبه شوق للفيء في ظلالها، وفي نفسه توق للإخلاد والسكينة في رحابها.. أوَ ليست الكعبةُ بيتَ الله الآمن، وزيارتُهُ مباحةً لكل قبائل العرب وأبنائها؟ فلِمَ تتعنَّتُ قريش إذن وتحرمُهُ وأصحابَه من دخوله؟! ولِمَ هذا الظلم والعدوان على المسلمين؟!.. وإذا أمكن لقريش ذلك فيما مضى فإنَّ الله سبحانه أبى إلَّا أن يخذلها، وأن يدع رسولَه الكريم يعود إلى بيته الحرام معزَّزاً مكرَّماً.. وها هو ذا خاتم النبيين يدخل الكعبة على مرأى من قريش، فيدور في أرجائها، ويتلمَّس مواضع الطهر والعبادة التي كان يقضي فيها كل يوم شطراً من أوقاته. ثم يجلس مستنداً إلى ركن من أركانها، وهو يتلو قرآناً كريماً تتردّد أصداؤه في جنبات البيت الحرام آياتٍ بيّناتٍ أنزلت من عند الله تبارك وتعالى، وذلك في الرحاب المقدسة الطاهرة ذاتها، التي كان يتلو فيها إبراهيمُ

وإسماعيل عليهما السلام آياتِ ربهما الكريمة منذ أجيال عديدة، فلا ينقطع بعد هذا اليوم ـ الذي يعتمر فيه محمد رسول الله ويتلو القرآن ـ ذكرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عند الكعبة أبداً ، بل يبقى قائماً ما دامت الأرض أرضاً، والسماءُ سماءً.

ولم يأبه رسول الله لتلك الأصنام والأوثان المنصوبة في جوف الكعبة تعلن عن أباطيل الكفر والشرك ـ لأن هدمها آتٍ إن شاء الله ـ حتى إذا حان موعد صلاة الظهر، دعا بلالًا ليصعد فوق ظهر الكعبة ويؤذّن للصلاة!

وتردَّدَ نداء الحق يملأ الآفاق: الله أكبر، الله أكبر.. أشهد أن لا إلَهَ إلَّا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.. وتليه الدعوات الصالحات: حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح.. فترتجف أوصال قريش، وترتعد فرائصها لهذا الأذان يرتفع عالياً فوق ظهر الكعبة، التي تستمدُّ منها المكانةَ بين العرب، والسيادةَ بين القبائل، فتحسُّ بالقهر والذلّ، وتأبى ـ حتى على جوارحها ـ أن تسمعَ وأن ترى!.. فيضع بعضُ رجالها أصابعهم في آذانهم، ويغطي غيرُهُم وجوهَهم بأيديهم... ومثالهم الصارخ يومئذٍ سهيل بن عمرو وجماعة معه.

ثم لا تقف قريش في غلوائها ضد نداء الحق عند هذا الحد، بل يدفع الضيق والغيظ بعض أبنائها للتعبير عن مشاعرهم الحاقدة بما يخالف كل مألوف في التصرف قولًا وفعلًا، فيقول عكرمة بن أبي جهل، ذاكراً في هذا الموقف عداوة أبيه للإسلام: «لقد أكرم الله أبا الحكم ـ يعني أباه، أبا جهل الجاهل الجهول ـ فلم يسمع هذا العبد ـ يعني بلالًا ـ يقول ما يقول»!.. ومثله يذكر صفوان بن أمية أباه في

حقده ضد الدعوة فيقول: «الحمد الله الذي أذهب أبي قبل أن يرى ويسمعَ هذا الذي نراه ونسمعه».

ويتمثّل بهما خالد بن أسيد، فيقول: «الحمد الله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم ابن أم بلال ينهق فوق الكعبة».

لقد آذى القرشيين أن يروا المسلمين يؤذّنون ويصلُّون عند الكعبة، فجاؤوا رسول الله يقولون: «يا محمد! إنَّ هذا لم يكن في شرط الحديبية».. فردَّهم الرسولُ الأعظم خاسرين، وهو يعلن لهم أن صُلح الحديبية يخوِّله زيارة المسجد الحرام مع ما تحمل هذه الزيارة من حق للمسلمين في إقامة شعائر العمرة طوافاً وسعياً ونحراً وصلاةً، وأنَّ منعهم من الأذان فوق ظهر الكعبة هو النقض نفسه لمعاهدة الحديبية.. فلتكفَّ إذن قريش عن دعواتها الباطلة، وعن افتراءاتها الجوفاء، لأنها لن تجد ـ بعد اليوم ـ ما يفيد عنتَها وبغيَها!..

واحتملت قريش آلامها على مضضٍ، فلاذت بالسكون، دون أن تجرؤ على التحرّش بالمسلمين مرة أخرى.

وكان المسلمون أثناء مكوثهم في مكة، يروحون ويجيئون آمنين، من غير أن يحاول المشركون التصدّي لهم بشيء.. على أنه لم تكن هنالك من حجّةٍ للمشاكسة.. فهؤلاء المؤمنون لا يأتون من الفعل إلَّا ما يدل على البر والتقوى، ولا يتحدثون من القول إلَّا بما يعبِّر عن القيم والمثل الرفيعة، وهم في ذلك كله آياتُ إخلاص لدين الله، وقناديلُ محبةٍ لرسول الله... وهذا ما جعل المشركين يتساءلون:

«ماذا فعل الإسلام بهؤلاء الناس؟!»..

. . .لم يكن المسلمون يوم هجرتهم من مكة إلَّا أفراداً متفرقين ضعافاً، ينزل عليهم الأذى والعذاب، ويفرون من الملاحقة والنكال. . وها هم اليوم يعودون، وقد بدّلوا الضعف قوةً، والشتات وحدةً، والظلم والاستبداد محبةً وتسامحاً. . إنهم يبدون متآلفةً قلوبُهم، موحدةً أهدافُهم. لا اختلاف بين العصبيات، ولا أحقاد بين القبائل. . لا يغرّهم تفاخر ولا يوزعهم تدابرٌ، بل تلفّهم أُلفةٌ ومحبة، وهم على نهج واحد، ومسيرة واحدة. .

نعم هذا ما فعله الإسلام بهؤلاء الناس. وهذا ما سعى إليه محمد بن عبد اللّه ﷺ وجهد من أجله، حتى جمع الناس في هذه الوحدة المتماسكة التي جعل قوامها التعاطف والتساند، وأساسها التحرر من الوثنية، والعبودية لله الواحد الأحد.

. . .ذلك ما ظهر لأهل مكة جلياً واضحاً، فقال بعضٌ: إنه والله لَدِينُ حق، وإنه لنبيٌّ كريم. . أما سادة قريش فقد أخافتهم مشاعر الناس، وأوجفتهم أحاديثهم، فقالوا: لئن بقي «محمد» وأصحابه في ديارنا لَيَفتنوننا عن ديننا فلن يبقى أحد في مكة إلَّا وتَبِعَ هذا الدين. . فالخير في رحيله عنّا قبل أن يطغى علينا المدُّ وتفرقنا أمواجه الدافقة!. . ولذا، ما كادت الأيام الثلاثة تنقضي حتى أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى في نفر من القوم، فقالوا له: قد انقضى أجلك فاخرج عنا. . فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟[1].

وكان يريد بذلك زواجه من السيدة ميمونة. .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٤.

زواج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث[1]

وأما السبب في هذا الزواج فهو أن إقامة المسلمين، وعلى رأسهم رسول الله، في مكة خلال تلك الأيام القليلة، كان لها آثارها البالغة في النفوس كما يعبّر عنه إقدام إحدى السيدات الفاضلات على إظهار إسلامها، التي حرمت منه في ظل التعسف القرشي، وهي السيدة برة بنت الحارث بن حَزْنٍ الهلالية (أبوها أحد أشراف مكة، وأمها هند بنت عوف) التي اشتهرت في مكة بالفضل والنسب الرفيع.

لقد كانت برة إحدى أخواتٍ أربع، إحداهنَّ أم الفضل، لبابةُ بنت الحارث الهلالية، زوج العباس بن عبد المطلب، التي كانت ثانية امرأة آمنت بالرسول ﷺ بعد خديجة الطاهرة عليها السلام[2].

وفي بيت أمّ الفضل، هذه الأخت المؤمنة الشجاعة، عاشت برّة إثر فراقها عن زوجها مسعود بن عمر، بعدما استحكم الخلاف بينهما على الإسلام، إذ كانت تريد أن تعتنق هذا الدين ولكن زوجها، ركبَ

---

(١) هي ميمونة بنت الحارث، من بني عامر بن صعصعة، الهلالية، خالة عبد الله بن عباس وخالة خالد بن الوليد، وكان اسمها برَّة، فسمَّاها النبيّ ﷺ «ميمونة» تبرّكاً بتلك المناسبة الميمونة التي دخل فيها النبي ﷺ والمؤمنون ـ في عمرة القضاء ـ مكة، البلدَ الحرام، وطافوا حول البيت العتيق، لأول مرة من سبع سنين. وقد قالت عنها السيدة عائشة: «إنها واللهِ كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم» .. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج٣ ص١٣٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٨ ص٢٧٧، «وفي الصحيح ـ مما يذكر عن أم الفضل ـ أن الناس شكّوا في صيام النبي ﷺ يوم عرفة، فأرسلت إليه أم الفضل بقدحِ لبنٍ، فشرب وهو بالموقف، فعرفوا أنه لم يكن صائماً» (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣، ص٢١٦٣، عن صحيح البخاري، ومسلم، والإمام مالك في الموطأ، في كتاب الحج).

الضلالة والغيَّ، وأبى عليها ـ وعلى نفسه ـ الهدى، حتى انتهى بهما الأمر إلى النزاع والافتراق، فذهبت تعيش عند أختها. فلمَّا كانت عمرة القضاء لم تتورع تلك الصادقة عن الإفضاء لأختها بسرّها وأغلى أمنية لها في هذه الحياة، وهي أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ. ولم تتردد أم الفضل بإخبار زوجها العباس، والطلب إليه أن يحدِّثَ الرسولَ الكريم بالأمر. وكان ذلك مدعاةَ سرور للرسول من امرأة فاضلة كريمة. فدعا إليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب (لأنه زوج أخت السيدة برة من أمها، أسماء بنت عميس الخثعمية) وبعثه فخطبها له. ثم تولى عمه العباس بعد ذلك أمر تزويجها، ودفع صداقها أربعمئة درهم، وقد أرادَ النبيُّ ﷺ أنْ يُعرسَ في مكة، بعد انقضاء الأيام الثلاثة المتفق عليها في عهد الحديبية، علَّه يقنع القرشيين بتمديد الإقامة بعد تلك الأيام، بغرض تأليف القلوب، وزيادة عُرى التواصل، وانتزاع بعض كوامن الحقد من نفوس هؤلاء القوم.. أجل، لهذا الغرض تمنَّى النبيُّ على مبعوثَيْ قريشٍ إليه، أن يُعرِس بين أظهرهم، ويدعوهم إلى وليمة العرس..

ولكنَّ الرفض القرشي كان قاطعاً، خوفاً من أن تفتح مكةُ أبوابها طائعة لـ«محمد»، فيفوز بقلوب أهلها، ويزيل ما بينه وبينهم من حواجزَ جهدت قريش في إقامتها طوال تسع عشرةَ سنةً، حتى تبعدَ الناس عنه، وتمنعَهم من الوصول إليه. ولذلك كان الردُّ عليه: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا. نناشدك الله والعهدَ لما خرجت من أرضنا فهذه الثلاث قد مضت[1].

(١) زاد المعاد، ج٢ ص١٩٧.

وأثارت هذه الغلظة التي أبداها سهيل بن عمرو وجماعتُه حفيظةَ سعد بن عبادة ـ سيد الأنصار ـ فقام ـ غاضباً ـ إلى سهيل يصرخ في وجهه: «كذبت لا أمَّ لك، ليست بأرضك ولا أرض آبائك[1]، والله لا يبرح منها إلَّا طائعاً راضياً». فابتسم رسول الله وقال له:

«يا سعد! . لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا» . .

وقد كان في قول النبيِّ ﷺ حسمٌ للموقف، وإعلانٌ منه للرحيل عن مكة، موفياً بذلك ذمته لما عاهد به قريشاً، ومثله من يفي بالذمم والعهود. وبذلك أذّن مؤذن رسول الله ـ مولاه أبو رافع ـ بالخروج من مكة، ثُمَّ خلَّفُه وراءه ليلحق به في صحبة زوجه برة بنت الحارث. وكان رسول الله قد أمر بألَّا تترك ابنة عمه، عمارة بنت حمزة ـ سيد الشهداء ـ في مكة، فطلب إلى عليٍّ (عليه السلام) أن يحملها في ركبه، فسلَّمها كرّم الله وجهه إلى زوجه فاطمة الزهراء عليها السلام وهو يقول: «دونك ابنةَ عمك لحمايتها، فإنّا والله لا نترك ابنة عمٍّ لنا يتيمة بين ظهراني المشركين» . . وكذلك أخرج رسولَ الله سلمى بنت عميس زوج حمزة (رحمه الله)، كي لا تظل في مكة وحيدة بعدما حبسها وابنتَها، جورُ قريشٍ عن اللحاق بزوجها حمزة عندما هاجر من مكة.

وكانت السيدة برة قد أكملت تجهيزها، فأدرك أبو رافع الركب في محلة سرف، وهنالك أعرس النبيُّ بزوجه، وأبدل اسمها من برة إلى «ميمونة»، لأنه رأى في زواجه منها مناسبة ميمونة عليه وعلى المسلمين، إذ أمكنهم الله تعالى بهذه المناسبة من دخول مكة، وزيارة

---

(١) المصدر نفسه.

المسجد الحرام بعد حرمان دام سبع سنين، بسبب تعنُّتِ قريش وصلافتها. . ومنذ ذلك الحين أغفل الناس اسم برة لينادوا أم المؤمنين باسمها الجديد «ميمونة». أما هي فقد فرحت كثيراً بذلك لأنها رأت فيه يمناً وبركة يضيفهما النبي ﷺ عليها. .

ولم يكن مجيء عمارة بنت حمزة رضي الله عنه حادثاً عابراً بالنسبة إلى بعض الصحابة الأبرار. فقد أراد زيد بن حارثة أن يحتضنها ويرعاها لأنها ابنة أخيه في الإسلام، إذ كان الرسول قد آخى بينه وبين حمزة وقت المؤاخاة بين المسلمين، فهو أحق بأن يكون وصيّاً على ابنة أخيه وأولى الناس بها. . وأرادَ جعفر بن أبي طالب ذلك أيضاً لأن عمارة هي ابنة عمه، ومقامها مع زوجه أسماء بنت عميس آنس لها لأنّها خالتها، فذلك أَحنى عليها، وأقرب إلى القيام على رعايتها.

أما علي كرّم الله وجهه فقد كان يأبى أن يتخلى عنها لأحدهما، لشدة حرصه عليها ووفاءً لعمه حمزة (رحمه الله)، وهذا ما جعل هؤلاء الصحابة يحتكمون إلى الرسول في أمر عمارة بنت حمزة، فكان حكمه ﷺ أن قال لعليٍّ: أنتَ مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولى الله ورسوله [1] وخالتها أولى بحضانتها، لأن المرأة لا تنكح على خالتها ولا عمتها. . وبذلك قضى رسول الله بأن تكون عمارة في ولاية جعفر زوج خالتها، مؤْثراً واجب الحكم الشرعي على العواطف والأحاسيس، لأنه لو أرادَ أن يكون للمشاعر المكان الأول لكان هو ﷺ أولى الناس بها وباحتضانها، إذ كانت عمارة ابنة عمه وأخيه حمزة في الرضاعة، كما

(١) انظر زاد المعاد، ج٢ ص٢٢٠.

أفصح ﷺ عن ذلك للصحابة: «وهي ابنة أخي من الرضاعة». هذا فضلًا عن حبه لعمِّهِ حمزة الذي وقف إلى جانبه في الشدة، وجاهد معه في سبيل الله ـ عز وجل ـ حقَّ جهاده حتى استشهد في أُحُد، ولقَّبته الملائكة بـ «سيد الشهداء»..

على أنه ﷺ قد أحاط «عمارة» بالرعاية والحنان منذ أن جيءَ بها إلى المدينة، فلما بلغت سن الزواج، اختار لها من يليق بها، ويحفظ كرامتها ويحبها، فزوّجها من سلمة بن أبي سلمة كي يطمئن إلى مصيرها ومستقبلها، نظراً لما كان يتمتَّع به سلمة من خلق رفيع اكتسبَهُ في رعاية النبي ﷺ، ومن إيمان صادق عايشَ كيانَهُ منذ نعومة أظفاره وجعله وفياً على العهد للَّهِ ورسولِهِ طوال حياته..

ومثل هذا الاهتمام من رسول ﷺ في شؤون الأفراد، لم يكن ليحول دون اهتمامه بشؤون القبائل لكي يجعلها تقبل على الإسلام، وتنهل من معين التربية الإسلامية التي تتعمق جذورها في النفوس: تعاليم هداية، ومصابيح نور، تشعُّ على الناس حيثما كان المسلمون وأينما وجدوا.

إقبال وجهاء من قريش على الإسلام

وتلك التعاليم، وإشعاعات ذلك النور، هي ما بهرت أهل مكة في عمرة القضاء.. وإذا كانت هذه العمرة قد سمِّيت عمرة القصاص[1]، لأنها كانت نوعاً من القصاص للمشركين بدخول المسلمين إلى مكة، وزيارة الكعبة الشريفة، رغماً عن أنوف الذين

(١) وقد سميت هذه العمرة بأربعة أسماء: القضاء لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو عمرة القضية، وعمرة الصلح لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي حصلت في الحديبية، وعمرة القصاص.

وقفوا في وجههم قبل عام، وصدُّوهم عن زيارة المسجد الحرام. . إلَّا أنها تبقى في جوهرها تحلّق في نورها القدسي وهي تعكس على أهل مكة سيرة الإسلام، وسيرة أهله الذين يؤدون إلى الله (تعالى) كل يوم الصلوات، ولا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ. فكان أنْ مالت نفوس كثير من المكيين إلى الإسلام وأدركت عقولهم أنه الدِّين الحق، وأن نبيَّه صادق مصدَّق. فأقبل بعضهم على هذا الدين، وكان من بين الذين هفت نفوسهم إلى الإسلام، ثلاثةٌ من وجهاء قريش، هم: خالد بن الوليد بطل المشركين في «أحد»، وعمرو بن العاص مبعوث قريش إلى النجاشي ملك الحبشة، لإغرائه بتسليم المسلمين المهاجرين، وعثمان بن طلحة الموكلة إليه مفاتيح الكعبة المكرمة، بيت العرب المقدس، ومكان حجهم وأمنهم.

هؤلاء الرجال التقوا في صفر من سنة ثمان للهجرة في محلة تدعى «الهدة» ليسيروا معاً إلى المدينة، ويدخلوا في الإسلام.

أما خالد بن الوليد فقد كان من فرسان قريش الذين شهدوا المواطن كلها على الرسول، وعلى المسلمين. فلما أراد الله تعالى له الخير جلَسَ يتفكَّر بعداوته للنّبي وأتباعه، وما آلت إليه الأحوال، وخاصة من بعد عهد الحديبية، وهو يقول:

أي شيء بقي؟ أأذهب إلى النجاشي أم إلى هرقل؟ أم أترك ديني إلى يهودية أو نصرانية؟ أفأقيم في غربة، أم أقيم في داري؟

وزاد في حيرته وحسرته على نفسه ما حلَّ بالأحزاب عندما جاءت تغزو المدينة، وكيف شتت الله (تعالى) جموع القبائل بالريح العاتية، فكتمها ـ يومئذ ـ خالدٌ في نفسه. . ولكنها كانت من العبر التي

غيرت كثيراً من آرائه عن الدين الجديد، الذي لولا بركاته لما كانت لتحلَّ بالأعراب، وبقريش بالذات، تلك الهزائم والخسائر المتلاحقة.. ولكنه مع ذلك، لم تطاوعه نفسه على البقاء في مكة عندما دخلها المسلمون في عمرة القضاء، فغاب حتى لا يشهد حضورهم. وتفقَّدهُ في تلك الأثناء أخوه الوليد بن الوليد، الذي كان قد أسلم، وصار من الصحابة، فلم يجده، فبعث إليه بكتاب يخبره فيه أن رسول الله ﷺ قد سأل عنه، وأنه يعجب من أمره، وذهاب رأيه وعقله عن الإسلام، وإصراره على الشرك، ثم يدعوه فيه إلى الإسلام. فلما قرأ خالد كتاب أخيه زادت ملامته لنفسه. ورأى في المنام كأنه يهيم في بلادٍ ضيّقةٍ جدبة، ثم خرج إلى بلادٍ واسعةٍ خضراء. فسرَّه ذلك وأزمع على الخروج إلى المدينة للدخول في الإسلام. والتقى، وهو على تلك النيّة، صفوان بن أمية، فقال له:

ـ يا أبا وهب، أما ترى أن «محمداً» قد ظهر على العرب، فلو قدمنا عليه واتّبعناه فإنَّ شرفه شرف لنا؟

فأجابه صفوان:

ـ لو لم يبقَ أحد غيري ما اتبعته أبداً.

فقال خالد: هذا رجل موتور، قتل أبوه وأخوه ببدر.

ولم يكن عكرمة بن أبي جهل أقلَّ من صفوان حقداً على الإسلام عندما ذهب إليه خالدٌ يكلمه، فتركه، حتى إذا لقي عثمان بن طلحة، تجرأ بعد تردد وفاتحه بالأمر، ثم ما زال يحدثه، حتى قال له:

ـ ألا ترى يا عثمان، إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صُبَّ فيه دلوُ ماء لخرج؟

ووافق عثمان على رأي خالد، وتواعدا على اللقاء في محلّة الهدة. وهناك التقيا بعمرو بن العاص، وعرفا منه أنه قد قدم المدينة يريد الدخول في الإسلام، فساروا سويةً، حتى قاربوها، فأناخوا رحالهم عند النخيل، وبدلوا ثيابهم، ثم دخلوا على رسول الله ﷺ. وتقدّم خالد بن الوليد يشهد بشهادة الحق، ففرح الرسول بإسلامه وقال له:

«الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألَّا يسلمك إلَّا إلى خير». فقال خالد: يا رسول الله، ادع الله تعالى يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك. فقال له رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله».

وأما عمرو بن العاص فإنَّ كتب السيرة تروي عنه بنفسه قصة إسلامه، أنه لما انصرفت قريش مع الأحزاب عن غزو المدينة، جمع بعض الرجال الذين كانوا يسمعون منه، وقال لهم:

ـ تعلمون، والله إني أرى أمر «محمد» يعلو الأمور علواً منكراً. وإني رأيت أن نلحق بالنجاشي في الحبشة، فنكون عنده، فإن ظهر الصابئون ـ يعني المسلمين ـ على قومنا كنا تحت يد النجاشي، فإنه أفضل وأحب إلينا من أن نكون تحت يد «محمد»، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلَّا خير.

واتفق عمرو مع رجاله أولئك، ثم جمعوا أدَماً ممَّا كان يحبُّ النجاشي ليهدوه إليه. وذهبوا إلى بلاد الحبشة؛ وظلوا هنالك إلى أن جاء عمرو بن أمية الضمري ليعود بالمهاجرين، فقال عمرو بن العاص لأصحابه:

ـ لو دخلت على النجاشي وسألته هذا الرجل فأعطانيه، فضربت عنقه. فإذا فعلتُ رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسولَ «محمد».

وبالفعل، فقد دخل عمرو بن العاص على النجاشي وراح يتملّقه، حتى رأى أنه طابَ نفساً بحديثه، فقال له: أيها الملك قد رأيت رجلًا خرج من عندك وهو رسولُ عدونا الذي وترنا، وقتل أشرافنا وخيارنا، فأعطنيه لأقتله.

فما كان من النجاشي وقد سمع ذلك، إلَّا أن ضربَهُ على أنفه بشدة حتى سال الدم منه.. فقال عمرو: أيها الملك، لو ظننت أنك تكره هذا ما سألته.

ـ فقال له النجاشي: أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي عيسى لتقتله؟

قال عمرو: أيها الملك، أكذاك هو؟

قال النجاشي: ويحك يا عمرو، فوالله إنه لعلى الحق، ويظهر على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.. فخرج عندها عمرو بن العاص وهو يقول في نفسه: «عرف هذا الحقَّ العربُ والعجمُ، وتخالف أنت؟». وأخفى عمرو عن أصحابه ما أضمره في نفسه. ثم ارتحل على سفينة، وعاد إلى مكة.. ولم يلبث أن شمَّرَ إلى المدينة، فالتقى في الهدة بخالد وعثمان، فلما سألهما وجهتهما قال له خالد:

ـ دخل الناس في الإسلام، فلم يبق أحد، وإني والله أرى أنه قد استقام الميسم، وإن الرجل لنبيّ، أذهب إليه فأُسلم.

فقال له عمرو: والله ما جئت إلَّا لأُسلم.

وهكذا دخل مع صاحبيه المدينة، ومثلوا بين يدي رسول الله، فأسلم خالد أولًا، ثم تبعه عثمان بن طلحة، ثم تقدم عمرو بن العاص وبايع النبي ﷺ على أن يغفر له ما تقدم من ذنبه في معاداته للإسلام وأهله. فقال له ﷺ:

«الإسلام يجبُّ ما قبله، والهجرة تجبُّ ما قبلها».

ولم يكن هؤلاء الثلاثة وحدهم من الذين أقبلوا على الدخول في الإسلام بعد عمرة القضاء، بل غيرهم كثيرون أنعم الله تعالى عليهم، فجاؤوا المدينة، ودخلوا في الدين على يدي رسول الله، ليكون هذا الدين مغسل قلوبهم بماء الطهارة، وملاذ نفوسهم إلى قدسية الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وانبعاث الحق الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، فيصبح الإسلام عندهم عقيدة ومنهجاً. ثم يرتحلون إلى المضارب والديار مهتدين، هادين بالسلوك والتصرف، فيحتذي الناس بهم، ويقبلون على دين الله تعالى قانعين، راضين.

دعوة الملوك والأمراء للدخول في الإسلام

وإذْ كان رسول الله ﷺ يخطط لتثبيت دعائم دولة الإسلام، وتقوية هيبتها في داخل شبه الجزيرة، فإنه في الوقت نفسه كان يتحَسَّسُ الموقف الدوليّ، ويرقب ما يدور فيه من أحداث لمعرفة السبل التي تمكّن من إقامة العلاقات خارج حدود دولته، بما يجعل الترابط وثيقاً ما بين الاتصال الداخلي والاتصال الخارجي.. فأمّا من حيث الداخل فقد انتزع من قريش الصلح انتزاعاً، بينما أخضع اليهود لسيطرة الدولة، ولم يعد لكل من تينك الفئتين كيان مستقل يعوق القيام بالاتصالات الخارجية، فأصبح بذلك ممكناً الاتصال بين الدولة

الإسلامية وبين الأقاليم التي تقع على أطراف الجزيرة، والتي تشكِّل إما دولًا قوية، أو إماراتٍ تابعةً لتلك الدول، أو كياناتٍ صغيرةً مستقلة. ولكن السؤال الأساسي: هل بالإمكان إقامةُ العلاقات الدبلوماسية ما بين دولة الإسلام وتلك الدول والإمارات؟ وهل تلك الدول والإمارات تعترف لدولة الإسلام بكيانها المستقل أو تقبل بإقامة علاقات معها؟ أما الجواب فهو أنَّ الاتجاه العامَّ يَدُلُّ على انعدام كافة الروابط السياسية ما بين شبه الجزيرة وسائر الكيانات السياسية والقبلية الواقعة على أطرافها، لأن تلك الكيانات لم تكن لتعبأ، يوماً، بما يجري في داخل بلاد العرب إلَّا فيما نَدَر، ولم تهتم لظهور الدعوة الإسلامية وسيرها إلا ببعض ما كان يتصل بها من الأخبار، ولاسيما المعارك التي كانت تحصل بين الحين والآخر في مناطق متفرقة من تلك البلاد، من هنا كان استبعاد فكرة العلاقات الدبلوماسية، والإقدام على ما هو أهم من ذلك بكثير، ألا وهو نشر الدعوة الإسلامية في تلك البقاع، أيّاً تكن فيها الكيانات السياسية! . . .

القرار التاريخي

ولكنْ إذا كان ذلك هو وضعَ تلك الكيانات السياسية المحيطة بالدولة الإسلامية، فإن تفكير رسول الله كان دائماً منصبّاً على إيصال دعوته إلى الأمصار البعيدة، لأن الدين عند الله الإسلام، وهو دين الناس جميعاً، ولأنَّ محمداً هو رسول الله للناس كافة، وهذا هو حكم الله تعالى في عليائه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1] وتأييده لرسوله بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

إذن فالإسلام ليس ديناً خاصّاً بالعرب، ولا ديناً خاصّاً بالعجم، ولا هو دينٌ للشرق أو للغرب، بل هو دين لجميع الأمم والشعوب، وفي أي بقعةٍ من بقاع هذه الأرض وجدَ الإنسانُ، فالإسلامُ دينٌ له.. فيجب، وهذا شأنُهُ، ألَّا يبقى محصوراً في جزيرة العرب، بل لا بُدَّ أن ينطلق إلى البعيد البعيد متخطياً حدود الأقاليم، ومتجاوزاً الأبعادَ والفوارق.. هذا هو الاهتمامُ الذي كان يشدُّ رسولَ الله إلى إيصال الإسلام للناس جميعاً. ولقد ازداد هذا الاهتمام بعد أن تمكَّن من تثبيت دعائم دولته، وتركيز سياستها الداخلية، وإعداد كافة الأسباب لولوج باب السياسة الخارجية.

لذلك وبعد تفكير عميق ودقيق، قرَّر الرسولُ الأعظم أن يوجه الدعوات إلى كل الملوك والأمراء والحكام في أطراف الجزيرة العربية، وما وراءها للدخول في الإسلام..

ويتوقف العالم بأسره عند هذا القرار..

إذ كيف يمكن لهذا الحاكم، وما تزال دولته في بدء نشوئها، وفي أول عهدها بالفتوة، أن يقرِّرَ دعوةَ هرقل ملك الروم لأن يغيِّرَ ديانته النصرانية، ودعوةَ كسرى ملك الفرس لأن يتخلَّى عن ديانته المجوسية، مع ما يحمل ذلك من تنازل عن السلطان، وفقدان للعرش وذهاب للعظمة؟!

إنه قرار خطير، ولا شك، أن يعزم محمد ﷺ على مخاطبة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

أباطرةٍ وملوكٍ عظام في أَدَقِّ الأمور وأهم القضايا، ألا وهي العقيدة الدينية!.

وتنبع خطورة القرار من كون دولتَي الروم والفرس أقوى دول العصر في ذلك الحين. فقد كان لهما من القوة والنفوذ ما يبعد التفكير عن بال أي حاكم إلَّا بالتقرب إليهما، وطلب ودِّهما ورضاهما.. فأمبراطورية الروم، بالإضافة إلى رقعة امتدادها الشاسعة على بلاد الغال وسائر أنحاء ما يعرف اليوم بأوروبا كانت تُخضِعُ لسلطانها بلاد الشام ومصر بأسرهما.. وكذلك أمبراطورية الفرس، إذ بالإضافة إلى ترامي أطرافها، كانت تُسيطر على اليمن والعراق. ولقد كان لهما وحدهما السلطة في تقرير مصير السياسة الدولية، بحيث يمكن لكل منهما أن تملي إرادتها على غيرها من الدول الأخرى أو الإمارات، بحيث لا تجرؤ إحداها على الاعتراض لأنها لا تملك أية قدرة على التأثير في مجريات الأحداث. وكان من البديهي أن تبقى الكيانات السياسية الأخرى، ولاسيما في بلاد الشرق، بعيدة عن القيام بأي دور على مسرح السياسة، كما هو الحال مثلًا بالنسبة إلى اليمامة وعُمان والبحرين، التي كانت إماراتٍ مستقلةً، واهنةً ضعيفة. أو كما هو الحال بالنسبة إلى تهامة والحجاز، أو إلى نجد والطائف، التي تفرقت عن بعضها تحت النظام القبلي، فلم تعرف الوحدة السياسية، أو كيان الدولة الموحدة. ولذلك كانت العلاقات بين مختلف تلك الكيانات الهزيلة وبين الدولتين الكبيرتين مقتصرة على المبادلات التجارية، والخضوع لنفوذهما السياسي.

ومن هنا، ومن انعدام وجود الدول ذات القوة والهيبة، التي يمكن أن تقف في وجه الهيمنة الرومانية والفارسية، ومن تحكم هاتين

الامبراطوريتين فعلياً بمصائر الأمم جميعاً، كانت الخطورةُ والجرأةُ، في آنٍ معاً، باتخاذ محمدٍ ﷺ قراره بدعوة هرقل الروم، وكسرى الفرس للدخول في الإسلام.

ولكن متى علمنا أن محمداً ﷺ كان يعمل في سبيل الله تعالى بفهم سياسي مستنيرٍ، مستوحىً من الإسلام، فإننا ندرك أن أيَّ شأن للأباطرة والملوك قد يهون في عينيه.. فلقد كان مُحَتَّماً على خاتم النبيّين ﷺ أن يتوجه بدين الله تعالى إلى أولئك الحكام حتى يؤدي الأمانة الكبرى التي عهد الله عزَّ وجلَّ إليه بأدائها، وأن يدعوَهم إلى اعتناق هذا الدين ليؤمن مَن آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بينة، وأمره إلى الله سبحانه.. فالغاية تنحصر في إيصال الإسلام إلى الناس، قبل التفكير بالعلاقات السياسية وبالروابط التجارية أو غير التجارية. فهذه كلها تبقى دون الغاية التي فيها الخير كل الخير لأولئك الحكام وشعوبهم، ألا وهي اعتناق الإسلام. ولذلك كان الواجب يحتِّم على خاتم النبيين ﷺ دعوةَ الملوك والحكام للدخول في هذا الدين..

وإنَّ أكثر ما يُبرِز عظمة رسول الله ﷺ أنه اتَّخذ قراره الخطير والهامّ، ونفَّذَهُ ـ أجل ونفَّذه ـ بتوجيه الدعوات بصورة واضحة وصريحة، لا لَبْسَ فيها ولا غموض، ولا ممالأة ولا محاباة قطُّ لأحد من الأباطرة والملوك والأمراء.. وفي الوقت نفسه دون مناصبة أحدٍ العداء. بل توجهَ إلى الجميع ـ أقوى الملوك وأضعف الحكام ـ بدعوة الحق المبين، وبلهجة الحاكم النبيل العادل، وبعزم النبيِّ الأمين الصادق. وذلك على الرغم من معرفته بقلة الحيلة عند الملوك الصغار، وبالعداوة الشديدة بين امبراطوريتي الروم والفرس، وأثر تلك

العداوة على مشاعر أهل شبه الجزيرة، بل على سير الدعوة نفسها.

فقد كان ﷺ يعيش الأحداث ويرافق التطورات، حتى أيام القهر والأذى في مكة، ومن قبيل ذلك ما شهدت قريش، وشهدت معها قبائل العرب في السنة التاسعة من بعث محمد ﷺ، يوم أن ذهب يعرض الإسلام على أهل النصرة في مِنىً، كيف أنه أعلم الناسَ بخبر الوحي الذي نزل عليه، والذي أكَّد فيه أن الروم، وعلى الرغم من الهزائم التي حلَّت بهم على أيدي الفرس، سوف يعودون ويغلبون في بضع سنين.

وتفصيل ذلك أنَّه كان للحروب التي تدور رحاها ما بين الروم والفرس تأثيرُها على سكان جزيرة العرب. فقد اتخذ المسلمون موقفاً يظهر ميلهم إلى الروم، بينما كان موقف المشركين يؤيد الفرس. والسبب في ذلك تأثير المشاعر الدينية في النفوس. فالمسلمون مع الروم لأنهم أهل كتاب، وهوى المشركين مع الفرس لأنهم مثلهم على الوثنية. ولذلك كانت جميع الأطراف تتابع تلك الحروب باهتمام بالغ، وكلٌّ يتمنَّى غلبة الدولة التي يؤيدها. فالمسلمون يؤملون انتصار الروم، والمشركون يتمنون انتصار الفرس.

غُلبت الروم

ولقد ظهر ذلك الموقف جلياً، عندما اجتمع رسول الله ﷺ إلى بني شيبان يدعوهم إلى الإسلام، وقد انتهى لقاؤه بهم، وهو يخبرهم بأنَّ الله سبحانه وتعالى، سوف يمنح لأهل الإسلام بلاد الفرس وأموالهم، بعد أنْ تكونَ الروم قد غلبت الفرس في أدنى الأرض، وهذه الغلبة ستكون في بضع سنين، وتلا قول الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

واستغرب الناس مثل هذا الأمر!.. فتلك هي الفُرْسُ تسحقُ الرومَ بحروبٍ طاحنةٍ بحيث لا يمكن أن يقوم للروم بعدها قائمة.. ومع ذلك فهذا الرجل محمد بن عبد الله يُنبئُ العكس، ويقول بأنّهم بعد غلبهم سوف يغلبون، وفي مدة لا تتجاوز بضع سنوات!.. فهل هذا معقول؟!

ومردُّ هذا الاستغراب القصورُ في إدراك الناس، وعدم ربطهم النبأ بقول الله سبحانه وتعالى، عالم الغيب والشهادة.. ومهما يكن من أمر فقد ذاع الخبرُ بين القبائل، وباتَ الناس يردِّدون أنَّ «محمداً» يتنبَّأ بأن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين؛ فكان ذلك مدار اهتمام المسلمين والمشركين على حدٍّ سواء، نظراً لأهميته البالغة على الجميع. فأما المشركون، وخاصة في قريش، فرأوا فيه مدعاةً للهزء والسخرية، وراحوا يتهكمون على المسلمين، وينعتون نبيَّهم بما ينمُّ عن ضلالتهم وجهالتهم. بينما كان الوحي يقيناً قاطعاً عند المسلمين، فانبروا يحاولون إفهام الناس معانيَ هذا الوحي، وأنه من لدن عزيز حكيم، وهو وحده ـ سبحانه ـ الخالق العظيم، ومالك الأقدار

(١) سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٦.

والمصائر كلها، فلا تسقط شعرة من رأس إلَّا أن يشاءَ لها السقوط.. ولا تسقط ورقةٌ من شجرة، ولا حبةٌ في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلَّا بعلمه تعالى.. ينصرُ من يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، لأنه على كل شيء قدير.. ولكنْ أنّى للمشركين أن يفهموا مثل تلك المعاني وهم في الجهالة يعمهون؟!

وأما قضية تلك الحروب ما بين الروم والفرس، فتعود إلى تاريخ طويل.. إذ عندما اعتنقَ الأمبراطور قسطنطين النصرانية عام ٣٢٥م، جعلها الديانة الرسمية في بلاده، فآمنت بها أكثر رعايا الروم، في حين كان الفرس ما يزالون على عبادة الشمس، أو النار أو الكواكب..

وتوالت على حكم الأمبراطورية البيزنطية سلالةُ قسطنطين حتى كان آخرهم الملك موريس، وكان ملكاً غافلًا عن إدارة شؤون البلاد، فقام الجيش بثورة ضده بقيادة فوكاس، الذي قتله سنة ٦٠٢ ميلادية، ثم أعلن نفسه ملكاً على الروم بعد قضائه على العائلة المالكة السابقة كلها. وكان كسرى أبرويز الثاني (ابن أنو شروان) صديقاً وفياً للملك موريس، إذ كان قد التجأ إليه بسبب مؤامرة داخلية في الأمبراطورية الفارسية، فقدم له الملك الروماني كل المساعدة لاستعادة عرشه. وقيل إنَّ أبرويز الثاني قد تزوج من ابنة موريس أثناء إقامته في بلاد الروم. فلما عرف بانقلاب فوكاس وما حلَّ بالملك موريس غضب غضباً شديداً، وأمر بسجن السفير الذي كان فوكاس قد أرسله إليه بعد سيطرته على الحكم، ثم أعلن الحرب على بلاد الروم، فزحفت جحافله عابرةً الفرات إلى الشام. ولم يتمكن فوكاس من مقاومة جيوش الفرس التي استمرت باحتلالها لأرض الروم حتى استولت

على مدينتي أنطاكية والقدس، مما جعل حدود الأمبراطورية الفارسية تتسع لتصل إلى وادي النيل.

في ذلك الوقت بعث أعيانٌ من الروم برسالة سريّة إلى الحاكم الروماني في المستعمرات الأفريقية يناشدونه إنقاذ الأمبراطورية، فجهّز جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب هرقل من قرطاجنة، وسار هذا الجيش في الطريق البحرية، فلم يدر به فوكاس إلَّا عندما شاهد الأساطيل تقترب من سواحل بيزنطية. وقد استطاع هرقل ـ دون مقاومة تذكر ـ أن يقتلَ فوكاس ويستوليَ على الأمبراطورية سنة ٦١٠م.

بيد أن هرقل، وعلى الرغم من ذلك الانتصار الذي أحرزه، واستيلائه على السلطة، لم يتمكن من إيقاف المدّ الفارسي، حتى ضَاع من الروم كلُّ ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة قسطنطينية وجنوبيّها. ولم يعد العلم الروماني يرفرف على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى، بل عَلَتْهَا رايةُ الفرس.. وهكذا تقلَّصت الأمبراطورية الرومانية، وعمَّ القحطُ وفشت فيها الأمراض الوبائية.. وتوالت الهزائم النفسية في الداخل، والخسائر العسكرية في الخارج، واستولى الفرس على الصليب المقدس وأرسلوه إلى المدائن. وحينها بات الروم يخشون ضرب العاصمة واحتلالها.

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من تلك الأحوال السيئة، وقرر العودة إلى قصره في قرطاجنة على الساحل الأفريقي، لأن شغله الشاغل أصبح إنقاذ نفسه. وبالفعل جهّز هرقل لتلك العودة، وهمَّ بالخروج ليستقلَّ إحدى السفن إلى منفاه الاختياري، لولا أن جاءه، في ذاك الوقت بالذات، كبيرُ أساقفة الروم يناشده باسم الدين والمسيح

البقاء، حتى أقنعه.. وبإشارة من القائد الفارسي «سين» أرسل هرقل سفيراً إلى كسرى طالباً منه الصلح. وكانت قد انقضت تسعة أعوام على الحرب عندما رضي الأمبراطور الفارسي أن يصالح هرقل على شروط معينة، تعتبر مخزية جداً للروم.

وبعد طلب الصلح بسنتين أي سنة ٦٢١م، وبعد استيلاء الفرس على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم، كان الحدث التاريخي الهامُّ في الجزيرة العربية، عندما تنبَّأ القرآن الكريم بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين، أي في الوقت الذي كان فيه الروم بأشدّ الحالات ضعفاً وانهزاماً. وهو الوقت الذي كان فيه المسلمون أيضاً بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية.. وفي ظل تلك الأوضاع نزل مطلع سورة الروم من القرآن الكريم، وأذاع رسول الله ﷺ النبوءة العظيمة، آياتٍ من كتاب الله المجيد.. بل وأكثر من ذلك، ففي تلك السنة بالذات حدث في داخل هرقل انقلاب نفسي جعله يتحوّل من ملك متخاذل، راكن إلى الدّعة والترف، إلى قائد متحمّس غيور، إذ منعَ عن نفسه جميع الملذات، ثم راح يضع الخطط استعداداً لحرب الفرس.. فلما أكمل استعداداته وتجهيز جيشه، خرج على رأس جنده للحرب، فلم يصدق سكان القسطنطينية ما رأوه، بل بدا للكثيرين منهم أن هذا الجيش قد يكون آخر الجيوش في تاريخ الأمبراطورية البيزنطية.

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعدّ بَحْريته للإغارة على الفرس من الخلف. وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى أرمينيا، وشنَّ على الفرس هجوماً مفاجئاً في الميدان الذي كان الإسكندر المقدوني قد هزم جيوش الروم فيه، عندما زحف

على أراضي مصر والشام. ولم يستطع الفرس مقاومة غارة هرقل المفاجئة، فلاذوا بالفرار.

وكان للفرس جيش كبير في آسيا الصغرى. فباغتهم هرقل هناك أيضاً بأساطيله، وأنزل بهم هزيمة فادحة. وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد إلى عاصمته القسطنطينية عن طريق البحر بعد أن عقد معاهدة مع الأقاريين.

وبعد هاتين الحربين، قام هرقل بثلاث حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣ و٦٢٤ و٦٢٥ ميلادية، واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم عن طريق البحر الأسود، مما اضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية تقريباً.. وكانت آخرَ تلك الحروب المصيرية الحربُ التي خاضها الطرفان في نينوا على ضفاف دجلة في ديسمبر (كانون الأول) عام ٦٢٧م.

أما من ناحية الفرس، فلم يستطع كسرى أبرويز مقاومة سيل الروم، وحاول الفرار من قصره دستكرد، فنشبت ثورة داخلية في فارس، واعتقله ابنه شيرويه وزجّ به في سجن داخل القصر الملكي، حيث لقي حتفه في اليوم الخامس من اعتقاله.

ولكن شيرويه هو الآخر لم يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، إذ قتله أحد أشقائه. وهكذا توالى الشقاق داخل البيت الملكي في بلاد الفرس، حيث تولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام. ولم يكن ممكناً، ولا من المعقول، في مثل تلك الأحوال السيئة، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم.. فأرسل قباد الثاني ابن كسرى أبرويز الثاني يرجو الصلح، والتنازل عن الأراضي الرومية، وإعادة الصليب المقدس.

وفي سنة ٦٢٧م. توجه هرقل إلى بيت المقدس، ليعيد الصليب المقدس، وفاءً للنذر الذي أخذه على نفسه، فكان الناس يبسطون له البسط ليمشي عليها، وينثرون عليه الرياحين، احتفاءً به وإجلالاً له..

لذلك يتبين جلياً من مجرى الأحداث أن نبوءة القرآن الكريم التي أعلنها رسول الله ﷺ وهو بمكة سنة ٦٢١ ميلادية، قد تحققت في بضع سنين عندما استطاع هرقل أن يقهر الفرس في مدة تقل عن تسع سنوات، لأن البضع (في لغة العرب) هو ما بين ثلاثة وعشرة. وقد وصف أحد مؤرخي الغرب هذه النبوءة بقوله: «لم تكن أية نبوءة أبعدَ منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تُؤْذِنُ بانتهاء الأمبراطورية الرومية».

وهكذا ومن رؤية الرسول للأحداث الدولية عامة، ومن مراقبته المستمرة لما يدور حول جزيرة العرب خاصة، اتخذ قراره بدعوة الملوك والحكام خارج الجزيرة للدخول في الإسلام، وعزم على بعث موفدين له يحملون تلك الدعوة. ثم خرج يوماً على أصحابه وقال لهم: «إن الله تعالى قد بعثني رحمة للناس كافة، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريُّون على عيسى ابن مريم عليه السلام»[١].

قال الصحابة: «وكيف اختلف الحواريُّون يا رسول الله؟».

قال لهم: «دعاهم إلى الذي دعوتُكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فَكَرِهَ وجهتَهُ وتثاقل»[٢].

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص٣٧١.
(٢) المصدر السابق.

ولما تساءل الصحابة عن مقصد رسول الله ﷺ، أخبرهم بأنه مرسِلٌ إلى الملوك والأمراء: هرقل الروم، وكسرى الفرس، ونجاشي الحبشة، والمقوقس حاكم مصر، والحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحميري ملك اليمن، رُسلًا تحمل إليهم كتبه التي يدعوهم فيها للإسلام. فلا يَكْرَهَنَّ الأمرَ أحدٌ يختاره لهذه المهمة.. ولكنَّ فرحة الصحابة كانت عظيمة جدّاً وهم يسمعون ما عزم عليه الرسولُ الأعظم. بل وقدّمَ كلٌّ نفسه للذهاب في المهمة التي يريد الرسول أن يوفده بها، مُبدين أتمَّ الاستعداد لذلك والدعاء إلى الله سبحانه أن ينصُرَ دينه، ويُعلي كلمة الإسلام.

وصَنَعَ رسول الله له خاتماً من فضة نقش عليه: «محمد رسول الله» ليمهر به كتبه، ثم اختار سفراءه إلى الملوك والحكام، الذين يحملون إليهم رسالة الدعوة للدخول في الإسلام. وهم: دِحْيَة بن خليفة الكلبيّ إلى هرقل، وعبد اللّه بن حذافة السَّهمي إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وحَاطِب بن أبي بَلْتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وعمرو بن العاص السَّهميّ إلى ملكَيْ عُمان، وسَلِيط بن عمرو إلى ملكَيْ اليمامة، والعلاء بن الحَضْرَميّ إلى ملك البحرين، وشُجاع بن وهب الأَسَديّ إلى الحارث الغسانّي ملك تُخوم الشام، والمهاجر بن أُميَّة المخزومي إلى الحارث الحِميريّ ملك اليمن.

وحمل كلٌّ من هؤلاء الصحابة كتاب رسول الله ﷺ يبلِّغه إلى صاحبه، فكانوا أول رُسُل يحملون رسالة الإسلام خارج الجزيرة العربية.

ولقد تضمنت تلك الكتب النصوص التالية:

نص الكتاب إلى عظيم الروم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله وعبده إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتَّبع الهدى. أمّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلِمْ تسلَمْ يؤتك الله أجرك مرَّتَين. فإنْ تولَّيْتَ فعليك إثم الأريسيّين[1].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

وكان رسول الله ﷺ قد أمر دحية أن يدفع هذا الكتاب إلى عظيم بصرى ليقدّمه بدوره إلى هرقل، فسلّمَهُ إياه وهو في مدينة حمص، ذاهباً إلى بيت المقدس ليوفي نذره ويحجّ إلى بيت المقدس ماشياً، بعد انتصاره على الفرس. وتُلي خطاب رسول الإسلام على هرقل وتُرجِم له، فلم يأخذه منه ما يأخذ الملوكَ عادة من خوف على مُلكهم، بل تأثَّرَ به تأثرَ عالِم ينتظر خبراً هاماً له صلة بعلمه. وذلك أن هرقل كان رجلًا عنده سعةُ اطِّلاع، ومعرفةٌ بالملاحم، وعلمٌ بالفلكِ وأخبارِ الأنبياء. فلما بلغه كتاب «محمد رسولِ الله» لم يغضب ولم تثر

---

(١) الأريسيين: تعني الخدم والحشم أو الفلاحين، وقيل هم قوم من المجوس لم يعبدوا النار، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم (عليه السلام). وقيل إنهم أتباع عبد اللّه بن أريس (رجل كان في الزمن الأول) قتلوا نبياً بعثه اللّه إليهم. وقيل غير ذلك. فيكون قصد رسول الله ﷺ واحدة من اثنتين: إما أن هرقل يحمل إثم رعاياه إن صدهم عن الإسلام، وإما أن هرقل يحمل الإثم الذي حمله الأريسيون عندما قتلوا النبيَّ الذي بُعث إليهم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

ثائرته، بل طلب أن يأتوه بقوم لهم صلة بأخبار نبي الإسلام. وكانت قافلةٌ لقريش قد جاءت إلى بلاد الشام وعلى رأسها زعيم المشركين ـ يومئذٍ ـ أبو سفيان بن حرب، فدعاهم جنود هرقل إلى مجلس الملك بأمر منه. فلما دخلوا عليه وحوله عظماء الروم، سألهم بلسان الترجمان:

ـ أيّكم أقرب نسباً إلى ذاك الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

قال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً إليه أيها الملك.

وأمر هرقل جنوده بأن يُدنوا منه الرجل، ويقرّبوا أصحابه فيجعلوهم عند ظهره، ثم التفت إلى ترجمانه يأمره قائلًا:

ـ قل لهم: إني سائل هذا (وأشار إلى أبي سفيان) فإن كَذَبني فليكذِّبوه..

وعند سماع أبي سفيان لما قاله الترجمان، تضاربت في نفسه المشاعر، فهو يريد أن يبخس محمداً حقه، لأنه عدوه اللدود، ولكنه يخاف من غضب هرقل إن عرف أنه كاذب.. على أنّ أبا سفيان عادَ وجعل أصالة البداوة، وصفاء الصحراء ينتصران على ما تنطوي عليه نفسه من الأحقاد، فقرر أن يجيب بالصدق. فلمَّا سأله هرقل:

ـ كيف نَسَبُ من يدَّعي النبوة فيكم؟.

قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

قال هرقل: فهل كان من آبائه من ملك؟.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل قال قولَهُ أحدٌ منكم قطُّ قبله؟.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟.

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟.

قال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: فهل يرتدّ أحد منهم سخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟.

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل هو يغدر؟.

قال أبو سفيان: لا، ولكن نحن معه الآن في هدنة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال هرقل: فهل قاتلتموه؟.

قال أبو سفيان: نعم.

قال هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينالُ منَّا، وننال منه.

قال هرقل: وماذا يأمركم؟.

قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً. واتركوا ما يعبد آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق، والعفاف وصلة الرحم، وإيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين.

فلما فرغ هرقل من استجواب أبي سفيان، تفكَّر ملياً ثم أجمل لترجمانه يأمره: «قل لهذا الرجل:

«سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب. . وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

«وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول الذي يقوله؟ فذكرت أن: لا. فقلتُ: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يتأسَّى بقولٍ قيل قبله.

«وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن: لا، قلتُ: فلو كان من آبائه من ملك، فهذا رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ فذكرت أن: لا، فعرفت أنه لم يكن ليذَرَ الكذب على الناس ليكذب على الله.

«وسألتك: أأشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن الضعفاء منهم أتباعه، وهم هؤلاء أتباع الرسل. وهل إنهم يزيدون أو ينقصون؟ فعرفت منك أَنهم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ.

«وسألتك: أيرتدّ أحد من أتباع هذا الدين الجديد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن: لا. وكذلك الإيمان حين تخالطُ بشاشتَهُ القلوبُ.

«وسألتك: هل يغدر؟ فنفيت عنه الغدر. وكذلك الرسلُ والأنبياءُ لا تغدر، ولا يمكن أن تغدر.

«وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بدلًا عنها بإقامة الصلاة والتحصّن بالعفاف وكرم الأخلاق.

«هذا ما قلت لي أيها الرجل ولم يُكذِّبك أحَدٌ من بني قومك. . إذن فلتعلم يا هذا: إن كان ما تقول حقاً، فسيملك رجلكم موضع قدميَّ هاتين (يقصد العرش الذي يجلس عليه). . وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكني لم أكن أظن أنه في العرب. فوالله لو أني أعلم أنّي أخلُصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه»[1].

وخرج أبو سفيان وصحبه يزفرون بالتأوّهِ، وهو يقول لهم: لقد أَقَرَّ أَمْرَ ابنِ ابي كبشه. . .

أما هرقل فقد اختلى بنفسه متفكّراً بما جاءه من دعوةٍ، وبما سمعه من أخبار صاحب الدعوة، فأيقن أنه حقاً النبيُّ المنتظر، وخاتمُ النبيين على الأرض. ومثل تلك القناعة قد هيَّأت الاستعداد لديه لقبول الحق إذ جاءَه بشيرُهُ. وقد شاءَ أن يتحرَّى عن صدق هذا البشير، فجاءت الصورة واضحة جلية في أخبار من رأَوا ذلك النبيّ وعايشوهُ، وبما يؤكِّدُ صدقَ نبوَّتِهِ.

نعم! أرادَ هرقل أن يقف على الحقيقة فتحرّاها بدقة، دون تعصّب لفكرة، أو شطط في المعرفة، فلما اكتملت عنده القناعة السويّة، ولم يعد لديه من شكٍّ بأنّ ما يُعرض عليه هو الحق، عاد يجمع الملأ من الوزراء والمستشارين ورجال الكهنوت في مجلسه، ثم غلَّقَ عليهم أبواب دسكرته في حمص، وخاطبهم قائلًا: «يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم؟ لئن أردتم ذلك فاتبعوا هذا النبيَّ الذي جاءتنا دعوته». ثم تابع يقول: «هو والله

(١) انظر صحيح البخاري ١/ ٤؛ وصحيح مسلم، ٢/ ٩٧، ٩٨ و٩٩.

رسولُ الله الذي بشَّرنا به موسى وعيسى»[1]. . قالها ثلاثاً، وسكت، ليرى رَدَّة الفعل عند القوم! . . .

وأجفل أهلُ الجمع وخافوا. . لم يناقشوا ملكهم، ولم يحاوروه، بل جلُّ ما فعلوه وهو يعرض عليهم ما يعرض، أن سكتوا وظلّوا مطأطئي الرؤوس. فقد قلقوا على مصيرهم ونفوذهم، وعلى الامتيازات التي يتمتعون بها، دون أن يأبهوا لدعوة حق أو لداعي إيمان. وأنكروا في قلوبهم ما يقوله الملك، ولكنَّ أحداً لم يجرؤ على البوح له بمكنون نفسه. . ورآهم هرقل على تلك الحال، وأنهم يحيصون حِيصة حمر الوحش، فأمر بارفضاض الاجتماع.

وقاموا يسرعون في الخروج، فاصطدموا بالأبواب ما تزال مغلّقة في وجوههم. . وأدرك هرقل ـ ما عندهم من نفرة، وأيقَنَ ما في خلدهم من مطامع، وكان يعرفهم أهل دهاء وخبث، وذوي قدرة على تدبير المكائد والدسائس، فخاف على نفسه وعلى ملكه منهم، فأمر سريعاً بردِّهم عليه. وأجلسهم يقول لهم: «ما أظن قادة الرأي في ملكي يبلغ بهم الشطط إلى هذا الحد من اختبارٍ أراد مليكهم أن يمتحن به صلابة مواقفهم، وقوة ثباتهم على دينهم. وقد رأيت من ردة الفعل ما يزيدني اطمئناناً، ويزيدني ثقة بكم».

ومثل لمح البصر تبدلت المشاعر، وتغيّرت المواقف، فقاموا إليه يسجدون له خاشعين راضين، وبالمجد له داعين. وهكذا غلبت الشقوة على هرقل، واستحب العمى على الهدى. لقد برق له نور الحق وأضاءَ جوانب فكره، ولكن كان ذلك للحظات، ثم ما لبث أن

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ٨/ ١٦١ ـ ١٦٢.

خيَّمت عليه ظلماتُ المطامع، وغطّته سُحُبُ الإغراءات، وغلبته شهوات الملك والسلطان، عندما وقفت الدنيا ومادياتها في وجه ذلك الملك فصدّته عن الآخرة وروحانياتها، منتصرة عليه بحفنةٍ من الدهاقنة وذوي المطامع، فانصاع إليهم هاوياً في الضلالة.. ولم يكتف هرقل بالمراوغة والمداهنة، بل وحتى يُبعد عنه شبح الاغتيال، أو الانقلاب عليه، ولكي يُطمئن أولئك الذين يخافهم على عرشه، انبرى يقدم لهم البرهان على صدق ما يقوله لهم، وكان ذلك البرهان أمرَهُ بقتل كل مسلم يعثرون عليه في بلاد الشام.

ولكن ماذا جرى لرُسُل النبيِّ ﷺ الباقين وهم يحملون كتبه إلى الملوك والحكام الآخرين؟.

كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى عاهل الفرس

دخل عبد الله بن حذافة السهمي على كسرى أبرويز بن هرمز، عظيم الفرس، في إيوانه بالمدائن، وقد اجتمع من حوله القادة والوزراء والعظماء، لكي يسلّمه كتاب رسول الله ﷺ. فأمَرَ كسرى أن يأخذوا الكتاب ليروا ما فيه، إلَّا أنَّ عبد الله رفض، وقال:

ـ لقد أمرني رسول الله ﷺ بأن أسلِّمه إلى كسرى يداً بيد.

ورأى عاهل الفرس في هذا التصرّف شيئاً جديداً لم يألفه من قبل، فأدناه وتناول الكتاب، ثم فتحه ودفعه إلى كاتبٍ لديه من أهل الحيرة، فقرأ ما فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله وعبده إلى كسرى عظيم الفرس. سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلَّا الله

وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبدُه ورسوله. وأدعوك بدعاء الله ـ تعالى ـ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأُنذرَ من كان حيّاً، ويحقَّ القول على الكافرين. فأسلِمْ تَسْلَم. فإن أبيت فإنَّ إثم المجوس عليك».

واستشاطَ كسرى غضباً، وهو يسمع ما كتب إليه «محمد»، فإذا به يأخذ خطابه ويمزّقه. ثم أَمرَ على الفور بالكتابة إلى بازان ـ عامله على اليمن ـ يتوعده، ويأمره بأن يبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين جلدين من عنده، ليأتياه به!...

فلما عاد عبد اللّه وأخبر الرسول مقالة كسرى، قال ﷺ: «مزَّق الله ملكه»[1]. أما عامل كسرى على اليمن، فما إن بلغه أمرُ سيده، حتى استدعى على الفور قهرمانه ويدعى بابويه، وكان كاتباً حاسباً، كما دعا إليه رجلًا ذا عضلٍ وقوة واسمه خرخرة، وبعث بهما إلى محمد بن عبد اللّه، مع كتاب يدعوه فيه للذهاب معهما إلى كسرى.

وعرف أهل الطائف بأمرِ هذين الرجلين، وبأنَّ كسرى عظيم الفرس غاضبٌ من «محمد»، وقد بعث من يحمله إليه؛ فاستبشروا بهما فألًا حسناً، وقالوا: «إن محمداً قد ناصب كسرى ملك الملوك، كُفيتمُ الرجل».

أما رسول الله فلما جاءه المبعوثان من عند «بازان»، وعرف مهمتهما وهي حمله إلى كسرى، لم يزد على أن تبسَّم لهما. ثم قام أصحابه يأخذونهما بعيداً عن مجلسه الكريم، ويكرمون وفادتهما بناءً على أمره ﷺ، مما جعل الرجلين يطمئنان بعد الخوف الذي

---

(١) هيكل، حياة محمد، ص٣٨١.

اعتراهما، لكثرة ما رأيا من الرجال الذين تجمعوا حولهما، عندما كانا بين يدي رسول الله.

ودعا الرسول ﷺ في اليوم التالي الرجلين إليه، وأخبرهما بأن كسرى أبرويز قد قتله ابنهُ شيرَوَيْه، واعتلى العرش مكانه. ثم صرفهما برفق، وهو يقول لهما: «اذهبا إلى سيدكما بازان وأخبراه عني بأن الله تعالى قد أوحى إليَّ بمقتل المليك. وأبلغاه أن ديني سيبلغ مدى ما بلغ ملك كسرى. وقولا له إن رسول الله يقول لك: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملّكتك على قومك».

وعجب أهل المدينة من إخبار النبي عن مقتل شاهنشاه الفارسي على يد ابنه، إلَّا أنهم في الحقيقة كانوا يصدقون كلَّ ما يقوله رسولُ الله ﷺ، فإذا أخبر بهذا الأمر، فإنه يكون قد وقع فعلًا، والأيام ستؤكد قول رسول الله ولا ريب...

أما بازان فلم تصدق أذناه في بادئ الأمر ما جاء يرويه موفداه حول ما لقياه قولًا وفعلًا من معاملة رسول الإسلام، وعظيم خُلُقِهِ، وما أنبأ به عن مقتل كسرى. فلما عادَ من شرود فكره، قال: «ما هذا بكلام ملك. وإني لأرى الرجل نبيّاً، فلئن كان ما ذكره عن كسرى حقّاً فإنه لنبيٌّ مُرْسَل. وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا». ولم يمضِ عليه وقت طويل، حتى جاءه كتاب من شيرويه، وفيه يقول له: «أما بعد، فإني قتلت كسرى، ولم أقتله إلَّا غضباً لفارس لما كان استحلَّ من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم. فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قِبَلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تهيِّجهُ حتى يأتيك أمري فيه».

إسلام بازان حاكم اليمن

ولقد كان لكتاب شيرويه أبلغُ الأثر على بازان، فقد جاءَ يصدق خبر ذلك النبيِّ في بلاد الحجاز، فقال في نفسه: وإلّا فكيف أمكنه أن يعلم بالأمر، وبين فارس والحجاز كل تلك المسافات البعيدة التي لا يمكن قطعها وإيصال الخبر بينها إلَّا بانقضاء مدة طويلة؟! ثم ألم يقل له كهرمانهُ بابويه: «ما كلمت رجلًا قطُّ أهيب عندي منه؟». . إذن ليس علم ذلك الرجل إلَّا من نبوءات الأنبياء. . فهو إذن نبيٌّ حقّاً. .

ويشاء اللَّهُ تعالى له الهداية، فيؤمن بالإسلام، وصدق نبيّه، دون أن يراه، ويؤمن معه كثيرون من أهل الفرس الذين يقيمون في اليمن، ممّا هيَّأ أرض تلك البلاد لأن تكون نقطة «ارتكاز قوية للإسلام في جنوب شبه الجزيرة» كما دلت الأحوال عليه بعد عامَين اثنَين[1].

كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ملك الحبشة

أما الكتاب إلى نجاشي الحبشة «أصحمة بن الأبجر» فقد كان نصه التالي:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلَّا هو الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن. وأشهد أن عيسى ابن مريم روحٌ من الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله (تعالى) من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى

(١) هيكل، حياة محمد، ص٣٨١.

الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله. وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجلّ، وقد بلَّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نُصحي والسلام على من اتَّبع الهدى»[1].

وبعد وقوف النجاشي على ما جاء في الكتاب، وارتسام علامات الرضى على محياه، استأذنه عمرو بن أمية الضمري بالكلام، فقال:

«أيها الملك، إنَّ عليَّ قولًا فأرجو أن تسمعني. أنت كأنك في الرقة علينا، ونحن كأنا في الثقة بك. لم نظنّ بك خيراً إلَّا نِلْناه، ولم نَخَفْكَ على شيء إلَّا أَمِنَّاه. وقد أخذنا الحجة عليك من فيك: الإنجيلُ بينَنا وبينَك شاهدٌ لا يُرَدُّ، وقاضٍ لا يجور. وفي ذلك الموقع الحزُّ وإصابةُ المِفْصَل، وإلَّا فأنت في هذا النبيِّ الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرَّق النبيُّ ﷺ رُسله في الناس فَرَجاك لما لم يَرْجُهم، وأَمِنَك على ما خَافَهم عليه، بخيرٍ سالفٍ وأجرٍ ينتظر».

فأجابه النجاشي قائلًا:

«أشهد أنه النبيُّ الأميُّ الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس أشفَى من الخبر».

وبعد إكرام وفادته، حمَّل النجاشيُّ عمرَو بن أمية كتاباً إلى رسول الله ﷺ هذا نصه:

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، ص٣٢١ عن المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة.

«سلام عليك يا نبي الله، ورحمة من الله وبركات، الله الذي لا إله إلَّا هو.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت في عيسى ـ عليه السلام ـ. فوربِّ السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثتَ به إلينا. وقد قَرَيْنا ابن عمك جعفر بن أبي طالب وأصحابك. فأَشهدُ أنك رسولُ الله، صادقاً مصدِّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يدَيه لله رب العالمين»[1].

تلك كانت إجابة النجاشي ملك الحبشة. وفيها الدلالة الواضحة على إيمان الرجل بصدق النبيِّ ﷺ وتصديقه. فأسلم، ودعا معه أبناء قومه إلى الإسلام، ولكنه لم يُكرههم على الإيمان بما آمَن به، لأنه كان ملكاً عادلاً. وقد استجاب لنداء الحق من غير تباطؤ أو تردد، فكان من ذوي الإيمان الصادق والحكم العادل. وقد روي أنَّ النبيَّ ﷺ نعاه إلى المسلمين يوم وفاته، وصلَّى عليه صلاة الغائب، وذلك في رجب سنة تسع من هجرته ﷺ عند الرجوع من تبوك.

كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر[2]

حمل حاطب بن أبي بلتعة هذا الكتاب وقد جاء نصه:

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٦١.

(٢) وكان اسمه جريج بن متى (انظر: كتاب «رحمة للعالمين»، ج١ ص١٧٨) أو اسمه بنيامين (انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكي ص١٤١) وقد أورد نص الكتاب ابن القيّم في: زاد المعاد، ج٣ ص٦١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من محمد عبد اللّه ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتَّبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعوة الإسلام. أَسْلِم تَسْلَم، أَسْلِم يُؤتِكَ الله أجرك مرَّتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم أهل القبط. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

وقدم حاطب على المقوقس، فأكرمه وأنزله منزلة كريمة. ثم جمع إليه بطارقته يستشيرهم في أمر الكتاب، فأشاروا عليه بأن يتحرَّى الأمرَ بعناية، ويعلم من خبر هذا النبيِّ الذي يدعوه إلى دينه بما يجعله قادراً على اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً... فاستدعى إليه حاطباً، ثم راحَ يسألُهُ، فقال:

هلمَّ أيها الرجل، وأخبرني عن صاحبكم، هل هو نبيٌّ حقاً؟

قال حاطب: بلى والله، إنه نبيٌّ، ومرسلٌ من الله سبحانه وتعالى للناس كافة.

قال المقوقس: فما له حيث كان هكذا!.. فقد بلغنا أن قومه آذَوْه، وأخرجوه من بلده إلى غيرها، فلِمَ لم يدعُ على هؤلاء القوم؟ فيسلط عليهم؟

قال حاطب: ألستَ تشهد أن عيسى ابنَ مريم هو رسولُ الله؟ فما له حيث أخذَهُ قومُه، فأرادوا أن يصلبوه، ألَّا يكونَ دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

قال المقوقس: أحسنتَ، أنت حكيم قد جاء من عند حكيم..

ثم قال حاطب: أنت تعلم أيها الملك أنه كان في هذه البلاد من قبلُ رجلٌ يزعم أنه الرَّبُّ الأعلى (ويعني به فرعون)، فأخذه الله ـ تعالى ـ نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه. فاعتبر بغيرك، ولا يعتبرْ غيرك بك!.

قال المقوقس: إنَّ لنا ديناً لن ندعه إلَّا لما هو خيرٌ منه.

فقال حاطب: «ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله سبحانه ما سواه. إن هذا النبيَّ دعا الناس، فكانت قريشٌ أشدَّهم عليه، واليهود أعداهُم له، والنصارى أقربَهم منه. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى ابن مريم إلَّا كبشارة عيسى بمحمد بن عبد اللّه (عليهم جميعهم الصلاة والسلام). وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلَّا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبيٍّ أدرك قوماً فهم أمته، فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، وأنت ممَّن أدرك هذا النبيّ.

قال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبيّ، فوجدت معه آيات النبوة بأخبارِ الجنِّ والإخبار بالنجوى، وهو لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه.. وسأنظر[1].

ثم جعل المقوقس كتاب رسول الله ﷺ في وعاء من عاج، وختم عليه، وأمر بحفظه في مكان أمين. ثم أملَى على كاتبٍ لديه ـ يتقن العربية ـ كتاباً إلى رسول الله جاء فيه:

«إلى محمد بن عبد اللّه من المقوقس عظيم القبط

«سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٩٤ و١٩٥.

فيه، وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيّاً قد بقي، وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت إليك بجاريتَيْنِ لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوةٍ، وأهديت إليك مطيةً لتركبها والسلام عليك»[1].

ودفع المقوقس الكتابَ إلى حاطب وهو يقول له: القبط لا يطاوعوني في اتّباعه.. وأنا أَضَنُّ بملكي أن أفارقه، وسيظهر على البلادِ.. فارجع إلى صاحبك.. ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً، أو تعلم بمحاورتي إياك[2].

وصَحِبَ حاطب مارية بنت سمعون القبطية، وأختها سيرين وكانت أمهما مسيحية روميّة. وكانتا قد ولدتا في قرية من صعيد مصر. ثم انتقلتا في مطلع شبابهما الباكر إلى قصر المقوقس، وعاشتا فيه، حتى جاء حاطب فبعث بهما المقوقس هديةً إلى النبيِّ..

ولما بلغ كتابُ المقوقس رسولَ الله، قال ﷺ: أدرك هذا الرجلَ مثلُ هرقل الروم، فقد عرف الحقَّ ولكنه أحجم عن الدخول في الإسلام، «لقد تمسّك بملكه، ولا بقاء لملكه».

زواج النبي ﷺ من مارية القبطية

وقد أسلمت مارية وأختها سيرين، فأعتقهما رسولُ الله ﷺ، وتزوج من مارية القبطية، ثم تزوج حسان بن ثابت من أختها سيرين. وقد ولدت مارية للنبي ابنه إبراهيم، وولدت سيرين لحسان ابنه عبد الرحمن.

---

(١) الرحيق المختوم، ص٣٢٣.

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٩٥.

وقد حفظ الصحابة وصية الرسول ﷺ في قوم زوجه السيدة مارية رضي الله عنها، ففي صحيح مسلم ـ في كتاب الفضائل ٢٢٧ ـ عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ «إنكم ستفتحون مصر، إن شاء الله، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإنَّ لهم ذمّة ـ أي حرمة ـ ورحماً ـ أي لكون أم اسماعيل منهم ـ أو قال: ذمة وصهراً، أي بكون مارية أم المؤمنين منهم»[١]. وفي معجم البلدان لياقوت الحموي «أن الحسن بن علي عليه السلام كلم معاوية لأهل «جفن» فوضع عنهم خراج الأرض ـ لأنها بلد مارية[٢]؛ وقيل: إن عبادة بن الصامت لما جاء مصر بعد فتحها بحث عن تلك القرية وسأل عن موضع بيت مارية فبنى به مسجداً»[٣].

كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

كان الحارث بن أبي شمر الغساني حاكماً على دمشق من قبل الروم عندما جاءه كتاب رسول الله ﷺ مع شجاع بن وهب الأسدي وقد كتب له فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتَّبع الهدى، وآمَن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك».

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٩٦، عن: مكاتيب الرسول، للأحمدي ج١ ص١٠٢.

(٢) انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص١٩٨.

(٣) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، سيدات بيت النبوة، ص٤٠٦.

وقد بلغ شجاع دمشق في وقت كان فيه الحارث يستعد لتهيئة الضيافة لقيصر، وقد سار من حمص إلى إيلياء ـ بيت المقدس ـ وفاء للنذر، حيث كشف الله (تعالى) عنه جنود فارس ـ كما أبدينا من قبل ـ وكان تصرف الحارث لئيماً للغاية، إذ رمى الكتاب، وقال: «من ينزع مني ملكي؟»، ثم أمَرَ بردّ شجاع موفد رسول الله ﷺ خائباً. وأمر من بعدها بتجهيز الجيش، ليبعث به إلى المدينة، ويقاتل المسلمين. ولكنه لما استأذن قيصر بالأمر أرسل إليه بالتريث. إلَّا أنه لم يلبث بعدها إلَّا قليلًا، حتى «بادَ مُلْكُه»[1] تصديقاً لقول النبي ﷺ.

كتاب رسول الله ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة

حمل سليط بن عمرو العامري كتاب الرسول ﷺ إلى حاكم اليمامة وقد جاء نصه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي. سلام على من اتَّبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر. فأَسْلِم تَسْلَم، وأَجْعَلُ لك ما تحت يدَيك».

كان هوذة حاكمُ اليمامة على دين النصرانية، فلم يرغب في الردِّ على دعوة رسول الله له إلى الإسلام. ولكنه بعث إليه جواباً على كتابه قال فيه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله. وأنا شاعرُ قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعك».

وكأنَّ هذا الرجل قد أراد الشركةَ في النبوَّة، أو استخلافَ

---

(١) زاد المعاد، ج٣ ص٦٢.

رسول الله له من بعده. فلما جاء ردُّهُ قال الرسول: «لو سألني بلحةً من الأرض ما فعلت».

كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى التميمي حاكم البحرين

بعث النبيُّ ﷺ بكتابه إلى حاكم البحرين، مع العلاء بن الحضرمي، وكان نصُّهُ مثل كتابه إلى حاكم اليمامة، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه:

«أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليَّ في ذلك أمرك»(١).

فلما رأى رسول الله ﷺ الصدق في لهجة الرجل، وحسن النية لديه، ردَّ عليه بكتاب آخر، وجاء فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكرك الله عزّ وجلّ، فإنه من ينصحْ فإنما ينصحُ لنفسه، وإنه من يطعْ رسلي ويتَّبعْ أمرهم فقد أطاعني. ومن نصح لهم فقد نصح لي. وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً. وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذنوب فاقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية»(٢).

---

(١) الرحيق المختوم، ص٣٢٧.

(٢) انظر الرحيق المختوم، ص٣٢٧ و٣٢٨؛ عن كتاب: زاد المعاد، ج٣ ص٦١ و٦٢.

أجل، لقد كان المنذر حاكم البحرين سليم الفطرة، فأقبل على الإسلام بقلبه من خلال كتاب رسول الله ﷺ ثم عرضَهُ على أهل بلده، الذين كانوا على اليهودية أو المجوسية. فدخل في هذا الدين من أحبَّ، وبقي الآخرون على دياناتهم. ولم يقبل المنذر، بعد أن دخَلَ في الإسلام وحسن إسلامه، إلَّا أن يأتي من البحرين، ويلتقي رسول الله ﷺ، يتزوَّد منه تعاليم دينه الجديد ومفاهيمه، فيعمل بها مطمئن النفس.

كتاب رسول الله ﷺ إلى ملِكَيْ عُمان جَيْفر وعبد ابْنَيْ الجلندي[1]

حمل الكتاب إلى هذين الملكين عمرو بن العاص. وقد جاء فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد بن عبد اللّه إلى جيفر وعبد ابنَيْ الجلندي، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما تسلما. فإني رسول الله إلى الناس كافةً، لأنذرَ من كان حيّاً، ويحقَّ القول على الكافرين. فإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما. وإن أبيتما أن تُقِرّا بالإسلام فإن ملككما زائلٌ، وخيلي تحلُّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على مُلْكِكُما»[2].

ودخل ملكا عمان في الإسلام، وأسلم معهما غالبية أهل بلدهما. أما من لم يُسلم فقد وُضعت عليه الجزية.

---

(١) كان جيفر هو الملك الحاكم، لأنه أكبر سناً من أخيه عبد. و«الجلندي» ليس اسماً وإنما هو لقب، وقد يعني في لهجات أهل عمان: القَيْل أو الكاهن (على ما جاء في كتاب: تاريخ العرب قبل الإسلام).

(٢) الرحيق المختوم، ص٣٢٩.

تلك هي الكتب والرسائل التي بعث بها محمدٌ رسول الله إلى الأباطرة والملوك والأمراء على تخوم بلاده. ولقد حملت في مضمونها دعوةَ الرسول الأعظم لهم ولشعوبهم إلى التخلِّي عن دياناتهم ومعتقداتهم، والدخول في الإسلام، لأنه كان واثقاً من قوة رسالته، وأحقيتها من عند الله سبحانه وتعالى. ولو لم يكن محمدٌ ﷺ من الرسل ذوي العزم، بل سيدَ المرسلين، وخاتمَ النبيين، لما أقدم على بعث سفرائه بقلبٍ ثابتٍ وعزمٍ صادقٍ إلى أهل النفوذ والسلطان في كلِّ البقاع التي تحيط بجزيرة العرب، وهو يدعوهم إلى الدين، باعتبار ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١).

ولقد ترتب على تلك المراسلات دخول بعضهم في الإسلام، وإقبالُ العرب على هذا الدين، فتتابعت وفودهم على المدينة تعلن إسلامها. أما غير العرب، خارج حدود الجزيرة، فقد كان منتظراً أن يأتيهم الإسلام، منذ أن بدأ الرسول ﷺ يُعِدُّ العدة ويمهد السبيل لتبليغ الدعوة في تلك البلاد.

والحق أنَّ ما قام به محمد رسول الله في هذا المجال، لآياتٌ تتصدَّرُ التاريخ بما ينبئ عن إقدام الأبطال، وعزم الرجال، وثقة الأكْفاء.. وإنها لتبدو في نظر كل باحث عن حقائق الحياة، والطاقات الكامنة في الإنسان، وتأييد الله عز وجل، قوىً فاعلةً تندفع من عزم «محمد»، لوثوقه يقيناً بأن الإسلام سوف ينتشر، ويسود حتى يعمَّ نورُهُ الوهَّاج فجاجاً بعيدةً في العالم.

وتبرز أهمية تلك الكتب التي وجهها رسولُ الله ﷺ إلى أولئك الملوك والحكام، وبخاصة منهم: هرقل، وكسرى، والنجاشي،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

والمقوقس، لا بصفتهم أباطرةً أو أقيالًا يكثر عددهم أو يقلّ، بل لأنهم أصحاب مكانةٍ عظيمةٍ في التاريخ السياسي، خلال تلك الحقبة من التاريخ، لِمَا كان لكلٍّ منهم من ملك واسع، أو حولٍ وطول، وسطوةٍ ورهبة... وبذلك يكون عمل الرسول ذا مدلولات بعيدة لا يُقْدِمُ عليه إلَّا نبيٌّ مأمور من الله سبحانه وتعالى، ومكلَّفٌ بالدعوة إلى دينه، بعيداً عن كل ظلٍّ من ظلال الخوف والضعف.. فقد تجلَّى له ملكوت ربِّ السموات والأرض فظهر له أولئك الملوك أشخاصاً عاديين، لا قيمة في نظره لكل ما يملكون إن لم يستجيبوا لنداء الإيمان، ويسخّروا سلطانهم لنصرة دين الله عزَّ وجلَّ، والسير على خطى رسوله الكريم.

وإنَّ في الفوارق الكبيرة بين القوى المادية ـ من جيوش وعتادٍ وأموال ـ التي كان يملكها أولئك الأباطرة والملوك والأمراء، وبين ما كان يملكه رسول الإسلام لأقوى برهان، وأصدقَ ردٍّ على أولئك الذين يشكُّون في نجاح دعوة الإسلام، ولاسيما دعاة العداوة لهذا الدين في زماننا، بحجة أن المسلمين يفتقرون إلى المعرفة بالأمور الدنيويَّة المؤثِّرة والقوى المادّية الفاعلة، بالنسبة إلى غيرهم من الأمم الأخرى..

والحقيقة الناصعة التي يجب أن يدركها أولئك الذين يحتجّون بالقوة المادية هي أنَّ المسلمين في بقاع الأرض لا تنقصهم الخيرات والثروات المادية. فهم إن لم يكونوا يملكون معظمها وأكثرها تأثيراً على مصير العالم الحاضر، فإنهم ولا ريب يملكون الطاقة الأكثر فاعلية والأشدّ تأثيراً من كل أنواع القوى المادية. وأما المعرفة فإنَّ رأسها هذا الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، الواحدِ الأحد، الإلَهِ الحقِّ المطلق، والربِّ الحقِّ المطلق.. وهو الإيمان الذي يتميز به الإنسان

المسلم، والإيمان الصادق الذي يشكِّلُ القوة الهائلة التي لا سبيل إلى قهرها إنْ عمل المسلمون بوحيه. . لأنه هو الإيمان نفسه الذي استطاع المسلمون الأوائل أن ينتصروا به حيثما أقدموا على قتالٍ، أو سيَّروا جيوشاً، أو أرادوا فتح أمصار لنشر دين الله. .

فما أجدر المسلمين أن يتدبروا هذه الحقيقة! بل إن العالم بأسره ليحتاج اليوم إلى الإسلام أكثر من أي وقت مضى، وهو يتعطش إلى هذا الدِّين عطش الظمآن إلى الماء الزلال. فالمادية التي تطغى على كل الناس، وعلى جميع جوانب الحياة، لا تختلف من حيث مضمونها عما كانت عليه أيام ظهور الإسلام. والزمن تغطِّيه دائماً موجات من المادية والروحانية، ومن الإلحاد والإيمان، يلي بعضها بعضاً. ولعلَّ هذه اليقظة الإيمانية التي أخذت تدبُّ في عالم اليوم، إنما تشير إلى أنَّ موجة الإيمان قد أخذت في الظهور لتدعو الناس إلى صحوة ضمير، وعودةٍ إلى ربهم العلي العظيم، وإن موجة الإلحاد المادي، الذي أغرق العالم حيناً من الدهر، وموجةَ العولمة تحت ستار محاربة الإرهاب، لهي دعوات باطلة، لأنها مغلّفةٌ بكلام حقٍّ يُرادُ به باطل ولن يكتب لها الاستمرار مهما طال الزمن، وهي لا بد منتهيةٌ إلى زوال بإذن اللّه تعالى: «وَتِلْكَ الأَيّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ».

معركةُ مؤتة[1]

انقضت بضعة شهور على عودة النبيّ من عمرة القضاء إلى

(١) مؤتة: قرية تقع الآن على بعد ١٢ كيلومتراً جنوب الكرك في الأردن. والمسافة بين المدينة ومؤتة ١١٠٠ كيلومتر تقريباً. وقد قطعها المسلمون على ظهور الإبل والخيل، وانقطع عنهم المدد والخبر بعدما خرجوا من بلدهم، وهم يدخلون في أراضي العدو لقتاله.

المدينة. وكانت اهتماماته ما تزال منصبَّةً على تأمين السبل التي يعبر فيها الإسلام إلى الأمصار البعيدة، لا سيما بعدما بعث السفراء والموفدين إلى الملوك والحكام على أطراف شبه الجزيرة، بمن فيهم ملك الروم، هرقل، الذي عادت بلاد الشام تخضع له. وهي البلاد التي كان الرسول يرى أنها وما جاورها من أفضل المنافذ لانطلاق الدعوة إلى الخارج، وخاصةً بعدما أمِنَ جانب اليمن، فأذعن له عامل الفرس عليها، ودخل في الإسلام. وبهذه التوجهات، بعث ﷺ خمسة عشر رجلًا من المسلمين إلى ذات الطَّلح على حدود الشام، يدعون بدعوة الإسلام، إلّا أنّ جزاءهم كان القتل الذي لم ينجُ منه إلَّا رئيسهم، فقد حالفه الحظّ، وأمكن له الفرار من أيدي أهل ذلك البلد..

وهذا الحادث لم يمنع الرسول ﷺ ولم يثْنه عن التطلع إلى بلاد الشام، لكي تكون أول البلاد التي يفتتحُها الإسلام بنفحةِ الإيمان. ولذلك بعث الحارثَ بن عمير الأزدي بكتابٍ إلى عظيم بصرى يدعوه للإسلام، فلما وصَلَ الحارث إلى مؤتة، عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ـ وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ـ فأوثقه ربطاً، ثم قدَّمه، فضرب عنقه[1].

وبلغ خبرُ هذا القتل العمد رسولَ الله فغضب له كثيراً، لأنه ينطوي في ذاته على خرقٍ فاضحٍ للمناقب والقيم التي تمنع قتل الرسل والموفدين، ولأنه يحمل التحدّي الصارخ لمكانة الإسلام، الذي كان في أول المراحل لتثبيت هيبته في النفوس، وبداية الطريق التي يشقّها

(١) الرحيق المختوم، ص٣٥٥

معتدلةً بين الناس، لكي يرسّخ لدى القاصي والداني مفاهيمه الحقة، باعتباره عقيدةً ليست كسائر العقائد، ومبدأً ليس كمثلِ كافة المبادئ، فهو دين الله الحق، وهو مؤيدٌ بنصر الله عزَّ وجلَّ، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[1]. . ولو كره الكافرون. .

هذه الاعتبارات التي كانت مدار حياة الرسول والمؤمنين هي التي جعلته ﷺ يجد في فعل شرحبيل بن عمرو، جريمةً تمتلئ بالتعدّي والغدر من عاملٍ للروم، الذين كانوا يجهزون، مِنْ قِبلِهِمْ، الجيوش ـ على خلاف ما كان يُظَنُّ بهم كأهل كتاب ـ للزحف على المسلمين ومقاتلتهم. . وما ذلك إلَّا بسبب خوف بطانة البلاط الرومي من ذهاب سلطانهم ونفوذهم. . بل، ولم يكن عمّال البلاط بأقلَّ لؤماً من رجال تلك البطانة، فراحوا يرتكبون الجرائم ويقتلون كلَّ من تقع عليه أيديهم من أتباع الإسلام. .

وهكذا تضافرت الأسباب التي تدفع إلى اتخاذ عمل عسكري في بلاد الشام. فجهّز رسول الله ﷺ في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (٦٢٩م) ثلاثة آلاف[2] من خيرة رجال المسلمين، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة للمسير ومقاتلة ذلك الأعرابي شرحبيل بن عمرو، حتى ولو عضده أسيادُهُ الروم ـ وهم لا ريب سيفعلون ـ بقواهم التي لا تقهر في تلك الحقبة. ولذلك كان الرسول ﷺ يتوقع لجيشه مواجهةً كبيرة، فقال: «إن أصيب زيدٌ فجعفرُ بن أبي طالب على

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) الرحيق المختوم، ص٣٥٥؛ زاد المعاد، ج٢ ص١٥٥؛ وفتح الباري، ج٧ ص٥١١.

الناس، فإن أصيب جعفر فعبد اللّه بن رواحة على الناس»[1].

أما لماذا يسمي رسولُ الله ﷺ الأمراءَ على الجيش، الأميرَ تلو الأمير فذلك بوحيٍ من الله تعالى. والوحي هو من مقومات العهد للأنبياء والمرسلين، بل إنه عمَدُ هذا العهد، وأساسه وركنه الركين. ثم تأتي بعده الملكات والقدرات التي يهبها العليُّ القديرُ لتلك الثلة من بني البشر التي تحمل رسالات الله إلى الأرض. فلا غرابة إذن أن يعيّن رسولُ الهدى القادةَ لجيشه إلى مؤتة ممن يريد الله تعالى بهم خيراً وهم يُنتدبون لتلك المهمة الشاقة.

ولم يكن ليغيبَ عن رسول الله قطُّ ما لدولة الروم من قوة العتاد والسلاح، ومن كثرة الجيوش والمحاربين، وما حققته جيوشها من انتصارات على الأمبراطورية الفارسية غير بعيدة في الزمان. ومع ذلك فإنّ الدعوة إلى الله تعالى تستوجب الإخلاص والعمل مهما كان فيهما من التضحية والفداء.. من هنا كان تدبير العليّ القدير، عالم الغيب، لتعيين هؤلاء القادة ـ خصيصاً ـ حتى يكونوا طليعةً للفتوحات الإسلامية، في مقبل الأيام، التي بشَّر بها جبريلُ الأمينُ رسولَ الله ﷺ وحياً من ربه تعالى.

وتبرز سمات هؤلاء القادة في ما قاله زيد بن حارثة، عندما جاءه رجل يهودي يدعى النعمان بن فنحص ينصحه قائلًا: «إعهد (أي أوْص) يا زيد، فإنك لن ترجع إلى محمد إن كان نبياً، فإن الأنبياء في بني إسرائيلَ كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم، ثم قالوا: إن أصيب فإنّ فلاناً، فلو سمّوا مائة أصيبوا جميعاً».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٥، يقول ابن هشام: وزاد الزرقاني «فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم».

فأجابَهُ زيد ﷺ: «أشهد أنه رسولٌ صادق بارّ».

وهذا الإيمان الذي يتدفق من قلب زيد، فيدحَضُ كلَّ شك لليهودي، أو لغير اليهودي، بأن محمداً ﷺ هو نبي الله، وخاتم النبيين، هو الإيمان ذاته الذي يجعل عبد اللّه بن رواحة يبكي، وهو يودِّع رسول الله، فلما قيل له: وما يبكيك؟ قال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا، ولا صبابةٌ إليها، ولكني سمِعت قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1]. فلست أدري كيف لي بالصَّدَرِ (يقصد عن النار في الآخرة) بعد الورود؟:

ثم وجَّه كلامه إلى رسول الله، وقال[2]:

فَثَبَّتَ اللّهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ موسىٰ، ونَصْراً كالذي نُصِرُوا

إنّي تَفَرَّستُ فيكَ الخيرَ نافِلةً ... اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي ثابِتٌ بَصِرُ

أنت الرَّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نوافِلَهُ ... والوَجْهَ مِنْهُ فقد أَزْرَى بِهِ القَدَرُ

واستعدَّ الجيش للمسير. فعقد الرسول لواءً أبيضَ ودفعه إلى قائد الجيش زيد بن حارثة، الذي لم يسبق له أن تولى قيادةً مثل هذه من قبل. ثم أوصاه بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام[3]، فإن أجابوا كان خيراً، وإلا فليستعينوا عليهم بالله العلي القدير، وليقاتلوهم جميعاً ومَنْ والَاهُم أو عَضَدَهم...

وانطلق جيش المسلمين في أول غزوة له خارج حدود شبه

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦.

(٣) الرحيق المختوم، ص٣٥٥.

الجزيرة، وكان فيه مقاتلون أشداء، أمثال خالد بن الوليد الذي كان حديث عهد في الإسلام، إلَّا أنه آثر أن يعوّض عما فاته من جهاد في سبيل هذا الدين، فكان في عداد الجيش في تلك المسيرة الهامّة.

وتقدّم رسولُ الله على رأس الجيش حتى بلغ ظاهر المدينة على ثنية الوداع، فوقف يُلقي وصيته على الجند، وهو يقول لهم: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. أغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله. لا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا مكفوفاً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقربوا نخلًا، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تهدموا بناءً»(١).

تلك كانت وصية رسول الله إلى جنود الإسلام. وهي وصية يجدر بأهل الأرض، ولا سيما في هذا العصر بالذات، أن يتفكّروا بها وأن يتخذوها موعظة وذكرى لهم في ما يقومون به من حروب(٢)..

---

(١) كنز العمال، ج٤ رقم ١٠٩٠٦.

(٢) ذلك أنَّ الحرب، إن لم تكن تهدف في الأصل لإعلاء كلمة الله تعالى، وإرساء دينه الذي ارتضاه لعباده، فهي ظلم وعدوان.. ومتى قامت الحرب فلها أصول وقواعد لا يجوز تخطّيها، ومن قبيل ذلك عدم الاعتداء على المستضعفين من طفل وامرأة وكهل ومنعزل عن الناس، وعدم إهلاك الحرث والنسل، أو إنزال الدمار والخراب في العمران.. فأين من هذه القواعد التي أرساها رسولُ الإسلام في كلمات موجزات، حروبُ الناس في الماضي البعيد، وفي العصر الحديث، ولا سيما حروب الغرب «المتمدّن»، التي لم تحمل لبني البشر إلَّا الموت يحصد الملايين، والدمار يعمُّ العالمين، والتي تزرع الظلم والقسوة، وتنشر البغي والفساد حتى لا تذر شيئاً مما قد ينفع الناس إلَّا وتقضي عليه؟!.. وإنَّ في العودة إلى تاريخ الحربين العالميتين الأولى والثانية في القرن العشرين، وما تلاهما من حروب جانبية، وما يزال يليهما من غزو واحتلال لبلادٍ عديدة ـ كما هو حال الاحتلال الأميركي وأعوانه للعراق اليوم ـ لأكبر دليل على جرائم الغرب ضد الإنسانية كلها... هي كلمات قليلة أوصى بها محمدٌ=

وانطلق الجيشُ الإِسلاميُّ في مسيرته، التي كانت بأمرٍ من الله (تعالى) ورسوله الأمين، حتى بلغ معان من أرض الشام. فنزل ينصب معسكره، بينما اجتمع قادته لوضع الخطة التي تمكّنهم من خوض المعركة، إن استحبَّ أهل تلك البلاد الحربَ على السلم.

وكانت المفاجأةُ كبيرةً عندما جاءتهم الأخبار بأن هرقل قد نزل مآبَ من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضمّ إليهم من قبائل العرب (لخم وجُذام والقيْن وبهراء وبليّ) مائة ألف آخرون[1].

وراع المسلمين أنباءُ تلك الحشود الهائلة، التي لا طاقةَ لجيشٍ قوامه ثلاثة آلاف مقاتل على مواجهتها. فرأى قادتُهُ أن يكتبوا إلى رسول الله يُعلمونه بواقع الأمر، فإمَّا أن يمدَّهم بالرجال، وإمَّا أن يأمرهم بأمره فيمضوا فيه، لولا أن عبد اللّه بن رواحة قام يثنيهم عن هذا الرأي قائلًا: «أيها المؤمنون، والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله ـ تعالى ـ به. فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة»[2].

= رسولُ الله جنودَهُ، ولكنها تناولت الإنسان في حياته وحقوقه وممتلكاته. أَلَا فلتَكُنْ دستوراً للناس، وقانوناً للحياة لكي يدرك أهل الفكر والضمير، وأصحاب الحكم والتقرير، فظاعةَ الجرائم التي كانوا يرتكبونها بحق الإنسانية وباسمها تحت ستار الشعار الباهت: «الأمن والسِّلم الدوليَّين» ثم يرتكبونها الآن تحت ستار الشعار المخادع «الإرهاب»..

(١) هيكل، حياة محمد، ص٣٩٢؛ زاد المعاد، ج٢ ص٢٢٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦ و١٧.

(٢) هيكل، المصدر السابق، ص٣٩٣؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٧؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٢٤.

ومثل وَمْضِ البرق، سرت حماسة الإيمان في نفوس الجيش كله، فقاموا يمضون على هدى الله تعالى، حتى بلغوا تخوم البلقاء (وهي كورة من أعمال دمشق) فوجدوا جموع هرقل من الروم والعرب قد تقدمت لتلقاهم عند قرية يقال لها «مشارف». فلمَّا لم يجدوا في تلك الناحية ما يدفع عنهم، انحازوا إلى مكان أكثر ملاءمةً بالنسبة لموقعهم، فاتخذوا من قرية «مؤتة» معسكراً لهم.

وتقدمت جيوش الضلال، من الروم، وقبائل العرب، بزحفها إلى مؤتة حيث جرت معارك ضارية ليس فيها تكافؤ بين الطرفين لا في العدد والعتاد، ولا في أي شيء آخر، بل وعلى أرضٍ، كان الروم وحلفاؤهم خاضوا فيها معارك كثيرة ودامية مع الفرس.. ودارت رحى الحرب حامية الوطيس في أعنف قتال وأشدّه، فاندفع زيد بن حارثة في صدر العدو، لا يُرهبُهُ تكاثر الأعداء من حوله، وإن كان يقينه بأنه ملاقٍ حتفه لا محالة.. ولكن ما همَّ!.. وشريطُ حياته نبراسُ شرفٍ على جبين الدهر.. لقد كان عبداً فرفعه «محمد» إلى مرتبة السادة. ولقد صحبه معه على مدار السنين الماضية، ينفحه بروح الإيمان، وصدق العزيمة، حتى جاءَ اليوم الذي أمَّره فيه على الناس وجعله قائداً لجيشه.. وها هو الآن ـ في منصبه الرفيع ـ يُقبل على الموت في سبيل ربِّه تبارك وتعالى، لتكونَ كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فينال وسام الجهاد الأكبر، ويحظى بالشهادةِ، أمنيةِ المؤمن المخلص الصادق. وعلى هذا الأفق الرحب استُشهد زيد بن حارثة في مؤتة، وعيناه ترنوان إلى هنالك في البعيد.. إلى المدينة المنورة حيث رسول الله ﷺ الذي اختاره للشهادة في مقامها الأسمى.. وهنا في مؤتة تفيضُ روحه الطاهرة، وترجع إلى ربها راضية مرضية، وكأنَّا

بنفس هذا المؤمن،وهي تعرج إلى الأعلى تترنّم بأناشيد الوفاء، وتصدح بتراتيل الإيمان.

واقتحم جعفر بن أبي طالب الوغى ـ وكان شاباً وسيماً في الثالثة والثلاثين من عمره ـ بقلب شجاع، وإقدام بطوليّ، هو في طبعه بالأصالة. فقد ورِثَ الجرأة من بيتٍ دعائمه المجد، ولبناته الفضائل، وظله الودُّ والرحمة، ناهيك عن البطولات العامرة في ميادين الحروب. فهو ابن أبي طالب، عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، أول هاشمية وَلَدت لهاشمي. ولقد عايش جعفرُ النبيَّ ﷺ تحت سقف واحد، ورأى بأم عينيه مكانته عند أبيه، وما كان يغدقه عليه من الحنان والعطف، ومن الرعاية والمحبة، فظلت علائق الأخوة وطيدة بينهما على مدى الأيام. ولا عجب إن تمتَّع جعفر بقوةٍ كانت قبساً من نور النبوَّة، كما يدلُّ عليها قول النبيِّ نفسه لجعفر: «أَشْبَهَ خَلْقُكَ خَلْقي، وأشبهَ خُلُقك خُلقي، فأنت مني ومن شجرتي».. ولا عجب إن انبرى في حمَّى المعركة يقاتل قتال الأبطال الأشداء، ويَذُودُ عن حمى الدين ذَوْدَ الفارس النبيّل. لقد اقتحم المعركة وهو يقول[1]:

يـا حـبـذا الـجـنـةُ واقـتِـرابُـهـا طـيـبـةً وبـارداً شـرابُـهـا
والـرومُ رومٌ قـد دنـا عـذابُـهـا عـليَّ إن لاقـيـتُـهـا ضِـرابُـهـا

وما زال يضرب الأعداء ضرباتٍ تُطيح بالأعناق، ولواء رسولِ الله في يمينه، حتى قطعها له العدو، فأخذ اللواء بشماله فقُطِعت هي الأخرى، فاحتضنه بعضُدَيْهِ، وما زال كذلك حتى سقط

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٠.

شهيداً، وقد وُجد في جسده الشريف نحو تسعين طعنة.

أية شجاعة أعلى من شجاعتك يا ابن أبي طالب وأنت تذود عن دين الله تعالى؟! ها هنا في مؤتة فليشهد التاريخ على البسالة النادرة، وعلى الأمثولات الرائعات.. وها هنا في مؤتة، كما في أية أرض أخرى، فَلْيُقْتَلِ المؤمنون في سبيل الله تعالى، فهم ليسوا ـ في قتلهم ـ أمواتاً، بل شهداءَ، وهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون، كما وصفهم الله سبحانه في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

نعم، هوى جعفر عليه السلام في أرض المعركة، فاندفعت روحه ترفرف نحو ذرى المجد، لتعبر في أجواء المدينة، وهي تحمل وصية الشهيد، وكأني به يقول: «ألا بلِّغي ابن عمي، رسولَ الله وخاتَم أنبيائه، بأنني وفيت في مؤتة، وما وهنتُ وما قَلَيْتُ، وما كان عندي إلَّا خوفٌ واحدٌ، أن تسقُط رايةُ الإسلام من يديَّ، فحميتها حتى قُطعتا، ونثرتُ دمائي على الأرض كي تسقيَ في الدروب غرساتٍ يرفرفُ على أغصانها الإيمان، وتفرِّخَ في الحقول حباتٍ ينبتُ على أوراقها الإسلامُ».

ألا يا واصلًا مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قل لهم: هناك في أرض الشآم جعفر لم يمت، بل هو شهيدٌ يفرح بما آتاه الله من فضله، وبما

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ ـ ١٧١.

منحه من أجر، ألا فليهنأ ذوو القربى لمكانته الرفيعة عند ربّه، وليبارك المحبّونَ له جنة اللَّهِ ورضوانه..

... ثم تقدم عبد الله بن رواحة يأخذ الراية ونفسه تحدِّثه بالموت، حتى لكأنها تُغريه بالتردد في خوض المعركة، ولكنه سرعان ما يُغالبُ ضعفَ الإنسانِ فيه، فيقول:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلِنَّهْ لتَنْزِلِنَّ أو لَتُكْرَهِنَّهْ
قد طالما قد كنتِ مطمئنهْ مالي أراكِ تكرهينَ الجنَّهْ

ثم يقول مذكراً برفيقَيه[1]:

يا نفسُ إلَّا تُقتَلي تموتي هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ إن تفعلي فِعلَهُما هُديتِ

لقد أذهب عبدُ اللّه كلَّ أثر للتردد عنه، فأقبل على القتال، مقداماً غير هيّاب، مطمئناً غيرَ جزع، وما زال يقاتل بطلًا عظيماً حتى استشهد، ولحق بزيد وجعفر إلى الخلود..

وأخذ الراية ثابتُ بن أرقم من بني عجلان، فقال: «يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم». قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل..

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، وكان رجلَ حربٍ مجرَّباً، وقائداً ماهراً، ما إن أخذ الراية حتى عمد إلى جمع الصفوف. وراح يداور الأعداء في مناوشاتٍ محدودةٍ حتى انتهى النهار، وتحاجز[2] الجيشان لطلوع الصباح.. وأثناء الليل، تدبَّر خالد الخطة

(١) هيكل، حياة محمد، ص٣٩٤.
(٢) تحاجز: تمانعوا، أي أخذ كل جيش ممانعة للدفاع عن نفسه.

التي تمكّنهم من الصمود، فغيَّر أوضاع الجيش، وعبَّأه من جديد، فجعل مقدمته مؤخرته، وميمنته ميسرة، وعلى العكس، ثم وزع عدداً من الرجال غير قليل في المؤخرة، وأمرهم أن يحدثوا جلبة وضوضاءَ، ليوهموا الأعداءَ بأنَّ المدَدَ قد جاءهم من المدينة. وبالفعل فقد سلكت تلك المكيدة الحربية على الروم، لا سيما بعدما رأوا المسلمين يتأخرون قليلًا قليلًا، فظنوا أنهم يخدعونهم ويحاولون القيام بمكيدةٍ، ترمي بهم في الصحراء.. فتأخَّروا عن الهجوم، ثم انحازوا إلى بلادهم.. وبذلك أمكن للجيش الاسلامي أن يفلت من القتال مجدداً بل ومن مطاردة الروم وأعوانهم له، وأن يرجع إلى المدينة بأقل خسائر ممكنة..

ولمَّا بلغ خبر رجوع الجيش الإسلامي على تلك الحالة، هبَّ الناسُ، كباراً وصغاراً، لرؤية ذلك الجيش المنهزم وما حلَّ به على يد الروم. ولقد بلغ من تراكض الصبيان ما جعل الرسول يشفق عليهم فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر». وأخذ ﷺ عبدَ اللّه بن جعفر فحمله بين يديه على دابته، وما زال يتقدم الناس حتى بلغوا الجرف، وهناك كانت ملاقاةٌ مريرةٌ للمقاتلين، إذ أقبل عليهم أهل المدينة يحثون التراب في وجوههم، وهم يقولون: «يا فُرَّار، فَررتم في سبيل الله؟!».. فيقول الرسول: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى»[1].

وتلك أحوالُ الجموع، فهي لا ترحم ـ عادة ـ عندما تغشى أعينهم عن الحقيقة، فتندفع وراء المشاعر، غيرَ مدركة الخطأ من

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٤.

الصواب.. فقد ظنَّ الناسُ أن جيشهم توانى حتى لحقت به الهزيمة، ولكنَّ الواقع كان بخلاف ذلك بدليل ما أكّده رسولُ الله وهو ينفي عن ذلك الجيش تهمة الفِرار، وما أثبتته الوقائع أثناء القتال في مؤتة..

لقد كانت أسباب الفرار متوافرة وعديدة أمام الجيش الإسلامي. إذ كان مقدّراً له، بعدما رأى الجحافلَ من جيوش الأعداء، أن يتخلى عن القتال، ويعود أدراجَهُ، أو أن يطلب ـ على الأقل ـ المددَ قبل أن يباشر المعركة.. ولكنه لم يفعل بل آثر المواجهة.. كما كان مقدّراً له، بعد مقتل قادته الثلاثة أن يتفرق مدحوراً، بما يمكّن العدو من مطاردته وإنزال أقصى الضربات به، ولكنه لم يفرّ، بل ثبت في أعنف قتال وأشد معارك.. يضاف إلى ذلك أنه وافق على خطة قائده الجديد خالد بن الوليد، وبقي في مؤتة لمدة سبعة أيام يرقب الأحوال.. فلو لم تكن في نفوس ذلك الجيش القوةُ الكافية، وفي قلبه الشجاعةُ الزائدة، لكان آثر الانسحاب تحت جنح الظلام. ولو فعل لكان عندها عُدَّ منهزماً. أما وأنه ثبت في أماكنه ـ كما ثبت إبَّان القتال ـ حتى أوجس منه أعداؤه خيفةً، وامتنعوا عن مهاجمته ثم انحازوا إلى بلادهم، فتلك هي البطولة حقّاً، وذاك هو الصمود بعينه.. لا، لم يكن مقدراً لثلاثة آلاف أن يهزموا مئتي ألف، ولكنَّ ثباتهم أمام هذه الجحافل يعتبر نصراً بذاته..

ثم إنَّ ما قام به هذا الجيش، وفي طليعته قادتُه، إنما يُعدُّ من البطولات النادرة، وفوق الانتصارات المادية. فيكفي أنهم كانوا يقبلون على الموت بحماسةٍ منقطعة النظير، ويخوضون المعارك بكل ضراوة، وسلاحهم إيمان المسلم الصادق الذي يعرف أنَّ دينه يأمره أن يقاتل في سبيل الله حتى يَقتُلَ أو يُقتَلَ. ويكفي أن نعرف أن عدد

الشهداء في مؤتة بلغ اثني عشر صحابياً ـ بينما تفصيل المعركة يدل على كثرة قتلى عدوهم[1] ـ حتى ندرك مدى البسالة التي كان يقاتل بها الجيش الاسلامي، والتي تدفع عنه تهمة الهزيمة.. ثم إن ذلك القتال وفي ظل تلك الظروف، إنما كان في حقيقته جهاداً في سبيل الله (تعالى).. وجهادٌ من هذا القبيل لهو التجارة الرابحة التي يبيع فيها المؤمنون أنفسهم لله فيقتُلُون ويقتَلون لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

نعم، ذلك هو الفوز العظيم الذي ناله شهداءُ الجيش الإسلامي، قادةً وأفراداً، في مؤتة، فهل يعدُّ بعد ذلك جيشاً فَرَّاراً؟!.. لا والله، بل هو الكرَّار كما وصفه رسول الله ﷺ..

ولقد حزن النبيُّ ﷺ لمقتل الشهداء والأمراء الثلاثة حزناً كبيراً. فبكاهم، وراح يطوف على بيوت الشهداء، يواسي أهلهم وأبناءهم، حتى انتهى به المطاف إلى بيت ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فاستأذن بالدخول على أسماء بنت عميس، وطلب أن تأتيه بغلمانها الثلاثة: عبدالله، وعون ومحمد. فأخذهم في حضنه، وراح يقبلهم ويشمّهم وعيناه تذرفان بالدمع. ثم أخذ يمسح على رأس عبد الله وهو يقول: «اللّهم إنَّ جعفراً قد قدم إلى أحسن الثواب،

(١) الرحيق المختوم، ص٣٥٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

فاخلُفه في ذريته بأحسن ما خلَفْتَ أحداً من عبادك في ذريته». ثم التفت إلى أسماء وقال لها: «يا أسماء! ألا أبشرك؟».

قالت: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال: «إن الله سبحانه قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء»(١).

وكان ﷺ يريدُ أن يبيّن لها ـ وللناس ـ أن الله تعالى قد أثاب جعفراً، كما أخبره جبريل الأمين، بدَلَ يَدْيهِ جَناحَيْنِ يطيرُ بهما في الجنة.

رضي الله عن جعفر ذي الجناحين، وصاحب الهجرتين، أبي المساكين، صاحب لواء الإسلام ولواء رسول الله، المدافع عن حياض الدين.. لقد كان يحب المساكين ويجلس إليهم، يخدمهم ويخدمونه، ويحدثهم ويحدثونه، وكان الرسول ﷺ يكنّيه «أبا المساكين»، ويقول عنه: «كان أَخْيَرَ الناس للمساكين جعفرُ بن أبي طالب ينقلب بنا فيطعمنا ما في بيته». ومثْله، في ذلك، مثل أهل البيت أولئك الذين قال اللَّهُ تعالى فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(٢). وصدق الله العظيم الذي يورثهم المجد في الدنيا والآخرة، فيكونون الوارثين ـ عن حق ـ للخلد: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢؛ زاد المعاد، ج٢ ص٢٢٥.
(٢) سورة الدهر، الآيتان، ٨ و٩.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان، ١٠ و١١.

تلك كانت معركة مؤتة، بما حفلت من مخاطرة وجرأة. ولكنها كانت ضرورية لإرهاب الروم، فيرون فيها بأس المؤمنين وقتالهم، وإن قلَّ عددهم. كما كانت لازمة حتى ترتسم أمام المسلمين طريق الجهاد في مقبل الأيام، وهم ينشدون نشر دينهم في الأمصار، كما دلّت عليه الأحداث المتعاقبة.

البحث الثالث



السرايا بعد مؤتة

لقد اعتبرت غزوة مؤتة ـ وفقاً لذهنية الجموع ـ هزيمةً حلَّت بالجيش الإسلامي. فكان جمعٌ كبير يعيّرهم بأنهم فُرَّار، فَروا من الواجب في سبيل الله. حتى أن بعضهم صار يخشى الظهور بين الناس، كما يدل عليه سؤال أم سلمة لزوجة ابنها، عندما قالت لها: «ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يا فرّار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج»[1]!. وكثيراً ما حاول الذين شاركوا في مؤتة أن يدفعوا عنهم تلك التهمة البغيضة، وأنهم هم الذين عايشوا الأحداث، وأنهم لو لم يجاهدوا في سبيل الله (تعالى) لَمَا نفى عنهم الرسولُ تهمة الفرار وسماهم «الكرّار».. إلَّا أنَّ ذلك لم يُجدِ، مما جعلَ المدينة تعيش أجواء القلق وعدم الرضى، حتى هيّأ الله تعالى سبيلًا يعيد للمقاتلين احترامهم، ويرفع الحيف الذي لحق بهم. وكان ذلك عندما بلغ الرسول أن قضاعة تستعد للإغارة على المسلمين، فدعا إليه عمرو بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٤ و٢٥.

العاص، وعقد له لواءً على ثلاثمائة رجل من الذين حاربوا في مؤتة، ثم أمرهم بالانطلاق والانقضاض على تلك الجماعة المعادية.

سرية ذات السلاسل[1]

وخرجت السرية في جمادى الثانية، سنة ثمانٍ للهجرة، فلما كانت على ماءٍ بأرض جُذام يقال له السَّلْسَل، رأى قائدها كثرة جموع الأعداء، فبعث رافعَ بن مكيث الجهني إلى المدينة يطلب المدد من رسول الله. وجاءه مئتان من المقاتلين على رأسهم أبو عبيدة بن الجراح، وكانوا من سراة المهاجرين والأنصار. وقد أمَرَ الرسولُ أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص، وأن يكونا جمعاً ولا يختلفا، لأن عمرواً كان ما يزال حديث عهدٍ بالإسلام، بينما أبو عبيدة كان من المسلمين الأوائل، الذين تعمّقت العقيدة في نفوسهم، فلا يحفلون بالأمور العارضة. فلما أراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناسَ، أبى عمرو بن العاص عليه ذلك وقال له: «إنما قدمت عليَّ مدداً وأنا الأمير»[2] ـ أي القائد على الجيش ـ فأجابه أبو عبيدة، وكان رجلًا ليناً، سهلًا: «لقد أمرنا رسول الله ﷺ ألا نختلف، وإنك إن عصيتني أطعتك».. وبذلك بقي عمرو على إمارة الناس، فصلَّى بهم. وتقدموا إلى العدو يحملون عليه، حتى أجبروه على الفرار، محققين الغرض الذي بعثهم الرسول الأعظم من أجله، وهو أن يبعدوا عن الجيش الشعور بالهزيمة التي كان الناس يصمونَهُ بها.

---

(١) عُرفت هذه السرية، بـ«ذات السلاسل» كما سمّاها بعض كتاب السيرة، نسبةً إلى ماء السَّلْسَل، بينما نَسَبَ تسميتها آخرون إلى السلاسل التي ارتبط بها الكفار بعضهم إلى بعض مخافة الفرار، والهروب من وجه المسلمين، والأولى أصحّ.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٢٢٦.

سرية الخبط

وكانت بعدها سرية أخرى في شهر رجب، خرج فيها أبو عبيدة بن الجراح إلى جماعة من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر. ولقد قلَّ زاد المسلمين في الطريق، أو كاد ينفد، مما جعلهم يأكلون عشباً يدعى الخبط أو ورق السَّلَم، فاشتهرت هذه السرية «بسرية الخبط»، وعادت دونما قتال، أو نكدٍ من أحد.

ثم إنه كان في شعبان سريةٌ ثالثةٌ بعث فيها رسول الله أبا قتادة الأنصاريّ في خمسة عشر رجلًا ليغيروا على جماعة من غطفان كانت قد ناصرت جيش الروم في وقعة مؤتة. ولقد عاد أصحاب هذه السرية جميعاً سالمين بعد خمس عشرة ليلة من خروجهم.

ومثل هذه السرايا كانت ضرورية حتى يظلَّ الإسلام في حركة دائمة: فلا تكفُّ ألسنةُ الناس عن التحدُّثِ به، وهم يتابعون أخبار دولته الجديدة، التي قامت في قلب الجزيرة، وتحاول أن تفرض سلطانها في كل مكان. ولذلك كانت موقعة مؤتة في الحقيقة فاتحةَ خير على الإسلام والمسلمين، بحيث جعلت الناس يُقبلون على دين الله عن إعجاب وقناعة، لاسيما في ما أظهر الجيش الإسلامي من بسالة وثبات، أمام جحافل الروم، بُهرت بهما قبائل العرب المتاخمة للشام، فدفعت أصحاب النفوس الصافية إلى هذا الدين، وإلى سلوك دروب الحق. ولقد كان ممن حضر مؤتة قائد عربي على فرقة من جيش الروم يدعى فرْوة بن عمرو الجذاميّ. فقد رأى هذا الرجل من المسلمين ما جعله يعجب بهذا الدين الذي يمنح أبناءه مثل هذا الإيمان الصادق، بحيث يستهينون بالموت في سبيل دينهم، فآمن بالإسلام،

واهتدى إليه من تلقاء نفسه. ولما انتهت مؤتة سارع بإرسال كتاب إلى رسول الله ﷺ في المدينة يعلن فيه إسلامه، ويهدي له بغلته البيضاء.

وعرفت الروم بأمر إسلام فروة، فأصدر هرقل أمراً بالقبض عليه، وزجّه في السجن. ثم عُرِض عليه أن يعود إلى المسيحية مقابل الإفراج عنه، ورده إلى مركزه العسكري، فأبى وأصرَّ على إسلامه، فكان جزاؤه القتل.

ويشاءُ الله العلي القدير أن يعزِّزَ دينه ويزيدَ في انتشاره، فإذا بالأحوال المالية للدولة البيزنطية تضطرب اضطراباً كبيراً، ويجيء عرب الشام الذين اشتركوا في وقعة مؤتة لقبض رواتبهم فلا يلاقون إلا الشتيمة، وذلك عندما ردهم عامل هرقل ـ المكلف بالدفع ـ وهو يصيح فيهم قائلاً: «انسحبوا، فالأمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلَّا بمشقة، وليس لديه ما يوزعه على كلابه».

ولقد أثَّر هذا الأمر في نفوس أولئك الأعراب أيَّما أثر إذ دعاهم عامل هرقل: «كلاب الأمبراطور». فثارت عندهم الحمية العربية وإباؤها، وغلب عليهم الحرص على الكرامة والشرف، فأقبلوا على الإسلام، يرتجون رفع المهانة والذل، فيستقبل الإسلام في رحابه أقواماً من سُلَيْم[1] وعلى رأسهم العباس بن مرداس، ومن أشجع

(١) وكان بين وفد سليم الخنساء بنت عمرو، الشاعرة المشهورة. قال أبو عمر: قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم، فأسلمت معهم. وقد أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها. وروى ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة ج٥ ص٤٤٢) «أن الخنساء شهدت القادسية ومعها أربعة بنين لها، فقالت لهم أول الليل: يا بنيَّ، إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، وواللَّهِ الذي لا إلَهَ غيرُهُ إنَّكم لبنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنتُ أباكم، ولا فضحتُ أخاكم، ولا =

وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود قبل فتح خيبر، ومن عَبْس وذُبيان وفزارة، وغيرهم من قبائل العرب أناساً كثيرين.

وهكذا ظهرت موقعة مؤتة، وخلال مدة وجيزة، سبباً من أسباب استتباب الأمر للمسلمين إلى الشمال من المدينة المنورة حتى الشام، وفي ازدياد الإسلام عزة وقوة ومنعة...

الأحداث التي سبقت فتح مكّة

وعلى الرغم من ذلك الدخول الجماعي في الإسلام، فإن قريشاً لم ترَ فيه إلَّا نوعاً من الابتزاز للدولة الرومية، لا تلبث بعده أن تعود غالبية تلك الأقوام إلى حظيرة الروم!. كما ظلت على الاعتقاد بأنَّ المسلمين قد هزموا في موقعة مؤتة هزيمةً نكراء، قد أضعفتهم إلى الحدّ الذي يمكن معه معاودة حربهم وقتالهم. ولكنَّ المشكلة في نظرها كانت في عهد الحديبية الذي يقيدها، وليس أمامها والحال هذه إلا أحد خيارين: إما نقض هذا العهد بصورة مباشرة وعلنية، وإما

= هجّنتُ حسبَكم، ولا غيّرتُ نسبَكم، وقد تعلمون ما أعدَّ اللَّهُ للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أنَّ الدار الباقية خيرٌ من الدار الفانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ـ سورة آل عمران، الأية: ٢٠٠ ـ فإذا أصبحتم غداً، إن شاء اللَّهُ سالمين، فاغدوا إلى قتالِ عدوكم مستبصرين، وباللَّهِ على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتُمُ الحربَ قد شمَّرتْ عن ساقِها، واضطرمت لظىً على سياقِها، وحلَّت ناراً على أوراقِها، فتيمَّمُوا وطيسَها، وجالدوا رئيسَها عند احتدام خميسِها، تَظْفَروا الغُنْمَ والكرامةَ في دار الخُلْدِ والمُقامة». «وخرج بنوها وهم يوصي بعضهم بعضاً اعملوا بنصيحة العجوز. وتقدموا يقاتلون، ويرتجزون، فأبلوا بلاءً حسناً، حتى استشهدوا.. فلما بلغها الخبرُ، قالت: الحمدُ للَّهِ الذي شَرَّفني باستشهادهم، وأرجو من ربّي أنْ يجمَعَني بهم في مستقرِّ رحمته».. (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٧١٦ ـ ٧٢٠).

تحريض من دخلوا في حلفها، على قتال حلفاء «محمد»، وبذلك تُشرَّعُ أبواب الحرب من جديد، وتنطلق قريش إلى تحقيق مراميها! . .

ولمَّا كانت خزاعة قد دخلت في عقد النبي ﷺ، وبنو بكر قد دخلوا في حلف قريش، فالسبيل إذن هو غزو خزاعة وتقتيلها، وأن يقوم بذلك بنو الديل بن بكر بن عبادة حتى يصيبوا منها بثاراتهم القديمة، منذ حروب الجاهلية وأيامها، التي هدأت بسبب انشغال الناس بالإسلام، وارتقابهم ما قد تسفر عنه الأحداث المتلاحقة في شبه الجزيرة. وهكذا راح شياطين قريش يحرضون بني الديل بن بكر على خزاعة ويُمدّونهم بالسلاح، حتى حان الوقت الموعود.

غزو بني بكر لخزاعة

وخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني قومه، ومعه جماعة من خيَّالةِ قريش أمثال: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وحويطب بن عبد العزى، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص[1]، حتى أتَوا خزاعة وهم على ماءٍ لهم بأسفل مكة يدعى الوتير، فانقضّوا عليهم في جوف الليل، ينزلون بهم الطعن والتقتيل، فلاذوا بالفرار والاحتماء بالبيت الحرام، لكي يكون لهم سبيل للنجاة. فلما أدركوه ودخلوا إلى رحابه راحوا ينادون: «يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلَهك، إلَهك»[2].

ولكنّ الكافر اللعين أبى أن يكفَّ عن قتالهم، وهو يقول: «لا

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٢.

إلَهَ له اليوم! يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟»[١].

ولمَّا رأى بنو خزاعة أن أعداءَ الله لا يأبهون لحرمة بيته المقدس، وأنهم يريدون الدخول عليهم وتقتيلهم فيه، انقلبوا إلى بيت أحد زعمائهم، بُدَيْل بن ورقاء بن عمرو الخزاعي وإلى دار مولى لهم يُقال له «رافع»، فأوعزت قريش لحلفائها بالتوقف عن القتال...

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، في الغداة إلى المدينة، وأتى رسولَ الله وهو جالسٌ بين الناس في المسجد، يخبرُهُ بما حدث، ويستنصره على أولئك الذين نقضوا عهده وقتلوا حلفاءه، ومن ذلك ما قاله شعراً[٢]:

يَا رَبِّ إنّي نَاشِدٌ مُحمَّداً ... حِلْفَ أَبينا وأبيه الأَتْلَدَا[٣]
قَدْ كُنْتُمُ وُلْداً وكنا وَالِدا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنا فَلَم نَنْزِعْ يَدَا
فانصُرْ هَداكَ الله نَصْراً أَعْتدَا[٤] ... وادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدا[٥]
فِيهم رَسُولُ اللَّهُ قد تَجَرَّدا[٦] ... إنْ سِيمَ خَسْفاً[٧] وجْهُهُ تَرَبَّدا[٨]
في فَيْلَقٍ كالبحر يجري مُزْبِدا ... إنَّ قُريشاً أَخْلَفوكَ المَوْعِدا

---

(١) المصدر السابق؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٣١.
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٦ و٣٧.
(٣) الأتلد: القديم العهد.
(٤) نصراً أعتدا: نصراً قوياً، لأن الشيء العتيد هو الشيء القوي الجسيم وهي ممنوعة من الصرف وصرفت للضرورة الشعرية.
(٥) مدداً: عوناً.
(٦) تجرّد: تهيّأ.
(٧) سيم خسفاً: طُلبَ منه أن يأتي ذلاً، أو كلّف بإتيان الذل.
(٨) تربدَ: اغبرَّ، أو تغيّر إلى الغبرة (يريد أنَّ الغضب يظهر على وجهه).

وَنَـقـضُـوا مِـيْـثـاقَـكَ الـمُـؤكَّـدَا وَجَعَلوا لي في كَدَاءٍ[1] رُصَّدَا[2]
وَزَعَـمُـوا أَنْ لـسـتُ أدْعُـو أَحَـداً وهُـــمْ أذلُّ وأقـــلُّ عَـــدَدا
هـم بيَّتونا[3] بالـوَتِيرِ هُـجَّدا[4] وقَـتَـلُونـا رُكَّـعـاً وَسُـجَّـدا[5]
فانْصُرْ هَداكَ الله، نصراً أَيِّدا

فقام رسول الله يجرُّ رداءه، وقال له: «نُصِرتَ يا عمرو بن سالم»[6].

ثم جاء المدينة بُدَيْلُ بن ورقاء في نفرٍ من جماعته خزاعة، وأخبروا رسول الله بما أصيبوا به، وبمظاهرة قريش بني بكرٍ عليهم. فما وجد ﷺ خيراً من أن يطيّب خاطرهم، ويواسيَهم بمصابهم، ويعدَهم بالنصرة على أعدائهم.. ولكن عليهم بالصبر إلى أن يأتيَ أمرُ الله (تعالى)، ويأذنَ بالقصاص من أولئك المعتدين..

لقد بات واضحاً أنَّ قريشاً وحلفاءها من بني بكر قد نقضوا معاهدة الحديبية التي اشترطت فيها قريش، ومع ذلك أجابها رسول الله ﷺ.. لعلَّها ترتدُّ عن الضلالِ، وتثوب إلى الرشد، فيعمَّ السلام والأمان في ربوع شبه الجزيرة. أما وهي لا تعبأ بسلام، ولا تحفل بمواثيقَ أو عهود، فلا بد من معاجلتها بما يقهرها، ويفرض عليها الاستسلام والخضوع بصورة نهائية!. ولن يكون ذلك إلَّا بالزحف عليها

---

(١) كداء: موضع في أعلى مكة.
(٢) رصّدا: مراقبين. ورصَدَ الشيء: راقبه.
(٣) بيّتونا: غدروا بنا ليلًا في بيوتنا.
(٤) هُجَّدا: نائمين.
(٥) وقتلونا ركعاً وسجّدا: قتلونا دونما تفريق بين مشركنا ومسلمنا.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٧ عن ابن إسحاق؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٣٢.

في عقر دارها، وفتح مكة أمام المسلمين والعالم أجمعين، إذا شاء الله ربُّ العالمين.. نعم هذا ما عَزَم عليه الرسول الأعظم بعد الغزو الذي تعرَّض له حلفاؤه من خزاعة، وما حلّ بهم من مصاب جسيم..

طلب قريش تمديد معاهدة الحديبية

ويبدو أن أهل الرأي من قريش، وبعد مراجعة دقيقة لحساباتهم، قد أدركوا ما أوصلهم إليه الطيش والرعونة من خطر حالٍّ بهم لا محالة، فبعثوا أبا سفيان بن حرب ليثبّت المعاهدةَ مع رسول الله، ويطيل في مدة الهدنة..

وخرج أبو سفيان من مكة حاملًا هموم قريش على عاتقه، فالتقى في محلة تدعى عسفان ببديل بن ورقاء وأصحابه، فسأله من أين أقبلوا.. ولكنَّ بديلًا أدرك ما يريده الزعيم القرشيّ المتغطرس، فقال له:

«سرتُ في خزاعة في بطن هذا الوادي».

ولم يصدّق أبو سفيان، فقال في نفسه: «لئن جاء بديلٌ المدينة فقد علف بها النوى». فذهب إلى مبرك راحلتِهِ، فأخذ من بعرها ففتَّه، فقال: «أحلف بالله لقد جاء بُدَيلٌ محمداً». وهذا ما جعل الخوفَ ينتاب أبا سفيان أكثرَ، فنوى ألَّا يأتيَ محمداً ويلقاه مباشرة، بل يتوسل إليه لدى شخص عزيز عليه، فأسرع إلى المدينة، ودخل على ابنته أم حبيبة رضي الله عنها كي تكونَ الوسيلة إلى زوجها، ولكنْ ما إن أراد أن يجلس على الفراش، حتى سارعت أم المؤمنين تطويه من أمامه!.. فاستغرب هذا الأمر، وقال لها:

«إيه بنية، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عني؟!».

فقالت أمُّ حبيبة المؤمنة الصادقة:

«بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجلٌ مشرك نجس، ولم أحبَّ أن تجلس على فراش رسول الله»[1].

وكانت المفاجأة شبه قاتلة لأبي سفيان، فقال لها: «لقد أصابكِ يا بنية بعدي شرٌّ»[2].

وخرج أبو سفيان، مضعضعَ النفس مما لاقاه من ابنته. فذهب إلى المسجد، وجلس إلى رسول الله يكلمه في توثيق المعاهدة وفي زيادة مدتها، إلَّا أن الرسول ﷺ لم يردَّ عليه بشيء.. وألحَّ أبو سفيان في الكلام، والنبيُّ لا يجيب، حتى قنع أن لا جدوى من المتابعة، فقام يجرُّ أذيال الخيبة والخسران، وهو يشعر بأن إعراض «محمد» عنه كان صدمة أشدَّ من تلك التي تلقاها من ابنته..

ولكن ماذا على أبي سفيان أن يفعل، وقد جاء في مهمة لا يريد الفشل فيها؟ فرأى أن يذهب إلى أبي بكر الصديق كي يكلم رسول الله بأمره، فما وجد عنده إلَّا الرفض.. فأتى عمر بن الخطاب، ولكنَّ الحال هنا كان أسوأ لأن عمر أغلظ له في الردّ، وهو يقول له:

«أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ[3] لجاهدتكم به»[4].

وضاقت الدنيا في وجه أبي سفيان بن حرب.. فهؤلاء الذين

---

(١) أعيان الشيعة، ج١ ص٧٤؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) الذرّ: النمل الصغير.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٨.

أمِلَ في العون عندهم قد خيّبوا رجاءَهُ، بل ورذلوه، فماذا يفعل ومصير قريش كله متوقف على مساعيه هنا في الفشل أو النجاح؟!

ولم يرَ أبو سفيان إلّا أن يقصد عليَّ بن أبي طالب فلعله الرجل الوحيد الذي يمكن أن يعينه على مبتغاه، فلمَّا جلس إليه، قال له: «يا عليّ، إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإنّي جئت في حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً، فاشفع لنا عند محمد»[1]. فقال له علي (كرَّم الله وجهه): «ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلّمه فيه»[2].

وكانت فاطمةُ الزهراء في البيت، وبين يديها ابنها الحسنُ، وهو ما يزالُ طفلًا صغيراً يدبُّ، فالتفت أبو سفيان ـ وقد أدرك حراجة الموقف ـ إلى الزهراء وقال لها:

«يا بنت «محمد»، هل لكِ أن تأمري بُنَيَّكِ هذا (يعني الحسن عليه السلام) فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟»[3].

قالت فاطمة الزهراء: «والله ما بلغ بُنيَّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ»[4].

قال: «يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني»[5].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٨.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٣٨؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٣٢.
(٣) المصدران السابقان.
(٤) المصدران السابقان.
(٥) المصدران السابقان.

قال أبو الحسن: «والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك»[1].

قال: «أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟».

قال أبو الحسن: «لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك».

وقام أبو سفيان، فأتى المسجد قائلًا: «أيها الناس! إني قد أجرتُ بين الناس»[2].

ولم يلبث أن خرج فركب بعيره ثُمَّ انطلق إلى مكة، خالي الوفاض، يجرُّ أذيال الخيبة، إذ لم يستطع أن يحقق شيئاً ممَّا جاءَ لأجله. فلما وصل إلى قومه وسألوه عما وراءه، قال لهم: «جئت «محمداً» فكلمته، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً.. ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً.. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو.. ثم جئت عليَّ بن أبي طالب فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟».

قالوا: «وبما أمرك؟».

قال: «أمرني أن أُجير بين الناس، ففعلت».

فقالوا: «فهل أجاز ذلك «محمدٌ»؟».

قال: لا!

قالوا: «ويلك إن زاد الرجلُ على أن لعب بك، فما يُغني عنك ما قلت».

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) أي إن المسلمين بمكة بجواري (بحمايتي).

قالَ: «لا والله، ما وجدت غير ذلك»!.

صحيح أنَّ أبا سفيان قد ترك المدينة وفي نفسه الألمُ والذلُّ. ولكنه ما درى أن رسول الله ﷺ لم يكلمه في شيء إلَّا لأنه كان قد عزم على أن يفتح مكة، وليكون هذا الفتح فتحاً للقلوب على الإيمان، وهدىً للأنفس إلى الحق. أجل، لم يكن ﷺ يريد بمكة شرّاً قطّ، بل طلب فتحاً بلا قتال ولا مقاومة، دون أن تراقَ فيه قطرة دم واحدة، إلَّا أن يكون هنالك بعضُ أهل الشرك الذين وجب قتلهم بالحق. ومن أجل هذه الغاية، ولكي لا يشيع الأمرُ في الناس، وتستعدّ قريش للمقاومة، ويكون القتال أمراً مفروضاً لا مفرَّ منه، رغب رسول الله ﷺ عن محادثة أبي سفيان بشأن معاهدة الحديبية كي يكون بإمكانه العمل على إقامة عهدٍ جديدٍ بديلٍ عن هدنةٍ هشَّةٍ، وليرسيَ سلاماً مبنياً على العدل والحق والشريعة، يبقى إلى أبد الدهر، ما دام البلدُ الحرام آمناً، وما دام البيت الحرام آمناً إلى يوم القيامة..

من أجل هذه الغاية، أرادَ رسول الله ﷺ أن يكون أمره سراً. فلم يقل لأحدٍ ما عزم عليه من فتح مكة، بل راح يخطط بتأنٍّ ورويَّة، حتى تأتيَ العواقبُ سليمة والنتائجُ محققة بإذن الله تعالى. وقد رغب بأن يؤلِّف مسيرة تضم حشوداً من الناس، فبعث إلى القبائل من حول المدينة، وإلى الأعراب في البادية أن يأتوا، ويحضروا رمضان في عاصمة البلاد، فجاءت الوفود، ومعها الرايات، تقيمُ المضارب، بعضَها إلى جانب بعضٍ، حتى غصَّتِ المدينةُ وجوارها بالوافدين. ولمَّا رأى رسول الله ﷺ أن الجموع قد لبَّت النداء على النحو الذي أراده، أعلم الناس بالزحف إلى فتح مكة، وأمرهم بالتهيؤ والاستعداد لذلك.

خطأ حاطب وإعذاره

وعندما تأكَّدَ لحاطب بن أبي بلتعة[1] أنَّ الخروج بات وشيك الوقوع، عمد إلى امرأة من مزينة، وأعطاها كتاباً كي توصلَهُ إلى قريش، على أَنْ تُبقيَ الأمر سراً. وقد أغراها بالمال من أجل أن تكتم خبرَهُ، ولا تبوحَ به لأحد. فقامت تلك المرأة من فورها تخبّئ الكتاب في ضفائر شعرها، ثم خرجت تريد مكة. ولكن رسول الله، وقد أتاه الوحي يخبره بما فعل حاطب، عاجل بدعوة عليِّ بن أبي طالب والزبير بن العوام[2]، وأمرهما أن يلحقا بالمرأة ويأتياه بالكتاب. فخرجا حتى أدركاها بـ«ذي الخُليقة» ـ خليقة بني أبي أحمد ـ. فتقدّم منها الزبير يطلب الكتاب، فأنكرت، فأخذ يبحث عنه في رحلها من غير أن يجدَهُ، فتقدم عليٌّ واخترط السيف، ثم قال لها: «أحلف باللَّهِ ما كذب رسولُ الله ﷺ ولا كذبنا، أما والله لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنكشفنَّكِ، ثم لأضربَنَّ عنقك بسيفي هذا». وإزاء هذا الحزم، وما رأت عنده من الإصرار والجدّية فيما يقول خافت على حياتها، فقالت: «أَعْرِض بوجهك».. وحلَّت تلك الماكرة ضفائرها، وأخرجت الكتاب ثم دفعته إليه. فأخذه عليٌّ وانطلق مع رفيقه الزبير

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة اللخميّ، أزديّ، أصله من اليمن، كان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ، أحد الرسل الستة، حمل كتاب الرسول إلى المقوقس في مصر سنة ٦ هجرية. شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي الصحيحين: من حديث عليّ (رضي الله عنه) في قصة كتابة حاطب إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله إليهم، أنه نزل فيه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ ـ الممتحنة، الآية: ١ ـ (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٦١٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٤١ عن ابن إسحاق.

عائدين إلى رسول الله. وجيء بحاطب إليه فسأله عما حمله على هذا الفعل الشنيع! فلم يجد إلَّا الصدق منجيّاً له، فقال والغصَّة تكاد تقتله: «يا رسولَ الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما غيّرت ولا بدّلت. ولكني كنت أمرأً ملصقاً في قريش، لست من أنفسهم، وليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. وكان مَن معك من المهاجرين، ممن له أهل ومال بمكة، لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني النسب في قريش، أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. فكتبتُ كتاباً لا يضرُّ اللَّهَ ولا رسولَهُ [1] ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا ارتضاءً بالكفر بعد الإيمان»[2].

لقد أبدى حاطب بن أبي بلتعة عذره، ولكن هل هذا يكفي؟! فلئن عُذِرَ مَنْ يَجْهَلُ حقيقةَ الدعوةِ، وسموَّ مَرامِيها، فهل يُعذرُ صحابيٌّ جليلٌ رافق هذه الدعوة في مختلف مراحلها، وكان إلى جانب حاملها رسول الله ﷺ في مختلف المراحل والأحوال التي مرّت بها؟ وخاصة أنه كان من المجاهدين في سبيل الله تعالى، وحضر المعارك كلها، بما فيها معركة بدر، وتحمَّل المسؤولية التي عُهدَت إليه، يوم حمل كتاب الرسول إلى المقوقس عظيم القبط؟

الجواب نجده في قوله عزَّ وجلَّ، الخالق البارئ، إذ يبيِّنُ لنا في كتابه العزيز أنَّ الإنسان ضعيف: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[3].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، رقم ١٥٣٤ (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٦١٤).

(٢) انظر: زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٨.

وحالات الضعف عند بني البشر عديدة ومتنوعة، وما من مخلوقٍ بشريٍّ إلَّا وعنده نقطة ضعف معينة إمّا تجاه المال، أو النفوذ، أو حُبِّ السلطة والحكم، أو قد يكون الضعف حيال المرأة فتغلب عليه الشهوة والرغبة، أو قد يأتي هذا الضعف من حبِّ الإنسان لعياله وعاطفته تجاه الآباء والبنين، إلى غير ذلك من حالات الضعف البشري التي لا تحصى..

وحاطب بن أبي بلتعة، إنسانٌ ـ كسائر الناس ـ أضعَفه الخوف على أهله بمكة، إذا ما أقدمت قريش ـ عندما يبلغها خبر زحف المسلمين ـ على قتل المسلمين المستضعفين هناك. وقد رغب أن يحميَ أهله، فكان منه ما كان، وبعث بالكتاب تحت وطأة ذلك الضعف!..

ومحمد رسول الله ﷺ، قد ربَّاهُ ربه سبحانه وتعالى على عينه، ليعدّه لأعظم رسالة سماوية إلى الأرض، فإنَّ هذه التربية الربانية هي التي أودعت في نفسه المعرفةَ بالنفس الإنسانية، وبما تحفل به نفوس الناس من المشاعر، وبما يعترضها من مؤثرات.. ولقد رأى في اعتذار حاطب ما ينمُّ عن حالة من الضعف اعترته خوفاً على الأهل والولد. وهي حالة عابرة فرضَها عليه ظرفٌ حرجٌ، لأن ماضيَ الرجل كلَّه يشهد على صدق إيمانه، وحسن بلائه في الذود عن حياض الدين الذي أنزله الله تعالى رحمة للعالمين.

ورأى الرسولُ الأعظم أن ما ارتكبه حاطب من خطأ ـ وإن كان فادحاً ـ إلَّا أن هذا الخطأ لا يعدل ذلك الماضيَ الحافلَ بالتضحية والعطاء. وإنَّ في عدالة بني البشر ما يأخذ بالأسباب التخفيفية، وحتى

بالأسباب التي تمنع أحياناً العقاب، فإذا كانت هذه عدالةَ الناس، فكيف يجب أن تكون عدالةُ النبوّة؟..

وأرادَ النبي ﷺ أن يُظهر عفوه عن حاطب، فقال لمن حوله: «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به». وفي رواية ابن مردويه: أن رسول الله ﷺ سأله: «يا حاطب ما دعاك إلى ما صنعت؟» فقال: «يا رسول الله! كان أهلي فيهم، فكتبت كتاباً لا يضرُّ اللَّهَ ولا رسوله»[1].

وفي هذه الحادثة أنزل الله تعالى في أول سورة «الممتحنة» من القرآن الكريم، حكمه الذي يحذّر فيه المؤمنين من موالاة أعداء الله (تعالى) ومصانعتهم، ومن إفشاء بعض السرّ لهم أيّاً كان الدافع للموالاة، ومهما كان السبب للإفشاء، لأن العدو عدوٌّ حيثما كان، ومهما اختلفت أوضاعه وأحواله. وإن التقرب إليه وموادّته أو محاباته إنما هي خيانة ما بعدها خيانة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

---

(١) انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٦١٤؛ عن: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، رقم ١٥٣٤.

(٢) سورة الممتحنة، الآيات: ١ ـ ٣.

بدء المسيرة إلى مكة

وانتهت حادثة حاطب بن أبي بلتعة بالعفو عنه. إذ شفعت له أعماله وتضحياته في سبيل الدعوة: فقد شهد بدراً، وكان من الرماة الذين صمدوا على الجبل يوم أحد، وكان من المؤمنين المجاهدين، فكان لا بدَّ، وتلك سيرته، أن يشفع له جهادُهُ في سبيل الله، لأنَّ العدلَ كلَّ العدل في ميزان الحكم الإسلامي، وجهادُ حاطب ترجح كفتُهُ على خطئه..

وعزم الرسول الأعظم على المسير، فاستخلف على المدينة أبا رُهَم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري. ثم خرج لعشر خلَون من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة، في نحو عشرة آلاف من المسلمين، كان فيهم المهاجرون والأنصارُ، وكل من جاء المدينة من قبائل العرب.. خرجوا في أكبر جيش عرفته المدينة حتى ذلك التاريخ.

وسار جيش المسلمين تعجُّ به الطرقات، فلم يضرب خيامه في بطاح إلَّا واكتست أرضها بأجسادِ أولئك الناس ذوي الضمائر الحيّة، الذين لا يرغبون ـ ولو خرجوا فاتحين ـ بسفك دم أو قتْلِ بريء، ولا يرنون إلى أخذ مالٍ أو استلاب حق أو اغتيالٍ فضيلة.. بل على العكس من ذلك كله، كانت الغاية فتحَ البلد الحرام، ورفعَ الحواجز والسدود التي أقامتها قريش، فيكون ذلك البلد ـ كما أراد له الله سبحانه وتعالى ـ مثابةً للناس وأمناً، يسوده دينُ الحق الذي أُنزل على قلب رسول الله محمد بن عبد اللّه، سيّد المرسلين وخاتم النبيين، ليُخرج الناس، كل الناس، من الظلمات إلى النور. ولذلك كان

الرسولُ يدعو الله تعالى في تلك المسيرة قائلًا: «اللَّهم خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريش حتى نَبْغَتَها في بلادها»[1].

الإفطار في السفر

وكان الخروج في شهر الصوم المبارك، فظلوا صائمين حتى بلغوا الكُدَيْدَ ـ ما بين عُسفان وأمج ـ فأفطر النبيُّ ﷺ، لأن في شرع الإسلام أنَّ من كان على سفر رُخّصَ له أن يفطر، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[2] والله سبحانه وتعالى يحبّ أن تُؤتى رُخَصُهُ، فما دام قد رخَّص للمسافر بالإفطار، فعليه ذلك، لأن الصيام في السفر يكون ـ عادةً ـ شاقّاً ومضنياً، إذ قد يلاقي المسافر الصائم من الإجهاد ما لا يطيق، ولذلك كانت حكمة الله تعالى ـ وهو الرؤوف بعباده، الرحيم بخلقه ـ الترخيص بالإفطار في رمضان، إبعاداً للنفس عن وعثاء السفر وتمكيناً للجسم من الاحتفاظ بقواه.. وعلى هذا فالأَوْلى بمَنْ خرج للجهاد أن يُفطر، لأن الجهادَ، أو القتال في سبيل الحق، يتطلب استجماع كافة القوى الجسدية والمعنوية[3].

نعم، لقد أفطَرَ رسولُ الله ﷺ في الكُدَيْدِ لأنه صارَ على سفر،

---

(١) انظر: زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٣) إنَّ حكم الإفطار في السفر تشريعٌ من اللَّهِ (سبحانَهُ وتعالى)، وهو ينطبق على المؤمنين في كل زمان ومكان، فلا يقولَنَّ أحدٌ إن وسائل السفر قد اختلفت وأنَّ المشاقَّ التي كان يعاني منها المسافرُ يوم نزلَ التشريعُ قد اختلفت، ووسائل المواصلات أيضاً قد اختلفت.. لا! لا يفكرنَّ أحدٌ بذلك، فيصوم وهو مسافر، بل عليه معرفة أحكام الإفطار في السفر، عند أهل العلم والفقهاء والالتزام بها..

ولكنَّ جماعةً من المؤمنين ـ المتحرّزين ـ رأوا في الإفطار حرجاً.. فهم في شهر رمضان، شهر الصوم والتوبة وشهر الرحمة والمغفرة وشهر العتق من النار.. ويريدون أن يصوموا كي ينالوا الثواب الذي يعدُ به اللَّهُ تعالى الصائمين.. وأدرك الرسولُ ما يعتمل في الأنفس، فطلب إليه إناء، واعتلى على راحلته في وضح النهار، فشرب أمام الناس. فلما رأوه كذلك، أفطروا.

وعاد الركبُ الإسلاميُّ يتابع طريقه، حتى كانوا في محلة تدعى «نيف العقاب» ـ أو في الأبواء ـ فيما بين المدينة ومكة، فالتقوا ببعض أقرباء النبي ﷺ وكان فيهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (ابن عمه) وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة (ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، وأخو أم سلمة من أمها) فماذا كان موقف الرسول ﷺ من هذين الرجلين النكدين، اللذين قد لقي منهما في مكة ـ قبل الهجرَة ـ من شدة الأذى والهجو ما لا يطاق؟ لا شيء.. إلا أنه أعرض عنهما!..

بشائر مسيرة الفتح

وجاء أبو سفيان بن الحارث إلى عليٍّ، يستجير به أنْ يُدخلهُ على رسول الله ﷺ فقال له عليٌّ: إئتِ رسولَ الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوةُ يوسفَ ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾[1]، كما جاء عبد اللّه بن أبي أمية إلى أخته أم سلمة، يطلب إليها أن تكلم النبيَّ ﷺ كي يأذن له ولصاحبه بالدخول عليه في قبته (وكان الرسول ﷺ قد أخرج معه من نسائه أم المؤمنين

(١) سورة يوسف، الآية: ٩١. زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٤.

أم سلمة، وأمّ المؤمنين زينب)[1] فأتته أم سلمة وقالت: «لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وهما يلتمسان الدخول عليك يا رسولَ الله».

ولكن هل من السهل دخول ذينك الرجلين عليه، مع أنه هو المسامحُ الكريم؟!

إنَّ عودةً إلى الماضي، وإلى أيام مكة بالذات، قد تُذَكِّر بما لاقى المسلمون جميعاً، والنبيُّ ﷺ معهم، من عنتِ قريش وصلافتها، وما لجّت فيه من عذاب وعناد، وما غالت فيه من سخرية وأذى. وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعراً، فانبرى يهجو النبيِّ بأقذع القول وأمرِّه، حتى وصلت به القحة لأن ينالَ منه في عرضه وشرفه ـ على الرغم من صلة قرباه الوثيقة به ـ وأما عبد اللّه بن أبي أمية فقد تعمَّد السخرية منه على مرأى من الناس، يوم جاءت قريش تدّعي طلب المعجزات لتصدقه وتؤمن بنبوته، فأظهر عبد اللّه هذا كل كيده، عندما قال لرسول الله: «والله ما آمنت بك حتى تتخذ سلّماً إلى السماء، فتعرج فيه وأنا أنظر إليك ثم تأتي بصكٍّ وأربعٍ من الملائكة يشهدون بأن الله أرسلك»..

هذه المواقف الخبيثة من الرجلين، وغيرهما من قريش، لم تكن لتسيء إلى شخص رسول الله ﷺ وحسب، بل وعرَّضت المسلمين للأذى، ووقفت في طريق مسيرة الدعوة تمنعها من الانطلاق، وتقيم الحواجز فيما بينها وبين الناس. ولذا لم يكن

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٨٣ وص٢٨٦؛ وحياة محمد، هيكل، ص٤٢٠.

الرسول ﷺ لينسى تلك الآثار البشعة لمجرد أن يلتمس أحد من أصحاب تلك المواقف الدخولَ عليه.

ولكنَّ أبا سفيان بن الحارث، وما إنْ بلغَهُ أنَّ رسول الله لا يرغب برؤيته، وكان معه ابنٌ له صغيرٌ يدعى جعفراً حتى قال: «والله ليأذنَنَّ لي أو لآخذنَّ بيدي بُنيَّ هذا، ثم لنذهبنَّ في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً»[1]. فلما بلغ ذلك رسول الله رقّ قلبه الكبير، وخاصة على الطفل الصغير ـ الذي لا ذنبَ له في ما اقترفَهُ أبوه، حتى يتشرَّدَ به ويذيقه مرَّ العذاب، كما يحلف هذا الأب ـ فأذِن للرجلين بالدخول عليه، فتقدما يبديان الندَم والعذر، ويُعلنان إسلامهما بين يديه ﷺ. فكانت هذه أول بركة من بركات المسيرة لفتح مكة..

ملاقاة العباس للمسيرة

وعاد رسول الله يتابع المسيرة؛ فلقيه في الجحفة عمُّهُ العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً إلى المدينة[2]، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته، ورسول الله ﷺ راضٍ عنه[3].

وبسبب الخلاف الذي كان قد احتدم في قريشٍ، بعد عودة أبي سفيان من المدينة، بين الدّاعين للتهدئة، والمحرّضين على القتال، آثَرَ العباس ألَّا يتابعَ الطريق إلى المدينة، كي ينضمّ إلى مسيرة رسول

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٤٣.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٣.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٤٢ عن ابن شهاب الزهري.

الله ﷺ علّه يجد الوسيلة التي قد تُنجي قريشاً، إنْ ظلَّ البغاة على عنادهم، وإصرارهم على القتال..

وبالفعل فقد قام العباس بدور هام في حقن الدماء، وتذليل العقبات في طريق الفتح. ذلك أنه بعدما بلغ جيشُ المسلمين مُرَّ الظهران أمر الرسول بالنزول ـ وكان الوقت عشياً ـ فدعا كلَّ نفرٍ في هذا الجيش أن يُشعِلَ ناراً، وكانوا عشرة آلاف شخص.. ولنا أن نتخيَّل مشهد عشرةِ آلاف نارٍ موقدة! وما تحدثه ألسنةُ اللهب المتصاعدة، من أنوار تسطع في جوف الظلمة فتجعل فضاءَ الصحراء متلألئاً وهّاجاً، وأطرافَها منيرةً وضّاءةً.. وأنْ نُقدّرُ ما يبعث هذا المنظر من رعبٍ في قلوبِ الأعداءِ، وخوفٍ في نفوسهم.

وأدرك العباس، وأنظارُه تلاحق الأبعادَ التي تمتدُّ إليها الأنوار، أنَّ قريشاً هالكةٌ لا محالة، إنْ هي أصَرَّت على الغيّ والعناد. وهي ـ لا ريب ـ النتيجة الحتمية للظلم والضلال، لأنه وإنْ تطاولَ الظالمون، وظنوا أنَّهم قادرون!... فسوف يأتي اليوم الذي يسحق فيه الظلمُ أصحابَهُ، ويقضي القهرُ على صانعيه.. فقال مفصحاً عما يدور في خلده «واصباحَ قريش! والله لئن دخل رسولُ الله ﷺ مكة عَنْوةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر»[1]. وأسرع العباسُ يعتلي بغلةً بيضاء لرسول الله للذهاب إلى الأراك، علَّهُ يجدُ بعض الحطّابة أو صاحب لبن، أو أيَّ إنسان، فيبعثه إلى مكة، كي يخبر أهلها بمكان رسول الله، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم بالقوة والسلاح!..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص ٤٤ وما بعدها.

ولم يكن خروج المسلمين قد بلَغَ قريشاً بعد، فقد عميت عنها الأخبارُ، بفضل تدبّر رسول الله، وقدرته على التخطيط، ودعائه إلى ربه تبارك وتعالى ألَّا تدركها أخباره فلا يصل إلى مسامعها شيء عن مسيرة جيش المسلمين حتى لا تغلبَ عليها الدعوةُ إلى الحرب، ويحدث المكروه.. أمَّا من ناحية قريش، فإنَّ الأحوال التي وصلت إليها، كانت تجعلها تعيش في الوساوس والقلق على المصير. ومن جرّاء ذلك الوضع خرج في تلك الليلة زعيم حربها، أبو سفيان بن حرب، ومعه حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتعسَّسُون الأخبار، وكلٌّ في نفسه مآربُ لا يفصحُ عنها لصاحبيْه!.. فأمَّا بديلٌ الخزاعيّ فكان يتمنَّى لو تصدقُ ظنونُهُ، فيفاجأُ بالزحف الإسلامي الذي ينتظر لقهر قريش.. بينما في نفس كلٍّ من رفيقيه هاجسُ الخوف من غزوٍ إسلامي يقضي على زعامتِهِ، ويذهب بالمكانة التي وصَلَ إليها في السنوات الأخيرة!.. ويروي العباس ما حصل في تلك الليلة[1] وهو أنه لما سمع أولئك الرجال يتحدثون، وقد عرفهم، أنصت ليتبيّن ما يدور بينهم، فإذا بأبي سفيان يشير إلى النيران قائلًا «ما رأيت كالليلة نيراناً قطُّ ولا عسكراً!». فيجيب بُدَيْلٌ: «هذه ـ ربما ـ خزاعة قد حَمَشَتْها[2] الحرب». فيقول أبو سفيان: «خزاعة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها»..

فنادى العباس على أبي سفيان «يا أبا حنظلة»! فعرف صوته، فقال: أبو الفضل؟ قال: نعم.. فاندفعوا نحوه، وأبو سفيان يقول له:

ـ ما لك؟ فداك أبي وأمي!..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص ٤٤ وما بعدها.

(٢) حمشتها: حزمتها وأحرقتها.

قال العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسولُ الله ﷺ في الناس، واصباحَ قريشٍ والله!

قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي!

قال: والله لئن ظفر بك ليضربَنَّ عنقك. فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيَ بك رسولَ الله ﷺ فأستأمنَهُ لك[1].

فركب خلفه، بينما رجع صاحباه إلى مكة. وكان أبو سفيان كلما اقترب من نيران المسلمين ازداد خوفهُ، وحنقه، حتى إذا مرَّت البغلة بنار عمر بن الخطاب، تقدَّم يعترض الطريق، فلمَّا رأى أبا سفيان وراء العباس صرخ في وجهه: «أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد»[2]. ثم خرج يشتد راكضاً نحو رسولِ الله حتى دخلوا عليه سوية، فقال عمر: «يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان فدعني أضربْ عنقه».

وتدخل العباس، فقال: «يا رسول الله، إني قد أجرته».

ثم جلس العباس إلى رسول الله، يأخذ برأسه وهو يقول في نفسه: «والله لا يُناجيه الليلة أحدٌ دوني»..

وراح عمر يُلحُّ ويكثر في شأن أبي سفيان حتى يريح المسلمين من شرّه، والعباس يحاول أن يهدّئ من غضبِهِ، حتى حسم رسولُ الله الموقف، وهو يقول لعمه:

«اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحتَ فأْتِني به».

---

(١) انظر زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

وبات أبو سفيان تلك الليلة قلقاً، مؤرقاً، حتى كان الفجر، وهبَّ الناس من الرقاد يلبّون نداء الصلاة. فلما أبصرهم أبو سفيان يركضون ويتسابقون للوضوء، والسجود وراء النبي، نظر إلى العباس بدهشةٍ، وقال له: يا عباس، واعجباً ممّا أرى، فوالله ما يأمرهم «محمدٌ» بشيء إلَّا فعلوه! فقال له العباس: لا تعجبنَّ يا صاح، فواللَّهِ الذي لا إلَهَ إلَّا هو، لو نهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه.

وطلع نور الصباح، وجاء العباسُ بأبي سفيان، فقال له الرسول الأعظم[1]: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأنِ[2] لك أن تعلم أنه لا إلَهَ إلَّا الله».

قال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لو كان مع الله إلَهٌ آخر لأغنى عني شيئاً ولأعانني لأصلَ إلى ما أصبو إليه وأرغب فيه».

قال رسول الله: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟».

قال أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمّا هذه، فإنَّ في النفس حتى الآن منها شيئاً»[3].

والتفت إليه العباسُ مغضباً، وقال له: «ويحك يا أبا سفيان! أَسلمْ واشهدْ أن لا إلَه إلَّا اللّهُ وأن محمداً رسولُ الله، قبل أن تُضرب عنقُك»[4].

---

(١) انظر حول الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وأبي سفيان: زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٥.

(٢) يأنِ: يَحِنْ.

(٣) زاد المعاد، المصدر السابق.

(٤) زاد المعاد، المصدر السابق.

وتفكَّرَ صخرُ بنُ حرب بن أمية قليلًا، وهو مطرق إلى الأرض، فرأى أنه لا سبيل له بعدُ إلى الإفلات: فإما الإسلام، وإما الموت!.. فرفع حينئذٍ رأسه فشهد شهادة الحق، وأسلم.

عندها قال العباس: «يا رسولَ الله، إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً».

وهنا يبرز العباس رجلَ حكمة وبصيرة. فقد رأى أنه لو أتيحت لأبي سفيان ميزةٌ معينة، وهو يومئذٍ زعيم قريش وسيّد مكة، فقد تكون من العوامل المساعدة على منع القتال، لأنها لا تتأتّى إلَّا عن حِلْم هذا النبي بالرجلِ، بل وبأهل مكة جميعاً.. فيستقبلهم البلدُ الحرام، فيما لو هدأتِ النفوس قليلًا، لا أعداءً فاتحين، بل هُداةً، مسالمين، آمنين... ولعلَّ نيةَ العباس تلتقي مع ما كان الرسول الأعظم قد عزم عليه، وهو أن يتمَّ له فتح مكة بدون إهراق نقطة دم، أو قتل أحد إلَّا بالحق. وإنه للرسولُ الحكيمُ، الذي لا تفوته لفتةٌ، فأدرك ما يرمي إليه عمه العباس من طلبه «أن يجعل لأبي سفيان شيئاً»، فقال ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابَهُ فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»[1]. ولكنه عادﷺ وطلب من العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل[2] حتى تمرَّ به جنود الله فيراها، فيعجَلَ إلى بني قومه بما رأى ـ بالعين المجرّدة، والبيّنة الدالة ـ من قوة للمسلمين، فيعلموا أنْ لا قِبلَ لهم على المقاومة، إن ابتَغَوْا مقاومة!..

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٥.

(٢) الخطم: المكان الذي يضيق به الطريق.

الفتح المبين: دخول مكة المكرمة

واتخذ رسولُ الله ﷺ كل أُهبة لدخول مكة المكرمة، فراحت القبائل تمرُّ براياتها أمام العباس وأبي سفيان في مضيق الوادي. وكان أبو سفيان، كلما مرت قبيلة، قال: يا عباس من هذه؟

فيقول العباس: هذه سليمٌ. وهذه مزينةٌ.. وهذه قبيلة بني غفار.. وهذه... وهذه...وأبو سفيان يقول: ما لي ولبني فلان.. وبني فلان .. وبني فلان...

وما زالت القبائل والكتائب تترى، حتى مرَّ رسول الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، وقد لبس أصحابها الدروع والحديد فلا يُرى منهم إلَّا الحدَقُ من الحديد، فبُهر أبو سفيان، وسأل:

«سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟».

قال: «هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار».

قال أبو سفيان: «ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملكُ ابن أخيك الغداةَ عظيماً».

قال له العباس بغضب: «يا أبا سفيان! إنها النبوَّة».

قال: «فنعم إذن»..

قال العباس: «النجاءَ إلى قومك».. (أي هيَّا إليهم بسرعة منجية، وإلَّا فهم هالكون).

واندفع أبو سفيان إلى مكة يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش! هذا «محمد» قد جاءكم في ما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وهرعت إليه زوجه، أم معاوية هند بنت عتبة تأخذه من لحيته

وشاربيه وهي تصيح: يا آلَ غالب! اقتلوا هذا الشيخ الأحمق، ولا تَدَعوهم، بل قاتلوهم دفاعاً عن أنفسكم وبلدكم. قُبِّح هذا الرجل من طليعة قوم![1].

وصاح فيها أبو سفيان: ويلك أسلمي وادخلي بيتك!. ثم عادَ ينادي في الناس: «ويحكم لا تغرَّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قِبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[2]..

قالوا: «قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟».

قال: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

فقال الناس: إذن ندخل بيوتَنا أو الحرمَ، ولا حاجةَ لنا بدار ابن حرب...

وكان أبو قحافة (والد أبي بكر الصديق) ما يزال على الشرك، وقد بلغ من الكِبر عِتيّاً، فطلب من حفيدة له أن تأخذ بيده، لأنه كان مكفوفَ البصر، وأن تصعد به على جبل أبي قبيس. فلما علت به صغيرته الجبلَ سألها: «أي بنيّة ماذا ترين؟».

قالت: «أرى سواداً مجتمعاً».

قال: «تلك الخيل».

قالت: «لقد انتشر هذا السواد».

فقال: «تلك الخيل قد دُفعت إلى مكة، فأسرعي بي إلى بيتي».

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٦. وطليعة القوم: سيدهم، أو حارسهم.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤، ص٤٧.

وفي هذه الأثناء، كان جيش المسلمين قد انتهى إلى «ذي طوى»، وأشرف على أبواب مكة، مزوّداً بأوامر رسول الله ﷺ، التي تمنع القتال، إلَّا إذا فُرض عليهم فرضاً، ولم يجدوا إلى ردّه من سبيل، أو إذا وجدوا في دخولهم أحداً من جماعة باغية قد سمّاهم النبي كُلاً باسمه، فهؤلاء يقتلونهم، ولو وجدوهم متعلقين بأستار الكعبة!.

وفرَّق الرسول الجيش على مداخل مكة بشكل يمكنه معه أن يطْبق عليها من جميع النواحي. فجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر وأمره بالدخول من كداء في الناحية الشمالية، وأن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه.. وجعل خالد بن الوليد على الميمنة وأمره أن يدخل من أسفل مكة. وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كداء في الجانب الغربي. ثم قدّم بين يديه أبا عبيدة بن الجراح ليدخل هو ﷺ من أعلى مكة، أي من ناحية أذاخر.

وتقدمت فرق الجيش الإسلاميّ على ذلك التنظيم الذي أمر به رسول الله، حتى إذا بلغ ﷺ الأبطح طلب أن تضرب له قبته هناك ليكون فيها مع أهله، فقيل له: «يا رسول الله، ألا تدخل دارك؟» قال: «وهل أبقى لنا عقيل من دارٍ؟».

جماعة من قريش تعترض الدخول

وظلت الفرق تتقدم في دخولها وسط الأمان والهدوء، ما عدا فرقةَ خالد بن الوليد، إذ اعترضتها جماعة من قريش على رأسها صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو. وكان هؤلاء من أشدّ الناس عداوة للنبي وللإسلام، وهم الذين اشتركوا في

تحريض بني بكر ليغيروا على خزاعة، بل كانوا معهم في الإغارة. فلما كانت فرقة خالد بن الوليد بالخندمة، انبرت تلك الجماعة تمطرها بالنبال، ولكنَّ عجالة الموت ارتدَّتْ عليها أسرع من نبالها، إذ انقضّ جنود المسلمين انقضاض الصواعق، يبدّدون شمل تلك الشرذمة الحاقدة، ويقتلون منها ما يزيد على اثني عشر رجلًا. ولم يرَ حينئذٍ قادتها، ومَن لحق بهم، إلا اللواذ بالفرار.. فهدأ الوضع تماماً، ولم تعد تبدر من أحد أَدنى إِشارةٍ بالمقاومة، إذ أسلست قريشٌ كلها القيادَ، وهدأت لتحظى بالنجاة والأمان.

وكان رسولُ الله يرقب من أعلى مكة مجرى الأمور، فلما بَصُرَ لمعان السيوف في أسفل مكة غضب مُنكراً أيَّ قتال. وأرسل من يستطلع له الخبر، حتى إذا علم باستعداء تلك الجماعة من قريش على فرقة خالد، قال: «قضاء الله خير».

الأمر بقتل البغاة

نعم، كان الخيرُ في ما اختارَه الله سبحانه وتعالى، كما ذكر النبي ﷺ. وقد اختارَ الله تعالى للبلد الحرام أن يكون بلداً آمناً فيدخله رسولُ الاسلام يوم الفتح، ليصونَ المقدسات والحرمات، وينتزع الغلَّ والحقد، ويزيل أسبابَ العداوة والبغضاء، لأن فتح مكة ينبغي أن يكون بالسلام، لا بالقتل إلَّا لمن بغى وأفسَدَ.. فالبُغاة كُتِبَ عليهم القصاص ليكونوا عبرةً لغيرهم من الذين بَعُدُوا عن الحق واتّبعوا الباطل أو يتوبوا وأمرهم إلى الله تعالى.. ومن أجل ذلك كان أمرُ رسولِ الله بأن تُقتل كلُّ جماعةٍ باغية، قامت بأعمالٍ إجراميةٍ استوجبت إِهدارَ دم أفرادها، وإنزال القصاص بهم، حتى وإن طالت المدة بين

ارتكابهم لتلك الجرائم وبين اليوم الذي أمكن فيه الله تعالى لرسولِهِ أن يطالهم وينالَ منهم.

ولعلَّ التذكير السريع بأعمال بعض أولئك البغاةِ من قريش يبيّن شيئاً من مخازيهم...

فمن هؤلاء: عبد اللّه بن أبي سرح، كان قد دخل في الإسلام ثم ارتدَّ مشركاً[1]. وقد لجأ يوم الفتح إلى عثمان بن عفان ﷺ وكان أخاه في الرضاعة، فغيّبه حتى هدأ الناس، ثم أتى به رسولَ الله يستأمنه، فأعرض عنه الرسولُ، ولم يجب بشيء. وما زال عثمان يلحُّ في طلب الأمان له حتى قال النبيّ: «نعم»!.. وقد رغبَ (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) أن يقوم إليه أحد من الصحابة فيقتله، إذ قال لهم: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا، حيث رآني كففتُ، فيقتله؟».

قالوا: «ما يُدرينا، يا رسول الله ما أردت منّا، هلَّا أَوْمَأْتَ إلينا بعينك».

قال: «إنه لا ينبغي أن يكون لنبيٍّ خائنةُ الأعين، وما كان لنبيٍّ أن يقتلَ بالإشارة»[2].

ومنهم: عبد العزّى بن خطل، كان قد أسلم، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله، وقد بعثهُ مصَدِّقاً (أي يجمع الصدقات)، وكان معه مولى له من المؤمنين الصالحين، فطلب منه أن يُعدّ له الطعام، ثم

---

(١) ولم يكتفِ ابن سرح بارتداده عن الإسلام، بل نصَّبَ نفسه حين رجوعه إلى مكة على أن يكون من أشد الحاقدين على ضعاف المسلمين، والعاملين على أذاهم!..

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٥٢.

نام. فلما أفاقَ ولم يجد طعامه قد جُهِّز بكامله، عدا عليه، وقتله عمداً، ثم ارتدَّ إلى قريش مشركاً. وأقام بعد ذلك في مكة يهجو النبي بشعره. وكانت له قيْنتان تغنيانه بذلك الهجاء البشع، إحداهما تدعى فرتنا والأخرى قريبة. فلما كان يومُ الفتح قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي. أما جاريتاه فقتلت منهما قريبة لإصرارها على الغيّ، بينما، وَجَدَت «فرتنا» من يستأمن لها من رسول الله، فأمَّنها.

ومنهم: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وقد ظلَّا على عداوتهما البغيضة لرسولِ الله ﷺ حتى يوم الفتح، فبعد هزيمتهما بالخندمة، هربا نحو ساحل البحر يريدان الذهاب إلى اليمن، إلَّا أنهما أعيدا والسفينة على أهبة إقلاعها. وكانت زوج عكرمة أم حكيم بنت الحارث بن هشام قد أسلمت، فاستأمنت لزوجها، كما استأمن لصفوان أحد أبناء عمه ويدعى عمير بن وهب الجمحي. فأسلم عكرمة، إلَّا أن صفوان طلب من رسول الله أن يمهله بالخيار شهرين، فقال له: «أنت بالخيار أربعة أشهر».. فلمَّا أسلَمَ عكرمة وصفوان أقرَّهما رسول الله ﷺ على النكاح الأول[1].

ومنهم: الحارث بن نُفيل بن وهب، وقد كان يعظّم القول في النبي، ويكثر من أذى المسلمين في مكة. وهذا لم يستأمنه أحد، ولم يدخل في الإسلام، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه [2].

ومنهم: مِقْيَس بن صبابة، الذي كان رجلٌ من الأنصار قد قتل

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٦١.
(٢) المصدر السابق، ص٥٣.

أخاه، في غزوة ذي قرد، وهو يظن أنه من العدو، فأعطاه النبي ديَتَهُ. وعلى الرغم من ذلك عاد مِقْيس وقتل الأنصاري بأخيه، ثم رجع إلى قريش مرتداً إلى الكفر. فكان جزاؤه القتل على يد رجل من بني قومه يدعى «نميلة بن عبد اللّه الليثي».

ومنهم: أسيد بن أبي إياس بن زنيم، الخليعُ الذي كان يسابق الفرسَ على رجليه، جاء به إلى رسول الله سارية بن زنيم يطلب له الأمان، فأمّنهُ الرسول الاعظم، ثم أسلم وحسن إسلامُهُ.

ومن هؤلاء الذين أمَرَ الرسول ﷺ بقتلهم أيضاً: كعب بن زهير بن أبي سلمى. فقد كان مِثْلَ أبيه شاعراً، ولكنه سخّر شعره لهجاء النبي، والنيل من أعراض المسلمين. بل كان يؤذي أخاه بجيراً لدخوله في الإسلام. فلما كان يوم الفتح هرب كعب من مكة، وما زال متخفياً حتى عاد الرسول إلى المدينة، فجاءه مسلماً، تائباً، وقد أنشده قصيدته المعروفة بمطلعها:

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ ... مُتيَّمٌ إِثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ[1]

وفي هذه القصيدة مَدَحَ رسولَ الله ﷺ، ومما قاله:

نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي ... والعفْوُ عندَ رسول الله مأمولُ

مهلًا هَدَاكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الـ ... ـقرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

لا تَأْخُذَنّي بأقوالِ الوُشاةِ ولم ... أُذنِبْ ولو كَثُرَتْ فيَّ الأقاويلُ

إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُستضاءُ بهِ ... مُهَنَّدٌ من سَيوفِ الله مسلولُ

في عصبةٍ من قريشٍ قالَ قائلُهُم ... ببطنِ مكَّةَ لـمَّا أَسلَمُوا زُولُوا

---

(١) مكبول: مقيّد.

وكذلك منهم: هبّار بن الأسود. كان من شدة أذاه للمسلمين أنِ اعترض، مع الحارث بن نفيل، راحلة زينب بنت رسول الله ﷺ يوم هاجرت إلى المدينة، فنخس الراحلة حتى أجفلت وأوقعت ابنة النبيِّ أرضاً، مما آذاها كثيراً فأسقطت جنينها، وما زالت منذ ذلك اليوم تعتلُّ حتى توفاها الله تعالى. وقد جاءَ هبّار إلى رسول الله، تائباً، فعفا عنه.

وكان الحارث بن هشام (أخو أبي جهل) وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، من الكفرة الظالمين، الحاقدين على كل ما يمتّ إلى الدعوة بصلة، وقد هربا يوم الفتح واختبآ في بيت أم هانىء (بنت أبي طالب)[1] فجاءت رسول الله ﷺ واستأمنتهما ثم أتت بهما إليه، فأسلما تائبين.

وآخرُ مَنْ يُذكر مِنْ رجال تلك العصابة هو: وحشي بن حرب، قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه غدراً يوم أحد. وقد هرب يوم فتح مكة إلى الطائف، حتى كان دخول النبي إليها، فجاءه مسلماً، فقال له النبي: «لا تُرِيَنِّي وجهك». فخرج من حضرة النبي مخذولًا مهموماً يتخبط في البلاد حتى توفاه الله سبحانه في حمص، بعد أن قضى بقية عمره هائماً على وجهه غير قادرٍ على نسيان غدره، بحق حمزة سيّد الشهداء ـ بمنطوق الوحي الإلهي ـ.

---

(١) أم هانئ، بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابنة عمّ النبيّ، وزوجة هُبيرة بن عمرو المخزومي، فرَّق الإسلام بينها وبين زوجها، فأراد النبيُّ أن يخطبها فقالت له: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري، وحقُّ الزوج عظيم، وأنا أخشى أن أضيِّعَ حق الزوج (لأنها مُصْبية أي ذات عيالٍ كثر) فقال ﷺ: «خيرُ نساءٍ ركبْنَ الإبلَ نساءُ قريش» (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢١٨٤، عن: صحيح البخاري في كتاب النكاح١٢).

أما النساءُ اللواتي أمر النبي بقتلهن، فكنَّ:

ـ مولاة لعمرو بن هاشم بن عبد المطلب تدعى سارة. فقد كانت تغني أيضاً بهجاء رسول الله، وقد استؤمن لها فأمَّنها وعفا عنها عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

ـ وهند بنت عتبة، (زوج أبي سفيان بن حرب). وقد اشتهرت بأنها أكثر النساء عداوة للنبي وللمسلمين. وكان من فعالها المعروفة أن مثَّلت بسيد الشهداء حمزة ولاكت كبده. وقد حاولت يوم الفتح أن تهيِّج قريشاً وتدفعها للقتال، ولكنها خسئت ولم تفلح، فارتدت إلى داخل بيتها ملومة مكظومة. وقد استؤمنت من رسول الله، فأمّنها.

ثلاثة رجال وامرأة لاقوا القتل فقط، من الذين أهدر دَمَهم رسولُ الله ﷺ يوم الفتح. وفي هذا أكبر دليل على ما يحمل الإِسلام من تعاليمَ ساميةٍ في التسامح، والعفو والنبل والحرص على حياة الإنسان، وفي ما تنطوي عليه نفس رسول الإسلام، حامل لواءِ هذا الدين، من العفو والرحمة..

الفاتح الحامد المتواضع

وفي العودة إلى تتابع رواية فتح مكة نجد أنَّ جيوش المسلمين قد دخلت هذا البلد الآمن وهي تحمل معها الأمن والسلم، وتنشر في ربوعها الهدوء والطمأنينة.

...لقد جاؤوها مسلمين، يفتحون أحضانهم بالمودة واللين لمن آذَوهم وهجَّروهم، وأخذوا أموالهم وسلبوا دورهم، ولمن تحزَّبوا عليهم وقاتلوهم، فلا يُعقَل أن تبنى العلاقات الجديدة بين هؤلاء الفاتحين وبين أهل مكة، إلَّا على الأسس التي أرادها وتشدَّدَ بها

نبيُّ الإسلام ورسول الهدى، والتي تنبع من وجدانه الإنساني، وتفيض من نبوَّته السمحاء. وإنَّ في تصرفه، ومسلكه، ما يفرض على جيشه الاقتداءَ به. فها هو الرسول الأعظم يدخل مكة، لا كما يدخل الفاتحون من ذوي الكبرياء والجبروت، بل بخشوع وتواضع، مكبّاً على راحلته، حتى ليكاد رأسه الشريف يلمسها، معبِّراً عن آيات الشكر الجزيل لله تعالى، وقد هداه إلى هذا الفتح المبين، ومنّ عليه بهذا الفضل الكبير.

فالشكر على كل نعمة أنعمها الله تعالى على عبدٍ من عباده يجب ألَّا يكون إلَّا بنعمةٍ من قبيلها أو توازيها. فشكر القوة يجب أن يكون بالرفق والعدل، وشكر الرفعة يجب أن يكون بالتواضع والتسامح. وهذا ما برز به محمد بن عبد اللّه ﷺ عظيماً إلى أبعد حدود العظمة. فقد أوتي القوة والرفعة في فتح مكة. وكان تواضعه، وكان عفوه، أسمى من القوة والرفعة، إذ لا أحد في العالمين غيره اجتمعت له التربية الربانية إلى التربية الذاتية لتجعله أعظم إنسان في الخلائق، فكان حقاً ألَّا يبدر منه يوم فتح مكة إلّا ما شهده أهلها، بل وما جعلهم يشهدون بأنه النبيُّ الصادق الحليم، والرسول الأعظم الكريم.

لقد عاد «محمد» إلى البلد الذي عذَّبه أهلوه، وآذوه وهجّروه، عزيزاً منتصراً. ولكنَّ ذلك كان من الماضي، وقد ذهب إلى غير رجعة.. وها هي الجبال والأغوار التي تلقّى فيها الوحيَ تستقبله بين أحضانها فخورةً، والشعابُ التي أوى إليها وقت الظلم تبتسم مُعْتزَّةً. وها هو البلدُ الحرام يفتح له الأبواب مشرَّعةً، والمسجدُ في البيت العتيق يدعوه لتثبيت دعائم الإيمان، وتحطيم الأصنام والأوثان إلى الأبد.. فنزل عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام من أعلى مكة،

وهو على ظهر ناقته القصواء، وأمامه لواؤه الأبيض ورايته السوداء (العقاب) ليفتح مكة ويدخلها، ومعه المسلمون، آمنين، حامدين.. وسارَ به الركب، وهو يقرأ «سورة الفتح» ليكون، كما أرسله الله تعالى، شاهداً ومبشراً ونذيراً للعالمين..

جاء الحق وزهق الباطل

نعم، لقد جاء الرسول الأعظم يفتح مكة، فرآه الناسُ غيرَ حافلٍ بمظاهر الفاتحين، بل كان شاكراً حامداً لربه تعالى، قارئاً «سورة الفتح» من القرآن المبين. وظل على هذه الحالة حتى انتهى إلى الكعبة الشريفة، والناسُ تحفّ به من جميع الجوانب، فاستلم الحجر الأسود وكبَّر، فكبَّر المسلمون وراءه حتى ارتجت أركان مكة لهذا التكبير. ثم راح يطوف على راحلته، وهو في كل طوافٍ يستلم الحجر الأسود، ويعود بعده إلى طواف جديد، حتى أكمل سبعة أشواط.

وكان للعرب بجوار الكعبة، وفي مكة، ومن حولها، أصنام كثيرة، بلغت ستين وثلاثمئة صنم، فكان النبي أثناء طوافه يطعن منها ما وجَدَ في طريقهِ بمحجن في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1]:

ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

نعم هذا هو الحق من رب العالمين، وما يبدئُ الباطلُ وما يُعيد..

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

فتلك الأصنام والأوثان التي عبدها العربُ ـ كما كانت أمم وشعوب كثيرة في الأرض تقوم على عبادة أمثالها لعصور طويلة ـ ها هي تهوي بضربة محجنٍ من يد رسولٍ كريم، ونَبِيٍّ عزيز، بُعِث ليمحوَها من حياة الناس، حتى لا يظلَّ بعدها ـ في شبه الجزيرة، بل وفي مختلف بقاع الأرض ـ جاهلية، ولا كفر، ولا شرك، بل دينٌ لله الواحد الأحد، يُسلم فيه الإنسان لربه، ويستسلم لأوامره ونواهيه، فيسيرُ به على صراط مستقيم، حتى تكون له السعادة في الحياة الدنيا، ويكون له الفوز في الحياة الآخرة، والنَّعيم الدائم في جنات خلدٍ عرضها السموات والأرض أُعدَّت للمتّقين. . وهذا الدين الحقُّ بالذات هو الذي جاء محمدٌ رسول اللّه ﷺ يفتح به ولأجله مكة، فكان له هذا الفتح مؤيداً بنصرٍ عزيزٍ من الله سبحانه. ثم ينزل بعد الطواف حول الكعبة الشريفة عن راحلته، ويدعو إليه حاجب الكعبة، عثمان بن طلحة، ويطلب إليه أن يفتح هو الباب. . فيمتثلُ عثمان، ويدخلُ رسول الله، ومعه أسامة بن زيد ومؤذِّنه بلال.

تطهير الكعبة من الأصنام

ويدخل الرسول الأعظم إلى جوف الكعبةِ الطاهرة، التي دنستها الأصنام والأوثان، فيأمر بإخراجها وتحطيمها. ويتأمل في صورة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) وقد نقشت على الجدار تظهرهما يستقسمان بالأزلام، فيقول: قاتلهم الله، جعلوا النبيِّين يستقسمون بالأزلام! والله ما استقسما بها. ما شأن إبراهيم وإسماعيل والأزلام؟ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] فأمر

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

بالصورة، وبصور الملائكة، على شكل إناثٍ ذوات جمالٍ، أن تطمس كلها، وأن تمحى بالتكسير والتحريق. . وكان «هُبَلُ» كبيرُ آلهة قريش ما يزالُ على جموده في جوف الكعبة، فجرى تحطيمه مثل سائر الأصنام الأخرى. . وما زال الرسول ﷺ يأمر بإخراج تلك التماثيل وتحطيمها حتى طهّر البيت الحرام منها، وأتمَّ بذلك، وفي أول يومٍ لفتح مكة، القضاءَ على الوثنية في البيت الحرام. ثم أغلق باب الكعبةً على نفسه، واستقبل الجدار قبالةَ هذا الباب، حتى إذا كان بعيداً عنه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلّى.

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

وما كاد رسولُ الله يفرغ من صلاته داخل الكعبة الشريفة، حتى عادَ يدور في رحاب هذا البيت الطاهر، مكبّراً، ثم انتهى إلى الباب، فوقف، وقد التفَّ الناس حوله، فقال:

«لا إله إلا الله وحده، صدق وعدَهُ، ونصَرَ عبدَهُ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَهْ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدميَّ هاتين إلَّا سَدَانةَ البيت وسِقايةَ الحاجّ.

«يا معشر قريش! إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء. ألناس من آدمَ، وآدمُ من تراب. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

«يا معشر قريش!! ويا أهل مكة! ما تظنون أني فاعل بكم؟

قالوا: «خيراً، أخٌ كريم، وابنُ أخ كريم».

قال: «أقول كما قال أخي يوسف: لَا تَثريبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغفرُ الله لكم وهوَ أَرْحَمُ الراحمينَ. اذْهبُوا فأنتم الطُّلقاء»(١).

هذه هي العظمة وروعة التسامح! فقد أمكن الله تعالى للنبيِّ محمدٍ من رقاب قريش عَنوةً، فلم يبادلهم الأذى والعداوة، ولم يعاملهم بمثل الشرِّ الذي أرادوه به، بل أعتقهم، وأحلَّهم من الافتراءات، والجرائم التي ارتكبوها بحقه وبحق أصحابه وأتباع دعوته. أجل، لقد أطلقهم من المكر والكيد والتآمر عليه وعلى دينه، فكانوا الطُّلَقَاءَ وسمّوا «الطلقاء». فكان حقاً أوَّلَ فاتح في التاريخ ضرب مثلًا أعلى في هذا العفو، وما أجمل العفو عند المقدرة!.

لقد خطب رسولُ الله ﷺ في أهل مكة، وأعطاهم الأمان، مضمّناً خطبته بعض الأحكام الشرعية مثل القتل الخطأ، وماهية الديّة، ومركّزاً فيها على العلاقة الطيبة، وهي التعارف بين الشعوب والناس، والوقوف على ما يتميز به الناسُ من خصائص وسمات جماعية وفردية، لأن في ذلك نفعاً للإنسان وخيراً للبرية.. على أن يبقى عماد الحياة لدى الناس التقوى، إذ بالتقوى، تقوى الله ـ تعالى ـ عبادةً وخشيةً ـ تُؤتى الأعمال الصالحة، وتبنى العلاقات السويّة..

مفاتيح الكعبة بأيدي بني طلحة

وبعد هذه الخطبة دعا الرسول ﷺ عثمان بن طلحة، فأعطاه مفاتيح الكعبة وقال: «خذوها يا بني طلحة تالدة خالدة».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٥٥؛ وزاد المعاد ج٢ ص٢٣٧..

ويروي عثمان بن طلحة بنفسه، تسليمَ الرسول ﷺ له مفتاح الكعبة، وهو يسترجع ذكرى أيام مضت، كان له فيها من محمد ﷺ مواقفُ معينة، فيقول: «كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يومي الإثنين والخميس، فأقبل الرسول ﷺ يوماً قبل هجرته إلى المدينة، يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فاعترضْتُهُ مُغْلِظاً في القول، حتى نلتُ منه. فحَلُمَ عني وقال: «يا عثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت»[1]. ورددتُ متطاولًا عليه في الأذى، فقلت له: «لقد هلكتْ قريشٌ يومئذٍ وذلَّتْ». فقال لي: «بل عَمَرَتْ وعزَّت». ووقعت كلماته في أذنيَّ موقعاً أحسست بصدقها. ثم تتالت الأيام حتى كان يوم الفتح، فدعاني نبيُّ الله ﷺ إليه وقال لي: «يا عثمان! ائتني بالمفتاح». . فامتثلت مسرعاً أناوله مفتاح الكعبة وأنا أتذكر ذلك اليوم الذي اعترضته فيه، وقال لي ما قال، فلم أجرؤ على النظر إليه. وبعد أن أخذ المفتاح، وعادَ فدفعه إليَّ قال: «خذوها خالدة تالدة. يا عثمان! إنَّ الله تعالى استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف»[2]. فقلت: نعم يا رسولَ الله. وانصرفت من أمامه، فاستوقفني وقال: «ألم يكن الذي قلت لك يا عثمان، سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت». فقلت: بلى يا رسولَ الله، وأشهد أنك رسولُ الله صلى الله تعالى عليك وسلّم».

هذا ما رواه عثمان بن طلحة عن مأثرةٍ من مآثر رسول الله ﷺ.

ومثلها الآلاف من المآثر التي تشهد أنه رسول الله الذي لا ينطق

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٨.
(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٨.

عن الهوى، إن هو إلَّا وحيٌ يوحى إليه من ربه تبارك وتعالى، فيترجمه أقوالًا وأفعالًا تسري سُنَّةً شريفة على مدى الأزمان. بل وإنَّ ما فعله مع عثمان بن طلحة هو التسامح بعينه فلم يحفل بموقفه العدائي منه في السابق، كما لم يحفل بعداوة أهل مكة جميعاً بل منحهم عفواً عاماً وجعلَهم أحراراً طلقاءَ، ومنح عفواً خاصاً لبعض الذين أهدر دمهم، وأمر بقتلهم.

السقاية في بني العباس

وبعدما أعطى رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، ثبّت السقاية أيضاً لعمّه العباس، وكانت من قبلُ لأبيه عبد المطلب، فقام بها العباس خير قيام، ثم كانت من بعده لابنه عبد الله بن عباس حَبْرِ الأمّةِ.. وتلك السقاية كانت تقوم على ملء أحواض من جلد الحيوان بالماء العذب، فيشرب منها الحجيج، ويطرح فيها تمرٌ وزبيب في موسم الحج، فيأكل الناس.

... وكان وقت صلاة الظهر قد حان، فصعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذِّناً للصلاة. وتجاوبت أرجاء مكة لنداء الأذان حتى يبقى هذا النداء خالداً ـ على الأزل ـ بشهادة أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وبأنّ محمداً رسول الله. وهو النداء الذي يهْدي المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها إلى دعوة الفلاح والخير، ويوقر في أذهانهم أن الله سبحانه وتعالى وملائكته يصلُّون على النبيّ، فأولى بكم أيها المؤمنون أن تصلُّوا عليه وتسلّموا تسليماً.

بعث السرايا لتحطيم الأصنام

وصلّى محمدٌ رسول الهدى بالمؤمنين. ثم نادى مناديه: «من

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلَّا كسره». وبعد هذا النداء، الذي تكرر بعد الصلاة مرات عديدة، لإزالة كل معالم الشرك والكفر في مكة، بعث النبيّ ﷺ سراياه لتحطيم الأصنام في كل ناحية وجدت بها حول مكة. وكان العرب قد اتخذوا لهم أصناماً كثيرة، وجعلوا لها بيوتاً، يعظمونها فيها، ويهدون إليها، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة.. وأهم تلك الأصنام كانت: العُزّى (وهي شجرة كبيرة كانت موضع العبادة لقريش وكنانة)، وسواع (صنمُ هذيل)، ومناة (صنم كلب وخزاعة)، وغيرها من أصنامٍ وأوثانٍ كانت تعبدها القبائل.. فذهبت تلك السرايا لأيام قلائل بقين من رمضان تكسّر الأصنام وتمحو كلَّ أثر لها، حتى يستقر الإسلام ديناً لله وحده في جزيرة العرب.

وصعد رسولُ الله ﷺ ـ يوم الفتح ـ الصفا يسعى ويهرول، ويحمد الله سبحانه، على ما أفاءه عليه، وجزاه به من فتح مبين. وكان الأنصارُ يرون كل ما يجري فقالوا: «أترون رسولَ الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها؟»[1]..

ولم يكن تهامسُ الأنصار فيما بينهم إلا حباً برسول الله ورغبةً أكيدة في ألَّا يتخلى عنهم، حتى تظل لهم المكرمات بجواره، والاعتزاز بالإحاطة به. وتناهى إلى رسول الله ﷺ، وهو على الصفا، ما يتخوَّف منه الأنصار فقال لهم: «معاذَ الله! المحْيا محْياكم والممات مماتُكم»[2].. فسلام الله عليك يا رسول الله، ما أعظمك وما أوفاك!.

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٣٩.
(٢) المصدر السابق.

كلُّ جانب من جوانب حياة الرسول الأعظم يحفل بالعظمة.. وما كان قراره ـ يقيناً ـ أن يبقى بين ظهراني الأنصار في المدينة إلَّا وفاءً لأولئك المؤمنين الذين ناصروه وأيَّدوه يوم أن تخلَّى عنه الناس.. وليس من السهل أن يضحّي بموطن الآباء والأجداد، ومثوى الأهل والأحبة، وأن يتخلَّى عن مكة التي نشأ وترعرع في ربوعها، وتلقّى الوحي في رحابها. ولكنه الوفاء الذي ينبع من ذاتِ محمد ﷺ فيقرر أن يعيش بين الأنصار وأن يدفن في أرض الأنصار، لأن قوله كان صريحاً وواضحاً لهم: «المحيا محياكم والممات مماتكم».

مبايعة الرجال

وانتهى رسولُ الله ﷺ من الصفا، إلى المسجد، فأقبل الناس عليه يدخلون في دين الله أفواجاً ويبايعونه على الإسلام. فاستقبل ﷺ أولًا الرجال في المبايعة، يُسلمون على يديه مهتدين. وكان أن تقدم أحد الرجال، فلمّا صار بين يديه أخذته الرعدة، فقال له النبي ﷺ: «هوِّن عليكَ، فإني لست بِمَلِكٍ، إنّما أنا ابنُ امرأةٍ من قريشٍ كانت تأكلُ القديدَ». وكان ممن بايعه في ذلك اليوم على الإسلام: أبو قحافة عثمان بن عامر التيمي (والد أبي بكر). فقد ذهب الصدّيق وجاء بأبيه، فأعلن أبو قحافة إسلامه يوم الفتح، بعد أن كانت عشرون سنة قد خلت على إسلام ابنه أبي بكر، كما جاء أبو سفيان صخر بن حرب بابنه معاوية ودخل في الإسلام مبايعاً رسولَ الله ﷺ على الطاعة..

مبايعة النساء

ولما فرغَ النبي ﷺ من مبايعة الرجال، بايع النساءَ. وكانت

بيعته لهنَّ أَنْ وضعَ إناء بين يديه، فلمَّا أخذ عليهنَّ البيعةَ وأَعطينه إياها، غمسَ يدَهُ في الماء ثم أخرجها، فغمست النساء أيديهنَّ بعده. وإنْ دلت بيعة النساء هذه على شيء فإنما تدلُّ على أن النبيَّ ﷺ لم يكن يصافحُ النساء ولا يمسُّ امرأة إلَّا إذا كانت حلاً له، أو ذات محرم منه، فإن المصافحة من امرأة غير مَحْرَم للرجل، محرَّمةٌ في الشرع.

وكان بين النسوة ـ وقد اجتمع عدد كثير منهنَّ ـ هند بنت عتبة (زوج أبي سفيان بن حرب، وأم معاوية) جاءت متنقبة، متنكرة، خائفة من النبي ﷺ لفعالها الشنيعة السالفة. فلمّا اجتمعن إليه قال لهنَّ النبيّ ﷺ:

«تبايعنني على ألَّا تُشركن بالله شيئاً».

فقالت هند: «وإنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال، وسنُؤْتيكَهُ».

وتابع النبيُّ ﷺ، من غير أن يردَّ عليها، فقال: «ولا تَسْرِقْنَ».

فقالت هند: «إنَّ أبا سفيان رجل شحيح».

فقال لها: «وإنك لهند؟».

قالت: «نعم! فاعفُ عما سلَفَ، عفا الله عنك».

وعاد يخاطب جميع النساء فقال: «وَلَا تَزْنِيْنَ».

فعادت هند تقول: «أَوَتَزْني الحُرَّة؟».

وتضاحك بعض من كان في المسجد وهم يرون أن الرسولَ ﷺ لم يبد اعتراضاً على المرأة. ثم تابع ﷺ قوله للنسوة: «ولا تقتُلْنَ أولادكنَّ بوأْدٍ ولا إسقاط».

وقالت هند: «ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت أعلم».

قال ﷺ: «ولا تأتِين ببُهتانٍ تفترينَهُ بين أيديكن وأرجلكن».

قالت هند: «وإنّ إتيان البهتان لقبيح».

قال ﷺ: «ولا تَعْصينني في معروف».

فقالت هند: «ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيَك في معروف».

تلك كانت بيعة النساء. وهي بيعةٌ هامّةٌ لأن الإسلام ساوى فيها بين الرجال والنساء. وما دامت البيعة من الأمور العامة المهمة، فإنه يكون قد فُرض وجوب مشاركة المرأة للرجل في هذه الأمور. ومن هنا تتبدى أهمية بيعة النساء، ولا سيما أيضاً فيما أقرَّهُ النبيَّ لمجموعةٍ من القواعد العائلية والمجتمعية والإنسانية التي تُبرز المرأةَ عنصراً فاعلًا في المجتمع، ويتوقف إلى حدٍّ بعيد، على سلوكها وتصرفها، صلاحُ هذا المجتمع أو فسادُه، مثلما يتوقف على سلوكها وتصرفها صلاح العائلة أو فسادها..

فالمرأة من خلال هذه البيعة، يجب أن تكون مؤمنةً بالله تعالى فلا تشرك به شيئاً، وأن تكون أمينةً على المال والحقوق فلا تسرق، وأن تكون شريفةً في عرضها فلا تزني، وتحفظ النسل سليماً، ولا تقدم على قتل المولود، إن جنيناً، وإن بعد الولادة، حفاظاً على قدسية الحياة، وصوناً لأبناء المجتمع من الهلاك، وأن تكون صادقةً، لا تقولُ إلَّا الحقَّ، بعيدةً عن زورٍ أو بهتانٍ أو ادِّعاءِ باطل، وأن لا تعصيَ الرسولَ ﷺ - والحاكم عامة - في معروف (أي الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر)... وذلك كله بتنزيل الخالق العزيز في محكم كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

أجل! إنَّ في بيعة النساء على هذا النحو ما يعطي للمرأة دوراً هاماً وكبيراً في المجتمع، ويبرزها عنصراً فاعلًا في بناء الفرد، وبناء الأمة، بل والمشاركة في تثبيت أواصر اللحمة الإنسانية بحقها وحقيقتها..

وفي مبايعة الرجال والنساء على الإسلام، اطمأنَّتْ قريش إلى مصيرها، فلم يعد عندها أدنى خوف من النبيِّ ﷺ، ولا قلق على حياتها، إذ رأت من عفوه ورحمته فوق ما كانت تتصور، ومن حسن صنيعه أبعد مما كانت تعتقد، فأقبل أبناؤها على الإسلام، رجالًا ونساءً قانعين، راضين.

ولما كان الغد من يوم الفتح، عثرت خزاعة على رجل مشركٍ من هذيل، فقتلوه ثأراً، فغضب النبيُّ لهذا العمل الجاهليّ، وقام في الناس خطيباً، فقال:

«يا أيها الناس! إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة اللَّهِ إلى يوم القيامة، فلا يحِلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد[2] فيها شجرةً.. لم تَحلِلْ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.
(٢) يعضد: يقطع.

لأحدٍ كان قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكونُ بعدي، ولم تُحْلَلْ لي إلَّا هذه الساعة غضباً على أهلها.. ثم رجعت كحُرمتها بالأمس. فليبلّغِ الشاهدُ منكم الغائبَ، فمن قال لكم: إنَّ رسول الله قد قاتل فيها، فقولوا: إنَّ الله قد أحلَّها لرسوله ولم يُحْلِلها لكم. يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل.. لقد قتلتم قتيلًا لأَدِيَنَّه، فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النَّظَرَيْنِ: إن شاؤوا فدمُ قاتله، وإن شاؤوا فَعقْلُه»[1].

تطبيق الإسلام في مكة

وأقام رسول الله ﷺ في مكة يهدي الناس للإيمان، ويُفقِّههم في الدين، مطبقاً الأحكام الشرعية بصورة تامة وكاملة لا هوادة فيها، ولا مراعاة ولا تهاون. فعندما أقدمت امرأة من قريش على السرقة، وهي مخزومية اسمها فاطمة، وثبتت عليها التهمة، كان لا بد من وجوب تطبيق الحكم الشرعيِّ عليها بإنزال حدِّ السرقة وهو القطع، لأنَّ القطعَ جابرٌ للسرقَة، ولذلك قرَّر رسول الله ﷺ قطع يدها.

ولكنَّ قريشاً كانت ما تزال حديثة عهد بالإسلام، فأفزعها الأمرُ، وصَعُبَ عليها كثيراً أن تُقطعَ يدُ سيدةٍ من نسائها، فجاء نفرٌ من أشرافها إلى أسامة بن زيد، يتوسّطون لديه حتى يستشفع بها عند رسول الله ﷺ، لعلمهم بحبِّ الرسول له، وذهب أسامة يفاتحه بالأمر. فغضب ﷺ وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حُدود الله؟».

واستدرك أسامة خطأه، فقال: «أستغفر الله يا رسولَ الله»!...

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٥٨، ومعنى عقل الدم في القتل: عدم مطالبة أهل القتيل بدم القاتل، ولكن تدفع لهم الديّة.

فلما كانت صلاةُ العشيِّ قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «ما بالُ أقوام يشفعون في حدّ من حُدود الله. فإنما أهلكَ مَن كان قبلكم أنه إذا سرقَ فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه. فوالذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

هذا هو التطبيق الأمثل لمن أراد أن يقيم مجتمعاً صحيحاً تسوده العدالة والمساواة. وما هلاك الشعوب من جراء ما يستشري فيها من فوضى، وما ينزل بها من جور وفساد وظلم، إلَّا بالابتعاد عن العدالة والمساواة اللتين يُقضى عليهما بتضييع حدود الله، أو بعدم الاهتداء إلى هذه الحدود وجعلها الأسس للبناء العام[1]. فالرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية وما انبثق عنها من نظريات ومبادئ، وما أنشأت من أنظمة أو سنَّت من قوانين لمعالجة أمراض مجتمعاتها تبقى مجرد جهود وضعية من البشر تلاقي القبول والإيجاب بصورة متفاوتة ومؤقتة، ولكن من غير الإجماع على جدواها. بدليل أن الشيوعية سقطت بعد خمسين عاماً سقوطاً كاملًا، وأن الرأسمالية ما يزال يتعاظم فشلها في تطبيق العدالة الاجتماعية وحفظ حقوق الإنسان، كما نشاهده في جميع المجتمعات الرأسمالية.. ويبقى شرعُ الله (تعالى) وحده، بما يتضمَّن من أحكام سنَّها اللَّهُ العليُّ العظيم، هو الشرعَ القادرَ على أن يحقّق القواعد السليمة والثابتة لإصلاح شؤون الحياة بكل جوانبها..

(١) لقد آثرنا في هذا المؤلَّف الذي يروي سيرة سيّد المرسلين وخاتم النبيِّين محمد ﷺ أن تحذف من هذه الطبعة ـ والطبعة السابقة ـ الأبحاث المتعلقة بالحدود، لأننا فصّلنا أحكامها في كتابنا «موسوعة الأحكام الشرعية، كتاب: المعاملات» ص ٤٩٥ وما بعدها، فيمكن لمن أراد الاطلاع الرجوع إلى المؤلف المذكور.

وبرحمةٍ من الله العزيز الحكيم، ورأفةٍ من محمد ﷺ، لم يكن فتح مكة، فتحاً لبلد عدوٍّ، بل كان في صميمه فتحاً من الله (تعالى) لقلوبٍ مُغْلَقَةٍ، ولجماً لعَنان نفوسٍ مستكبرة.. فإذا بالغالبية الساحقة من أهل مكة نفوسها تفيض بالقناعة والرضى، وتدين بالطاعة والولاء للدين القيّم. ثم راحت تنضوي تحت لواء رسول عزيز هو منها ولها، طائعة مستسلمة، وتدخل في دين الله مختارة مطمئنة. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

ولقد فتحت مكة أبوابها، كما فتح أهلُها قلوبهم، فإذا كلمة الله هي العليا، ودينه صاحب السلطان الأوحد، وإذا كل المقاليد ملقاة بين يدي رسول الله ﷺ.. فلا شِرْكَ بعد اليوم، ولا صدَّ عن بيت الله الحرام. وكان ذلك هو النصر المؤيد من الله تعالى، والفتح المبين... ودانت مكة لدولة الإسلام، ولم يبقَ في شبه الجزيرة إلَّا بعض الجيوب الداخلية في حنين والطائف، فلا بدَّ من التوجُّه إلى تلك النواحي...

حادثة بني جذيمة

انقضى شهر رمضان ورسول الله ﷺ ما زال مقيماً في مكة، يُفْطِرُ ويَقْصُرُ في الصلاة، فيصلِّي الأربع ركعتين فقط، لأنه يعتبر نفسه لا يزال على سفر، إذ لم يكن ينوي الإقامة. كما أنه لم يعتبر نفسه مقيماً في مكة، إذ لم يعد له دارٌ فيها. فلمّا كان شهر شوال من تلك السنة (الثامنة للهجرة) بعث الرسول ﷺ إلى مختلف النواحي حول

(١) سورة فصّلت، الآية: ٣٤.

مكة ببعض السرايا لدعوة الناس إلى دين الله عزَّ وجلَّ، ولكن دونما قتالٍ، إذ لا قتال ـ بعد اليوم ـ في مكة وما حولها من القرى والبوادي.

وخرج خالد بن الوليد في سريةٍ من ثلاثمئةٍ وخمسين مقاتلًا بينهم رجالٌ من المهاجرين والأنصار، ومن قبائل العرب، أمثال بني سليم بن منصور، ومدلج بن قرّة.. وسار بأسفل تهامة ليكون داعياً كما أمره رسول الله ﷺ حتى بلغ منازل بني جذيمة، الذين كانوا قد أسلموا، وصدَّقوا النبيَّ ﷺ وأقاموا مسجداً لهم يؤذنون فيه ويصلون.. وعلى الرغم من هذا الواقع ومعرفة خالد بإسلامهم، فقد طلب إليهم أن يسلِّموه السلاح الذي كان معهم، وكانوا قد شهروه عندما رأوا السرية مقبلة عليهم فظنوا أنها قبيلة معادية جاءت تغيرُ عليهم. ولكن خالد بن الوليد لم يأخذ بالحساب ما أبدوه له من عذر على شهر السلاح، بل أمرهم بوضعه جانباً فامتثلوا..

وكان في بني جذيمة رجل اسمه جَحْدم، يعرف خالداً ويعلم طباعه، فأشار على بني قومه ألَّا يضعوا أسلحتهم، قائلًا:

ـ ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد بن الوليد! واللَّهِ ما بعد وضْع السلاحِ إلَّا الإسار، وما بعد الإسار إلَّا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً[1].

وأنكر قومُهُ عليه ما يُبدي، فقالوا له:

ـ يا جحدم! أتريد أن تسفك دمنا؟ إنَّ الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح، وانتهى القتالُ، وأمِنَ الناس..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٧١.

وهكذا نزع خالد السلاح من بني جذيمة. ونام الجميع حتى كان السحَر، فقام يأمر أصحابه أن يكتِّفوا القوم، وأن يقتلوهم وهم مكتَّفون بالحبال والسلاسل!..

وأطاع رجالٌ من بني سُلَيْم أمر خالد، فقتلوا أسراهم، بينما أبى المهاجرون والأنصار ذلك فأرسلوا أسراهم[1]. ووقف عبد الله بن عمر[2]، وعبد الرحمن بن عوف مستنكَرين على خالد فعله، فقال له عبد الرحمن:

ـ يا خالد! لقد عمِلتَ بأمرِ الجاهلية في الإسلام.

فقال خالد: إنما ثأرتُ بأبيك.

فقال له عبد الرحمن: بل كذبتَ، فقد قتلتُ قاتلَ أبي، ولكنك ثأرتَ بعمِّكَ الفاكه بنِ المغيرة.

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٤١.

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب، أسلم صغيراً، وكان عالماً فقيهاً يُفتي في الناس، بعثَهُ رسول الله ﷺ في عدة سرايا، وقد شهد مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فوقف في عرفة، فكان يقف في ذلك الموقف كلّما حجَّ.. رأى رؤيا في المنام، فلمَّا قُصَّت على رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلّي من الليل».. عن أبي بردة عن أبيه قال: صلّيت إلى جانب ابن عمر، فسمعته حين سجد يقول: اللّهم اجعل حبك أحبَّ الأشياء إليَّ، وخوفك أخوفَ الأشياء عندي.. وقال ابن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يرى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلَّم حلالها وحرامها، وآمرَها وزاجرَها، ثم رأيت اليوم رجلًا يقرأ بين فاتحتِهِ إلى خاتمتِهِ وما يدري ما أمره ولا زجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فينتثر نثر الدَّقل.. وكتب رجل إلى ابن عمر يقول له: اكتب إليَّ بالعلم كله، فكتب إليه: «إنَّ العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى اللَّهَ خفيف الظهر من دم الناس، خميص البطن من أموالهم، كافّاً لسانك عن أعراضهم، لازماً لأمر الجماعة فافعل، والسلام» (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص١٢٤١ ـ ١٢٤٤).

ورفض المهاجرون والأنصار قتل أحد من بني جذيمة امتثالاً لأوامر النبيِّ ﷺ الذي سيَّرهم دعاةً لا مقاتلين، وإعمالاً للقاعدة التي تمنع قتل الأسرى، فكيف إذا أعلنوا أنهم دخلوا في الإسلام، وأنهم لم يعودوا من الأعداء، ولم يريدوا قتالاً؟! بل وكيف إذا جاء دعاة مسلمون ورأوا مسجداً لقوم يقيمون فيه الصلاة، فهل يجوز إلَّا أن يعاملوهم كمسلمين إخوة لهم؟!...

أما سبب هذه النزعة الجاهلية التي برزت عند خالد بن الوليد، فعود إلى الماضي يوم أن عادَ بعض تجار مكة من اليمن، وكان بينهم عمه الفاكه بن المغيرة المخزومي، وعوف بن عبد عوف من بني زهرة وبرفقته ابنه عبد الرحمن بن عوف. لقد عادَ أولئك التجار وهم يحملون مالاً لرجل من بني جذيمة كان قد هلك باليمن، ومرادهم أن يؤدّوه لأهله، إلَّا أنَّ خالد بن هشام ـ من بني جذيمة ـ لقيهم وقاتلهم بمن كان معه من قومه على ذلك المال، فقُتل يومها الفاكه بن المغيرة وعوف بن عبد عوف.. ولقد أمكن لعبد الرحمن بن عوف أن يقتل ذاك الرجل المعتدي خالد بن هشام. وسُوِّيت القضية بعد أن همَّت قريش أن تغزوَ جذيمة، فجاءها نفرٌ من هؤلاء القوم قائلين:

«ما كان مصابُ أصحابكم عن مَلأٍ منَّا، إنَّما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قِبَلَنَا من دم أو مال».

وقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب.

ويبدو أن نزعة الثأر من بني جذيمة، لم تذهب من نفس خالد بن الوليد، على الرغم من دخوله في الإسلام، وبلائه بلاءً حسناً

في موقعة مؤتة. فلمَّا أن حانت له الفرصة ولقيَ هؤلاء القوم، أمَرَ بأسرهم وقتلهم، مخالفاً بذلك أحكام دينه، وأوامرَ نبيّه الذي لم يبعثه مقاتلًا، وإنما داعياً إلى الله ورسوله.. ولذلك ما إن بلغ نبيَّ الرحمة ما فعله خالدٌ حتى رفع يديه إلى السماء متبرئاً من فعلته، وقال: «اللَّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»(١).

بل وعلم الرسول بالمواجهة الكلامية بين خالد وبين المهاجرين والأنصار، وأن عبد اللّه بن عمر، وعبد الرحمن بن عوف وسالماً مولى بني حذيفة قد أنكروا عليه تلك النزعة الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا خالد! دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أُحُدٌ ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غَدْوةَ رجلٍ من أصحابي ولا روحتَهُ»(٢).

ورأى ﷺ أن خير وسيلة لتدارك مساوئ ذلك الحادث المؤلم، ومداواةِ قلوبِ أولئك الناس المظلومين من بني جذيمة أن يبعث إليهم من يؤمّنهم ويؤدي لهم الدّيات، فدعا إليه عليَّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وقال له:

«يا عليّ، أُخرجْ إلى هؤلاء القوم، فانظرْ في أمرهم، واجعلْ أمر الجاهلية تحت قدمَيك»(٣).

وخرج عليٌّ كرّم الله وجهه حتى جاءهم ومعه المال الذي بعثه به رسول الله ﷺ، فودَّى لهم الدماء وما أصيب من الأموال، حتى لم

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٧٢؛ زاد المعاد، ج٢ ص٢٤١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٧٤؛ زاد المعاد، ج٢ ص٢٤١.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤، ص٧٢ و٧٣.

يبقَ شيء من دم أو مال إلَّا ودّاه. وبقي معه بعض المال فقال لهم: «هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يُوْدَ لكم؟».

قالوا: لا.

قال: «فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم، ولا تعلمون».

ثم رجع عليٌّ إلى رسول الله ﷺ يخبره بما فعل. فقال له الرسول: «أصبت وأحسنت يا عليّ».

ثم قام ﷺ فاستقبل القبلة، متوجهاً إليها بكلِّ قلبه، باسطاً يديه إلى السماء، حتى ليُرى بياض ما تحت إبْطيه، وراح يدعوه سبحانه ويقول: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». وردَّدَ هذا الدعاء ثلاث مرات[1] حتى يرتاح قلبه مما لازمَهُ من أسىً، وما ملأه من حزن، إذ روّعه ما فعلَهُ خالدٌ، فبدل أن يدعو إلى دين الله تعالى كما بعثه، ذهب يقتل أبرياء لا ذنب لهم فيما وقع من أحداث ماضية، إلَّا ما فرضته عليهم وعلى سائر أبناء جزيرة العرب، تلك الجاهلية العمياء من عادات بالية ـ ولاسيما الثأر ـ فراح الأبناءُ يتوارثونها عن الآباء، بلا وعي لنتائجها العقيمة، أو محاولة لتغييرها بأنماط جديدة من الحياة.. حتى كان الإسلام الذي دعا إلى محاربتها والقضاء عليها..

كانت المدة، التي قضاها رسولُ الله والمؤمنون في مكة، بعد الفتح المبين، قليلةً في أيامها، ولكنَّها مليئةٌ بأحداثها المتلاحقة،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٧٣.

رحيبةٌ بأجوائها العابقة بالإيمان.. فهذا البيت الحرام، وقد عادت له طهارته كاملةً من الأصنام والرجس، يرتفع فوق ظهره الأذانُ بإعلان الشهادتين والدعوة إلى الصلاة، ويؤمُّ رحابَهُ المؤمنون يؤدون الفريضة وراء رسول الله، ثم يلتفون حوله مهتدين إلى نور الحق، الذي أضاءَ شعلته هذا الرسول الكريم، ليبقى السناءَ المشع إلى آخر الدهور..

وكان حريّاً بالناس، وهم يعيشون في ظلال رحمة الله (تعالى) التي فُتحت أبوابها لهم، وهم يدخلون في الإسلام، أن ينزعوا ما في قلوبهم من غلٍّ سابق، وأن يتحوّلوا في أفكارهم ومشاعرهم نحو الدعوة الإسلامية ورسولها.. وبالفعل فقد حصل كثير من التحول في حياة أهل مكة، وخاصة بعد الذي رأوه، وعايشوه وعاينوه من محمد رسول الله، وكان له أكبر الأَثر في جعلهم يتخلّون عن عقيدة الشرك راضين، ويُقبلون على الإسلام مطمئنين وقد ظهر ذلك جلياً عندما ذهبت السرايا لتحطيم الأصنام، وإزالة معالم الشرك في مختلف النواحي حول مكة، وعادت كلها ظافرة دون أن تلقى مقاومةً قطُّ، مما جعل داخل مكة يلتقي مع البقاع المجاورة على الإيمان يسري في نفوس الناس وكياناتهم.. إلَّا أولئك المؤلفة قلوبهم الذين دخلوا الإسلام إمّا رغبة أو رهبة، فإنهم كانوا غيرَ مخلصين له بكلّيتهم، ولكنهم مع ذلك ارتضَوا بالواقع الجديد، على الرغم ممّا يحمل من تحوّل في العادات والتقاليد، وتبدُّل في الأوضاع والأحوال، وتغيُّرٍ في المفاهيم والأفكار..

على أنه مهما بدا من إقبال الناس على الإسلام، أو مهما ظلّ في بعض النفوس من ضغائن دفينة، فإنَّ سلطان الإسلام قد حلَّ، ومعه

السلام والأمان لقريش وغيرها من قبائل العرب، إلَّا بعضاً من تلك القبائل التي ظلت تتوهّم في نفسها قوة، تقدر من خلالها على محاربة المسلمين، وصدّ هذا الركب ـ السائر في شبه جزيرة العرب ـ عن الوصول إلى ديارها.



الفصل السابع

مواصلة الجهاد وإكمال الدين ومفارقة الدنيا



غزوة حنين (غزوة أوطاس)

وكان من تلك القبائل هوازن التي تقيم على مقربة من مكة في الجبال الواقعة إلى جنوبها الشرقي. فقد خافت بعد فتح مكة من كارثة قد تحلُّ بها إذا ما أراد المسلمون غزوها ـ وهم فاعلون لا محالة ـ لنشر دينهم، فراحت تستعدُّ للحرب. وجمع مالك بن عوف النَّصْري إليه هوازن وثقيفاً كلها، ونصْراً، وجُشَم كلها، بل وسعد بن بكر، وناساً من بني هلال، ولم يتخلَّف من هوازن إلَّا كعب وكلاب[1]..

وكان مالك بن عوف شاباً لم يتجاوز الثلاثين، قويّ الشكيمة، شديد المراس، فعزم على السير لقتال المسلمين قبل أن يبادئوهُ هُم بالفتح. فلما نزل بوادي أوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمّة، زعيم جُشَم، وكان رجلًا حنَّكته التجارب وضرّسته الحروب، قبل أن يفقد بصره، ويصير شيخاً هرماً، غير قادر على قيادة المعارك.

فلما كان نزولهم، سأل دريدٌ بأي وادٍ نزلوا؟ فلما عرف أنه أوطاس، قال:

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٦٧.

نِعم مجال الخيل، لا حَزْنٌ[1] ضِرْسٌ[2] ولا سَهْلٌ دَهْسٌ[3]. ولكن ما ليَ أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاء[4] وبكاء الصغير؟.

قالوا: لقد ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم حتى يقاتل كل منهم عن أهله وماله.

قال: راعي ضأنٍ وربِّ الكعبة، إئتوني به! فلما دُعي إليه، قال: «يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك. وإنَّ هذا يوم كائنٌ له ما بعدَه من الأيام. ما لي أسمع رغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبكاء الصغير ويُعار الشاء؟».

قال مالك: «سُقْتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم»..

قال دريد: ولمَ ذاك؟.

قال مالك: «أردت أن أجعل خلفَ كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم».

قال دريد: «وهل يَرُدُّ المُنهزِمَ شيءٌ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلَّا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك[5].. بل أخبرني ما فعلتْ كعبٌ وكلابُ؟».

قالوا: لم يشهدْها منهم أحدٌ.

---

(١) حزن: مرتفع من الأرض.
(٢) ضرس: مليء بالحجارة.
(٣) دهس: ليّن، كثير التراب.
(٤) يعار الشاء: ثغاء الغنم، أو أصواتها.
(٥) انظر: زاد المعاد، ج٢ ص٢٦٧.

قال: «غاب الحدُّ والجدّ. ولو كان يومَ علاءٍ ورفعةٍ لم تغب عنه كعب ولا كلاب. ولَوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلوا، فمن شهدها منكم؟».

قالوا: «عمرو بن عامر، وعوف بن عامر»!.

قال: «ذانك الجَذَعان[1] من عامر لا ينفعان ولا يضرَّان»!..

ثم توجَّهَ بالكلام إلى مالك فقال له:

«يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم هوازن إلى نحر الخيل شيئاً. ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعُلْيا قومهم. ثم الْقَ الصُبَّاءَ[2] على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَن وراءَك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك»[3].

قال مالك محتدّاً: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وذهب عَقْلك..

ثم التفت إلى الناس وقال:

«والله لتُطيعُنَّني يا معشر هوازن أو لأتّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري».

فقالوا: أطعناك.

فقال دريدُ بن الصمّة: «هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني»..

وانصاعَ الناسُ لرأي مالك بن عوف. ففرَّق المقاتلين في قمم حنين، وقدَّم كميناً عند مضيق الوادي، ليشدّوا على المسلمين شَدَّة

---

(١) الجذعان: الضعيفان في الحرب.

(٢) الصابئ: من ترك دينه، والصبّاء يقصد بهم المسلمون لأنهم تركوا ديانة الوثنية.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٨١ و٨٢؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٦٨.

رجلٍ واحد، يرشقونهم بالسهام، ويأخذونهم بالطِّعان، فتتضعضع صفوفهم، ويتشتت شملُهم، فيهزمونهم شر هزيمة..

أمّا المسلمون في مكة فقد بلغتهم استعدادات هوازن ومن معها للحرب، فبعث الرسولُ ﷺ عبد اللّه بن أبي حدرد الأسلمي، يتقصّى الأخبار، فعاد بعد يومين ليُطلع رسولَ الله على ما جهزَّ أولئك القوم من أعتدة، وما عبّأوا من قوى. فأمَرَ بالتهيؤ للخروج ونادى مناديه بإعلان التعبئة للقتال. ثم طلب إلى صفوان بن أمية أن يُعيره ما عنده من دروع، على أن تكون عاريةً يضمنها هو بنفسه، فأتى صفوان بمائة درع، كما أتى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ـ ابن عم النبي ـ بثلاثة آلاف رمح كان يملكها. فنظر إليها ﷺ وقال لابن عمه: «كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصمُ ظهرَ المشركين».

وعبّأ الرسول ﷺ الصفوف، ووضع الألوية والراياتِ في أهلها، واستعمل عتّابَ بنَ أسيد بن أبي العيص أميراً على الناس وقال له: «يا عتّاب! تدري على من استعملتك؟! استعملتك على أهل الله عزَّ وجلَّ! ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم»[1]. وكان عمره إذ ذاك نيفاً وعشرين سنة. وكان رجلًا صالحاً. وقد روي عنه أنه قال: أصبتُ في عملي هذا بُردَيْن معقَّدين كسوتهما غلامي، فلا يقولنَّ أحدكم أخذ مني عتّاب كذا. لقد رزقني رسول الله ﷺ كلَّ يوم درهمين، فلا أشبَعَ اللَّهُ له بطناً مَنْ لا يُشبعه كلَّ يوم درهمان، وصدق رسول الله ﷺ في اختياره عتّاباً، فقد «كان شديداً على المريب، ليّناً على المؤمنين، وكان يقول: والله لا أعلم متخلّفاً عن هذه الصلاة في

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص١٣٠٦.

جماعة إلَّا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلّف عنها إلَّا منافق»[1]. كما أبقى الرسولُ ﷺ في أهل مكة أيضاً معاذ بن جبل (الأنصاري) يعلِّمهم ويفقِّههم، إذ كان عالماً بالقرآن، متبحِّراً بالدين.

وخرج رسول الله من مكة لستٍّ خلون من شهر شوال سنة ثمان للهجرة، في عشرة آلاف ممن جاؤوا معه لفتح مكة، وألفين ممن أسلموا بعد الفتح..

ولقد سارَ جيش المسلمين تحفُّ به مظاهر القوة، وتبدو عليه سمات التفوق والاعتزاز. وظنَّ البعض أن النصرَ حليفُهم، لا محالة، لكثرة عددهم، فقالوا: «لا نُغلب اليوم عن قلّة».

ولم يكن هذا الاعتدادُ بكثرة العدد هو وحدَه الذي دلَّ على ذهنيةٍ مهتزّةٍ لدى الكثيرين ممن شاركوا في تلك الغزوة، بل إن تلك الجماعة من قريش، وهي تخرج لأول مرة تحت إمرة رسول الله ﷺ، قد نَبَتْ نفوسُها عن روحية الإيمان، حتى أنها لتبدو أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام. إذ ما إن أطلّت على ذات أنواط، وهي الشجرة العظيمة التي كانوا يأتونها كل سنة، فيذبحون عندها ويعتكفون كامل يومهم، حتى عاودتهم نزعة الجاهلية، فقال بعضٌ لرسول الله: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنواط»..

ونهاهم النبيُّ ﷺ عن هذا التفكير الأخرق، فقال: «الله أكبر! قلتم، والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى لموسى: «اجْعَلْ لَنَا إلهاً كما لهمْ آلهةٌ». قالَ: إنَّكُمْ قَوْمٌ تجهلونَ.. إنها السُنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَن كان قبلَكم»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٠٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٨٥.

ووصل الجيش في المساء إلى حنين، فاستراحوا، وناموا. فلمَّا كان السَّحَر، وفي أول عتمة الفجر، انحدروا نحو وادي حنين، يريدون أن يفاجئوا العدوّ قبل انبلاج نور الصباح.. وكانت هوازن ومن معها قد كمنوا في شعاب ذلك الوادي وأحنائه ومضايقه، فشدَّت كتائبُهم على المسلمين ينهالون عليهم بالسهام والنبال، فلا يدرون من أية ناحية تأتيهم.. فارتدّوا ـ من جراء هذا الهجوم المباغت ـ إلى الوراء لا يلوون على شيء. وكان أكثرَ المتضررين بنو نصر بن معاوية من بني رئاب، فقد أصابهم الشيء الكثير...

وكان رسولُ الله يرى هلعَ الناس وتفرُّقَهم أشتاتاً، فانحاز نحو اليمين، وراح يناديهم: إلى أين أيها الناس؟ هلمّوا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد اللّه!.

ولم ينفع النداء، بل ظلَّ المنهزمون في تقهقرهم حتى لم يبقَ مع رسول الله إلَّا نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. فكان منهم: أبو بكر وعمر(رضي الله عنهما) وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وعمُّه العباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن العباس، وابنه الآخر قثمُ بن العباس، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عُبّيد (ابن أم أيمن). وقد استشهد أيمنُ بن عُبّيَد (رحمه الله) في هذه المعركة ذوداً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم..

وفي هذا الموقف الصعب، وفي هذا النفر القليل الذي ثبت لكي يحمي رسولَ الله ويدفع الأعداء ذوداً عنه بالأرواح والأنفس، قال العباس:

نَصَرْنا رسولَ اللَّهِ في الحربِ تسعةٌ وقد فرَّ مَنْ قدْ فرَّ عنهُ فأَقْشَعُوا
وقولي إذا ما الفضلُ شدَّ بسيفِهِ على القومِ أُخرى يا بنيّةُ يَرْجعوا
وعاشِرُنا[1] لَاقَى الحِمامَ بنفسِهِ لِمَـا نـالَهُ فـي الله لا يـتـوجَّـعُ

أجل، كان فرار الجيش الإسلامي بكلِّيته، لا فرق بين الصحابة وبين مُسْلِمَةِ أهل مكة، أو غيرِهم من الناس، فالكل أغواه الشيطان فما رام إلَّا النجاة بنفسه.

ولعلَّ السبب في هروب الجيش، وبمثل تلك السرعة التي حصل فيها، يعود إلى مُسْلِمةِ أهل مكة، إذ لما رآهم الناس يتقهقرون دبَّ فيهم الرّعب فلحقوا بهم. ويدل على ذلك تلك الفئةُ من قريش التي وقفت تنظر إلى تراجع المسلمين والغبطة تأخذها، وترى تشتت صفوفهم، والسرور يملأ نفوسها. فقد كان أفرادها من الجفاة للإسلام، وقد خذلهم انتصار المسلمين بالأمس على قريش، فانبروا في مثل هذه الساعة يظهرون ما يختزنون في صدورهم من غلٍّ وحقد، فيقول أبو سفيان بن حرب: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»[2]. ويقول كَلَدَة بن الجنيد: «ألا بَطَلَ السحرُ اليوم!»[3]. وكان قريباً منه أخوه لأمِّه صفوان بن أمية، وكان ما يزال في المدة التي جعَلها له الرسولُ ﷺ ليختار بين البقاء على الشرك أو الدخول في الإسلام، فردَّ عليه قائلًا: «اسكت فضَّ الله فاك! فوالله لأن يَرُبَّني[4] رجلٌ من

(١) عاشرهم: كان أيمن بن عبيد (وأمه أم أيمن المبرورة).
(٢) هيكل، حياة محمد، ص٤١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) يربّني: يملكني أو يحكمني.

قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبّني رجل من هوازن»[1]. . أما شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ـ وكان أبوه قتل يوم أُحد ـ فقال: «اليوم أدرك ثأري من محمد. . اليوم أقتل محمداً»[2]. ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ منعه منه، وقد اعترف ذلك الخبيث الحاقد بمحاولة الغدر التي كان يرومها، فقال: «فأردتُ برسول الله لأقتله، فأقبل شيءٌ حتى تغشَّى فؤادي، فلم أُطِقْ ذاك، وعلمتُ أنه ممنوعٌ مني»[3]. . ومن أين لذاك الذي ما تزال الجاهلية تتأبَّط به شرّاً أن يدري بأن رسول الله ﷺ ممنوعٌ ليس منه وحده، بل ومن جميع الناس، فربُّهُ تعالى هو حاميه، وناصره. وتكفي حماية القادر المقتدر لخاتم النبيين حتى تخورَ أمامها جميع القوى، وتذهبَ بَدَدا. .

ووقف رسول الله ﷺ في تلك اللحظات الفاصلة أعظم موقف وأروعه، إذ قرَّر البقاء في ميدان المعركة، ومجابهة الأعداء، مع ذلك النفرِ القليل الذي يحيط به، وكلٌّ مصممٌ مثل نبيِّه على اقتحام المعركة فنادى عندها عمُّهُ العباسُ بن عبد المطلب ـ وكان جهوريَّ الصوتِ وهو يصرخ في الناس من قلبٍ محنقٍ، وبأعلى صوته: «يا معشر الأنصار الذين آوَوا ونصروا! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة! إن محمداً حيٌّ فهلمُّوا»[4].

وكرّر العباس النداء حتى تجاوبت أصداؤه في كل جنبات الوادي، وبلغت مسامِعَ الفارّين، فإذا بالرِّعدة تدبُّ في أوصال

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٦٩؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٨٦.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص ٨٧.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.
(٤) هيكل، حياة محمد، ص ٤١٧.

المؤمنين الصادقين، وبخاصة من المهاجرين والأنصار، وتحيي في نفوسهم الروح الشمّاء التي عُرفوا بها في المعارك والحروب، التي خاضوها من قبل، وإذا بالوسوسة الشيطانية التي بعثت الرّعب في القلوب تندحِرُ أمام صحوة الإيمان، فيُذهبُ الله سبحانه وتعالى عنهم شعور الخوف، وتحلّ في نفوسهم السكينة التي تجعل النفوس المؤمنة تغفل في ساعة من وقت عن أداء الواجب، لتعودَ وتمتلئ ـ بفعل الملائكة، الذين هم جنود اللَّهِ غير المرئيين ـ بالسكينة وبالصدق والإخلاص فتمضي ملبية نداء الحق، مستبشرةً برحمة الله تعالى ورضوانه.

وحلَّ التماسك في جنود الله ـ الأوفياء ـ محلَّ كلِّ تفلُّت الهزيمة. ورجع المؤمنون مستجيبين لنداء العباس، وهم يتصايحون من كل صوب: «لبَّيك لبَّيك يا رسول الله»، ويرتدّون إلى المعركة مستبسلين..

وانحدرت هوازن من مخابئها، يتقدمها رجل على جملٍ أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل. وأصبحت وجهاً لوجهٍ مع المسلمين في الوادي. ولم يكد النهار يضيءُ بنوره حتى كان القتال مستعراً، ورحى الحرب على أشدها. وفي حمَّى القتال اندفع علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) وراء رجل الجمل الأحمر من هوازن، الذي كان ينقضُّ على المسلمين بالضرب والطعن، فإن تخلف عنه قومه رفع رايته على رمحه فاتَّبعوه وهو يرتجز[1]:

أنـا أبـو جـرولَ لا بَـراحْ حتى نُبيحَ القومَ أو نُباحْ

(١) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٨٠.

أجل، انحدر فارس الإسلام عليّ (كرّم الله وجهه) وراء ذاك الفارس من المشركين حتى لحق به، فهوى على عرقوبَيْ جمله بضربة من سيفه، جعلته يقع على عجزه، ثم وثب على أبي جرول يعاجله بضربة واحدة من ضرباته التي لا تخطىء، فتشطره نصفين. عند ذلك نظر إليه عليٌّ (كرَّم الله وجهه) وقال[1]:

قدْ عَلِم القومُ لدَى الصباحْ أَنِّيَ في الهَيْجاءِ ذو نِطاحْ

وكان رسولُ الله يرقب سيرَ المعركة، بقلبٍ ملؤه الإيمان، وبعزمٍ لا يُضاهى، فتطيب نفسه بعودة الوعي إلى نفوس المؤمنين، والشجاعةِ إلى صدورهم، فيعبِّرُ عن شدة الصِّدام الدائر ويقول: «الآن حميَ الوطيس»[2]. ثم يطلب إلى عمه العباس، الذي ظلَّ يلازمه كظله لا يفارقه أبداً، أن يناوله حفنة من الحصى، فيأخذها ويلقي بها نحو الأعداء ويقول: «شاهَت الوُجوه»[3].. وكان الرسول الشجاع، وهو في قلب المعركة، يحرّض المؤمنين على الثبات، والبلاء الحسن، معلناً بنفسه.

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبد المطلبْ[4]

وكان المؤمنون يرون نبيَّهم في ساح الوغى فيتنادون صارخين: الله أكبر! يا لَلْمهاجرين! يا لَلْأنصار!.. وبسرعة تحوّل جو المعركة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٨٧؛ هيكل، حياة محمد ص٤١٧، (ومعنى حمي الوطيس: اشتدت الحرب وهي من جوامع كلم رسول ﷺ التي لم يسبقه إليها أحد، راجع معجم ياقوت والسهيلي).

(٣) الرحيق المختوم، ص٣٨٣.

(٤) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٨٠؛ وزاد المعاد ج٢ ص٢٧٠؛ وفي صحيح مسلم.

من الهزيمةِ إلى النصر، فولّت هوازن وثقيف ومن تبعهما الأدبارَ تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

وكان النبي ﷺ ما يزال يحرّض المسلمين على مطاردة الاعداء واللحاق بهم، وهو يُعلن: أن «من قتل مشركاً فَلَهُ سَلَبُهُ»[1]. وكان ربيعة بن رُفَيْع السلميّ ـ الذي ينتمي بنسبه إلى امرئ القيس، ولكن غلب عليه اسم أمه، فصار معروفاً بابن الدُّغنّة ـ ممن يلاحقون فلول المنهزمين، فرأى جملًا عليه هودج فظنَّ أنه لامرأة، وأناخَهُ، فإذا بداخل الهودج شيخ كبير، يبدو على ملامحه الأسى والحزن، فبادره قائلًا:

ـ ماذا تريد بي؟

قال ابن الدُّغُنَّة: أقتلك..

قال الشيخ: ومن أنت؟ قال: ربيعة بن رفيع السُّلَمي.. ثم ضربه بسيفه (وكأنَّ السنينَ من عُمُرِ هذا الشيخ الفاني قد جعلت يد الفتى ترتجف) فوقعت الضربة خفيفة، فلم تؤذه!..

فقال له: «بئس ما سلَّحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرَّحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب به الرجال. ثم إذا أتيت أمك، فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمّة، فرُبَّ والله يوم قد منعتُ فيه نساءَك»[2].. ولكنَّ ذلك لم يُجدِ دريداً شيئاً، إذ عادَ ابن الدغنة فقتله، لأنه مشرك، وقد جاء بشركه يقاتل المسلمين[3].

---

(١) هيكل، حياة محمد، ص٤١٨؛ وانظر زاد المعاد ج٢ ص٢٨٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٩٥ و٩٦.

(٣) يقول ابن هشام: «فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إيّاه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمهاتٍ لك ثلاثاً» ـ انظر السيرة لابن هشام، ج٤ ص٩٦.

وتابع المسلمون فرارَ الأعداء أمامهم حتى سهل أوطاس، وهنالك كانت نهاية المعركة حيث أوقعوا بهم الضربة القاضية، وهزموهم شرَّ هزيمة، فعادوا يجمعونَ السبيَ والغنائم..

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق «أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ يومئذٍ بامرأةٍ وقد قتلها خالد بن الوليد، والناس مجتمعون عليها، فسأل من قتلها، فقالوا: خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه: أدركْ خالداً، فقل له: إنَّ رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً»(١).

أما مالك بن عوف النَّصْري، الذي قادَ زحف المشركين، فقد فرَّ إلى الطائف، يحتمي بها، بعد ذلك النصر المؤزر للمؤمنين والهزيمة الساحقة للمشركين كما يبيّنه لنا قولُ العلي العظيم ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

ولم يكن هذا النصرُ سهلَ المنال، بل دفع المسلمون ثمنَهُ غالياً من مهج الرجال وأرواحِ الأبطال الذين استشهدوا في الموقعة، وقد كان عددهم كبيراً، حتى قيل إن قبيلتين من المسلمين أفنيتا، أو كادتا أن تُفْنيَا. وقد صلَّى الرسولُ ﷺ عليهم، داعياً لهم الله سبحانه أن يُدخلهم الجنة جزاءً على ما قدَّموا من تضحيات..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٠٠ (والعسيف: الأجير، والعبد المستعان به).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٥ ـ ٢٦.

أما النتائج المادية للموقعة فقد كانت في كثرة الغنائم التي أحرزها المسلمون. «وقد أحصيت يومئذٍ فكانت تُعدُّ بِعشرات الآلاف من الإبل والشاء، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. هذا عدا الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ستة آلاف من الذراري والنساء[1]، نُقِلُوا مع الغنائم إلى وادي الجعرانة، حيث آووهم» إلى أن يرى رسول الله رأيه فيهم..

غزوة الطائف

وبعد هزيمة هوازن، لم يبقَ إلَّا الطائف وفيها ثقيف، فأمَرَ الرسولُ بالمسير إلى الطائف في نفس ذلك اليوم من شهر شوال سنة ثمان للهجرة..

وكانت الطائف ـ كما ذكرنا من قبل ـ من أشهر مدن العرب في شبه الجزيرة، بخصب أرضها، ولطيف مناخها، وكثرة كرومها من العنب والنخيل، فكانت بمثابة واحةٍ غنيَّةٍ وسط الصحارى. وهذا ما جَعَلَ أهلها من ذوي اليُسر والغنى، فحصَّنوها، وأغلقوها بالأبواب الكبيرة، على نسق أكثر مدن العرب في ذلك العصر. كما كانت لديهم دراية بالحروب والحصار بما يمكّنهم من الدفاع عن مدينتهم.. فلمَّا بلغها المسلمون، كانت الأبواب قد سُدَّتْ في وجوههم، واعتلت ثقيفُ جدران حصونها، ترشقهم بالنبال، وتحول بينهم وبين إقامة معسكرهم قريباً منها، مما اضطرّهم الى إقامة معسكرهم بعيداً عن مرمى النبل. وفي هذا المكان ضربت قُبَّتان لزوجتَي النبيّ: أم سلمة وزينب بنت جحش (رضي الله عنهما) اللتين أخرجهما معه منذ أن

(١) هيكل، حياة محمد، ص٤١٨؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣١.

غادر المدينة لفتح مكة، وبين هاتين القُبَّتَين كان ﷺ يصلّي[1]. فأقيم بعدها في نفس المكان مسجدٌ في الطائف تيمّناً وتبرّكاً.

وكانت الحصون منيعة، فلم يفلح معها الحصارُ، كما أنَّ ثقيفاً لم تخرج للقتال، بل ظلّت في الداخل تمنع على المسلمين أي تقدم نحو مدينتها. فلما طالت المدة أوفد رسول الله الطفيلَ الدوسي الذي كان يصحبه، ولم يفترق عنه منذ غزوة خيبر، إلى بني قومه يستنصرهم، وكانوا يقيمون بأسفل مكة، وعندهم علم بالرماية بالمنجنيق، وبمهاجمة الحصون في حماية الدبابات التي يصنعونها[2]. فذهب الطفيل، وأتى بطائفة من صنَّاع الدبابات، بعد أربعة أيام من الحصار.

ورمى المسلمون المدينة بالمنجنيق، فلم يفلحوا في إسقاطها؛ فزحفوا إليها بالدبابات التي تمَّ صنعها خصيصاً، ولكنَّ أهل الطائف كانوا يسارعون إلى صهر الحديد بالنار، ثم يلقون بالسائل المحمَّى على تلك الدبابات فيحرقونها، مما لم تفلح معه الهجمات المرتدَّة في اقتحام الطائف.. وقد أصيب في ذلك الحصار عبد اللّه بن أبي بكر الصديق مع آخرين كثيرين غيره، فلم يندمل جرحه بعد ذلك الحين. وتوفي في المدينة، بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

فلمّا فشلت جميع محاولات المسلمين في ذلك الحصار، أمَرَ النبيُّ ﷺ بقطع كروم ثقيف وإحراقها، على كراهيته لذلك، ووصاياه

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٨٣.

(٢) الدبابات في ذلك الوقت كانت عبارة عن صناديق كبيرة من الخشب عليها جلد، وفيها ثقوب صغيرة للرؤية، يدخل تحتها الرجال ويسيرون، وهم يدبّون، حتى يتقوا في هجومهم النبال التي يرشقهم بها العدو.

لجنده بعدم قطع الشجر ـ كما رأينا من قبل ـ ولكنْ هل الكرمة والنخلة أغلى من الإنسان الذي يقاتل أعداء الله؟ أم أنَّ قطعها ـ في حال الضرورة ـ يعتبر إحدى وسائل الحرب لحماية الجيش وقهر أعدائه؟! من أجل ذلك اعتُمِدَتْ تلك الوسيلةُ أثناء الحصار على الطائف.. فلما رأت ثقيفُ ما يحلُّ بأحدِ أهمِّ مواردها الاقتصادية، بعثت إلى النبي تفاوضه بأن يترك الرزق وشأنه (لله تعالى)، وللرَّحم (لما بينه وبينهم من قرابة)، فأمر عندها بالتوقف عن القطع، وبعث من ينادي على ثقيف: «أنَّ رسولَ الله ﷺ مُعتِقٌ من جاء إليه من الطائف».. ففرَّ إليه قرابةُ عشرين رجلًا... وكان في هذا الفرار، وطلب العدو أن تُتركَ له أرزاقه، بدايةٌ لكسرِ شوكةِ ثقيف، وإذعانها لدعوة الحق، فيما بعد!..

وانقضى شهر شوال وما زال المسلمون على حصار الطائف. وبانقضائه كان ذو القعدة قد أهلَّ والأشهر الحرام قد آذنت، فآثر الرسول أن يرفع الحصار، وأن يرجع بجيشه إلى أن تنتهي الأشهر الحرم، فيكون بعدها الأمرُ لله سبحانه. فإمّا أن يعود لقتال ثقيف وفتح الطائف، وإمّا أن يكون أهلها قد اهتدَوا وجاؤوه مسلمين.. وقد قال للنبيِّ ﷺ رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: «يا رسولَ اللهُ ادعُ عليهم». فقال ﷺ: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون. اللهم اهْدِ ثقيفاً وأْتِ بهم»[1].

وعاد المسلمون إلى الجعرانة حيث تركوا الغنائم والأسرى، فجاء وفدٌ من هوازن، يسلمون على يَديْ رسول الله ﷺ، ويطلبون إليه أن يردَّ عليهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم، فقال أحد رجالهم: «يا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣١.

رسول الله إنا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخْفَ عليك، فامنُنْ علينا، منَّ الله عليك». ثُمَّ قام خطيبهم ويدعى زهير، من بني سعد بن بكر، ويكنى أبا صُرَد، فقال: «يا رسول الله، إنما في الحظائر[1] عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كنَّ يكفُلْنك. ولو أنَّا مَلَحْنا[2] للحارث بن أبي شمر الغساني، أو للنعمان بن المنذر[3]، ثم نزل منا أحدهما بمثل ما نزلت به، رَجونا عطفه وعائدته[4] (فضله) علينا، وأنت خير المكفولين.. ثم أنشده شعراً، ومنه هذه الأبيات:

أُمْنُنْ علينا رسولَ الله في كرمٍ ... فإنَّكَ المرءُ نرجوهُ ونَدَّخرُ
أمنْ على بيضةٍ قد عاقها قدرٌ ... ممزَّقٌ شملُها في دهرها غِيَرُ
إلاّ تُدارِكُها نَعْماءُ تَنْشُرُها ... يا أَرْجَحَ الناسِ حِلْماً حينَ يُختَبرُ
أُمنُنْ على نِسْوةٍ قد كُنتَ تَرْضَعُها ... إذ فُوكَ يملؤُهُ من مَحْضِها[5] دَرَرُ
إنَّا لنشكُرُ آلاءً وإنْ كُفِرتْ ... وعندنا بعدَ هذا اليومِ مُدَّخَرُ

وسأل الرسول عن حواضنه، فقيل له: إنَّ اختك من الرضاعة بين السبايا، فطلب أن يأتوا بها. وجاءت إليه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزّى، التي طالما حملته ودغدغته على ذراعيها، يوم كان في

(١) الحظائر: مفردها حظيرة، وهي المكان الذي يُؤوي فيه الراعي مواشيه، والمقصود هنا: أماكن تجمع الأسرى.
(٢) ملحنا: أرضعنا وأطعمنا.
(٣) الحارث بن أبي شمر الغساني كان ملك العرب على الشام (من قبل الروم)، والنعمان بن المنذر ملك العرب على العراق (من قبل الفرس)..
(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣١؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٢/ ٢٠٨.
(٥) محضها: اللبن الخالص.

المهد صبيّاً، وأمها حليمة ترأف به وتحنو عليه، عندما كان رضيعاً في بني سعد.. فقام من فوره يبسط لها رداءه ويُجلسها عليه، ثم يدنيها منه مواسياً، عطوفاً، مؤانساً، فيسألها عن أمه المرضعة حليمة، وعن زوجها الحارث، وعن إخوته وأخواته في الرضاعة، ثم يستذكران أيام الطفولة في ديار بني سعد، وما كان له من محبةٍ في نفوس القوم.. والناس من حوله يسمعون ويبصرونَ ما يجري بينه وبين الشَّيماء، فيقولون: هكذا هو دوماً رسولُ الله ﷺ بإنسانيته، ووفائه، وبرّه وعطفه، وسائر صفاته التي يسمو بها، مهما كبرت الصفات عند بني البشر.. فيحمدون الله تعالى أن هداهم إلى الإيمان بفضل هذا الرسول الهادي المهتدي..

وبعد أن اطمأنت الشيماءُ وفرحت بلقاء رسول الله، خيّرها بين البقاء عنده عزيزة مكرمة، وهو يكفل كهولتها، ويردُّ عنها غائلة الدهر، وبين أن يخلّي سبيلَها حرَّة مختارة.. فاختارت الرجوع إلى بني قومها..

ولم يقف عطف محمد ـ الإنسان ـ على الشيماء بنت الحارث وحدها، بل شمل كلَّ من جاؤوه من هوازن مسلمين نادمين، فقال لهم: «أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟». قالوا: «يا رسول الله، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا! بل تردَّ علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبُّ إلينا». فقال لهم: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صلَّيتُ الظهر بالناس، فقوموا، وقولوا: إنّا نستشفع برسول الله إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله، في أبنائنا ونسائنا.. فأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم الناس»[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣١ و١٣٢؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٧٢..

ولما كان الظهر وانتهت الصلاة، وقف رجالُ هوازن يستشفعون في أبنائهم ونسائهم. فقال الرسول ﷺ: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وسأسأل لكم الناس».

فقال المهاجرون: «وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ».

وقالت الأنصار: «وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ».

فقال الأقرعُ بن حابس[1]: «أما أنا وبنو تميم، فلا»..

وقال عيينة بن حصن: «وأما أنا وبنو فزارة، فلا»..

وقال عباس بن مرداس السُّلَمي: «وأما أنا وبنو سُلَيم، فلا»..

ولكنَّ بني سليم رفضوا موقف ابن مرداس، وقالوا: «بلى، ما كان لنا، فهو لرسول الله ﷺ»..

وهنا قال رسولُ الله: «أمَّا من تمسَّك منكم بحقِّهِ من هذا السَّبي فله بكل إنسان ستُّ فرائض من أولِ سَبْي أصيبه، فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم».

وكذلك رُدَّتْ نساءُ هوازن وأبناؤها. وكان ذلك بفضل إسلامهم، وعظمة محمدٍ ﷺ وإنسانيته التي لا تضاهى..

وسأل رسولُ الله عن مالك بن عوف، ماذا فعل؟ فقيل له إنه هرب إلى ثقيف بالطائف، فقال لوفد هوازن: «أخبروا مالكاً إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل».

---

(١) كان الأقرع حكماً في الجاهلية، وقد وفد مع بني قومه تميم على رسول الله ﷺ، وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم (موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٤٥٣).

ولم يُعتِّمْ مالك حين بلغَهُ خبرُ عفو النبيِّ عنه ـ إنْ أتاه مسلماً ـ أن تجهّز سرّاً، حتى لا تراه ثقيف، ثم خرج من الطائف في وسط الليل حتى قدم على رسول الله ﷺ، فأعلن إسلامه، فردَّ عليه الرسولُ أهله وماله، وأعطاه فوقها مئةً من الإبل. وقد عبَّرَ مالك عن مشاعره بعد إسلامه، فقال[1]:

ما إنْ رأيتُ ولا سمِعْتُ بِمِثْلِهِ
في الناسِ كلِّهم بمثْلِ مُحمَّدِ
أَوْفى وأَعْطى للجَزِيل إذَا اجْتُدِي[2]
ومتى تَشَأْ يُخبِرْكَ عَمَّا في غدِ
وإذا الكَتِيبةُ عَرَّدتْ[3] أَنْيابُها
بالسَّمْهَرِيِّ[4] وضَرْبِ كلِّ مُهنَّدِ[5]
فَكَأَنَّهُ ليثٌ لَدىَ أَشْبالِهِ
وَسْطَ الهَبَاءَةِ[6] خادِرٌ في مَرْصَدِ[7]

ورأى الناسُ أن رسولَ الله يعطي كلَّ من جاءَهُ من هوازن أهلَهُ ومالَهُ، فخافوا أن تذهبَ الغنائمُ بمعظمها، ولا يبقى إلَّا القليل ليجري تقسيمه، فسرى الهمس بينهم، يُريد كل واحدٍ أن يأخذ فيْئه، حتى بلغ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣٤.
(٢) اجتُدِي: سُئل الجدوى، أي الأعطية.
(٣) عرَّدت: غلظت واشتدت.
(٤) السَّمهريّ: الرمح.
(٥) المهنّد: السيف المصنوع من حديد الهند.
(٦) الهباءة: الغبار الذي يثور عند اشتداد القتال.
(٧) خادر في مرصد: مقيم في عرين، يترصَّدُ من يقدم على حماه.

ذلك الهمسُ رسولَ الله، فوقف إلى جانب بعير، وأخذ وَبَرَةً من سنَامِهِ فجعلها بين إصبعيه، ثم رَفَعَهَا وقال: «أيها الناس، والله ما لي في فيئكم ولا هذه الوبرة إلَّا الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم فأدّوا الخِياطَ (الخيط) والمِخْيَطَ (الإبرة)، فإنَّ الغُلُولَ (الخيانة) يكون على أهله عاراً ونارا وشناراً (أقبح العار) يوم القيامة»[1].

أجل، كان أمر رسول الله ألَّا ينفردَ أحدٌ بشيءٍ حتى تُقتسم الغنائم، بالعدل، فتدفّق الناسُ يردُّون ما أخذوه فجاء رجلٌ من الأنصار بكبَّةٍ من خيوط الشَّعَر، فقال: «يا رسول الله، أخذت هذه الكبَّة أعمل بها بَرْذَعَةَ بعير لي»، فقال له ﷺ: «أما نصيبي منها فلك». فقال الأنصاري: «أما إذْ بلَغَتْ هذا، فلا حاجة لي بها، ثم طرحَها من يده بين الغنائم»..

وكان عقيل بن أبي طالب قد أتى بإبرةٍ وأعطاها لزوجه، (فاطمة بنت شيبة بن ربيعة)، قائلًا: «دونكِ هذه الإبرةَ تخيطينَ بها ثيابَكِ».

فلما سمع المناداةَ بإعادة كل شيء، رجع إلى امرأته يقول لها:

«ما أرى إبرَتَكِ إلَّا قد ذهبتْ».

ثم أخذها، فألقاها في الغنائم..

وقام رسولُ الله ﷺ فخمَّس الغنائم، ثم فصل الخُمُس لنفسه، ووزَّعَ الباقي على الناس. فكان نصيبُ المجاهد لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة. ووزع من خُمُسِهِ على قادة القبائل بُغْية تأليف قلوبهم، وقد كانوا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣٥.

إلى الأمس القريب أشدَّ أعدائه.. وهم الذين وقفوا في أتون المعركة ينظرون، وبعضهم يبدي الشماتة، فأعطى لهؤلاء المؤلفة قلوبهم أكثر من المجاهدين: فكانت مئة من الإبل لكل من أبي سفيان بن حرب، وابنه معاوية، والحارث بن الحارث بن كَلَدَة، والحارث بن هشام بن المغيرة، وحويطب بن عبد العُزَّى، والسائب بن أبي السائب، وغيرهم من رؤساء بني بكر، وقيس، وسليم، وغطفان، وفزارة، وتميم.. حتى لم يبق أحدٌ من أشراف القبائل وزعماء العشائر، ممن تألف بعد فتح مكة، وحضر وقعة حنين، إلَّا وأُعطي مئةً من الإبل، وبعضَ الفضة.

وكان نصيبُ مَن دُونَ هؤلاء شأناً، خمسين من الإبل، وقد بلغ عددهم عشرات..

وبينما كان رسول الله يعطي هؤلاء الناس المؤلفة قلوبهم، قام رجل من بني تميم يقال له «ذا الخُوَيْصِرَة»، فقال: قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم.. ولكن لمْ أَرَكَ عَدَلتَ يا رسول الله!..

فقال الرسول ﷺ: «ويحك! إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون؟!»[1].

فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، ألَا أقتُلُهُ؟»[2].

فقال له النبيُّ الرحيمُ: «لا دَعْهُ، فإنه سيكون له أتباعٌ يتعمَّقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهمُ من الرَّمِيَّة»[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ويقصد بقوله: يتعمَّقون في الدين: يتتبعون أقصاه.

ومن بين الذين أعطاهم رسول الله صفوان بن أمية؛ ولكنَّه رآه يرمُق شِعْباً[1] مملوءاً نِعَماً وأغناماً، فأدرك ﷺ أن قلبَهُ لم يأتلف بعد، فزادَهُ من الخُمس حتى أشبَعَ نهمتَهُ، فقال عندها صفوان: «إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا. ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلَّا نبيٌّ. أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنك رسولُ الله»، فكان عطاءُ رسول الله ﷺ سبباً في إسلامه، قبل انقضاء المدة التي استمهله فيها ليختار بين بقائه على الشرك أو دخوله في الإِسلام..

على أنّ هذا الذي تألَّف به النبيُّ قلوب تلك الفئة من قريش، ومن قبائل العرب، لم يرضَ به بعض المسلمين، لأنهم لم يدركوا الحكمة من ورائه. فجاء سعدُ بن عبادة، من الأنصار، يبلّغه وَجْدَ أنفسهم عليه، وهو يقول: «يا رسول الله، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت: قسَمْت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء».

فقال له الرسول: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟».

قال سعد: «يا رسول الله، ما أنا إلَّا من قومي».

فقال له الرسول: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فلما اجتمع الأنصار، وقف النبي ﷺ فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما مقالةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجَدتُمُوها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتِكم ضُلّالًا فهداكم الله بي،

(١) الشّعب: الطريق في الجبل. الناحية.

وعالةً فأغناكم الله بي، وأعداءً فألّفَ الله بين قلوبكم؟»[1].

قالوا: «بلى! ألله ورسولُه أمنُّ وأفضل».

قال: «ألا تُجيبوني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: «بماذا نجيبك يا رسولَ الله؟ وللَّهِ ولرسوله المنُّ والفضلُ».

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُم: أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلًا فواسيناك. أوجَدْتُم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعةٍ (الشيء اليسير) من الدنيا تألّفتُ بها قوماً ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضَون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير إلى رحالهم وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلكتِ الأنصارُ شِعباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار. الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار»[2].

وبمثل هذا الصدقِ المحمديِّ، وهذا الوفاء النبويِّ، كانت المكاشفة والمصارحة من الرسول الأعظم. فراح الأنصارُ يبكون بحرقة، حتى اخضلَّت لحاهم من الدمع، ثم قالوا: «رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحظاً»[3].

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٢٧٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٤٢؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٧٢.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٤٣؛ وزاد المعاد ج٢ ص٢٧٢.

وقاموا إليه، يتقدمهم الشيوخ والسادة، يريدون تقبيل يديه، ويرجونه أن يسامحهم، وهم يقولون: «رضينا بما قسمت يا رسول الله. وهذه أموالنا بين يديك فإن شئت فاقسمها على قومك. وإنما قال من قال منّا على غير وغْر صدرٍ، وغلٍّ في قلبٍ، ولكنهم ظنوا سخَطاً عليهم وتقصيراً منهم. وقد استغفروا الله من ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول الله»[1].

فقال ﷺ: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار»[2]. وقد أعادَ هذا التسامحُ السكينة إلى نفوس الأنصار، فرجعوا إلى رحالهم راضين مستبشرين.

إن هذا الموقف، بين رسول الله وبين الأنصار، كان أبلغ درسٍ في السياسة الرشيدة التي كان يعتمدها ﷺ في معالجة شتَّى القضايا والأمور، والتي كان من خلالها ينفذ إلى القلوب فيريحها، وإلى النفوس فيطمئنها، وإلى العقول فيتملَّكها، ويأسرها بالإيمان بالله ربّاً وبه رسولًا. ذلك كان نهجه الدائم في كل مرة كانت تحتاج فيها القلوب، والنفوس للارتياح من محتقناتها، تماماً كما كان نهجه في مخاطبته العقول لاتخاذ المواقف التي تخدم الدين والإنسانية.. ولقد كانت معالجات محمد رسول الهدى ـ فوق مصداقيتها وفعاليتها ـ توزن بالميزان الإسلاميّ، الذي لم تعرف البشرية في تاريخها من قبل، ولن تعرف من بعد، مثل عدله: لأنَّ في إحدى كفتيه دائماً حكمَ النبوة، وفي الكفة الأخرى فِعالَ البشر. ولا يمكن للأقوال والفعال أن تكون سويّةً

(١) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٨١.

(٢) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٨١.

كما يراها سيدُ المرسلين وخاتمُ النبيين إلَّا إذا توافقت مع حُكْم الله تعالى، لأنه وحدَهُ الحُكمُ الحقُّ، ومن الحق تبارك وتعالى، ولذلك من المحتَّم أنْ يكونَ العدلُ الثابتُ قوامَها وأساسَها..

وعظمة محمد ﷺ ـ كما تشهد عليها سيرة حياتِهِ ـ إنَّما وحدها كانت تقوم في كلِّ تاريخ البشرية، على التقيّدِ بحكم الله (تعالى)، وتطبيقه على نفسه مثل الآخرين تماماً، لأن ربه ـ تبارك وتعالى ـ جعله القدوة والأسوة الحسنة، وهذا موقفه مع الأنصار كان جليّاً حين ذكَّرهم بهدايته لهم مِنْ قِبَلِهِ وبنصرتهم ـ مِن قِبَلِهم ـ له وفقاً لميزان العدل الإسلامي، ولذلك كانت ردة فعلهم هذا الرضى الوجداني الذي لا يأبهُ للغنائم والمتاع، وكلِّ ما يُغري الناس بل يطمئن لرضى الله ولرسوله!..

ولم يكن الأنصار وحدهم قد ساورهم بعض الظن في صنع رسول الله أثناء توزيع الفيء، بل إنَّ بعض الصحابة أتوه قائلين: «يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مئة مئة، وتركتَ جُعَيْلَ بْنَ سُرَاقَةَ الضَّمْري»[1].

فقال: «أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طِلاع الأرض[2]، كلُّهُم مثلُ عيينة والأقرع، ولكنّي تألَّفتهما ليُسلما، ووكلتُ جعيل بنَ سُراقةَ إلى إسلامه»[3].

ولعلَّ تلك الظنون التي رافقت قسمة الغنائم، كانت في غفلةٍ من أصحابها عن أمرٍ جوهري وأساسيٍّ، كان يجب ألَّا يغيب عن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص١٣٩.
(٢) طِلاع الأرض: ما يملأها حتى يطلع عنها ويسيل.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٣٩.

الأذهان، وهو أن عطاء رسول الله ﷺ للمؤلفة قلوبهم كان من الخُمُس الذي هو حق خالص له، يضعه حيث يشاء، ويعطيه لمن يشاء، من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمؤلفة قلوبهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[1].

فقد استعمل رسولُ الله خُمُسَهُ[2] في أسمى وأعلى غاية، إذ كان يريد الاطمئنان على المسلمين، وعلى الدعوة الإسلامية التي توجب تأليف القلوب. وقد شهد موقعةَ حنين جماعةٌ من سادة قريش، وقادةٌ من قبائل العرب الذين لهم منزلة في قومهم، فلماذا لا يعطيهم الرسول الكريم من هذا الفيء الوفير، إن كان في هذه العطاءات ـ ومهما بلغت ـ ما يزيل الضغينة التي ما تزال في قلوبهم على الدعوة ـ وقد بدت جلية في مقالتهم أثناء احتدام المعركة ـ ولماذا لا؟ فإنَّ ذلك قد يجعلهم يهتدون إلى الإيمان الذي يدعو إليه الإسلامُ معتنقيه، وليس كمثل من يدخلون في هذا الدين لغاياتٍ شتَّى، دون أن يلامس الإيمان الصادقُ قلوبهم؟!...

إذاً فالعِبَرُ والعظاتُ في توزيع الفيء ـ كما بيّن بعضها رسول الله ﷺ في حنين ـ كثيرة، وجليلة.. فضلًا عن أنَّ إعطاء المؤلفة قلوبهم فريضةٌ من الله ـ تعالى ـ وتدخل في الصدقات الدائمة في الإسلام، وليس فقط من الغنائم التي تحصل في ظرف معين، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤١.

(٢) انظر: زاد المعاد، ج٢ ص٢٧٧ عن الشافعي ومالك.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وهذه مناسبة لتذكير المتصدّقين عندما يُعطُون صدقاتهم، بأنَّ عليهم أن يخصّصوا جزءاً منها للمؤلَّفة قلوبُهُم حتى يزدادَ الإسلام مَنَعَةً، ويكونوا من الدعاة لهذا الدين، بدلًا من أنْ يكونوا من المنافقين، أو إِلْباً على دين الله (تعالى)..

وهنالك بعضُ الدروس الهادية الأخرى، التي أعقبت غزوة حنين بالذات، فلا بأس من التذكير بأبرزها وأهمها، وهو الذي يتمثل بالعُجب من المسلمين بأنفسهم لما كانوا عليه من كثرة العدد وقوة العتاد.. فقد نظروا إلى كثرتهم تلك فأُعجبوا بها، واطمأنوا إليها، معتقدين أن هذه الكثرة هي مصدر القوة وسبيل النصر.. ولكنَّهم ما لبثوا أن فروا من وجه العدو حين فاجأهم بانحداره إليهم، وهم يتدافعون أمامه تدافع السيل، ويتكبكبون تكبكب الأنقاض من البناء الشامخ، الذي انهار أعلاه على أسفله، لولا ثبات النبيِّ ومعه الفئة القليلة التي باعت أنفسها لله (تعالى) وأحاطت بهذا النبي الكريم، الدائم الصلة بربه، فمدَّها بالثقة واليقين، وبحسن التوجّه بقلوبها إلى مولاها العليّ العظيم، فاستمدت منه العون والمؤازرة. وبذلك تبدلت الهزيمة نصراً، وآلت الأحوال إلى ما آلت إليه من عزة ومنعة.. نعم، لقد كان لإخلاص هذه الفئة القليلة لدينها، وحبّها للنبي والذودِ عنه ـ وبصورة خاصة أهل النبي ـ وحسن صلتها بالله تعالى، كل ذلك كان له

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

أكبرُ الأثر في تسيير حركية القتال، إذ أمدَّها الله ـ سبحانه ـ سريعاً بالمدد اللازم فأيقظ الضمائر في صدور المؤمنين الفارين، وأزالَ الغشاوة عن بصائر المسلمين الهاربين، وأنزل السكينة على قلوبهم، فعادوا إلى القتال ليبدلوا اليأس بأساً، والضعف قوةً، وتتحول الهزيمة إلى نصرٍ مؤزَّر.

وما عتَّم المسلمون ـ على أثر حنين ـ أن أدركوا جميعاً أن هنالك سُنَّةً ثابتةً ، وهي أن النصْرَ ـ حقاً ـ بيد الله وحده. ومصدر هذا النصر هو دائماً صدق الإيمان، وحسنُ التوكل على الله ـ سبحانه ـ أما الكثرة، والعتاد، والتعبئة، وحسن التنظيم، وما إلى ذلك من الأمور التي يكون بها الاستعداد لمباشرة القتال، فإنَّها جميعَها، أو أيَّ واحدة منها لا تكفي لإحراز النصر، بل تأتي في المقام الثاني من أسباب القوة لخوض المعارك وتحقيق الانتصارات. إذ يبقى الشرطُ الأول، بل الأساس هو التوكُّلُ على الله، ومن ثَمَّ الأخذ بالأسباب والإعداد اللازم، لأنْ القوّة لا تُستمدُّ إلَّا من الله، والنّصْرَ دائماً من عنده سبحانهُ وتعالى.

هذه حقائق ينبغي ألاّ تغيب عن أذهان المسلمين، فهل يدركون هذه الحقائق؟ وهل يشعرون اليوم بمقدار ضعفهم أمام أعدائهم؟ وهل يعرفون سرَّ ما هم عليه من ضعف، على الرغم من كثرة ما هم عليه من العدد، وما عندهم من القدرات، التي يمكن أن تتحكم إلى حد بعيد بمصير العالم كله لو أحسنوا استعمالها واستغلالها ـ كما أسلفنا ـ من أجل مصلحة المسلمين؟

قد يكون جزافاً القولُ بأن هناك سرّاً لضعف المسلمين لا

يفقهونه! . . . والحقيقة أنه لا سرَّ بهذا الخصوص على الإطلاق، ما دام الأمر واضحاً وضوح النهار، وبمثل هذا الوضوح لا يبقى مجال لأن يغمضَ المسلمون أعينهم، ويحاولوا نكران ما هو ظاهر لهم، أو يطالبوا بالأدلة على صدق هذا الظاهر. . فإذا كان لا يصح في الأذهان شيء للتدليل على النهار والشمس ساطعة، فإنه كذلك لا يصح في أذهان المسلمين شيء للتدليل على واقع ضعفهم وتشرذمهم اليوم! . . والسبب أنهم هجروا دينهم، ونسوا الله خالقهم وبارئهم، وتنكّروا لوحدة كلمتهم فأنساهم اللَّهُ (سبحانه وتعالى) أنفسهم حتى غدوا كزرع غاض ماؤه، وانقطع عنه غذاؤه، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً.

إن موقف المسلمين الراهن، كموقف المسلمين السابقين في بداية معركة حنين، ولكن الفارق بين الموقفين أن مسلمي حنين أفاقوا من الغشية التي أصابتهم، وسارعوا بالرجوع إلى ربهم، فسارع إليهم نصرُ الله تعالى وتأييده، فالله سبحانه لا يغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم. . أما المسلمون اليوم فطالما لم يغيروا ما بأنفسهم، ولم يرجعوا إلى الله (تعالى) بالنية الصادقة والعمل الصالح ـ ولاسيما الالتزام بروح الإسلام شكلًا ومضموناً ـ فإنهم سيظلون كثرة لا غنى فيها. وأينما نظرنا إليهم فسنراهم فئات مغلوبةً على أمرها، يتحكَّم فيها أعداؤها وأعداء دينها، وينعمون دونها بخيرات أوطانها، ويسخِّرونها في منافعهم كسخرة الأسياد للعبيد، بل ويتلاعبون بمصير كل شعب إسلامي، وفي أي بلدٍ إسلامي، بمثل ما يريدون ووفق ما يرغبون. . فكأن المسلمين قد أصبحوا هم الذين يعنيهم الشاعر بقوله:

ويُقضى الأمرُ حين تغيبُ تيمٌ ولا يُستأذَنون وهم شهودُ

وستبقى شعوب الأمة الإسلامية عاجزة عن اتخاذ القرار المؤثر في حياتها، على الرغم من وجود من يمثلها في المنظمات الدولية والإقليمية كافة، وعلى الرغم من كل حضورها في المؤتمرات، أو إبرامها للمعاهدات، لأن في ذلك التمثيل أو الحضور، وفي هذا الإبرام، ما يبقى خفياً عنها، وعاملاً ضد مصالحها أكثر مما هو ظاهرٌ لها، أو هي مطلعة عليه!..

فهل آن الأوان بعد هذه الرؤية الواضحة، أن يستيقظ المسلمون، كلُّ المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، من سُباتهم العميق، ويفيقوا من غفلتهم الطويلة، حتى يستعيدوا الثقة بأنفسهم، ويصلوا ما بينهم وبين ماضيهم المجيد، وعزهم السالف، وأيامهم الميمونة؟!.. والسبيل الوحيد ـ الذي نكرّر التذكير به ونؤكده ـ هو الرجوع إلى الله جلَّ شأنُه!.. وليكن التذكير وللتذكير فقط، أن الإنسان، مهما عمل في هذه الدنيا، فهو ميِّتٌ في نهاية عمره، وهل ينفعه شيء بعد الموت، إنْ كان قد قطع في دنياه الصلة بأمّته الإسلامية وبربه العليّ العظيم؟!.. وعمل ضد دينه، وإخوته المسلمين إلى أيِّ مذهب انتموا، وفي أي بلدٍ أقاموا؟!

لا! لم تصل الأمور بعد إلى درجة اليأس، فتباشير اليقظة تلوح في الأفق، والوعي بدأ يدبُّ في العالم الإسلامي، مبشراً بفجر جديد، وبمطلع من مطالع النور لهذه الأمة الحائرة في أمرها. والحيرة أيتها الأمة الكريمة هي الظلام الدامس بعينه، وهي التي تأخذ بيد صاحبها إلى ساحة التردد لإبعاده عن جادة الهداية.. فعلى المسلمين، وقد أنعم الله (تعالى) عليهم بنور الهداية، أن يضيئوا قلوبهم ودروبهم بهذا

النور، فيُخرجوا أنفسهم من الظلمات التي تحيق بهم، ويعودوا إلى دينهم، وما أودع الله (تعالى) فيه من ذخائر القوة والعزة والسعادة، وبذلك تكون لهم القوة بعد الضعف، والعزة بعد المذلة، والسعادة بعد الشقاء. حقق الله أماني المسلمين، وجعلهم من الواعين، المدركين، وهدانا جميعاً إلى الصراط المستقيم.

ولئن كان هذا الربط بين ماضينا وحاضرنا ضروريّاً نحتاج إليه لإحياء روح اليقظة فينا، فإن سيرة خاتم الأنبياء، محمد بن عبد الله ﷺ تبقى ذخراً حيّاً لنا، نستمدُّ منها الإلهام والعبر، والنهج والطريق، في كل ما نحتاج إليه، وما نتطلع له.. ولقد أظهر محمد ﷺ ما يفوق حدَّ التصور من عمق الإدراك والوعي، وحسن السياسة والتدبير، وصدق العزم في تحمل المسؤولية أثناء حنين والطائف ـ وقبلهما وبعدهما ـ وهو ما مكَّنه من إعادة ألوف المسلمين وثنيهم عن الهرب والفرار من المواجهة والقتال، وكلُّهم راضٍ مطمئِنُّ القلب، يعظّم الله سبحانه وتعالى، ويصلّي على رسوله الكريم..

وبعد هذه النظرة السريعة التي حاولنا فيها الوصل ما بين ماضينا وحاضرنا، نعود إلى مجرى الأحداث فنجد أنَّ الرسولُ الأعظمُ ظلَّ في الجعرانة فترة من ذي القعدة. ثم خرج منها إلى مكة معتمراً. فلما قضى عمرته، ثبّت كُلاًّ من عتاب بن أسيد في استخلافه على مكة، ومعاذ بن جبل فقيهاً بين الناس.. ثم عاد بعد ذلك، ومعه الأنصار والمهاجرون، إلى المدينة لست ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة ثمانٍ للهجرة.

أجل، لقد رجع رسولُ الله إلى مدينته، مطمئنّاً إلى تأييد الله ـ

سبحانه وتعالى ـ له بالنصر المؤزر، الذي حققه في تلك المسيرة التاريخية، التي جعلت شبه الجزيرة تكاد تكون برمّتها خاضعة لسلطان الإسلام، أو على طريق الخضوع لهذا السلطان. ولقد قاسى الرسول والمؤمنون في تلك المسيرة كثيراً من العناء والمشقة، فحق لهم أن يخلدوا إلى فترة من الراحة، حتى يستعيدوا قواهم ويتحفزوا لوثباتٍ جديدةٍ يمليها عليهم واجب الدعوة، كما هو الحال في كل مرة كانوا يعودون فيها من سفر قاصد، وأداء واجب.

ولكن! من كان كمثل محمد ﷺ، يحمل على عاتقه أكبر تكليف نزل من رب العالمين، فهل يمكن أن يركن إلى الراحة؟ أبداً، وربما ينشد الخلوة بنفسه ولكن ليس للراحة والدعة، بل لكي يستجمع الأفكار، ويقوِّمَ الأعمال، ويرسم السبل التي تقوّي صروح الإيمان، والطرق التي تدعّم أركان الدولة، فتنطلق الدعوة إلى آفاق جديدة، وإلى بقاعٍ لم تطرقها خارج حدود شبه الجزيرة..

وهذا فضلًا عن أنّ تلك السكينة التي كان ينشدها سيدُنا رسولُ الله، تبقى في جميع أحوالها، سكينة المعرفة التي تتلقى الوحي، وهدأةَ التفكير التي تدرس الماضي وعِبَره، وبساطةَ العيش التي ترتقب المستقبل وتطلعاته، وتعدُّ له عدته.. وحقيقة هذه المعرفة[1] بشموليتها واتساعها، وفي جوهر ما تحتويه من أمور الدنيا، وأخبار الآخرة، إنما كانت دائماً وأبداً قبساً روحانياً يهبه الله تعالى إلى

---

(١) ولكي يمكن لبني البشر إدراك هذه المعرفة، والوقوف على حقيقتها، فإن عليهم الاهتداء بنورانية القرآن الكريم الذي يبيّن لنا أن المعرفة على ثلاث درجات:

أولاها: علمُ اليقين: أي المعرفة التي تقوم على الخبر الصادق الأكيد: كما لو عادَ شخص صادقٌ من مكة المكرمة وأخبر عما رأى خلال زيارته لبيت الله الحرام، =

نبيه الكريم، ومنهجاً عملياً يرشد به رسوله العظيم.. ذلك أن رسول

= فتتكوّن لدى سامعه فكرةٌ صحيحةٌ عما أُخبرَ به بحيث يمكنه أن ينقلها إلى الآخرين بتمام صحتها. وهذه الفكرة تكون بمنزلة علم اليقين عنده، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ـ سورة التكاثر، الآيتان: ٥ و٦ ـ، أي لو كنتم تعلمون الأمور على حقيقتها لكنتم كأنكم تنظرون إلى نار جهنم، وترونها رأي العين.

والثانية: عين اليقين: أي المعرفة التي تقوم على المُشَاهَد المحسوس، وعلى الرؤية بالعين المجردة، كما لو أن ذلك الشخص الذي كان قد تكوَّن لديه علم اليقين بالخبر، قد ذهب إلى الحج بنفسه ثم رأى بعينه المواقف الشريفة، وأماكن الفريضة، ووقف بنفسه على معالم الحج ومناسكه، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ـ سورة التكاثر، الآية: ٧ ـ أي من المؤكد أنكم سترَونَّ الجحيم بأعينكم حين تعرض عليكم، وبعينها وبذاتها، فتحصل لكم المعرفة اليقينية بالعين والذات..

والثالثة: حق اليقين: أي المعرفة التي تقوم على التجربة والممارسة الفعلية، كما لو ذهب نفس الشخص الذي تكوّن لديه العلم، بأمور الحجّ، والتي كان قصد إلى مكة للاطّلاع عليها، ومشاهدتها حسيّاً ثم ذهب هذه المرَّة ليحجَّ، فقام فعلياً بالمناسك من الإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف في عرفة ومزدلفة، ورجم الجمرات، ونحر الهدي، وإتمام كافة الشعائر والمناسك التي تستلزمها فريضة الحجّ، بما يجعله يتحقق يقيناً من كل ما علم، ورأى وعمل، وذلك ما ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ـ سورة الواقعة، الآية: ٩٥ ـ أي الحق الذي وعاه العقلُ وصدَّقته الحواس إدراكاً وممارسة فعلية، فصار حقاً يقينياً وتصديقاً جازماً للعلم الأول بمسألة أو أمر، أو قضية، أو أي شيء غير ذلك مما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة..

وإذا كانت درجات المعرفة الثلاث نتحقَّقُها في جميع شؤون حياتنا، فإنَّ القرآن الكريم أرادها للتدليل على البعث، ولإقناع الناس بأن هناك ـ حقاً ـ نشأةً أخرى بعد النشأة الأولى. ففي «سورة التكاثر»، وفي سورة «الواقعة»، كما في غيرها من سور القرآن الكريم، فإنَّ كثيراً من الآيات تبيّن للناس أنهم مبعوثون لا محالة، وتؤكد لهم ذلك بالقصص القرآني، وبالشواهد الحسية ومنها على سبيل المثال كيف يحيي اللَّهُ ـ تعالى ـ الأرضَ بالماء الذي ينزله عليها من السماء فيخرج نباتُها بإذن الله، وكذلك يُخرج الموتى من قبورهم أحياءً يوم القيامة.. فالمؤمنون المصدّقون تتكون لديهم المعرفة عن هذا البعث، وتكون معرفتهم هي «علم اليقين»، باعتبار أنهم قد آمنوا بما أُنزِلَ =

الله ﷺ كان يحيا بالقرآن وحْياً وتنزيلًا، وتوجيهاً وعملًا. فعن طريق **علم اليقين** جاءته الرؤية الصادقة والخبر اليقين من ربه تعالى بفتح مكة. وبمقتضى معرفته الملْهَمَة بهذا الفتح عقد معاهدة الحديبية التي اعتبرها بعض الصحابة جائرة بحقوق المسلمين، حتى إذا كان الموعد وتحقق الوعْدُ الصدق، ودخل النبيّ والمؤمنون إلى مكة في عمرة القضاء، كان ذلك **عين اليقين**. فلما دانت مكة بالإسلام، وموورست فيها شعائره، وطبقت أحكامه، كان ذلك هو **حق اليقين**.. فتلك المعرفة القائمة على التوجيه الربَّاني، وعلى الهدى القرآني، هي التي قادت خطى الرسول ﷺ في أعظم مسيرة عرفها التاريخ البشري، فانطلق يرسي للحياة أسساً جديدة لم تعرفها من قبل، واندفع يغرس في النفوس حقائق لم يألفوها فيما سلف، حتى جعلَ الناسَ تقرُّ حقاً بسموِّ الرسالة التي يحمل، وبصدق الدعوة التي يبلِّغ.. ولقد بلغ تأثير الإسلام في الناس حدّاً، جعل بعض القبائل في شبه الجزيرة تقبل على المدينة راضية مختارة، لتدخل في الدين الجديد، ولتقدِّمَ الولاء للرسول العظيم.

إسلام بني طيء

ومن تلك القبائل التي قدِمت المدينة كانت قبيلة طيء (التي

= على محمد ﷺ وأيقنوا بصدقه، وعلموا أن ما يقوله هو الحق بعينه. فإذا كان الموتُ، وبُعِثَ الناسُ، ووجدوا أن ما أخبرهم به القرآن حقيقة يرونها بأم العين، ويحيَوْنها بالحواس فإنهم هنا يكونون قد وصلوا إلى معرفة «عين اليقين»، التي لا ريب فيها ولا شك. حتى إذا تفرّقَ الأحياءُ المبعوثون، كلٌّ إلى مصيره، وصار هؤلاء في النعيم، وزُجَّ بأولئك في الجحيم ـ وكله نتيجة للأعمال في الحياة الدنيا ـ كان هذا «حق اليقين».. فسبحان الله الخالق العظيم، الذي هدانا إلى الحق والمعرفة، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

اشتهر منها حاتم الطائي بكرمه). فقد جاء أشرافُها، وعلى رأسهم يومئذٍ سيدهم زيد بن مُهَلْهِل بن زيد الطائي، ويُدْعى «زيد الخيل»[1]، فأقبل على النبيِّ يحدثه، فأحسن الحديث وأجاد في إتقان أدب الموقف بين يديه ﷺ، فقال له الرسول: «ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلَّا رأيتهُ دون ما يقال فيه إلَّا زيد الخيل فإنه لم يبلَّغ عنه كلُّ ما كان فيه». ودعاه «زيد الخير» بدلًا من «زيد الخيل».

ولقد أقطعه النبيُّ مكاناً يدعى فَيْداً ومعه أراضٍ، وكتب له كتاباً بذلك. وكان ذلك الإقطاع ـ فيما يظهر ـ إقطاع منفعة، لاستخراج المعادن والزيوت، وزرع كلِّ ما يُصلحُ الأرض. وكان النبيّ يفعل ذلك في الأراضي النائية عن المدينة، ليُمَكِّن الناس من استغلالها، واستخراج الثروة من باطنها. فكان منهم من يُعطى الأرض لقاء أجر، ومنهم من يكون إعطاؤه على سبيل تأليف القلوب.

وخرج «زيد الخير» راجعاً إلى قومه كي يدعوَهم إلى الإسلام. ولكنه مات بالحمّى عند ماءٍ من أرض نجد يقال له فردة. فعمدت امرأته بعد موته إلى الوثائق التي كتبها رسول الله لزوجها فأحرقتها جميعها.. فلما بلغَهُ ﷺ ما صنعت تلك المرأة، بعث في ربيع الثاني سنة تسع للهجرة، عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مئة وخمسين فارساً إلى طيء، يدعوهم للإسلام، فإن استجابوا أمَّنهم وعاهدهم، وإلَّا غزاهم وحقَّقَ أمرَ الله ـ سبحانه ـ فيهم. ولم يأبَهْ بنو طيء، في بداية الأمر، لدعوة علي رضي الله عنه لهم الدخول في الإسلام، فشَنَّ عليهم

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج٣ الرقم ٢٩٣٥.

غارةً عاجلة، انتهت باستسلامهم عند الفجر، فتقدَّم هو وفرسانه يهدمون صنمهم «العُلْس»، ويأخذونهم أسرى إلى المدينة، بينما استطاع ملكهم عديُّ بنُ حاتم الطائي ـ وكان على النصرانية ـ أن يفرَّ بأهله إلى بلاد الشام.

وكانت بين الأسرى ابنة حاتم الطائيّ نفسه، وتدعى سَفَّانَة. فاحتجزت مع السبايا بجانب المسجد النبوي، حتى مرَّ الرسول ﷺ يتفقَّد أحوالهنَّ، فأعلنت عن نفسها، ورجَتْه أن يمنَّ عليها، وهي تقول: «يا رسولَ الله، هلك الوالد وغاب الوافد[1] فامنُنْ عليَّ منَّ الله عليك». ومثل هذا الرجاء أعادَ إلى ذهنِ الرسول سيرةَ والد هذه الأسيرة، وما كان يتحلّى به من سمعةٍ طيبةٍ بكرمه، وحسن ضيافته بين العرب، فأمَرَ على الفور بتسريحها من ضيق أسرها، إكراماً لشرف بيتها، وسماحة أبيها. ثم كساها كسوةً حسنة، وبعث بها إلى بلاد الشام حيث استقر المقام بأخيها عديّ.

وراحت سفَّانَة تحدث أخاها عن عفو «محمد» ورأفته بها.. فقال لها:

ـ وما تَرَيْنَ في هذا الرجل يا أختاه؟.

فأجابته: «أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإنْ يكن الرجل نبيّاً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تَذِلَّ وأنت أنت»[2]..

فقال: «والله إنَّ هذا هو الرأي».

---

(١) الوافد: الزائر، وهي تعني أن أحداً لم يأتِ لفدائها ممن كانوا يفدون على أبيها الذي ذاعت شهرته في الأمصار.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٢٦ و٢٢٧.

ولم يلبث عدي بن حاتم الطائيّ أن ارتحل بأهله إلى المدينة، وأقبل على النبيِّ وهو في المسجد، فانطلق به النبي إلى بيته إيذاناً بالفضل وحسن المعاملة لمن يستحق الإِكرام من أصحاب البيوتات، التي فيها نسمات خير، وهي أَولى أن تنضوي تحت لواء الإِسلام العظيم.. فقال له الرسول: « يا عديّ بن حاتم! ما أَخَّرك أن تقول: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله هل من إله غير اللهُ؟ ما أخّرك أن تقول: الله أكبر؟ فهل من شيء هو أكبر من الله؟» فقال عديّ: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله» فاستبشر الرسول بإسلام عديّ.(١)

موت زينب بنت رسول الله ﷺ

ويشاءُ الله سبحانه، أن تدخل على هذه الفترة من حياة الرسول سحابةٌ من الحزن الشديد، والألم العميق، إذ توفيت ابنته زينب (رضي الله عنها) بعد المرض الذي لم يفارقها منذ أن تعرّض لها مشركان خبيثان، يوم خروجها من مكة، وأجفلا بها راحلتها حتى وقعت أرضاً، فاعتلّت منذ ذلك اليوم، إلى أن وافتها المنية في هذه الفترة. وروي أنه لما ماتت زينب (سلام الله عليها) قال ﷺ للنسوة: «اغْسلْنَها وتراً، ثلاثاً أو خمساً واجعلنَ في الآخرةِ كافوراً»(٢) ونزل رسول الله ﷺ في قبرها وهو مهموم محزون، فلما خرج سُرّيَ عنه

(١) روى البيهقي أن سبب مجيء عدي بن حاتم: أن أخته وقعت في الأسر، فمنّ عليها رسول الله ﷺ فأتت أخاها في بلاد الشام فكلمته في المجيء إلى رسول الله ﷺ. فجاء وأسلم. (موسوعة عظماء حول الرسول، الجزء الثاني ص١٤٤٣).

(٢) البخاري، كتاب الجنائز: ٨ ـ ٩ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٧؛ ومسلم، كتاب الجنائز: ٣٦ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١.

وقال: «كنت ذكرت زينب وضعفها، فسألتُ اللَّهَ ـ تعالى ـ أن يخففَ عنها ضيق القبر وغمَّهُ، فاستجاب ـ سبحانه ـ وهوَّن عليها»[1]. وقد أثَّر موت ابنة النبي في نفسه الشريفة أشدَّ الأثر، لما كانت تختزنه نفسُهُ الصافيةُ من مشاعر إنسانية، تفيض على القريب والبعيد.. فقد كان صلَّى الله عليه وآله وسلَّم رحيماً إلى أقصى غاية الرحمة، يشارك كل ذي ألم ألمه، وكلَّ ذي مصاب مصابه، فلا يترك في المدينة، ولا في أطرافها مريضاً إلَّا ويعوده، ولا بائساً إلَّا ويواسيه، يأسو جراح الكليم، ويريح قلب المتعب.. ومن هنا كان حزنه شديداً على ابنته، خاصة وقد فقد بوفاتها كل عَقِبٍ له، من ذكر وأنثى، إلَّا ابنتَهُ فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين (عليهم السلام جميعاً) فقد بقوا له قرّةَ عين، وحبّةَ فؤاد.

ولادة إبراهيم من السيدة مارية

ويشاءُ ربُّ محمدٍ الذي يرعاه من عليائه، أن يُدخلَ إلى نفس رسوله الأنسَ والمواساة، فيرزقه من السيدة مارية غلاماً، سمَّاهُ إبراهيم، تيمّناً باسم إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، وصاحب الحنيفية السمحة. ولم تكن ولادة إبراهيم حدثاً عادياً، فأزواج النبي جميعهنَّ ـ بعد السيدة خديجة عليها السلام ـ لم يلدن له، على الرغم من أنه كانت فيهن الفتاةُ الفتية، والنَّصَفُ التي أعقبت من قبل. فعلى امتداد سنوات عشر من الهجرة، ظلت حياةُ النبيِّ خلواً من مولود جديد، حتى وُلد إبراهيم، فوجد فيه أُنساً لقلبه الكبير، وراحةً لنفسه الرضية.

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٥، ص٤٦٨.

ولقد أحبَّ رسول الله طفله إبراهيم عليه السلام حبّاً كبيراً. فكان يمرُّ كل يوم بدار السيدة مارية ليراه، وليزداد أُنساً بابتسامته البريئة الطاهرة، ومسرَّةً بنموّه وجماله، فيحمله بين ذراعَيْه، ويأخذه إلى زوجاته كي يَرَيْنَهُ، ويَرَيْنَ شبهه العظيم به. ولكنَّ هذا الحبَّ للطفل البريء، لم يُنسِهِ قطُّ واجباته تجاه أزواجه، بل ظلَّ يقوم على معاشرتهن بالمعروف، وبالرحمة التي عرفنها فيه، ضارباً في هذا العيش الكريم أعظم مثلٍ وأروعه في المعاملة والتربية التي يؤديها في بيته، كما يؤديها في أمته. وكان يقول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

بعض مآثر التربية المحمدية

ومن معالم هذه التربية أنه ما ظهر إنسان في التاريخ يأخذ بيد المرأة كي يعليَ من شأنها ويصلَ بها إلى بلوغ أسمى مكانة في حياتها كالنبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فهذه ـ مثلًا ـ سلامة، حاضنةُ ابنه إبراهيم عليه السلام ـ كما روى عنها أنسُ بن مالك ـ أنها قالت: يا رسول الله، إنك تبشّر الرجال بكل خير، ولا تبشر النساء؟! قال: «أصويحباتك دسسنكِ لهذا»؛ قالت: أجل هنَّ أمرنني، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا ترضى إحداكنَّ أنها إذا كانت حاملًا من زوجها، وهو عنها راضٍ، أنَّ لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وإذا أصابَها الطلق لم يعلم أهلُ السماء والأرض ما أخفي لها من قرة عين»[1].

ولقد عبّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه المكانة الرفيعة التي

(١) عظماء حول الرسول، ج٢ ص٩٩٣.

جعلها محمدٌ ـ الإنسان والنبي ـ لنسائه والتي لم تكن معروفةً قط عند العرب، إذ حدّث فقال[1]:

«والله لقد كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم. فبينما أنا في أمر أَأْتمره، إذ قالت لي امرأتي: لو صنعت كذا وكذا! فقلت لها:

«وما لك أنتِ ولِمَ ها هنا، وما تكلُّفُك في أمرٍ أريده؟» فقالت:

«عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَعَ أنت، وإنَّ ابنتك (حفصة) لتُراجِع رسول الله ﷺ حتى يظلَّ يومَهُ غضبان»!..

قال عمر: «فأخذتُ ردائي ثم خرجت فدخلت على حفصة، فقلت لها: يا بنيّة، أإنَّكِ لتُراجعين رسول الله ﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان؟».

فقالت حفصة: «والله إنا لنراجعهُ».

فقلت: «تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله.. يا بنيّة، لا يغرّنك هذه التي قد أعجبها حسنُها وحبُّ رسول الله إياها».

ويتابع عمر حكايتهُ، فيروي:

ثم خرجتُ حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها، فكلّمتها، فقالت لي أم سلمة: «عجباً لك يا ابن الخطاب! قد دخلت في كل شيء حتى تبتغيَ أن تدخل بين رسول الله وأزواجه»!. قال عمر:

«فأخذتْني أَخْذاً كَسرَتْني به عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها».

---

(١) هيكل، حياة محمد، ص ٤٢٩ و٤٣٠.

ولقد كان في تسامح محمد ﷺ مع أزواجه ما يُضرَبُ به المثلُ الرفيعُ، حتى كان يقبل منهنَّ مراجعته في مختلف الأمور ـ كما رأيت ـ. ولكن هذه المعاملة، وإن كانت في جوّ النبوة، وفي بيوت رسول الله ﷺ، إلَّا أنها لم تكن لتقضيَ على المشاعر البشرية، والهواتفِ النفسية عند بعض الزوجات.. فقد كان يبدر منهن أحياناً، ما يثير النزاع بينهنَّ، مما لا بد أن يشجر في قلوب النساء الضرائر!.. فمن قبيل ذلك ما روي عن تعلق زوجاته به، وغيرتهن من بعضهن البعض..

فقيل: إن النبيّ كان يمكثُ عند زوجه زينب بنت جحش، ويشرب العسل. فاتفقت عائشة وحفصة على تنفيره وإبعاده عن زينب، وذلك بأن تقول أية واحدة منهما يدخل عليها: «أكلتَ المغافير[1]؛ إني أجد منك رائحة مغافير»[2]. وقد نفّذت إحداهما ما اتفقت عليه مع صاحبتها. فلما سمع النبي ذلك منها، فهَّمها أنه شرب عسلًا عند زينب بنت جحش ولعلَّه قد يحرّم على نفسه ذوق المغافير، إذ كانت

---

(١) مفردها مُغفَر ومُغفور: صمغ يسيل من بعض الشجر، له رائحة كريهة.

(٢) وروى ابن سعد (الطبقات الكبرى، ج٨ ص٨٥) بإسناده عن السيدة عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسل، فكان إذا صلَّى العصر، دارَ على نسائه، فيدخل على حفصة، فيحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عَكَّةً من عسل، فسقَتْ منه رسول الله ﷺ.. فذكرت ذلك لسودة وقلت: إذا دخلَ عليك، فقولي له: يا رسول الله، أكلتَ مغافيرَ؟ فإذا قال لكِ: لا، وقال: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جَرَسَتْ نحلُهُ العُرْفُط.. وهكذا حصل.. فلما عاد ودخل على حفصة، وسألته أن تسقيَهُ العسل قال: لا حاجة لي به.. فلمّا اجتمعت عائشة وسودة، قالت هذه: سبحان الله واللَّهِ لقد حرَمْناهُ؟! فقلت لها: اسكتي».. (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٦٦٤).

على تلك السوء من الرائحة، أو لعلَّهُ يحرّم على نفسه عسلًا فيه بعض رائحة المغافير!..

فأُنزل عليه قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾[1]. وهذه الرواية إنْ دلت على شيء فإنما تدل على المكانة الرفيعة التي جعلها النبيُّ لنسائه، حتى أجازَ لهن مراجعته بأيّ شيءٍ ـ إنْ أردنْ ـ صغيراً أو كبيراً، فكان يستمع إلى آرائهن، ويحافظ على مشاعرهنّ، لتكون التربيةُ العائليةُ التي يريدها، تربيةً سليمة، تقوم على احترام كيان المرأة، واعتبار شخصيتها.

وعلى الرغم من تلك المعاملة، في أرفع مستوياتها، وعلى الرغم مما ما كانت تفيض به من رفق وحنان قلَّ نظيرهما، فقد ظلت المشاعر البشرية تلجّ بأزواج النبي أعظم لجاج، حتى إذا زادَ هذا اللَّجاج، وبلَغَ حداً لا يجوز أن يَشْغَلَ به النبيُّ وقتَهُ، رأى أن يلقي عليهن درساً يكفل ردَّ الأمور إلى نصابها، ويبعد هؤلاء الزوجات عن تصرفات لا تليق بهنّ. فاعتمد لأجل ذلك الصرامة والحزم، وقرر هجرَهُنَّ، فإن نفع هذا الهجر وثُبْنَ إلى رشدهن فذاك، وإلَّا متَّعهن وسرّحهنَّ سراحاً جميلًا.

وانقطع رسول الله عن نسائه شهراً كاملًا، لا يكلّم أحداً بشأنهنَّ، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه بحديثهنَّ. حتى نزل الوحيُ من الله العليم الخبير يبيّن بعض الجوانب التي كان يعيشها النبي مع أزواجه وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي

(١) سورة التحريم، الآية: ١.

مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ﴾[1].

وأدركت أزواج النبي ممّن كُنَّ يُثرن شجاراً أو يأتين عتاباً، أو نكداً.. مقدار الخطأ الذي كن يوقِعْنَ أنفُسَهُنَّ فيه، فاستغفرن اللَّهَ تعالى، وتُبْنَ توبةً نصوحاً ألَّا يرجعن إلى شيءٍ من مثل ذلك أبداً.. فاستوت الحياة في بيوتهنَّ تملأها بالسكينة. وهي السكينة التي يحتاج لها كل إنسان ليقدرَ على مواجهة الحياة، وتحمّل الأعباء، فكيف إذا كان مثلَ رسول الله ﷺ الذي يحمل أعظم رسالة، وأكبر أمانة من الله ـ سبحانه ـ إلى عباده في دنيا الأرض؟.

فما أروع الفترة التي يعيش فيها الناس مع ربهم تبارك وتعالى! وهذا الربُّ العزيز الحكيم يراقبهم في نجواهم، كما في علانيتهم. تسأله إحدى أزواجه: يا رسول الله! من أنبأك بأنني حدّثت بما أسرّيت لي؟ قال: نبَّأنِيَ العليمُ الخبيرُ..

نعم، هذه هي الصورة الرائعة لعناية الله تعالى، هذه العناية الجليلة، التي تهدف لتسويةِ الأوضاع، وبيانِ حكم الله تعالى فيها،

---

(١) سورة التحريم، الآيات: ١ ـ ٥.

حتى يكون حكماً ثابتاً على الزمان، من لدنِ المدبّر الحكيم، الذي يحيط بكل شأن من شؤون الإنسان، لأنه أقرب إليه من حبل الوريد.

وما أروعها صورة من الحياة البيتية للنبي الكريم، الذي كان ينهض بإنشاء أمة، وإقامة دولة على غير ما هو معروف في دنيا العرب، بل وفي دنيا الناس كافة، لكي تتكفَّل، من ثَمَّ، هذه الأمة بحمل أمانة العقيدة الإسلامية الكاملة، وتنشىءَ في الأرض مجتمعاتٍ تقوم على حكم الله تعالى فتكون الأسرة ـ السليمةُ من مختلف الأمراض والعاهات الاجتماعية ـ من مقومات حياة هذه الأمة..

وما أشرفها صورة من حياة إنسان عظيم، يزاول إنسانيته، في الوقت الذي يزاول فيه نبوَّتَهُ، فلا تفترق هذه عن تلك، لأن الله تعالى قد أعدَّه ليكون بشراً رسولًا، وليحمِّله الرسالة الأخيرة للبشر، والمنهج الثابت للحياة الإنسانية!.

وليست هذه الصورة في ترجمتها الحية إلَّا حياةَ الرسول محمدٍ ﷺ التي شاءَها الله سبحانه أن تكون كتاباً مفتوحاً يقرأه الجميع، وتراجعه الأجيال ـ جيلًا بعد جيل ـ فيكون له الأثرُ العميق في نفوس المسلمين، ليؤدوا واجباتهم العائلية من حيث التربية، والتوجيه، والتذكير، ولِيَقُوا أنفسهم وأهليهم من عثرات الحياة، وليأمنوا نار الآخرة وعذاب الجحيم.

ولا يختلف تسيير الأمور الذاتية في حياة النبي، عن إدارة شتى الشؤون العامة، التي كان يقود مسيرتها بوحيٍ من الله تعالى، والتي كان يهدف من خلال ممارستها ـ جملة وتفصيلًا ـ تزويد الناس بالإيمانِ الراسخ، ومقاومةِ الظلم في مختلف وجوهه وجوانبه، ونبذ

الشرِّ والباطلِ بكل صورهما وأشكالهما.. ليتحقَّقَ، مِنْ ثَمَّ، إشاعة الخير وإقامة العدل بكل معانيهما وآفاقهما.

وبفضل تلك المقوّمات الإسلامية، التي كان النبي والصحابة يَحيَونها ساعة بساعة، لم يطل الوقت حتى قامت دولة الإسلام، بكيانها الفريد من نوعه، سواء على صعيد التكيّف الداخلي مع منهج الله (تعالى) أم على صعيد تطلعاتها الخارجية في نشر الإسلام بين قبائل العرب، وبين رعايا الروم والفرس أنفسهم، مهما كان للأمبراطوريتين الكبيرتين من سطوة وسلطان، على الرغم من أن الحكام فيهما، قد رفضوا دعوة الرسول للدخول في دين الله القيّم، وفرضت عليهم المصالحُ الشخصية ـ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ إبعاد فكرة هذا الدين عن رعاياهم، بل وتخويف الممالك الصغيرة القائمة على تخوم شبه الجزيرة من التأثر بما يجري في داخلها.. وكانت سياسة الدولتين في الأصل، كلٌّ من طرفها، تقوم على منع قيام وحدة جامعة بين إمارات العرب وممالكهم الصغيرة. يساعدها على ذلك تخلّي القبائل عن فكرة قيام الكيان السياسي الذي يكفل إقامة الدولة على أراضيها. بل وكان هذا وراء بقاء عرب شبه الجزيرة، أحقاباً طويلة، على تلك التفرقة، فلا تهتم كل قبيلة إلا بشؤونها الخاصة، أو بإقامة تحالف مؤقت مع قبيلة أخرى، فضلًا عن العداوة الدائمة التي يفرضها شظف العيش، الذي يدفع إلى الغزو والسلب، مما أبعد كل فكرة لإقامة الدولة ذات الكيان السياسي المستقل..

أما بعد أن قام الإسلام ووحَّد قلبَ الجزيرة في نجد والحجاز، تحت ظل دولته، وظهر ما قد يكون له من خطرٍ على كيان الدولتين

الرومية والفارسية، فقد بات الأمرُ مختلفاً تماماً، ولا سيما بعدما تمَّ فتح مكة، وزالت قوة قريش التي كان الفرس والروم يرقبون ـ باهتمام ـ مناهضتها للدعوة الإسلامية واستمرار حربها عليها.. من هنا فقد أيقن الروم أن تلك الدولة الفتية لا يؤمَن خطرُها، وأنه لا بد من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره، معوّلين في ذلك على ما يتمتعون به من القوة والسيطرة، وما يمتلكون من الجيوش والعتاد، مما يجعلهم قادرين على تحطيم دولة الإسلام، والقضاء على كل فكرة لدى العرب ببقاء الدولة الجديدة، وقدرتها على الحياة.. وكانت أول بادرة منهم التهيئة لغزو بلاد العرب على الحدود الشمالية بما يحقق لهم أغراضهم.

واتصل برسول الله ﷺ نبأ تهيئة الروم، وما أعدّوه من جيوش كثيرة، وأسلحة وفيرة يريدون بها غزو أرض الجزيرة، فقرَّرَ من جانبه مواجهة تلك القوة على عتوّها.. بل ورأى أن يذهب بنفسه، على رأس الجيش الإسلامي لمواجهة الروم.

غَزوَة تَبوك(١)

كان الوقت في فصل الخريف، وهو الزمن الذي تقوى فيه الحرارة في الصحراء حتى لتصبح أشدَّ من قيظ الصيف. ثم إنَّ المسيرَ من المدينة إلى بلاد الشام يستلزم أياماً عديدة، وقطع مسافات طويلة تقربُ من سبعماية كيلو متر. فضلًا عما يتطلب هذا الأمر من الجلَد والصبر، وما يحتاج له من المؤونة والماء.. فكان على رسول الله أن

(١) تبوك هي الآن ثكنة تابعة لإمارة المدينة في المملكة العربية السعودية، وتبعد عن المدينة المنورة حوالى ٧٠٠ كيلومتر.

يأخذ هذه الأمور بعين التقدير والحسبان. . ولذلك قرّر، وأعلن للناس بوضوح، أنه يريد غزو الروم على حدود بلادهم. وذلك بخلاف ما كان يفعل في السابق، إذ كثيراً ما كان يورِّي في خروجه، ولا يفصح عن الوجهة التي يقصدها، حتى يحين الوقت المناسب فيُظهرَ الأمرَ لمقاتليه. . ونادى مناديه في المدينة، وفي القبائل من حولها جميعاً، يدعو للتهيؤ وحمل السلاح، كلَّ من استطاع إليه سبيلًا. ثم راح يحضُّ أهل الغنى واليسر على أن ينفقوا في سبيل تجهيز الجيش مما آتاهم الله تعالى من فضله، نظراً لما يحتاج له هذا الجيش من موارد كثيرة ومتنوعة.

وقد استُقبلت دعوة رسول الله للإنفاق والتهيؤ استقبالًا متبايناً. فأما المؤمنون الصادقون، الذين امتلأت قلوبهم هدى ونوراً، فقد أقبلوا يلبون الدعوة خفافاً وثقالًا مسرعين، ومنهم الفقير الذي لا يجد في جيبه شروى نقير، ومنهم الغنيُّ الذي يضع ماله بين يدي رسول الله ﷺ برضى وطيب خاطر.

وجاءَ أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم، هي كلُّ ما يملك، فسأله النبي إن كان قد أبقى لأهله شيئاً، فقال أبو بكر ﷺ: أبقيتُ لهم الله ورسوله.

لقد كان أبو بكر ﷺ يرى أنَّهُ ينتمي إلى دولة الإسلام، وهي التي تتكفَّل برعاية شؤونه، وشؤون أهله وعياله، فإن كانت دولته بخير، فإنما يكون هو ومن يكفل بخير، ولو كان لا يملك درهماً واحداً. أما إذا أزيلت هذه الدولة من الوجود، فإن أموال الأرض كلها وثرواتها، لا تفيده بشيء، لأنه بزوال دولته، يفقد الانتماء، ويصبح بلا هوية. .

وهذا من المفاهيم الإسلامية التي كان الرسول الأعظم يغرسها في نفوس الصحابة الأبرار، ولذلك نظر أبو بكر الصديق إلى الأمر، من هذه الناحية، فوجد في بقاء دولة الإسلام بقاءً للمسلمين، وفي زوالها ضياعاً لكيانهم الديني، والسياسي، والاجتماعي سواء على المستوى الفردي أو الجماعي..

أما من الناحية الإيمانية والدينية، فإنَّ أبا بكر كان يؤمن بعهدة عياله إلى الله العظيم ورسوله الكريم، فهما خيُر كفيلَيْنِ وخير مُعينَيْنِ، ليس لأهله فحسب، بل ولكل إنسان على وجه الأرضِ إن سلَّم أمره لله سبحانه، وانضوى تحت لواء دينه القويم.

وتبقى نظرةُ أبي بكر الصديق ثابتةً بصدقها حتى يومنا هذا. ولئن أضاعَ المسلمون صدقَ الانتماء إلى الدولة الإسلامية، فإن أعداءهم قد أخذوا بمفهومِ الانتماء للدولة بحقِّه، وتمسكوا به دساتير وضعية لإنشاء الدول، وقيام المؤسسات الدستورية.. فمناحيم بيغن الذي كان رئيساً للوزراء في إسرائيل في مطلع الثمانينات من القرن العشرين الميلادي، قد صرّح على ملأ الدنيا أن دولة إسرائيل، هي لجميع اليهود في العالم. لأنه يرى أن الانتماء الصحيح لليهودي إنما يكون لدولة يهودية موجودة، دون أن يكون للجنسية التي يحملها اليهودي ـ أيّاً كانت هذه الجنسية ـ أيُّ أثر على هذا الانتماء. وبالفعل نشهد، والعالم بأسره يشهد، كيف أنَّ اليهود، في مشارق الأرض ومغاربها، يعملون على الدوام لمدّ دولة إسرائيل بكل مقوّمات العيش، وبكلِّ أسباب القوة، حتى تبقى محافظةً على وجودها، ويبقى لهم الانتماء الذي يدينون به لدولة إسرائيل..

ومثل أبي بكر الصديق فعل عبد الرحمن بن عوف، إذ تصدق بمائتي أوقية من الفضة، فلما سأله النبيُّ عما إذا كان قد ترك شيئاً لأهله، قال: نعم، أكثر مما أنفقت وأطيب. فقد تركت لهم ما وعَدَ اللّهُ ورسولُهُ من الرزق والخير.

وعلى مثل هذه الأريحيّة الإسلامية انبرى سائر المؤمنين الميسورين، ينفقون لتجهيز الجيش.. فقدم عثمان بن عفان ألف دينار، وثلاثماية بعير، وخمسين فرساً. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله. وحمل العباس بن عبد المطلب مالاً كثيراً، قيل إنه بلغ تسعين ألف درهم. وقدّم عاصم بن عديّ كمية كبيرة من التمر قيل بلغت سبعين وَسْقاً (والوسق حمل بعير، أو في المكيال هو ستون صاعاً بحيث يزن الصاع ستة أرطال وثلث الرطل).. ولم يبخل المؤمنون الآخرون بما عندهم، أمثال: طلحة بن عبد اللّه، وسعد بن عبادة الأنصاري، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، فقدّموا ما يقدرون عليه. وشاركت النساء في التجهيز، فكن يُلقين في ثوب مبسوط بين يديْ رسول الله ما بأيديهن من أساور وخواتم، وما في آذانهن من شُنوف وأقراط، وما بأعناقهن من عقود وقلائد..

نعم، على ذلك النحو المشرِّف والهادف كان اندفاع المؤمنين: كلٌّ يعطي بحسب قدرته، وما يريد به إلَّا وجْهَ الله سبحانه وتعالى. فمن استطاع أن يجهّز غيره لم يتأخر، ومن لم يستطع اكتفى بتجهيز نفسه.

وأتى النبيَّ نفرٌ من المؤمنين الذين كانوا عاجزين عن الإنفاق لتجهيز أنفسهم، ومنهم من لم يجد دابةً يحمل نفسه عليها.. أجل، جاؤوا يسألونه أن يحملهم على ما عنده من الركائب، ولم يكن قد بقي

ثمة دابةٌ واحدة بلا حيازة لمحاربٍ، فقال لهم: «ما أجد ما أحملكم عليه»، فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد، فسُمُّوا «البكائين». وكانوا سبعة من الأنصار هم: سالم بن عُمير، وعُلْبَة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن حُمام بن الجَموح، وعبد اللّه بن المغفَّل المزنيّ، وهَرَميّ بن عبد اللّه، وعِرباضُ بن ساريةَ الفزاريّ[1]. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْاْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

أما الذين دخلوا في الدين رغباً ورهباً ـ رغباً في مغانم الحرب، ورهباً من بأس المسلمين ـ فقد تثاقلوا، وراحوا يلتمسون الأعذار. فهذا مثلاً، الجَدُّ بن قيس، أحد بني سلمة، يقول له النبي وقد رآه غير مهتمّ بتجهيز نفسه: «يا جَدّ، هل لك العام في جِلاد بني الأصفر؟»[3]..

فقال: «يا رسول الله، أوَ تأذنُ لي ولا تَفْتِنّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ليس أحدٌ أشدَّ عُجباً بالنساء مني، وإني أخاف إن رأيت نساء بني الأصفر أن يفتتنّي، فأْذن لي يا رسول الله».. فأعرض عنه رسول الله دون أن يجيبَهُ بشيء.

وفي الجَدّ وأمثاله من المعذِّرين، نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٢.
(٣) بنو الأصفر: يعني بهم الروم.

لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾[2].

ومن الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، جماعةٌ من المنافقين الذين رأَوا في شدة الحرِّ حجةً للتخلّف، فراحوا يؤلِّبون الناس، بل ويضحكون على المنهمكين بالاستعداد للخروج، وهم يقولون لهم: «لا تنفروا في الحَرّ».. وغايتهم الخبيثة أن يكوّنوا لدى الناس زهادةً في الجهاد، ومخالفةً لدعوة رسول الله إلى الخروج، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم قولَهُ العزيز:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[3].

ورأى الرسولُ ﷺ أنَّ ما يسعى إليه هؤلاء المنافقون إنما هو الفتنة بعينها، فأخذهم بالشدة، وضرب على أيديهم بكل قسوة. فلما بلغهُ أن جماعة منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلم اليهودي لتدبّر وسائل التخذيل وتثبيط الناس، بعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، فحرَّق عليهم بيتَ سُويلم، مما كان له الأثر الحاسم في إسكاتهم، وإن ظلّت نفوسهم منطويةً على الدّس والتحايل..

وكان من الطبيعي أن يُنظرَ إلى مسيرة الجيش نظرةَ عُسر، لشدة الحرّ في حينه، وفي الوقت الذي نضجت فيه الثمار، فكان الناس يحبون الفيءَ في الظلّ، والدّعة في المقام، إلَّا أن الدعوة للجهاد هي

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٨١ و٨٢.

فوق كل الاعتبارات، ولا يمكن للمؤمنين إلَّا الامتثال والتلبية فلا يقعدهم عن داعي الجهاد أيُّ داع، ولو كانت الظروف غير مؤاتية إذ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعلى هذه النَّفحات القرآنية، خرج رسول الله بالجيش بعد أن أبقى في المدينة عليَّ بن أبي طالب، لأن المدينة دار هجرة الرسول والمسلمين، ولا يُؤمَن غدْرُ المنافقين بافتعال المؤامرات التي قد تؤدي إلى قلب الأوضاع، وانشغال الناس بالفتن الداخلية. ولذا لا ينبغي أن تُترك عاصمة الدولة خلواً من رجلٍ مثلِ عليٍّ (كرّم الله وجهه) لأنَّ وجودَه بذاته فيها يبقى مرهوباً يخشاه المنافقون[2]. ولذلك اختاره النبي للبقاء في المدينة حتى لا تبقى عرضة لاحتمالات شتى.. أما من ناحية عليٍّ، فقد أحزنه كثيراً عدم اشتراكه في هذا الجهاد، فأبدى حزنه لحبيبه

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠ و١٢١.

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «ما كنّا نعرفُ المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلَّا ببغض عليّ». وأخرج أيضاً عن جابر أنه قال: كنّا نعرف نفاقَ الرجل منّا ببغضه عليّاً (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٣٠، عن: مختصر تاريخ ابن عساكر ج١٧ ص٣٧١). وأخرج الترمذي من حديث أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يحبُّ عليّاً منافقٌ ولا يبغضُهُ مؤمن» (الترمذي، ٤/ ٣٢٧ و١٠/ ٢١٩، أحمد: ٦/ ٣٠٠؛ انظر موسوعة عظماء حول الرسول، المصدر السابق).

محمد ﷺ وهو يقول: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتخلفني مع النسوة والصبيان؟»، فطيّب النبيُّ خاطره وقال له: «قد خلَّفتُكَ لما تركتُ ورائي، فاخلفني في أهلي وأهلِكَ، أفلا ترضى يا عليُّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي[1]؟ إنه لا ينبغي في الظرف الراهن أن يبقى في المدينة إلَّا أنا أو أنت». وأذهل هذا الأمر المنافقين وأهلَ الريب، فعلموا أنهم مراقبون من عليٍّ صاحب الزند والسيف الفتّاكَيْن، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، وبذلك توارت من أذهانهم صورة الفتنة التي كانوا يمنّون النفس بإشعالها أثناء غياب النبيِّ، في ذلك الزحف الكبير من المسلمين خارجَ المدينة.

وتم ترتيب جميع الأمور، فكان خروج الجيش الإسلاميّ في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وعدّتُهُ ثلاثون ألفاً[2]، يتقدمهم عشرة آلاف فارس على رأسهم رسول الله بقيادته الحكيمة الرشيدة، وشجاعته النادرة، فانطلق في ذلك الزحف على بركة الله، وفي سبيل الله، ونصرة دينه...

ومرَّ الجيشُ الإسلامي بالحِجْر، حيث بقايا أطلالٍ لمنازلِ ثمودَ، منقورةٍ في الصخر. فلما نزل ﷺ بالناس أخبرهم بأنها ديار المعذبين، وقال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلَّا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم، ولا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضأوا منه للصلاة، ولا يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلة إلَّا ومعه صاحب له»[3].

---

(١) الرحيق المختوم، ص٣٩٨؛ والسيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦٣.

(٢) الرحيق المختوم، المصدر السابق.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام؛ ج٤ ص١٦٥؛ هيكل، حياة محمد، ص٤٤٣؛ وانظر: صحيح البخاري، باب نزول النبي ﷺ الحجر، ج٢ ص٦٣٧.

وكان تحذيره ﷺ حرصاً على حياة الناس، لئلا يصيبَ الخوفُ والوهنُ بعض النفوس، وهم يتذكَّرون ما حلَّ بقوم ثمودَ من الهلاك، فيؤثر ذلك على مسيرتهم، ولأنَّ المكان تهبُّ فيه عواصفُ الرمال فتطمر الناس والإبل. وبالفعل فقد خرج رجلان من بني ساعدة، أحدهما لحاجته والآخر في طلب بعير له، فطمرت أحدهما الرمال، واحتملت الريح الآخر. وقد عثر في الصباح على الأول فَنَجَا، بينما كانت طيء قد التقطت الآخر[1]، فعادت وأهدته إلى رسول الله بعد عودته إلى المدينة.

ثم إن رهطاً من المنافقين كانوا قد اندسّوا في الصفوف، ولا يعلم خفايا نفوسهم إلَّا الله سبحانه وتعالى، فكانوا يقولون للمؤمنين: «أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنّا بكم غداً مُقَرَّنِين في الحبال»[2]. وكانت غايتهم من ذلك، كما هو واضح «إرجافاً وترهيباً للمؤمنين». ولعلَّ مقالة هذا الرهط قد بلغت الرسول فدعا إليه عمّار بن ياسر وقال له: «أدركِ القومَ قد اخترقوا[3]، فَسَلْهُمْ عما قالوا، فإن أنكروا، فقل: بلى، قلتم كذا وكذا». . فانطلق إليهم عمّار، يحذرهم من المكر، ومن الفتنة التي يديرونها بين أفراد الجيش، فأدركوا أنه قد أوحي بأمرهم إلى رسول الله، فأتوه يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، وهو آخذ بحبل ناقة رسول الله: «يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب». فنزل فيهم قرآنٌ عزيزٌ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ

(١) رواه مسلم عن معاذ بن جبل، ج ٢ ص٢٤٦.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦٨.
(٣) اخترقوا: قالوا كذباً وكفراً.

ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ على رأس جيشه، ومقصده تبوك. وكان السير، كما كان مقدراً، شاقاً وعسيراً، فقاسَوْا في السفر مشقة بالغة، وعنتاً شديداً. ولقد قويت حاجتهم إلى الماء، فأصابهم عطش شديد، حتى قيل إنهم كانوا ينحرون الإبل، التي هم بأمسّ الحاجة إليها، فينفضون أكراشها ويشربون ماءها.

وليس من عجيب، وفي اجتماع هذه المشاقّ من نقص في الزاد، ولاسيما في الماء، ومن شدةٍ في القيظ، وطول المسافات أن يدعى الجيش الزاحف إلى تبوك «جيش العسرة». ولكنه كان في الحقيقة سفراً قاصداً إذْ تتبدّى فيه مشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ امتحاناً للقلوب لكي يمحّص المؤمنين، ويُظهِرَ المنافقين على حقيقتهم. ولقد تميّز ـ فعلاً ـ المؤمن صابراً، صادقاً، متشوّقاً للقتال في سبيل الله تعالى، بينما بدا المنافق، الذي يتظاهر بالإيمان، خائر العزيمة، واهن القوى، يتسلل من وراء الصفوف، ليرجع إلى المدينة، فيقعد مع المتخلفين.. وكان كلما تخلَّف رجل يقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإنْ يك فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

وكان أبو خيثمة مالك بن قيس، (من بني سالم بن عوف)، قد سار مع رسول الله بضعة أيام، فلما اشتدَّ عليه الحرُّ رجع إلى أهله،

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٤ و٦٥.

فوجد امرأتين له، في عريشين لهما ببستانه، قد رشّت كل منهما عريشها، وبرّدت الماء، وهيأت الطعام. فلما دخل الرجل، ورأى هذا الجوَّ الرّطب الهانئ، تراءى له رسولُ الله ﷺ، والحالةُ التي يمكن أن يكون عليها في سفر الصحراء، فقال: «رسول الله في الضِّحّ (الشمس) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ، وطعام مهيّأٍ، وامرأةٍ حسناء، في ماله مقيم، ـ لا يَنْقُصُهُ شيءٌ من متاع الدنيا ـ ما هذا بالنَّصَف»[1]. ثم أقسم ألّا يرتاح في عريش واحدةٍ منهما، حتى يلحق برسول الله ﷺ فلا يرغب بنفسه عن نفسه.

واحتمل أبو خيثمة زاده، ثم ركب بعيره، وراح يجدُّ في طلب رسول الله حتى أدركه وقد نزل تبوك.

وقد افتقد الناسُ في الطريق أبا ذرٍّ الغِفاري، جندب بن جنادة، فتعجبوا أن يكون من المتخلفين، وهو من عُرف بحبه لرسول الله ﷺ وحبِّ الرسول له.

وكان بعيرُ أبي ذرٍّ قد تعب ولم يعد قادراً على أن يلحقَ بالركب. فلما رآه أبو ذر على هذه الحالة تركه، وأخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثم انطلق يتبع أثر الجيش ماشياً. وكان رسول الله قد نزل في بعض منازله، فنظر رجل من المسلمين، وقال: يا رسول الله، أرى رجلًا يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله: «كن أبا ذرّ». فلما قرب، وعرفه الناسُ، قالوا: «يا رسول الله، هو والله أبو ذر». فقال رسول الله: «يَرحَمُ الله أبا ذرٍّ، يَمشي وحدَه، ويَموتُ وحدَه،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦٣.

ويُبعثُ وحدَه»[1]. وتنقضي السنون، فتأتي مصدِّقةً لإلهام رسول الله ﷺ.

هذه صورة حيَّةٌ عن بعض أولئك المؤمنين أمثال: أبي خيثمة، وأبي ذرّ، الذين نذروا أنفسهم للدعوة، مهما كانت الصعاب، وكيفما كان المصير.

ونزل جيشُ المسلمين تبوك، حيث أقاموا معسكَرَهم دون أن يظهر أثر لعدوهم.. ذلك أن الروم كان قد بلغهم أمر مسيرة «محمد» إليهم، وما هو عليه جيشه من كثرة العدد، والمناعة والقوة. وكأنَّما غلبت على أذهانهم مشاهد «مؤتة»، وما رأوا من استبسال المسلمين، وقدرتهم على الصمود، فأدركوا أنه لا قِبَلَ لهم بمواجهة هذا الجيش الذي يزحف من بلاد الصحراء نحوهم، لأنه سوف يكون بنفسِ الروحيةِ والمناقبيةِ التي رأوا جيشَ مؤتة عليها. فكيف إذا كان يفوقه عدداً وعدة وبقيادة «محمد» نفسه؟! ولذلك آثر الروم الانسحاب إلى داخل بلاد الشام، حيث استقرَّ هرقل وجيشه في حمص، ليقيموا المعاقل والدفاعات دون الذهاب إلى حرب المسلمين وقتالهم في

---

(١) فقد روى عبد اللّه بن مسعود، قال: «لما نفى عثمانُ أبا ذر إلى الرَّبَذَة ـ قرية على بعد ثلاثة أيام من المدينة ـ وأصابه بها قدره لم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفِّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه. فلما مات فَعَلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق. وأقبلتُ ـ يقول ابن مسعود ـ في رهط من أهلِ العراق، فلم يَرُعنا إلَّا المفاجأة بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها. وقام إلينا غلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهللت أبكي وأقول: صدق رسول الله ﷺ، حين قال عنك يا أبا ذر: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعَثُ وحدك. ثم نزلت أنا وأصحابي فواريناه».

الفلاة، أو على الرمال الحارة التي قد تشكّل عقبةً لهم، بينما قد تكون عوناً للمسلمين الذين اعتادوا بيئة الحرِّ والرمال..

ويبدو أنَّ خِطّةَ هرقل كانت تقوم على عدم التقدم إلى تبوك، حيث نزل المسلمون، من أجل استدراجهم إلى داخل بلاده، ولذلك نشر جيوشه في عدة مواقع تمكّن من الانقضاض عليهم إذا ما حاولوا التوغل في أرض بلاد الشام.. هذا في حين أن خِطَّةَ الرسول ﷺ كانت تقوم على المكوث في تبوك، دون تعدِّيها إلى أماكنَ أبعد منها، مكتفياً بما أنعم الله تعالى عليه، وعلى المسلمين من انتصارٍ معنويٍّ على بيزنطية التي فرَّت جيوشها من المواجهة، للاحتماء وراء دفاعاتٍ تدلُّ على ما وقع في قلوب حكامها وجيوشها من رعبٍ!. فكان ذلك فضلًا من الله (تبارك وتعالى)، يزيدُ من نعمائه التي أفاضها على عباده المخلصين، وهم يقودون مسيرة الإسلام، ويحققون النصرَ تلو النصر ـ الذي أعزَّهم به رب العالمين ـ للقضاء على الوثنية.

واكتفى رسول الله ﷺ بالنزول في حصن تبوك، إذ لم يرَ مبرراً لتتبّع الروم إلى بلادهم مع تعب جيشه ووصبه، طالما أنه قهرهم بالرعب والخوف، قبل أن يقهرهم بالقتال والحرب، وطالما أنه أدخل في روعهم أن بلادَ الإسلام لن تكون لهم لقمة سائغة كما يتوهمون، بل هي حصينة بإيمان أبنائها، منيعة بقوة دينها، عزيزة بسلطان دولتها.

وأقام رسول الله عند الحدود، يفكِّر في السبل التي تضمن عدم تخطِّيها من الأعداء إلى الداخل، فبعث بالرسائل إلى أمراء القبائل، والمقاطعات المجاورة، وكلها تدين لحكم الروم، أمثال أهل الجرباء،

وأهل أذرح، ويوحنّا بن رؤبة، صاحب أيْلة[1]، وفيها يدعوهم إلى الإيمان والإذعان لسلطته، فقبلوا أن يقدموا له الطاعة، ويصالحوه على الجزية، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتبَ أمانٍ، كما يستدل على ذلك من نصّ كتابه إلى يوحنّا بن رؤبة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«هذه أمَنَةٌ من الله ومحمدٍ النبي رسول الله ليوحنّا بن رؤبة وأهل أيْلة، سفنِهم وسيّارتِهم في البر والبحر: لهم ذمة الله، وذمة محمدٍ النبيِّ، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر. فمن أحدث منهم حَدَثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيِّبٌ لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحلّ أن يُمنَعوا ماءً يردونه، ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر»[2].

وكان رسول الله أثناء إقامته يتحسَّب لأُكَيْدر بن عبد الملك الكنديّ النصراني، أمير دومة الجندل[3] ومعاونته لجيوش الروم، إن جاءت من ناحيته. ولذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس..

وخرج خالد على رأس هذه السَّريَّة، وأسرع بالانقضاض على دومة الجندل، في غفلة من مليكها، الذي خرج في ليلة مقمرة مع خَدَمِه، ومعه أخ له يسمى حسّان لاصطياد بقر الوحش، فلاقتهما خيل

(١) قيل إنها سميت أيلة نسبة إلى أيلة بنت مدين من أبناء إبراهيم.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٦٩.

(٣) دومة الجندل: كانت قرية عامرة ولكنها خربت مع الزمن، ثم أعاد أكيدر بناءها وجعل من حولها سوراً يحميها، وجعل في داخلها حصناً منيعاً. وكان أكثر سكانها من قبيلة كلب.

رسول الله، وأخذتهم أَسرى دونَ أية مقاومة، إلَّا ما بدر من حسان، فإنّ مقاومته أدَّت إلى قتله..

وفتحت دومة الجندل أبوابها حفاظاً على حياة ملكها، فدخلها خالد، وساق منها ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرّ وأربعمائة درع. وحمل معه أكيدر ليلحق برسول الله في المدينة، بعد عودته من تبوك التي أقام فيها نحو عشرين ليلة.

ومَثَلَ أكيدرُ الكندي بين يَدَيْ رسول الله، فعاقده على الطاعة، وتقديم الجزية، ثم خلّى سبيله، فرجع إلى قريته[1].

وكان أكيدر، عندما قدمَ إلى المدينة يلبس ثوباً من ديباج، مزركشاً بالذهب. وقد لفت هذا الثوب أنظار بعض الصحابة لشدة ما كان يتميّز به من دقة الصنع، وندرة الحبكة والتطريز، فراحوا يتلمسونه بأيديهم، فنهاهم رسولُ الله عن ذلك، لأنه في الحقيقة، لا يعدو عَرضاً من أعراض الدنيا الزائلة، التي قد تطغى على كيان الإِنسان، فتنحرف به عن ميزاته الإِنسانية، وتفرغه من جوهر خلقه.

نعم، لقد أبى رسول الله على الصحابة حتى الإِعجابَ بثوبٍ موشَّى بالذهب، لئلا تستبدّ بهم الرغائب والأهواء الدنيوية وهي متاعٌ قليلٌ إلى زوال.. في حين أن النعيم الأخروي أبدي لا يزول، وجنة الخلد لا تفنى، فجاءهم النهيُ بقوله ﷺ: «أتعجبون من هذا! فوالذي نفسي بيده، لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسنُ من هذا»[2].

ومما يجدر ذكره في هذا المقام بعض الأحداث الهامة التي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٧٠.
(٢) المصدر نفسه.

رافقت مسيرة العودة من تبوك، والتي تشكِّل آياتٍ من الله سبحانه وتعالى على يديْ نبيه الكريم حتى تبقى عظات في التاريخ الإسلامي، تدلُّ على سموّ النبوّة، وكرامات النبي. فما إن بلغ الجيشُ وادياً يقال له المشقق، وكان العطش قد أخذ منه كل مأخذ، حتى أسرع بعض أفراده إلى ماء هناك يخرج من وَشَلٍ[1] ولا يكاد يكفي لِيَبُلَّ الناس ريقهم، ولذلك أمر رسول الله ألَّا يسبق أحدٌ إلى الماء فيستقيه، قبل أن يأتوه. ولكن يبدو أن ذلك النَّفر من المنافقين، تعمّدوا استباق الجيش إلى الماء الذي تجمع في جُرْنٍ[2] تحت الوشل فشربوه، ولم يبق منه إلَّا القليل. فأسف الرسول الكريم لهذا الفعل الذي يخالف روح الجماعة وتعاونها، إذْ كان الجيش كله بحاجة للماء، والواجب يقضي بأن يبلَّ كلُّ واحدٍ ريقه ولو بغرفة من يده، لا أن يرتويَ عدد قليل، ويُتركَ الباقون عطشى، مما يدلُّ على شدّة الأثرة في نفوس أولئك المنافقين، وتنكّرهم لروح الجماعة، وبُعدهم عن أي مفهوم لتقديم المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية، فحق أن ينالوا غضب رسول الله ودعوته عليهم.

ونزل الرسول عن راحلته، يضع يديه المباركتين تحت الوشل ثم ينضحه بمائه، ويمسحُ عليه، وهو يدعو الله تعالى بدعائه النبوي الذي تتفتَّقُ له الحجب وتحمله الملائكة الكرام إلى حيث ينبغي أن يُحمل، فإذا بالماء ينبجس من الحَجَر، بقوةٍ، فيشرب الناس ويرتوون، ثم يحملون حاجتهم منه ويرتحلون..

---

(١) الوَشل: الحجر الذي يتقطّر منه الماء قليلًا قليلًا، وينطبق على أيِّ مكانٍ يرشح منه الماء.

(٢) الجرن: أخدود صغير في رأس الصخرة محفور بفعل عوامل الطبيعة، يتجمَّعُ فيه الماء من مطرٍ أو وشلٍ فيقصده الرعيان والمارة ويشربون منه.

ومن تلك الأحداث أيضاً التي رافقت النبيَّ ﷺ في طريق عودته من غزوة تبوك، ما رواه عبد اللّه بن مسعود، عن موت أحد المؤمنين الصادقين. قال: «قمت من جوف الليل، فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية المعسكر، فاتَّبعتها أنظر إليها، فإذا عبد الله ذو البِجَادين[1] المزنيّ قد مات. وقد حملَهُ رسول الله وأبو بكر وعمر، فحفروا له، ثم نزل رسول الله ﷺ في حفرته وهو يقول: «أدْنِيا إليَّ أخاكما»، فدلّياه إليه، فلمّا هيأه لشقِّه، قال: اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارضَ عنه». فيقول عبد اللّه بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحُفْرة»[2]. فيا لصحابةِ خاتم أنبياء الله (صلوات الله عليه وآله وسلم) الذين يبدون في كل مناسبة أحبّاءَ، مطيعين لله ورسوله، حتى أنهم يتمنَّوْنَ الموت بين يديه ﷺ ونيل رضاه!!

هدم مسجد الضرار

وتابع رسول الله العودة بجيشه إلى المدينة حتى نزل بـ «ذي أوان» وهو بلد على مسافة ساعة من المدينة، وكان جماعة من المنافقين بنوا فيه بنياناً اتخذوه في الظاهر مسجداً، بينما جعلوه في الخفاء وكراً للتآمر على المسلمين، يجتمعون فيه ويحاولون أن يحرِّفوا

---

(١) البجاد: الكساء الغليظ الجافي. وقد لقب عبد اللّه المزني بذي البجادين لأنه كان ينزع إلى الإسلام فيمنعه قومه ويضيّقون عليه حتى تركوه في بجادٍ واحد ليس له غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما صار قريباً منه شق بجاده اثنين، فائتزر بواحد واشتمل بالآخر فقيل له ذو البجادين.. وقيل إنه كان في حجر عمّه، يكفله ويحسن إليه، فلما بلغه أنه أسلم، هدَّده قائلًا: لئن فعلت لأنزعنَّ عنك جميع ما أعطيتك. قال: فإني مسلم. فنزع كل شيء أعطاه حتى جرَّده من ثوبه، فأتى أمَّهُ، فقطعت بجاداً لها باثنين، فائتزر نصفاً وارتدى نصفاً، ولَزِم باب رسول الله ﷺ، وكان يرفع صوته بالقرآن والذكر.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٧١.

كلام الله ـ تعالى ـ عن موضعه، حتى أنّ بعضهم كان يقول لبعض: «ابنوا مسجدكم، وأعدُّوا ما استطعتم من قوةٍ ومن سلاحٍ، فإنَّا ذاهبون إلى قيصر، لنأتيَ بجنده من الروم ونخرجَ «محمداً» وأصحابه».

وكانت تلك الجماعة قد عقدت العزم على تنفيذ مؤامرة كبيرة تهدف إلى احتلال المدينة. وكان اعتمادها فيما تبيَّتُ من الغدر، على الظنّ بأنَّ المسلمين سوف ينهزمون لا محالة، لأنَّ لقاءَهم للروم سوف يكون شديداً عليهم، وليس لهم قدرة على قتالهم، فتنزل بهم المصيبة، ويذهبون أشتاتاً ويفرُّون ضعافاً. فيكون أولئك المنافقون قد أمّنوا، أثناء ذلك، الاتصال بالروم، وقدموا بهم إلى المدينة لاحتلالها!..

وقد جاءت الأحداث تكذّب أوهامَ تلك الجماعة، وتذهب بأباطيلها ورجس شياطينها أدراج الرياح، عندما عرفت أن الروم، الذين عوّلت عليهم في القضاء على المسلمين، قد فروا من المواجهة، وآثروا الانسحاب إلى داخل دساكرهم وحصونهم.

أما التعمية التي رأت تلك الجماعة استخدامها حول بنيانها الذي ابتنته، فهي قدوم نفر فيها إلى النبيّ، في الوقت الذي كان يجهّز جيشه للخروج إلى تبوك، وهم يقولون: «يا رسول الله، إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية. وإنّا نحب أن تأتينا فتصلي فيه»!!.. وغاية هؤلاء المتآمرين من أهل النفاق أن تكون صلاة النبي في المكان الذي زعموه مسجداً، نوعاً من التمويه على المسلمين بشرعيته!. ولكنه ﷺ طلب منهم التريث لحين عودته، مبدياً أنه على جناح سفر، وحال شغل، ولو رجع، فسوف يقوم بما يشاء الله تعالى

له ويريد. فلمّا كان نزوله بـ«ذي أوان»، أتاه الوحي بأمر المسجد وبنائه ضراراً، وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين. عندها دعا إليه مالك بن الدُّخْشُم ـ أخا بني سالم بن عوف ـ ومَعْنَ بن عَدِيّ ـ أخا بني العجلان ـ وأمرهما بأن ينطلقا إلى ذلك «المسجِدِ»، الظالِمِ أهلُهُ، فيحرّقانه عليهم ويهدّمانه..

ولقد سُمِّيَ هذا المسجد، الذي أُسس بنيانه على الكفر والضرر، مسجدَ الضِّرار، وفيه وفي الجماعة التي ابتنته نزل قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وعادَ رسول الله ﷺ بعد هدم «مسجد الضرار» إلى مدينته المنورة، فخرج الناس إلى ثنيّة الوداع يتلقَّوْنَهُ بالتهليل والتكبير، فرحين بما آتاهم الله تعالى من فضله، وبما أحاطهم به من نِعَمِه، إذ أعادَ إليهم الرسولَ العظيم، والجيشَ الإسلاميَّ المظفر، تحفُّ به رايات النصر خفّاقة، وتحيط به ألوية العزّ عالية، من أعسر مسيرة، وأشق سفر، وأعظم غزوة شهدتها الجزيرة حتى ذلك الحين.

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٠٧ ـ ١١٠.

القرآن يكشف السلوك البشري

واستراح نبيُّ الله ﷺ في ظلال هذا الفيء من ربه تبارك وتعالى، ليستقبل الوحي، يأتيه بآيات منزلات، تبيِّن أحوال الناس في المجتمع الإسلامي، وما تنطوي عليه سرائرهم، سواء بالنسبة إلى بعض القضايا السابقة على غزوة تبوك، أم أثناء تلك الغزوة أو بعدها.

فقبل فتح مكة كان النفاق قد شارف على الزوال من المجتمع الإسلامي، إلَّا أنه بعد هذا الفتح، وبدخول جماعات كثيرة في الإسلام، عادَ النفاق معها يستشري، وحاول أهلوه العملَ على هدم البنيان المتين، الذي أقيم مدعَّماً بالصدق والإيمان. فجاءت الآيات القرآنية تفضح أفاعيل المنافقين، وتصوّر أحوالهم النفسية والسلوكية، في حملة طويلة تكشف عمّا كان لهم في تلك الفترة من محاولات كثيرة لإيذاء الصف المسلم وفتنته، وتحويله بشتى الدسائس والأكاذيب عن وجهته. كما أنها في الوقت ذاته تكشف عن حالة الخلخلة وعدم التناسق في التكوين العضوي الذي آل إليه ذلك المجتمع بعد دخول الجماعات المنافقة بين صفوف أبنائه، وهي على ما هي عليه من النشوز عن جادة الحق، الذي يبقيها بعيدةً عن الطابع الإسلامي الصحيح.

وهكذا يبدو من سياق آيات سورة التوبة، ولا سيما من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة، أنّ في المجتمع الإسلامي فئاتٍ متعددة:

فئة السابقين المخلصين، من المهاجرين والأنصار، وهم الذين يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية. وهؤلاء قد عاهدوا الله

ورسوله على الحق، ونذروا أنفسهم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، فنزلت الآيات تبين فضائلهم، وبخاصة في تلبية دعوة رسول الله ﷺ، والخروج معه في جيش العسرة، مهما كانت المصاعب والمشاق التي تعترضهم، وأياً كانت المسافات أو المخاطر التي تنتظرهم. إنهم لا يتقاعسون عن أداء الواجب، ولا يبخلون بأيِّ عمل أو جهد، طالما أنه يخدم الغاية الكبرى التي هي رضوان الله تعالى، والهدف الأسمى الذي هو إعلاء كلمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وجعلها هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

وإلى جانب أولئك الأولين الصادقين، كانت على خلافهم، الجماعاتُ الأخرى من المنافقين والأعراب الذين أسلموا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم. فمن هذه الجماعات كان أهل النفاق في المدينة، وآخرون خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً، لأنهم لم ينصهروا في بوتقة الإسلام انصهاراً تامّاً. وهنالك طائفة مجهولة الحال، كانت تخفي حقيقتها، وإن كان أمرها لا يخفى على الله سبحانه وتعالى. يُضاف إليهم جميعاً المتآمرون على الدين، المتسترون باسمه.

في هذه الفئات نزلت آيات «سورة التوبة» تفضح فعالهم المنكرة، ثم تحمل عليهم حملة شعواء مليئة بالوعيد والتهديد بسوءِ ما ينتظرهم من عقاب شديد، في نار جهنم، جزاءً لما كانوا يعملون.

ومن خلال عرض السياق القرآنيّ لأحوال المنافقين ـ مما نشهده في حياة الناسِ في كل زمان ومكان ـ يبدو جليّاً أن النفاق لا يولد مع الإنسان بل يكتسبه في حياته. وقد تدفعه إليه عوامله النفسية، وتشدُّهُ ـ حتماً ـ إليه أعمالُهُ الدنيوية!..

فالإنسان، وبوصفه فرداً وسط جماعة، عليه الالتزام بواجبات معينة تكون ـ عادة ـ في مصلحة الجماعة. فإذا انفلت من أداء هذا الالتزام، أو أهمل القيام به، أَو امتنع عن تنفيذ ما يُطلب إليه بحق وعدل، فحينها يكون النفاق قد دخل إلى قلبه، ومع الزمن يصبح طبيعةً ثانية متأصلةً فيه، تتحكّم بتصرفاته، وتسيّر خطاه.. ذلك أن من يخالف التزاماته الخاصة والعامة، لا بد أن يختلق الأعذار الكاذبة لذلك، فيغدو كاذباً. ثم يتمادى في الكذب، فلا يعود يَصْدُقُ في قول ولا في فعل، حتى يغدو خائناً لنفسه ولمحيطه. ومع الأيام يستمرئ ما قام به، فتحلو له أكاذيبه، ويستسيغ طعم خيانته، حتى يصير منافقاً، يمارس أي أسلوب من أساليب المراوغة والاحتيال، ويسلك أي طريق من طرق الالتواء والتلاعب. وهكذا يكون النفاق مرضاً، أو علّةً يكتسبها الإنسان من جراء أقواله وأفعاله. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «صفات المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا أؤتمن خان»(١).

فحذار أيها الناس، وحذار أيها الإنسان المسلم من النفاق. فَمَثَلُ الذين مردوا على النفاق، كمثلِ أبليس مرَدَ على مخالفة أوامر الله (تعالى) حتى أعقبه الله حرمانَ التوبة، بأنْ سُلِبَ منه التفكيرُ بها، أو السؤالُ عنها.. فهو على الضلال قائم، وعلى البغي والفساد دائم، إلى أن يكونَ يومُ الدّين.

وهل يقبل الإنسان أن يكون مثل إبليس في عائلته، أو في مجتمعه، أو في إنسانيته؟!.

---

(١) البخاري، باب الإيمان، ص٣٤.

لا، فالإنسان العاقل لا يريد ذلك لنفسه ولا لمجتمعه الذي ينتمي إليه، ولا للإنسانية التي هو أحد أفرادها!..

ولذلك فإن البعدَ عن النفاق هو طريق السلامة: سلامة النفس، وسلامة السلوك، وسلامة المصير. وما عَقَلَ إنسانٌ في هذه الحياة إلَّا وعَرفَ قدره فوقف عنده في كل ما ينوي عليه ويفعله. فإن رامَ مثلًا المال، فليسْعَ إليه ـ وشرطه الكسب الحلال ـ ولكن إن أُعطيه، فعليه أن يؤديَ حقوقه كاملة بالصدقة، وبالإنفاق الحق، والاستثمار الشريف.. وإنْ رامَ نفوذاً، فليعملْ له، ولكن إن بلغَهُ عليه أن يضع العَدْل نصب عينيه، فلا أذية، ولا استغلال، ولا ظلم... وهكذا في شتى شؤون الحياة وأمورها.. وأمّا من ليست لديه الثقة بأنه قادر على أن يؤدِّي الأَمرَ، وقد وصَلَ إليه بحقّهِ، فعليه أن يبقى ـ في الأصل ـ في نطاق الاستطاعة التي يقدر عليها، وذلك كله مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «قليل تؤدّيه خير من كثير لا تطيقه»[1]. وقوله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم: «ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى»[2].

ومِثْلُ المنافقين، أولئك الذين كانوا يتهافتون على متاع الحياة الدنيا، فلم يعبأوا بهتاف الجهاد عندما كانت دعوةُ رسول الله ﷺ صارخة بالخروج إلى تبوك، حينها تثاقلوا عن التلبية رغبةً في الحياة الدنيا وإعراضاً عن الآخرة. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ

(١) ابن ماجة، باب الزهد، ص٢٨.

(٢) كشف الخفاء، ج٢ ص ٩٢: رواه أبو يعلى عن أبي سعيد عن النبي ﷺ.

أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وبعد المتثاقلين، يأتي طلابُ المقاصد السهلةِ والمنافعِ العاجلة. فهؤلاء ينشطون، ويبدون متحمسين إذ دُعوا إلى سفر قصير الأمد، مأمون العاقبة. أما إذا بعدت عليهم الشُّقة، فإن عزائمهم تخور، وهممهم تضعف، فيستنكفون عن الخروج، مُبدين من النفاق أشدّه، ومن الكذب أشَرَّهُ، حتى أنهم لا يتورعون عن الحلف بالله إنهم لا يستطيعون هذا الخروج، والله سبحانه وتعالى يعلم إنهم لكاذبون، كما يصفهم في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

وهنالك صنفٌ آخرُ ممّن يدّعون إسلاماً، ويحلفون بالأيمان المعظّمة إنهم لمن المسلمين، وما هم منهم، لأنهم قومٌ ملئت قلوبهم بالخوف والجبن، والخمول والشُّحّ.. فهم يشفقون من القتال، ويرغبون عن المشقة، وينفرون من المسؤولية، ويخشون من الإنفاق، ويؤثرون دَعَةَ السلامة مع الذل والهوان، على خطر الجهاد مع العزة والكرامة. هؤلاء يصف القرآن الكريم حالهم بهزء وسخرية، وهم يحاولون البحث عن مخابئَ يلجأون إليها بعد أن يطلبوا الإذن بالقعود. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٨ و٣٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٢.

هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[2].

ولكن، على خلاف كل تلك الفئات، فإنَّ آخرين من المسلمين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقد عادوا فأحسّوا بوطأة الخطأ، واعترفوا بذنوبهم، ورجوا التوبة. فكان منهم التخلف وهو العمل السيِّىء، وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح. وفي هؤلاء نزل قول الله تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

أجل لقد منَّ الله سبحانه وتعالى بالتوبة على هذه الجماعة لما عَلِمَ من حسن نواياهم، وصدق سرائرهم، فأمر رسوله ﷺ أن يأخذ

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥٦ و٥٧.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٨٦ و٨٧.

(٣) سورة التوبة، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٥.

بعض أموالهم يتصدق بها عنهم، وأن يستغفر لهم. ذلك أنَّ أخذ الصدقة منهم يرد إليهم اعتبارهم، لناحية عضويتهم الكاملة في الجماعة المسلمة، ومشاركتهم في واجباتها والنهوض بأعبائها، وأنهم لم يُنبَذوا منها أو يُبعَدوا عنها. كما أنَّ في أخذ الصدقات منهم تطهيراً لأنفسهم وتزكيةً لقلوبهم، وراحةً لأبدانهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾، وهذا مع دعاء رسول الله ﷺ لهم، الذي فيه الطمأنينة والسكن، والأمن والأمان..

وإنَّ الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك ولم يختلقوا الأعذار، كانوا ثلاثةً وهم: هلال بن أمية الواقفيّ، ومرارة بن الربيع العَمْرِيّ، وكعب بن مالك، فقد أتَوا رسولَ الله بعد عوده، لا يبدونَ أيَّ عذر قد يشفع لتخلُّفهم،، بل يَصدُقونه القول بأن تخلّفهم كان خطأ كبيراً، وأنهم نادمون على ذلك أشدَّ الندم.. فلم ينظر في أمرهم، بل أرجأ ذلك إلى أن يقضي الله ما يشاءُ، وهو أحكم الحاكمين..

أما الحالة التي انتهى إليها هؤلاء الثلاثة بسبب التخلّف، فإنها تُظهر الصورةَ الصادقة عن النفس الحساسة المؤمنة، حين تصل إلى أقصى حالات الضيق والحيرة، ثم يأتيها الفرج عندما تحظى بالنجاة، وتفوز بالتوبة والمغفرة. ومثل تلك الحالات، وإن كانت فردية، إلَّا أنَّ من شأنها أن تظهر المجتمع الإسلامي وهو يرتقي صُعُداً في سُلَّم الوعي، وسموٍّ الإدراك، وشدّة الإحساس الصادق بذنب المذنب، وتوبة التائب.

فهؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، كانوا صادقين مع أنفسهم، ومع رسول الله ﷺ، ولشدة ندمهم فقد أحسّوا أن أنفسهم لم تعد منهم، لما خالطها من الغمِّ والهمِّ. وأن الأرض بما

رحبت قد ضاقت عليهم، فلم تعد تطيقهم لشدة استيحاشهم عن الناس.. أجل! لقد ندموا على ما فعلوا، وطلبوا التوبة خالصةً لوجه الله تبارك وتعالى. ونزل فيهم قرآن كريم بقوله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

وأما معنى توبته تعالى عن النبي فهو عدم مؤاخذته عندما أذن للبعض من المؤمنين في التخلف عن غزوة تبوك، إذ إنه من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب العقاب. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التوبة على النبيّ إنَّما هي تشريف للمهاجرين والأنصار في ضم توبتهم إلى توبة النبي ﷺ لاعتقادهم بأنهم لم يقترفوا ذنباً في غزوهم، فكان هذا التشريف لهم، وإنَّ ربَّهم بهم رؤوف رحيم.. وإنَّ معالجة القرآن الكريم لحالات الناس النفسية، وأحوالهم الحياتية، كانت تتنزَّل باستمرار بما تحمل من الآيات البينات، ولكنها ـ بمناسبة غزوة تبوك ـ كانت أوسعَ مدى، وأعمقَ أثراً وهي تبرز صدق النوايا، كما تظهر خفايا النفاق. وتلك القواعد القرآنية هي قواعد أساسيّة تطبّق في كل ظرفٍ ومناسبةٍ يكون فيها دعوة للجهاد في سبيل الله تعالى.. فالذين فرحوا بتخلفهم، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وراحوا

(١) سورة التوبة، الآيات: ١١٧ ـ ١١٩.

يدْعُون إلى عدم الخروج خوفاً من الحرِّ، بيّن الله تعالى أن فرحهم وضحكهم هو آنيٌّ ومؤقت، وأنّ بكاءهم سوف يكون أبدياً في نار جهنم. . على أن الذين يتخلفون عن الركب في أول مرة، لا يصلحون لكفاح، ولا يُرْجَون لجهاد، فلا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضي، ولا يجوز أن يتاح لهم شرف الجهاد الذي تخلوا عنه راضين. فإن أظهروا استعداداً لمقاتلة العدو، فإنهم ممنوعون من ذلك، لأنهم غير مؤهلين له، طالما ارتضَوا بالقعود والتخلف أول مرة.

نعم هنالك قواعدُ أساسية قد أوحى بها الله تعالى لنبيّه الكريم. وهي من ركائز الطريق للدعوة الإسلامية، ورجالها ـ أبداً ـ الذين عليهم معرفتها، والعمل بها كي يكون طريقهم صحيحاً وسوياً، وذلك والحمد للّه ميسور طالما أن كتاب الله ـ تعالى ـ باقٍ في ديمومته، وفيه قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1].

وإنَّ في بيان آياتِ الله (تعالى) لأحوال أهل النفاق، وفضح فعالهم الشنيعة، لَحفاظاً على وحدة الصف، وسلامة الجماعة،

(١) سورة التوبة، الآيات: ٨١ ـ ٨٥.

ووجوب تطهير المجتمع من هؤلاء المنافقين، لأنَّ وجودهم عاملُ ضعف وخلخلة، وسبيلٌ للذهاب بأسباب القوة والمنعة. إذ لو كانوا يريدون الخير العام، لكانوا مثل المؤمنين على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الواجب حينما يدعوهم.. والخير في بقائهم بعيدين عن كل أمر جلل، حتى لا يثيروا الفتنة، ولا سيما وقت القتال، وبثّ روح التخاذل في صفوف الذين يقاتلون في سبيل الله!.. وفي كتاب الله التأكيد على ظلم الباغين، الذين يبتغون الفتنة، ويقعون بها.. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٤٦ ـ ٥٠.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٩٥ ـ ٩٦.

وهكذا كانت غزوةُ تبوك مباركة في نتائجها المادية والمعنوية، ولاسيما في ما أُنزِلُ فيها من آياتٍ مبيِّنةٍ لأولئك الأصناف من الناس، والنماذج من المنافقين، الذين كانوا يمعنون في النفاق، ويمارسون أحابيله بطرائق وصور شتى. . وإذا كان رسول الله ﷺ قد اشتدَّ على المنافقين بعد غزوة تبوك، فخافوا وانزوَوْا، ولم تقم لهم بعدُ في حياته الشريفة قائمة، فإن أمةَ الإسلام مدعوَّة اليوم للسير على هدى رسول الله ﷺ حتى تنهضَ بالأمانة المقدسة التي فرضها الله تعالى على عاتقها. وإنَّ أول ما يجب عليها في هذا السبيل أن تحمل على المنافقين حملةً شعواء، علّها تزيحهم عن المواقع التي يتترّسون بها، وتطهِّر صفوف أبنائها من غواياتهم وضلالاتهم. .

على أنه، وبغزوة تبوك، التي كانت في شهر رجب سنة تسع للهجرة، انتهت الغزوات النبوية، التي بلغ عددها تسعاً وعشرين غزوة، والبعوث والسرايا التي بلغ عددها سبعاً وأربعين ولم يكن فيها قتال. وقد أريق في جميع تلك الغزوات والسرايا أقلُّ دم عُرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم يتجاوز عدد القتلى فيها جميعها الثلاثة آلاف قتيل من المسلمين ومن أعدائهم[1].

والحق أن تلك الآثار التي يحفظها التاريخ للمسلمين، تدلُّ على

(١) وفقاً لدائرة المعارف البريطانية، بلغ عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨م) حوالى ستة ملايين وأربعماية ألف نفس، بينما تراوح عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) بين ٣٥ مليوناً و٦٠ مليوناً. وتورد بعض المصادر أن ضحايا محاكم التفتيش في أوروبا خلال القرون الوسطى وضحايا الاضطهاد الكنسي للمسلمين ولغيرهم من الأمم والشعوب قد زاد عددها على ١٢ مليون نفس. فتأمل البون الشاسع بين حروب المسلمين وحروب غيرهم.

أنَّ حروبَ النبيِّ محمد ﷺ كانت مؤسسةً على الحُكْمَين القرآنيَّيْن الحكيمين: «والفتنة أشد من القتل» و«لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب». وكانت خاضعة ـ كما أسلفنا ـ لقواعد خُلُقية وتعليمات سلوكية لم تعرفها حروبُ البشر من قبلُ ومن بعد.

وتبرز تلك الآثـار بصـورةٍ أدقَّ في نجـاح تلك الحروب وسرعتها. وهما من العوامل الرئيسية التي جعلت خسارة المسلمين فيها طوال عشر سنوات لا تتعدى خمسة أشخاص في الشهر الواحد، بينما أقصى خسائر العدو لا يزيد على ١٥ شخصاً. ولما اكتملت السنوات العشر من الهجرة كان أكثرُ من مليون ميل مربع قد خضع للحكم الإسلامي.

وإنَّ خير دليلٍ على السلوكية الرفيعة، في تلك الحروب الإسلامية، الوصيَّة التي كان الرسول الأعظم يلقيها دائماً على مسامع جيشه كلما همَّ بالخروج للقتال إذ يقول لهم: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله. ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً ولا تهدموا بناءً»[1]. . فكان من الطبيعي ألّا ينجم عن تلك الحروب إلا القليل من القتلى والجرحى، في حين كان يُبنى عليها الكثير من روابط التقارب والتسامح وعلاقات السلام والتعاون. . ولِمَ لا، والحروب التي خاضها المسلمون ما كانت إلا لخير الإنسانية، وليست للاستعلاء، أو لاستغلال الشعوب وابتزازها، أو لاضطهادها والتحكم بمصائرها. . كما لم يكن وراء تلك الحروب ـ من جانب

(١) كنز العمال، ج٤ رقم ١٠٩٠٦.

المسلمين ـ دوافع الثأر والانتقام، أو أسباب الأحقاد الجاهلية. بل كان دافعَها الوحيد نشرُ الإسلام وإعلاءُ كلمة الله تعالى، ودحر الشرك والوثنية، والتصدّي للفساد والظلم ـ بجميع أشكالهما ـ في دنيا البشر، وإقرارُ الخير والحق بكل مراميهما في عالم الإنسانية.

البحث الثاني



كانت غزوة تبوك ـ بأحداثها التي تبدو لأول وهلة أحداثاً عادية بسيطة ـ غزوةً من جملة الغزوات التي أثبت فيها المسلمون وجودهم تجاه أعتى الأمبراطوريات يومئذٍ. . ولكنَّ النتائج التي أتتْ بها، أبَتْ أن تُصَنِّفَها في هذه العاديَّة والبساطة من الأمور أو الأحداث، بل قدَّرتها على أنّها فترةٌ زمنيةٌ من أهم فترات الدعوة الإسلامية عطاءاتٍ واجتناء ثمراتٍ طيبة. ففي هذه الغزوة لم يجرِ قتالٌ بين المسلمين والروم. إلَّا أنه بدا واضحاً للعيان، وجليّاً في الأذهان، وبصورة خاصة لقبائل العرب، الواقعة على أطراف شبه الجزيرة، أن أولئك الروم الذين تدين لهم بالولاء، وتستمدّ منهم القوة والنفوذ، قد ظهروا ضعافاً أمام المسلمين، بانسحابهم من مواقع المواجهة، تفادياً لخوض حرب معهم. فلماذا لا تفكر هذه القبائل إذن في أن تُعيد النظر بهذه التبعية للأجنبي الرومي، والدلائل كلها تشير إلى اضمحلال سلطانه، والتوقعات تدلُّ على زوال حكمه ـ على الأقل في ما خصَّها هي ـ وتأثيره المباشر عليها؟!.

مثل هذا الإطار الفكريّ الجديد، الذي أخذ يطغى على ذهنية تلك القبائل، لم يكن ليوجَدَ لولا غزوة تبوك. وقد جاءت العهود التي

أعطاها النبيُّ لبعضِ الملوك والأمراء، الذين كانوا يدينون بالولاء للروم، تدعم هذا الإطار وتزيده متانة. هذا، فضلًا عما ألقاه الاتصال بين محمد ﷺ وأولئك الحكام من ظلالٍ روحيةٍ جديدة، تبعث على التلاقي ما بين الفكر النصرانيّ القائم في تلك المنطقة، وبين الفكر الإسلاميّ في شبه الجزيرة، الذي يبدو بملامح مستقيمة، لا اعوجاج فيها، لأنه يهدف في جملة ما يهدف، إلى التعامل مع الحياة الإنسانية وفق قواعد جديدة، وإلى معالجة قضايا الناس وشؤونهم بمفاهيمَ في غايةِ الرحابة والسموّ، وأحكامٍ في غايةِ العدل والحق. . .

هذا بالنسبة إلى قبائل العرب الواقعة على الناحية الشمالية من أطراف شبه الجزيرة.

أما في الداخل، فقد رأى الأعراب، ورأت مختلف القبائل والبطون، في البعيد والقريب، أنه لا شأْنَ بعد اليوم لتلك الكيانات الفردية التي كانت تقوم عليها حياتها. فتلك قريش، على الرغم من المكانة والسيادة اللتين كانت تتمتع بهما على جميع القبائل، قد أذعنت لسلطان الإسلام، وأضْحَت تدين له بالولاء. فهل من العجب إذن، أن أقبلت تلك القبائل على الإسلام تدخل فيه أرتالًا، وأنْ جاءَ الناسُ من كل فجٍّ عميق يدخلون في دين الله أفواجاً؟!.

أما على صعيد البنية الإسلامية، وحيث المجتمع الإسلاميّ قد قام على أُسس متينة، فقد كانت غزوة تبوك حدّاً فاصلًا، أفرز المسلمين إلى فئاتٍ برزت متباينة في أحوالها النفسية والاجتماعية والسلوكية. . فالأولون من المهاجرين والأنصار، لم يتغيّر في أحوالهم شيء. فهُمْ رجالات الدعوة الخلّص، يمنحونها عوامل القوة

والاستقرار، ويمدّونها بكل أسباب الانتشار والاستمرار. إنهم القاعدة الصلبة، والدعامة الراسخة للمجتمع الإسلاميّ، وفوقها يُشادُ البناءُ ويشمخ.

وإلى جانب هؤلاء المؤمنين الصادقين، كان المنافقون الذين تشعَّبت أهواؤهم، واختلفت نزعاتهم وميولهم. منهم الضعاف الجبناء، الذين لا يعطون للدعوة بقدر ما يريدون الأخذ منها.. ومنهم المتآمرون الدخلاء على هذه الدعوة، يدّعون الإسلام في الظاهر، ويعملون في الخفاء للقضاء عليه، وإجهاض مسيرته. ومنهم الحانقون على الرسول ﷺ بالذات لأنه جاء ـ كما ظل الوهم يتحكَّم بهم ـ يسلبهم ملكاً كانوا يسعون إليه، أو يقضي على آمال كانوا يحلمون بها..

وإلى هؤلاء وأولئك يضاف طلاب الدَّعة والراحة، الذين لا يأبهون كلما دعا الداعي للجهاد، ولا يتحملون أية مسؤولية في سبيل المصلحة العامة، بل يسيرون مع الرياح كيفما اتجهت. همُّهُمُ الوحيد تأمين المنافع والحفاظ على مصالحهم الشخصية، يسعون إلى تحقيقها من أي مصدر أتت، سواء أكان ذلك في ظلِّ حكم قبليٍّ جاهلي، أم في ظل الإسلام، أو حتى في ظل التبعية للأجنبي، أو تحت أي حكم أو كيان قد يقوم ويسود، أيّاً كان نوعه وشكله..

وقد يبدو هذا الفرز لفئات الناس في المجتمع الإسلاميّ، وكأنه مظهر من مظاهر ضعفه. إلَّا أنه في الحقيقة كان ضرورة حتمية لتصحيح الخلل في هذا المجتمع، وتخليصه من عوامل الضعف التي تكمن فيه، ومن أوكار التآمر التي قد تُحدث الاضطراب في بعض

جوانبه.. ومن هنا نزلت الآيات القرآنية المباركة تكشف المنافقين، وتحمل عليهم حملةً شديدة، حتى تُبعِدَ كل تأثيرٍ لهم في حياة الجماعة الإسلامية.

نعم، هذه بعض ثمرات غزوة تبوك، التي كانت خاتمة غزوات النبيِّ ﷺ. وبعدها تمَّت كلمة الله تعالى في شبه جزيرة العرب كلها، فأقبل الناسُ وفوداً على المدينة، يقدِّمون الولاء والطاعة لرسول الله ﷺ ويعلنون إسلامهم أمام الله ورسوله وصالح المؤمنين.

وهذه بعضٌ من تلك الوفود، التي وقع عليها اختيارنا، تدليلًا على المسيرة العظيمة التي قاد خطاها محمد رسولُ الله ﷺ بنجاح وفلاح رائعين.

نعم، لقد شاء الله تعالى أن يفتح أغلاق القلوب على الإسلام، فأقبلت قبائل العرب على المدينة المنوَّرة تدخل في دين الله ـ عز وجل ـ وتدين بالولاء لرسوله محمد ﷺ.

وفد أهل الطائف

وكان وفدُ الطائف أولَ الوافدين، إذْ قد لحقَ أحدُ سادةِ ثقيف، عروةُ بنُ مسعود، النبيَّ بعد رفع الحصار عن بلدهم، يحدّثه في شؤون بني قومه، ثم يعلن إسلامه، ويبدي حرصَهُ على أن تكون لديه القدرةُ لإقناعهم بالدخول في دين الله ـ تعالى ـ.. وكان رسول الله يعرف ما يكنّه أهل الطائف من عداوة للدعوة الإسلامية، فخاف أن تغلبَ عليهم نزعة جاهلية، وتجعلَهم يقدمون على عمل طائشٍ، فحذَّره قائلًا له: «إنهم قاتِلوك».. ولكنَّ عروة اعتزَّ بمكانته من قومه فقال:

«يا رسول الله، أنا أَحَبُّ إليهم من أبصارهم».

وعادَ عروة إلى ثقيف يدعوها للإِسلام، فلم تستجب له، بل ولم تُطِقْ صبراً على دعوته فغدروا به، ورموه بالنبال، فقيل له : ما ترى في دمك؟ وقبل أن يسلم الروحَ لبارئها، قال:

«كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقَها الله إليَّ، فليس فيَّ إلَّا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم من حصاره لبلدكم»[1]. . وكانت وصيته الأخيرة، أن يدفنوه مع أولئك الشهداء، فدفنوه معهم. ويروى أنَّ النبيَّ ﷺ قال فيه: «إنَّ مَثَلَهُ في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه: دعاهم إلى الله تعالى فقتلوه»[2].

ولم تكن مكابرة ثقيف في محلها، فهي قد رأت من نبيِّ الإسلام رأفةً وحلماً، فامتنع عن قطع شجرها، وترك محاصرتها على الرغم ممّا كان يتمتع به من قوة وعزة. . إذ لو أرادَ فتح بلدها عنوةً، لأكل جيشُهُ ثمار كرومها وخيرات أرضها، وأبقى الحصار عليها حتى تستسلم. . ولكنه لم يفعل، ووكلها إلى الفطرة والعقل. . وها هي ـ بعد مقتل عروة بن مسعود ـ تجد الخوف على مستقبلها يربكها بصورة فعلية، لأنَّها إن ظلت على عنادها فسوف تكون وحيدةً، في نأيها عن الإسلام، بينما يدخل جميع العرب في هذا الدين، كما تشير الدلائل كلها إلى ذلك. . كما أنَّ «محمداً» لن يقبل ببقائها على الشرك وهو قادرٌ على إعادة الكرَّة عليها لفتح بلدها، ولا أحدَ فيها يقدِّر النتائج التي قد تترتب على ذلك!.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٨٢.

(٢) تراجع الآيات من ٢٠ إلى ٢٧ من سورة يس في القرآن الكريم.

وبمثل هذا التفكير ندمت ثقيف على ما فعلته، بقتل أحد زعامتها، أشدَّ الندم، ورأت أنَّه لا طاقة لها على مقاومة الدولة الإسلامية. فذهب عمرو بن أمية، وكان من أدهى العرب، يتحدث إلى عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، فقال له: «إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هِجْرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت. قد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم»[1]. وبنتيجة التشاور حزمت ثقيف أمرها، وبعثت وفداً إلى «محمد» لمفاوضته على دخولهم في الإسلام. فانتدبوا عبد ياليل بن عمرو رئيساً للوفد ومعه رجلان من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك.

وخرج بهم عبد ياليل في شهر رمضان من سنة تسع هجرية. فلما دنَوا من المدينة التقَوا المغيرة بن شعبة، وهو في نوبته يرعى طروش الصحابة ـ إذ كان رعيُها بالتناوب ـ فلما أخبروه بمقصدهم، وافدين على رسول الله، وثَبَ ليبشِّر الرسول ﷺ بقدومهم عليه. وإنّه وإذ هو في طريقه يشتدُّ حتى يبلغ المدينة، لقيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فاستوقفه يسأله عما يُعَجِّل به على هذه الحال، فقال له: هؤلاء وفدٌ من ثقيف، بني قومي، قد قدموا يريدون البيعة والإسلام. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: «أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا الذي أحدّثه»[2]. وقَبِلَ المغيرةُ، فعادَ إلى وفد ثقيف، يحدّثهم، ويوجِّهُهُم إلى ما يليق أن يلقوا به رسولَ الله ﷺ ولا سيما مبادأتَهُ بتحية الإسلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».. ولكن

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٨٣.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٢٨٤.

يبدو أن أولئك الأشخاص لم يفقهوا معنى هذه التحية، فلما قدموا على رسول الله حَيَّوهُ بتحية الجاهلية، وكان ﷺ يُدرك غِلظتهم فلم يأْبَهْ لتصرّفهم الجاهلي، بل أَمَرَ أن يُنزلوهم في خيمةٍ من خيام الوافدين إليه، في ناحية المسجد. وأتاهم رسول الله يحدثهم عن الإسلام ويبيّن لهم أحكامه، ويدعوهم للإيمان بإلهٍ واحدٍ أحدٍ، هو الله الذي لا إلَهَ إلّا هو، وأن يعبدوه، ولا يشركوا بعبادته أحداً، ومع كل ما يترتب على هذه الوحدانية والعبادة من تحقيق للذات البشرية وخلاصها، وترفّعِها عن مادية الحياة الدنيا، وسعيها للآخرة..

وكان الرسول ﷺ قد أمر ـ كالعادة ـ أن يقوم على خدمة هذا الوفد أحدُ الصحابة، فلم يطمئنوا إلَّا إلى خالد بن سعيد بن العاص، فكانوا لا يذوقون طعاماً قُدِّم لهم إلَّا إذا طَعِمَ منه، أو شراباً إلَّا إذا شربَ منه. وقد ظلوا على هذه الحال مدةً من الزمن حتى أقرُّوا فيما بينهم ما يريدون من النبي، ففاتحوه في أمرهم، وقالوا: يا رسول الله نحن ما أتينا إلا لنسلم، ولكن لنا بعض المطالب فأمهلنا قليلًا.. فأرجأهم إلى المهلة التي يريدون.

على أن تلك المدة التي أمضَوْها في رحاب المسجد، وبين المسلمين، لم تفعل فعلها في قلوبهم، فلم يشعروا بحلاوة الإسلام، وطعم الإيمان الحق. ولذلك كانت أولى مطالبهم ـ في بقيّةٍ جاهلية ـ أن يدَعَ لهم الرسولُ «اللات»[1] ـ وهو الطاغوت الذي كانوا يعبدون ـ

(١) كانت صخرة مربعة، يَلِتُّ عليها رجل من ثقيف السويقَ (العجين) للحجاج الذاهبين إلى الكعبة الشريفة، فلما مات هذا الرجل، قال عمرو بن لحيّ للناس: إنه لم يمت، ولكن دخل في الصخرة، وأمرهم عمرو بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتاً يسمى «اللات» (انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ، هامش ص٧٩، وص٨٧).

فلا يهدمها إلى ثلاث سنين. . ولكنَّ الرسولَ الأمين أبى ذلك عليهم مستنكراً. فعادوا يسألونه أن يخفض المدة إلى سنتين، ثم إلى سنة، حتى رجوه أن يتركها ولو شهراً واحداً، فرفض ﷺ أن يستمع لمثل هذا الكلام، لأنه لا يمكن أن يجتمع الإسلامُ والوثنية، إذ لا إيمان مع الكفر، ولا طهارة مع النجاسة.

وعاد وفدُ ثقيف يطلب «ألَّا يهدموا أوثانهم بأيديهم» فوافقهم الرسولُ على ذلك. إذْ ما الفرق بين أن يزيلوا تلك الأوثان بأيديهم، أو أن يهدمها غيرهم، طالما أن الغاية هي محو آثار الشرك، من حولهم ومن حياتهم. وإن المؤمنين الصادقين جميعاً على استعداد تامٍّ لذلك، فكان أن قبل الرسول هذا السؤال منهم. . ثم عادوا للطلب بأن يعفيَهم من الصلاة. فقال ﷺ لهم: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»[1].

ولعلَّ الإنسان يأخذه عجبٌ من هؤلاء القوم وهم يسألون إعفاءهم من الصلاة، بعد أن أقاموا بجوار المسجد النبويّ حقبةً، كانوا يرون خلالها بأمّ العين كيف يتدافع المؤمنون إلى الصلاة، فيقفون خاشعين للّه رب العالمين، معْرضين عن كل متاع في دنياهم. وكيف يعودون إلى التحلّق حول رسول الله بعد الصلاة، ليفقّهَ الناسَ في الدين، ويهديهم إلى نورانية الإيمان، ويدلَّهم على صدق القول والفعل، ويحدِّثهم بكل ما من شأنه أن يرفع من قدر الإنسان حتى ليكاد يبلغ به مرتبة الملائكة المقربين. .

نعم، إنه لمن شديد العجب ألَّا يأنَسَ وفد ثقيف إلى تلك

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٨٥؛ وزاد المعاد، ج٢ ص٢٨٥.

الصلوات التي كان يرى، وألَّا يتأثَّرَ بنفحات تلك الحلقات التي كان يشهد، فيجعل جفوة الجاهلية هي التي تغلب عليه، ويطلب ما يطلب من رسول الله ﷺ أن يدَعَ الطاغوت، وأن لا تكون لهم صلاة!.

ولكن قد يكون في قرب أولئك الثقفيين من عهد الجاهلية ما يعذرهم، أما أناس اليوم فما عذرهم؟ ألم تر إلى هؤلاء الذين يتركون صلاتهم عمداً؟ ألم ترَ إلى هؤلاء الذين يشيِّعون صديقاً لهم، أو قريباً من أقربائهم، ويدخلونه المسجد للصلاة على جثمانه، ثم يقفون في أغلبهم خارج المسجد، وكأنَّ الصلاة لا تخصّهم ولا تعنيهم من قريب أو بعيد؟! بينما الصلاة على الميت فريضة فرضها الله تعالى على المسلمين الذين يحضرون الجنازة ويرافقون النعش حتى يُوارى الميتُ جدثَ الرحمة؟!..

أجل، إنَّ وفد ثقيف الذي اعتادَ الوثنية قد يكون أقلّ جفوة من هؤلاء الذين فطروا على الإسلام، بل، ولعلَّهُ خيرٌ منهم، لأنَّ ذلك الوفد ناقش في الصلاة، ثم التزم بها، ولكنَّ كثيراً من المسلمين اليوم، يماحكون، ويناقشون، ويجادلون ثم لا يلتزمون بما فرضَ اللَّهُ تعالى عليهم، ولاسيما إقامة الصلاة، مع علمهم ـ أو ما يسمعون من المؤمنين ـ عمّا للصلاة من ثواب، وما يترتب على تركها ـ عمداً ـ من عقاب.. وهذا ما يوحي بأنَّ جاهلية اليوم أشدُّ وطئاً، فكثر من جرائها الذين ظلموا أنفسهم وهم لا يعلمون!..

وكان الوفد الثقفي يرى أنَّ النبيَّ إذا خطب بعد الصلاة، لا يذكر نفسه، فتساءلوا:

«كيف يأمرنا أن نشهد بأنه رسول الله وهو لا يشهد به في خطبته أمام الناس؟».

وسرى تساؤلهم إلى النبيِّ فأرشدهم وقال: «إني أولّ من شهد أني رسولُ الله». وفي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾[3]. ثم تابع إرشاده لهم بأن المؤمنين مأمورون من الله ـ تعالى ـ أن يشهدوا بأنَّ محمداً رسولُ الله، بل وأن يصلّوا عليه ويسلّموا تسليماً، في كل وقت، ولاسيما في الأذان، وإقامة الصلاة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[4].

وكان مكوث وفد ثقيف قد طال في المدينة، فأحبّ أن يرجع إلى بلده. ولذلك، جاؤوا إلى النبي ﷺ يسألونه أموراً أخرى غير التي طلبوها من قبل. فقال سيدهم عبد ياليل «يا رسولَ الله، هل أنتَ مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟».

قال ﷺ: «إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلَّا فلا قضية بيني وبينكم».

قال عبد ياليل: «هنالك أمور نرجو أن تعفيَنا منها، فنحن لا نقدر على فراقها وتركها. وأما أولها فهو الزنى، فإنَّا قوم نغترب ولا بد لنا منه».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ١

(٣) سورة المزمّل، الآية: ١٥.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

قال ﷺ: الزنى حرام، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1].

قال عبد ياليل: «أفرأيت الرِّبا، فإنه أموالنا كلها».

قال ﷺ: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[2].

قال عبد ياليل: «أفرأيت الخمر، فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منه».

قال ﷺ: لقد حرَّم الله تعالى الخمر بقوله الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3].

وأخيراً أذعن وفد ثقيف، وأقرَّ بما أنزَلَ الله تعالى، ودعا إليه خاتمُ أنبيائه، فقال جميع أعضائه: آمنَّا وأسلمنا، ونحن مستجيبون لما أمَرَنا الله ورسولُهُ، وملبُّون لما يطلب منَّا الله ورسوله.

وسأَلَ وفد ثقيف رسولَ الله أن يختار أميراً على بني قومهم، فاختار أصغرهم سنّاً عثمان بن أبي العاص، لأنَّ عثمان وحدَهُ، كان

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ و٢٧٩.
(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ و٩١.

من بين أعضاء الوفد، من حفظ سُوَراً من القرآن الكريم، وعرف معانيها[1]. وذلك أنه كان إذا وقف على رحالهم، تركها وانصرف إلى رسول الله ﷺ يتعلم منه ويتفقّه، حتى صار يملك من الإدراك بأمور الدين ما يجعله قادراً على إرشاد بني قومه، وهدايتهم إلى الحق والصواب. قال عثمان: «وكان آخر عهدٍ عهِدَهُ إليَّ رسولُ الله ﷺ: «أن اتخذْ مؤذناً لا يأخذ على أَذانه أجراً، وإذا أممْت قومَك فاقدِرهُمْ بأضعفهم (أيْ خفّف عنهم) وإذا صلّيت لنفسك، فأنت وذاك»[2]. وأبقى الرسول ﷺ إلى عبد ياليل صلاحية التحدُّث إلى ثقيف عند العودة، لِمَا رأى فيه من جدارة بالإقناع، وقدرة على النفاذ إلى القلوب.. فلمّا خرجوا مرتحلين إلى بلدهم، بَعَثَ الرسول معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، لكي يهدما «اللات» وبقية أوثان ثقيف..

وأما اختيار أبي سفيان والمغيرة دون غيرهما من الناس فلعلَّهُ لحكمةٍ بالغة أرادها الرسول الأعظم، وهي ترمي إلى هدفين كبيرين:

---

(١) هو عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي الطائفيّ، قدم في وفد ثقيف على النبي ﷺ في سنة تسع، فأسلموا، وأمَّرَهُ عليهم لما رأى من عقله، وحرصه على الخير والدين، وكان أصغر الوفد سنّاً.. وروى ابن الأثير عن لقيط بن عبد الله، قال: مرَّ عثمان بن أبي العاص بكلاب بن أميّة بن الأسكر، وهو بالإبلّة ـ بلدة بجانب البصرة ـ فقال: ما يحبسك ها هنا؟ قال: على هذه القرية. قال عثمان: أعشّارٌ؟ قال: نعم. قال عثمان: إني سمعت رسول الله يقول: «إذا انتصف الليل أمر الله تعالى منادياً ينادي: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داعٍ فأجيبه؟ هل من سائلٍ فأعطيه؟ فما تُردُّ دعوةُ داعٍ إلَّا زانية بفرجها، أو عشّار»، (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول ﷺ، ج٢ ص١٣١٥ و١٣١٦).

(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص١٣١٨ عن: الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٥ ص٥٠٨.

أولاً: أن يقوم زعيم قريش بالذات بهدم أكبر الأوثان في الطائف، ليكون في عمله دليلُ الإقناع لثقيف بأن دخولها في الإسلام خير من بقائها على الشرك، وخاصة بعد أن دانَ الناسُ، بمن فيهم الأشراف والكبراء لهذا الدين ـ ومثالهم سيّدُ قريش قبل إسلامها ـ وصاروا ينفِّذون أوامر نبيه بطواعية وانقياد.

ثانياً: أن يشارك المغيرة بن شعبة، وهو من أبناء الطائف، بهذا الهدم، حتى يكون بذلك قهرٌ للتمرّد الموجود في نفوس أولئك القوم، وقضاءٌ على ما استحكم في قلوبهم من معتقدٍ جاهليٍّ بحيث يتأكد لهم أن تلك الأوثان التي كانوا يعبدونها هي فعلاً جوامد لا تنفع ولا تضر بشيء. ثم إنَّ في اختيار المغيرة ميزةً له على غيره، إذ يستأهل أن يُكافأ على ما أبدى من حماسةٍ واندفاعٍ في الاهتمام بوفد ثقيف عندما لقيه أثناء قدومه إلى مدينة رسول الله ﷺ، ومكافأتُهُ أن ينال ثوابَ المشاركة في هدم أحد رموز الشرك والكفر المعظّمة عند المشركين.. أجل، ربما كان ذلك تقدير رسول الله في اختياره للرجلين دون سواهما.. وإنَّ في هذا التقدير ـ في مطلق الأحوال ـ من الحكمة والصواب ما لا يتوافر لإنسان غيرِ محمدٍ ﷺ.

ولمَّا وصَلوا إلى الطائف، أرادَ المغيرة أن يقدِّم أبا سفيان لهدم الطاغوت، فأبى هذا وقال له: ادخل أنت على قومك.

وبالفعل، وبعد أن أبلَغَ الوفدُ ثقيفاً بأن رسول الله ﷺ هو أتقى الناس وأوفاهم، وبأنه شرط لهم، وشرط عليهم، ومن ذلك هدم «اللات» وجميع معالم الوثنية من حولهم، قام المغيرة بن شعبة لتنفيذ المهمة الموكولة إليه، واعتلى «اللات» وراح يهوي عليها بمعوله، والناس ترقب واجمةً خائفةً، فقال لهم: «قبحكم الله معشر ثقيف! إنما

هي حجارة ومَدَر»... وتابع عمله في تحطيم «اللات» وسورها حتى لم يُبقِ حجراً على حجر. وكان قومُهُ بنو معتَّب يحيطون به خشيةَ أن يُرمى من أحد غدراً. وكان صاحب مفتاح «اللات» يرى بأم عينه ما يحدث، فلا يتماسك نفسه عن بكاء الوثن المهشم، وندبه مع نسوةٍ من ثقيفٍ بهذه الأرجوزة:

لـتُـبْـكَـيَـنَّ دُفّـاعْ[1] أَسْـلَمَـهـا الـرُضَّـاعْ[2]
لـم يُـحْـسِـنُـوا الـمِـصَـاعْ[3]

ولم يُصدّقْ صاحب المفتاح أن ذلك قد حصل فعلًا، بل نأى به وهْمُهُ عن أَن يُذعِنَ للواقع، فصرخ مولولًا:

«الويل لمن يقترب من الأساس».

وقهقه المغيرةُ منه ساخراً، ثم صاح بالناس: «هيا وانظروا يا قوم، عليَّ بالأساس».. ثم تقدم ومن تبعه من بني قومه، الذين أخذتهم الحماسة، وهم يرونه على تلك الحال، وراحوا يحفرون أساسَ بيت اللات، ويذرون ترابه في الهواء، حتى لم يبقَ منه موطئُ قدم. عندها فقط، أيقنَ أهل المكابرة أن هذه «الربّة» التي يسمّونها «اللات» لا تملك شيئاً.. وأنَّ إيمانهم بها لم يكُ إلَّا وهماً كاذباً، خدعوا به أنفسهم، وخدعتهم به الأجدادُ طوال أجيال، حتى بَعَثَ الله سبحانه من يُبدّد ذلك الوهم، ويقضي على ذلك الخداع.. وعاد

---

(١) دُفّاع: أي أنها كانت تدفع عنهم ـ على زعمهم ـ.

(٢) الرضاع: اللئام.

(٣) المِصاع: الضرب بالسيف. وهي أرجوزة تصف أهل الطائف باللئام لأنهم لم يدافعوا عن اللات ضرباً بالسيف.

الناسُ إلى بيوتهم، والكل في شتات من الفكر بين الماضي والحاضر، يسخرون بأنفسهم من أنفسهم، متلوّمين، مُحْنقين، مستهزئين..

على أنَّه وإنْ كان اللومُ والحنَقُ قد أخذاهم في تلك الساعة، إلَّا أنهما كانا تعبيراً عن الانفعال الجديد الذي ملأ فراغ قلوبهم، وهم يأسفون على ما أضاعوا من عمرٍ بالتفاهة، ويندمون على ما صرفوا من أيام على عبادةٍ باطلةٍ.. لقد انجلت الغشاوة عن بصائرهم، وتبيّن لهم أن الله سبحانه وتعالى لا بدَّ من أن يعوِّض عليهم إذا شاء، فيودع في قلوبهم الإيمانَ الذي يحيَون به ما دامت الأرض تدور في فلكها، والسماءُ مرفوعة بلا عمدٍ يرونها..

هُدِمتِ «اللاتُ» وأزيلت أصنام الطائف، فعادَ المغيرة وأبو سفيان، يقدّمان لرسول الله ما احتملاه من الأموال والحليّ التي كانت عندها، بعدما قضيا منها الديون التي كانت على عروة والأسود، ابْنَيْ مسعود بن عروة، هذا الإنسان الذي ذهب شهيد الإيمان بحقيقة وجود الله الواحد الأحد، وبتصديق رسوله محمد بن عبد الله ﷺ..

وفد همْدان

ومن بعيد، من بلاد اليمن، أقبل على المدينة وفدٌ من همدان، على رأسه مالك بن نَمَط. لقد جاؤوا مسلمين غير مترددين ولا متلوِّمين، بل مبشّرين بوصول الإسلام إلى ديارهم. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقدومهم أعظم سرور.

وكان هؤلاء الرجال يلبسون من الحلل المقطَّعات الحِبَرَات[1]،

(١) المقطعات الحبرات: البرود اليمنية (والمفرد: بردة).

والعمائم العدنيّة، فأقرَّهم الرسول على هذا المظهر، لأنَّ الاعتناء بالهندام، واللياقة باللباس، دليلُ المحافظة على شخصية الإنسان، واحترامه لذاته. ولذلك كان ارتياحه ﷺ لتلك الأناقة، ورضاه عن الأثواب التي يلبسون، خاصةً وأنها قد خلت من أيِّ وشْيٍ بالذهب أو الفضة، وبعدت عن أي مظهر من مظاهر الإسراف والترف الفاحشين اللذين لا يقرهما الإسلام.

ورأى وفدُ همدان ما يحيطهم به رسولُ الله ﷺ من حفاوة وتكريم، فأراد بعضُهم أن يبديَ امتنانه وسعادته بالتشرف بحضرة النبيّ، فقام مالك بن نَمط ينشد بين يديه. فلما فرغ، انبرى رجل آخر منهم يرتجز وهو يقول:

إليك جاوَزنَ سوادَ الرِّيفِ[1] في هبَوات[2] الصيفِ والخريفِ

مُخَطَّماتٍ[3] بحبالِ اللِّيفِ

فقام بعده مالك يقول: «يا رسولَ الله، لقد جاءك خيارُ القوم من هَمْدان، من كل حاضر وباد، أتوك على قُلُص نَواجٍ (إبل فتيَّة)، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف[4]: خارف ويام وشاكر[5]، أهل السود والقود[6]، أجابوا دعوة الرسول، وفارقُوا الآلهاتِ

(١) سواد الريف: القرى التي تعجُّ بالشجر والنخل، قرب المياه الغزيرة.
(٢) الهبوات: مفردها هبوة، وهي الغبرة.
(٣) المخطمات: الإبل التي شُدَّتْ رؤوسها بالحبال.
(٤) مخلاف: مدينة أو قرية أو مقاطعة (في لغة اليمن).
(٥) خارف ويام وشاكر: أسماء لقبائل في اليمن.
(٦) أهل السود والقود: أهل الإبل والخيل.

والأنصاب[1]، عهدُهم لا يُنقض ما أقامتْ لَعْلَع[2]، وجرى اليعفور[3] بضَلَع»[4].

ثم أقام وفْدُ همدان في المدينة ما شاءَ الله تعالى أن يقيم، فلمَّا أراد العودة إلى بلاده، جعل رسولُ الله مالك بن نَمَط أميراً على من يُسلم من بني قومه، وأمَرَه بجهاد من يَقربهُم من المشركين. وقد عاونهم النبيُّ بإرسال خالد بن الوليد في سَرِيَّةٍ، ليدعوَ إلى الإِسلام في اليمن.

وكان في تلك السرية البراء بن عازب، قال: «كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد إلى أهل اليمن. وقد مكث يدعوهم إلى الإِسلام، ستة أشهر، فلم يجيبُوهُ، كما كنّا نحب. فبعث النبيُّ ﷺ من بعد ذلك عليَّ بن أبي طالب جاءَ يدعو الناس إلى دين الله تعالى، لا بقولٍ ولا بقتال، بل بكتاب من رسول الله ﷺ. ونزلَ عليٌّ في ديار همدان. وقد صفَّ المقاتلين معه صفاً واحداً، ثم نادى في القوم، حتى اجتمعوا إليه، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ. وما إن انتهى من قراءته، حتى تغير الموقف فجأة، فإذا بالقوم يفاوضونه، وإذا بهمدان جميعاً تألف الإِسلام، وتدخل فيه مؤمنة طائعة».

وفد الأزد

وقدم من اليمن أيضاً وفد من الأزد، كان على رأسه صُردُ بن

---

(١) الآلهات والأنصاب: الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها.

(٢) لعلع: جبل في اليمن.

(٣) اليعفور: ولد الظبية.

(٤) بضلع: بقوة (انظر حول الأرجوزة: موسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص١٧٠٨).

عبد اللّه الأزديّ، وما إن أقام فترة بين يدي رسول الله ﷺ حتى أسلم وحسن إسلامه، فأمَّر الرسول صُرْداً على من أسلم من بني قومه، وطلب إليه أن يدعو إلى دين الله الواحد بين قبائل اليمن.

وكان بجوار الأزديين مدينة مغلقة يقال لها جُرَش. وقد ضوت[1] خَثْعَمُ إلى قبائلها، فتحالفوا حين سمعوا بسير المسلمين لقتالهم. فجاء صرد وحاصرهم في مدينتهم نحواً من شهر، ثم ترك الحصار، بعد أن امتنعوا منه، حتى إذا بلغ جبلًا يقال له كشْر، خرج أهل جرش في طلبه، ولكنه انعطف عليهم، ودارَ بين الفريقين قتال شديد انتهى بنصر المسلمين.. وقد بَلَغ خبرُ هذه الواقعة رسولَ الله ﷺ فسأل بأي مكان حدثت، فلمّا قيل له عند جبل يقال له كشْر، قال عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام: «إنه ليس بكَشْر، ولكنه شَكْر»[2]. قيل: فما شأنُهُ يا رسول الله؟ قال ﷺ: «إنَّ بُدنَ الله لتُنْحَرُ عندَهُ الآنَ»[3].

وفد جرش

ثم قدم بعد ذلك وفد من جُرَش، فأسلموا وحسن إسلامهم، فأقطعهم رسولُ الله ﷺ حول بلدهم حمىً ليستغلّوه، كما كان يفعل ذلك مع أهل أيٍّ من البلاد يأتونه مسلمين، ليتمكنوا من استغلال الأرض، ولا يتركوها بوراً.

---

(١) ضوت: لجأت.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٣٤.

(٣) المصدر السابق.

وفد بني تميم

وقدم على المدينة المنورة وفد من أشراف تميم، وعلى رأسه عُطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدُس التميمي. وجاء مع ذلك الوفد الأقرع بن حابس، وعُيينة بن حصن، وكانا قد شهدا مع رسول الله فتح مكة وحنيناً وحصار الطائف. فلمَّا دخل الوفدُ المسجدَ، أخذوا ينادون رسولَ الله ﷺ من وراء الحجرات: «أن اخرج إلينا يا محمد». فآذى صياحُهم رسولَ الله فخرج إليهم، وقد بدا عليه الضيق، فقالوا له: يا «محمد»، جئناك لنفاخرك فأْذنْ لشاعرنا وخطيبنا!..

قال ﷺ: قد أذنتُ لخطيبكم، فليقُل...

فقام عطارد بن حاجب فقال: «الحمد لله الذي له علينا الفضْلُ والمنُّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالًا عظاماً، نفعل فيها المعروف. وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عُدَّةً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسْنا برؤوس الناس وأُولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدّدْ مثل ما عدَّدْنا. وإنّا لو نشاءُ لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك. أقول هذا لأن تأتوا بمثلِ قولنا وأمرٍ أفضلَ من أمرنا»[1].

وما إن جلس، حتى قال رسول الله لثابت بن قيس بن الشمّاس ـ أخي بني الحارث بن الخزرج ـ: «قم، فأجِبِ الرجلَ في خطبته».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٠٧.

فقام ثابت، فقال: «الحمد الله الذي السمواتُ والأرض خَلْقُهُ، قضى فيهنَّ أمرَه، ووسع كرسيُّه عِلْمَهُ، ولم يكُ شيءٌ قطُّ إلَّا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقِهِ رسولًا أكرمه نَسَباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حَسَباً، فأنزل عليه كتابه، وائْتَمَنَهُ على خَلْقِه، فكان خِيرَة الله من العالمين. ثم دعا الناسَ إلى الإيمان، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه: أكرمُ الناس حسباً، وأحسنُ الناس وجوهاً، وخيرُ الناس فِعالًا. ثم كان أوّلَ الخلق إجابةً، واستجابَ لله حين دعاه رسولُ الله ﷺ. نحن أنصارَ الله ووزراءَ رسوله، نقاتلُ الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه، ومن كَفَرَ جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم»[1].

قال بنو تميم: يا محمد! إئذنْ لشاعرنا.

فقال ﷺ: فليفعلْ.

وقام شاعرهم الزّبرقان بن بدر، فألقى قصيدة مليئة بالمدح والفخار ومما جاء فيها[2]:

نحن الكِرامُ فلا حيٌّ يُعادِلُنا ... مِنَّا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البِيَعُ[3]

وكم قَسَرْنا من الأحيَاءِ كُلِّهِمِ ... عند النِّهابِ، وفضْلُ العِزّ يُتَّبَعُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٠٨.

(٢) المصدر السابق، (وكان الزبرقان سيداً في الجاهلية عظيم القدر في الاسلام، وقد ولَّاه رسولُ الله ﷺ صدقات قومه، فقام بها، بل وأدَّاها في الردّةِ إلى أبي بكر رضي الله عنه فأقرَّه عليها لما رأى من ثباته على الاسلام حين ارتدَّ الناس).

(٣) البِيع: أماكن للعبادات.

ونحنُ يُطعِمُ عِندَ القحْطِ مُطْعِمُنا من الشِّواء إذا لم يُؤنَس القزعُ[1]

بِما تَرى الناس تَأتينا سرَاتُهُمُ من كلِّ أرضٍ هُوِيّاً[2] ثم نَصْطَنِعُ

وردَّ عليه حسان بن ثابت ـ شاعر رسول الله ـ بما يَعْلو شعره، ويستفيض عليه قوةً وبلاغة، وذلك بقصيدة طويلة، ومنها[3]:

إنَّ الذوائِبَ[4] مِنْ فِهْرٍ وإخوتِهِمْ قد بَيَّنوا سُنةً للناسِ تُتَّبَعُ

يَرضى بهم كلُّ مَنْ كانت سريرتُهُ تقوى الإلٰهِ وكلَّ الخيرِ يصطَنِعُ

قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدُوَّهُمُ أَوْ حاولوا النَّفْعَ في أشْياعِهِمْ نفعوا

سَجِيَّةٌ تلك مِنهُمْ غيرُ مُحْدثَةٍ إنَّ الخلائقَ، فاعلمْ، شَرُّها البِدَعُ

أكرِمْ بقومٍ رسولُ الله شيعتُهُم إذا تفاوتتِ الأهواءُ والشِّيَعُ

فلمّا فرغ من إنشاده قال الأقرع بن حابس: «وأبي إن هذا الرجل (يعني رسول الله) لمُؤَتًّى له (أي موفَّق)! لَخَطيبُه أفصَحُ من خطيبنا، ولشَاعِرُه أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا»[5].

وأَسْلَمَ بنو تميم، وأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم. وكانوا قد خلّفوا في إبلهم عمرو بن الأهتم، فقال قيس بن عاصم: يا رسول الله، إنَّه قد كان رجل منا في رحالنا، وهو غلام حَدَثٌ وأُزريَ به، فأعطاه رسول الله مثل ما أعطى القوم.

---

(١) القَزَع: السحاب الرقيق، أي أنهم إذا أمحلت الأرض وأجدبت فإنهم يطعمون الناس من لحوم المواشي المشوية.

(٢) هويّاً: سراعاً.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢١٠.

(٤) الذؤابة: غديرة المرأة التي تعلو رأسها. والذوائب هنا يقصد بهم الأسياد.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢١٢.

وفي بني تميم، أنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قدوم ضِمام بن ثعلبة[2]

وبعثَ بنو سعد بن بكر، إلى المدينة، أحد رجالهم، ضِمامَ بنَ ثعلبة، كي يقف على حقيقة ما يدعو إليه «محمد». فلما دخل عليه وهو في المسجد جالساً بين أصحابه، وكان ضِمامُ رجلًا جلْداً، أشْعرَ ذا غديرتين، سأل بجفوة: «أيكم ابنُ عبد المطلب؟»[3].

فلما سمعه الرسول قال: «أنا ابن عبد المطلب».

قال: «يا ابن عبد المطلب، إني سائلُكَ ومُغْلِظٌ عليك في المسألة، فلا تجِدَنَّ في نفسك».

فقال ﷺ: «لا أجِد في نفسي، فسَلْ عمّا بدا لك».

قال: «أنشُدُك اللَّهَ إلَهَكَ وإلَهَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ، وإلَهَ مَنْ هو كائِنٌ بعدَكَ، آللّهُ بعثَكَ إلينا رسولًا؟».

قال ﷺ: «اللَّهم نعم».

قال: «فأنشُدُك باللَّهِ إلهِكَ وإلَهِ مِن كانَ قَبلَكَ، وإلَهِ مَنْ هو كائن

---

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٤ و٥.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢١٩ و٢٢٠ و٢٢١.

(٣) وقد كنّى ضمامُ رسول اللَّهِ بما كان يعرفُ به، «ابن عبد المطلب»، إذْ إنَّ جدَّهُ عبد المطلب هو الذي احتضنَهُ بعد موت أبيه، وكان يقول للناس: هذا ابني.. أو يقول: دعوا ابني فإنَّ له شأناً عظيماً.. فاشتُهرَ «محمد» بأنه ابن عبد المطلب، وكان ﷺ يفاخر، ويعلم بنفسه بذلك أثناء القتال..

بعدَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تأمُرَنا أن نَعْبُدَهُ وحدَهُ ولا نشركَ به شيئاً، وأن نخلَعَ هذه الأندادَ التي كان آباؤنا يعبدون معه؟».

قال ﷺ: «اللّهم نعم».

وتابع ضِمام يسأل النبيَّ عن فرائض الإسلام فريضةً فريضةً: فسأل عن الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحجّ، وهو يناشِدُهُ بنفس الصيغة... حتى إذا فرغ ولم يعد في نفسه حاجةٌ للسؤال، قال: «فإني أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله. وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنبُ ما نهيتني، ثم لا أزيد ولا أنقص»[1].

وانصرف ضِمام، فقال رسول الله ﷺ حين ولَّى: «إنْ يَصْدُقْ ذو العَقيصَتَيْنِ[2] يدخُلِ الجنة، إن شاء الله تعالى». فلما قدم على قومه واجتمعوا إليه، أعلن كفره بأصنامهم ورذَّل اللاتَ والعزَّى وحقَّرهما. فأشفق عليه أبناء قومه مما يقول، إذ كان في زعمهم أن من يصيب آلهتهم بسوء فإنه يصاب بمرضٍ عُضالٍ، فقالوا له:

ـ مَهْ يا ضِمام! اتّقِ البرصَ، اتّقِ الجذام، اتّقِ الجنون!

قال: «وَيْحَكم، إنهما والله لا ينفعان ولا يضرّان، إنَّ الله ـ تعالى ـ قد بعث رسولاً، وأنزلَ عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه».

وراح ضِمام يعيد على مسامع بني سعد بن بكر كلَّ ما سألَ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٢٠.

(٢) العقيصة: الضفيرة من الشعر.

النبيَّ ﷺ عنه، وبما أجابهُ الحبيبُ المصطفى، والقوم يصغون إليه بكلِّ جوارحهم. وهُم، كلما استمعوا إليه، أحسّوا باطمئنان لم يعرفوه من قبل، وبمشاعر لم تداخل أفئدتهم قطّ. إذ لامَسَ الإيمانُ قلوب بني سعد بن بكر فاستجابوا لداعي الله «فواللَّهِ ما أمسى في ذلك اليوم في حاضِرِه رجلٌ ولا امرأة إلَّا وشهد بشهادة الحق (وهي: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله)»[1]. وإن عبد اللّه بن عباس قال: فما سمعنا بوافِدِ قومٍ أفضَلَ من ضمام بن ثعلبة[2].

قدوم وفد بني حنيفة

ومن اليمامة جاءَ إلى المدينة المنورة وفدٌ من بني حنيفة، وفيهم رجلٌ داهية، منافق، حادُّ الذكاء، بارعٌ في المراوغة، يدعى مُسَيْلِمَة بن تمامة بن كبير بن حبيت بن الحارث. نزل هذا الوفد في دار ابنة الحارث، امرأة من الأنصار، بعد أن خَلَّفَ مُسَيْلِمةَ في رحاله. فلمّا أسلموا، وسألوا النبيَّ فأعطاهم، قالوا: يا رسول الله، إنّا قد خلَّفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظهما لنا. فأمر الرسول له بمثل ما أمَرَ به للقوم. ثم انصرفوا وجاؤوا مسيلمة بما أعطاه له رسول الله. فأخذته العزّة بنفسه، وغرَّه الغَرور، لأن النبي أكرمَهُ وأعطاه دون أن يَمْثُلَ بين يديه. فلما قفل راجعاً إلى اليمامة راح يدّعي النبوّة، ويزعم أنَّ الله سبحانه أشركه في الأمر مع «محمد». ثم جَعَل مسيلمة اللعين يسجع السّجعات، ويقول لهم، فيما يقول، مضاهاةً للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، وأخرج منها نسمة تسعى، من

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢ ص١٠٩٨.
(٢) المصدر السابق.

بين صفاق[1] وحَشَا»!! ثم راح يُحِلُّ الخمرَ والزنى، بل ووضع عن قومه الصلاة، ترغيباً للناس في تصديقه واتِّباعه. ولكي يزيد الناس إيهاماً في دعواه، بعث بكتاب إلى «محمد رسول الله» جاء فيه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلامٌ عليك. فإنّي قد أُشرِكت في الأمر معك، وإنَّ لنا نِصْفَ الأرض ولقريش نِصفَ الأرض. ولكنَّ قريشاً قومٌ يعتدون»[2].

وقد حمل كتابَه هذا اثنان من الغفلة الضالين، فلمّا قُرِئَ للنبي ﷺ سأل الرجلين:

«فما تقولان أنتما؟».

قالا: نقول كما قال.

فقال ﷺ: «أَما والله لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لضربتُ أعناقكما».

ثم كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مُسيلِمة الكذّاب. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

وقد روي أنَّ مسيلمة ما تجرّأ وأعلن ادعاءه للنبوة إلَّا بعد انصراف رسول الله ﷺ من حجة الوداع، ومرضته التي مرضها.

على أنه ومهما تكن المدة التي كتب خلالها مسيلمةُ إلى رسول الله فإنَّ ردَّ الرسول الأعظم عليه ووصفه بالكذّاب، جعله

---

(١) صفاق: ما رقَّ من البطن.

(٢) انظر صحيح البخاري، باب وفد بني حنيفة.

سخريةً لدى الناس، يتضاحكون عليه إذا ذُكر لهم، ويهزأون به إذا حدّثهم، ولا يتورَّعون عن لعنِهِ وجهاً لوجه، والقولِ له بأنه منافق كاذب، حتى صار يعرف بمسيلمة الكذّاب. إلَّا أنه بوفاة رسول الله، عادَ واشتدَّ أمره حتى غلب على اليمامة. ثم قُتِلَ في خلافة أبي بكر ﷺ بسبب ادعائه للنبوة ـ كذباً وبهتاناً ـ.

قدوم مبعوث ملوك حمير (من اليمن)

لقد واجهت الدعوة الإِسلامية ـ أكبرُ وأهمُّ دعوةٍ عرفها العالم ـ من المحاربة والشدّة ما لا يوصف. وذلك من أجل صدّ الناس عنها، وإيقافها عن مسيرتها، حتى لا يكون لها أي انتشار في أرض الله الواسعة. ولكنْ أنّى لأهل الكيد والتآمر، وأنَّى لأهل التعصّب والجهل، أن يصمدوا في وجه دين الفطرة الذي ما إن يهتدي إليه خَلْقُ الله، ويدركوا ما فيه من الحقائق المطلقة، والمفاهيم السامية والبراهين الدامغة، حتى يقبلوا عليه مختارين، راضين، استقامةً لعقولهم، واطمئناناً لقلوبهم، وصحة لأجسادهم..

وإذا كان أهلُ الحكم، وأصحابُ السلطان ينزعون ـ في أي مكان ـ عن كل دعوة جديدة، خوفاً على مكاسبهم من أن تزولَ، وعلى نفوذهم من أن يضيع، فإنَّ الأمرَ كان مختلفاً مع أمراء القبائل في اليمن، فلم يقفوا في وجه أتباعهم، أو يقيموا الحواجز أمام بني أقوامهم، وهم يقبلون على الإِسلام مهتدين.

بل ولم يستطع أولئك الأمراءُ أن يحبسوا الناسَ عن الإِسلام، وهم يعلمون أنَّ نبيَّهُ الكريم لا يظلم أحداً، بل يحارب الظلم وأهلهُ. ولا يعتدي على أحدٍ، بل يقاتل المعتدين على النفوس والحرمات

والأرزاق. ولا يدعو إلى باطل بل إلى كل ما هو حق وخير وعدل. ولا يبخس إنساناً حقَّهُ، ولا يسلب أميراً إمارته بل يثبّتهُ عليها ما استقامَ أمرُهُ، وعَدَلَ في قومِهِ، وأنْصَفَ الناسَ جميعاً منه!

لقد أدرك ملوك حِمْيرَ ـ وهم أصحاب الكثرة الغالبة في اليمن ـ تلك الحقائق، ووعوا ما يهدي إليه الإسلامُ عقلًا وشعوراً ومنهج حياة، فآمنوا به ديناً لله الواحد الأحد، عقيدة وشريعة.

ولذلك فإنهم ما إن عرفوا بتراجع جيش الروم أمام المسلمين، بقيادة النبيِّ العربيِّ الأميّ، وعودته إلى مدينته المنوّرة ظافراً، مرفوع الرأس، عاليَ الجبين، ومؤيداً بنصر الله تعالى حتى تنادَوا فيما بينهم، وكتبوا إليه كتاباً يعلنون فيه إسلامهم، وبَعَثُوهُ إليه مع موفدٍ خاصٍ اختاروه لهذه المهمة..

وصلَ كتاب ملوك حِميرَ إلى رسول الله ﷺ، فقرأَهُ وحَمِدَ الله الهادي. ثم كتب إليهم كتاباً، يبيّنُ ما لهُم وما عليهم في شرع الله، وأحكام الدين التي وجَبَ أن يسيروا عليها، حتى تكون لهم البيّنة من شؤون حياتهم وأمور آخرتهم. وهذا نص الكتاب[1]:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«من محمد رسول الله النبيّ، إلى: الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كُلال، والنُّعمانِ قَيْلِ ذي رُعَينَ ومعافرَ، وهمْدان.. فإني أحمَدُ إليكم الله الذي لا إله إلاَّ هو. أما بعدُ، فإنه قد وقع بنا رسُولُكُم حين مُنْقَلَبِنَا من أرض الروم، فلقيَنا بالمدينة، فبلَّغ ما أرسلْتُم به، وخبَّر

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٣٥ و٢٣٦.

ما قِبَلَكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتالكم المشركين، وأَنَّ الله قد هداكم بهداهُ إن أصلحتم وأطعتم الله ورسولَهُ، وأقمتُمُ الصلاة، وآتيتُمُ الزكاةَ، وأعطيتم من المغانِم خُمُسَ الله، وسهم رسولِهِ وصفيِّه (ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لَنفسه قبل تقسيم المغانم) وما كُتب على المؤمنين من الصدقة[1] من العَقار: عشر ما سقتِ العين أو ما سقتِ السماءُ، وعلى ما سُقِيَ بالغَرْب (الدلو): نصف العشرِ..

وفي الإبل: في الأربعين ابنةٌ لَبُون. وفي الثلاثين ابنٌ ذكرٌ. وفي كل خَمْسٍ من الإبلِ شاة، وفي كل عشرٍ شاتان. وفي البقر: في كل أربعين بقرةٌ، وفي كل ثلاثين تَبيعٌ ـ جَذَع أو جَذَعة (الصغير من البهائم)...

وفي الغنم: في كل أربعين من الغنم سائمةٌ (شاة) وحدها. وأَنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصَدَقة، فمن زادَ خيراً فهو خيرٌ له، ومن أدَّى ذلك وأشهَدَ على إسلامه، وظاهر (عاون) المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذمة الله وذمة رسوله. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنَّهُ من المؤمنين له ما لهم، وعليه ما عليهم. ومَن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفْتَنُ عنها (لا يرد عنها) وعليه الجزية: على كل حالم ـ ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد ـ دينارٌ وافٍ من قيمة المعافر (ثياب اليمن) أو عِوَضُه ثوباً. فمن أدى ذلك إلى رسول الله، فإنَّ له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدوٌّ لله ولرسوله»[2].

---

(١) إن البحث في الزكاة مفصَّلٌ في مؤلفنا: موسوعة الأحكام الشرعية الميسرة، كتاب العبادات، فيمكن لمن أراد الرجوع إليه.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٣٥ و٢٣٦.

أما كتابه ﷺ إلى زرعة ذي يَزِن، فقد جاء فيه[1]:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«أما بعد، فإنَّ رسولَ الله محمداً النبيَّ أرسَلَ إلى زُرعة ذي يَزن أنْ إذا أتَاكمُ رُسُلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذُ بن جَبَل، وعبدُ اللّه بن زيد، ومالكُ بن عُبادة، وعُقبةُ بن نمر، ومالك بن مُرَّة وأصحابهم، وأَنِ اجمَعُوا ما عندكم من الصدقة، والجزية من مخاليفكم[2]، وأبلِغوها رُسُلي، وأنَّ أميرهم معاذ بن جبل[3]، فلا ينقلبَنَّ إلَّا راضياً.

أما بعد، فإنَّ محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إنَّ مالك بن مرة الرَّهاويّ قد حدّثني أنك أسلمت من أول حِمْيَر، وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بِحِمْيَر خيراً. ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإنَّ رسول الله هو وليُّ غنيّكم وفقيركم. وإنَّ الصدقة لا تحمل لمحمدٍ ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يُزَّكى بها على فقراء المسلمين وأبناء السبيل. وإنَّ مالكاً قد بلَّغَ الخبرَ وحفِظ الغيب،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) مخاليف: جمع مخلاف: البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى.

(٣) ومن وصيّة رسول الله ﷺ إلى معاذ حين بعثَهُ إلى اليمن أن قال له: «يسِّرْ ولا تُعسِّرْ، وبشِّرْ ولا تنفِّرْ، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مِفْتاح الجنة، فقل: شهادة أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له». وقد روي في سيرة ابن هشام، عن ابن اسحاق أيضاً، أن معاذاً حين قدم اليمن قام بما أمرَهُ به رسول الله ﷺ فأتته امرأة، فقالت: يا صاحب رسول الله، ما حقُّ زوج المرأة عليها، قال: وَيْحَكِ! إنَّ المرأة لا تقدر على أن تؤدِيَ حق زوجها، فأجهدي نفسك في أداء حقه ما استطعت، قالت: واللَّهِ لئن كنت صاحبَ رسول الله ﷺ إنك لتعلم ما حق الزوج على المرأة، قال: ويحَكِ، لو رجعتِ إليه فوَجدتِهِ تنتغِبُ (تسيلُ) مَنْخِراهُ قيحاً ودماً، فمصَصْتِ ذلك حتى تذهبيهِ ما أدّيتِ حقّه» (السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٣٧).

وآمركم به خيراً. وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأُولي دينهم وأُولي علمهم، وآمرك بهم خيراً فإنه منظور إليهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفد الحبشة

وقدم من الحبشة إلى النبي ﷺ وفدٌ من اثنين وسبعين رجلًا على رأسهم ذو مِخْبر (ويقال: ذو مخمر) ابن أخي النجاشي، فأسلموا جميعاً، ولازم ذو مخبر النبيَّ ﷺ وخدمَهُ، وروي عنه أحاديث رسول الله ﷺ ومنها أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستصالحون الروم صلحاً آمناً»[1].

تلك هي بعض الوفود التي جاءت المدينة. ونحن لم نستطع أن نَسيرَ في زحمة هذه الوفود مساراً يتوافق مع مواقيت قدومها، لأنَّ التاريخ الإسلامي خلو من تعيين وتحديد زمانها تحديداً دقيقاً. وإن اتفقت الآراء، على أن معظم الوفود التي أتت تنضوي تحت راية الإسلام بدأت بعد غزوة تبوك التي انتهت في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة، واستمرت خلال الأشهر الباقية من تلك السنة، وعلى امتداد أيام السنة العاشرة حتى انتقال خاتم النبيين ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

والذي حملَنا على عدم التفصيل في الوفود، ما كان من تشابه في أمرها، وتماثل في الغاية التي سعت إليها، إلَّا ما رأينا فيه حالةً معينة، أو حكماً يستوجب الذكر. وإننا وإن لم نفصِّل في ذلك، فإنا نورد أسماء القبائل والبطون التي وفدت، وكان من أبرزها الوفود التالية[2]:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٧/ ٤٢٦.

(٢) هيكل، حياة محمد، ص ٤٣٦.

١ ـ مُزينة، وأسَدَ، وتميم، وعبْس، وفزارة، ومرَّة، وثعلبة، ومحارب، وكلاب، وعَقيل بن كعب، وجَعْدة، وقُسير بن كعب، بني البكّاء، وكنانة، وأشجع، وباهلة، وسُلَيْم، وهلال بن عامر، وعامر بن صعصعة.

٢ ـ ومن ربيعة جاءت وفود: عبد القيس، وبكر بن وائل، وتغلب، وحنيفة، وشَيْبان.

٣ ـ وجاءت من اليمن وفود: طيء، وتجيب، وخوْلان، وجعفّي، وصُداء، ومُراد، وزُبيد، وكِندة، والصَّدِف، وخُشَينْ، وسعد هُذيم، وبلّى، وبهراء، وعُذْرة، وسلامان، وجهينة، وكلْب، وجَرْم، وغسّان، والحارث بن كعب، وسعد العَشيرة، وعَنْس، والداريّين، والرَّهاويّين (حي من مذحج)، وغامِد، والنّخع، وبجيلة، وخَثعَم، والأشعريين، وحضرموت، وأزد عُمان، وغافق، وبارق، ودوس، وتمالة، والحُدَّان، وأسْلَم، وجُذام، ومهرة، وحِمْيرَ، ونجران، وجيشَان.

تبليغ الإمام علي آيات من سورة التوبة، وحج أبي بكر بالناس

كانت سنوات قليلة في عمر الزمان، وقام الإسلام ديناً لله تعالى، يقهرُ الأعزَّ في جبروته، وينزل المستكبر عن غطرسته، ويزيح الطاغية عن طاغوته.. فدخَلَ الناسُ فيه عن قناعةٍ ورضىً.

ولقد برز أصحاب رسول الله، والمؤمنون من المسلمين، خلال تلك السنوات، أوفياءَ للعهد، أمناء على الدعوة. لم يهنوا ولم يَقْعُدوا، بل بذلوا وأعطوا الكثير. وخاضوا تحت لواء

رسول الله ﷺ، وبقيادته وحكمته، معارك الجهاد المقدس، مسجلين أروع الانتصارات، ناشرين دعوة الإسلام، رافعين راية الله سبحانه خفّاقة على الأرض، حيثما استطاعوا أن يثبّتوا حقَّ ربهم على عباده، الذي من أجله يجاهدون.

ورأت قبائل العرب، القريبُ منها والبعيد، ما يفعله الإسلامُ بنفوس أصحابه، وأدركت عظمةَ هذا الدين وجليلَ أمره، فأقبلت على المدينة، زرافاتٍ ووحداناً، تدخل في الإسلام، دينِ الله ـ تعالى ـ للناس كافةً.

وكان رسول الله ﷺ قائماً على ملاقاة تلك الوفود، صارفاً معظم أوقاته في توضيح معالم هذا الدين الكريم، شارحاً أحكامه، مبيِّناً دقائقه، بما يملأ القلوب هدايةً، والعقول بصيرة، والنفوسَ أمْناً وسكينةً.

ولقد ظلَّ الرسول ﷺ على هذه الحالة من الانشغال، منذ أن عادَ من غزوة تبوك، التي انتهت في شهر رمضان من سنة تسع هجرية، حتى حلَّ موسم الحج، فرأى أنه غير قادر على مغادرة المدينة ليظل على استقباله للوفود وهدايتها؛ لأن هداية الناس من مستلزمات الدعوة المقدسة، بل هي منتهى غاياتها القاصدة، وإنّ بين المؤمنين رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، ويمكنهم أن يكونوا أمراء على الحج بالناس. ومن هؤلاء أبو بكر الذي صدَّق الرسول وآمن به، وظلّ إلى جانبه في مختلف مراحل الدعوة في عسرها ويسرها. وإنه ما يزال على وفائه للعهد لا ينفك على نفس الطبيعة والدأب، طائعاً، مؤمناً، مصدّقاً.

ولقد وقَعَ خيار رسول الله على الشيخ أبي بكر الصديق ﷺ أميراً على الحجيج، فخرج في ثلاثمائة رجل من المسلمين في شهر ذي القعدة من تلك السنة، ومعه عشرون بُدنة لرسول الله ﷺ، ولنفسه خمس بدنات. وسارَ بالناس على هُدى الله تبارك وتعالى حتى كان بـ «ذي الحُليفة»، فإذا بعليِّ بن أبي طالب ﷺ في أثره، وهو يركب ناقة رسول الله ﷺ القصواء.

وكان الرسول الأعظم قد اختار موسم الحج ليبلغ الناس الآيات البيّنات التي أنزلها ربُّه تعالى عليه، والتي تحدد للدعوة الإسلامية مزاياها على المعتقدات والأفكار الأخرى، وللمسلمين القواعد الثابتة في العلاقات والعهود التي أقيمت من قبل، وما ستكون عليه من الآن وصاعداً. وتلك الآيات هي ما يعرف بـ«سورة براءة» في القرآن الكريم. «فلمَّا نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ وكان قد بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال ﷺ: «لا يؤدّي عنّي إلَّا رجلٌ من أهل بيت.، ثم دعا عليَّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: اخرج بهذه الآيات من صدر «براءة»، وأذّن بها في الناس يوم النحر إذ اجتمعوا بمنى»[1].

وخرج عليٌّ يحمل «براءة» إلى أن أدرك أبا بكر في الطريق، فسأله: أمير أم مأمور يا أبا الحسن؟ فقال له: بل مأمور[2] من رسول الله ﷺ لأبلِّغ «سورة براءة» للناس التي نزل بها جبرائيل الأمين من الله العلي العظيم على قلب رسوله الأمين، ثم مضيا معاً.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص١٩٠ (عن ابن اسحاق عن حكيم بن حكيم بن عبّاد ابن حُنيف، عن أبي جعفر محمد بن علي رضوان الله عليه).

(٢) الرحيق المختوم، ص٤٠٤؛ والسيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

وأهمية سورة براءة ـ أو سورة التوبة ـ أنّ صدْرَ آياتها يتناول علاقة المشركين بالدولة الإسلامية، هذه الدولة التي تدين بدين الله الواحد الأحد، وتطبِّق حكم الله تعالى في الأرض، فلا بد أن يكون كيانُها خالصاً من الشرك، ومن الآفات التي يسببها أهل الكفر والنفاق!.. وهذا ما لم يكن متوفراً بصورة كاملة بعد، لأنه كان لا يزال في بعض أنحاء شبه الجزيرة بقايا من المشركين، الذين ظلوا يحجون إلى بيت الله الحرام على عهدهم القديم في الجاهلية. ومثلهم أولئك الذين عاهَدهم النبيُّ ﷺ لمواعيدَ مؤقتة، منتظراً أمر الله سبحانه، بما قد ينزّل من أحكام تبيّن علاقتهم النهائية بالبيت العتيق، وبالدولة الإسلامية.

وها هي تلك الأحكام قد تجلَّت بما أنزل الله عز وجل من آياتٍ محكمات تبيّن أنَّ الله سبحانه وتعالى بريءٌ من المشركين ورسولُهُ، لا عهد لهم بعد الأشهر الحرم، إلَّا إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فيكونون إخواناً في الدين. هذا هو قانون رب العالمين الذي لا يقبل بأن يُترك الناسُ، الذين لا يعبدون الله تعالى حقّ عبادته، لأهوائهم ومعتقداتهم البالية الخرقاء. وإلَّا كان في تركهم إقرارٌ بالباطل إلى جانب الحق، وقبول بالكفر في جانب الإيمان. وهذا ما يتنزّه عنه الإسلام، وهو دين أهل السماوات والأرض، كما أرادَهُ الخالق العظيم والمدبر الحكيم.

ثم إنه في قوانين الحكم والاجتماع، أنه من غير الطبيعي أن يجتمع الناس وهم على تناقض في الفكر والشعور، وأن يتوافق الثائرون على الشرك والأوثان، مع المقيمين عليهما. فكيف إذا كان هذا الاجتماع حول بيت الله الحرام، الذي أراده سبحانه وتعالى أمناً

ومثابة للناس، لأنه أول بيت عُبد فيه الله تعالى على وجه هذه الأرض؟!

ولذلك فإنه من حق الدولة الإسلامية، بل من واجبها، أن تصون عهد الله تعالى، فتبعد كل ما هو قائم على الشرك بالله، وأن تحميَ أبناءها ممن يخالف أفكارهم، ويعارض مشاعرهم، حتى تستطيع أن تُطهّر أرضَها ممن ينابذها في العَقيدة، وتحافظ على وجودها، بعيداً عن عوامل الضعف، والاضطراب والانحلال.

ثم إن التعارض ما بين العقيدة الإسلامية وما بين عقائد الكافرين والمشركين إنْ في الجوهر والشكل، أو في المعنى والمبنى، يوجب على الدولة الإسلامية محاربته والقضاء عليه. فحقتْ كلمة الله العلي القدير، عندما أنزل آيات «براءة» على قلب رسوله الكريم، فأودعَها الرسولُ أحدَ أهلِ بيته، ابنَ عمه، وزوجَ ابنته فاطمة الزهراء، علي بن أبي طالب (كرم اللَّهُ وجهه) كي يبلّغها للناس يوم الحج، وفي أحد أهمّ الأماكن التي يجتمع فيها الناس لأداء المناسك.

وتأتي الحكمة من إبلاغ تلك الآيات يوم الحجّ، باعتباره اليومَ الجامعَ لأكبر عدد من الناس، لأنَّ هذه الآيات تتضمن أحكاماً خاصة بالمسجد الحرام نفسه، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية، عندما يأتون حاجّين، أن يطوف رجالٌ منهم عُراةً، وليس على أحدهم ثوب يستره. وكان الظن عند هؤلاء أنهم بذلك يعظِّمون حرمات البيت. فيقول أحدهم وهو يطوف عارياً: «أطوف كما ولدتني أمي، ليس عليَّ شيء من الدنيا خالطه الظلم». وهو من التقاليد الجاهلية التي لا تليق بكرامة الإنسان، ولا بحرمة البيت الحرام، التي يرفضها الإسلام رفضاً

باتّاً، لأنَّ مِن أُولى أهدافه الاهتمامَ بتهذيب النفس الإنسانية مما يشوبها من الأمراض والعاهات، وصيانةَ الجسد ممّا يعرّضه للآفات المرضيّة، والمظاهر الإباحية. ولذلك كان رفض الإسلام لكل ما يجعل الإنسان متحلّلًا من القيم الخلقية والآداب العامة، وفي مقدّمتِهِ العُريُ بجميع أشكاله.. وإذا كان قد وقَرَ في ذهن العربيِّ الجاهليِّ أن طوافَهُ بالبيت الحرام عارياً يخلِّصه من ظلم الدنيا، فإنَّ وسيلته إلى هذا الخلاص غير مبرّرة، لأنه لا يمكن محاربة الظلم بظلم أشدَّ منه، أو الشرَّ بشرٍّ أعتَى منه. ففي العُري ظلم للجسد وللنفس، لأنه من أكثر الفعال التي تهدرُ كرامة الإنسان، وتحطُّ من قيمته. ولو لم يكن كذلك، لما هدَى الله سبحانه وتعالى آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام إلى ورق الشجر يخصفانه ليسترا به عوراتِهما، وهما لا حسيب عليهما ولا جليس لهما، لأنهما كانا وحيدين في الجنّة التي خلقهما فيها الله تعالى.

ومن العجيب، أن يعودَ الإنسان، في عصرنا الراهن، عصر الذرّة، وغزو الفضاء، وعصر التكنولوجيا والمعلوماتية، وعصر التمدن ـ وفقاً لما يدَّعون ـ إلى وثنية عارية، لا تقيم لمفهوم الكيان الآدمي أيَّ وزن أو اعتبار، فتجيز قوانين العُري، ويُسمح للعراة بإقامة النوادي وأماكن الاجتماع بترخيصٍ حكوميٍّ تحت ستار الحرص على تأمين الحريات الشخصية واحترام الحقوق الفردية. بل وأسوأ من ذلك أن تنشأ محطات فضائية للتلفزيون وبتراخيص قانونية تنقل الصور والمشاهد عن الدعارة، وممارسة الجنس بأبشع المظاهر والأساليب والانحلال.. وتظل هذه المحطات تعمل في الليل والنهار وتبث إلى مختلف أنحاء الدنيا!!.. دون أنْ يتنادى أهل الشرف والكرامة إلى منعها!!..

فأين الفرق ـ في مثل هذه القوانين أو التراخيص أو الأعمال ـ بين الإنسان (بكماله الجسدي والنفسي) وبين الحيوان في الغاب (ولا عقل عنده ولا حضارة أو مدنية). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[1]. لقد جعلك الخالقُ العظيمُ، يا أيها الإنسانُ، بشراً سوياً، جميلًا في الخَلْق، حسناً في التصوير، فهل تُذْهِبُ جمال خَلقك وحسن صورتك في عُرْي يحطُّ من قدرك، ويقضي على كرامتك؟!.. عُدْ إلى الإيمان، وابتعد عن وثنية العري والاستهتار، وعن جاهلية الإباحة والخلاعة، تسلَمْ ويسلمْ معك مجتمعك، وتسلَمْ كرامة إنسانيتك!..

وفي العودة إلى مسيرة الحج الأكبر، فقد حارب الإسلامُ الوثنية والشرك والجاهلية بكل الأشكال التي كانت عليها، وما بُنيَ على تلك المعتقدات من الأفكار والمفاهيم الملتوية، والعادات والتقاليد الفاسدة، فكان الحكمُ القرآنيُّ الذي يمنع على المشركين الحجّ إلى بيت الله الحرام لئلا يدنّسوه بالنجَس، ولذلك أنزلت «براءة» التي تجيزُ لهم الحجَّ الأخير في السنة التاسعة للهجرة، فيتبلّغوها بهذه المناسبة على الرغم ممَّا بينهم وبين المسلمين من الفوارق، حيث يطوف ـ مثلًا ـ هؤلاء مستورين، متجمِّلين بكل ما يليق بقدسية المكان وكرامة الإنسان، بينما يطوف المشركون مكشوفين، متحلِّلين من مقاييس الآداب والكياسة.. وحيث المسلمون يلبّون قائلين: «لَبيك اللّهم لبَّيك، لَبَّيك لا شريك لك لَبَّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، في حين يلبّي المشركون قائلين: «لبيك لا شريك لك

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٦ ـ ٨.

إلَّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملكك». . وحيث المسلمون يهلّلون ويكبّرون، والمشركون يصفّقون ويصفّرون. .

أجل، كان التناقضُ في العقيدة، والتضاربُ في الأفعال والأقوال. . وهذه الفوضى لا تليق بكرامة دولةٍ، ولا تُناسِبُ وحدة أمة، ولا تتفق مع الأهداف من الاجتماع حول بيت الله الحرام. لا سيما وأن الحجَّ بالنسبة للأمة الإسلامية، لا يعني فقط أداء الفريضة ومناسكها، بل واجتماع عدد كبير من أبنائها على الأخوة، والمحبة، والألفة والوفاق في مشهد واحد، ومظهر موحِّد حيث يقتضي أنْ تتطهّر القلوبُ وتشفى النفوس، من جراء المحاسبة التي يقيمها كلُّ حاجٍّ مع نفسه عما سَلَفَ منه، والإنابة لربه رجاء التوبة والمغفرة. وفوق ذلك، فإن موسم الحج يأتي ليكون مناسبة للمعنيّين من أبناء الأمة لينظروا سوياً بأمورها الهامة، ومعالجة مشكلاتها، وتدعيم الروابط والعلاقات بين مختلف شعوبها. . .

وهل يمكن أن تكون للمسلمين تلك الوحدة الجامعة، الهادفة، وبين ظهرانيهم عناصر غريبة عنهم في كل شيء: في العقيدة، وفي التفكير، وفي الشعور، وفي المنهج والقول والسلوك؟!

كان من الضروري إذن لأمن الدولة، وسلامة وجودها ـ بالإضافة إلى العقيدة الدينية وهي الأصل ـ أن تحدّد موقفها من كل الجماعات الأخرى غير المسلمة، وتُصحِّحَ وضْعَها على النحو المألوف في كل دولة.

وبسبب تلك الاعتبارات الهامة انتظر عليٌّ (كرم اللَّهُ وجهه) حتى كان الناس على منى، فنادى مناديه بالاجتماع إليه، ثم وقف على

مرتفع مطلٍّ طالباً الإصغاء والانتباه، ثم رَاح يتلو عليهم صَدْرَ سورة التوبة، المعروف بـ «براءة»، بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وظَلَّ عليٌّ (كرَّم اللَّهُ وجهه) يتابعُ التلاوة حتى وصَلَ إلى قولِهِ تعالى:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

ثم تتعاقَبُ تلاوةُ عليٍّ (كرَّم اللَّهُ وجهه) للآيات البيّنات حتى ينتهيَ إلى قولهِ تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وبَعْدَ أن أتَمَّ عليُّ بنُ أبي طالب تلاوة هذه الآيات المباركات من «سورة التوبة» على مسامع الحجيج في منىً، وقَفَ هنيهةً، ثم تابع ـ بأعلى صوته ـ معقّباً على آيات الله سبحانه بالقول: «أيها الناس! إنه لا يدخل الجنةَ كافرٌ، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته».

وكان في تبليغ آيات «براءة»، وتوضيحِ هذه الأمور الأربعة التي أعقب بها عليٌّ عليه السلام، إنذارٌ عامٌّ للمشركين، ونبذٌ لما بينهم وبين المسلمين من عهود الأمان، على أن تكون لهم مهلةُ أربعةِ أشهرٍ، وهي مهلةٌ كافية كي يتدبروا أمورهم، ويحددوا مواقفهم: فإنْ تابوا وآمنوا، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهم إخوانٌ مسلمون، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وإنْ رفضوا وأصَرّوا على الشرك، وهُم في أرض الإسلام، فإنَّ الذنْبَ يَقعُ عليهم، واللوم على أنفسهم، لأنَّ على المؤمنين، بعد انقضاء تلك المهلة، أن يملأوها عليهم خيلًا ورجالًا، وأن يقاتِلوهم كافّةً، كما أمَرَهُمُ الله تعالى بذلك، حتى

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

يقطعوا كلَّ دابرٍ للفوضى والاضطراب، ويقضوا على مكامن الغدر والخيانة، فلا يكون أمام المشركين مجالٌ للتآمر على الدولة، كما كانوا يفعلون في الماضي، وكما تدلُّ عليه الشواهِدُ والأحداثُ الكثيرة منذ ظهور الإسلام.. نعم، إنه لا شيء يجيز للمشركين البقاء بين المسلمين، وهم على تلك الأحوال المضرّة. وما عليهم إلَّا الإذعانُ للحق، أو الهربُ من وجه هذا الحق..

وهكذا كان اختيارُ يومِ النحر بـ «منىً»، لأنه يوم جامع حافل، فيه يأتي الناسُ من كلِّ فجٍّ عميق، ويتلاقون من كل صُقْع.. ولقد كان اختيار هذا اليوم، حتى يُعلِنَ الإسلامُ على الملأ كلّهِ، نبْذَهُ لعهود المشركين، وإعلان الحرب عليهم عامة. وبذلك فإنَّ الإسلامَ لم يُبَيِّتْ لهم غَدْراً، ولم يأخُذْهُمْ بغْتَةً، ولم يُعامِلْهُمْ على نقضِ عهودهم معه بمثل ما قد يفعلون، فيأخذهم خُلسةً وهم غافلون.. أبداً لم يكن الإسلامُ ليقف هذا الموقف، وقد ألِفَهُ كثيراً من أعدائِهِ الذين لم يلق منهم إلّا الغدر والخيانة. فعندما أرادَ أن ينهي العلاقةَ التي فرضت الظروفُ إقامتَها مع معسكر الشرك، وأن يضَعَ الحدودَ الفاصلة بينَهُ وبين أعدائه، فلا يكون بعدها رجعة ولا تردد، أنذر المشركين علانيةً، وأعطاهم المهلة كي يتدبّروا أمورهم، ويتصرّفوا على ضوء ما يَرَوْن. وكانت تلك المهلةُ أربعةَ أشهر لمن لهم عهودٌ غيرُ محدَّدة الأجل، ونهاية الأجل لمن كان لهم عهود معلومة ومحددة.. وإنَّ لهم خلال هذه المهلة ـ الكافية ـ أن يسيحوا في الأرض، فينظِّموا أمورهم، ويتدبَّروا أحوالهم، فمن كانت له تجارة أو دَين، أو أية علاقة مع غيره، عرف كيف يعالجها، بما يؤمِّن حقوقه، ويصون حقوق الآخرين.. هذا هو العدل والإنصاف مع الخصوم، والشرف والسمو

مع الأعداء، والأمانة والاستقامة مع المعاهدين وغير المعاهدين، وهو طريق مستقيم للناس أجمعين. ومثل هذا الأفق الوضيء، بمداه الإنساني البعيد، الذي لم يبلُغه إلَّا الإسلام، يعطي الإنسانَ القدرةَ على الجزم بأنَّ هذا الدين هو وحدَهُ الحق، في العقيدة والأفكار، وفي المعاملات والعلاقات، كما أثْبتتهُ أحداثُ الماضي، وكما تدلُّ عليه أحكام هذا الدين في منطلقاتها وأهدافها السوية الكاملة.

وكما حدَّدَ الوحيُ للنبيِّ محمد ﷺ موقفَ المسلمين من المشركين، فقد حدَّدَ له أيضاً الموقفَ من أهل الكتاب الذين يعيشون في ظلِّ الدولة الإسلامية، أو يحيطون بأطرافها. فأمّا أهل الشرك فقد دعاهُمُ الله ورسولُهُ إلى الإيمان بالإسلام واعتناقه عقيدة ونهج حياة، فإنْ لم يُلَبُّوا هذه الدعوة فلا جَرَمَ أنَّ على المؤمنين قتالَهم وإخراجَهم من بين ظهرانيهم أو وجبَ عليهم الركون والتقيد بأحكام الدولة وقوانينها، والطاعة لحاكمها دونما تآمر أو تخريب بين الناس وفي المؤسسات.. ودونما الظهور بمظاهر الشرك والوثنية، بشتى صورها وأشكالها، أو حتى العمل في الخفاء بما يتعارض ومصلحة الناس.. وإن اهتدَوْا وأسلموا، فلا بأس عليهم ولا خوف، بل هُمْ إخوةٌ في الدين، وشركاء في الهدف والمصير.. وأما أهل الكتاب، فلهم الحق المطلق في البقاء على العقيدة التي بها يدينون. ولهم ملءُ الحق في مشاركة المسلمين في أوطانهم، ومخالطتهم في معايشهم، على أن يكونوا أبناءَ المجتمع الواحد، الذين يعملون لخيره وصلاحه، ويحرصون على سيادته ومنعته. فالكل متساوون في الحقوق والواجبات، والكل مدعوون لإقامة الأمن والسلم وحسن الجوار.. ولكن إنْ بدا من أهل الكتاب أمارةُ غدر أو محاولة فتنة، أو اعتداء

على أمن الدولة، أو على أخوانهم في الوطن، أو مخالفة للأحكام الشرعية، أو تجاوز للحدود التي أرادها الله سبحانه لتسوية الأوضاع المجتمعية وإصلاحها!.. نعم إن بدا أنهم يعملون لذلك، فعلى المؤمنين أن يردعوهم بكل الوسائل حتى يخضدوا شوكتهم، ويُخضعوهم لحكمهم، وذلك بأمرٍ من الله تعالى:

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾[1].

هكذا حدَّدَ الإسلام موقفه من المشركين، وموقفه من أهل الكتاب، الذين يعيشون في كنف دولة الإسلام أو على حدودها. وليس في تحديد هذا الموقف ما يخالف الدساتير والقوانين والأسس التي تقوم عليها الدول، لأننا نرى في الحضارة القائمة اليوم، أنَّ لكل دولة قوانينها وأنظمتها الخاصة، ولها حقوقها الكاملة في اتخاذ كافة التدابير التي ترى فيها حماية شعبها وأرضها. وتأتي المعاهدات والاتفاقات الدولية لتزيد الترابط والتعاون في العلاقات الدولية، ولكنَّها لا تمسُّ بسيادة الدولة على أرضها وشعبها.. هذا من حيث المبادئ التي يَقوم عليها القانون الدولي والأعراف الدولية، أما ما يحصل في الواقع، فهو أمر آخر تعرفه شعوب العالم ودوله بأسرها ولا يتسع المجال لبحثه هنا.. فالمهم أن دولة الاسلام، كدولة جديدة كان جديراً بها أن تضَعَ الشرائع وأن تسنَّ القوانين التي ترعى مصالح أفرادها، وتحفظ سلامتها وكيانها، مع الفارق بين هذه الدولة، وغيرها

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

من الدول الأخرى، بأنَّ ما تضعه دولة الإسلام من أحكامٍ شرعيةٍ يجب أن يكون مستقىً من القرآن الكريم، كتاب الله الأزليّ، الثابت على مدى الدهور، ومن السنّة النبويَّة الشريفة، وأنَّ ما تسنُّه من قوانين إدارية عصرية، أو ما تستعين به من العلوم والتكنولوجيا التي تأخذها من أي مصدرٍ كان.. يجب أن تؤخَذَ، وأن تستعملَ بما يتوافق مع الأحكام الشرعية، ولا يخالف جوهَرَ الاسلام..

وعلى هذه الأسس وبفضل أحكام القرآنِ، وبهدْي «براءة» من هذا الكتاب المبين، لم يحجَّ ـ والحمد لله ـ من يومئذٍ، مشرك إلى بيت الله الحرام، ولم يَطُفْ حوله عريان. ومن يومئذٍ وُضِع البنيانُ المتين الذي تقوم عليه دولة الإسلام في علاقاتها الداخلية والخارجية.

وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ

كانت الوفود ما تزال تترى على المدينة، وملءُ جوارحها الشوق للقاء النبيِّ محمد ﷺ، ومنتهى رجائها الاجتماع إليه، والاهتداء إلى دين الله تعالى على يديه.. وكان الرسولُ الأعظمُ يستقبل تلك الوفود، بنفس راضية وصدر منشرح دون أن يضيِّع ساعةً من وقتٍ.. إذ كان عليه ـ بالإضافة إلى إكرام الوفود وهديها ـ، أن يتدبّر الشؤون العامة، مثلما يرعى الحالات الفردية الخاصة، ناهيك عن القيام بالفرائض والطاعات، وهدي المؤمنين، والأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم.

على أنه، في خضمّ الانشغال بالوفود من قريب ومن بعيد، وعلى الرغم من جسامة مهمته في القيام بشؤون الأمة، وعِظَم مسؤوليته في تسيير شؤون الدولة، لم يكن النبيُّ ﷺ ليغفلَ قطُّ عن رعاية أهل بيته، والاهتمام بهم اهتماماً كبيراً، فكان بعد الفراغ من

القيام بجميع الأعباء وتدبير شتَّى الأمور، يذهب إلى أزواجه، فيطوف عليهن واحدة، واحدة، يتفقدهُنَّ بعطفه، ويستمع إلى مطاليبهنَّ بحنانه، ويؤمن لهنَّ حاجاتهن بكفايته. ثم يقصد بعد ذلك زيارة ابنته فاطمة الزهراء وحفيديه الحسن والحسين عليهم السلام حتى يأنس بقربهم بعض الوقت. ثم يتوجه لرؤية ابنه إبراهيم عليه السلام، الذي يعيش في كنف أمِّه، السيدة مارية، على الدفء والحنان، ويترعرع في ظلال أبيه على المحبة والرحمة.

وكان إبراهيم عليه السلام وهو طفل في شهره السادس عشر، قرة عين لأبيه، إذ ما إن يطلُّ عليه حتى يمتلىءَ ثغرُهُ النديُّ بابتسامةٍ عريضة معبّرةٍ، ثم يخلد إلى صدره بهدْأة عميقةٍ مريحة، فيحتضنه صلى الله عليه وآله وسلم بالحبِّ الأبوي، والعطف النبويِّ اللذين لا تدانيهما أية مشاعر في الوجود مهما بلغت من السمو، لأنه الإنسان المؤمن الذي يدرك معنى الطفولة، عطاءً من الخالق العظيم، يتجسَّدُ في أروع صورة وأحسن تقويم.. فكان من الطبيعيِّ أن يكون حبُّه لطفله إبراهيم عليه السلام حبّاً كبيراً، وكان من البديهي أن يُغدق عليه من نفحات الحب، وخالص الشعور، ما يؤمِّنُ له العيش في أنقى الأجواء طهراً وحناناً وإنسانية، فيمتلىء عافية وحيوية، ويشعُّ نورانية وبهاءً، ويكون أشبه الناس خَلْقاً بأبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

كان كل شيء من حول الطفل يشير إلى أنه سوف ينمو ويكبر إذا شاءَ الله تعالى له الحياة. ولكن من أين للإنسان أن يعلَمَ ما يقدِّر الله العزيز الحكيم، وما يشاء في خلائقه أجمعين؟... وها هو حكم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يحلُّ على إبراهيم، ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيقع، بين ليلة وضحاها، في مرضٍ شديدٍ، يجعله طريحَ فراشه الصغير، لا تفيده

مداواة ولا تُجديه طِبابة. بل على العكس كانت حاله تسوء وتسوء حتى خيفَ عليه، فقرَّ الرأي على نقله إلى نخلٍ بجوار العالية ـ التي تعرف اليوم بمشربة أم إبراهيم ـ علَّ في الجو النقي، والمكان المرتفع، ما يساعد الطفل على أن يُبِلَّ من مرضه، ويستعيد عافيته..

وهنالك، وبين النخيل، قامت أمُّهُ وأختُها السيدة سيرين تمرّضانه، وتدأبان في السهر عليه ليلَ نهار، كما راح النبيُّ ﷺ يصرف معظم أوقاته ـ خارج انشغاله بالأعباء العامة ـ إلى جانب ابنه، يحوطه بعنايته، ويحنو عليه برحمته. إلَّا أنَّ قضاءَ الله تعالى كان فوق كل شيء، فلم تمضِ على مرض إبراهيم عليه السلام، إلَّا فترة وجيزة، وجاءَ أجلُهُ الذي لا رادَّ له، فأسرع من يخبر النبيَّ ﷺ في المسجد، أنَّ ابنهُ في الاحتضار.

ووقع الخبرُ على النبيِّ ﷺ وقْعاً شديداً، فقام يسعى إلى ابنه، وقد وهنت بعض قواه، بما جَعَلَ قدميه لا تكادان تحملانه على المضي في دربه، فطلب إلى عبد الرحمن بن عوف، بجانبه، أن يقترب منه لكي يعتمد على كتفه في الطريق.

وكان كثيرون من الصحابة قد وصَلوا والتفّوا حول رسول الله ﷺ، وهو يأخذ بيديه الشريفتين طفله ويضعه في حجره، بكل أسىً ولوعة، فيفتح الصغير الطاهر عينيه الغائرتين، وهو يجود بنفسه وكأنَّه يودع أباه الوداع الأخير، في هذه الدنيا، ثم يغمضهما مستسلماً لله ـ سبحانه ـ وقد قبضه إليه، مخلِّياً وراءه أباً يعتصره الألم، وأمّاً تأخذها اللوعة.. ففاضت عينا محمد ﷺ بالدموع، وغمرته الأحزان.. إلَّا أنه وهو النبيُّ الصابر المصابر لم يجعل المصابَ يقوى

عليه، فقال، وهو يُعزّي نفسه: «يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقّ، ووعدٌ صادق، وأنَّ آخرَنا سيلحق بأولنا، لَحَزِنَّا عليك بأشدَّ من هذا». . وصمتَ ﷺ بعض الوقت، وأنظاره لا تحيد عن الجسد الصغير المسجّى أمامه. ثم عاد وقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب. وإنَّا يا إبراهيم عليك لمحزونون».

وقد رأى الناسُ في تلك الساعةِ السيدة مارية، أمَّ إبراهيم، في حالةٍ من الهلع لا توصف، وهي ترتمي على جسد ابنها ملهوفةً، مكلومةً، وبجانبها أختُها السيدة سيرين تولول وتصرخ، حتى أبْكَتَا الناسَ جميعاً من حول رسول الله ﷺ.

ورأى النبيُّ ما تفعله الأمُّ وأختُها، فلم يُرضِهِ ذلك. ثم أشار إلى الناس بالهدوء، وقال: «ما عن الحزنِ نهيتُ وإنما عن رفع الصوت بالبكاء. وإنَّ ما ترون بي من حزن أثَرُ ما في القلب من محبةٍ ورحمة. ومن لم يُبد الرحمةَ، لم يُبدِ غيرُهُ الرحمة عليه». . ثم تطلع إلى تلك الأم المحزونة وأختها، مواسياً فقال لهما: «إنَّ له لمرضعاً في الجنة». . ومبدياً أنَّ إبراهيمَ طيرٌ من طيور الجنة، يذهبُ إلى ذلك النعيم الأبدي فيَسْعَدُ ـ بإذن الله ـ في رحابه غِرّيداً، ويخلُدُ في عوالمِهِ شادياً يسبّح بآلاء الله تبارك وتعالى، ويرتِّل أنغامه القدسية الأزلية.

وفي غمرة الأحزان قام الفضل بن العباس، ابن عم النبيِّ، فغَسَل الطفل وألبسَهُ كفنَهُ، كي يرتحل عن هذه الدنيا طاهراً مطهَّراً، حتى إذا أكمل تجهيزه، وضع على سرير صغير، فحمله المشيّعون، ومشت الناس وراء أبيه، ليواروه جدث الرحمة في مقبرة بقيع الغرقد، بعد أن صلَّى عليه الرسول ﷺ والمسلمون.

وأُنزل الجسدُ الصغير إلى مثواه الأخير، ثم سوَّوْا القبرَ عليه، فأَخَذَ النبيُّ الماءَ وراح يرشُّ على ترابه ويسوّيه بيديه الشريفتين، ثم يعلِّم عليه بعلامة، وهو يقول. «إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تُقِرُّ عين الحيِّ، وإنَّ العبد إذا عمل عملًا أحب الله أن يُتقِنَهُ»(١).

ووافق ذلك اليوم الذي توفي فيه إبراهيم عليه السلام كسوفُ الشمس، فدهش الناسُ وظنوها معجزةً حققها الله ـ سبحانه ـ كسلوى لقلب نبيِّه، فراحوا يقولون: «كُسِفت الشمس لموت إبراهيم»... وعندما سمِعَ نَبِيُّ الله ﷺ ما يقولُهُ الناس، وقف يردعهم عن ذلك بقوله: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة»(٢).

وقد يكون من حق الناس في ذلك اليوم أن يعجبوا لكسوف الشمس، وأن يظنوه معجزة من اللّه سبحانه وتعالى، لأنهم لم يكونوا في غالبيتهم يعرفون، كما تعرف الملايين من البشر ـ اليوم ـ النظامَ الدقيق الذي يخضع له الكون كله، ودوران الشمس على نفسها، والعلاقة بينها وبين الكواكب السيارة التي تدور في فلكها. بل لعلَّ الملايين من الناس ـ في وقتنا الراهن ـ لا يعرفون بأن الكسوف يأتي من احتجاب نور الشمس عن قسم من الأرض أثناء النهار لوجود القمر بين الشمس والأرض، ووجود الثلاثة معاً: الشمس والقمر والأرض على خط مستقيم واحد. كما لا يعرفون بأن الخسوف هو ما نراه من

(١) أحمد بن حنبل، الجزء الأول، ص٣٥.
(٢) البخاري، الكسوف، ص١٦.

ظلمة للقمر في وقت من أوقات الليل بسبب وجود الأرض بينه وبين الشمس وعندما يكون الثلاثة على خط مستقيم واحد.. وعند حدوث مثل هذه الظواهر الكونية عليهم اللجوء إلى الصلاة، وإلى ذكر الخالق وتسبيحه، لأنهم يشعرون ـ بالفطرة ـ برهبةٍ في الأعماق تدفعهم إلى ذكر الله تعالى، كي يُبعد عنهم البلاءَ والكوارث..

وإذا كانت فطرة الإنسان المؤمن توحي له بالخشوع، وبذكر الله (عزَّ وجل) عند كسوف الشمس أو خسوف القمر، فإنَّ الفطرة هي نفسها التي اعتملت في نفوس الصحابة، يومئذ، وإنْ توهم بعضهم بأن ذلك الكسوف الذي حصل يوم وفاة ابن رسول الله ﷺ كان معجزة. إلَّا أنَّ نبيَّ الله الصادق، ورسولَه الأمين، أبى على الناس ذلك الوهم، ووقف يُظهر حقيقة تلك الظاهرة الكونية[1]، وذلك برفضه القاطع

---

(١) نعم إنه القرآن، كتاب الله الحق، الذي فيه الدلالات على أنواع كثيرة من الظواهر الكونية التي يهتم بها علم الفلك، وقد قيل بأنَّ الآيات التي تدلُّ على هذا العلم تبلغ حوالَيْ أربعين آية. هذا بالإضافة إلى الآيات التي تصف خلق العالم الأرضيِّ، وعالم السماوات وضبط حركة الأجرام السماوية، مثل وجود مدارٍ للشمس، وآخر للقمر (ويعبِّر النص القرآني عن المدار بكلمة: فلك)، وما في فلك الكون الدوّار من آيات معجزة في الخلق والإبداع.. فالقرآن الكريم يؤكّد أنَّ العلم ـ الذي هو ثمرة العقل ـ من جلائل الأمور التي يجب على الانسان العناية بها، والسعي لنوالها، ومن جراء هذا العلم يمكن للإنسان ـ مثلًا ـ أن يخرج من نطاقه الأرضي الذي يوجد فيه إلى ما هو أبعد في أقطار السموات والأرض بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ ـ سورة الرحمان، الآية: ٣٣ ـ، وبمقتضى هذا السلطان استطاع الإنسان أن يخترق جاذبية الفضاء ويصل إلى القمر، وأن يرسل الأقمار الصناعية، إلى كواكب أخرى في المجموعة الشمسية ـ مثل المريخ وزُحَل ـ ولكنْ كل ذلك من علم الله تعالى الذي علّمه للإنسان، ومن هنا فإن المقصود بعبارة «لا تنفذون إلَّا بسلطان» أي لا تقدرون على الصعود إلى الفضاء البعيد والوصول إلى الكواكب في النظام الشمسي، أو في غيره من أنظمة الكون الأخرى إلَّا بأمرٍ من =

لمقولة المعجزة، وتبيان أن اللَّهَ الذي خلق السموات والأرض، وأنه

= الله وبعلم الله ـ الذي وسعَ علمُهُ كلَّ شيءٍ ـ وأنتُمُ أيها البشر، ما أوتيتمُ من هذا العلم الإلهي إلَّا قليلًا، القليل صار لكم بمثابة القوة أو السلطان الذي تستطيعون به أن تبلغوا من أقطار السماوات والأرض ما يشاءُ اللَّهُ العليمُ لكم بلوغَهُ، ليس إلَّا.. فكان ممّا تتجلّى به عظمة القرآن أنَّه يحثُّ الإنسانَ على استعمال الملكَات التي وهبه إياها الله تعالى، حتى يرى آيات الله ـ العليم الحكيم في الآفاق. فقد أمكنَ للإنسان ـ مثلًا ـ بعد اختراق الجاذبية والدوران حول الأرض وهي تسبح في فضائها، أن يرى بالعين المجردة، منظراً يختلف عن كل ما يراه وهو قابع على سطح الأرض، إذ لا تبدو له السماء بصورتها اللازوردية، بل سوداء نتيجة لظاهرات امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسي، في حين يرى الأرض محاطة بهالة زرقاوية اللون.. وإذا كان هذا المشهد الجديد الذي بَهَرَ أول إنسان عندما عبر إلى الفضاء، في أوائل الستينات من القرن العشرين قد أصبح بمثابة صورة كلاسيكية عند رواد الفضاء، فكيف ستكون دهشة الإنسان لو أمكنه أن يصل إلى سماوات أخرى أبعد مما وَصَل إليه، وهي التي يشير إليها القرآنُ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ؟! ـ سورة الحجر الآية: ١٤ ـ إنه لسوف يقع بصرُهُ ـ حتماً ـ على عوالم جديدة تدهشه حقاً، فيرى من آيات الله تعالى عجباً...

وإذا كان علم الفلك الحديث قد أثبت أن هنالك ملايين الملايين من المجرّات، التي تحوي كل منها ملايين الكواكب، ومنها ما هو أكبر من الشمس، وأشدُّ حرارة وضياءً، وإذا كان هذا الإنسان، ومن خلال علم الفلك بالذات، قد اكتشف النجم الذي سمّاه «الشِّعرَى اليمانية» وحدَّد ثقله، وقاس نوره وبُعده، فقال بأن الشِّعرَى هذه أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمسينَ ضعفاً نورَ الشمس، وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف عن بعدها عنَّا، فإنَّ القرآن الكريم، ومنذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً، قد ذكر «الشِّعرَى» بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ ـ سورة النجم، الآية: ٤٩ ـ.

وإذا كان الإنسان قد عاد واكتشف لاحقاً أن الأرض غير ثابتةٍ بل هي في دوران مستمر، فالوحي القرآني قد سبقه إلى ذلك، عندما دلَّ على حركة الكرة الأرضية، ووصفها بأنها كفات (أي طائرة وغير ثابتة) بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ ـ سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥ و٢٦ ـ. فالكفات ـ بلغة العرب ـ هو الطائر الذي يطير مسرعاً وقد قبض بجناحيه على شيء يخُصُّهُ. والأرض ـ في الحقيقة ـ هي التي تحتضن بني البشر أحياءً وأمواتاً، وهي تسبح بهم في فضائها الفسيح، وتدور في دورانها السريع.. وكما أن الإنسان قد اكتشف أنه، بعد خروجه من جاذبية الأرض، يفقدُ=

القادر على تسيير الشمس والقمر والأرض، وسائر النجوم والكواكب،

= وزنه، ويصبحُ في فضاء ليس فيه أوكسجين، فالقرآن قد ألمح إلى هذه الحقيقة منذ أن أوحى به الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ بقوله عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ ـ سورة الأنعام، الآية: ٢٥ ـ فسبحان الله، وهو يعلّمُ الإنسانَ أنه عندما يصبح خارجَ فضاءِ الكرة الأرضية التي عليها يعيش، فإنَّه سوف لا يجد الهواء الذي يتنفّس به ويحيا، بل ولا يحسُّ ـ حينئذٍ ـ بذلك الضيق في صدره الذي يودي به سريعاً إلى الفناء، تماماً كما في حالة انقطاع الأوكسجين عنه وهو على الأرض، ويؤدي انقطاعه إلى اختناقه وموته...

وإذا كان النصُّ القرآنيُّ غنيّاً جداً بالإشارة والتلميح إلى ما في خلق الله الواسع العليم من أكوان وعوالم، وما فيهن من خلائق، فإنَّ الله سبحانه قد تكفَّل بالقرآن تكفلًا مطلقاً: وحْياً وحفظاً وجمْعاً وبياناً، وجعله لأهل الأرض عامةً، وللعلماء منهم خاصةً، كي يهتدوا به إلى مخلوقاته من خلال ما يكتشفون بقوة العقل الذي وهبه لهم، وبشعلة الفكر الذي أنعم به عليهم. وهذا على الرغم من توكيد القرآن الكريم على أن الإنسان مهما بلغَ في درجات العلم، فإنَّ علمه لا يعدو جزءاً يسيراً من علم الله سبحانه الذي ليس له حدود، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ـ سورة الإسراء، الآية: ٨٥ ـ وأنه إن استطاع أن يصلَ إلى شيءٍ من العلم، فإنما بالمقدار الذي شاءه اللهُ له، لقوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ـ سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

إذن فعلينا أن ندرك أن القرآن الكريم قادرٌ على أن يغنيَ العقلَ البشريَّ بما يهديه إلى الحقائق المتعلقة بالإنسان والحياة، والكون، والوجود، والحياة الآخرة.. وهو يدعو الإنسانَ ـ وبإلحاح ـ إلى التفكر والتعلّم، كي يكتشفَ ممَّا في علم الله الواسع، ولكنْ شرطُهُ أن يستخدم العلمَ بما ينتفع فيه في الحياة الدنيا، ويعمّق إيمانه بربه الذي خلق كل شيء وقدّره تقديراً، كما يتجلّى ذلك في قوله المبين: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ ـ سورة الروم، الآية: ٨ ـ وفي قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ـ سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠ و١٩١. هذا هو النهج الذي يدعو إليه القرآن الكريم. إنه يدعو الناس إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، والاقتناع بأن هذا الخلق لم يكن باطلًا، بل إنَّه يؤكد حقيقة وجود الله تعالى =

وكلٌّ ما في الكون من أجرام سماوية وعوالم بعيدة، وفق نظام كامل، غاية في الدقة والانضباط. وما كان علم النبي محمد ﷺ إلَّا ما علَّمهُ إياه ربه الكريم، في قرآنه المبين، ومن قبيل ذلك قوله تبارك وتعالى:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١).

وقد سار رسول الهدى على طريق العلم والمعرفة، بما يتكون لديه من علم القرآن، فرأى حادث الكسوف الذي حَصَلَ يوم وفاة ابنه إبراهيم ظاهرةً كونية، دلَّل عليها بقوله: إنها «آيةٌ من آيات الله». لأنه في الحقيقة ما من شيء في الكون حدث أو يحدث إلا وهو آية من آيات الله سبحانه وتعالى. ولذلك أبى الرسولُ الأعظمُ على الناس أن يذهلوا لتلك الظاهرة، وأن يتوهَّمُوها على غير حقيقتها. وقام يدفن حزنه بين ضلوعه ليواجه الناسَ بالحقيقة، ويبيّن لهم أن الشمس والقمر لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، حتى ولو كان ابنَ النبيِّ أو النبيَّ نفسه، وأنَّهُ على الناس، أمام حدث من هذا القبيل، أن يسلكوا النهج الذي يُرضي الله تعالى، ويعبّر عن عبوديتهم لخالقهم، فيهرعوا إلى الصلاة(٢)، وإلى ذكر الله بالتسبيح والاستغفار،

= الخالق العظيم، ويدحض التفكير الخاطئ عند المشركين والكافرين الذين يجعلون لله أنداداً، أو يعتقدون بأنَّ الخلق صدفةٌ، أو غيرها من الترهات الفكرية.. لكي يجعلهم يغيِّرون طريقة تفكيرهم، فتتغير معها عقيدتهم من الشرك والوثنية إلى التوحيد والألوهية.

(١) سورة يس، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) على المؤمن في حال حصول الخسوف أو الكسوف أو الزلازل أن يصلي صلاة «الآيات» وهي معروفة عند الفقهاء، فَلْيطْلُبْها المؤمنون في مظانِّها، ولْيعملوا بها..

والدعاء حتى تبقى صلة العباد بربهم قائمة على الخضوع لسلطانه، والتفكر بعظمته، والإقرار بأنه على كل شيء قدير.

وإذا كان نبيُّ الله ﷺ قد عاش للحقيقة دوماً، وكانت مشاعره حِيال الموت هي مشاعر المؤمن الصادق، إلَّا أن مشاعر الناس بصورةٍ عامة، تبقى ضمن إطارها الذي يغشّيه الموت بالأحزان والآلام..

وهذا الواقع الذي يعايشه الإنسان دوماً بحكم تكوينه البشري، كان له تأثير أقوى عند العرب في عصر النبيِّ ﷺ، إذ كانوا يرون في موت الولد الذَّكَر مصيبة ما بعدها مصيبة، ونكبة قد تفوق كل النكبات. وأما السبب فهو عيش البدوي في صحراء شبه قاحلة، وفي شظف من العيش كان يفرض الغزو والسلب، ودعامتهما الرجال دون النساء. من هنا كانت النظرة إلى الذكَرِ تختلف عنها إلى الأنثى التي لم تكن موضعاً للعزة والافتخار، ولا مصدراً للقوة والمنعة. بل على العكس كانت تشكل عنصر ضعفٍ في تلك البيئة القاسية، ومحلًّا للفقر أو العار. إذْ كان ابنُ جزيرة العرب يحزن من جراء ولادة الأنثى، فإذا أُخبرَ بمولودةٍ جديدة له، اكفهرَّ وجهه واسودَّ، وشعر بالخزي والعار، حتى ليتوارى عن أعين القوم، من سوء ما بُشر به، وهو حائر يفكر بما يفعل، أيتركها على قيد الحياة، وفي ذلك الذل والهون، أم يدسُّها في التراب ويئدها فتموت، وفي ذلك راحةٌ من همومها وأعبائها؟!...

تلك العقلية الخرقاء التي انتشرت في الجاهلية هي التي جعلت العربيَّ يقترف أشنع جريمة بحق الإنسانية، عندما كان يقدم على وأدِ مولودةٍ جديدةٍ ليس لها أي ذنبٍ إلَّا أنها أنثى.. وقد ظلت هذه العادة الذميمة شائعةً حتى جاء الإسلام فحاربها وقضى عليها. وقد صوَّر

القرآن تلك الحالة النفسية التي كان يعيشها العربيُّ عندما تولد له «أنثى» أدقَّ تصوير وأصدق تعبير، وانتهى إلى الحكم عليه بسوء التقدير والفعل جزاءً لما احتملَ من ذهنية جاهلية، وما اقترفَ من جريمةٍ إنسانيةٍ، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

وبحكم نور الحق الذي جاءَهُ من ربه، وبالفطرة الصادقة التي فطره اللَّهُ تعالى عليها لم يُفرِّق سيدُنا محمدٌ ﷺ، لا قبل نزول الوحي عليه، ولا بعده، في خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ بين مولود ومولودة، بل أحبَّ الذكر والأنثى، وعطف على الذكر والأنثى، سواءً بسواء.. فقد وهَبَهُ الله تعالى الذكور والإناث، فأجْملَ في الثناء على الخالق، وأقرَّ له بالنِّعْمة، فكان أعظم الآباء للبنين والبنات.. ومن يتأمل في حياة محمد ﷺ العائلية يجد أماراتٍ وعلائمَ لا يعرف تقديرَها وحكمتها إلَّا الله سبحانه. فلم تلِدْ له من أزواجه إلَّا السيدة خديجة عليها السلام فكان منها ابناه القاسم، والطاهر (قيل: سمّاه عبدَ الله وكنيته: الطاهر) وقد توفاهما الله تعالى قبل أن يبلغ الواحد منهما الثالثة من العمر، وكانت من الزوجة الطاهرة بناته: زينب ورقية وأم كلثوم، وفاطمة الزهراء، وقد عِشنَ جميعهن حتى كَبرنَ وتزوجن، ولكنْ لم تنجب أيٌّ منهنَّ، إلَّا فاطمةَ الزهراء، زوجَ علي بن أبي طالب، وأم السبطين: الحسن والحسين (عليهم جميعاً سلام الله ورضوانه)[2]. ثم

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.
(٢) وقيل أن زينب أنجبت ولداً.

يتوفى الله ـ سبحانه ـ بنات محمد ﷺ الواحدة بعد الأخرى، حتى لم يبقَ له إلَّا ابنته فاطمة الزهراء، فكانت سلوى للقلب، ومبعث راحةٍ للنفس. فلمَّا رزقه الله ـ سبحانه ـ على الكِبَرِ ابنه إبراهيم من زوجه السيدة مارية، وَجَدَ فيه قرَّةَ عين ـ حقّاً ـ إلى جانب فاطمة، وولدَيها الحسن والحسين (سلام الله عليهم ورحمته). ويشاء الله العزيز الحكيم أن يختار إلى جنانه مولودَهُ الجديد، وهو ما يزال في أول طفولته، فيدفنه أبوه تحت صفائح الثرى كما دَفَنَ، من قبلُ، أخَوَيْه وأخواته، وهو يحتسب نفسَهُ عند ربِّه، خاضعاً لقضائه وحُكْمِهِ، لأنه يرى في الموت حقّاً، وفي المنقلب صدقاً.

وإذا كان قضاء الله تعالى بأن يموت أولادُ نبيّهِ محمدٍ ﷺ جميعاً ـ إلَّا فاطمة الزهراء ـ فإنه كان مُقدَّراً أن يعيش هذا الأبُ في مأساة دائمة، وأن تكون حياته سلسلةً من الأحزان والآلام، مع ما قد يجرُّ ذلك من وَهَنٍ وضعف، أو ما قد يصرفه عن مواجهة الحياة بنفس العزم والثقة... ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يتأتَّ للنبيِّ محمد ﷺ، لأن إيمانه بربِّه يعلو كلَّ شيء، وقوة ثباتِهِ على مجالدة الصعاب وتقبّل المصائب فوق حدود التصور، ليكونَ كما صنَعَهُ ربُّهُ تبارك وتعالى على عينه ـ المثالَ الأعلى للمؤمنين، والأسوةَ الحسنةَ للناس أجمعين، ليس أمام الموت وحسب، بل وفي كل أمر وشأن..

ولقد كان الرسولُ الأعظم حقاً الأسوة الحسنة.. فقد عرفوه أمام الشدائد والمصاعب أشدَّ الصابرين وأروعَ المصابرين، تماماً كما عرفوه في مختلف جوانب حياته كتاباً مفتوحاً، يقرأون في صفحاته النقيّة، ما يروي ظمأ النفوس، ويهدي بصيرة القلوب: فقد رأَوْهُ في الحرب ـ مثلًا ـ قائداً حكيماً، ومقاتلًا شجاعاً، وعند كل فتح أو

تحقيقِ أيِّ نصر، أعظمَ المسامحين وأكرمَ العافين، وأكثرَ الشاكرين الحامدين لربِّهِ تبارك وتعالى.

لقد كان المثالَ للناس والقدوة، لأنه الإنسان والرسولُ الذي يستقي من معين الله ـ تعالى ـ الذي لا ينضب، ويستوحي من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، ولا يَخلقَ من كثرة الردّ . . ويضع نصب عينيه هذه الحقيقة المطلقة، المجرّدة، العلوية، ألا وهي «ولله المثل الأعلى» في كل شيء: في الشعور والسلوك، في الاعتقاد والعمل، في التصوّر والتعامل، وفي كل وجود في الأرض والسماوات، وفي الأكوان والعوالم. . وإنَّ من استقى من ذلك المعين واستوحى من هذا المثال، لَخليقٌ به أن يكون للناس فيه أسوةٌ حسنة، فكان محمد ﷺ هو هذه الأسوة الحسنة، وصَدَق الله العظيم ـ حيث جعل في رسوله الكريم هذه الخَصلةَ الفريدة ـ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]. نعم، من كان يرجو لقاءَ ربه، مطمئن النفس، ويرجع إليه راضياً مرضياً، ومن أرادَ أن يفوز في اليوم الآخر، وينعم في جنات عرضُها السموات والأرض، فإنَّ الله ربَّهُ يأمرُهُ أن يتخذ من رسوله محمد بن عبد اللّه ﷺ أسوةً له، وأن يذكُرَ الله كثيراً: في قيامه وقعوده، وفي قوله وعمله، وفي شعوره وإحساسه، وفي فرائضه ونوافله. . .

مباهلة وحكم

لقد سبب موتُ إبراهيم عليه السلام الحزنَ لأبيه محمدٍ ﷺ ولكنَّه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

صَبَر تسليماً لله (تعالى)، لأنه الأبُ والإنسان المؤمن الصادق، بل وصبرُهُ هو من سمات النبوة والرسالة، فكان عليه أن يغالب أحزانه كي يتمكّن من الاضطلاع بأعباء الدعوة، ومتابعة استقبال الوفود التي كانت تأتيه من كل أنحاء شبه الجزيرة.

وكانت بلاد الجنوب، وفيها اليهودية والنصرانية والمجوسية، قد عرفت بالدعوة الإسلامية منذ بضع عشرة سنة، أي من قبل أن يهاجر النبيُّ إلى المدينة، وذلك عندما كان يعرض الاسلام وهو في مكة على القبائل التي تجتمع في موسم الحج، وفي مواسم الأسواق.. وإذا كانت تلك القبائل قد أشاحت، في الماضي، بوجهها عن النبيِّ، ولم تستجب له، فإنَّ الوفود تأتيه اليوم إلى المدينة، من اليمن وحضرموت، ومن عمان واليمامة، وغيرها من المناطق، للاستماع إليه ...فعندما تتبيَّنُ لها معالمُ دعوته، وحكمته، نجدها تتخذ قرارها ـ الصواب ـ وتدخلُ في الإسلام، يحدوها إلى ذلك قناعتها بهذا الدين، لا سيما بعدما تغيرت الأوضاع، وتبدلت الظروف، وتحدَّدت علاقة المسلمين بسائر الأطراف والجماعات، في شبه الجزيرة يحيث صار واضحاً موقف الاسلام من مختلف التيارات العقائدية، كما صار واضحاً موقع أصحاب تلك التيارات من الاسلام وأهله.. فأهل الشرك، ومن أرادوا البقاء على عبادة الأنداد كان على المسلمين، وجوباً، قتالهم، امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[1]؛ بينما اختلفت النظرة إلى أهل الكتاب باختلاف مواقفهم من الدعوة: فاليهود، بوجه عام، حاربوا الإسلام بقوة وضراوة للقضاءِ

(١) سورة النساء، الآية: ٩١.

عليه، إلّا أنهم فشلوا في ذلك وهُزِمُوا شرَّ هزيمة، ولذلك كانوا أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا. . . وأما النصارى، فقد حضنوا الدعوة في أول أمرها بشخص النجاشي ملك الحبشة، ثم قام نصارى الروم من بعدُ يناصبونها العداء، ويدخلون في حربٍ مع النبيِّ ﷺ، بينما كان موقف نصارى العرب، وخاصة في الجنوب ـ بخلاف بلاد الشام ـ أقربَ مودةً للذين آمنوا، وذلك لقوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[1].

وبمثل هذا التحديد القرآني للعلاقة بين المسلمين من ناحية، والمشركين وأهل الكتاب من ناحية ثانية، سارَ النبيُّ ﷺ على نهجه في استقبال جميع الوفود. بل كان يبادر في أحيان كثيرة، إلى بعث موفدين عنه للاتصال بالناس، وبالقبائل ودعوتهم إلى الإسلام، كما فعَلَ في السنة العاشرة للهجرة، عندما بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب، من نجران، وأمَرَه أن يدعوهم للإسلام ثلاثاً، فإن أجابوا واستجابوا كانت لهم الهداية، وإلّا فعليه مقاتلتهم. واستجاب بنو الحارث لأمر النبيِّ، فلبث عندهم خالد مدة من الزمن، ثم جاء المدينة بصحبةِ وفدٍ منهم، ضمَّ بين أعضائه: قيسَ بن الحصين بن يزيد بن قنان ذا الغُصَّة، ويزيد بن عبد المَدان، ويزيد بن المحجَّل، وعبد اللّه بن قراد الزِّيادي، وغيرهم. . وبقي الوفد ردحاً من الزمن

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

عند رسول الله، يستمع إليه، ويتفقه على يديه، حتى إذا قفل راجعاً إلى بلده، أرسل معهم رسولُ الله عمرو بن حَزْم (الأنصاري) كي يقوم على تعليمهم الشريعة في بلدهم، وأخذ الصدقات..

ثم إنَّ رسولَ الله عادَ وبعث إلى نصارى نجران[1]، ممن لم يُقبِلوا على الإسلام، بكتابٍ يدعوهم فيه إلى الدخول في هذا الدين، أو دفع الجزية، وقد جاء فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«بسم إله إبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ. أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد. وأدعوكم إلى ولاية الله تعالى من ولاية العباد. فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب، والسلام».

وصَلَ الكتابُ إلى يد أسقف نجران حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل، فلما قرأه دعا إليه شرحبيل خازن أسراره وموضع مشورته. فلما أطلعه على كتاب النبي «محمدٍ»، لم يزد شرحبيل على أن قال: «لستُ يا سيدنا بصاحب رأي في هذا. ولو كان لأمر من أمور الدنيا لَرجَوتُ أن يكون لي فيه نصيب أو رأي جازم أقوله. على أنني

---

(١) نجران: اسم لمكانٍ مأهول عرف في عدة بلدان، ومنها: نجران من مخاليف اليمن، وبها خبر الأخدود، وإليها تنسب كنيسة نجران.
ـ نجران من أرض البحرين.
ـ نجران في حوران من نواحي دمشق.
ويتبين القارىء أننا أتينا على ذكر ثلاثة وفود من نجران، أحدها قدم إلى مكة، وآخران قدما إلى المدينة. وربما تكون هذه الوفود قد قدمت من الأمكنة الثلاثة المذكورة آنفاً، بعدما انتهى إليها العلم بالإسلام، أو بعثَ إليها النبيّ ﷺ بالكتب يدعوها للدخول في دين الله تعالى. فاقتضى التوضيح.

علمت ما وعَدَ الله به من النبوة في ذرية إسماعيل، فما أدري أن يكون هو ذاك»..

ووقع أبو حارثة في الحَيْرة، فهو إن أشار على القوم بالدخول في الإسلام، فمعناه التخلّي عن مناصبه، وإثارة ملوك الروم عليه، وقطعهم الأموال الطائلة التي يمدُّونه بها، فلا يبقى له خدم ولا حشم، ولا تبقى له المكانة التي يعلو بها.. وإنْ هو نصح لهم برفض دعوة «محمدٍ»، فإن هذا يعني إيذاناً بدفع الجزية أو الحرب.

وأعلن أبو حارثة الأمر عندما دعا إلى ضرب النواقيس، وتعليق المسوح في الصوامع، فاجتمع الناس إليه من كل حدبٍ وصوب. وبعد طول جدال ونقاش، قرَّ الرأي على أن يذهب وفدٌ منهم إلى المدينة، يقابلون «محمد بن عبد اللّه»، فيحاجُّونه، ويجادلونه، ثم يرون بعده ما يكون!

وكان وفد نصارى نجران مؤلفاً من ستين راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلًا من أشرافهم. وإلى ثلاثة منهم يؤول أمر بلدهم. أما أولئك الثلاثة فهم: العاقب (وهو أمير القوم، وذو الرأي، واسمه عبد المسيح) والسيّد (وهو الذي يتولى الأمور الثقافية والاجتماعية وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم) وأبو حارثة بن علقمة (وهو أسقفهم وحبرهم وصاحب مدارسهم). وبينما هم في الطريق، وقد عثرت بغلة الأسقف، إذا بأخيه كُوز بن علقمة، الذي كان يركب بجانبه، يقول: تعس الأبعد.. (وهو يعني بذلك النبيَّ محمداً ﷺ)، فنفر الأسقف وقال له: «بل أنت تعستَ! والله إنه للنبيُّ الذي كنا ننتظر».

فقال له كوز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟.

قال: «ما صنع بنا هؤلاء القوم (ويعني الروم). شرَّفونا وموَّلونا وأكرمونا. وقد أبَوْا إلَّا خِلافَه، فلو فعلتُ نزعوا منَّا كل ما ترى».

وكان أصحاب الوفد قد أتوا يدخلون إلى المدينة وهم يلبسون أفخرَ الثياب، ويرتدون أبهى الحلل، ويضعون الحليَّ، والقلائد من الأحجار الكريمة، والخواتم من الذهب والفضة، وقد تمنطقوا بالسيوف، وحملوا الرماح.. وكان دخولهم بانتظام صفاً واحداً والناس ينظرون إليهم، وهم على تلك الأحوال، نظرة إعجاب بالغ.

وبعدما أُنزلوا بالحرَّة، خرجوا بعد صلاة العصر إلى المسجد يريدون الاجتماع بالنبيِّ محمد ﷺ، فرفض مقابلتهم، فعادوا إلى منزلهم بالحرّة. وظلوا على هذه الحال عدة أيام، من امتناع النبي عنهم. وكانوا في خلالها يصلّون ووجوههم نحو الشرق، فرآهم الناسُ واستغربوا، ولكنَّ النبيَّ ﷺ نهاهم عن التعرّض لهم بشيء، لأنَّ لهم أن يُصَلّوا كيف يشاؤون، إذ لأهل كل كتاب طقوسٌ وشعائرُ، ولكنها جميعها تصبُّ في غاية واحدة، ألا وهي عبادة الله تعالى، مالك الملك. فلا ضيرَ إنْ صلّوا نحو المشرق أو المغرب طالما أن صلاتهم لله تعالى خالقهم، خصوصاً ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وعجب أهل نجران من عدم مقابلة النبي لهم، ولاسيما أن هذا الموقف النبوي لم يكونوا ينتظرونه من صاحب رسالة، يُفترض فيه أن يعلّمَ الناسَ أصول المقابلات وحقوق الضيافة، ومراعاة الكرامات!!!. فلما طال بهم الانتظار لم يروا بدّاً من مشاورة أصدقاء

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

لهم في المدينة؛ فذهب بضعة رجال منهم إلى عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، اللذين لم يبديا رأياً بما يجب على أشراف الوفد أن يفعلوا، إلَّا أنَّ الصحابِيَّيْن ارتأيا الذهاب إلى علي بن أبي طالب (كرّم اللَّهُ وجهه) علَّه ينصح في هذا الأمر بشيء. فلما دخل عليه عثمان وعبد الرحمن قالا له: ما رأيك يا أبا الحسن في أمر هؤلاء القوم؟

وأشار أبو الحسن على صاحبَيْه أن يخلع أهلُ نجران الثياب الحريرية المزركشة، وينزعوا عنهم القلائد والخواتيم الذهبية، ثمَّ يأتوا نبيَّ الله في مظهر أقربَ ما يكون إلى التواضع والاحترام، بعيداً عن أي اختيال ومفاخرة، فقد لا يتأخَّرُ عندها عن مقابلتهم والاجتماع بهم، إذا شاء الله تعالى..

وصحَّ تقديرُ عليّ (كرّم اللَّهُ وجهه).. فما إن فعل القوم بما أشارَ، وجاؤوا النبيَّ على حالتهم الجديدة حتى خرج يلقاهم، ويبشُّ في وجوههم، مثل عادته عند لقاء الناس، كل الناس، وكان موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوافق مع عقيدته وإيمانه بربه (تعالى). إذ لمَّا رأى أولئك القوم يَفِدون إليه بمظاهر الاعتزاز، وقد غلب عليهم بهرجُ الدنيا وزخرفها، أنِفَ أن يلقاهم، لأنهم لم يفدوا على مَلِكٍ في أبهة، حتى يلبسوا ما لبسوا، ويتزينوا بما تزينوا، بل جاؤوا لمقابلة نبيٍّ، يعيش عيش الفقراء من الناس، والاتقياء من عباد الرحمن. وإنَّ كرامته ليست في ثوب أو مال، بل في رسالةٍ جامعةٍ، وفي خُلُقٍ عظيم، وإن كان يهمه المظهر اللائق، والهندام الجميل، والتصرف الكيّس، كما أقرَّ على ذلك وفد همدان يوم أن جاؤوه بالحلل والبرود اليمنية والتي لم تَنِمَّ عن مظاهر الخيلاء والتكبّر. أضف إلى ذلك أن رسول الهدى أراد

أن يجعل أهل نجران أخفَّ في غلواء خيلائهم، وأقل في شدة تفاخرهم، لا لأنه يريد الاعتراض على الآخرين في سلوكهم، بل ليكونوا إلى الحق الذي سيدعوهم إليه أقربَ، وإلى الهداية والتعويل على الأصالة الإنسانية أميل..

المهم أن الاجتماع قد عُقِدَ، وحضره حشدٌ كبيرٌ من المسلمين، جاء يشهد هذه المناظرة التي تجمع بين أهل الرسالتين السماويتين: النصرانية والإسلام، وكل واحد من أهل الفكر يتساءل في نفسه: أوَليسَ الخلق كلهم عيالَ الله، وأن أفضلهم عند الله أتقاهم؟! أوَليس الدِّين عند الله الإسلام، وقد بُعِثَ النبيُّ محمد ﷺ مصدّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل؟! فلِم إذن المناظرة، ما دام هذا النبيُّ الكريم لا ينقض الناموس الأكبر، الذي يقوم على الحق المطلق، وهو أنَّ الله ـ سبحانه ـ هو الواحد الأحد لا شريك له، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؟!

أما من الناحية الإيجابية، فقد كان ذلك الاجتماع بين أهل الفكر والرأي من النصرانية والإسلام، فحق أن يكون مؤتمراً للتاريخ يمكن أن تبحث فيه العقائد على حقيقتها، وتفنَّد فيه الأمور على طبيعتها، ولتأتِ النتائجُ بعدئذٍ مرادفةً للحق والعدل والصواب، لأنه شتان بين المؤتمرات التي تبحث في شرع الله ـ تعالى ـ ومنهاجه، وفي عهوده إلى خلائقه، وبين المؤتمرات التي تبحث في قوانين أهل الأرض، وتعقد المعاهدات والاتفاقات التي تؤمن مصالح الأقوياء دون غيرهم!.

ودار الحوار الذي شهده التاريخ، وسجَّلَ صفحاتٍ خالدةً في

الرقيِّ الفكريّ، والتسامح الإنسانيّ، والجدّية في الخطاب. . . وقد بدأت المحاججةُ عندما سأل السيّدُ ـ وهو من ذوي الرأي والشأنِ في وفد نجران ـ الرسولَ محمداً ﷺ وهو يقول له:

ـ يا أبا القاسم، موسى مَنْ أبوه؟

فأجابه: عمران.

وسأل: فيوسف من أبوه؟.

فقال له: يعقوب. .

فسأل: فأنت من أبوك؟

قال ﷺ: عبد اللّه بن عبد المطلب.

فسأل: فعيسى من أبوه؟

قال ﷺ: إنه عبدُ الله ورسولُهُ، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم، وروح منه. .

وربما داخل الظنُّ السيّدَ بأنه قد بلغ ما يريد. فقال يبدي عجباً:

ـ فهل يكون روح بلا جسد؟.

فأجاب النبيُّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وعظم الأمرُ على السيّد، وهو يسمع أن عيسى قد خُلق من تراب، فقال: «أتزعُمُ أن الله أوحى إليك أن عيسى خُلق من تراب؟ ما نجد هذا في التوراة ولا في الإنجيل. فما وجَدَهُ اليهودُ فيما أوحي إلى رسلهم، وما وجَدَهُ النصارى فيما أوحي إلى نبيّهم».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

وهنا راح النبيُّ ﷺ يتلو على المسامع آياتٍ بيّناتٍ من «سورة مريم» في القرآن الكريم، تدل على حقيقة خلق المسيح عيسى ابن مريم، بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾[1]، ومن سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

وعلا الوجوهَ الصمتُ لهذه التلاوة: إلَّا أن العاقب ـ رئيس الوفد ـ قطع هذا الوجوم، فقال:

ـ إنا لَنُنكِرُ واللَّهِ ما تقول يا أبا القاسم، ولا نقول في المسيح إلَّا أنه ابنُ الله، وأنه ثالثُ ثلاثة: الآب والابن والروح القدس. وهذا ما يقوله الله في قرآنكم: فَعَلْنا وجعَلْنا وخلقْنا، وأمرنا، وقضينا (بصيغة الجمع)، ولو كان واحداً أحداً، ما قال إلَّا: فعلتُ وجعلتُ وخلقتُ وقضيت وأمرت، (بصيغة المفرد).

وهنا أوضح الرسول الأعظم، بتلاوة من القرآن الكريم، كم هي الآيات التي تتكلّم بصيغة المفرد وتدلُّ على وحدانية الله سبحانه ومنها

(١) سورة مريم، الآيات: ١٦ ـ ٢١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1]. ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2]. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

. . . إلى ما هنالك من الآيات البينات التي يفيض بها القرآن الكريم بصيغة المفرد إلى جانب الآيات التي تتكلم بصيغة الجمع، وكلّها تدلُّ على وحدانية الله سبحانه وتعالى. . مما لا يمكن سردُهُ لبيان أقوال الله تعالى الدالة على تفرّده، ووحدانيته، سواء بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع، والتي تتخلل القرآن من أول سورة فيه «الحمد» إلى آخرة سورةٍ فيه «الناس». . .

وعاد العاقب فقال: إنك يا أبا القاسم تزعم أن المسيح هو عبدُ الله، ونحن ما رأينا في الإنجيل مثل هذا، فهل يعني ذلك أنك لا تصدِّق بالمسيح، ولا تؤمن به؟! وهنا تلا النبي ﷺ قول الله تعالى:

---

(١) سورة الحمد، الآيات: ٢ ـ ٤.
(٢) سورة الإخلاص وآياتها أربع.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٩ و٣٠.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[1]. ثم راح يقرأ ﷺ من سورة مريم قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾[2]، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾[3]، ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾[4].

قال العاقب: إنك تقول عن المسيح إنه عبدٌ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلَّا بأمر الله، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ولكن ألم يكن يُحيي الموتى ويبرئ الأكمهَ والأبرص، ويُنبِّئهم بما يأكلون، وما يَدَّخِرونَ في بيُوتهم. فهل يستطيع ذلك إلَّا الله؟

وهنا أبان نبيُّ الإسلام «مُحمد» أن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٢٩ ـ ٣١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦ و١١٧.

مَنَحَ عبدَه ونبيَّه عيسى ابن مريم عليه السلام القدرةَ على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغيرهما من القدرات، وقد أوتيها المسيحُ عيسى ابن مريم بإذن الله عز وجلّ آياتٍ بيّناتٍ معجزاتٍ، حتى يؤمِنَ به الناس ويتّبعوه، شأنَ النبيين والمرسلين جميعاً، يمدُّهُم باعثُهم بمعجزات تؤثر في العقول، حتى تتبين مكانةُ المبعوث بين سائر أبناء عصره.. وما كانت لتتأتَّى لهم تلك القدرات والمعجزات إلَّا في سبيل الأمر الحق الذي إليه يدعون، والغاية النهائية التي إليها يسعون، وهي الإيمان بالله الواحد الأحد، وبأنه هو الأول والآخر، له ما في السموات والأرض وإليه المصير. وتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولهُ تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٥٠ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[1].

وطال النّقاشُ، واستمرّ الحوارُ، والكلُّ مِنْ وفدِ نجرانَ يسألُ عمَّا يجيش في صدره.. والرسولُ الأمينُ صلى الله عليه وآله وسلم يقدم لهم البراهين الدَّالة، والشواهد الثابتة، والآيات الموحيةَ المعبّرة، حتى بانَ له أخيراً أن لا أحَدَ في الوفد يريد أن يُقرَّ بالحقيقة ويذعنَ لها.. أما لماذا؟ فاللَّهُ وحده يعلم.. وهم ـ ربما لغاية في نفوسهم ـ يعلمون!!. وبعد أن

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٤٩ ـ ٥١.

رأى الرسولُ ﷺ تشبثهم بآرائهم من غير وجه حق، دعاهم للمباهلة. والمباهلة هي التضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك بأن يدعو كلُّ فريق من المتحاجّينَ على الآخر كي يتبيّن الحقُّ من الباطل، ويظهرَ الصادقُ من الكاذب؛ وتلا دعوةَ الله للمباهلة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

وبُهت القومُ لطلب المباهلة، إذ لم تكن في حسبانهم قطُّ، ولكن هل يستسلمون؟

إن هذا الاستسلام والإقرار بالحق، على ما يبدو، غيرُ وارد عندهم. وكي يتخلّصوا من هذا المأزق، قال قائلهم: «أنصَفْتَ يا أبا القاسم، فإنَّ المباهلة آية معجَّلة بيننا وبينك».

وانفضَّ الاجتماع وذهب وفد نجران يتفكَّرون بما يصنعون. فقالوا لبعضهم البعض: «قد جاءكم الرجل بالفصل من أمره وأمركم، فانظروا بمن يباهلكم، أبكافَّة أتباعه وأهل المكانة من أصحابه، أم بذوي الخشوع والمسكنة والصفوة منهم، وهم دائماً قليل؟»..

قال أحدهم: «صدقت يا هذا! لئن جاءنا بالكثرة وذوي الشدة، وهذا صنع الملوك، باهلناه، وكان النصر لنا دونه، وليس هو نبيّاً من عند الله. أما إن أتانا بنفرٍ قليلٍ من صحابته، أو من أهل بيته ـ خاصَّة ـ كما هي سجيّةُ الأنبياء وصفوتهم، فلا نُباهله.. وإياكم يا قوم عندئذٍ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

والمباهلة، فإنَّهُ لا يقدم على أهل بيته، وعلى كبار صحابته، إلَّا وهو صادق.. وهذه لكم أمارة.

أما النبيُّ ﷺ فقد صلَّى بالناس، ثم أمَرَ أن يسوَّى المكان تحت الشجرتين الكبيرتين القائمتين عند مقبرة البقيع من أرض المدينة، وأن يوضع كساءٌ كبيرٌ أسودُ رقيقٌ على الشجرتين حتى يتدلّى من الجوانب، فيكونَ على شكل خيمة، تتسع لبضعةٍ من الأشخاص.

وفي أول شوّال من السنة العاشرة للهجرة، حضر اليومَ ـ المشهود ـ وفدُ نجران، وجمعٌ غفير من كبار الصحابة والمسلمين. وفي صحبة العاقب والسيد، ابناهما: صبغة المجنّ، وعبد المنعم، وابنتاهما: سارة ومريم. وقد جاء أهل نجران إلى البقيع على نفس المظهر الذي أتوا به المدينة، بالحلل الفاخرة، والزينة الباهرة.. وبينما كانت الجموع تصطفُّ، إذا بصوت يرتفع بالتكبير: الله أكبر.. الله أكبر.. وإذا برسول الله ﷺ قد قَدِمَ مُحتضِناً الحسين (وهو في حوالي السادسة من عمره) وآخذاً بيد الحسن (وهو في حوالي السابعة من عمره)، ومن خلفه مشى عليٌّ بن أبي طالب وزوجُه فاطمةُ الزهراء، ابنة رسول الله (عليهم سلام الله ورحمته). فهؤلاء كانوا عترةَ رسول الله ﷺ وأهلَ بيته، وقد جاء يباهل بنفسه وبهم. وهؤلاء يمثلون في آية المباهلة في القرآن الكريم: الحفيدان السبطان الحسن والحسين (أبناءَنا)، وابنته فاطمة (نساءنا)، وزوجها عليٌّ (أنفسنا).. أجل، لقد جاء بهم، لأنهم يمثّلون له الأبناء والنساء والأنفس، فيكونون القربان الذي يقدمه لله تعالى على مذبح الحق واليقين. وتقدَّم نبيُّ الله يشير للجموع إلى أهل بيته، ثم يدخلهم تحت الخيمة، ويقف أمامهم وهو يقول لهم: إذا دعوتُ فأمِّنُوا (أي قولوا:

آمين)..ثم يرفع يَدَيْه نحو السماء، ويدعو الله سبحانه قائلًا: «اللَّهمَّ هؤلاء أهل بيتي»[1]..

(١) لقد سبق القول بأنَّ النبيَّ ﷺ كان يرى أنَّ ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام مرصودةٌ لأمر جللٍ، وسوف تكشف عنه الأيام، ولذلك نزلَ جبرائيل الأمين ليقول للنبيّ ﷺ بأن يزوّج فاطمة، بأمر ربّه، من عليٍّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه).. وها هي السنة العاشرة الهجرية، ترصُدُ في رحاب المدينة المنورة يوماً تاريخيّاً مشهوداً عندما وقف أهل أكبر ديانتين في العالم: الاسلام والنصرانية يحاجّون بعضهم بعضاً في أهم قضية في حياة الناس ألا وهي: وحدانية الله تعالى، بل وأهم القضايا التي يتوقف عليها مصير الإنسان في آخرته.. حتى إذا أبدى كل من أهل الديانتين ما عنده من الحجج والبراهين حول تلك القضية، ولمَّا لم يعد هنالك من مجال للحوار والأخذ والردّ، تنزَّل أمر الله تعالى إلى نبيّهِ محمد ﷺ بأن ينهي الحجاجَ والجدال، ويدعو وفد نصارى نجران إلى المباهلة، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ـ سور آل عمران، الآية: ٦١.

إذن من هم أبناء النبي ﷺ، ومن هم نساؤهُ، ومَنْ هم صنْوُ نفسه الذين يباهلُ بهم؟!.. تلك حكمة الله العلي العظيم..

فأبناء رسول ﷺ: القاسم، وعبد الله (الطاهر) وإبراهيم (رضوان الله عليهم) قد توفاهم اللَّهُ تعالى، وانتهى عقبُ ابنته زينب (كما في سير أعلام النبلاء للذهبي، ج٢ ص١٢٢) ولم تنجب بناتُهُ الأخريات، فانقطع نسبه ﷺ إلَّا من قبل ابنته فاطمة عليها السلام، فكان ولداها الحسن والحسين، هما ابناه، ومدعوان للمباهلة، بل وقدرهما من ربهما، أن يحملا أعباء مهمة رسالة جدهما من خلال التمسك بالقرآن، والعمل بالسنة النبوية الشريفة، وتفصيل الأحكام الشرعية، وتفسير المتشابهات من آيات القرآن لأنهما من أهل عترته، ومن أهل بيته الذين يحملون الأمانة، وهُم أهلها ومحلّها.. وهم أهلُ التقوى، وأحقُّ بها..

ثم إنَّ فاطمة، وهي على ما هي عليه من المزايا الخاصة ـ كما بيّناها عند الكلام على خطبتها وزواجها ـ كانت الوحيدة التي عناها النصُّ القرآني بكلمة «نساءنا»، مثلما عنى النصُّ ابنَيْها الحسن والحسين بكلمة «أبناءنا» لأنهما نسلُ الرسول ﷺ، ومثلما عنى النصُّ زوجَها عليَّ بن أبي طالب «بكلمة أنفسنا» لأنه وحدَه صنو نفس رسول الله ﷺ: فهو أخوه من بين المسلمين، ومثَلُهُ كمثَل هارون من موسى إلَّا أنه لا نبيَّ من بعد محمدٍ رسول الله ﷺ.. وهؤلاء جميعاً: فاطمة والحسنُ والحسينُ وعليٌّ هم الذين جلَّلهُم النبي ﷺ بالكساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللَّهُم فأذهب عنهم=

ورأى الناسُ، ورأى وفد نجران أن هؤلاء الأربعة الذين أدخلهم رسولُ الله ﷺ تحت الكساء على شجرة البقيع، هم وحدَهم الَّذين سيباهلُ بهم، ولا أحَدَ غيرهم من المؤمنين.. فخافَ أصحابُ الوفد، بعدما رأَوا بأمِّ العين، ما حدَسوا وظنّوا، فقال لهم السيد: «والله إني لأَرَى وجُوهاً لو سألُوا ربَّهم أن يُزيل الجبلَ عن مكانِه لأجابَهُمْ وأَزَالَهُ.. فما تقولون يا قوم، أَنُباهِلُ الرجلَ؟».

وخافَ القومُ على مصيرهم من الزَّوال، فقالوا لبعضهم البعض: «لا تُباهلوا فَتَهلكوا. أَوَمَا عَلِمتُم أنه ما باهَلَ قومٌ قطُّ نبيّاً إلَّا خسروا»؟!

واقترب السيد من الأسقف، يُسِرُّ في أُذنه، ويقول: «أُدْنُ يا أبا الحارثة، فأنت حبرُنا وأسقفُنا وأعلمُ الناس فينا. تقدَّم وادعُ دعاء المباهلة على محمد بن عبد اللّه وأهل بيته».

ولكنَّ أبا الحارث رفض رفضاً قاطعاً، وقال لصاحبه: «إني والله

= الرجس وطهّرهم تطهيراً» (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، فضائل أهل البيت)، وهم الذين أنزلَ اللَّهُ تعالى قوله الكريم فيهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ـ سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. وهؤلاء جميعاً: فاطمةُ والحسنُ والحسينُ وعليٌّ، وفي مقدمهم رسولُ الله ﷺ نفسه هم الذين أعدَّهم اللَّهُ تعالى ـ في علمه السابق ـ ليكونوا محل المباهلة التي أمر رسولَهُ أن يدعُوَ إليها أهلَ النصرانية.. وما اختيارهم من العليم الحكيم لهذا الشأن إلَّا لأنَّ الأمر يتعلق بجوهر العقيدة، بجوهر الإسلام الذي يدعو إلى عبادة اللَّهِ الواحد، الأحد، الفرد الصمد، والقضاء على كل فكرة للشرك بالله تعالى.. ولذلك كانت الدعوة إلى المباهلة، حتى يتبيّن للناس جميعاً من هم الذين يختارهم رسولُ الله ﷺ ليباهلَ بهم، ويوقن الناسُ بأنَّ أهل البيت هم حملة الأمانة الكبرى ـ بعد النبي ﷺ ـ من أجل الحفاظ على الدين، وأحكامه، وتوجيه الأمة الإسلامية إلى السبل التي ترضي الله ـ تعالى ـ ورسولَهُ الكريم ـ وكيف لا، وقد قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وهما إمامان قاما أو قعدا (عن الأمر)، وأبوهما خيرٌ منهما»..

لا أرى رَجُلًا جَريئاً على المُبَاهَلةِ مثله. وأخافُ أن يكونَ صادقاً، فلا يحولُ علينا الحولُ ونحن على قيد الحياة. انظر إليه، إنه والله جثا أمام كسائه، كما جَثَا الأنبياءُ قبلَهُ للمُبَاهَلَة»..

وعادَ السيد يحثّ رئيسهم العاقب على المُباهلةِ، ليظهر للجموع الغفيرة أنهم قادرون على هذه المباهلة ومطمئنون إلى النتيجة. ولكنَّ العاقب خشي سوء العاقبة فأراد التملّص. وبخاطرة ذكاء تقدم من رسول الله ﷺ مبدياً احتجاجه بالقول:

ـ أبهؤلاء تباهلنا؟

وأدرك النبيُّ ﷺ ما يَرمي إليه سيد وفد نصارى نجران، وهو عدم الرضوخ للمباهلة والتهرب منها.. فأراد أن يسدَّ عليه كل ذريعةٍ، وذلك بأنْ أَبانَ له أنه قد جاءَ بأهله وأبنائه، فليأتِ منهم من شاءَ بأهله وأبنائه، عدداً بعدد، لا بأقلّ ولا بأكثر.. إذ لا شأن للكثرة في مثل هذه المواقف، لأنَّ الابتهالَ إلى الله تعالى، والدُّعاء على الكاذب، يمكن أن يصدرا عن جماعة من الناس، كما يمكن أن يصدرا عن إنسان واحد، وعن نفس واحدة. فإن كان الذي يباهلُ صادقاً صدَّقَهُ الله تعالى وأجزاه، وإن كان كاذباً كذَّبه الله تعالى وأخزاه، وحاق به العذاب الذي يستحق.

عندها ارتدَّ العاقب إلى بني قومه، يجتمعون ويتشاورون.. فقالوا لبعضهم: «ويحكم يا قوم! اذكروا ما عثرتم عليه في الجامعة من صفات هذا الرجل، فوالله إنكم لَتَعلمون حقَّ الْعِلْم إنه لَصَادق».. وراحوا يحذِّرون أنفسهم مما صَنَعَ الله العلي القدير بالأمم الغابرة، وما حلَّ بها من مسخ وخسف لتكذيبها الرسل، وبما أنزل بها من عذاب أليم.. حتى هلعت صدور القوم.. وكان المنذر بن علقمة ـ أخو

الأسقف، وأحد أعضاء الوفد البارزين ـ على حظٍّ كبير من العلم والمعرفة، فقال لأصحابه: «أتعلمون يا قوم! إنه ما باهل قوم نبياً قطُّ إلَّا كان الله مهلكَهم كلمح البصر. وقد علمتم وعلم كل ذي إرْبٍ من ورثة الكتب أن محمداً هذا هو الرَّسولُ الذي بشَّرت به الأنبياء وكتب السماء.. انظروا إلى محمد، وإلى الأربعة من أهله، تجدوهم مستعدين أبداً لرفع أيديهم نحو السماء، والابتهال إلى الله. وإنهم لمنتظِرون منكم قبولًا.. ويلكم يا قوم إن تَفَوَّهَ هذا النبي بكلمةٍ من بهْلَة، فإنّا لا نتدارك من بعدها هلاكاً، ولا نرجع إلى أهلٍ ولا إلى مال».

وهنا قال لهم الأسقف: «يا قوم! إن الأنبياء إذا ظهروا بأمر لا يرجعون إلَّا بقضائه، وإنَّ الحظَّ لنا في النكول. فالبدارَ البدارَ إلى محمد نصالِحهُ ونُرضيه. ولا نؤخرنَّ ذلك، فإنَّا والله، ومن معنا، بمنزلة قوم يونس، لمَّا غَشِيَهُمُ العذاب»..

وإذْ تَوافَقَ وفد نجران على الرأي بمصالحة محمد ﷺ، وأَنْ يَرضى ألَّا يباهلهم، فقد ندبوا المنذر بن علقمة إليه وهم يقولون: «يا أبا المثنّى، كن أنت الذي يلقى محمداً، الآن، وكن الكفيلَ لنا عنده بكل ما يريد، ولا تبطئنَّ في ذلك لنطمئنّ بما ترجع إلينا».

ونهض المنذر يتقدم خفيفاً إلى رسول الهدى، ويحيّيه بتحية الإسلام، وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله الذي بعثك بالحق. وإنك وعيسى، عبدان لله، مُرْسلانِ».

لقد دخَلَ الإسلام إلى قلب المنذر بن علقمة، ففرح رسول الله ﷺ به فرحاً شديداً. ثم انتحى به جانباً عن الكساء، حيث أهل بيته، فأجلسه بجانبه، وأقرَّه على إسلامه، فأخبره المنذر بما قرَّ

عليه الرأي عند بني قومه، بأَلَّا تكون بينهم وبين نبيِّ الله مباهلة، على أن يدفعوا الجزية التي تُفرض عليهم، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر[1].

وانتهى المؤتمر، وعادَ الجميع إلى منازلهم وإلى تدبّر شؤونهم. بينما انتهى المقام برسولِ الله ﷺ بأن يعقد لأهل نجران عهداً، دُوِّنَ بوثيقة خطية، وقد جاء في العهد النبويِّ إليهم، ما يؤمِّن أهل الكتاب على دينهم، فكتب لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد النبيِّ ورسول الله إلى الأسقف أبي الحارثة بن علقمة، وأساقفة نجران، وكهنتهم ورهبانهم، وأهل بيتهم ورقيقهم، وملَّتهم. على كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يغيَّر أسقفٌ من أسقفيته، ولا راهبٌ من رهبانيته، ولا كاهنٌ من كهانته، ولا يغيَّر حقٌّ من حقوقهم، ولا من سلطانهم، ولا مما كانوا عليه. على ذلك جوارُ الله ورسوله، أبداً ما نصحوا وأصلحوا، غيرَ منقلبين بظلم ولا ظالمين».

وهكذا عادَ وفد نجران إلى بلاده مُقرّاً بنبوة محمد بن عبد اللّه ـ ولو لم يدخلوا في الإسلام ـ ومعجباً بحكمة هذا النبيِّ وقدرته على التعامل مع الناس، وإعطاء كل ذي حق حقه. «ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد رجوعهما إلى نجران، وأن النبيّ ﷺ بعث إليهم عليّاً رضي الله عنه ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين»[2].

---

(١) الرحيق المختوم، ص٤١٤.

(٢) الرحيق المختوم، ص٤١٤ عن فتح الباري ٨/ ٩٤ و٩٥؛ وزاد المعاد ٣/ ٣٨ ـ ٤١.



كانت «البراءة» التي أذَّنَ بها عليٌّ (كرَّم الله وجهه) في الناس، يوم النحر بـ «منى» في الحجّ الأكبر، أحَدَ أهمِّ الدوافع التي أقنعت المشركين، بأن الخلاص لا يكون إلَّا بالدخول في الإسلام، لأن البقاءَ على عبادة الأصنام والأوثان، فوق أنه يُجيزُ للمسلمين قتالهم أينما ثقفوهم، فإنه يحرمهم من زيارة الكعبة، التي نشأوا على تعظيمها، إلى الحد الذي جعل أفئدتهم تهوي إليها دوماً، وليس بيدهم أية وسيلة لانتزاع تلك الجذور من أعماقهم، ممَّا يجعل التخلي عنها مستحيلًا.. فدخلوا في الإسلام مذعنين، حتى لم يبقَ أحدٌ في شبه جزيرة العرب يتعبَّدُ على الوثنية...

شؤون الإدارة

وهكذا شاء الله سبحانه أن تتطهر شبه الجزيرة، من أدناها إلى أقصاها، من رجس الوثنية وعبادة الأصنام؛ فانتشر الإسلام في شتى الربوع، وأصبحت له دولةٌ مترامية الأطراف، شاسعة الرقعة، وكان لا بُدَّ من تنظيم شؤونها، وإدارتها بما يتوافق وأحكامَ الشريعة.. ولذلك عيّن رئيس الدولة (الرسول الأعظم) الولاةَ والقضاة، وفرَّق العمالَ على الصدقات، وعهد إليهم بالمهمات، وأعطاهم الصلاحيات التي

تمكّنهم من ضبط أمور الناس، وتأمين مصالحهم بما يشيع العدل والأمن في مختلف الأنحاء. وكان في كثير من الأحيان يعهد إلى نفس الشخص أن يقوم بكافة الوظائف، في الإدارة والقضاء وجباية الأموال، وأخذِ الصدقات المكتوبة على المسلمين.

ولقد كان يتخيّر حكّامَهُ وولاتَهُ من ذوي الفضل إيماناً وعلماً وخُلُقاً، حتى يكونوا على مستوى المهام التي يتحمّلونها. خاصة وأنَّ عليهم، إلى جانب الاضطلاع بمسؤولية الحكم، حملَ الدعوة التي لا تنقطع، وتعليمَ الناس القرآن، وتفسيرَ أحكام الدين وتوضيحَ تعاليمه..

أما بشأن عباد الله، فإنّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان تشدّده مُنْصبّاً على أن يكون الحاكم أو الوالي ليّناً مع الناس في الحق، وشديداً عليهم في الظلم، ينهاهُم عن العصبية إنْ رأى هَيْجاً إلى القبلية أو الفتنة، ويوجههم التوجيه الصحيح، حتى يكون التوجّه خالصاً لله وحده لا شريك له. مع ما يحمل ذلك من قضاء على العقلية الجاهلية البائدة، والتخلي عن العادات والتقاليد البالية، ومع ما يتضمن من تربية جديدة غايتها تكيّف الناس مع أجواء عقيدتهم، واعتمادهم المنهجَ السويَّ، الذي ترسمه هذه العقيدة لحياتهم.

معاذ بن جبل إلى اليمن

وكان الرسول الأعظم ، زيادةً في الاطمئنان إلى صلاح الحاكم وعدله، يختبره بطريقةٍ تظهر مدى كفاءته وجدارته للمنصب الذي يختاره له؛ فإن وجده على مستوى المسؤولية عيَّنهُ، وإلَّا اختار غيرَهُ ممَّن تتوفر فيه الشروط كافة لتولية الحكم. من ذلك مثلًا حديثُهُ

لمعاذ بن جبل (الخزرجي)، حين أرادَ بعثه على بعض مقاطعات اليمن، إذ سأله ﷺ: «يا معاذ، بمَ تحكم؟».

قال معاذ: بكتاب الله..

قال النبيُّ ﷺ: فإن لم تقدر أنْ تجد؟.

قال معاذ: بسنّة رسول الله ﷺ.

قال النبيُّ ﷺ: فإن لم تقدرْ أَنْ تجدَ؟

قال معاذ: أجتهد رأيي.

فقال النبيُّ ﷺ: «الحمد لله الذي وفّقَ رسولَ رسولِ الله لما يحبه الله ورسولُهُ».

وكانت وصيته إلى معاذ وهو يخرج في سريته إلى اليمن تنضح بالحق والصدق حيث يقول ﷺ له: «لا تقاتِلوهم حتى تَدْعوهم. فإنْ أبَوْا فلا تقاتِلوهم حتى يبدأوكم. فإنْ بدأوكم فلا تقاتِلوهم حتى يَقتُلوا قتيلًا منكم. ثم أرُوهم ذلك القتيل وقولوا لهم: هل إلى خيرٍ من هذا سبيل؟. فَلأَن يهدي الله تعالى على يديك رجلًا واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[1].

هذا في ما يتعلق بحالة القتال. أما في ما وجب على المؤمن في كل حال، فقد أكّدت وصية الرسول لمعاذ على أهم القيم الإسلامية، ومنها قوله ﷺ: «لا تشرك بالله شيئاً وإنْ قُتِلْتَ وحُرِّقت. ولا تَعُقَّنَّ والديك وإنْ أمَراك أن تخرج من مالك وأهلك. ولا تتركنَّ صلاةً مكتوبة متعمِّداً فإنَّ من تركَ صلاةً مكتوبةً متعمداً فقد برئت منه ذمةُ

(١) البخاري، باب الجهاد، ص ١٧٦.

الله. ولا تشربنَّ خمراً فإنه رأسُ كلِّ فاحشة. وإيَّاكَ والمعصيةَ فإنَّ بالمعصية يحلُّ كلُّ سُخط. وإيَّاكَ والفرارَ من الزحف، وإنْ هلك الناس. وإذا أصابَ الناسَ موتٌ وأنت فيهم، فاثبُتْ. وأنفِق على عيالك من طَوْلِك، واجْبَهْهُمْ في الله عزَّ وجلَّ».

وأما بخصوص أهل الكتاب فقد تضمَّنت وصيةُ رسول الله الأحكامَ التالية: «يسّر ولا تعسّر، وبشر ولا تنفّر، يا معاذ. وإنك ستقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أولَ ما تدعوهم إليه عبادةُ الله تعالى، الواحد الأحد. فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أنه فرض سبحانه عليهم زكاةً تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فخُذْ منهم، وتَوَقَّ كرائم أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وبمثل هذا الهدْي النبويِّ، بَعَث محمد رسول الله معاذَ بن جبل عاملًا على أحد مخاليف اليمن، وعبدَ اللّه بن قيس (أبا موسى الأشعري) على مخلاف آخر، فكانا متجاورَيْن، يذهب كل منهما إلى صاحبه، يتشاوران ويتدبَّران، تنفيذاً لأوامر النبيِّ ﷺ، إذ أوصاهما، بأن يتطاوعا ولا يختلفا.

أما غيرهما من الولاة والعمال على الصدقات فكانوا كثيرين أمثال: عتّاب بن أسيد على مكة، وخالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، وزياد بن لبيد بن ربيعة الأنصاري على حضرموت، والعلاء بن الحضرميّ على البحرين، وعمرو بن العاص على عمان، وباذان بن ساسان ـ بعد إسلامه ـ على أجزاء من اليمن. كما بعَثَ ﷺ عديَّ بن حاتم الطائي على صدقات طيء وأسد،

ومالك بن نُوَيرة على صدقات بني حنظلة. وجعل الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم على صدقات بني سعد. وبعث عليَّ بن أبي طالب (كرَّم اللَّهُ وجهه) إلى نجران ليجمع الصدقات ويأخذ الجزية.

شؤون القضاء

ولم تكن عنايةُ النبيِّ ﷺ بشؤون القضاء أقلَّ من اهتمامه بشؤون الادارة.. وذلك لما للقضاء من أهمية في حياة الشعوب والأمم تحقيقاً للعدالة، إذ في الحقيقة لا حضارة أو مدنية، ولا ازدهار أو تقدم، ولا حقوق للإنسان ـ على شتى أنواع هذه الحقوق ـ إلَّا في ظل قانون سيّد عادل، يحقق أهداف الناس وتطلعاتهم. والقاضي هو الذي يملك السلطة القضائية التي لا تعلوها، إذا طبقتْ أحكام العدل، وحرصتْ على احترام القوانين، أيةُ سلطة، مهما بلغ شأوها، إذ للسلطة القضائية وحدها صلاحية الحكم على الناس، إلى حدِّ الحكم بالحياة أو الموت. ومَن كانت له هذه السلطة القوية وجَبَ أن يكون أهلًا لها، وإلَّا فقد ساء كلُّ شيء، لأنه ويلٌ للأمة إذا نخَرَ السوسُ عظامَ القضاء فيها، فمات ضميرُ القاضي، واندحَرَتِ العدالة على مذبح القوس الذي يجلس عليه.. وويل للشعب إذا سادَ مجتمعَهُ الظلمُ، وعمَّهُ الباطلُ، وافتُقد القاضي النزيه العادل الذي هو الملجأ الأخير للناس!!. ومن هنا كان اهتمام رسول الله ﷺ بالقضاء الذي يستلهم العدالة من مصدرها الأول والأخير وهو الله تبارك وتعالى الحاكم الحكيم، والعادل الرحيم.

ونحن يمكن أن نتبيّن صورةً لهذا العدل على حقيقته وفي أصوله، عندما نتذكّر أن النبيَّ ﷺ جَعَلَ سعدَ بنَ معاذ حكَماً بينه وبين

اليهود في المدينة على أثر غزوة الأحزاب، إذ إنه، على الرغم من كونه رئيساً للدولة وقاضي القضاة، بل وسيّدَ القضاء في الناس، فإنه اعتمد القاعدة الأصيلة التي تمنع الجمع بين الخصم والحكَم، فلم يصدر هو ﷺ حكمه على اليهود، بل انتدب لذلك سعداً وجعله قاضياً له ملء الصلاحية بأن يحكم بما يراه عدلًا في أمرهم. وهذه هي القاعدة الصحيحة لتحقيق العدالة، وَجَعْلِ العدل أساساً للملك والحكم..

ولقد كان أمر العدالة يوكل في المجتمعات القديمة إلى أسنِّ الرجال، وأكثرهم حكمة وتجربة، لما يملكون من دراية كبيرةٍ بأحوال الناس، ومعرفةٍ بعاداتهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم، وقد تمسّك العربُ في الجاهلية بهذا النهج، فكان شيخ القبيلة الذي يمتاز بكثير من تلك المواصفات هو القاضي والحاكم، وصاحب الأمر والنهي، فلا تقطع القبيلة بأمر من أمورها الهامة إلّا برأي شيخها وموافقته.. وهذا النهج لم ينقضه رسولُ الله ﷺ بكليِّتُه، بل أكَّدَ على سلامته، ولكنه لم يجعل حكمة السنين والتجربة وحدها هي المعيار في اختيار القاضي، بل جعل الكفاءة في العلم والحكمة، والإيمان والتقوى، والسلوك والخلق الحسن هي التي تؤهل الرجل للحكم بين الناس، ولذلك اختار للقضاء على اليمن عليَّ بن أبي طالب، ولو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره.. ويروي علي (كرَّم اللَّهُ وجهه) كيف أنه تهيّب الموقف، ورسولُ الله ﷺ يعيّنه في هذا المنصب الجليل. وحدّث عن ذلك، فقال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقلت: يا رسولَ الله، تبعثني إلى قوم هم أسنُّ مني، وأنا حدثٌ لا أبصر القضاء. فوضع يده على صدري وقال: اللهم ثَبّتْ لسانَهُ واهدِ قلبَهُ.. ثم نظر إليَّ وقال: يا عليُّ، إذا جاءك الخصمان فلا تقضِ بينهما حتى

تسمع من الآخر ما سمعتَ من الأول، فإنّك إن فعلتَ، تبيّن لك الحق».

ونحن قد نجد في الاستماع إلى الخصمين أمراً بديهيّاً في عصرنا اليوم. ولكن إذا عرفنا بأنَّ النبيَّ داود عليه السلام كما يقرّر القرآن الكريم، قد قضى بين الخصمين لمجرد سماع دعوى أحدهِما، وقبل أن يستمع إلى دفاع الخصم الآخر، فنهاه ربُّ العالمين عن ذلك، وأمَرَه أن يستمع إلى دعوى الفريقين قبل الحكم. أجل، إذا عرفنا ذلك ظهرت لنا القاعدة الأصيلة التي سنَّها القرآنُ، كتاب الله المبين، فأبانها النبيُّ لقضاته، وفي طليعتهم علي (كرَّم اللَّهُ وجهه) وهو يولّيه على قضاء اليمن.. وأما دعوتُهُ له: بأن يثبّتَ الله لسانه ويهديَ قلبَهُ، فكانت دعوة نبوية أُعطيت لعليٍّ ولم تُعطَ لأحدٍ غيره، فكان بعدها أخطب الناس وأثبتهم قولًا وعدالةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ كان مهدياً لا يلين في حقٍّ أو يُمالئ في باطل. وأما هدايته في القضاء فكانت هدايةً تامة، ما اختلف عليه بعد تلك الدعوة السنيّة ـ من رسول الله ـ قضاءٌ بَعدُ. وحياته حافلة بالمآثر في هذا المضمار، وخاصة مع أخيه في الإسلام، عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما وأرضاهما) الذي قال: «لولا عليّ لهلك عمر».. فقد كان يعود إليه في كل معضلة تستعصي فيجد عنده الحلَّ العادل لها. ويكفي دلالة على مصداقية قضاء علي (كرَّم اللَّهُ وجهه) قولُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم علي. لا يقضي أحدكم وعليٌّ في المسجد»[1].

ولم تكن تولية عليّ بن أبي طالب قضاء اليمن إلَّا من وحي الفكر النبويِّ الثاقب الذي يرتكز دوماً على الحقائق التي بها يؤمن.

---

(١) أحمد بن حنبل، ج٥، ص ١٣.

فقد رأى في هذا المؤمن الصادق ملكاتٍ وقدراتٍ كبيرةً حباه الله ـ سبحانه ـ بها، ومارس تجاربَ وخبراتٍ كثيرةً اكتسبها في كنف النبوة حتى شبَّ ولديه علمٌ وافرٌ وغزير. وإلى جانب هذه الصفات كان علي (كرَّم اللَّهُ وجهه) قد اطَّلَعَ على عادات أهل اليمن ووقف على أحوالهم من خلال المهام العديدة التي نَدَبَهُ إليها رسولُ الله في تلك البلاد. فقد بعثه إلى هنالك في أول مهمة إسلامية سنة ثمانٍ للهجرة، على إثر فتح مكة. ثم عاد وبعثه إلى بني همدان، وقد أسلموا على يديه، فكتب يومَها إلى رسول الله يعلمه بإسلامهم، فسُرَّ الرسولُ ﷺ للبشرى السعيدة، وسجد شكراً لله تعالى، ثم قال ثلاث مرات: «السلام على همدان».. كما أنه بعثَهُ بعد ذلك إلى بني مذحج، ومعه ثلاثمائة فارس، وقد أوصاه حين خروجه إلى أولئك القوم: «سرْ بكلاءة الله حتى تنزل في ساحهم، وتحلَّ في فنائهم، فَادعهُم إلى الإقرار بالشهادتين، فإنْ أجابوا فَمُرْهُمْ بالصلاة ولا تَبْغِ منهم غير ذلك، فلأن يهدي الله بك رجلًا واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت. ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك»[1].

---

(١) وقد عمل عليٌّ (كرَّم اللَّهُ وجهه) بأمر رسول الله ﷺ ووصيته، إذْ لمَّا انتهى إلى بني مذحج كان أول ما فعل أن دعاهم إلى الإسلام، إلَّا أنهم رفضوا الاستجابة، وبادروه بالعداء، وجمعوا الجموعَ ورمَوْه وأصحابه بالنبال، حتى كان ما كان، مما جعله يحمل عليهم، فيفرق جموعهم، ويقتل منهم عشرين رجلًا.. ولما رأى بنو مذحج أنه لا قِبَلَ لهم بمتابعة قتاله، طلبوا الكفَّ عنهم، واجتمع إليه زعماؤهم يفاوضونه، فانبرى عليٌّ، بما عُهِدَ فيه من إيمان صادق، وإخلاص للدعوة، يبيِّن لهم حقيقة الإسلام وما ينطوي عليه من السماحة والعدل والمساواة، وما يرمي إليه من الإخاء والمحبة والمنعة، وغيرها من المفاهيم المدعَّمَة بالأدلة.. والبراهين العقلية والحسيّة، حتى أجابوه، ودخلوا في دين الله مختارين، فتبعهم أبناءُ قومهم وصاروا جميعاً، بفضل الله تعالى مسلمين.

نعم، إنَّ ما كان لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام من صفات شخصية، وما اكتسبه من علم النبوة، وما حباهُ به ربُّهُ تبارك وتعالى من سجايا وعطاءات فريدة كما عبَّر عنها عبد الله بن عباس، فقال: «ليس آيةٌ في كتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلَّا وعليٌّ أولُها وأميرُها وشريفُها»[1] وما قام به من مهام في اليمن، جعل كثيراً من الناس يُسلمون على يديه. وإنّ هذه الأمور مجتمعة كانت وراء اختياره لتولية القضاء على اليمن رغم صغر سنه، فلبث في تلك البلاد يقضي بين الناس، ويعلّمهم الدِّين، ويحفِّظهم القرآن، ويجمع الصدقات، حتى وافى الرسولَ الكريمَ على مشارف مكة، أثناء حجة الوداع..

وجوه أخرى لرعاية شؤون الناس

هذه بعض الملامح الوجيزة للإدارة الرشيدة، وللقيادة الحكيمة، كما توخَّاها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأرسى لها القواعد المتينة، وشيد لها البنيان الراسخ.. فهو منذ وصَلَ المدينة راح يعمل لإقامة الدولة الإسلامية بنهجٍ واضح، وجهاز كامل، وهدف سام..

ولقد قامت سياسته الداخلية على بناء المجتمع الإسلاميِّ الصافي، كما أقام سياسته الخارجية على المعاهدات والمواثيق التي تحفظ حق الله، وحق العباد.. ولذلك كان اختياره للحكام والولاة مِنْ أمثل مَنْ دخلوا في الإسلام فهماً للعقيدة، وإخلاصاً للمبدأ، وصدقاً في المعاملة. ومع ذلك كله فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يزوّدهم بالوصايا التي تمهّد لهم النهج القويم، وتمدُّهم بالتَّوجهات السويَّة، ومنها على الأخص ما يتعلق بأهل الكتاب، فإن أسلَمَ من كان يهودياً أو نصرانياً إسلاماً

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٢٣.

خالصاً من نفسه، فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتن عنها، وإنما عليه الجزية، وله حقوق المسلمين كافة..

وكان الرسول الأعظم لا يكتفي بالاختيار والتوجيه والتولية، بل يكشف عن حال الولاة والعمال، ويتقصَّى أخبارهم بصورة دائمة. فقد أمر واليَهُ عندما بعثه على البحرين، وقال له: «استوصِ بعبد قيسٍ خيراً وأكرم سراتهم». فجاءه يوماً وفد من عبد قيس شاكياً عاملَه العلاء بن الحضرمي، فعزلَهُ.

وكان يدقق في حسابات عماله، ويحاسبهم على المستخرج والمصروف. ولذلك كان يوصيهم قائلًا: «من استعملْناه على عمل ورزقْناه رزقاً، فما أخذَ بعد ذلك فهو غلول»[1].

ومن الشكاوى التي وصَلَتْ رسولَ الله، شكايةُ أهل اليمن من تطويل معاذ في الصلاة، فنهاه، وقال: «مَن أمَّ في الناس فليخفِّف»[2]. وقد جاءه يهود خيبر يشتكون عبد اللّه بن رواحة[3]، الذي كان يبعثه كلَّ عام إليهم، يخرص (يقدّر ما على النخل من الرطُّب تمراً) عليهم نخلَهم. فسأله النبيُّ ﷺ عن ذلك، فنفاه عبد الله نفياً قاطعاً، مبدياً أنه لا يتوخَّى إلَّا قسمة الحق، فلا يأخذ من نصيب اليهود، ولا يحيف بحقوق المسلمين.. فلما رأى يهود خيبر أنَّ شكواهم الكاذبة لم تنفع، لجأوا إلى وسيلة أخرى، وهي محاولة

(١) صحيح مسلم، الإدارة، ج٣ رقم ١٨٣٢. والغَلول: الخائن.
(٢) صحيح مسلم، الصلاة، ص٣.
(٣) قبل أن يستشهد في معركة مؤتة..

تقديم الرشوة إلى عبد اللّه بن رواحة، فجلَّلوا له حلياً من حليِّ نسائهم، وقدَّموها له قائلين: «هذه لك، وخفِّفْ عنا وتجاوز في الْقَسْم». . فضحك عبد الله مستهزئاً وقال لهم: «يا معشر اليهود إنكم لَمِنْ أبغض خلق الله تعالى إليَّ، ومحمد ﷺ أحبُّ الناس إليّ، وهذا ليس بحاملي على أن أحيف عليكم. وأما ما عرضتم من الرشوة فإنها السُّحتُ (الحرام)، وإنَّا لا نأكلها». وبهذا اقتنع يهود خيبر أنَّه لا رشوة في الدولة الإِسلامية، ولا يرتشي مَنْ هو مسلمٌ صادق، فقالوا: «بهذا قامت السماواتُ والأرضُ». .

ولما كان اهتمام رسول الله ﷺ بقضايا الناس اهتماماً شديداً، وعنايته بأحوالهم كبيرة، فإنه لم يكتفِ بتعيين القضاة، بل عيّن أشخاصاً يُعنَوْن بالمظالم، فوجّهَ راشد بن عبد اللّه أميراً على القضاء والمظالم، وجَعَلَ له صلاحية النظر في قضايا المظالم، حيث يقف على شكاية المظلومين، ويردُّ الحيف عنهم. .

في كل أمر من أمور الناس اهتمَّ رسول الله ﷺ، وفي كل شأن من شؤونهم اعتنى. . أدارَ مصالح الناس، وعيّن الكتّاب لإِدارة هذه المصالح، فكانوا بمقام مديري الدوائر اليوم. وهكذا جعل عليَّ بن أبي طالب (كرَّم اللَّهُ وجهه) كاتب العهود إذا عاهَدَ والصلح إذا صالح، والحارث بن عون المري على خاتمه، ومعيقيب بن أبي فاطمة كاتباً على الغنائم، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص (تقدير) ثمار الحجاز، والزبير بن العوام يتولى كتابة أموال الصدقات (الزكاة)، والمغيرة بن شعبة يكتب المداينات والمعاملات، وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك. .

وبمقتضى هذا النهج قامت دولة الإسلام منيعة، لا محلَّ فيها للانحلال والتفكك في الداخل، ولا مجال لإرهابها أو إضعافها من الخارج. وذلك بفضل إيمان أبنائها، وقوة شجاعتهم، وما لديهم من وسائلَ وقُدُراتٍ يُرْهِبُونَ بها عدوَّ الله وعدوَّهم. ذلك أن رسولَ الله ﷺ ومنذ بداية تكوين الدولة رأى أنه لا يمكن أن يكون لدين الله سلطان إلَّا إذا اعتمدت الدولة على نفسها في توفير كافة أسباب القوة وتأمين السلاح والعتاد اللازمين. وعلى الفور بعث شباب المسلمين إلى اليمن كي يتعلموا صناعة الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، وفي يقينه أنَّ لا شأن للدولة إلا برجالها وسلاحها والموارد المالية التي تؤمّنها بالحق والعدل.. فكان اهتمامه بصناعة السلاح وتأمينه، كما كان اهتمامه بشراء ما يحتاج إليه من عتاد إذا أعوزه الصنع.. وهذا لعمري ما تحتاج إليه بلاد الإسلام اليوم، إن أرادت أن يكون لها موقع قدم على هذه الكرة الأرضية، وأن تصبح في مصاف الدول العظمى التي تمتلك حالياً صناعة السلاح، وهو الذي مكّنها من أن تكون أقوى الدول وأعتاها، وجعلها تتحكم بمصائر الشعوب المستضعفة صغيرها وكبيرها..

وإذا كانت مثل هذه القدرات بحاجة إلى الإمكانات المالية، فإنَّ رسولَ الله قد أمَّن الجانبَ الماليَّ بما وضع من إلزامات مالية على عاتق جميع الرعايا في دولته، من مسلمين وغير مسلمين. أما المسلمون فقد فُرِضَ عليهم الخمس والزكاة على النقود والأراضي والثمار والماشية.. وأما من غير المسلمين فكان يجري استيفاء الفيء والخراج والجزية.. على أن توزع حصيلة تلك الأموال أو تصرف وفقاً للغايات المعيَّنة لها، بينما توزع أموال الزكاة على الأصناف

الثمانية التي عيَّنهما القرآن الكريم دون غيرهما لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

أجل تلك بعض الملامح للتدليل على إدارة شؤون الدولة ورعاية مصالح الناس، كما أرادها خاتم النبيين ﷺ وأرسى لها القواعد القويمة، وأشادَ لها البنيان المتين. ويكفي الحاكم المسلم أن يهتدي إلى كتاب الله المبين، وأن يقتدي بسيرة رسوله الكريم، حتى يَصْلُحَ ويُصلِحَ أحوال العباد بما يُرضي الله ورسولَهُ. ولا نظنُّ حكماً يقوم على القرآن المبين وعلى سنَّة النبيّ الكريم إلَّا ويكون أمثل حكم في الأرض، لأنه يستقي من الينابيع الصافية النقيَّة، ويستوحي من المصادر الشريفة الوحيدة...

حجة الوداع

لم يتوقّف قطّ تطلّع الإنسان، ومُذْ وُجِدَ على هذه الكرة الأرضية، إلى قوة غيبيَّة، يؤمن بأنها هي سيدة الكون، وهي وحدها القادرة على تسييره والتحكم بمصيره. ومن هذا الاعتقاد بوجود تلك القوة المهيمنة انبثقت المعتقدات الدينية، وعبادات الناس. فكان لكل جماعة الطقوس والشعائر والمناسك الخاصة التي تمارسها.

وقد ثبت من خلال الرسالات السماوية أن الاعتقادَ الدينيَّ لدى الأمم كان يضعف حتى يحل محله الشرك. فكان يأتي الأنبياء والرسل بني

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠

قومهم فيكذِّبونهم، ويؤثرون الكفر والشرك على الإيمان بالله تعالى.. وليس بعيداً عن الماضي ما تشهد البشرية اليوم من موجةٍ جديدةٍ للإلحاد وعدم التمسك بتعاليم الرسالات السماوية، بل وعدم الإيمان الحق بحقيقة وجود الله تعالى خالق الإنسان والحياة والكون، بحيث بات الناس يؤثرون المادة وزخرف الحياة الدنيا على كلِّ قيمة أو اعتبار...

على أن الإطار العام للحياة يبقى هو نفسه، أي الإطار الذي يجمع ما بين المادية والروحانية، وهذا ما لم يخرج عنه سكان شبه جزيرة العرب في قديم حياتهم. ولذلك كانت لهم نظرتهم الدينية التي تقوم على الاعتقاد بالله (سبحانه وتعالى)، فلا تنقطع أَيْمانُهم عن الحلف بالله، وبأنه هو الخالق، إلَّا أنهم اتخذوا الأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان آلهة تُقَرِّبهم زلفى إلى الله، فدانوا لها بالعبادة الوهمية وسيطرتْ على حياتهم الوثنية والجاهلية.. على أن شيئاً واحداً ظلَّ العرب يُجمعون عليه على الرغم من عقيدة الشرك التي كانوا عليها، وهو التمسك بسنّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام في تقديس الكعبة واعتبارها بيت الله الحرام. فكانوا يحجون إليها كل عام، ويُقيمون في رحابها ومِنْ حولِها المناسكَ التي توارثوها عن الآباء والأجداد، والشعائرَ التي وصلت إليهم بتعاقب الأجيال.. وجاءَ الإسلام فأبقى للكعبة الشريفة حرمتها وقدسيتها، بل وزادَها رفعةً ومقاماً بأن جعلها قبلةً للمسلمين. وجعلَ زيارة البيتَ الحرام فريضةً من فرائض دينهم، بحيث يحجُّ إلى هذا البيت كلُّ من استطاع إليه سبيلًا.

وقد أكّد الإسلام على النظرة الشمولية للحجّ من خلال الشعور الفرديّ بالتطهر والخلاص من موبقات الشهوات الدنيوية، ومن خلال الأحكام الشرعيّة التي تجعل الجميع متساوين أمام الله تعالى، يتنادون

لبحث قضاياهم ومشاكلهم، والتعاون على ما فيه نفع الأمة. وإذا كان الله سبحانه وتعالى، قد أفْسحَ في المجال، ـ كما عرفنا ـ حتى سنة تسع هجرية، للمسلمين ولغير المسلمين، بزيارة البيت الحرام، واجتماع الناس في آخر موسم للحجّ على عادات متضاربة، وعلى شعائر متناقضة.. فإنَّه لمَّا آن الأوان، وأُبلغتْ «براءة» في ذلك الموسم، وجبَ التفريق بين المسلم والمشرك، ووجب ألاّ يَحجّ إلى الكعبة إلَّا من اتخذ الإسلام ديناً، ما دامت روحية الحجّ بالنسبة للمسلمين، تقوم على عقيدة التوحيد، التي يؤمنون بها وحدهم[1]،

(١) يقول الإمام علي بن أبي طالب حول الكعبة الشريفة: «ألا ترونَ أنَّ اللَّهَ سبحانه، اختبر الأولين من لَدُنْ آدمَ صلوات الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجارٍ لا تضُر ولا تنفعُ، ولا تُبصرُ، ولا تسمعُ، فجعلها بيتَهُ الحرامَ «الذي جعله للناسِ قياماً»، ثم وضعَهُ بأوعر بقاعِ الأرضِ حجراً، وأقلِّ نتائقِ (البقاع المرتفعة) الدنيا مَدَراً (لا تنبت إلَّا قليلاً) وأضيقِ بُطُنِ الأودية قُطْراً، بينَ جبالٍ خشنةٍ، ورمالٍ دمثةٍ، وعيونٍ وَشِلةٍ (قليلة الماء)، وقرى منقطعةٍ، لا يزكو بها خُفٌّ ولا حافِرٌ ولا ظُلْفٌ، ثم أَمَرَ آدم عليه السلام وَوَلَدَهُ أنْ يَثْنُوا أَعطافَهُمْ نحوَهُ (توجهَّهم إليه)، فصارَ مثابةً لمُنْتَجَعِ أَسْفارِهِم، وغايةً لِمَلْقَى رِحالهم، تهوي إليه ثِمارُ الأَفْئدةِ من مَفَاوِزِ (فلوات) قِفارٍ سحيقةٍ، ومهاوي فِجاجٍ عميقةٍ، وجزائرِ بحارٍ منقطعةٍ، يُهَلِّلون للَّهِ حولَهُ، وَيرْمُلُونَ على أقدامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً له. قد نَبَذُوا السَّرابيْلَ (الثياب) وراءَ ظهورِهم، وشوَّهُوُا بإعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً، واختباراً مُبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعلَهُ اللَّهُ سبباً لرحمتِهِ، وَوُصْلَةً إلى جَنَّتِهِ، ولو أرادَ سبحانَهُ أنْ يَضَعَ بيتَهُ الحرامَ ومشاعِرَهُ العِظامَ، بين جنَّاتٍ (بساتين) وأنهارٍ، وسَهْلٍ وَقَرارٍ (أرض مطمئنة) جَمِّ الأشجار، داني الثِمارِ، ملتفِّ البُنَى، مُتَّصِلِ القُرى، بينَ بُرَّةٍ سَمْراءَ وَرَوضَةٍ خَضراءَ وأَريافٍ مُحْدقَةٍ، وَعِراصٍ (ساحات ليس فيها بناء) مُغدِقَةٍ، وَرِياضٍ نَاضِرَةٍ، وطُرُقٍ عامِرةٍ، لكانَ قدْ صَغُرَ قَدْرُ الجزاء على حَسَبِ ضَعْفِ البلاء. ولو كانَ الأساسُ المحمُولُ عليها، والأحجارُ المرفوعُ بها، بينَ زمرُّدَةٍ خضراءَ، وياقُوتَةٍ حَمْراءَ، ونورٍ وضِياءٍ لَخَفَّفَ ذلك مُصارَعَةَ الشَّكِّ في الصُّدورِ، وَلَوَضعَ مُجاهَدَةَ إبليس عَنِ القُلوبِ، ولَنَفى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ الناس، ولكنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبادَهُ بأنواعِ الشَّدائِدِ، ويَتَعبَّدُهُمْ بأنواعِ المَجَاهِدِ، ويَبْتَلِيهِمْ بِضُروبِ المَكَارِهِ إخراجاً للتَّكبُّر=

مِنْ دون غيرهم، وما دامت الغاية التي يرومونها من الحجّ أداء الفريضة، والتوبة إلى الله (تعالى) توبة نصوحاً حتى يغفرَ لهم، ويتوب عليهم.

ولم تَكُنِ المَنَاسِكُ والشعائرُ حتى تلك السنة (٩هـ.)، قد توضحت معالمُها بالشكل الكامل في أذهان المسلمين. فكان لا بدّ أن يشهد الحجَّ الأكبر رسولُ الله ﷺ بنفسه، حتى يبيِّن للناس السُنَّةَ التي يقتدون بها في إقامة مناسكهم وعباداتهم. ولم يكن عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام قد حجَّ من قبل الحجَّ الأكبر، وإن كان قد اعتمر[1]، وحجَّ الحجَّ الأصغر مرتَين. ولذلك رأى بهداية ربه وبثاقبِ بصيرته، أنَّ عليه أن يحجَّ بالناس. يدعوه إلى ذلك برهان ربه، إذ كان الإسلام قد أكمل انتشاره في ربوع شبه الجزيرة، وأصبحت تلك البقاعُ أمةً واحدةً يُظلّها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله ﷺ، وتدينُ كلها بدين واحد هو الإسلام، وتتَّجِهُ قلُوبهم جميعاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بعد أن طُهّرَتْ من رجس الوثنية، واستراحت إلى حكم الواحد الديَّان.. هذا البرهان الربَّاني استجاب له الرسول الأعظم، فلما استهلّ ذو القعدة من السنة العاشرة للهجرة أذَّنَ في الناس للحجّ، وراح يتجهّز له، وفي مقاصده أن يشهد الناسُ كيفية قيامه بالمناسك، وطريقة أدائه للشعائر، حتى تبقى لهم السُّنة النبويَّة

= مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكاناً لِلتَّذَلُّلِ في نفوسِهِمْ، وَلِيجعلَ ذلك أبْواباً فُتُحاً إلى فضْلِهِ، وَأَسْباباً ذُلُلًا لِعَفْوِهِ» (انظر: مختارات مبوّبة من نهج البلاغة، ط٢ ١٩٩٠م ـ ١٤١٠هـ).

(١) شرع رسول الله ﷺ بالعمرة في أواخر سنة ست للهجرة بدليل أنه اعتمر أربع مرات، الأولى أرادها من الحديبية، والثانية عمرة القضاء سنة سبع هجرية، والثالثة من الجعرانة بعد الانتهاء من حنين، سنةَ ثمان هجرية، والرابعة في حجة الوداع سنة عشر هجرية.

قائمة على مدى الزمان، وأن يسمعوا منه كلمة جامعة عن الدِّين الذي بعثه الله تعالى به، فيكون ما قام به أمامهم، وما سمعوه من قوله، الطريقَ الذي يهديهم إلى الحق، والسبيلَ الذي يقودهم إلى الرشاد، والجُنَّة (السُّترة والترس الذي يُحتمى به) التي يعتصمون بها عند الزلل، ويسترشدون بها من الضلال.

وما كاد الناس يعرفون ما صحَّ عليه عزم رسول الله ﷺ، ودعوته إياهم للحج معه، حتى انتشرت تلك الدعوة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية. وأقبل الناس على المدينة المنوّرة ـ عاصمة الدولة وقاعدة حكمها ـ ألوفاً مؤلفة، جاؤوها من كل فجٍّ عميق: من المدائن والبوادي، ومن الجبال والصحارى، ومن كل بقعة من أراضي هذه الدولة المترامية الأطراف، التي أنارها الإسلامُ بقبسٍ من نور الله، نور السماوات والأرض، وبهَدْي رسوله الكريم.. وحول المدينة المنوّرة ضُربت الخيام للجموع الغفيرة، التي تزيد على تسعين ألفاً من المسلمين، وقد جمعت بينهم أخوَّة الإسلام، بعد أن كانوا إلى سنواتٍ خلت أعداءً متنافرين.

وحلَّ الخامس والعشرون من ذي القعدة في تلك السنة، فكان يوم سبت، وفيه خرج رسول الله ﷺ قاصداً بيت الله الحرام، بعد أن صلى الظهر أربعاً، وخطب الناس خطبة علَّمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه. وقد أخذ معه نساءه جميعاً (رضي الله عنهنَّ)، وابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام). وكانت كل واحدة منهنَّ في محفَّة خاصة بها، بعد أن كتب إلى عليٍّ كرّم الله وجهه، وهو في اليمن، أن يتوجّه إلى الحج، فيلاقيه في الرحاب الطاهرة.

وسارَ الرسول الأعظم وهو يلبِّي ويقول: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، ومن ورائه ذلك الجمع الزاخر من المسلمين يلبُّون، وقد ملأت قلوبَهم ـ بتلك التلبيات ـ الغبطةُ، وبدا على وجوههم الإشراق، ما داموا يتوجهون إلى بيت الله الحرام، ويؤدون برفقة رسول الله ﷺ فريضة الحج الأكبر. وبلغ الحجيج «ذا الحليفة» فنزل به النبي ﷺ، وهناك أقاموا ليلتهم. حتى إذا أصبحوا، أحرم ﷺ وأحرم معه المسلمون، فلبس كل واحد إزاره ورداءه، وصاروا بزيٍّ واحد، هو أبسط ما يكون زيّاً، ولكنّه الزيُّ الذي يحقق المساواة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها. وبعد الإحرام ركب الرسول ﷺ ناقته، فلما استوى عليها وهمّت به قائمةً، رفع صوته ملبّياً فصاح الناسُ جميعاً، من شتى أنحاء هذا البحر المتماوج من البشر، وبصوت واحد: «لَبَّيك اللَّهمَّ لَبَّيك، لَبَّيك لا شريك لك لَبَّيك، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لك والمُلك، لا شريك لك». وتجاوبت البطاح والهضاب مع النداء الذي كان يُدوِّي في فضائها الواسع، وهي ترى مسيرة السلام تنطلق في دروب الصحراء سعياً إلى بيت الله الحرام. فخشع كل من في تلك الدروب، من إنسٍ، ووحشٍ، وطير، وجبلٍ وحجرٍ يسبِّح لله تعالى في مسيرةِ خلقه إليه، مسيرة الأمان والاطمئنان لكل شيء، ومسيرةِ السلام والوئام لكل حي.

إنه خشوع الخلائق لخالقها، وهي ترى هذه الجموع من المؤمنين وقد تداعوا يلبّون ويسعون إلى مرضاة ربهم، وفي جوارحهم الشوق يحدوهم إلى بيته الحرام الذي جعله مثابةً للناس وأمناً.. وإنه تسبيحٌ لرب العالمين، ورب هذه الألوف المؤلفة من المسلمين الذين

تدفقوا في الصحراء، لا يصعدون نجداً ولا يهبطون وادياً من الأرض، ولا ينزلون منزلًا أو يقيمون صلاة، ولا يستذكرون حادثاً أو يرون مظهراً من مظاهر الطبيعة التي خلقها الله تعالى، وبثَّ فيها الرونق والجمالَ، إلَّا وانطلقت أصواتهم تعجُّ بالتلبية، وألسنتهم تكبّرُ وتهلّل للَّهِ الواحد الأحد..

هكذا انطلق ركب الحجيج يَؤُمُّهُ رسولُ الإسلام، وشعاره السلام لكل ما في الوجود.. أوَ ليس هو الاسلامُ؟! بلى.. فهو ـ إذن ـ السلام الذي لا ينوي غدراً بأحد، ولا يُضمر شراً لمخلوق.. أو ليس هو ركب الإيمان الذي لا يحمل سلاحاً يخيف به الإنسان؟ أو يمتشق أداةً يؤذي بها الحيوان؟ أو يعتمد وسيلة يهيج بها الطيرَ ويقطع الشجر، ويتلف الزرع، أو يحقّر الجماد؟! نعم.. فهو ـ إذن ـ ركب السلام الحقيقي، لأنه سلام الإسلام، فحقَّ أن تكون مسيرته شعارَ البشريَة للسلام، وحقَّ أن يكون ركبُه ركبَ الحضارة للإنسان، بل ركبَ الوجود الإنساني بأسره في تطلعه نحو أشرف الأهداف وأسمى الغايات.. إنه سلام الإسلام الذي وحده يجب أن تعرفه الأرض، وعليه تبني محبتها، ما دام هو السلام الذي يقوم على الإيمان بالله الذي لا إلَهَ إلا هو، وحده لا شريك له، وما دام السائرون فيه يقرُّون بالعبودية للخالق العظيم والرب الحكيم والرازق الكريم، ويتطلعون إليه وحده، لاستجلاب رأفته ورحمته بعباده وخلائقه كلها. فسبحان الله الذي لا إله إلَّا هو الرحمن الرحيم، العفوّ الغفور، والرؤوف الحليم بالخلائقِ أجمعين..

وإذا كان هذا هو سلام محمد ﷺ في مسيرته بالناس إلى الحجّ، فأي معنى للسلام من بعده؟!...

يتحدث الناسُ، في أيامنا هذه، عن السلام، وقد أنشأوا لذلك المنظمات الدولية والإقليمية، وفرَّعوا منها الوكالات المتخصصة، وعقدوا المعاهدات والاتفاقيات.. ولكنْ بقي السؤال: هل إنَّ السلام قد تحقق فعلًا، وعاشَ الناس بالأمان الذي ينشدون؟!..

لا، وألف لا!.. ونحن لا نوارب الحقيقة، ولا نخالف الواقع، إن قلنا بأنَّ إنسان اليوم لا يعرف السلام. ولا شيء من السلام النفسي أو الاجتماعي، أو السلام الغذائي أو الصحي، أو السلام والأمن الدوليين.. لا شيء من ذلك متوفر، بحقه وحقيقته!..

إنه الواقع الأليم الذي يعايشه الناس سواء في البلدان التي يعتبرونها متخلفة، أو النامية أو المتقدمة، والتي غاب عن شعوبها ـ كلِّها ـ الشعور بالأمان الكامل، لأنَّ السلام الحق قد غاب عن الأرض. وإذا كانت وراء ذلك أسباب عديدة ومتنوعة، فإنَّ أهمها على الإطلاق بُعْدُ الإنسان عن الإيمان الدينيّ، ومجافاتُه للصلة الروحانية التي تربطه بخالقه، ومن هنا كان السلام الذي برز في مسيرة النبيِّ محمد ﷺ بالناس إلى الحجّ هو السلام الذي ينشده الإنسان، لأنه سلامُ الإيمان، ومسيرة التوجه إلى الخالق الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، ديّانِ الدينِ ذي الجلال والإكرام..

وقد ظلت هذه المسيرة الإسلامية العظيمة منطلقةً على هدى الله (تعالى) حتى بلغت سرَفاً (وهي محلة بين المدينة ومكة) فنادى الرسول ﷺ منبّهاً الناس: أنَّ من كان معه هدْيٌ فهو حاجٌّ، ومن لم يَسُقِ الْهَدْيَ فَلْيَجعلها عمرةً لأنَّهُ لا حجَّ بلا هَدْي.. وقد ضرب المثلَ بنفسه، إذ ساق معه يوم خروجه ستاً وستين بدنةً جعلها هدياً له..

وعقد الناس النوايا، فمنهم من نوى الحجَّ، ومنهم من نوى

العمرة، ثم تتابَعَ السيرُ على شآبيب الرحمة الربانية حتى التقاهم عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام وقد جاءَ مع جيشه، الذي قدم به من اليمن، إلَّا أنه سبقَهُ للقاء حبيبه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعدما جعل عليه أميراً، في غيابه، أحَدَ الفرسان من أصحابه. وما إن رآه رسولُ الله مقبلًا حتى امتلأت نفسه الزكية بالسرور، وانبسطت أساريره الطاهرة بالحبور، فأجلسه بجانبه يتقصّى أخباره، ويقف على ما فعل باليمن، منذ أن غادرَ المدينة وحتى عودته هذه الساعة... وأثنى على همته، ودعا له بالتوفيق، ثم سأله بماذا أهلَلَ، فقال علي: «لم تكتب لي إهلالك يا رسول الله، ولا أنا عرفته، ولكنني عقدت نيتي بنيتك، فقلت حين أحرمت: اللهم إني أُهِلُّ بما أهَلَّ به نبيك وعبدك ورسولك محمد». فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فهل معك هدي؟» قال: «نعم، لقد سقت معي أربعاً وثلاثين بدنة». فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الله أكبر، قد سُقْتُ معي ستاً وستين بدنة، فأنت شريكي في حجي ومناسكي وهديي، فأقم على إحرامك وعد إلى جيشك، فعجِّل بهم حتى نجتمع بمكة إن شاء الله تعالى».

أجل! اللَّهُ أكبرُ، كما قال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم.. ولكن أيَّةُ صلةٍ هذه الصلة الروحية بين محمد رسول الله، وعليّ بن أبي طالب؟ لا، لا عجب، فهو أخوه في الدنيا والآخرة،[1] كما كان يقول له الرسول الأعظم، ويردّدُهُ على مسامع الصحابة.. وهو الذي كان يقول له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مني وأنا منك»[2]. لا، لا عجب، وقد روى

(١) أخرجه الترمذي: مناقب عليٍّ ١٠/ ٢٢٢؛ المستدرك، ٣/ ١٢٨ (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث البراء؛ البخاري، ٧/ ٥٧؛ مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٢/ ١٠٦ (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٣٠).

عبد الله بن حنطب قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: «أيها الناسُ أوصيكم بحبّ أخي وابن عمي عليّ بن أبي طالب، فإنه لا يحبُّهُ إلَّا مؤمن، ولا يبغضه إلَّا منافق، من أحبَّهُ فقد أحبَّني، ومن أبغضَهُ فقد أبغضني، ومن أبغضني عذّبَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ»(١).

أجل، هذه بعضُ ملامح تلك الصلة الروحية التي تجمع بين محمد رسول الله ﷺ، وبين عليٍّ إمام المتقين، فلا عجب أن يشركَهُ رسولُ الهدى بحجِّهِ.. وانطلق عليٌّ، شريكُ النبي في حجه الأكبر، عائداً إلى جيشه، فوجَدَ الرجل الذي استخلفه على الجيش قد جعل لكل فرد من أفراده حلةً من البَزّ يكتسي بها. فأدهشَهُ هذا التصرفُ غيرُ المسؤول، وأغضبه، فصرخ في الرجل: «ويلك ما هذا»!

قال: كسوت الجند لكي يتجمّلوا به إذا قدموا في الناس واجتمعوا بإخوانهم المؤمنين.

قال له علي: ويلك يا هذا! إنزع عنهم هذه الحلل قبل أن ننتهي إلى رسول الله.

وعلى الفور سارع الجنود لتلبية أوامر قائدهم عليّ الذي أبى أن يركبَ الناسُ النعامَ، أو أن يلبسوا الأثوابَ التي جمعها من الصدقات والجزيات، لأنها كانت ما تزال أموالًا عامة، ولم تجر عليها القسمةُ بعدُ. وإذا كان تصرّف عليٍّ هو تصرف المسؤول الحكيم، الذي يخافُ الله ورسولَهُ، ويحرص على المال العام حرصَهُ على نفسه وأشدَّ، فإنَّ تصرّفه هذا لم يعجب بعضاً من أفراد جيشه، فراح يبدي التذمر، ويظهر الشكوى. وما انفكَّ على تلك الحالة، بعد دخولهم

---

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر، ج١٧ ص٣٦٨ ـ ٣٦٩ (انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٣٤).

مكة والقيام بفرائض الحج، حتى بلغت شكواهم مسامع النبي، فقام خطيباً في الناس، فقال ﷺ: «أيها الناس لا تشكُوا علياً، فوالله إنه لأخشن (يعيش عيشة خشنة) في ذات الله، وفي سبيل الله من أن يُشكى»[1].

هذا ما كان من أمر عليٍّ ﷺ مع جنده. أما النبي ﷺ فكان قد بلغ في مسيرته «ذي طوىً» فنزل فيها وبات ليلته. ثم قام في صبيحة اليوم التالي، الرابع من ذي الحجة، فاغتسل ومضى على حجه، فدخَلَ مكة نهارَ ذلك اليوم، ووجهتُه بيتُ الله الحرام. وما إن أقبل عليه حتى رفع يديه نحو السماء بالدعاء، وقال: «اللَّهم زد هذا البيت تعظيماً وتشريفاً ومهابة. وزد من عظَّمه ـ ممَّن حجَّهُ واعتمرَهُ ـ تعظيماً وتشريفاً وتكريماً وبِرّاً. اللَّهم أنت السلام، ومنك السلام، حيِّنا ربَّنا بالسلام». وتابَعَ صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار، تقدُّمه نحو البيت العتيق، ولسانه يلهج بالشكر لله سبحانه وتعالى، وبالدعاء والتلاوة المباركة حتى بلَغَ الكعبةَ أعزَّها اللَّهُ، فنزل يطوف حولها سبعة أشواط، وكان كلما حاذى الحجر الأسود، أشار إليه واستلمه بمحجنه. فلما فرغ من طوافه جاء إلى خلف مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2] ثم صلَّى ركعتين. فلما فرغ من هذه الصلاة، أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه. ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله، فلما قرب منه قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾[3] وتابع يقول: أَبْدَأُ بما أَمَرَ اللَّهُ أَنْ أَبْدَأَ به. فبدأ بالصفا فَرَقِيَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٥٠، عن ابن اسحاق، عن أبي سعيد الخدري.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

عليه، حتى إذا رأى البيت كبّر وهلَّل وقال: «لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. لا إله إلَّا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». وقد دعا بهذا الدعاء النبويّ السامي ثلاث مرات. ثم نزل يَسْعى نحو المروة حتى إذا تعبتْ قدماه رَمَلَ[1] في بطن الوادي، فلما قَطعَهُ، مشى حتى أتى المروة، فعلاها ودعا كما فعل على الصفا، فلما كان آخر السَّعْي على المروة، قال ﷺ: «إني لو استقبلت من أمري ما استدبرتُ لم أَسُق الهَدْيَ وجعلتها عمرة». ثم أعلن في الناس: «أن على من لم يَسُقْ معه هدْياً فلْيَحْلُلْ من إحرامه إلى يوم التروية ـ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ـ وبعده يُهِلُّ بالحجِّ مذ أن يخرج إلى منى».

ثم أقامَ الرسول الأعظم، بعد أن أتمَّ العمرة، في مكة يصلي ويطوف ويسعى لمدة أربعة أيام، وظلَّ على هذه الحال إلى أصيل يوم التروية. وعندما مالت شمس الثامن من ذي الحجة إلى المغيب، ذهَبَ النبيُّ ﷺ إلى منىً، فأقام بخيامه فيها. وقضى الليل حتى مطلع الفجر، فقام يصلي حتى بزغت الشمس، فركب ناقته القصواء ويمَّمَ بها جبل عرفات، والناسُ من ورائه. فلما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته وهم يُلَبُّون. وضُربت للنبيِّ ﷺ قبةٌ بِنَمِرة (قرية بشرق عرفات). ثم طلب ناقته القصواء فركبها إلى بطن الوادي من عرفة، وهنالك وقف على راحلته، ثم نادى في الناس أن يجتمعوا إليه..

---

(١) رمل: هرول في مشيته.

وانطلق نداء النبيّ ﷺ يطرق مسامع الألوف، فهبّت تلبي النداء، وعلى عجل تراصّتِ الصفوف، وحدّقت العيون وأصاخت الآذان، إلى حيث يقف نبيُّ الهدى والإيمان، فإذا بتلك الجموع تستمع إلى خطبة جامعة منه، كان يلقيها، وربيعة بن أمية بن خلف ـ وكان جهوريَّ الصوت ـ يردِّدُ كل كلمة منها، حتى لا يفوت السامعين شيء منها.

وبدأ رسولُ الله ﷺ خطبته تلك بحمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهلُهُ، ثم راح يبيّن ما يريد بيانه للناس، فقال[1]: «أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

«أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم. ألا هل بلَّغت؟».

قالوا: نعم.

قال ﷺ: «اللهم اشهد»..

ثم تابع يقول: «ألا ومَنْ كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائْتَمَنَهُ عليها. ألا وإنَّ كل ربا في الجاهلية موضوع (مهدور)، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله تعالى أنه لا ربا. وإنَّ أول ربا أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب، فهو موضوع كله. وإنَّ كل دم كانَ في الجاهلية موضوع، وإنَّ أولَ دمائكم أضعُ دمَ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[2].. ألا هل بلَّغت؟».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤، ص٢٥٠ ـ ٢٥٢؛ وغيرها مصادر كثيرة..

(٢) كان عامر بن ربيعة مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هُذَيل.

قال الناس: نعم.

قال الرسول ﷺ: «اللَّهم اشهد».

وتابع رسول الله ﷺ خطبته فقال: «أيها الناس إنما النسيء[1] زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاماً ويُحَرِّمونه عاماً ليواطئوا عِدَّةَ ما حرَّم الله فيُحلوا ما حرَّم الله ويُحَرِّموا ما أحلَّ الله.

«وإن الزمان قد استدار كهيئته، يوم خلق الله السمواتِ والأرض. وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية (ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم)، ورجب. ذلك الدِّين القيِّمُ فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا هل بلَّغت؟».

قالوا: نعم.

قال ﷺ: «اللَّهم اشهد».

ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهنّ عليكم حقاً، لكم عليهنّ أنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحداً تكرهونه، وأنْ لا يُدْخِلْنَ بيوتكم أحداً إلَّا بإذنكم، وعليهنَّ أن لا يأتين بفاحشةٍ مُبَيِّنة، فإن فعلْنَ فإنَّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح. فإن انتهين فلهنَّ رزقهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف فإنهنَّ عندكم عَوانٍ[2] لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنما

---

(١) النسيء هو ما كان العرب يفعلونه في الجاهلية من تبديل في الأشهر الحرم، فيحلون بعضها عاماً، ويحرمون بعضها عاماً آخر، تبعاً لأهوائهم وحروبهم، فنهاهم القرآن الكريم والرسول الأمين، عن تلك العادة الجاهلية لأن النسيء إنما هو زيادة في الكفر.

(٢) عوانٍ: مثل الأسرى (الواحدة: عانية).

أخذتموهنَّ بأمانة الله واستحللتم فُروجَهنَّ بكلمات الله. فاتَّقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيراً.. فاعقلوا أيها الناس قَوْلي، ألا هل بلَّغت؟».

قالوا: نعم.

قال ﷺ: «اللهم اشهد».

ثم تابع خطبته فقال ﷺ: «أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، فلا يحلّ لامرئٍ من أخيه إلَّا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلِمنَّ أنفسكم. وإن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على أعجمي إلَّا بالتقوى.. ألا هل بلَّغت؟».

قالوا: نعم.

قال ﷺ: «اللَّهم اشهد».

وتابع ﷺ يقول: «أيها الناس، إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبدَ بأرضكم هذه أبداً. ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تَحْقِرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلَّغت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّناً، كتابَ الله وسنّة نبيِّهِ. ألا هل بلّغت؟».

وردد المسلمون: «نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت». فجعل الرسول ﷺ يشير بإصبعه السبابة إلى السماء، ثم إلى الناس، وهو يقول: «اللَّهم اشهد، اللَّهم اشهد».. فلما فرغ الناس من الترداد، قال: «ألا فليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ، فلعلَّ من يُبَلَّغُهُ يكون أوعى له من بعض من سمعه».

كان النبيُّ ﷺ يلقي هذه الخطبة الجامعة، وربيعة واقفاً تحت صدر ناقته ينقلها إلى الناس. حتى إذا فرغ رسول الله نزل عن ناقته القصواء، وأمَرَ بلالًا فأذّن للصلاة، ثم تقدم يصلّي بالجموع، فجمع بين الظهر والعصر، وقد صلَّى كلاً منهما ركعتين. وراح يتلو القرآن الكريم ويكثر من الدعاء لله تعالى. وكان في دعائه يضع يديه على صدره وهو يقول: «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سرّي وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق المقرُّ المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت له رقبته، وفاضت له عيناه، وذل جسده، وَرَغِمَ أنفُه لك. اللهم لا تجعلني بدعائك ربِّ شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين». وما زال الرسول الأمين على تلاوته ودعائه واستغفاره حتى غابت الشمس، وذهبت صفرتُها من السماء، فأفاض من عرفات، وأفاض الناسُ معه إلى المزدلفة، وهو لا يفتأ يوصي بالسكينة والرفق في السير، وبألّا يغلب قويُّهم ضعيفَهم. وفي المزدلفة، صلَّى رسول الله وهو يجمع ما بين المغرب والعشاء. ثم استراح يقضي ليلهُ هناك. فلمّا كان الغدُ صلَّى الفجر، ثم ركب ناقته وأتى المشعر الحرام[1]، فوقف يدعو ويكبّر ويهلل حتى أسفر الصبح وبان النهار من يوم العاشر من ذي الحجة، فخرج من المشعر الحرام إلى منىً بعد شروق الشمس. وهنالك استقبل العقبة الكبرى[2] ـ الجمرةَ الكبرى ـ، فرماها بسبعِ

(١) مكان بين المزدلفة ومنى.

(٢) توجد ثلاث عقبات أو ثلاث جمرات: كبرى ووسطى وصغرى.

حَصيّاتٍ، كان قد جمعها من المزدلفة، وهو يكبّر الله تعالى. وبعد هذا الرمْي ذهب إلى خيامه بمنىً، فَنَحَرَ ثلاثاً وستين بدنة، واحدةً عن كل سنة من سني عمره الشريف على هذه الأرض. ثم طلب من عليٍّ أن ينحرَ باقيَ الْهَدْي وما ساقَهُ مَعَهُ في رجوعه من اليمن.. وبعد النحر أحلَّ النبيُّ ﷺ من إحرامه. فحلق رأسه وقصَّ أظفاره، وتطيَّب ولبس ثيابه ليعود إلى ما كان عليه قبل إحرامه ثم نادى مناديه في الناس: «إنها أيامُ أكلٍ وشربٍ وحِلّ».. فهو أول أيام عيد الأضحى المبارك..

ونزل النبيُّ ﷺ بعدها إلى المسجد الحرام فطاف حول الكعبة الشريفة سبعة أشواط وصلّى بعدها ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام، ثم دلف يسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وعاد فصلّى بعدها ركعتين خلف مقام إبراهيم، ثم طاف حول الكعبة الشريفة سبعة أشواط لينهي بذلك حجه المبرور وسعْيَهُ المشكور...

غدير خُم

وكان الرسول ﷺ بعد ذلك يرمي الجمار الثلاثَ يومي الثاني والثالث من عيد الأضحى المبارك، وفي ظهر الثالث من أيام التشريق، وبعد زوال الشمس نزل إلى مكة، ليودّعَ البيت الحرام، بالطواف والسعي والصلاة، ويقفلَ راجعاً إلى مدينته المنوّرة.. وأثناء الطريق، وعندما وصَلَ إلى غدير خُم - وهو مكان قريب من الجحفة - أمَرَ الرسولُ ﷺ الناس بالنزول، فنزلوا يرتاحون، وينامون ليلَتَهُمْ تلك، وكان ﷺ قد اختار مكاناً له تحت شجرة، فسوّوه ونظفوه، فما إن حلّت صلاة الظهر من الغد، أَمَرَ أن يُنادى إلى صلاة جامعة. حتى إذا أنهى الرسول ﷺ تلك الصلاة دعا إليه عليَّ بن أبي طالب، ثم جعله

إلى جانبه، وأمر المؤمنين أن يُصغوا إليه. فرانَ السكوت على الناس، كما في عادتهم، عندما يدعوهم نبيُّهم الكريم للاستماع إليه. فوقف وخطبهم بعد أن حَمِدَ الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهلُهُ فقال: «أيها الناس ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالت الجموع: بلى يا رسولَ الله.

قال ﷺ: «ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟». فأجابت الجماهير: بلى يا رسول الله..

وهنا أخذ رسول الله ﷺ بيد عليِّ بن أبي طالب ورفعها حتى يرى الناسُ جميعاً ثم قال:

«من كنت مولاه فعليٌّ مولاه. اللَّهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وَانْصُر مَن نصرَه، وأَعِنْ مَنْ أعانَهُ، واخذُلْ من خذلَه»[1].

وفرح المسلمون بهذه التولية لعلي عليه السلام تأتيه من نبيَّ الله ورسوله الكريم، فتقدموا يهنئونه على هذا الشرف العظيم. وكان أول المتقدمين أخواه في الدين: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما وأرضاهما) وكل واحد منهما يقول له:

«بخٍ بخٍ لك يا عليّ، أصبحت مولاي ومولى كلِّ مؤمن ومؤمنة».

وازدحم من بعدهما الصحابةُ على تهنئته، يتقدَّمون إليه زرافات ووحداناً. والنبيُّ ﷺ واقفٌ على ذلك كلّه يشهده ويباركه، مغتبطاً مسروراً بأنه اقد استجاب لدعوة ربه سبحانه وتعالى حين خاطبه بقوله

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/١٠٣ ـ ١٠٤، وهو عند أحمد: ٤١٩ و٤/٣٨٦، ٣٧٢، ٣٧٣ (انظر: موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٣٣١).

العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1]. ثم رفع الرسول ﷺ يديه إلى السماء فحمد الله وأثنى عليه، وشكَرهُ على حسن توفيقه، فنزل عليه جبريل الأمين بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[2]. فقرأها رسول الله ﷺ للناس. ورفع يديه بعد تلاوتها، داعياً ربَّه عز وجل بهذا الدعاء الكريم: «الحمد لله على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضاء الرَّب». فهلَّل الحجيجُ وكبَّروا لاغتباط الرسول ﷺ بأداء رسالته كاملةً غير منقوصة. وحمدوا الله على توفيقهم لما فيه مرضاة الله سبحانه وتعالى، ومرضاة رسوله الكريم.

ومن «غدير خم» انطلق الركب عائداً إلى المدينة المنوّرة، بعدما أرى الرسولُ الأعظمُ الناسَ مناسكهم، وأعلمهم سُنَنَ حجِّهم، وبعدما خطب خطبته التي بيّن فيها بجوامع كَلِمِه ما بيَّن، وأبلغ ما عنده وأتمَّ.. وعندما أطلَّ على المدينة كبَّر رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وقال: «لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». ثم دخلها نهاراً.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧. أكثر المفسرون فيها الأقاويل ومنهم من قال: إنَّ سبب نزول الآية كان بالنسبة لدعوة حكام الأرض للدخول في الإسلام فتهيَّب الرسول لكريم لِعِظَمِ المسؤولية فنزلت الآية الكريمة: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ...﴾.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

لقد حجَّ رسولُ الله ﷺ إلى بيت الله الحرام في السنة العاشرة من الهجرة، ولكنها كانت حجته الأخيرة، وفيها ودَّع الجموعَ الغفيرة من المسلمين عندما قال لهم: «لعلِّيَ لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً». ومن أجل ذلك سميت هذه الحجة، حجة الوداع. على أنَّ بعضهم يسميها حجة البلاغ، وآخرون يسمونها حجة الإسلام. وهي في الحقيقة ذلك كلُّه. فقد كانت حجةَ الوداع لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يودع المسلمين وحسب، بل لقد رأى فيها مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة. وكانت حجةَ البلاغ لأنَّه بلَّغ للناس آخر وحي نزل عليه، كما بلَّغ أهمَّ ما أمَرَه الله تعالى به من أمور دينهم الذي ارتضاه لهم. فقد بيَّن للناسِ شَرْعَ الله في الحج قولًا وفعلًا. وببيان أحكام الحج، يكون رسول الله ﷺ قد أوجز كل قواعد الإسلام وأحكامه. وبذلك يكون قد أدى الأمانة، وبلّغ الرسالة بصورة كاملة، وأوصاهم أن يبلِّغ الشاهدُ منهم الغائب، ليكونوا شهداء على الناس يبلِّغونهم ما بلّغهم رسولُ الله ﷺ، يوم كان شهيداً عليهم.

وهي حجة الإسلام، لأنَّ الله تعالى أكمل فيها للناس دينهم وأتم عليهم نعمته ورضيَ لهم الإسلام ديناً.

وهكذا تكون هذه الحجة ذاتَ معنىً خاص، ولها أهميةٌ بالغة في حياة المسلمين، إذ وضَعَ الرسولُ ﷺ أثناءها رسالتَهُ أمانةً في أعناقهم، يتناقلونها جيلًا بعد جيل، ويتواصَون بالمحافظة عليها والعمل بها دهراً بعد دهر. ولأنها الأمانة الكبرى التي أوكلها الله تعالى ورسولُهُ إليهم، فقد وجب عليهم أن ينشروها بين الناس بصدق، وأن يبيِّنوا ما تشتمل عليه من خير ونفع لبني الإنسان، باذلين من أجل ذلك المهَج والأنفس، مُقْدِمين على الجهاد في سبيل إيصالها إلى القلوب

والعقول، حتى تعمَّ جميعَ أقطار الأرض، وتشمل كل نواحيها، فيجتمع البشر، كل البشر، على الدِّين الذي أراده الله ديناً للناس كافة، وأكمله لهم، حتى يكون بكماله قد تمت نعمته الكبرى على الناس، كل الناس، فيعيشون في ظلاله سعداء آمنين.

علامات الانتقال

. . .أثناء العودة من حجة الوداع، والناسُ وقوفٌ بين يدي رسول الله ﷺ بغدير خم نزل البلاغ الأخير من الله رب العالمين إلى عباده وسائر خلقه، بأنه ـ سبحانه ـ قد أكمَلَ لهم الدين، وأتمَّ عليهم النعمة، ورضيَ لهم الإسلام ديناً، فرأى الناسُ النبيَّ ﷺ مشرقَ الوجهِ سعيداً، مطمئن النفس راضياً. .

ولقد كان الناس يسمعون النبيَّ ﷺ وهو في وسط أيام التشريق من حجِّه الأكبر، يكثر من تلاوة سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن ليكثر من تلاوة هذه الآيات بالذات، وفي تلك الأيام المباركة بعينها، إلَّا لأمر علمه وأيقن بحدوثه، ألا وهو اقتراب أجله، ولحوقه بالرفيق الأعلى. فآيات سورة النصر، تحمل في ما تحمل، الأمرَ له من ربه بأن يسبِّح بحمده ويستغفره. وما هذا الاستغفار إلَّا للتعبير عن العلاقة الوثيقة التي قامت بين محمد وربِّه، منذ أن قُدّرَ له، وكان في علم الله وحده، بأن يكون محمدٌ

(١) سورة النصر، الآيات: ١ ـ ٣.

الرسولَ الأعظم، وخاتم النبيين والمرسلين، وحتى يبقى هذا الاستغفار على مدى عمر الزمان، الطريقَ الأمثَلَ الذي يربط ما بين الله تعالى وأهل الأرض.

وإذا كانت آيات السورة تعبق بفوح النصر، وتزهو بجلاله، فإنَّ النصرَ من عند الله تعالى، يؤتيه من يشاء، وقد آتاه للنبيِّ محمد ﷺ في كل شيء: في ما وهبه من ذاتٍ إنسانية كاملة، وما منحه من قوة على الاحتمال، والائتمان على أكبر رسالة سماوية إلى بني البشر، وهي الرسالة الخاتمة، كما أن حاملها هو النبيُّ الخاتم.. فلا عجب إن كان جُلّ اهتمامه التسبيحَ بآلاءِ الله وحمده، والاستغفارَ إليه سبحانه وتعالى في كل أمر، والاستزادةَ في الشكر والامتنان له على فضائله ونعمائه، حتى ينطلق النبيُّ العظيم، والرسول الكريم في تسبيحه واستغفاره وشكره، من قيود الذات، وتكون روحه معلقة بالمحلِّ الأعلى، وليس لها غايةٌ إلّا محبةَ الله ومرضاته.. وكل ذلك يدلُّ، كما علمه رسولُ الله ﷺ أنَّ اللَّهَ تعالى قد أوحى إليه في سورة النصر باقتراب موعد أجله (كما قال ابن عباس)..

ولقد شهد الناسُ على الأرض، وشهدت الملائكة في السماء بأن رسولَ الهدى، ونبيَّ الحق، ما كان يوماً إلَّا مسبِّحاً ومستغفراً وشاكراً حتى صلَّى الله عليه وملائكتُهُ في الأعالي، وما عرفته الأرضُ والحياة البشرية إلَّا منطلقاً من قيود ذاته، ومتوجِّهاً أبداً إلى الخير المطلق والحق المبين. فكان جهادُهُ نصرةً للدين، ومبدأه إحقاقاً للعدل، وعقيدته إقراراً للعبودية من المخلوق للخالق، وعمله عمارةً للأرض، وترقيةً للحياة ترقيةً نظيفة، وقيادتُه للبشرية قيادةً رشيدةً،

وقوامُ ذلك عنده الاتجاه لله سبحانه وتعالى وحده ونوال رضاه الكريم..

علاماتٌ كثيرةٌ ظهرت في حجة الوداع وكانت توحي بأن سيدَ المرسلين، وخاتَم النبيين، قد قرب انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولئن بدت تلك العلامات في أفق حياة النبيِّ ﷺ واضحة، أثناء تلك الحجة، فإنَّ كلَّ شيء بعدها بات يوحي به.. فهذه الرسالةُ الكبرى التي كُلّف بها قد بُلّغتْ، والأمانةُ العظمى التي عَهِدَ بها الله سبحانه إليه قد أُدِّيَتْ. ثُمَّ إنَّ الوحيَ قد اكتمل، والنعمةَ على عباد الله قد تَمَّتْ، فهل بعدُ من شيء غير ذلك لانتهاء المهمة، والإخلاد إلى الراحة في أسمى الرحاب التي يَعِدُ الله تعالى بها عبادَه الصالحين، ويختارُ إليها أنبياءَهُ ورُسُلَهُ المصطفَيْن، وهي الرحابُ المباركاتُ في جناتٍ عرضُها السموات والأرض حيثُ النعيمُ المقيم الخالد؟

لا، لم يبقَ بعدُ إلَّا أن يرتحلَ صاحب المهمة لملاقاة الباعث العزيز الرحيم. وقد أحَبَّهُ ـ سبحانه ـ من عليائه، فقدَّر له أن يكون سيدَ البرية، وعنوانَ كمال البشرية.

وجاءت الأيام تصدّق حقيقة تلك العلامات. فمنذ عودة رسول الله ﷺ من حجة الوداع، ومكوثه في المدينة المنوّرة، لم ينزل عليه أيُّ وحي، ولم يُؤمَرْ بأي تكليف يتعلق بحلال أو حرام. بل بات ساهراً على تطبيق الشريعة والالتزام بأحكامها، مع ما يشمل هذا التطبيقُ من بيانٍ لجميع الأحوال والعلاقات، وتوضيح لكل السُّبل والمعاملات، فلا تبقى شاردة أو واردة إلَّا ويكونَ لها المصدر والدليل، في كل ما ترك خاتم النبيين من إرث في هذه الأرض قوامه

قرآنٌ كريمٌ به يهتدون، وسنَّة نبوية شريفة بها يتمسكون، وعترة طاهرة بها يقتدون، والاعتصام بهذا كله في الدين والدنيا، كما علَّم هو نفسه ﷺ وهدى، وأرشد، وذكّر، وحذّر، حتى لم يخلُ شيء، ولم يبقَ أمرٌ إلَّا وأبان منهجه ومرماه، في مقامه بين المسلمين، وتفقيه أصحابه المنتجبين..

وكانت تلك الأيامُ هانئةً بالنسبة إليه ﷺ لا يعكر صفو طمأنينته فيها شيء يمكن أن يحسب له حساب، حتى ما بلغَهُ عن ادّعاء بعض الأشخاص النُبوّة، فإنه لم يهتمَّ له أو يُثِرْ عنايته، وذلك ليقينِهِ القاطع بأنه هو خاتم النبيين، فلا نبيَّ بعده، ولأنَّ أيَّ ادّعاءٍ للنبوة لا يعدو ضَرْباً من الجهالة والمهاترة، ولن يكون له تأثير يُذكر على الإسلام من قريب أو بعيد، طالما أن سلطان هذا الدين قد عمَّ شبه جزيرة العرب كلها، وعنت وجوَه الناس للحي القيوم، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار... أجل لقد كان اطمئنان رسولِ الهدى إلى ديمومة الاسلام، وبقائه صرحاً خالصاً للإيمان ما دام كتابُ اللَّهِ القرآنُ هو الهادي، وقد حفظه ربُّه ـ الذي أنزلَهُ ـ من أيّ تحريفٍ أو تزييف، بقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1]. وما دامَ الاسلام، بفضل هذا القرآن والسنةِ النبوية الشريفة، سوف يحتضِنُ يوماً الناسَ جميعاً، توكيداً لقول الله عز وجلَّ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

بعثُ أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين[2]

ولكن على الرغم من ذلك الاطمئنان للّه، فإنَّ شيئاً واحداً ظلَّ في بال النبيِّ ﷺ، لا يفارق مخيّلتَهُ، وهو ضرورة توطيد دعائم الدولة الإسلامية على حدود الروم، حتى لا يكون لأمبراطوريتهم أيُّ مجالٍ تنفذ منه إلى داخل الدولة، وتعمل على إضعاف قوتها، وتهديد كيانها. بل على العكس من ذلك تماماً، حيث يكون في توطيد دعائم دولة الإسلام ما يمهّدُ السبيلَ أمام جيوش المسلمين لتنطلق إلى البعيد، وتنشر دينَ الله الحق، فتصل بهذا الدِّين إلى المدى الذي يريدُهُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يَصِلَ إليه..

وقد جعل النبيَّ ﷺ يزدادُ تفكيراً في هذا الأمر ما بلغه عن فروة بن عمرو الجذامي. فقد كان فروة والياً من قبل الروم على معان وما جاورها، إلا أنَّ اللّه سبحانه قد هداه فاعتنقَ الإسلام، وهذا ما لم يُعجب أسيادَهُ القدامى من الروم، فجرّدوا عليه حملةً كبيرة أمكن لها أن تعتقِلَهُ وتودِعُه السجن، ثم تجري محاكمته ويقرَّر فيه حُكم الإعدام... وجاءَ يوم التنفيذ فاقتادوه من سجنه وهو لا يعبأ بهم ولا يتأثر، بل يقول وهم يقدّمونه للقتل:

بلِّغْ سُراةَ المسلمينَ بأنَّني ... سلمٌ لربِّي أَعْظُمِي ودِمائي

وضُرِبَ عنُقُه على ماء بفلسطين يقال له عفراء. ثم تُرِكَ مصلوباً

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤ ص٢٥٣.

في مكان قتْلِهِ، حتى يكون عبرةً لغيره من الولاة والحكام، بل ولكل من تسوِّل له نفسه الخروج على سلطان الروم، أو التفكير بالدخول في الإسلام.. هذا الحادث، وغيره من الحوادث التي افتعلتها دولة الروم، أوْلاها النبيُّ ﷺ اهتماماً كبيراً، وجعلته دائم التفكير أثناء تلك الهدْأة من عودته بعد حجّهِ الأكبر بما عليه أن يفعل حيال الروم، ولذا لم يطل به المقام كثيراً في المدينة حتى أمَرَ بتجهيز الجيش إلى الشام، وكان ذلك لأربعِ ليالٍ بقين من صفر سنة إحدى عشرة هجرية. وقد جَعَلَ فيه المهاجرين الأولين، وكبارَ الصحابة المقرَّبين، أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وطلحة والزبير وغيرهم (رضي اللّه عنهم وأرضاهم).

وفي الغداة، دعا إليه أسامة بن زيد بن حارثة[1]، وجعلَهُ أميراً على الجيش الذي أمَرَ بتجهيزه. ثم أوصاه وقال له: «سرْ إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد ولَّيتك على هذا الجيش. واغزُ صباحاً على أهل أُبْنى[2]، وحرِّق عليهم. وأسرع السير لتسبق الأخبار. فإن أظفرك اللّه بهم، فأقِلَّ اللُّبْث فيهم، وخُذْ معك الأدلّاء، وقدِّمِ العيونَ والطلائع أمامك».

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، ولد بمكة قبل الهجرة، ونشأ على الإسلام في ظلّ كنف أبيه زيد (مولى رسول الله) وأمِّهِ (أم أيمن حاضنة النبي)، هاجر إلى المدينة، «وكان رسول الله ﷺ يحبّه حبّاً شديداً، وكان عنده كبعض أهله» ـ كما ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ / ص٦١ ـ وأخرج أحمد بإسناد رجاله عن السيدة عائشة قالت: «ما ينبغي لأحد أن يُبغض أسامة بن زيد بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ كان يحبُ الله ورسولَهُ، فَلْيُحبَّ أسامة» ـ أورده: مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ٢٨٦، ومسند الإمام أحمد: ٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) أُبْنى: مكان قريب من مؤتة، وقيل: هو مكان قريب من فلسطين بين عسقلان والرملة.

مرض رسول الله ﷺ

هذه كانت أوامر رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد وهو يؤمّرُهُ على جيشٍ يغزو به بلادَ الروم، ويطأُ بخيولِهِ تخوم البلقاء والداروم من أرض أُبْنى، قريباً من مؤتة حيث قتل أبوه زيد بن حارثة، فينزل على أعداء اللّه وأعدائه في عماية الصبح، معتمداً كل ما أمكنه من وسائل وأساليب قتالية للظفر بهم(١).

لم يَمضِ أكثرُ من يوم واحد على تأمير أسامة قائداً على جيش المسلمين، حتى ظهرت بوادرُ المرض على رسول الله ﷺ. إذ ما إن طَلَعَ صباحُ الأربعاء من أواخر شهر صفر، حتى دهمتْهُ حمّى شديدة، كان أكثرها إيلاماً الصداعُ القويُّ في رأسه الشريف، مما اضطره لملازمة فراشه. ولم يبارحْهُ إلَّا في صبيحة اليوم التالي، وقد احتمَل أوجاعَهُ، وصبر على كربه، حتى يخرج ويعقد اللواءَ بيده لأسامة، ثم يدعوه للتوكّل على اللّه تعالى فيقول له: «اغْزُ بسم اللّه، في سبيل اللّه، فقاتل من كفر باللّه».. ثم لا يلبث أن يعودَ إلى الفراش منهكاً، خائر القوى..

وخرج أسامة يعسكر في الجُرْفِ (على مقربة ثلاثة أميال من المدينة) حتى يكمل الجيشُ تجهيزه، ويُتِمَّ استعداداته للمسير إلى أرض فلسطين. ولكن يبدو أنَّ تأميرَهُ على هذا الجيش، وفيه المهاجرون الأولون، وكبارُ الصحابة، قد أثار حفيظة البعض، ممن كانت نزعة الأنانية تغلب في نفوسهم، فلم يتقبَّلوا الأمر إلَّا على مضضٍ، وراحوا يتقوَّلون بما ليس فيه حقّ، مِنْ مِثْلِ قولِ بعضهم:

---

(١) انظر: حياة محمد، هيكل، ص٤٧٨.

«أمّر رسولُ اللّه ﷺ، غلاماً حَدَثاً على جِلّة المهاجرين والأنصار». وبلغت هذه المقالة سَمْعَ رسول الله، فغضب لها غضباً شديداً، دفعه لأن يقوم من فراشه، فيخرج إلى المسجد، وهو عاصب الرأس، ثم يعتلي منبره، مخاطباً الناس، بلهجة مقتضبة فيها استفسار وعتاب وتحذير، فيقول لهم: «أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة. أَلَا إنَّكم تُعيبونُ أسامةَ وتطعنون في إمارته، وقد فعلتم ذلك لأبيه من قبلُ وإنْ كان لخليقاً للإمارة، وإنْ كانَ لأحبَّ الناس كلهم إليَّ! وإنَّ ابنَهُ هذا من بعده لأحبُّ الناس إليَّ، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم»(١).

ونزل الرسول ﷺ عن المنبر، وعادَ سريعاً إلى فراشه لشدة تأثّره وازدياد الألم عليه، حتى مرَّت فترة من النهار لا يرغب فيها أن يحدّث أحداً بشيء..

كان النبيُّ ﷺ يعاني من مرضِهِ أشدَّ المعاناة، فيقضي نهارَهُ متألماً موجَعاً، وليلَهُ قلقاً ساهراً.. وفي شدّة هذه المعاناة، أحسَّ ذات ليلة بأنه يريدُ الخروج إلى الفلاة، والتأمّل في الكون، في ساعة صفت فيها السماءُ، وهدأت الحركة على الأرض، ولكنه ما إن أطلَّ الليل بسكونه، حتى جذبَهُ شعورٌ قويٌّ إلى بقيع الغرقد، حيث مقابر المسلمين، فنادى على مولاه «أبي مويهبة» يستصحبه معه إلى تلك المقابر. وهنالك بين القبور، راح النبيُّ ﷺ يتجوّل، متنقلًا من قبر إلى قبر، مستذكراً هؤلاء الذين ضمَّهُمُ الثرى، ومعدّداً مآثرهم واحداً، واحداً، ومستغفراً لهم اللّه سبحانه. حتى إذا طاف بهم جميعاً، وقف

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج٤ ص٦٦.

يخاطبهم، مسلِّماً ومهنئاً، فقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر. لِيَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه. أقبلَت الفتن كقطع الليل المظلم يتبعُ آخرُها أولها، الآخِرَة شرٌّ من الأولى»(١).

وعن رفقة رسول اللّه ﷺ تلك الليلة، حدَّث مولاه «أبو مويهبة» أن النبيَّ قال له أول ما بلغا بقيع الغرقد: «إني أُمِرْتُ أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي». فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب، أقبل ناحيتي، فقال لي: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال رسول الله ﷺ: «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنة»(٢).

وأمضى رسولُ الله ﷺ بعد تلك الليلة عدة أيام عصيبة، لا يقوى فيها على جمع الناس. بل جُلُّ ما كان يقوم به هو أن يؤمّهم بالصلاة، ثم يعود ليلازم فراشه. ويشتدُّ عليه المرض حتى لم يَعُدْ قادراً على التنقّلِ بين أزواجه، فدعاهُنَّ إليه، وهو في بيت السيدة أم سلمة، وأخبرهُنَّ أنه لم يَعُدْ يطيق مغالبة الألم، وأنه يرى في نفسه حاجةً إلى التمريض، مستأذناً أن يُمرَّض في بيت عائشة، فوافَقْنَهُ على ما يريد. وكيف لا يوافقن، وكلُّ الأمل عندهن راحتُهُ والحرصُ عليه؟!..

ورقَدَ رسولُ الله ﷺ في فراشه، ولا همَّ يؤرّقُهُ إلَّا إنفاذ جيش

---

(١) هيكل، حياة محمد، ص٤٨٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤، ص٢٩٢؛ وموسوعة عظماء حول الرسول، ج٣ ص٢٠٩٦.

أسامة. ولذلك دعا إليه جمعاً من كبار الصحابة يسألهم عن هذا الأمر، فلما اجتمعوا إليه قال لهم: «ألم آمركم أن تنفذوا بعْثَ جيش أسامة»؟.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال لهم: «فِلمَ تأخرتم عن أمري؟».

وحار الصحابة فيما يجيبون، فخيَّمَ عليهم الصمت، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة..

لقد كانوا يعرفون شدّة اهتمام الرسول ﷺ ببعث جيشٍ إلى بلاد الروم، ولكنَّهم لما رأوا ما يعانيه من آلام ولاحظوا اشتدادَ المرض عليه، حتى كان يُقعده عن الخروج ساعات متواصلة أحياناً، دبَّتْ بهم الحيرة ووقعوا في الارتباك لا يدرون ماذا يصنعون. فمثل هذا الذي أصابَهُ كان عجيباً، إذ لم يعهد أحدٌ من قبل شكايته من مرض يجبره على ملازمة الفراش، أو إصابته بوهن أو ضعف يقعده عن الحركة. وذلك على الرغم من كثرة المصاعب التي اعترضته في حياته، وشدّة النوائب والمخاطر التي حفّت به في مسيرته.. فلما رأوه على تلك الحالة، وكانت المسافة بين المدينة ونواحي مؤتة طويلة، والمشقة قاسية، خالطهم الخوف من السفر ومنعتهم الحيرة عن الخروج، فكانت ساعةُ ضعف غلبت فيها العاطفة، وأنستهم قولَ الله تعالى في مواضع عدَّة من القرآن الكريم حيث يأمرهم بطاعة الله ورسوله.. فإنْ خالف المؤمِنُ أمر رسول الله ﷺ، وارتضى عدمَ طاعته بما أَمَرَ، أيّاً كان نوعُ الأمرِ وشأنُهُ، فذلك إثمٌ كبيرٌ يرتكبه ـ سواء أكان عن قصد أم غير قصد ـ وذلك ما حصل مع بعض الصحابة الذين قعدوا عن تجهيز أنفسهم للالتحاق بالجيش الذي أمرهم ﷺ أن يكونوا في عداده، وأن

ينفذوا بعثه. . . ولذلك وجدوا أنفسهم يقعون في الارتباك ساعة أن دعاهم الرسول ﷺ يسألهم عن التأخير في نفاذ أمره، فصمتوا حتى عادَ يأمرهم بالإجابة. فقال أبو بكر (رضي الله عنه): «إني خرجت ثم رجعت يا رسول الله لأجدِّد بك عهداً». . ثم قال من بعده عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «يا رسول الله، إني لم أخرج لأنني لا أحب أن أسأَلَ عنك الركبان، ولكني أسألُ اللّه لك العافية». .

فلم يَزِد النبيُّ ﷺ على أن قال: «أنفذوا جيش أسامة. . .». وردَّدَ قوله هذا ثلاثَ مرات!. . ثم أشاحَ بناظريه عن الحضور، وأغمض عينيه لشدّة التأثّر، حتى ظُنَّ أنه أغمي عليه. وتوهَّمَ البعض أنها غيبوبة الموت، فارتبك الجميع، وعلت الأصوات بالضجيج والبكاء، فأشار عليهم بالتزام الصمت، والانصراف من حوله. . لقد آذتْه معصيةُ أمره، وأعياه التأثرُ كثيراً بعد هذا الاجتماع بالصحابة. ولما حاول أن يقومَ في غده ليصلِّيَ بالناس، كما عوّدهم، لم يقدر على ذلك، عندها قال «مُرُوا أبا بكر فليُصَلِّ بالناس».

وكانت السيدة عائشة ترى في أدائه للصلاة مظهراً من مظاهر الصحة والتماسك، فقالت: «إنَّ أبا بكر رجلٌ رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن». . فعلا صوت النبيّ ﷺ: «مُرُوه فليُصلِّ بالناس». فكررت أم المؤمنين قولها، فصرخ النبي ﷺ بها والمرض يَهزّه: «إنكُنَّ صواحبُ يوسف! مُرُوه فليصلِّ بالناس». وذهب من يبلغ أبا بكر رضي الله عنه أمر نبيه الكريم، فراح يصلّي بالناس، فكانت صلاته بهم سبع عشرة مرّة. .

وكان وجَعُ النبيِّ ﷺ يزداد كل يوم شدّة، فرأى ضرورةَ التحدث إلى الناس حتى يعهد إليهم، فقال لأهله وأزواجه: «هَرِيقوا

عليَّ سبع قِرَبٍ من آبارٍ شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم». وجيء بالماء من آبار مختلفة. وقعد النبي ﷺ في مِخْضب[1] لزوجه حفصة، فَصُبَّ عليه ماءُ القِرب السبع، حتى طفق يقول: «حسبكم، حسبكم».. ثم قام يعصبُ رأسه، وهو يعتمد، بدخوله المسجد، على علي بن أبي طالب بيده اليمنى وعلى ابن عمه الفضل بن العباس بيده اليسرى، إلى أن اعتلى المنبرَ، فبدأ كعادته بحمد الله تعالى والثناء عليه، ثم راح يصلّي على أصحاب بدرٍ وأُحد ويستغفر لهم، بل ويكثر من الصلاة عليهم.. ثم خاطبَ الناس، فقال: «معاشرَ الناس، قد حان مني خفوق[2] من بين أظهركم، فمن كان له عندي أمانةٌ فليأتني أعطِهِ إيّاها. ومن كان له عندي دَيْنٌ فليُخبرني به.

«معاشر الناس، ليس بين اللّه وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه شراً إلّا العمل الصالح.

«أيها الناس، لا يدّعي مدّع ولا يتمنّى متمنٍّ. والذي بعثني بالحق نبياً لا يُنجي إلا العمل مع رحمة اللّه، ولو عصيتُ لهوَيت. اللهم هل بلّغت؟».

وسكت النبي ﷺ هنيهةً، خيَّمَ خلالها الصمتُ والوجومُ، ثم عاد إلى الحديث، فقال: «إنَّ عبداً من عباد الله خيَّرَهُ الله بين الدنيا والآخرة، وبين ما عنده، فاختار ما عند الله».. وسكت النبيُّ ﷺ من جديد، والناس كأنما على رؤوسهم الطير، وهم يدركون بأنَّ النبيَّ ﷺ يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسَهُ. فأجهش كثيرون بالبكاء...

---

(١) المخضب: الطست أو الإناء الواسع.

(٢) خفوق: ذهاب أو غياب.

ونزل رسولُ الله ﷺ عن المنبر يريد أن يعود إلى بيته، على أنه لم يلبث أن التفت نحو الناس وقال: «يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإنَّ الناس يزيدون، والأنصار على هيئتها لا تزيد. وإنهم كانوا عيبتي[1] التي أويت إليها، فأحسنوا إلى مُحسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

وعادَ النبي ﷺ إلى فراشه، معتمداً على ابني عَمَّيْهِ كما جاء، وقد اشتد به المرض أكثر، وقويتْ عليه الحمّى، فكان إذا وضع أحدٌ يده عليه، لا يكادُ يطيقُ حرَّ الحمّى كما وصفها أبو سعيد الخدري، عندما جاء يعودُهُ، فجلس بجانبه، ومدَّ يدَهُ إلى جبينه الشريف، فقال: واللَّهِ إنها لشديدةٌ حُمّاك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي.. فقال له النبيّ ﷺ: «إنَّا معاشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر».. وقد قال ﷺ أثناء مرضه أيضاً «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدّد عليه»[2].

وفيما هو في هذه الشدّة، وفي البيت رجال، قال: «ائتوني بدواة وصحيفة اكتبْ لكم كتاباً لا تَضِلّوا بعده أبداً»[3]. قال بعض الحاضرين: «إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبُنا كتاب اللّه». ويذكرون أنَّ عمر بن الخطاب هو الذي قال هذه المقالة. واختلف الحضور، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتُب لكم رسول الله ﷺ كتاباً فلا تضلُّوا بعده، ومنهم من يأبى ذلك مكتفياً

(١) عيبتي: خاصتي وموضع سرّي.
(٢) الترمذي، باب الزهد، ص ٥٧.
(٣) البخاري، باب الجهاد، ص١٧٦.

بكتاب اللّه.. فلما رأى النبي ﷺ خصومتهم قال: «قوموا! ما ينبغي أن يكون بين يدَي النبيِّ خلاف»[1].. وكان ابن عباس يرى بعدها أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أرادَ النبيّ إملاءه، [أما عمر فظلَّ ورأيَهُ: أَنْ قالَ اللَّهُ في كتابِهِ الكريم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾][2].

ومثل هذه الشدة في المرض جعلت بعض أهل النبي ﷺ يرون أن يسعفوه بعلاج، فأعدّت أسماءُ بنت عميس شراباً، عرفته أثناء مقامها بالحبشة، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمى فصبّوه في فِيهِ. فلما أفاق قال: من صنع هذا؟ ولِمَ فعلتموه؟! قال عمه العباس، وكان أحد الذين قرَّ رأيهم على ذلك: خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذاتُ الجنب. قال: «ذلك داء ما كان اللّه عز وجل ليقذفني به»!.

وكان عند النبيِّ ﷺ سبعة دنانير خاف أن يقبضه اللّه تعالى إليه وما تزال باقية، فأمَرَ أن يتصدّقوا بها. فلما كان يوم الأحد الذي سبق وفاته، أفاق، وكان أول ما سأل عن الدنانير ما فعلوا بها؟ فأجابت السيدة عائشة: إنها ما تزال عندها. فطلب إليها أن تحضرها ووضعها في كفه ثم قال: «ما ظَنُّ محمد بربه لو لقي اللّهَ وعنده هذه». ثم تصدّق بها على فقراء المسلمين.

وكان ﷺ قد قضى ليلًا هادئاً، إذ نزلت عنه الحمى، فلما كان الصبح، وفيما أبو بكر رضي الله عنه يصلّي بالناس، تقدم وأزاحَ الستارَ من أمامه، ثم وقف ينظر إلى جموع المصلين بعين ملؤها الارتياح

---

(١) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص٤٨٤.

(٢) المصدر السابق.

والرضى، ولكن من غير أن يتلفظ بكلمة واحدة، حُبّاً بالصلاة وتقديساً لها. وانفلتت من بعض المصلّين لمحاتُ بصر وقعت على رسول الله ﷺ، وقد رأوه واقفاً والبشر على وجهه بادٍ بوضوح، فظنوا أنه شُفي من مرضه، مما جعل الفرح يأخذ بألبابهم حتى كادوا أن يفتنوا في صلاتهم. ولاحظ رسول الهدى انفعالاتهم تلك، فأشار إليهم: أَنِ اثبُتُوا في صلاتكم..

ولم يعرف هؤلاء المصلُّون كيف أنهَوا صلاتهم، فهبت جموعهم تتدافع نحو نبيِّهم الهادي، وكلٌّ يريد أن يلمسَ يده، أو يقبّلَ رأسه، أو يمسكَ طرف ثوبه. وأحيط به من كل جانب، وقد اختلطت الأصوات ببعضها البعض، فلا يَسمعُ أحدٌ ما يقوله الآخر، وهم بلسان واحد يهنئون نبيهم بالسلامة ويدعون له بالشفاء الكامل كي يعودَ إليهم، ويقودَهم في المسيرة العظيمة التي حمل لواءها بعزم وثبات..

وأشار النبيُّ ﷺ ببعضٍ من هدوء، ثم خاطب الناس، وقد رفع صوته حتى سمعه من كانَ خارج المسجد، فقال. «أيها الناس، سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم. وإني واللّه ما تمسكون عليَّ بشيء. إني واللّه لم أُحِلَّ إلَّا ما أحلَّ القرآن، ولم أحرّم إلَّا ما حرّم القرآن»[1].

وراحَ رسولُ الله ﷺ بعد هذا البيان الوجيز الواضح يسألُ عن الأحوال وعن الشؤون، ويستفسر عن كل أمرٍ يريده، حتى قضى بعض الوقت بين الناس. ثم دعاهم للتمسك بحبل اللّه، والمواظبة على

(١) أحمد بن حنبل: الفتن، ج١، ص١٨٩.

الجهاد وعلى العمل الصالح، ما دامت الأرض قائمة، وما دام فيها مسلمون لا يريدون إلا وجه اللّه عز وجلّ. وعَظُمَ فرح المسلمين بما رأَوا من ظاهر الصحة على النبي ﷺ، فقاموا يسعون إلى أرزاقهم، وهم يظنون أن الخطَرَ قد زال عنه، وأنه لن يلبث أن يعود إليهم، على أتمّ عافيةٍ وسلامة!..

هكذا كان لقاء المسلمين لنبيِّهم في صبيحة يوم الإثنين، الواقع فيه الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة. وهي صبيحة رأَوها مباركة لعودة الرسول إليهم، فتفرقوا وكلهم سعيد بتلك العودة، ومطمئن إلى الغد، من غير أن يدور بخلد أحد منهم قطُّ، أنها كانت اللحظات الأخيرة التي يُرى فيها الرسولَ ﷺ على تلك الحالة من رونق الحياة، وأنه الاجتماع الوداعيّ الذي لا لقاءَ بعدَهُ في هذه الدنيا، وأنَّ ما رأوه من ظاهر الصحة لم يكن إلَّا الصحوةَ التي تسبق الموت، والومضةَ التي ينتهي فيها زيت السراج وينطفئ...

وفاةُ الرسول العظيم والنبيّ الكريم محمد ﷺ

لم يترك الرسولُ ﷺ المسجدَ، بل ظلَّ في مجلسه إلى أن خلا من المؤمنين، فقام يدور في جوانبه، ويتأمّلُ كلَّ ناحية فيه، ثم يُسرِعُ إلى فراشه، وقد وهنَ منهُ كلُّ عزم، وخارت منه كلُّ قوة.. وكان يوماً قائظاً، فدعا إليه بإناء ماء بارد، راح يضع يدَهُ فيه ويمسح بها وجهه. وقد اجتمع إليه أهلُهُ وأزواجه، الذين لازموه في مرضه، ولم يفارقوه قطّ، بل ظلّوا يحيطون به، كما يحيط الهدبُ بالعين، وهم يقومون على تمريضه بالمحبة والتفاني، بل ويتسابقون على خدمة هذا الحبيب إلى قلوبهم جميعاً، وكلٌّ يتمنَّى لو يكون طريح الفراش بديلًا عنه.

لقد كانت تلك هي الساعات الأخيرة من عمر النبي ﷺ في هذه الدنيا، ولكنَّها ساعاتٌ مضنية حقاً، اشتدت فيها الحمى، وقوي الألم، ونبيّ اللّه يعالج سكرات الموت بصمت، ويقاسي الأوجاع بصبر، لا تَبْدُرُ منه بادرةُ تأفّفٍ، ولا تَخرُجُ من فمه كلمةُ تأوُّهٍ. بل جُلُّ ما يفعله أنّه كان ينظر إلى أهله وأحبائه بعين ملؤها الحنان، ثم يرنو بناظريه إلى الأعلى، مسبحاً بحمد ربه، مثنياً عليه، مستغفراً، شاكراً، منيباً.. ولقد كان النبي ﷺ يحرص كلما دخلت عليه ابنته فاطمة الزهراء أن يقوم إليها ويقبلها ثم يجلسها في مجلسه[1]، حتى اشتدّ عليه المرض، فباتت تجلس إلى جانبه، تتلمّسُهُ بلهفة ومحبة، وتنظر إليه بحرقة ولوعة، وهي لا تستطيع أن تدفع عنه بما يخفف من آلامه، أو يكابدُ من كربه، فتبكي وتتأوّه، وهي تقول: «واكرب أبتاه». ولكنَّ الأب العظيم يهدّئ من روعها، ويقول لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم يا بنيّة. إذا أنا مُتُّ فلا تخمشي عليَّ وجهاً، ولا تُرخي شعراً، ولا تنادي بالويل، ولا تقيمي عليَّ نائحة».

وأدركت فاطمة الزهراء عليها السلام أنَّ كلَّ شيء قد انتهى، أو شارف على الانتهاء. فهذا المرض الذي كرَبَ أباها سيزول عنه، ولا يمكن بعد اليوم لِهَمٍّ أو غمٍّ مهما عظم أو اشتدَّ أن يقترب منه. ذلك أن حياة المؤمن في هذه الدنيا مليئة بالبلاء، حُبلى بالمكاره، لأنه يعيش في نطاقه الضيِّق، سجيناً في جسده، وفي حيّزه المحدود، مقيداً بأقواله وأفعاله، ولا يمكن له التحرر من ذلك السجن، والانعتاق من هذه القيود إلَّا إذا توفاه اللّه سبحانه وتعالى، فينطلق عندها إلى

(١) انظر موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٢٢٠ (أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين عن عائشة).

الرحاب القدسية، ويخلد إلى الراحة الأبدية.. وإذا كان المؤمن على هذا الكرب في دنياه، تلاحقه الهموم، وينزل عليه الشقاء كونه يعيش في دار تكليف وبلاء، فكيف يكون كَرْبُ الرسول الأعظم، بما عُهِد إليه من عظيم التكليف، وبما ألقي على عاتقه من جسيم المسؤولية، حتى أنه كان يحمل همومَ الناس وآلامهم في نفسه ـ الأشقياء منهم والأتقياء ـ على حدٍّ سواء.. فأشقياؤهم كاد أن يُذْهِبَ نفسه عليهم حسراتٍ، لأنه يرى مصيرهم إلى النار، وما فتئ يتحسَّرُ عليهم إلى أن نهاه ربُّهُ عن ذلك بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[1] لأنهم غير أهلٍ لذلك.. وأتقياؤهم كان يحزنه ما يحزنهم، ويؤلمه ما يؤلمهم، لشدة حرصه عليهم، ورأفته بهم، كما وصفه ربُّ العالمين وهو يخاطب المؤمنين بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وإذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد أظهر للمؤمنين بما ينزل من آياتٍ قرآنيةٍ كريمةٍ، شدَّةَ تعاطف رسولهم معهم، وحرصه على كل أمر من أمورهم، واهتمامه بكل شأن من شؤونهم، فإنَّهُ عزَّ وجلَّ قد أمرهم بطاعة هذا الرسول، والامتثال لأوامره ونواهيه، يأخذون ما آتاهم، ويتركون ما نهاهم عنه، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

ولقد أبانَ الرسولُ الأعظم للناس الطريق الذي يسلكون إذا أرادوا الجنة مأوى ومثوى، وذلك بالمجالدة على النوائب، والصبر على المصاعب، بعيداً عن الرغبات والشهوات، وعن المطامع والمكائد، وعن كل عَرَضٍ من أعراض الدنيا ومتاعها، إذا كان كسبُه عن طريقِ الحرام. وهذا بخلاف من يركضون وراء أهوائهم، ولا يميِّزون بين حلال أو حرام، وبين هيّن وصعب، مهما كان الهيّن شراً أو الصعب خيراً، فهؤلاء مصيرهم النار.. ويتجلّى هذا البيانُ النبويُّ بقوله ﷺ «الجنة حُفَّت بالمكاره، والنار حُفَّت بالشهوات»(١).

هذا هو محمدٌ رسول الله ﷺ.. كان طيلةَ حياته تجاه كلِّ الناس: رؤوفاً رحيماً، متعاطفاً وهادياً. وذلك الكرب العظيم الذي حَمَلَهُ في دنياه سوف يفارقه في الآخرة، ويرتاح منه. ولذلك قال لابنته فاطمة الزهراء قول الحق والصدق: «لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة».

وإذا كان لا راحة لمؤمن إلَّا بلقاء ربه، واللّه ـ سبحانه ـ هو أكرم الأكرمين على عباده الذين اصطفى، فكيف بأكرم وافد إليه، وخير من اصطفى على الإطلاق؟. إنه حقاً سيفارق الكرب، وينزل عن أكتافه العبءُ الثقيل، في نفس اللحظة التي سوف ينتقل فيها إلى الرفيق الأعلى..

وتدرك فاطمة الزهراء عليها السلام ذلك كله، وتنزل عند رغبة أبيها، فلا تثور، ولا تنادي بويلٍ أو ثبور.. ولكنّ الحرقة تشتدُّ في قلبها، فلا تجد لها متنفَّساً إلَّا الدموع تنهمر من مآقيها، لتغطيَ وجهها

(١) صحيح مسلم، باب الجنة ج١.

الحزين، الشاحب.. لقد أدركت أن أباها محمداً ﷺ سوف يفارق هذه الدنيا، فركنت إليه تلتصق به، وتشدُّه إليها بشوق يغلب كل شوق، وبمحبة تفوق كل محبة.. وكيف لا!.. أوَ ليس هذا الأبُ غيرَ سائر الآباء؟ إنه نبيٌّ ورسولٌ حقّاً، ولكنه الأب الذي كان لها كل شيء في الوجود، أعطاها من نفسه، ومن قلبه فأحياها بأبوّتِهِ، وأعطته من نفسها ومن قلبها فسرَّته ببنوَّتها. كان هو يشدُّها إلى الحياة أكثرَ مِنَ الحياةِ نفسِها، وكانت هي تؤنس وجوده الأرضي بطبيعته الإنسانية التي كانت تستوعب خلقَ اللّه كلهم، وتخصّها وحدها بالقدر الكبير من إنسانيّتِهِ..

إنساناً وإنسانةً كانا، وأباً وابنةً عاشا، ولكن تداخلت روحاهما، وتمازجت نفساهما، حتى باتا يؤلِّفان وحدةً من المشاعر لا تنفصم، وكتلةً من الأحاسيس لا تنفصل، والرسول الكريم ﷺ يؤكد هذا بقوله: «فاطمة بضعةٌ مني، من أغضبها أغضبني»[1]، وبقوله ﷺ: «إنَّما فاطمةُ بضعةٌ منّي، يؤذيني ما آذاها، ويُنصِبُني ما أَنْصَبَها»[2].

عاشتْ فاطمة الزهراء في خدمة أبيها، فشقّ عليها أن ينزل به المرض، وعظم عليها أن يتفاقم عليه الكرب، ولذلك لم تفارقه قط في أيامه الأخيرة، بل ظلت بقربه، حتى حانت الساعة التي لا بدَّ منها. ورأى النبي ﷺ أنه قد أشرَفَ على مفارقة هذه الدنيا، فأسرَّ إليها حديثاً فبكت، وآلمه أن يراها تبكي بحرقة ولَوعة، فعاد يشير إليها أن تُدْني أذنها من فمِهِ، فأسرَّ إليها حديثاً آخر، فابتسمت، فانفرجت

(١) البخاري، باب الفضائل، ص٦.
(٢) الترمذي، تحفة: ١٠/ ٣٧١؛ الحاكم، المستدرك، ٣/ ١٥٨؛ أحمد: ٤/ ٥.

أساريره ﷺ لابتسامتها مما جعل الحاضرين يستغربون ما يرون!. إذْ كيف بلحظات تحوّلت فاطمة من العبوس والدمع، إلى الانفراج والابتسام، ومن التجهّم والكرب، إلى الانشراح والارتياح.. وإنه لأمرٌ قد يستدعي العجب من كل من يرقب ويشهد، ولذا بادرت السيدة عائشة تسألها عن ذلك، فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ. وحاوَلَ كثيرون، غير عائشة أن يعرفوا السرَّ، ولكنَّه ظلَّ في وجدان صاحبته... إلَّا أنَّ هذا الانشغال بالسرِّ لم يدم إلَّا هنيهات، وفي ومضة عين وارتداد طرف، رأى الحاضرون أن عيني النبي ﷺ قد أغمضتا، وأنفاسه قد توقفت، فظنّوا أنها سكرةٌ من سكرات المرض قد عاودته، وإغماءة قد أثقلت عليه. ولكنَّ الحقيقة كانت غير ذلك، إذ كان خاتم النبيين قد قُبض، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها لتستقبل حياة الخلد في جنة اللّه الواسعة.

... مات محمد، مات رسول الله، أو لا تدرون؟!...

هذا ما صرخ به أحد الحاضرين..

ورانت لحظاتُ هدوء، وكأنَّ شيئاً لم يحصل، وخيّمت السكينة وكأنْ لا أحَدَ بقرب الجسد الشريف المسجى.. إنها لحظات الذهول، فيها طاشت الأفئدة، وطُمِسَ على العقول..

على أنَّ تلك اللحظات لم تَدُمْ بمداها الزمنيّ إلَّا قليلًا، وأفاقَ الحاضرون من الذهول، ليجدوا أن المصيبة الكبرى قد وقعت، والكارثة المُروِّعة قد حلّت، فانفلتت العواطف هلِعةً، وانعتقت الأحاسيس مذهولةً، فإذا البكاء والصراخ والضجيج والنواح تملأ الأرجاء، وتصل إلى أطراف المدينة، فتبعث الذعر!..

ولم تصدّق عيون الرائين بأنَّ عين النبيِّ محمد ﷺ قد أغمضت فلن تَفتحَ على هذه الدنيا، بعد. ولم توقن الأنفس بأن جَسَدهُ الطاهر، الذي كان على امتداد عمره السنيّ يمتلىء حيويةً ونشاطاً، يمكن أن يصبح جثةً هامدة لا حراك فيها..

لا أحد يريد أن يتقبَّل ما يرى أو يسمع، لأنه ينشُدُ في أعماقه الهربَ من هذا الواقع الأليم المرّ، فلا تجبهه الحقيقة بأن رسولَ الله ﷺ قد مات. وكان أن سيطر الذهول على الناس، واعترتهم الدهشة..

الحدثُ كان له أشدُّ الوقع على قلوب المسلمين وعقولهم، حيث ذُهل الجميع، فلم يقبل كثيرون أن يصدّقوه. ولكن كان الجواب القاطع، من كل من أفَاقَ ووعى الحقيقة: إنه الموتُ قد خطفه منا، ونحن في غفلةٍ من الزمن... أمّا من عقَلَ النبأُ الفاجعُ لسانَهُ ولم ينطق بكلمة، فقد اندفع إلى بيت رسول الله ﷺ وهو بين الشك واليقين، يريد أن يتأكَّدَ مما يُشاعُ ويقالُ، فلعلَّهُ دسٌّ من المنافقين، أو شعوذةٌ من المشعوذين!.

وكان أولَ من هرع، وقد جاءَ على جناح السرعة، وهو يقطع طريقَهُ ركضاً، عمرُ بن الخطاب. إذْ دَخَلَ إلى بيت رسول الله ﷺ وأقبل على فراشه، يزيح الغطاء عن وجهه، ثم يهبُّ واقفاً، وهو يصرخ في وجوه الناس: أن يخفضوا أصواتهم ويمنعوا الضجيج حتى لا يوقظوا رسول الله ﷺ في إغفائه.. لقد تراءى له، وهو يحدّق في وجهه الشريف أنه نائم، فلم يَعُدْ يفرّق بين إغماضة الموت وإغفاءة الحياة.. وتقدم المغيرة بن شعبة في محاولة لردِّه إلى حالة الوعي،

فلمَّا ألحَّ عليه، صاحَ في وجهه: «كذبت يا هذا، إنَّ رسولَ الله لم يَمُت»..

وانقلب عمرُ إلى داخل المسجد، وهو على نفس الحدَّة من الانفعال، وراح يصرخ في الناس: «إنَّ رجالًا من المنافقين زعموا بأن النبي تُوفِّي، وأنا أقول ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ورجع إلى قومه بعد أربعين ليلة. واللّهِ ليرجعَنَّ رسول الله كما رجع موسى بن عمران، فليقطعنَّ أيدي رجال زعموا أنه مات»..

وجاء أبو بكر الصديق بعد أن ذهب إليه سالم بن عبيد، يؤكد له الخبر، وعيناه تهملان بالدمع، وأنفاسه تتقطع في صدره من اللُّهاث، فانكبَّ على الجسد الطاهر المسجى، يلثم حَبْرَتَهُ اليمنية بحرقة، وهو يجهش بالبكاء على قائد المسيرة، ورفيق العمر، وحامل اللواء. ثم يلتفت إلى عليِّ بن أبي طالب، فيراه كسيرَ الخاطر، منهمرَ الدمع، حتى لكأنه إنسان آخر، وليس الفتى عليّاً، الشجاع، المقدام، الجَلْدَ على الصعاب، الصّابرَ على النوائب...

واجتمع حول الجسد الطاهر كبارُ الصحابة محزونين، هلعين. وكلٌّ يندبُ نفسَهُ، ويندبُ معها هذه الدنيا بأسرها لفقد سيِّد المرسلين، وقائد البشرية الحكيم، والمعلِّم الهادي، والرفيق الرحيم..

الخواطر كانت تتزاحم في بال الصحابة وهم يحوطون بالجسد الطاهر من كل جانب، إلَّا أن الأفكار مشتتة، والمشاعر ذائبة، وكأنّي بكلٍّ منهم يقول في نفسه:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

بأبي أنت وأمي يا حبيب الله.

بأبي أنت وأمي يا رفيق العمر، ويا ملاذ الصحبة وعشير الروح، ويا صنو الفؤاد..

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كيف تتركنا ونبقى نحن على قيد الحياة من بعدك؟!.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، يا من كنتَ أحبَّ الناس إلى قلوبنا، وأقربَ الأحياء إلى ضمائرنا ونفوسنا، كيف تفارقنا وأنت قوام وجودنا، ومطلع شمسنا وغروبها؟!.

بأبي أنت وأمي يا من وداعهُ يُدمي، وبعاده يُضني... لئن اختارك الله تعالى إليه، فأنت رسولُهُ المختار، ونبيه المصطفى، وحبيبه المجتبى. إننا من بعدك على العهد قائمون، وعلى حمل المشعل ساهرون، فإلى جوار الله صُعُداً، وإنّا لله وإنا إليه لراجعون.

بكى الصحابةُ وأبكَوا الناس، ولكن أيُّ بكاء هذا وفقيدهم هو محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين؟! إذن فليبكوا.. وليكثروا من البكاء.. لأنَّ بكاءهم مهما اشتدَّ يبقى قليلًا على هذا الفقيد، وعلى هذه الخسارة العظيمة التي لا تعوّض.

الناسُ في بكاء وجزع، ولكنَّ أهل البيت هم أشدُّ الناس إيلاماً، وأوجعهم حزناً، لأنهم الأكثر مصاباً.

لقد كان فيهم وهو ينبض بالحياة، فيجعل للحياة معنًى. وها هُمُ الآن يحيطون به، جسداً بلا نفس ولا روح، فأي غاية من الحياة بعدُ يرومون، وإلى أي أملٍ بعد يتطلعون؟!...

لقد هزَمَهُمُ المصابُ الأكبرُ، فتراهم في تلك اللحظة بشراً حقاً،

ولكنهم في الأعماق كتلةٌ من الإحساس لا تعرف إلا الألم، ونبضات من المشاعر لا تخالطها إلَّا الحرقة. . .

أهل البيت، والناس جميعاً، حَزانَى، ثَكالى، فاقدون، مصابون مكْلومون!.

نعم كلُّهُم هكذا. . لأن المصاب ما بعده مصاب، والخسارة ما بعدها خسارة.

الجميع في ذعر!. .

الناسُ على الأرض في مأتم الوداع الأليم، والفراق الحزين. .

ولكنَّ الملائكة في السماء في عرس أعظم الوافدين، وملاقاةِ خاتمِ النبيين. . إنه مأتم الأرض كلها لأنَّها فقدت سيّد البرية حامل مشعلِ الإيمان بالله الرحمن الرحيم، وقائد عقيدة التوحيد، بعمادها: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريك له. . . وإنه عرس الملائكة لأنَّها تستقبل أكرم الوافدين إلى الله عز وجلَّ، خالق السموات والأرض والملائكة والجن والناس أجمعين.

وفي مأتم الأرض، قعدت فاطمة الزهراء عليها السلام، ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تذرف الدموع، وترسل العبرات، وهي تنعى أباها إلى خالقه عز وجلّ، وإلى حبيبه جبرائيل الأمين عليه السلام قائلة: «واأبتاه!. . أجاب داعٍ دعاه. . واأبتاه! الفردوس مأواه. . واأبتاه! إلى جبريل ننعاه». .

إنه مأتم أهل الأرض حقاً بموت الحبيب على القلوب، العطوف على الفقراء، الحاني على الضعفاء، الساعي إلى إشباع الجائعين، العامل على إرواء الظمآنين، المجاهد من أجل التعساء المظلومين،

الهادي للأحرار والمؤمنين. فمن يكون لكل هؤلاء من بعده، ومن يقدر على عطائه الذي كان يغدقه، أو يستطيع أن يكون له الفضل الذي يُسديه؟!..

الكلُّ بات يتيماً بارتحال محمد ﷺ عن هذه الأرض.

وإنَّ ما أصاب أهل مدينة الرسول المنوّرة من ذهول ودهشة، وما اعتراهم من خوف وذعر، لم يكن إلَّا خلجة من خلجات الشعور بالمأساة الكبرى. فلا عجب إن لم يصدّق الكثيرون أن الرسول قد مات. ولا عجب إن بقي عمر بن الخطاب واقفاً في المسجد يتهدد ويتوعّد كلَّ من تسوّل له نفسه القول إن محمداً قد مات، حتى جاءَ أبو بكر الصديق، يمسكه بكتفه ويَهُزّه، طالباً إليه أن يصغي، ثم يخاطب الناس قائلًا: «أيها الناس، من كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. ثم تلا قولَ اللّه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

كان الناسُ يُنصتون، وما إن سمعوا قولَ الله عز وجلَّ، وأبو بكر يتلوه، حتى عادَ إليهم الوعي، وكأنَّهم نسوا تماماً هذه الآية من كتاب الله المبين، وأخذها الناسُ من فورهم، وراحوا يردّدونها، فإذا هي على كل شفةٍ ولسان، تهدّئ من الروع، وتهدي إلى الحق الذي لا مراءَ فيه. لقد أدركوا أن محمداً ﷺ بشر كسائر البشر، وعليه يقع الموت كما يقع على سائر خلق الله «كل نفس ذائقة الموت»، وأنّ كلَّ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام، لأنه وحده الحيُّ القيّوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، بيده الحياة والبقاء، وبيده الموت والفناء. . . لقد أدركوا أن الموت حقّ، فتتالت في أذهانهم آيات الله تعالى الدالةُ على هذا الحق، ومنها قوله تعالى وهو يخاطبُ النبيِّ ﷺ: «إنك ميت وإنهم ميتون». إنه الموت فعلًا، ولكنه الحق من ربهم. ولا يجوز التفجع به لأن التفجع يكون بمثابة اعتراض على حكم الله عز وجلَّ، وحاشَا للصحابة الكرام أن يفعلوا شيئاً مخالفاً لأمر الله تعالى، أو يأتوا شيئاً نهاهم عنه رسولُ الله ﷺ ـ إلَّا في بعض الحالات من الضعف في النفس البشرية ـ.

مات محمدٌ رسولُ الله ﷺ حين اشتدَّ الضحى من يوم الإثنين الموافق للثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة، وقد بلغ من العمر ستين وثلاثة أعوام.

وفي نفس هذا اليوم، وقبل أن يُغسل، اتجه الصحابة لإقامة خليفة يُعهد إليه بشؤون المسلمين، بينما انشغل أهل البيت بتجهيز حبيبهم للرحلة الطويلة التي لا رجوع منها. . . فاجتمع من حول جسده الطاهر ابن عمه وصهره عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعمه العباس، وابنه الفضل وغيرهم كثيرون من بني هاشم، الذين فدوه بكل ما يملكون من مهج وقدراتٍ، يوم تألّبت عليه قوى الشرِّ في مكة، لتمنعه من أداء واجبه القدسيّ، ونشر دين الله عز وجل.

وتكفَّل عليٌّ رضي الله عنه بغَسْلِ النبيّ ﷺ، فكان يحسُّ بفوح الطيب يعبق منه، فيقول كلّما صبَّ علَيه الماء: «بأبي أنت وأمي ما أطيبك حياً وميتاً يا رسولَ الله، لولا أنك أمرتَ بالصبر، ونهيت عن الجزع!!. . بأبي أنت وأمي. . إن الصبر لجميلٌ إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا

عليك.. اذكرنا عند ربك، واجعلنا من همِّك».. وقد غَسّلَهُ بالماء والسدر، ثم جفَّفَهُ وكفَّنَهُ في ثلاثة أثواب، اثنين أبيضين صحاريين، والثالث بُرد حبرة أُدرج فيه إدراجاً.

وروي عن عليّ نفسه ما قام به أثناء غَسْل النبي ﷺ إذ قال: «أوصى رسول الله ﷺ أن لا يغسله أحدٌ غيري، فكان الفضل بن العباس وأسامة بن زيد يناولانني الماء من وراء الستر، فشققتُ قميصه من قُبُلِ صدره حتى بلَغَ سُرَّتَهُ، وتوليت غسله وتحنيطه وتكفينه. والفضل يعطيني الماء ويُعينني. حتى إذا فرغت من تجهيزه وقفت وصلّيت عليه وحدي، والمسلمون يخوضون في مَنْ يؤمّهم بالصلاة على رسول الله، كما يخوضون في مكان دفنه. فخرجت إليهم وقلت: إنَّ رسول الله ﷺ إمامُنا حيّاً وميتاً، فليدخل عليه فوج بعد فوج منكم، فيُصلّوا عليه وينصرفوا. وإنَّ الله سبحانَهُ وتعالى لم يقبض رسولًا في مكان الَّا وقد ارتضاه لرمسه فيه. وإني لدافنٌ رسول الله ﷺ في حجرته التي قبض فيها. فسلَّم الناس بذلك ورضوا به».

وصلَّى المسلمون على رسولِ الهُدى أرتالًا متتابعين، من غير أن يؤمهم أحدٌ في هذه الصلاة. فدخل المهاجرون، ثم الأنصار، ثم النساء والغلمان... وقد جاءَ أبو بكر بعد أن تمهدت له الأمور، وبويع خليفةً، فدخَلَ وصلَّى، ثم قال، وقد استوى المكان بالناس: «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، نشهد أنك نبيُّ الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربه، وجاهد في سبيله حتى أتمَّ اللَّهُ النصرَ لدينه، وأنه وفى بوعده، وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له».. وكان المسلمون، الذين امتلأ بهم المكان، يجيبون عند كل جملة من كلام أبي بكر في هيبة وخشوع: آمين، آمين..

وبقي الجثمان الطاهر في مكانه إلى ما بعد ظهر اليوم التالي الثلاثاء (١٣ ربيع الأول سنة ١١هـ)، وقد أنفذَ عليٌّ ابنَ عمه الفضلَ بن العباس إلى زيد بن سهل فأتى وحفر قبر رسول الله ﷺ وفق ما لزم. وحانت ساعة الوداع الأخيرة، فوقفت الجموعُ في الخارج، بينما تولّى الدفنَ عليٌّ، وعمُهُ العباسُ، وابنُه الفضلُ، وأسامةُ بن زيد (رضوان الله عليهم). فنادت الأنصارُ من وراء الباب:

«يا عليّ! إنا نذكّرك الله وحقَّنا اليومَ من رسول الله ﷺ. أَدْخِلْ منا رجلًا يكون لنا به حظٌّ من مواراة رسول الله ﷺ جدثَ الرحمة»!..

فطلب عليٌّ إليه أوسَ بنَ خوليّ من بني عوف، من الخزرج، وكان بدريّاً فاضلًا، ومقداماً في الجهاد باسلًا. فلمّا صارَ في داخل الحجرة، أشار إليه أن ينزل إلى اللحد، ويتناول منه الجسد الشريف ففعل، فاحتضنَ عليٌّ حبيبَهُ إلى صدره، وحمله على يديه، ثم ناوَلهُ إلى أوس، فوضعه على مَهَلٍ في أرض قبره. ونزل إليه عليٌّ وحده، يكشف عن وجهه المشرق، ويجعل خدَّه ملامساً التراب، ووجهه نحو قبلة المؤمنين في بيت الله الحرام في مكة، بعد أن لحده على جانبه الأيمن..

وغُطّيَ لحدُ رسول الله ﷺ باللبن، ثم هيل عليه التراب حتى استوى قبره قائماً، فربَّعَهُ عليٌّ ووضع اللبنَ فوق التراب حتى ارتفع عن الأرض بمقدار شبر وأربع أصابع..

رقدَ جَسَدُ رسول الله ﷺ في مثواه الأخير، وبقي أن يدخل المسلمون يُقرئونه السلامَ، ويتلون على روحه الطاهرة سورة الفاتحة

من القرآن الكريم.. كان أولَ المتقدّمين فاطمةُ الزهراء عليها السلام ابنةُ الراحل العظيم، إذ جثت فوق القبر ترسلُ الدمعَ غزيراً، ثم تمسك ترابَه فتشمُّهُ، وتمسحُ به وجهها وتكحّل به عينيها، وهي تقول:

ماذا على مَنْ شَمَّ تُربةَ أحمدٍ أن لا يَشُمَّ مدى الزمان غَوَالِيَا
صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أَنَّها صُبَّتْ على الأَيامِ عُدْنَ لَيَالِيَا

وغصَّت، بعد ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ردهة القبر المقدس بالمسلمين، يتبرَّكون من الثرى النبويّ، ويسلّمون على النبيِّ تسليماً كثيراً... وها هو القبرُ، وبعد أربعة عشر قرناً، لا يزالُ مزاراً لكل مسلم مؤمن يأتيه من أقاصي بقاع الأرض وأدناها، ليزورَهُ ويقدم له الولاء، والإخلاص لدينه القويم.. ومَنْ لم يقصدْهُ خصّيصاً، فإنَّهُ لا يتوانى عندما يذهب لأداء فريضة الحج ـ بل ولا تطاوعه نفسُهُ ـ إلَّا أن يزورَ نبيَّهُ الأكرم قبل أن يعود إلى بلاده.. أجل إنهم يأتون إليه قاصدين أو حجّاجاً لبيت الله الحرام ـ في مماته، كما كانوا يأتون إليه في حياته، من كلّ فجٍّ عميق، فينحنون أمام الضريح المقدّس وفوقه القبة الخضراء، خاشعين، متبرّكين، ثم يتسابقون للصلاة في رحاب مسجده الشريف، عابدين، حامدين..

طيَّبَ الله ذلك الثرى بالمدينة المُنوّرة ـ وقد أنارها الله بهُدى رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ وصولِهِ إليها ـ وجعلَهُ دائماً وأبداً مقصداً، ومحجةً للمسلمين، وملاذاً للمؤمنين، في فناء مسجده الطاهر يطمئنّون، وبجوار الحضرة الشريفة يتعبدون ويتذاكرون، وبهديه يستغفرون وينيبون..

هكذا انتهت الحياة الدنيوية لأكرم خلق الله ـ سبحانه ـ على الله.

وخرج محمد ﷺ من هذه الدنيا لا يحمل معه إلَّا كفنَهُ وريحَهُ الطيب، وعملَهُ الصالح، الذي كان ملؤهُ الخير والعطاء، والجهادُ في سبيل الله. . . لقد أطلَّ على الحياة وليداً من البشر، فعاش بين الناس مكتملَ الصفات الفردية، ومثالًا أعلى للنفس الإنسانية. حتى إذا أنزَلَ الله تعالى عليه الوحيَ، وانتدبَهُ لحمل أكبر رسالة سماوية إلى الأرض، امتثلَ للأمر السنيّ، وانطلق ينشر دينَ الله ـ تعالى ـ حتى تكون كلمة الله العُليا، وكلمة الذين كفروا السُّفْلى! . . . ولم تكنْ إلَّا مدة قصيرة لم تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة ـ هي لا شيء في عمر الزمان ـ حتى نَشَرَ الإسلام ديناً لله على الأرض. ثم لم يلبث بعدها حتى فارق هذه الدنيا، وقد خلَّفَ ميراثاً للحقِّ لا يحول ولا يزول، ودعوةً للإيمان لا تستكين ولا تنقطع، يُلْزَمُ المؤمنون بحملهما جيلًا بعد جيل، وقرناً بعد قرن، حتى تبقى الهدايةُ مستمرَّةً، والإيمانُ ثابتاً، والاتصالُ ما بين الخالق وعباده قائماً. .

هذا ميراث محمد ﷺ الذي خلّفه على الأرض، قبل أن ينتقلَ إلى الرفيق الأعلى، ليخلد في الجنة سيداً مع النبيين المصطفَيْن الأخيار، والرسل الطاهرين الأبرار، والثلة المختارة من عبادِ الله الصالحين. . .

لقد صَدَقَ الله تعالى رسولَهُ وعدَه، وصَدَقَ رسولُهُ مع عباده وعْدَهُ، وكان آخرَ بيانٍ لصدقِ رسول الله ﷺ ما وعَدَ به ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام وهو على فراش الموت، ساعةَ أنْ أودعَها سرّاً فأبتْ أن تكشفه لأحد، وهو ما زال على قيد الحياة. فلمَّا كانت في بيتها تعيش على ذِكْرِ هذا الأب، سألها زوجُها عليٌّ عليه السلام عن ذلك السرّ، فذكرت أنه في المرة الأولى أسرَّ إليها أنه سيُقبض في مرضه،

فبكت، ثم أسرَّ إليها أنَّها أولُ أهله لَحَاقاً به، فضحكت. وصَدَق وعْدُ رسول الله ﷺ إذ لم تلبث فاطمة الزهراء بعد أبيها إلَّا مدةً لا تزيد على ستة أشهر حتى لحقت به. رحمها الله وأسكنها فسيح جناته إلى جانبِ أبيها محمدٍ سيّد المرسلين وخاتم النبيين.

الخاتمة

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] خلق كل شيء فقدَّرَهُ تقديراً. وكان من تقديرِهِ السَّنيِّ أن يجعل الإنسان خليفةً في الأرض، فيحيا بهذا الاستخلاف مؤمناً بالله الواحد الأحد لا شريك له، ويعيشَ مديناً لربه بالطاعة والخضوع والعبودية، وفي رحاب هذا الإيمان، وفي ظل هذه العبودية للواحد الديَّان، ينطلق الإنسانُ إلى عمارة الأرض، نقيَّ الفكر والشعور، طاهرَ القلب والضمير، باعثُه إلى العمل: البِرُّ والخير، فيستحقّ الخلافة ويكونُ لها أهلًا.

وهذا الإنسان المخلوق البشريّ، هو الذي اصطفاه خالقه وكرَّمه بأن جعلَهُ سيّد المخلوقات على الأرض في مرتبته الإنسانية، التي تحدوه لتوثيق الصلة مع خالقِهِ ومولاه، فلا يعبدُ شيئاً سواه.. وتقودُه إلى طريق الحق المبين، واعتناق الدين القويم فيرتقي بفضل ذلك نحو التكامل ويحقق السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة... ذلك ممّا قدَّر الله عزَّ وجلَّ لبني آدم. وتلك كانت غاية الوجود الإنساني، أي أن يعبدوا الله الواحد الأحد، لا شريك له..

---

(١) سورة الملك، الآية: ١.

ولكنْ ما الذي حَدَثَ بالفعل والواقع؟

. . . لقد ساحَ الإنسان على وجه هذه البسيطة، وتاهَ في أطراف الدنيا، ليشهد على نفسه بنفسه: أنَّ مسيرته مع الحق، لم تكن دائماً، كما شاءها الله تعالى أن تكون مسيرةً خالصةً لوجهه تعالى. بل نأى عن الهداية، وانحرف عن الدرب المستقيم حتى لجَّ به المقامُ، وغلب عليه الضلال، فانحدَرَ إلى الدرك الأسفل من الانحطاط الفكريّ، وإلى أشقى حالةٍ من المرض النفسيّ، عندما اتخذ من دون الله آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. . . ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[1] . .

إنَّ هذا التنكُّرَ للإيمان بالوحدانية، وعدم الإقرارِ بالعبودية للَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الجحود الذي يشكل فعلًا المأساة الحقيقة التي يعيشها الإنسان مع نفسه. ولكنَّ الله سبحانه وتعالى لم يقابله إلَّا بالرأفة والحلم، وبالعون والرحمة (ألا إنه هو الرحمن الرحيم والرؤوف الحليم) فبعث في الناس النبيين والمرسلين، يحملون إليهم تعاليمَ هدايةٍ من لدن عليم حكيم ـ لو اتبعوها ـ لأخذت بيدهم إلى الرشد والصواب، وأوصلتهم ـ لو حفظوها ـ إلى أعلى الدرجات من النضوج الفكري، والقدرة على التمييز، وأمّنتْ لهُم ـ لو اعتنقوها ـ السلامةَ في الأنفس والعافيةَ في الأبدان من جميع الشوائب والأدران. على أنَّ الناس كانوا يهتدون إلى تلك التعاليم حيناً من الدهر، ثم لا يلبثون

(١) سورة عبس، الآيات: ١٧ ـ ٢٣.

بعده أن يعودوا إلى سابق عهدهم من الجحود والغواية، غير عابئين بدينٍ، ولا مكترثين بخُلُق، بل همهم المطامع والشهوات، ودأبهم اكتساب أعراض الدنيا الزائلة، حتى عمَّ الفسادُ واستشرى، وظهر في بَرِّ الأرض وبحرها، كما بيَّنَهُ الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

نعم، إن مثل هذا الفسادِ العام قد ظهر ـ في البرِّ والبحرِ ـ عندما أمكن لأهل الكفرِ والشركِ أن يسيطروا على مقدرات عباد الله، وأن ينشروا الجهلَ والضلال.. حتى خيَّم الظلمُ والجور، وعمَّ الاستغلالُ والاستعباد في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يبقَ أمام الناس ـ والمستضعفين منهم خاصة ـ إلَّا أن تتنزَّلَ رحمة الله العلي القدير على عباده، حتى ترتاح الأرضُ وسكانها، مما شاع وسيطر وعمَّ فيها من الأباطيل.. وهذا لن يكون إلَّا ببعث نبيٍّ آخر الزمان.. وكان المؤمنون من أهل الديانتين اليهودية والنصرانية، أكثرَ الناس اهتماماً ببعث هذا النبي، الذي يعيد إلى الأرضِ السلام، وفي الناس المسَرَّة.. وتحقق الرجاء وحقَّت كلمة الله (تعالى)، فأنزَل الرسالة السماوية الأخيرة، لتكون رسالةَ الإسلام الجامعة الشاملة. وأوكل إلى خير البرية وسيِّد المصطفين، حَمْلَ هذه الرسالة ليكون خاتم النبيين إلى أهل الأرض.. أجل لقد حقَّتْ كلمةُ ربِّك، فبعث منذ أربعة عشر قرناً ونيفٍ، النبيَّ العربي الأميَّ، محمد بن عبد الله ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كَرِهَ المشركون.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

ولقد نزل عليه الوحيُ من ربه، وهو في الأربعين من عمره الشريف، وفيه يعهد إليه بالإسلام ديناً لله وعقيدةً للناس، وبشعائره ومناسكه وأحكامه نظاماً للعباد، وبتعاليمه منهجاً للحياة، وذلك في قرآن كريم، فتبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالَمين نذيراً. . .

وإنه يتجلَّى لنا، مما حملته بطون التاريخ، أنَّ سيّدنا محمداً ﷺ قد جاءَ إلى هذه الدنيا، ورائحةُ الفساد تزكمُ الأنوف، فطهَّرَ بدعوته الحقِّ أرجاء جزيرة العرب من الرجس، كما طهَّر سماءَ الدنيا بأسرها بأنفاس الإسلام العطرة. . فلقد أطَلَّ على العالم والظلمُ يفتكُ بالناس، فأقام في كل ناحية دخل إليها قواعِدَ العدل والإنصاف. وحيثما وجَدَ الالتواءَ يهيمن على العقليات بادر إلى تسويته بالصلاح، وحيثما رأى الخطأ يسيطر على المعاملات ، انبرى إلى معالجته بالصواب، حتى شَملَ فكره وعملُه، وقيامُهُ بتكلِيفِهِ، كلَّ ما يمتُّ إلى إصلاح الحياة الدنيا، والفوز بالحياة الآخرة. .

ولم يكن تحقيق المسيرة العظيمة لإعلاء كلمة الله، وهداية الناس سهلًا على الإطلاق، بل كانت مسيرةُ محمد ﷺ شاقةً وعسيرةً إلى أبعد حدود التصور، وهو يحمل الأمانة الكبرى بكل ثقة وعزم، ويضطلع بالعبء الثقيل بكل إخلاص وجهد. فقد انبرى إلى محاربة الشرك بأعتى أشكاله، والقضاء على الكفر بأبشع صوره، وتحطيم الوثنية بأسخف مظاهرها. . . ولقد لاقى من جراء ذلك العنت والقهر من بني قومه، وواجَه مشقة الحرمان والحصار في شعاب مكة من مختلف قبائل بيئته، فما زاده ذلك إلَّا إيماناً بربِّه واستمساكاً بالإسلام. . . آذَوْه وعذَّبوا المسلمين الأوائل، وابتدعوا كلَّ وسيلة ليخنقوا الدعوة في مهدها، حتى لم يبقَ إلَّا التآمُر على قتله،

فأتمروا.. ولكنَّ الله باعِثَهُ كان مانِعَهُ، فأمَرَه بالهجرة إلى يثرب ليلتفَّ حولَهُ جنودٌ لله من المهاجرين والأنصار، فيكون وإيّاهُمُ سيوفَ الحق مسلولَةً على الباطل وأهله من الكفرة والمشركين، إلى أنْ مكَّنَ الله سبحانَهُ لرسولِهِ من أن يدحرهم، ويحقّق النصرَ عليهم... ألا إنَّ النصرَ من عند الله يؤتيه من يشاء..

وأسَّسَ الرسولُ الأعظمُ في المدينة المنوَّرة الدولة التي تحكم بما أنزلَ الله، فكانت أول دولةٍ لله ـ تعالى ـ على الأرض. وبعثَ بالرُّسُلِ إلى حكام أقوى دولِ العصرِ، وإلى سائر الملوك والأمراء في المقاطعات والجهات المجاورة، يدعوهُمْ ورَعَاياهُمْ للدخولِ في دينِ الله الحنيفِ، فمن كفر، من بعدِ ما أراهم الحق، فعليه كفرُهُ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون.. وقد لاقتْ دعوتُهُ، مع الأيام، القَبولَ مثلَما لاقت الرفض من قبل، ولكنَّ هذا الرفض لم يؤثر علَى انتشارها والسير بها قُدُماً، إلى أن عمَّ سلطانُ الإسلام ربوعَ شبه جزيرة العرب كلّها، وآمنتِ النفوسُ بالواحِد الأحدِ، وعنتِ الوجوهُ للحيِّ القيوم..

نعم، لقد حُفَّت المسيرة العظيمة التي قادها محمدٌ رسولُ الله بالمخاطر والمؤامرات، واعترضتها الصعاب والعقبات، إلى الحدِّ الذي تألَّبتْ جميع قوى الشر ضدَّهُ، وعملت كل ما بوسعها كي تقضيَ عليه، وتمنَعَ دينَ الله تعالى من أن يُبصِرَ النورَ فلا يسود الأرضَ.. ولكنَّ ذلك كله لم يَثْبُتْ أمام غَلَبَةِ الإيمان الحقّ، وأمكن لرسول الله بعد مضيِّ ثلاث وعشرين سنة فقط، أن يحقق من الانتصارات المادية والمعنوية ما لا تقدر الأمم والشعوب على تحقيقه خلال أجيال عديدة، وحقبات مديدة... إنه حقّاً الإيمانُ الذي حملَهُ محمدٌ ﷺ

وأصحابُهُ، كان هو الباعثَ لتحقيق تلك الانتصارات، إذْ إنَّ العبرة دائماً بالباعث الذي يتأتَّى عنه العمل، لا بشكل العمل ومظهره. فقد يكون الباعثُ طيباً، ولكنه حين لا يقوم على الإيمان، يكون مجرَّدَ خاطرةٍ عارضةٍ، أو فكرةٍ طارئة، فلا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير، ولا بخطٍّ سير الحياة العريض... فلا بُدَّ إذن من الإيمان ليشُدَّ النفس إلى أصلٍ تصدرُ عنه كلُّ اتجاهاتها، وتتأثر به في كل انفعالاتها. وحينئذٍ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفُه، ويكون له اطّرادُهُ، وتكون له آثارُهُ وفق منهج الله تبارك وتعالى الذي يربط أجزاء هذا الكون كله برباطه الوثيق، ويجعل لكل حركة وظيفةً وأثراً في كيان هذا الوجود، وفي قيامه بدوره وانتهائه إلى غايته.

وإذا كانت انتصارات محمد ﷺ التي حققها وهو يدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، تُعْتَبَر بذاتها، وبنتائجها، إنجازاتٍ غيرَ محدودة للناس كافة ـ كما كان هو الرسولَ للناس كافة ـ فإنَّ أعظم تلك الإنجازات تبقى تلك الحضارة الإسلامية التي شهدها العالم. وقد أقامَها رسولُ الإسلام على أسسٍ وقواعدَ لا تتغير مع الزمان، بل تبقى قائمةً ثابتةً، لترافق حياةَ الإنسان، وتدفعَه أبداً نحو التقدم والرقي والتكامل. وذلك وفق طرقٍ للعبادة مُغْنيَة، وقواعد للمعاملات مُرْضِيَة، لا تخرجُ في جوهرها عن غنى الأخلاق ورِفْعَتِها، ولا تحيدُ في صميمها عن تهذيب النفوس وشفائها، ولا تميل في حقيقتها عن تنقية الضمائر وصفائها، وإنارة العقول وتفتحها. فيرقى الفردُ من خلالها إلى ذُرى إنسانيته، وتحقق الجماعة بواسطتها وجودَها المجتمعيَّ، بل وتأخذ بيد الشعوب والأمم ليتعارفوا في رحاب الإنسانية بكل مضامينها.. وكل ذلك على أسسٍ من التكافل

والتضامن رائعة، وعلاقات من التواصل والتعاون صادقة..

هذه بعض شذرات من ميزات محمد ﷺ الشخصية، وخصاله الإنسانية. وهي لا يمكن أن تنطبق إلَّا على ذاته المقدسة..

وهذه بعضُ جوانبِ نهضته الإيمانية، ومواقفه النبوية، وحضارته الإسلامية. وهي لا يمكن أن تنبعث إلَّا عن تنزيلٍ من لدن حكيمٍ حميد.

ومن أجل هذه وتلك كان محمدٌ رسول الله ﷺ المثالَ الأعلى إنْ في ميزاته وخصاله، وإنْ في إيمانه بربه وخالقه، وإنْ في معرفته المطلقة بحقيقة وجود الله تعالى، وبحقائق الكون، والخلق، والحياة، والموت، وحقيقة البعث، أو أية حقائق أخرى أتى على ذكرها القرآن الكريم، ووعاها في جوهرها وحدودها وأبعادها رسولُهُ الأمين، فأوصلها إلى قلوب الناس وعقولهم، لتكون على الدهر مِشعل هداية للناس، وقبس نور لنجاتهم..

إنه محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيدُ المرسلين، العظيم بذاته، العظيم بإيمانه، العظيمُ بحمل رسالته وأدائها... لقد أقام الدينَ الحقَّ، وألَّفَ بين القلوب، وطهَّرَ النفوسَ، وهدى العقولَ، فكان النورَ الذي يشعُّ حكمةً ومعرفةً، والينبوعَ الذي يَروي محبةً ورحمةً، والقوةَ التي تزرَعُ الطُّهْرَ والقداسة، والقدرةَ التي تنشُرُ الخيرَ والسلام... عاشَ عمرَهُ الشريفَ كلَّهُ من أجل الإنسان، وفي سبيل الله تعالى، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلَّا وهو في غاية الرضى والاطمئنان. فكان الرضيَّ المرضيَّ على وجه هذه الأرض الطيبة، كما هو الرضيُّ المرضيُّ عند ربه في جنة الخلد المباركة... إنه محمدٌ في

الأرض، وأحمدُ في السماء، وفي بشارات النبيين من قبله، ولاسيما بشارةُ موسى وعيسى عليهما السلام.. وهو النبيُّ الذي يصلّي الله (تعالى) وملائكته عليه ويأمر المؤمنين بالصلاة عليه، كما جاء في محكم التنزيل، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1].

وإنَّ الناس جميعاً، والباحثين منهم خاصة، مدعوون لأَنْ ينظروا إلى القرآن الكريم، وإلى سيرة محمدٍ الرسول الحكيم على أنهما نهج مترابط متكامل، تعلو معطياتهما على الظروف الموقوتة زماناً ومكاناً، على الرغم من ملامستهما اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية. ولكنها الملامسة التي تنبثق عنها قيم ومعالجات ودلالات ذات طابع شموليّ، ما جاز لأحدٍ من بني البشر، والقياديِّين منهم خاصة، أن يغفلوا عنها، لأنها تشكل حقائقَ دامغةً في الوجود.

أيها القارئ الكريم:

لقد سعينا لأن نقتفيَ آثار السيرة النبوية الشريفة، وأن نستقيَ من معين حياة محمد ﷺ العظيمة. وقد عملنا لأجل ذلك بما أعاننا الله تعالى عليه، وبما أمدَّنا به من جهدٍ، وقدَّرَنا عليه من إخلاص. وغايتنا من وراء ذلك، ليس فقط إبراز ما حفلت به تلك الحياة العظيمة من سماتٍ بارزةٍ خاصة بصاحبها، وما امتلأت به مسيرة تلك الحياة من وقائع وأحداث متعاقبة، ولكن لنستخرج أيضاً من هذه الحياة الرشيدة، البانية، التي تفيض بالعبر والآيات والعظات، وتزخر بالدروس

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

والمواقف والأمثولات، صوراً كثيرة ومتنوعة، هي خطيرةٌ إذا عكسها الإنسان، ومثيرةٌ إذا تفكر بها، وعظيمةٌ إذا اقتدى بمثالها. . . ولا نقول ذلك إلَّا لأنَّ حياة كل فردٍ منا، تقوم منذ ولادته وحتى مماته، على ما عنده من قوى ذاتية، وعلى ما يطرأ على هذه القوى من تبدلات أو تحولات بفعل ما يتأثَّر به من شتَّى صور الحياة وما يكسب من الأعمال الصالحة، أو يكتسب من الفعال الطالحة. . ويمكن التدليل على مدى ما يأخذ الإنسان وما يعطي، وما يستوعب ويعمل في مسيرة حياته الدنيوية. ويمكن التدليل أيضاً على ما أكْتَشَفَ الإنسانُ في العصر الحاضر من أن العين ـ كأداة للبصر ـ قادرةٌ على أن تُصَوِّرَ وتسترجعَ من الصور ما يقارب خمسين ألف صورة في اليوم الواحد. ومن الطبيعي أن تكون هذه الصور متنوعة الأشكال والأجناس والألوان، وأن يكون من بينها الخطيرُ، والمثير، والحقير، وما عداه من تعدّد وتنوّع في الميزة والوصف. . . وكل ذلك بحسب ما قدّر للإنسان أن يبصر من آيات الله في الخلق، وما قد يروم ـ أو ما قد يفرضُ عليه ـ أن يسمعَ، ويرى، ويقول، ويفعل!. .

فحواسّ الإنسانُ إذن تلتقط، وملَكاته تختزن وتسترجع. . . وقلّما يستذكر الإنسان أو يسترجع إلَّا تلك الصورَ أو الأشياء أو الحالات التي أثَّرت فيه، أو انعكست عليه، والتي كانت بالنسبة إليه الأكثرَ خطورة أو إثارة. . في حين أنَّ ما حسبه ممتهناً أو حقيراً أو قليلَ الشأن، فإنّه قلّما يسترجعه وقد يصبح بعد مدة في عالم النسيان عنده. . . إذن فالعبرة بالنسبة للإنسان هي بالصور أو الأشياء أو الحالات الخطيرة والمثيرة لأنها المؤثِّرةُ فيه، وهي التي يتكيّف ويتفاعل معها، أو يمقتها ويزدريها وأخيراً يبتعدُ عنها. .

من هنا أيها القارئ وقد اطلعتَ على سيرة خاتم النبيين، ووقفت على ما فيها من صور هامة وخطيرة ومثيرة، فإنك إذا خلوت إلى نفسك، فأنت مدعوٌّ لاسترجاع مواقف رسول الله وأعمالِهِ وأقوالِهِ، وتذكُّرها بصورة دقيقة وواعية، حتى يكونَ كلُّ ما عمل، أو قالَ أو سكت عنه، المثالَ الذي تقتدي به في كل مرة قد يهبك الله الكريم نعمةً، أو يحفُّ بك من فضله نجاحٌ، أو يطرأ عليك حادث... ففي أي حالةٍ، تَصَوَّرْ ماذا قالَ أو عملَ رسولُ الله، والموقفَ الذي وقفَهُ حِيالَ الواقع الذي واجهه، سواءٌ كان عندَ إحلالِ نعمةٍ، كما عندما تزوج أمَّ المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها وما كانت عليه من الغنى والجاه، وما قدمت له من حنان الأم، وصداقة الأخت، وإخلاص الزوجة، فما استكبر ولا استعلى بل ظلَّ على خُلُقِه العظيم مثلما كان أيام العسرة والفقر والضيق... أَمْ عند تحقيق نصر، كما في فتح مكة، كيف لم تبهره هالةُ النصر، ولم تأخذه نشوةُ القائد المنتصر، بل انحنى على ظهر راحلته شاكراً لله، محتسباً ومستغفراً... أَمْ عند مصيبة ألمّت به، كما في موت أبنائه وبناته، كيف كان جلداً، صبوراً، مصابراً، حكيماً، مذعناً لأحقيةِ الموت، رغم ما يكابد من أحزان... أَمْ عند خطر عامٍّ دهَمَ الدعوة والمسلمين، كما في غزوة الخندق حيث بلغَ الخوف بالمؤمنين أشدّه وصاروا في الحالة التي وصفهم الله تعالى عليها، بقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[1]، فلم يؤخذ الرسول ﷺ بذلك الخوف، بل ظلَّ مُصِرّاً في نفسه على

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

النصر، ضارعاً إلى الله تعالى، والمؤمنون يردِّدون من بعده بالدعاء الذي يقول فيه: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا».

هذه صورٌ خاطفةٌ من حياة الرسول الأعظم، أوردناها مثالًا عن تلقّي الرسول للحدث، وموقفه منه، وردة فعله عليه... وأنت أيها القارئ، دَعْوتُنا إليك بأن تكون لك المواقف المماثلة وردّات فعلها، لأنَّ عليك الاقتداء برسول الله ﷺ امتثالًا لأمر الله تعالى بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]. وإنك إنْ فعلتَ، واقتديتَ بسيرة محمد رسولِ الله، وخاتم النبيين (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم) اهتديت وخرجت من هذه الدنيا عزيزاً كريماً.

وفي الختام، فإننا ونحن نضع بين أيدي المسلمين كتابَ «خاتم النبيين»، فإننا نسأل الله تعالى أن نكون قد وُفِّقنا إلى إبراز أهمِّ السماتِ التي تتميّزُ بها السيرة النبوية الشريفة، سيرة محمد رسول الله ﷺ التي يجب أن تظلَّ دائما الكائنَ الحيَّ بين ظهرانيْهم، وذلك حتماً بعد القرآن الكريم، كتابِ الله المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... ولعّلنا لو عدنا إلى هذين المصدرين: الكتاب والسنَّة، لاهتدينا إلى الإيمان الخالص، وحققنا الغاية من وجودنا... وفي ذلك ما فيه من الكفاية على إدراك حقيقة الإسلام، ومعرفة عظمة النبي محمد ﷺ الذي بُعث لحمل هذا الدين وإيصاله إلى الناس. فصلوات الله وسلامه على سيد الخلق، وخاتم النبيين محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين. ورضي الله تعالى عن أصحابه الأبرار الميامين

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

وعلى من اتَّبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين. ونسألُ الله تعالى أن نكون قد وفّينا الرسولَ الأعظم جزءاً يسيراً مما يستحق. وأن نكون قد دخلنا مدخل صدقٍ إلى جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم تحت لوائه، راجين رضوانَ الله تعالى في تقديم هذا العمل المتواضع الذي تناول «قصص الأنبياء في القرآن الكريم» ومنها هذا الكتاب في جزءَيْن خاصّيْنِ بحياة خاتم النبيين ﷺ. وعلى المسلمين أجمعين أن لا ينسوا سيرة خاتم النبيين لأنها جزء من السنة الشريفة. ومطلوب منهم أن يعملوا بالكتاب والسنّة، وأن لا يهملوا من السنّة شيئاً ولو كان يسيراً. لأن الله سبحانه أمر المسلمين خاصةً والناسَ عامة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فإنه لم يقل: وما آتاكم القرآن وحده فخذوه. وربما نرى بعضَ المتحذلقين[1] والمتفذلكين في هذه الأيام يقولون: نحن نكتفي بالقرآن الكريم فقط. فهذا القول هرطقةٌ يؤدِّي حتماً إلى الكفر. نعوذ بالله من هذا القول وأمثاله ونبرأ مما يقولون.

سلامُ الله عليكم أيها المؤمنون الصادقون ورحمةُ الله وبركاته، وعلى كلِّ من اتَّبع الهدى، وخشيَ عواقب الرّدى، وسار على نهج الرسول المصطفى وبه اقتدى، ورحمة الله وبركاته.

(١) المتحذلقين الذين يدَّعون الحذق، الفطنة والمهارة.



قال ﷺ: «لقد أُعطيتُ جوامعَ الكلم»[١].

ومن جوامع كلامه ﷺ:

١ ـ رأسُ الحكمة مخافةُ الله[٢].

٢ ـ لا فقرَ أشدُّ من الجهل[٣].

٣ ـ المستشارُ مُؤتَمَنٌ[٤].

٤ ـ من تواضَعَ لله رفَعَهُ[٥].

٥ ـ إذا أتاكُمُ كريمُ قومٍ فَأَكرِمُوهُ[٦].

٦ ـ شرُّ المكاسب، الربا، وشرُّ المآكلِ أكلُ مالِ اليتيم[٧].

---

(١) البخاري، م ١ صفحة ١١، عن جعفر بن محمد عن أبيه.

(٢) عن أبي الدرداء عن النبي ـ كشف الخفاء، صفحة ٤٢١.

(٣) رواه ابن ماجه والطبري عن أبي ذر عن علي بن أبي طالب، كشف الخفاء، صفحة ٣٥٨.

(٤) ابن ماجة، باب الأدب، صفحة ٣٧.

(٥) أحمد بن حنبل، الجزء الثالث رقم ٧٦.

(٦) رواه ابن ماجة عن ابن عمر: كشف الخفاء، صفحة ٧٥ جزء ١.

(٧) البخاري، الوصايا، صفحة ٢٣.

٧ ـ الأمانةَ تجرُّ الرزق والخيانة تجرُّ الفقر[١].

٨ ـ ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى[٢].

٩ ـ اتَّقُوا فراسةَ المؤمِنِ فإنَّهُ ينظُرُ بنور الله تعالى[٣].

١٠ ـ اتّقُوا الحرامَ بالبنيانِ فإنَّهُ أساسُ الخراب[٤].

١١ ـ لا تُظهرِ الشماتَةَ بأخيك فَيُعافيَه اللَّهُ ويَبْتَليَك[٥].

١٢ ـ قليلٌ يكفيك خيرٌ من كثيرٍ يُرْديك[٦].

١٣ ـ ما أقرَّ قومٌ المُنكَرَ إلا عمَّهُمْ بعذاب مُحْتَضَر[٧].

١٤ ـ وُدُّ المؤمن للمؤمن من أعظم شِعَب الإِيمان[٨].

١٥ ـ ما أنزل الله داءً إلَّا وأنزَلَ له شفاءً[٩].

١٦ ـ ما خُيّرتُ بين أمرين إلَّا واخْترتُ أيسَرَهُما[١٠].

١٧ ـ طوبى لمن تَرَكَ شهوةً حاضرةً لموعود لَمْ يَرَهُ[١١].

---

(١) كنز العمال، الجزء الثالث ٥٤٩.

(٢) رواه أبو يعلى عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، كشف الخفاء، الجزء الثاني صفحة ٩٢.

(٣) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة كشف الخفاء، الجزء الأول صفحة ٤١.

(٤) أحمد بن حنبل، الجزء الثالث صفحة ٤٨٣.

(٥) الترمذي، باب القيامة، صفحة ٥٤.

(٦) أحمد بن حنبل، الجزء الخامس صفحة ١٩٧.

(٧) أحمد بن حنبل، الجزء السادس صفحة ٣٠٤.

(٨) أحمد بن حنبل، الجزء الثالث صفحة ٢٣١.

(٩) كنز العمال، الجزء العاشر رقم ٢٨٠٨٧؛ ورواه مسلم عن ابن مسعود، كشف الخفاء، الجزء الأول صفحة ٤٥٢.

(١٠) البخاري، المناقب صفحة ٢٣.

(١١) أحمد بن حنبل، الجزء الثالث صفحة ٢٦٦.

١٨ ـ عليك بالجماعة فإن الذئب يأخذ القاصية[١].

١٩ ـ الأميرُ الجائر خيرٌ من الفتنة، وكلٌّ لا خيرَ فيه، وفي بعض الشر خيارٌ[٢].

٢٠ ـ لا تتمنَّوا لقاء العدو وإذا لقيتموه فاثبتوا[٣].

٢١ ـ المؤمن للمؤمن كالمرآة إذا وجَدَ به عيباً نبَّهَهُ إليه[٤].

٢٢ ـ سبابُ المؤمن فسوق وقتالُهُ كفرٌ[٥].

٢٣ ـ من أعان ظالماً على ظلمِهِ سلّطَهُ الله عليه[٦].

٢٤ ـ الإيمان نصفان: نصفٌ في الصبر ونصفٌ في الشكر[٧].

٢٥ ـ الهديَّةُ تورث المحبةَ وتَسِلُّ الأحقادَ. والهديةُّ ثلاثٌ: هديةُ مكافأةٍ، وهديةُ مصانعةٍ، وهديةٌ لله[٨].

٢٦ ـ عش ما شئتَ فإنك ميّتٌ، وأحببْ ما شئتَ فإنك مفارقٌ، واعملْ ما شئتَ فإنك مجزيٌّ عليه[٩].

---

(١) البخاري، باب الاعتصام صفحة ١٩
(٢) ابن ماجة، باب الفتن صفحة ٣٠
(٣) كنز العمال، الجزء الرابع رقم ١٠٩٠٦
(٤) سنن أبي داود، باب الأدب رقم ٤٩.
(٥) ابن ماجة، المقدمة ٧.
(٦) ابن ماجة، الأحكام صفحة ٦.
(٧) البخاري، باب الجهاد صفحة ١٧.
(٨) أحمد بن حنبل، الجزء الثاني صفحة ٤٠٥.
(٩) عن سهيل بن سعد عن النبي ﷺ، كشف الخفاء، الجزء الثاني صفحة ٥٩.

٢٧ ـ أعجزُ الناس مَنْ عجِزَ عن الدعاء، وأبخلُ الناس مَنْ بَخِلَ بالسلام[١].

٢٨ ـ المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير[٢].

احرصْ على ما ينفعُك، واستعِنْ بالله ولا تَعْجَزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ لو أني فعلتُ كذا وكذا. ولكنْ قُلْ: قدَّرَ الله وما شاءَ فَعَلَ، فإنَّ «لو» تفتحُ عملَ الشيطان[٣].

٢٩ ـ العلمُ خزائنُ ومفاتيحها السؤالُ. فاسْأَلوا رَحِمَكُمُ الله، فإنه يُؤجَرُ أربعةٌ: السائلُ والمتكلمُ والمستمعُ والمحبُّ لهم[٤].

٣٠ ـ إنَّ الله لا يقبض العلم من صدورِ الرجالِ، وإنّما يقبضُهُ بموت العلماء. فإذا لم يبقَ عالمٌ اتخذَ الناسُ رؤساءَ جُهّالًا، فإذا استُفتوا أفتَوْا بغير علمٍ فضَلّوا وأَضَلُّوا[٥].

٣١ ـ أربعةٌ تُلزِمُ كُلَّ ذي حجىً وعقلٍ من أمَّتي: استماعُ العلم وحفظُهُ ونَشرُهُ والعملُ به[٦].

٣٢ ـ من أحبَّ أن يكون أعزَّ الناسِ فَلْيتَّقِ الله. ومن أحبَّ أن يكونَ أقوى الناس فليتوكَّلْ على الله. ومن أحبَّ أن يكون أَغنى الناس

---

(١) أحمد بن حنبل، الجزء الثالث صفحة ٢٢٨.
(٢) صحيح مسلم، باب القدر صفحة ٣٤.
(٣) ابن ماجة، المقدمة صفحة ١٠.
(٤) رواه ابن نعيم والعسكري، كشف الخفاء، جزء ثانٍ صفحة ٦٥.
(٥) صحيح مسلم، رقم ٢٠٥٨.
(٦) سنن الدارمي، المقدمة ٢٣.

فليكنْ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يده[١].

٣٣ ـ مَثَلُ أهلي كسفينةِ نوحٍ من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غَرِق[٢].

٣٤ ـ إني تاركٌ فيكُمُ الثقلين: كتابَ الله وعترتي أهلَ بيتي، فانظروا كيف تخلُفوني فيهما[٣].

٣٥ ـ إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً: كتابَ الله وسُنَّتي[٤].

٣٦ ـ من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان غدُهُ شراً من يومِهِ فهو ملعونٌ، ومن لم يتفقد النقصان في عملِهِ كان النقصانُ في عقلِه، ومن كان النقصانُ في عملِهِ وعقلِهِ فالموتُ خيرٌ له من حياتِه[٥].

٣٧ ـ والله لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابّوا. ألا أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم[٦].

٣٨ ـ من رأى سلطاناً جائراً، مستحلًا لحرمِ الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغرِ عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله[٧].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي، كشف الخفاء، الجزء الثاني صفحة ٢٢٢.

(٢) رواه ابن حجر في الصواعق، أعيان الشيعة للسيد الأمين، الجزء الأول صفحة ٢٦٤.

(٣) أحمد بن حنبل، الجزء الأول صحفة ٥١ .

(٤) الترمذي، المناقب صفحة ٣١.

(٥) رواه الديلمي، كشف الخفاء، الجزء الثاني رقم ٢٣٣.

(٦) صحيح مسلم، باب الإيمان صفحة ٩٣.

(٧) ابن ماجة، باب الفتن، صفحة ٢٢٣٣.

غزوات رسول اللّه ﷺ وسـرايا

روي أن عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزاها بنفسه كانت تسعاً وعشرين غزوة، وسراياه التي بعث فيها سبعاً وأربعين سرية، وما قاتَلَ فيه من المغازي كان تسعَ غزوات.

والمغازي هي:

١ ـ ودان أو الأبواء.

٢ ـ بُواط.

٣ ـ العشيرة.

٤ ـ سفوان.

٥ ـ بدر الكبرى.

٦ ـ بني سليم.

٧ ـ بني قَيْنُقاع.

٨ ـ السويق.

٩ ـ قرقرة الكدر.

١٠ ـ غطفان أو ذي أمر.

١١ ـ بحران الحجاز.

١٢ ـ أحد.

١٣ ـ حمراء الأسد.

١٤ ـ بني النضير.

١٥ ـ ذات الرقاع.

١٦ ـ بدر الآخرة أو بدر الموعد.

١٧ ـ دومة الجندل.
١٨ ـ بني المصطلق أو المريسيع.
١٩ ـ الخندق أو الأحزاب.
٢٠ ـ بني لحيان.
٢١ ـ الحديبية.
٢٢ ـ ذي قرد.
٢٣ ـ خيبر.
٢٤ ـ وادي القرى.
٢٥ ـ عمرة القضاء.
٢٦ ـ فتح مكة.
٢٧ ـ غزوة حنين
٢٨ ـ الطائف.
٢٩ ـ تبوك.

وأما السرايا فهي التي لم يكن يخرج فيها رسول الله ﷺ، فإن كان فيها أكثر من واحد قيل لها سرية، وإن كان واحداً قيل لها بعث. وقد اقتصرنا في متن الكتاب على عددٍ من السرايا ولم نذكرها جميعها منعاً للتطويل مع وجود التشابه في الأسباب والوقائع والنتائج، فكان اكتفاؤنا بأهم السرايا فقط.

زوجات رسول اللّه ﷺ

تزوج رسول اللّه ﷺ خمس عشرة امرأة، وبنى بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، وتوفي عن تسعٍ، وله من العمر ٦٣ عاماً. وفيهن قيل:

تُوفّيَ رسولُ اللّهِ عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ إليهنَّ تُعْزَى المَكْرُماتُ وتُنسَبُ
فعائشةُ، ميمونةٌ وصفيَّةٌ وحفصةُ تتلوهُنَّ هِندٌ وزينبُ
جويريةٌ مع رملة ثم سودةٍ ثلاثٌ وستٌّ ذِكرُهُنَّ مُهَذَّبُ

١ ـ خديجة بنت خويلد.
٢ ـ سودة بنت زُمعة.
٣ ـ عائشة بنت أبي بكر الصديق.
٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب.
٥ ـ زينب بنت خزيمة بن الحارث.
٦ ـ زينب بنت جحش.
٧ ـ رملة بنت أبي سفيان (أم حبيبة).
٨ ـ أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي.
٩ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية.
١٠ ـ صفية بنت حُيَيّ بن أخطب.
١١ ـ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار.
١٢ ـ خولة بنت حكيم.
١٣ ـ مارية القبطية.

ولم يَبْنِ بأميمة بنت النعمان لأنها أحبَّت أن تتعالى عليه ﷺ، ولا بامرأة من بني مُرَّة لأنه وجدها برصَاء.

أبنـاؤه وبنـاته ﷺ

القاسم، زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة، وعبد اللّه (الذي هو

الطيب والطاهر) وجميعهم من أم المؤمنين خديجة وإبراهيم من السيدة مارية بنت شمعون ـ القبطية الأصل.

مات ابنه القاسم، ثم عبد اللّه، فقال العاص بن وائل السّهمي «قد انقطع ولده فهو أبتر» فأنزل اللّه تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

وقد توفي جميع أبنائه وبناته في حياته، ولم يبقَ منهم إلَّا فاطمةُ الزهراء، توفاها اللّه تعالى بعد ستة أشهر من انتقال أبيها إلى الرفيق الأعلى.

فيكون للنبي ﷺ سبعة أولاد: أربع بنات وثلاثة بنين.

حُـــرّاسَــه ﷺ

سعد بن معاذ حرسه ليلًا يوم بدر.

محمد بن مسلمة حرسه يوم أحد.

الزبير بن العوام حرسه يوم الخندق.

المغيرة بن شعبة حرسه يوم الحديبية.

أبو أيوب الأنصاري حرس خيمته ليلة عودته من خيبر.

بلال، وسعد بن أبي وقاص، وذكوان بن قيس حرسوه بوادي القرى.

مرثد ابن أبي مرثد الغنوي حرسه ليلة وقعة حنين.

شـــعـراؤه ﷺ

حسان بن ثابت. ويقال له شاعر رسول الله ﷺ.

عبد اللّه بن رواحة (خزرجي).

كعب بن مالك (خزرجي).

هؤلاء الشعراء الثلاثة كانوا من الأنصار، يناضلون عن رسول اللّه بشعرهم، وبسيوفهم، ويهجون قريشاً ويعيبون عليهم عبادة الأصنام، ويفخرون بانتصار المؤمنين. ولم يكن من المهاجرين شعراء كالأنصار إذ تحاشوا هجاء قوم، تشدّهم إليهم روابطُ عديدة. ولكنَّ ذلك لم يمنع أن يحاربوهم دفاعاً عن عقيدتهم، وإن لم يهجوهم شعراً.

مـؤذِّنـوه ﷺ

بلال بن رباح، وابن أم مكتوم بالمدينة.

وسعد القرظ، وأبو محذورة واسمه «أوس» بمكة بعد الفتح.

رباح الأسود: كان يؤذن لرسول اللّه أحياناً.

خَـدَمـهُ ﷺ

ـ أنس بن مالك (الأنصاري)، خدمه منذ قدومه المدينة حتى وفاته ﷺ. وكانت خدمته بين يديْ رسول الله في السفر والحضر.

ـ عبد اللّه بن مسعود كان صاحب سواكه ونعله، وكان يمشي بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة.

ـ معيقيب الرومي كان صاحب خاتمه.

ـ عقبة بن عامر الجهني كان صاحب بغلته.

ـ أسقع بن شريك صاحب راحلته.

ـ بلال بن رباح كان على نفقاته.

ومن النساء: أَمةُ اللّه بنت رزينة، خولة جدة حفص بن سعيد، مارية أم الرباب، ومارية جدة المثنى بن صالح بن مهران.

مـوالي رسُول اللّه ﷺ

١ ـ زيد بن حارثة تبناه النبيُّ ﷺ حتى نزلت الآية: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ والآية: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

٢ ـ شقران واسمه صالح، وكان عبداً حبشياً لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبيِّ ﷺ فأعتقه.

٣ ـ أبو رافع، وقيل اسمه: أسلم. وصالح كان مولى للعباس بن عبد المطلب، وهبه للنبيِّ ﷺ فأعتقه.

٤ ـ سلمان الفارسي وكنيته أبو عبد اللّه من نواحي أصبهان. وقد تقدمت سيرة حياته في هذا الكتاب.

٥ ـ سفينة (من الفرس)، كان لأم سلمة زوج النبيِّ فأعتقته واشترطت عليه خدمة رسول اللّه. وقيل اسمه مهران وقيل رومان. وكنيته «أبو عبد الرحمن». وقد سمّاه الرسول ﷺ سفينة لأنه حمل أمتعةً للصحابة ثقلت عليهم.

٦ ـ أبو كبشة، واسمه سليم، اشتراه رسول اللّه ﷺ وأعتقه.

٧ ـ رُوَيفع: (أبو مويهبة) اشتراه رسول اللّه ﷺ وأعتقه.

٨ ـ رباح الأسود: كان يؤذِّن أحياناً.

٩ ـ فضالة (من أهل اليمن)، ولم يذكر عنه شيء غير ذلك.

١٠ ـ مِدْعَم، عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد الجذامي لرسول اللّه ﷺ فأعتقه.

١١ ـ يسار: الراعي الذي كان يرعى إبل الرسول ﷺ فقتله العرنيون.

١٢ ـ مهران: مولى آل أبي طالب أعطوه للنبيِّ ﷺ فأعتقه.

١٣ ـ مابور، أهداه المقوقس للنبيِّ ﷺ مع السيدة مارية وأختها سيرين. وكان خصيّاً.

١٤ ـ سندر.

ومن النساء:

أم أيمن، وأميمة، وسيرين قبل أن يتزوجها حسان بن ثابت.

خيله وبغاله وإبله

١ ـ الخيول:

كان له سبعة جياد وهي:

ـ السكب تشبيهاً بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه، وكان كميتاً بين السواد والحمرة، أغرَّ.

ـ المرتجز واسمه مأخوذ من الرجز لحسن صهيله، ولونه أبيض.

ـ اللحيف.

ـ اللزاز.

ـ الظَّرِف.

ـ الورد بين الكميت والأشقر.

ـ سَبحة أي سريع الجري.

٢ ـ البغال:

بغلة شهباء يقال لها (دُلدُل)، وأخرى يقال لها (فضة)، وبغلة

أهداها له المقوقس، وأخرى من دومة الجندل، وأخرى من عند النجاشي.

وكان عنده حمار يقال له (يعفور) نَفَقَ في حجة الوداع.

الإبل:

ناقة يقال لها (القصواء)، وناقة يقال لها (الجدعاء)، وناقة يقال لها (الغضباء). وقيل إن هذه الأسماء الثلاثة تعود لناقة واحدة هي القصواء.

أسـماء الأسلحة

كان لرسول اللّه ﷺ من السيوف تسعة، ومن الدروع سبعة، ومن القسيّ خمسة، ومن الأتراس ثلاثة، ومن الرماح اثنان، ومن الحراب خمسة، ومن الخُوَذِ اثنتان.

السـيوف:

- مأثور: ورثه عن أبيه.
- العضب أي القاطع.
- ذو الفقار.
- الصَّمْصامة: وهو سيف عمرو بن معديكرب.
- القلعي: نسبة إلى برج القلعة وهو موضع بالبالية.
- الحتف أي الموت.
- الرَّسوب الذي يرسب ويستقر في الضربة. ويقال إنه أحد السيوف التسعة التي أهدتها بلقيس لسليمان عليه السلام.

ـ المِخْذَم أي القاطع.

ـ القضيب، (من قضب الشيء: قطعه).

الـدروع:

ذات الفضول (طويلة جداً).

ـ ذَات الوشاح.

ـ ذات الحواشي.

ـ السفرية.

ـ الفضة.

ـ البتراء (لقصرها).

ـ الخِرْنِق (لنعومتها).

القســيّ:

ـ القوس.

ـ الروحاء.

ـ الصفراء.

ـ الزوراء.

ـ السداد.

الأتـــراس:

ترس يقال له «الأزلوق» لأن السلاح يزلق عنه، وترس يقال له «مُنق»، وآخر على شكل تمثال لعقاب، أُهديَ إليه فكرهَهُ ﷺ وأتلفه.

الرمـــاح:

ـ المثْنى.

ـ المثْوى.

الحـــراب:

ـ النبعة.

ـ البيضاء.

ـ العنزة وهي صغيرة تشبه العكاز.

ـ المهر.

ـ النمر.

الخُـــوَذ:

خوذة يقال لها «الموشح»، وأخرى «ذات السبوغ» أو «السبوغ».

المصادر والمراجع

ـ **القرآن الكريم**

ـ **تفسير القرآن الكريم**، مجمع البيان للطبرسي

ـ **تفسير القرآن الكريم**، للطبري

ـ **تاريخ الطبري**

ـ **تفسير القرآن الكريم**، للقرطبي

ـ **تفسير القرآن الكريم**، لابن كثير

ـ **السيرة النبوية** لابن كثير

ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير

ـ **تفسير العياشي**

ـ **لسان العرب**، لابن منظور

ـ **في ظلال القرآن**، للسيد قطب

ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام ، طباعة مصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م

ـ **سيرة ابن إسحاق**

ـ **السيرة الحلبية**

ـ **الكامل**، لابن الأثير

ـ **تاريخ اليعقوبي**
ـ **الملل والنحل**، للشهرستاني
ـ **تاريخ الإسلام**، **المغازي**، الحافظ شمس الدين الذهبي
ـ **تاريخ الخميس**، للديار بكري
ـ **صحيح البخاري**
ـ **صحيح مسلم**
ـ **مسند احمد بن حنبل**
ـ **الترمذي/ المناقب**
ـ **مستدرك الحاكم**
ـ **سنن النسائي**
ـ **سنن ابن ماجه**
ـ **سنن البيهقي**
ـ **سنن أبي داود**
ـ **سنن الدارمي**
ـ **طبقات ابن سعد**
ـ **كشف الخفاء**، للعجلوني
ـ **كنز العمال**، الهندي
ـ **وسائل الشيعة**، الحر العاملي
ـ **أعيان الشيعة**، محسن الأمين
ـ **البحار**، عن تفسير القمي
ـ **مغازي الواقدي**

ـ **المناقب**، لابن شهرآشوب
ـ **السيرة النبوية**، لدحلان
ـ **خاتم النبيين**، محمد أبو زهرة
ـ **عبقرية محمد**، عباس محمود العقاد
ـ **على هامش السيرة**، طه حسين
ـ **حياة محمد**، محمد حسين هيكل
ـ **محمد رسول الله**، محمد رضا
ـ **صور من حياة الرسول**، أمين دويدار
ـ **القرآن وقضاياه**، لبنت الشاطئ
ـ **أحسن الأثر**، سلمان مروة
ـ **الإسلام يتحدى**، وحيد الدين خان
ـ **السيرة النبوية**، للندوي
ـ **سيرة المصطفى**، الحسني
ـ **دراسة في السيرة**، عماد الدين خليل
ـ **الصحيح من سيرة النبي الأعظم**، جعفر مرتضى العاملي
ـ **كتاب الدعوة إلى الإسلام، كتاب الوعي**، أحمد المحمود
ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
ـ **الرحيق المختوم**، الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م
ـ **موسوعة عظماء حول الرسول**، الشيخ عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م

الفهرس

الفصل الرابع
إنشاء الدولة الإسلامية

بين مكة ويثرب ٩

البحث الأول: بناء المجتمع الإسلامي ٢١

بناء مسجد المدينة ٢١
معنى الصلاة وأهميتها في حياة المسلمين ٢٦
بناء سكن رسول الله ﷺ ٣٠
نقطة الارتكاز لإنشاء الدولة ٣٦
المجتمع في المدينة ٤٤
الإسلام طريقة معينة للعيش ٥٩
تحول قبلة المسلمين ٦٠
ظهور النفاق في المدينة ٦٨
وفد نصارى نجران في المدينة ٧٤
بروز أجواء القتال ٧٩
الإذن بالقتال ٨٣
سرايا المسلمين وغزواتهم الأولى ٨٦
غزوة الأبواء ٨٨

غزوة بواط ٨٨
غزوة العُشَيْرة ٨٩
غزوة بدر الأولى ٩٠
سرية عبد اللّه بن جحش ٩١

البحث الثاني: بدر الكبرى ونتائجها ٩٩
الخروج في طلب العير ٩٩
خروج قريش لقتال المسلمين ١٠٨
القرار بقتال قريش ١٠٩
القتال في وادي بدر ١٢١
أهم الآثار والنتائج التي ترتبت على معركة بدر ١٤٤
أحوال الناس بعد معركة بدر ١٦٢
سفارة كعب بن الأشرف إلى قريش ١٦٧
نقض اليهود للمواثيق ١٧٤
إجلاء بني قينقاع ١٧٥
أحوال المشركين في مكة ١٧٨
غزوة السويق ١٨٣
سرية القَرْدَة ١٨٥
أفراح المسلمين في المدينة ١٨٧
زواج النبيّ ﷺ من السيدة حفصة ١٩٧

البحث الثالث: معركة أحد وظلالها ٢٠١
استعدادات قريش للقتال ٢٠١
قرار المسلمين بالقتال خارج المدينة ٢٠٩
القتال في يوم أحد ٢١٦
ظلال آثار غزوة «أحد» ٢٤٧

التطورات التي أعقبت معركة أحد ٢٦٣
غزوة حمراء الأسد ٢٦٥
سرية أبي سلمة ٢٧٣
مقتل خالد بن سفيان الهذليّ ٢٧٤
يوم الرجيع ٢٧٥
سرية بئر معونة ٢٨٠

الفصل الخامس
القضاء على الفتن والاضطرابات

البحث الأول: معالجة الشأن الداخلي وإفرازاتِهِ ٢٨٧
غزوة بني النضير ٢٨٨
غزوة بدر الصغرى ٢٩٣
غزوة ذات الرقاع ٢٩٤
غزوةُ دومة الجندل ٢٩٥
طلاق زيد بن حارثة زوجَهُ زينب ٢٩٦
زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ٣٠٠
غَزوة بَني المصْطلق ٣٠٧
حديث الإفك ٣١٦
زواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث ٣٢٦
زواج النبي ﷺ بزينب بنت خزيمة ٣٣٠

البحث الثاني: غزوة الأحزاب (غزوة الخندق) ٣٣٣
خروج الأحزاب لغزو المدينة ٣٣٨
حفر الخندق ٣٤٠
نقض بني قريظة العهود ٣٤٨

قتل علي عليه السلام عمْرَو بن وَدّ العامريّ ٣٥٤
الرياح تهزم الأحزاب ٣٧٣
سلمان الفارسي وتحرِّيه الحقيقة ٣٧٦

البحث الثالث: غزوات جديدة ٣٨٧
غزوة بني قريظة ٣٨٧
خطأ أبي لبابة بن عبد المنذر ٣٩٢
موت سعد بن معاذ ٤٠٠
غزوة بني لحيان ٤٠٦
غزوة ذي قَرد ٤٠٨
مقتل سلام بن أبي الحقيق ٤١١

الفصل السادس
الأساليب الناجحة

توطئة: نجاح الأسلوب الحربي ٤١٩

البحث الأول: بين السياسة والحرب ٤٢١
الخروج إلى الحجّ ٤٢٣
معاهدة الحديبية ٤٢٦
غزوة خيبر ٤٤٧
فتوحات علي كرم الله وجهه في خيبر ٤٥٢
فتوح الحصون الأخرى ٤٥٩
زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من صفية بنت حيي بن أخطب ٤٧٩

البحث الثاني: انطلاق الدعوة خارج جزيرة العرب ٤٩٥
عمرة القضاء ٤٩٦

قيام المسلمين بفريضة العمرة ٥٠٠
زواج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث ٥٠٥
إقبال وجهاء من قريش على الإسلام ٥٠٩
دعوة الملوك والأمراء للدخول في الإسلام ٥١٤
القرار التاريخي ٥١٥
غُلبت الروم ٥١٩
نص الكتاب إلى عظيم الروم ٥٢٧
كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرىٰ عاهل الفرس ٥٣٣
إسلام بازان حاكم اليمن ٥٣٦
كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ملك الحبشة ٥٣٦
كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر ٥٣٨
زواج النبي ﷺ من مارية القبطية ٥٤١
كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ٥٤٢
كتاب رسول الله ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة ٥٤٣
كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى التميمي حاكم البحرين ٥٤٤
كتاب رسول الله ﷺ إلى ملِكَيْ عُمان جَيْفر وعبد ابْنَيْ الجلندي ٥٤٥
معركةُ مؤتة ٥٤٨

البحث الثالث: فتح مكة ٥٦٥
السرايا بعد مؤتة ٥٦٥
سرية ذات السلاسل ٥٦٦
سرية الخبط ٥٦٧
الأحداث التي سبقت فتح مكة ٥٦٩
غزو بني بكر لخزاعة ٥٧٠
طلب قريش تمديد معاهدة الحديبية ٥٧٣

خطأ حاطب وإعذاره ٥٧٨
بدء المسيرة إلى مكة ٥٨٢
الإفطار في السفر ٥٨٣
بشائر مسيرة الفتح ٥٨٤
ملاقاة العباس للمسيرة ٥٨٦
الفتح المبين: دخول مكة المكرمة ٥٩٢
جماعة من قريش تعترض الدخول ٥٩٤
الأمر بقتل البغاة ٥٩٥
الفاتح الحامد المتواضع ٦٠٠
جاء الحق وزهق الباطل ٦٠٢
تطهير الكعبة من الأصنام ٦٠٣
«اذهبوا فأنتم الطلقاء» ٦٠٤
مفاتيح الكعبة بأيدي بني طلحة ٦٠٥
السقاية في بني العباس ٦٠٧
بعث السرايا لتحطيم الأصنام ٦٠٧
مبايعة الرجال ٦٠٩
مبايعة النساء ٦٠٩
تطبيق الإسلام في مكة ٦١٣
حادثة بني جذيمة ٦١٥

الفصل السابع
مواصلة الجهاد وإكمال الدين ومفارقة الدنيا

البحث الأول: مواصلة الجهاد ٦٢٥
غزوة حنين (غزوة أوطاس) ٦٢٥

غزوة الطائف ٦٣٧
إسلام بني طيء ٦٥٨
موت زينب بنت رسول الله ﷺ ٦٦١
ولادة إبراهيم من السيدة مارية ٦٦٢
بعض مآثر التربية المحمدية ٦٦٣
غَزوَة تَبوك ٦٧٠
هدم مسجد الضرار ٦٨٦
القرآن يكشف السلوك البشري ٦٨٩

البحث الثاني: إقبالُ الناس على الإسلام (قدوم الوفود إلى المدينة) ٧٠٣
وفد أهل الطائف ٧٠٦
وفد همْدان ٧١٧
وفد الأزد ٧١٩
وفد جرش ٧٢٠
وفد بني تميم ٧٢١
قدوم ضِمام بن ثعلبة ٧٢٤
قدوم وفد بني حنيفة ٧٢٦
قدوم مبعوث ملوك حمير (من اليمن) ٧٢٨
وفد الحبشة ٧٣٢
تبليغ الإمام علي آيات من سورة التوبة، وحج أبي بكر بالناس ٧٣٣
وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ٧٤٦
مباهلة وحكم ٧٥٨

البحث الثالث: تنظيم الإدارة ورعاية شؤون الناس ٧٧٩
شؤون الإدارة ٧٧٩
معاذ بن جبل إلى اليمن ٧٨٠

شؤون القضاء ٧٨٣
وجوه أخرى لرعاية شؤون الناس ٧٨٧
حجة الوداع ٧٩١
غدير خم ٨٠٧
علامات الانتقال ٨١١
بعثُ أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين ٨١٥
مرض رسول الله ﷺ ٨١٧
وفاةُ الرسول العظيم والنبيّ الكريم محمد ﷺ ٨٢٦

الخاتمة ٨٤٣

من جوامع كلام رسول اللّه ﷺ ٨٥٥
غزوات رسول اللّه ﷺ وسراياه ٨٦٠
زوجات رسول اللّه ﷺ ٨٦١
أبناؤه وبناته ﷺ ٨٦٢
حُرّاسَه ﷺ ٨٦٣
شعراؤه ﷺ ٨٦٣
مؤذّنوه ﷺ ٨٦٤
خَدَمهُ ﷺ ٨٦٤
موالي رسُول اللّه ﷺ ٨٦٥
خيله وبغاله وإبِله ٨٦٦
أسماء الأسلحة ٨٦٧

المصادر والمراجع ٨٧٠